إريك ميغري

سوسيولوجيا الاتصال والميديا

ترجمة

د. نصر الدين لعياضي

هيئة البحرين
للثقافة والآثار

مكتبة ٣٩٢

مكتبة - 392

سوسيولوجيا الاتصال والميديا

t.me/ktabpdf

مكتبة

إريك ميغري

سوسيولوجيا الاتصال والميديا

ترجمة نصر الدين لعياضي

مراجعة محسن الخوني

الطبعة الأولى: المنامة، 2018

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر، بالضرورة، عن وجهة نظر تتبنّاها هيئة البحرين للثقافة والآثار»

Éric Maigret
Sociologie de la communication et des médias

© Armand Colin, 2003, 2007, 2008, 2013, 2014
pour la présente impression.
© Armand Colin 2014

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة لـ:

مكتبة ٣١ ٢٠١٩

هيئة البحرين للثقافة والآثار
Bahrain Authority for Culture & Antiquities

المنامة، مملكة البحرين، ص.ب.: 2199
هاتف: 298777 17 973+ ـ فاكس: 293873 17 973+
e-mail: info@culture.gov.bh - www.culture.gov.bh

توزيع: منتدى المعارف
بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص. ب.: 113-7494 حمرا ـ بيروت 2030 1103 لبنان
e-mail: info@almaarefforum.com.lb

طُبع في: مطبعة كركي، بيروت، e-mail: print@karaky.com

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: 663/ د.ع./ 2017
رقم الناشر الدولي: ISBN 978-99958-4-086-0

t.me/ktabpdf مكتبة

إريك ميغري

سوسيولوجيا الاتصال والميديا

مكتبة - 392

ترجمة

د. نصر الدين لعياضي

مراجعة

د. محسن الخوني

هيئة البحرين
للثقافة والآثار

t.me/ktabpdf
مكتبة

إلى والدتي

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم
ذكرى لـ نورسين

t.me/ktabpdf مكتبة

المحتويات

شكر 13

مقدمة المترجم 15

مقدمة: السوسيولوجيا ونظريّات التواصل 25

- الاتصال: موضوع ثلاثيّ الأبعاد 27

- الاتصال الجماهيريّ في قلب التساؤلات 33

تمهيد: إنشاء موضوع 47

الفصل الأول: صعوبة التفكير في الاتصال:

ابتذالات وتنديدات وتنبؤات وطوباويّات 49

- الشيء الأعدل قسمة في العالم؟ 49

- عدم الشرعيّة الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة لوسائل الإعلام الكبرى 51

- أشكال النقد المتطرفة 53

- أشكال التبرير المتطرفة 55

- التوتّر بين العقل والتقنيّة في قلب مسألة الاتصال 60

- كلمتا الاتصال والميديا 62

t.me/ktabpdf مكتبة

- الخطاب السوسيولوجيّ 65

الفصل الثاني: منعطف سوسيولوجيا الاتصال المفقود
الآباء المؤسّسون ومسألة وسائل الإعلام 71
- المفاهيم الأساسيّة للعلوم الاجتماعيّة والاتصال 72
- الآباء الأوروبيّون المؤسسون ووسائل الإعلام 77
- غياب الاستئناف والتشاؤم من الحداثة 84
- البراغماتيّة الأميركيّة 88
- مدرسة شيكاغو 97

القسم الأول: نزع الطبيعانيّة عن الاتصال
مشكل التأثير... أو كيف التخلص منه؟ 103

الفصل الثالث: فخ نظريّات الآثار المباشرة
الذعر الأخلاقيّ والسلوكيّة 107
- الخوف من آثار وسائل الإعلام وأصوله 108
- مفهوم الدعاية 111
- آثار المثير و«الإبرة تحت الجلد» 122
- هل الإشهار حُجّة على وجود الاتصال الإقناعيّ؟ 124
- خلاصة 127

الفصل الرابع: مدرسة فرانكفورت ونظريّة الثقافة الجماهيريّة
الشمس السوداء للحداثة 131
- من الثقافة الجماهيريّة إلى الصناعة الثقافيّة 132
- ثقل مرجعيّة الحرب والنخبويّة الثقافيّة 136

t.me/ktabpdf

مكتبة

ـ مشاكل المناهج 139

ـ وَرَثة مدرسة فرانكفورت 142

الفصل الخامس: النظريّة اللازارسفيلديّة للآثار المحدودة

قطيعة... ذات آثار محدودة 149

ـ مصادر الإمبيريقيّة الأميركيّة 149

ـ «اكتشاف النّاس» 153

ـ انتقال المعلومات عبر مرحلتين 157

ـ نظريّة انتشار المبتكرات وتيار الاستخدامات والإشباعات .. 161

ـ الإفراط في الاتجاه الوضعيّ ونسيان الأيديولوجيا 163

الفصل السادس: من الأنموذج الرياضيّ إلى أنثروبولوجيا الاتصال

القياس على علوم الطبيعة والحياة 173

ـ شانون ونظريّة الإعلام الرياضيّة 173

ـ مشروع نوربرت وينر السيبرنيطيقيّ 176

ـ الاتصال، والأخلاق، ونظريّة الكل الفيزيائيّ 179

ـ خداع القياس على الإنسان 182

ـ الالتقاء بالوظيفيّة 185

ـ مدرسة «بالو ألتو» والأنموذج الأوركستري للاتصال 187

ـ خلاصة 191

الفصل السابع: ماكلوهان والحتميّة التكنولوجيّة

نزعة التنبؤ بالقرية العالميّة 199

t.me/ktabpdf مكتبة

- «الرسالة هي الوسيلة» 200
- حجج وأمثلة وأمثلة مضادة 203
- أين تتوقّف التقنيّة؟ 209
- حيلة التاريخ: الماكلوهانيّة بوصفها هرمونيطيقا 212

القسم الثاني: تثقيف الاتصال. لعبة الإنتاج / التلقّي 217

الفصل الثامن: من السيمياء إلى التداوليّة
نظريّة اللغة و/ أو الاتصال؟ 219
- «المنعطف اللغويّ» 220
- اللسانيّات البنيويّة والحلم بعلم شامل للاتصال 222
- سيميولوجيا وسيمياء الاتصالات الجماهيريّة: بارت وإيكو 228
- الإدراج الاجتماعي للخطاب 232
- التحوّل التداوليّ 236
- في ما هو أبعد من الحدّ: الاجتماعيّ 239

الفصل التاسع: سوسيولوجيا الممارسات الثقافيّة
الاستهلاك والتلقّي 247
- الاستهلاك: تراتبيّة الممارسات الثقافيّة من منظور بيار بورديو 248
- مشكل المركزيّة الإثنيّة الثقافيّة 254
- التحوّلات المعاصرة في الثقافة 258
- «من الإقصاء إلى الانتقائيّة» 266
- من الاستهلاك إلى التلقّي 270

t.me/ktabpdf

مكتبة

- تقاليد البحث عن التلقّي 273
- ميشال دو سارتو ومسألة التلقّي 276
- خلاصة 281

الفصل العاشر: الدراسات الثقافيّة
من النقد إلى التلقّي وما بعدهما 297
- ثقافة الفقير: نحو إثنولوجيا الأوساط الشعبيّة 297
- ماركسيّة « ستيوارت هول» الجديدة 300
- أنموذج التشفير/ فكُّ التشفير 302
- الانزياح الأميركيّ 306
- المواقف النظريّة الجديدة: نقد جذري للنخبويّة 307
- تعدّد المعاني والتفاوض المعمَّم حول المعنى 312
- صعوبات «الديموقراطيّة السيميائيّة»
و«النزعة ما بعد الحداثيّة» 317
- بعيدًا في البنائيّة:
منعطفات الشذوذ الجنسي ودراسات ما بعد الكولونياليّة .. 320

الفصل الحادي عشر: سوسيولوجيا مهن الاتصال
ماذا يفعل الصحافيّون؟ 337
- علم اجتماع الصحافة الوظيفيّ: دراسة «صُنْع الأخبار» ... 338
- عودة النقد: الصحافيّون ومحيطهم 342
- مشكل تعدديّة الأهداف 353
- خلاصة: مشهد من دون جمهور؟ 362

مكتبة t.me/ktabpdf

الفصل الثاني عشر: مهن الإنتاج بمنطق متعدد
ضغط التنميط والابتكار في الصناعات الإبداعيّة 371

إدغار موران: التوتّر بين التنميط المعياريّ والابتكار 372

- الاقتصاد السياسيّ:
من الصناعات الثقافيّة إلى الصناعات الإبداعيّة 377

- هوارد بيكر: الإنتاج بصفته تعاونًا 381

- تحدّي الهويّة الفنيّة في زمن وسائل الإعلام................. 386

- هل توجد ديكتاتوريّة جمهور وسائل الإعلام؟ 390

- خلاصة 395

القسم الثالث: لنجعل الاتصال متعدّدًا
الديموقراطيّة والإبداع والتفكُّر 411

الفصل الثالث عشر: النظريّات السياسيّة والرأي العام
هل تمكن العودة إلى الآثار القويّة؟ 413

- آثار الأجندة ولولب الصمت 415

- هل حقًّا تصنع وسائل الإعلام الانتخابات؟ 417

- هل يوجد رأي عام؟ 423

- الاتصال السياسيّ بوصفه تفاعلًا 428

- نحو مفهوم الفضاء العموميّ 430

الفصل الرابع عشر: نظريّات الفضاء العموميّ
من كانط إلى تلفزيون الواقع 435

- نظريّة الفضاء العموميّ لدى يورغن هابرماس 438

t.me/ktabpdf مكتبة

- الفعل التواصليّ 442
- المجال العموميّ وفق نانسي فرايزر 447
- «برامج الحوار الاستعراضيّة»: انحطاط أم إثراء؟ 452
- أشكال التجربة العموميّة 457
- الذهاب إلى نهاية مسار العمليّة التعدديّة 461

الفصل الخامس عشر: السوسيولوجيا الجديدة للميديا
تفكُّر وتجربة ووساطة 473
- الأزمنة الثلاثة لسوسيولوجيا الاتصال 474
- مأزق ما بعد الحداثة 480
- العودة إلى الآباء المؤسسين: منعطف التفكير الانعكاسيّ 482
- من السوسيولوجيا إلى «الدراسات الثقافيّة»... والعودة .. 490
- منهجيّة السوسيولوجيا الجديدة لوسائل الإعلام:
سلسلة المعارف 497
- التلقّي 505
- الإنتاج 508
- المضامين 508
- الفضاء العموميّ 514
- «المنتجات الثقافيّة» بوصفها حركات اجتماعيّة 516

الفصل السادس عشر: الإنترنت و«التكنولوجيات الجديدة للإعلام»
مشكل العودة إلى الأشياء 533
- الإنترنت: وعود وتخيّلات ميديا متشعب 534

مكتبة t.me/ktabpdf

- ما وراء الطوباويّة: ميديا غير متجانس وحامل تقنيّ وحيد 539
- استخدامات الإنترنت 543
- مباراة الشاشات: نهاية التلفزيون؟ 558
- تحوّلات الصحافة وقطاع الموسيقى 563
- مسألة الفردانيّة والجماعات 568
- «الديموقراطيّة الإلكترونيّة» 573
- كاشف إعادة تشكيل سياسيّ 576

خاتمة 595

ثبت تعريفي 601

ثبت المصطلحات: عربي - فرنسي 621

ثبت المصطلحات: فرنسي - عربي 633

الفهرس 645

t.me/ktabpdf

مكتبة

شــكــر

ولد هذا الكتاب من المناقشة مع طلبة العلوم السياسيّة بباريس، وطلبة جامعة باريس الثالثة الذين أسعدني لقاؤهم. وأتمنى أن يكونوا قد استفادوا من فضولي بمقدار استفادتي من حاجتهم إلى المعرفة العلميّة. إنني أدين إلى دومينيك باسكييه (Dominique Pasquier) بتوجّهي إلى سوسيولوجيا الميديا (médias) ودعمِها الفكريّ الدائم لي. وأشكر أعضاء «مختبر الاتصال والسياسة» (المركز الوطنيّ للبحث العلميّ CNRS) على مساعدتي. لقد تغذّت بعض فصول هذا الكتاب من تـردّدي على «ملتقى وسائل الإعـلام والعادات» خصوصًا، الذي اقترحه دومينيك ماهل (Dominique Mehl) ونظمه في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعيّة، ثمّ من المناقشات التي جرت في «ملتقى الدراسات الثقافيّة» (Cultural Studies) الذي نظمه إريك ماسي (Éric Macé) في المدرسة ذاتها (وله كل الامتنان أيضًا على المساعدة التي قدمها لي من خلال مراجعة هذا الكِتاب). وأتوجه بشكري الجزيل إلى سابين شالفون ـ دمرسي (Sabine Chalvon-Demersay) وباتريك لوغالاس (Patrick Le Galès)، فلولاهما ما رأى هذا الكِتاب النور.

t.me/ktabpdf مكتبة

مكتبة t.me/ktabpdf

مقدمة المترجم

هذا الكتاب المترع بالأسئلة والتنقيب يُخلخل المكتسبات «المعرفيّة» في علوم الإعلام والاتصال الراسخة في يقينيّاتها التي تجترّ القول الدائم عن الشيء ذاته بسطحيّة مفزعة. إنها الأسئلة التي ألهمها النقاش الثريّ مع طلبة الإعلام والجدل مع أساتذته في الملتقيات العلميّة، وأنضجتها المراجعة النقديّة لعشرات المؤلفات النظريّة والبحوث الإمبيريقيّة التي جرت في بلدان عديدة وسياقات ثقافيّة واجتماعيّة متباينة وأزمنة مختلفة والتي منها انطلق إريك ميغري في تقديم إجابات، بشكل صريح تارة أو ضمنيّ طورًا، عن هذه الأسئلة المغيّبة في الدرس الإعلاميّ العربيّ، مثل: كيف انزاحت البحوث حول وسائل الإعلام عن دراسة التأثير إلى فهم التفاوض بين المنتج والمتلقّي في محاولة استيعاب إستراتيجيّات الإنتاج المشترك للمعنى؟ وما هو الفرق بين الدراسات البنيويّة (structuralistes) والبنائيّة (constructivistes) في علوم الإعلام والاتصال؟ وما هي التطوّرات التي شهدتها النظريّات النقديّة؟ وأين موطن لقائها بمدرسة الحتميّة التقنيّة وافتراقهما(*)؟ وما هي نقاط التقاطع التي تجمع نظريّة

(*) يمكن الدارس أن يتعمق في الإجابة عن هذا السؤال بالعودة إلى أدبيّات ما أصبح يعرف في فرنسا بـ«الميديولوجيا» (Médiologie) التي يُؤرِّخ لها بصدور =

t.me/ktabpdf مكتبة

الاستخدامات والإشباعات (uses and gratifications) الوظيفيّة بنظريّات الاستخدامات (usages) البنائيّة؟ ولماذا بلغت الدراسات الثقافيّة (Cultural Studies) الولايات المتحدةَ الأميركيّة وبعضَ الدول الآسيويّة قبل أن تصل إلى فرنسا وإيطاليا؟ وماهي الإضافات التي قدمها الباحثون الأميركيّون للدراسات الثقافيّة البريطانيّة؟ وأين تقف «الحدود المعرفيّة» للآليّات التي تنقل بها السيمياء فهم العلامات من الحالة العفويّة إلى المنطق العقليّ؟ وكيف عولج حديثها عن «الغائب» أي الجمهور/ المتلقِّي/ المستخدم في إطار ما أصبح يعرف بـ«الديموقراطيّة السيميائيّة» أو «حرب العصابات السيميائيّة»، على حد قول جون فيسك (John Fiske)؟... وغيرها من الأسئلة الجدالية التي ما كان لها أن تحظى بالتفكير من دون

= نصّ رجيس دوبري (Régis Debray) التأسيسيّ المعنون درس في **الميديولوجيا العامة** (*Cours de médiologie générale*) في 1991، وبمساهمات الكُتّاب الذين شاركوه في مجلتَي **كراسات الميديولوجيا** (*Cahiers de médiologie*) (1996 ـ 2004) و**الميديوم** (*Medium*) منذ 2005. ويستلهم أصحاب هذا التيار، إن جازت تسميته بالتيار، أفكار ولتر بنجامين (Walter Benjamin)، ومارشال ماكلوهان (Marshall McLuhan)، وجيلبير سيموندون (Gilbert Simondon)، وبيار ليفي (Pierre Lévy)، وبرنار ستيغلر (Bernard Stiegler) وغيرهم. وقد سعى هذا التيار إلى تجاوز التعارض بين الثقافة والتقنيّة من خلال البحث في الترابط النسقيّ بين النشاطات الرمزيّة (الأيديولوجيا، السياسة، الثقافة) وأشكال التنظيم، ومنظومات السلطة التي أدخلها هذا النمط الإنتاجيّ أو ذاك، أو نمط الأرشفة وانتقال المعلومات. انظر:

Régis Debray, *La médiologie*, Revue, *Solaris*, n° 1, Presses Universitaires de Rennes, 1994.

t.me/ktabpdf

مكتبة

مقاربة سوسيولوجيا الاتصال ووسائط الاعـلام «مقاربة تاريخيّة وفلسفيّة»: تاريخيّة لأن الكاتب اختار متابعة مسار ظهور نظريّات الاتصال وقراءة تطوّرها في خضم التحوّلات الاجتماعيّة والثقافيّة في المجتمعات المختلفة، وفلسفيّة لأنه ربط هذه النظريّات بالمدارس الفكريّة الكبرى. وقد حرص في مقاربته على منح ما لقيصر لقيصر وما لله لله، بمعنى أنه لم يتجاهل أي تيار سوسيولوجيّ في دراسة الاتصال ووسائل الإعلام، ولم ينتقص جهده الفكريّ ويتحيّفه، بل راح يحفر عن جذوره التاريخيّة والفلسفيّة ويَسْأله ويُحاوِره انطلاقًا من قربه من هذا البارادیغم أو ابتعاده عن ذاك بمنطقي التراكم والقطيعة. إنه المنطق الـذي يحرّر التفكير من سجن المسلّمات والفهم الثبوتيّ، ويستقصي عن الموصول والمفصول في العديد من البحوث والدراسات وأصحابها: بحوث إليهو كاتز (Elihu Katz) مبتدع نظريّة الاستخدامات والإشباعات، وبحوث بول لازارسفيلد (Paul Lazarsfeld)، رائد التفكير في التأثير المحدود الذي تمارسه وسائل الإعلام ضمن الأفق الوظيفيّ، وبحوث ريتشارد هوغارت (Richard Hoggart)، وستيوارت هول (Stuart Hall)، ودايفيد مورلي (David Morley) على سبيل المثال، روّاد التفكير في تلقّي المواد التلفزيونيّة والثقافيّة ضمن الأفق التأويليّ، وتأثير فلسفة جون ديوي (John Dewey) على تنظير هانز يُواس (Hans Joas) للفعل الاجتماعيّ الإبداعيّ في حقل الاتصال.

إن قوة هذا الكتاب تكمن في الحوار الهادئ الذي يقيمه بين التيارات التي أطّرت البحث السوسيولوجيّ في الاتصال والإعلام،

t.me/ktabpdf

مكتبة

وليس في انغلاق صاحبه على أفكاره، وهو، إذ يفعل ذلك، يحسم الصراع الوهميّ الذي شغل، ولا يزال يشغل، دارسي علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربيّة ردحًا من الزمن، أي الصراع بين المدرسة الأوروبيّة ـ الفرانكوفونيّة تحديدًا ـ والمدرسة الأنغلوساكسونيّة، لأنه يكشف عن التقارب الناجح بين الفكر الفرنسيّ في «توهجه» الإبستيمولوجيّ والفكر الأميركيّ في توجّهه التداوليّ والإمبيريقيّ، فيذكّرنا بأن «الدراسات الثقافيّة» الأميركيّة تغذت بأبحاث الكُتّاب والمفكرين الفرنسيّين، مثل: لويس ألتوسير (Louis Althusser)، ورولان بارت (Roland Barthes)، وجان بودريّار (Jean Baudrillard)، وغي دوبور (Guy Debord)، وجيل دولوز (Gilles Deleuze)، وميشال فوكو (Michel Foucault)، وجاك لاكان (Jacques Lacan)، وميشال دو سارتو (Michel de Certeau)، وجان فرانسوا ليوتار (Jean-François Lyotard)، وميشال سير (Michel Serres)... وغيرهم. وبالمقابل نجد أن جلّ الباحثات الفرنسيّات اللواتي حاولن قراءة المنتجات الإعلاميّة والثقافيّة من منظور الجندر والجنسانيّة، مثل جنفييف سيلييه (Geneviève Sellier)، وآن ماري داردينيا (Anne-Marie Dardigna)، ودليبر ماريون (Dalibert Marion)، ومارلين كولون ـ غولي (Marlène Coulomb-Gully)... وغيرهن، قد استلهمن بحوثهن من طروحات كاتبات ورائدات الدراسات النسويّة الأميركيّة، أمثال جوديث باتلر (Judith Butler)، وبتي فرايدن (Betty Friedan)... وغيرهما. وهل يمكن اليوم فهم تحوّلات الفضاء العموميّ الذي نحَتَ مفهومَه

t.me/ktabpdf مكتبة

يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) وطوَّره الفيلسوف الألمانيّ أكسل هونيث (Axel Honneth) من دون العودة إلى كتابات حنّة أرندت (Hannah Arendt) ونانسي فرايزر (Nancy Fraser) اللّتين شككتا في الاكتفاء بالبعد العقلانيّ في تشكيل الفضاء العموميّ، وفي إمكان الفصل التام بين الفضاءين: الخاص والعموميّ؟ ثمّ هل يمكن أن ننكر تأثر الدراسات ما بعد الكولونياليّة التي طورها أبناء المستعمرات بطروحات ميشال فوكو، وبخاصّة مفهومه للسلطة؟

يمكن أن نتساءل لماذا لا نعثر على أي أثر لنظريّات التلقّي في البحوث التي أُنجزت في منطقة الشرق الأوسط عن وسائل الإعلام بحكم حضور اللّغة الإنكليزيّة القويّ في نظامها التعليميّ؟ ولماذا لم تتم الاستعانة بنظريّات الاستخدام في بحوث الإعلام والاتصال التي أُنجزت في منطقة المغرب العربيّ بحكم التبعيّة للّغة الفرنسيّة؟

قد يستهجن البعض مثل هذه الأسئلة، ليس لعدم اقتناعهم بفكرة أن التبعيّة اللغويّة تؤدي بالضرورة إلى تبعيّة «بحثيّة»، بل لإيمانهم بعدم جدواها، أو خطورتها. إنهم يؤمنون بأنّ البحوث التي أُنجزت في الغرب في مجال علوم الإعلام والاتصال أو العلوم الاجتماعيّة بصفة عامّة لا تناسب بيئتنا الاجتماعيّة والثقافيّة وخصوصيّتنا الحضاريّة، لكونها مفرطة في ماديّتها، مغالية في عقلانيّتها وسجينة نزعتها الاختزاليّة. هذا الطرح ليس جديدًا في المنطقة العربيّة، فقد طرحه الكثير من الباحثين في العلوم الاجتماعيّة، مثل عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، الذي ألمّ بمنجزات علم الاجتماع الصادرة

t.me/ktabpdf

مكتبة

باللّغة الإنكليزيّة في عصره لكنه لم ينف إنجازات العلوم الاجتماعيّة، بصرف النظر عن منابتها الجغرافيّة، ولم يطعن في مقاربتها المنهجيّة وأدواتها البحثيّة، بل لاحظ قلة اهتمام الباحثين العرب بقضايا مجتمعاتهم، وعدم التفكير فيها من منطلق خصوصيّتها.

إن هذا الاستهجان في حاجة إلى نقاش، قَصْدَ توضيح خطورته. ولذلك لا بد من القول إن من يقرأ هذا الكتاب يدرك أن سوسيولوجيا الإعلام كما مُورِست في الدول المتقدمة، لم تُغفل ما يعتقد البعض أنها أغفلته، فأتباع ماكس فيبر (Max Weber) المعاصرون لا يزالون يعتقدون أن كل فعل ذي معنى بالنسبة إلى الفرد هو فعل «عقلانيّ». وأصحاب نظريّة تأثير وسائل الإعلام المحدود والانتقائيّ، على سبيل المثال، يحشدون مجموعة من المتغيّرات التي تتحكم في هذا التأثير الذي تمارسه وسائل الإعلام، بدءًا بالفروقات الاجتماعيّة والتعليميّة التي تميّز جمهورها، وصولًا إلى تبايناته الثقافيّة ومعتقداته الدينيّة واستعداداته النفسيّة، إضافة إلى وجود الوسيط المتموقع بين المرسل (المؤسسة الإعلاميّة أو المتصل) والجمهور أي الطرف الثالث ذي المكانة الاجتماعيّة والاعتباريّة أو المعرفيّة في شبكة الروابط الاجتماعيّة. هذا في حين أن الكثير من البحوث التي جرت في المنطقة العربيّة انحازت منذ البداية إلى تأثير وسائل الإعلام الموحد والمطلق والقويّ، وتجاهلت فاعليّة الاتصال الشخصيّ والروابط الاجتماعيّة التي تتدخل في تحديد العلاقة بوسائل الإعلام، ناهيك بارتفاع منسوب الريبة في ما تبثه هذه الوسائل. هذا إن غضضنا الطَّرْف عن ضعف مصداقيّة الكثير منها لدى قطاع واسع

t.me/ktabpdf مكتبة

من الجمهور، وعن قفزها على أشكال مقاومة ما يُعتقد أنه مهيمن في رسائل الإعلام والمواد الثقافيّة، والتي أوضحها بشكل مبتكر ميشال دو سارتو في كتابه **ابتكار الحياة اليوميّة: فنون الأداء العمليّ** (*L'invention du quotidien: Arts de faire*) الذي أفرد له إريك ميغري حيزًا كبيرًا في هذا الكتاب. بالطبع، لا ينطبق هذا القول على كل البحوث التي نشرت في المنطقة العربيّة، لكن الكثير منها استنفد منطقه قبل الشروع في البحث، وقد يكون بلغ المُنتهى قبل أن يبرح نقطة الانطلاق، على حد تعبير صاحب هذا الكتاب. ولتوضيح هذه الفكرة، يمكن أن نورد المثال التالي: انطلق الكثير من البحوث التي تناولت موضوع مواقع الشبكات الاجتماعيّة في المنطقة العربيّة من منطلق نظريّة الاستخدامات والإشباعات، وعرَّفها بأنها مواقع للتواصل، وهو تعريف صائب، وعلى أساسه صُممت الاستبانة المُوجَّهة إلى المبحوثين، متضمِّنة إجابةً عن الدافع من استخدام هذا الموقع أو ذاك من مواقع التواصل الاجتماعيّ، وهو الاتصال. وبعد تفريغ الاستبانة وتحويلها إلى معطيات إحصائيّة، يستنتج الباحث أن المبحوثين يستخدمون الموقع المدروس لتلبية حاجتهم إلى الاتصال! وهنا يتوقف البحث، بينما المطلب العلميّ يستدعي من الباحث الشروع في بحثه انطلاقًا من هذه النقطة التي يعتبرها نتيجة، وهي النقطة التي حركت فكر الكثيرين من رواد السوسيولوجيا منذ مطلع القرن العشرين، مثلما يؤكّد صاحب هذا الكتاب. ومن هؤلاء، على سبيل المثال، كولي (Cooley) وديوي وليبمان (Lippmann)، ويورغن هابرماس، الذين توجّهوا إلى معالجة الكثير من القضايا،

t.me/ktabpdf مكتبة

مثل الاتصال وبناء المجتمع، والاتصال وبناء العلاقات الاجتماعيّة وتداعياتها الثقافيّة، والاتصال والتكنولوجيا، والاتصال وآليّات بناء تصورات عن العالم الخارجيّ، والاتصال والدولة والمجتمع، والاتصال وحدود الحياة الخاصة والعامّة، والاتصال وبناء الذّات وسردها... فالاتصال ليس مجرد كلمة أو ممارسة تقنيّة محضة، إنه مفهوم ومبحث شائك تناوله الكثير من الفلاسفة لمساءلة أبعاده المعرفيّة واستجلاء تبعات العلاقات بين الذاتيّات في إطار ما يسميه هابرماس «العقل التواصليّ».

مكتبة

هناك مفارقة: فأمام تزايد الحديث عن تأثير تكنولوجيات الاتصال المعاصرة ووسائل الإعلام في المجتمعات العربيّة، اختفت مواد «سوسيولوجيا الإعلام» في الخطط الدراسيّة في أقسام الاتصال الجماهيريّ وكلياته في المنطقة العربيّة، وغابت فيها مؤسسات البحث ودراسة جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي وسائط الاتصال المعاصرة. في ظل هذا الاختفاء والغياب يظلّ الخوف من وسائل الإعـلام، وحتّى الذعر من تأثيرها ماثلًا، بل يتجدّد بتناوب ميلاد وسائل الإعـلام: من الإذاعـة إلى القنوات الفضائيّة، وصـولًا إلى الإنترنت ومنصات الاتصال الاجتماعيّ الافتراضيّ، وربما تحوّل هذا الذعر محاكمةً مستأنَفة لوسائل إنتاج الإعلام والثقافة وحوامل بثها المتعددة، إن لم يكن تنديدًا بها، وإن كان الواقع ينبهنا إلى انفصال المحمول عن الحامل لأول مرّة في التاريخ. ومن هذا الذعر والتنديد يستمد السؤال التالي مشروعيّة طرحه: هل تنطبق على ما نكتبه عن وسائل الإعلام ووسائط الاتصال في المنطقة العربيّة شروط الانتماء

t.me/ktabpdf مكتبة

إلى الجماعة العلميّة العالميّة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي الشروع في النقاش المغيَّب في البلدان العربيّة: ما هي معايير علميّة التفكير في وسائط الإعلام والاتصال في المجتمعات العربيّة؟

لعل المترجم هو أول من يدرك بساطة ما قاله أبو الفتح عثمان بن جني في وصفه اللغة، عندما أَكَّد أنها أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم، لأن متاعب هذا المترجم تتكاثر مع مجالدته الكلمات منقِّبًا عن هذه الأغراض. إن الاختلاف في ترجمة بعض المفردات والصيغ التعبيريّة لا يكشف عن خلاف لسانيّ بمقدار ما يخفي اختلافًا في الفكر والتصور، فوراء ما نعته ابن جني بأنه أصوات تقبع «مؤسسة الحقيقة» التي يعتمد عليها مجتمع ما في فهمه ذاته والسيطرة على العالم من حوله.

لقد قيل الكثير عن الترجمة، وأُلحق بها الكثير من النعوت، منها الخيانة (خيانة الكاتب أو النصّ)، والغزو (غزو النصّ أو اللّغة)، إلى درجة أن الكثير من المترجمين يضطرون إلى الاعتذار للقارئ، ومن ورائه الكاتب على «ما ارتكبوه من خيانة أو ما غنموه في الغزو»، أو لأنهم قالوا أكثر ممّا تسمح به لغتهم أو أقلّ مما سمحت به اللغة المُترجَمة، أو العكس. لكن لا أعتقد أن هذا الاعتذار يخفف ما يشعر به المترجم إلى اللّغة العربيّة من كبت وضيق لأنه يتصدى لنقل تَمَثُّلات ومفاهيم ومصطلحات «بكر»، فما يشير إليه الكثير من المفاهيم التي اشتغل بها إريك ميغري أو اشتغل عليها في هذا الكتاب لم يطأه التفكير في الممارسة الإعلاميّة والفعل الاتصاليّ في

مكتبة t.me/ktabpdf

المنطقة العربيّة، فاضطر المترجم إلى البحث عن متصرِّف القول، بدءًا باستخدام عبارة الميديا (média) في عنوان هذا الكتاب بدل «وسائل الإعـلام». والحقيقة أنّنا لم نستعمل هذه العبارة من باب الاختلاف، بل من باب السعة، بمعنى أن اختيار الميديا لم يأتِ من باب تقريب اللفظ من اللغة الأجنبية ومطابقتها، بل لأننا نرى أن هناك اختلافًا بين مفهومَي «وسائل الإعلام» و«الميديا»، فمفهوم وسائل الإعلام يتضمّن قيمة مركزيّة، وهي البث والإرسـال، بينما مفهوم الميديا يروم إقامة علاقة، فالميديا مشتقة من الوساطة (médiation) التي تعدّ مفهومًا أساسيًّا في السوسيولوجيا تعيِّن شكلًا من العلاقات الاجتماعيّة والاشتغال على نظامه، وتتضمّن تصورًا للذّات والغيريّة. ومع هذا، حرص المترجم على الاحتفاظ بعبارة وسائل الإعلام في بعض مقاطع هذا الكاتب بمقتضى الحال.

وقد أدرج المترجم في هامش المتن بعض الشروح والتعليقات من أجل استجلاء غوامض المفردات التي وردت في سياق حضاري وثقافيّ ولسانيّ يَعتقد أنه بعيد عن القارئ العربيّ، واستفتاح ما استُغلق على الفهم من المفاهيم والمصطلحات.

t.me/ktabpdf مكتبة

مقدمة

السوسيولوجيا ونظريّات التواصل

يمكن أن يُقرأ هذا الكتاب بصفته مدخلًا إلى نظريّات الاتصال. إنه يقترح سلسلة من الإيضاحات تتّصل بمباحث علميّة وترتيبها الزمنيّ حول تيّارات فكريّة. حاولت في الكتاب إبراز مساهمات مختلف التيارات البحثيّة، و«تداخلاتها» الممكنة، وحدود كل تيار أي إنني سعيت إلى تحديد العناصر التأسيسيّة لكل تقليد من تقاليد البحث الكبرى التي تشكل جوهر الكتب التعليميّة، واحتفظت بالرؤية التاريخيّة لتسلّط الأضواء على تطوّر النظريّات والتزام أصحابها. إن قُراء هذا الكتاب العجولين أو المطالبين بتكوين متدرّج يبدأ من الأقلّ إلى الأكثر تعقيدًا، سينتقلون من قراءة الفصل الأول في هذا الكتاب إلى الفصل الثالث ثمّ الفصول التي تليه، كي يتجنبوا مواصلة قراءة بقيّة هذه المقدمة ويتفادوا ما يثيره الفصل الثاني من نقاش حول تأسيس العلوم الاجتماعيّة. لكني أنصح بقيّة القراء بمتابعة القراءة بدءًا من هذه المقدمة، نظرًا إلى وجود خيط طويل يمسك مختلف فصول هذا الكتاب. أعتقد أن ما نسميه اليوم «اتّصالًا» قد عرف ربيعًا مبكرًا في منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين، في الوقت الذي تشكلت العلوم الاجتماعيّة، حيث تمّ جرد مختلف أبعاد ظاهرة الاتصال والاشتغال عليها بطريقة مفتوحة. لكن هذا الربيع تحوّل

t.me/ktabpdf مكتبة

بسرعة، لأسباب مختلفة، إلى خريف طويل وقاسٍ، بفعل ما تؤكده النظريّات الاختزاليّة القائمة على فكرة قيام وسائل الإعلام بالتضليل الذهنيّ أو اختزال التواصل البشريّ في الاتصال الآلي.

يجب أن يستند تاريخ نظريّات الاتصال إلى الاستذكار، مثل استقصاء الوضع الصحّي السابق لمريض من أجل معرفة أسباب دائه. هذا لا يعني أن الدراسات التي خُصّ بها الاتصال الآلي لم تكن مفيدة، بل كانت مفيدة، لكن تجب إعادة إدراجها في فضاء ليس بالضرورة فضاء الاتصال البشريّ، وتطهيرها من كل التخيُّلات عن عالم البشر، مثلما كان بالإمكان أن يحدث هذا تدريجيًّا في العلوم الاجتماعيّة منذ منتصف القرن العشرين. إنني أطمح إلى الدفاع عن وجود سوسيولوجيا التواصل في وجه النزعة التكنولوجيّة الاختزاليّة، ولكن أيضًا في وجه الخطابات المابعد حداثيّة، والتي تبطل اليوم أهدافها عندما تركّز على عنف تخصصٍ أصبح بدوره اختزاليًّا وعلماويًّا(*). وأذكّر بأن التوجّه الوظيفيّ والنزعة السوسيولوجيّة ليسا من مشاريع السوسيولوجيا لكنهما مظهران من مظاهرها التاريخيّة فقط، فليُسمح لي بتقديم البرهان التاريخيّ وتلخيص ما أريد توضيحه عن السوسيولوجيا في علاقاتها بموضوع الاتصال في الجزء الأخير من هذا الكتاب، لغاية تعليميّة، متمنيًا إبراز ملامحها من خلال مقاربة تقوم على توصيف نزاع البارادیغمات (paradigmes).

(*) العلماويّة: يُقصد بها (scientisme). [الهوامش المشار إليها بنجمة (*) هي من وضع المترجم].

الاتصال: موضوع ثلاثيّ الأبعاد

تعود صعوبة التفكير في الاتصال إلى الظروف التاريخيّة الاستثنائيّة، فالحروب العالميّة ـ على سبيل المثال ـ عزّزت الشعور بأن وسائل الإعلام كانت هيئات للمراقبة والتضليل، وترجع أيضًا إلى أنه يبدو من الصعوبة بمكان تعريف موضوع الاتصال ذاته تعريفًا علميًّا دقيقًا، فكلما استولى الباحثون من كل التخصصات العلميّة («علوم دقيقة» أو «إنسانيّة») والسياسيّون والصناعيّون والمختصّون في المعلوماتيّة والصحافيّون والجمهور العريض، بشكل تدريجيّ، على مفهوم الاتصال، أصبح هذا الأخير أكثر اتساعًا وأضحى لا يغطي اليوم شيئًا منسجمًا، فأمسى يدلّ على الإرسال والتعبير والتسلية والمساعدة على البيع والتنوير والتمثيل والمداولة. لقد غدا تعريف الاتصال بمثابة لعبة خفة اليد التي تُدار بين عوالم متنافسة، فكل عالم يسعى إلى فرض تعريفه الاتصال وفق المصالح التي ترافقه، أو ـ على الأقلّ ـ من أجل توسيع حدود إقليم عالمه. لقد تفوق المروِّجون لاتصال الآلات أو المنافحون عن الاتصال التجاريّ في هذا التنافس، وتجاوزهم التطوّر الكبير الذي شهده عالمهم منذ أزيد من قرن.

ومن أجل معالجة هذا الغموض في مفهوم الاتصال والخلل في التعاريف المقدمة له، ثمّة موقف شائع يتمثّل في فهم الاتصال من خلال التوتّر بين العقل والتقنيّة (انظر الفصل الأول). إن مسألة الاتصال بالنسبة إلينا، نحن المعاصرين، هي إعادة صياغة المعركة القديمة بين المثاليّين والسفسطائيّين. إننا نملك من جهةٍ الأدوات لبث المواد الإعلاميّة بكل النجاحات المرتبطة بكفاءة الأداء والفاعليّة،

t.me/ktabpdf مكتبة

وتوجد من جهة أخرى الرهاناتُ المعياريّة التي تقتسمها الجماعة التي تروم المُثُل العليا والمتمثلة في إشراك أفرادها في نعمة العقل من خلال سعة التبادل بينهم، فهذا التعريف يملك ميزة بيداغوجيّة لكلّ ثنائيّة، وكذلك في عدم العودة إلى القرن الماضي حين ورثنا هذه الثنائيّة عن الفلسفة القديمة. بيد أن هذا التعريف يلوّثه النقص الذي يلام عليه كل التقليد الميتافيزيقيّ من جانب الفيلسوف كانط (Kant) أو نيتشه: إنّه تعريف يؤمن بوجود عالم مطلق يعارض عالم الظواهر الوهميّة. إن أهميّة الثورة التي أحدثتها العلوم الاجتماعيّة في أواخر القرن الـ19 تجلت في استعاضتها عن التوصيف النزاعيّ وعديم الجدوى بعالم أكثر اكتمالًا واستمراريّة يتصرف فيه النّاس بالرجوع إلى أهداف متنوّعة، أدواتية ومعياريّة وتعبيريّة، من دون حدوث فجوة أساسيّة بين نظمه، فرِجْلا الإنسان ليستا غارقتين في وحل التقنيّة ورأسُه مرفوع في السماء بحسب النظرة الاختزاليّة والمانويّة(*).

وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة في تحديد كلمة «الاتصال»، فمن الضروريّ الانطلاق من وجهة نظر مغايرة للفلسفة المثاليّة أو السفسطائيّة، واعتبارها محدِّدًا لفضاء ثلاثيّ الأبعاد نسكنه على الدوام ويستحثّنا داخلَه مؤسسو العلوم الاجتماعيّة ووَرَثَتُهم كلّ بحسب طريقته: ماكس فيبر عبر إشارته إلى وجود ثلاثة مستويات للمشروعيّة،

(*) المانوية (manichéen): نسبة إلى ماني مؤسس ديانة سادت في بلاد الفرس في القرن الثالث الميلادي، ترى أن النور والظلام متواجدان من دون أن يختلطا. وللتبسيط والتسطيح نقول إن الفكر أو الفعل مانوي عندما يرى أن الشر والخير مفصول أحدهما عن الآخر، وحدودهما واضحة، فلا لون بين الأبيض والأسود.

t.me/ktabpdf

مكتبة

وتشارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce) عبر كلامه عن التمفصل الثلاثيّ للعلامة(*)، ثم جورج هـ. ميد (George H. Mead) وبلومر (Blumer) اللذان طورا ثلاثيّة المواضيع(**). وميّز يورغن هابرماس ويُواس لاحقًا ثلاثة أنواع من الأفعال. ولا يوجد توافق حول المحتوى والشكل الدقيقين لهذه الأبعاد الثلاثة. وأدافع من جهتي عن فكرة أن الاتصال ظاهرة «طبيعيّة»، و«ثقافيّة»، و«إبداعيّة»، بحسب الترتيب التصاعدي لهذه الصفات. وتتناسب هذه المستويات الثلاثة مع مستويات انخراط الإنسان في عالم الأشياء والعلاقات بين الأشخاص والنظم الاجتماعيّة والسياسيّة. ويمكن أن نقدم التعريف الأوليّ للمستويات الثلاثة بالاستعانة بثلاثيّة بيرس.

- المستوى **الطبيعيّ** أو **الوظيفيّ**، وهو مستوى الآليّات الأساسيّة التي تسلّم بها العلوم التي تُسمى «دقيقة»، وإن كانت لا تقتصر عليها.

(*) يُقصد به التدليل (semiose) أي الكل المتكامل من الأبعاد الثلاثة: العلامة والسياق والدلالة.

(**) تُحدّد هذه الثلاثية كالتالي: A ـ يرى هانز يُواس أن الفعل الاجتماعيّ نادرًا ما تحدده مسبقًا الغايات. B ـ خلافًا للاعتقاد السائد بأن الجسد وسيط للفعل، يبدو أنه يتمتع بغائية تفلت أحيانًا من مراقبة الوعي، مثل الضحك، والبكاء والمظاهر الفيزيائيّة للخجل. C ـ الفعل الفرديّ ليس وليد تصرف شخصي مستقل ذاتيًا، فالفعل يتجلى عبر الحياة الاجتماعيّة لكنه يتمتع بقدرة على الابتكار والتجديد عندما تعجز الرتابة عن مواجهة الأوضاع غير المنتظرة. انظر:

Déchaux Jean-Hugues, *L'action rationnelle en débat. Sur quelques contributions et réflexions récentes*. In: Revue française de sociologie, 2002, 43 - 3. pp. 557 - 581.

t.me/ktabpdf

مكتبة

يُفسَّر فعل تبادل الإعلام والممتلكات والأوضاع بقوانين وعلاقات سببيّة. إنه مستوى الشيء ذاته من ذاته، «الواحد»، وتحصيل الحاصل: أ يساوي أ، إنه مستوى مطابقة الفكر والعالم إن كانت ممكنة.

- المستوى **الاجتماعيّ والثقافيّ**، وهو مستوى الاثنين: أ يساوي أ، لكن أ يختلف عن ب. بعبارة أخرى إنه مستوى التعبير عن الهُوِيّات والفروق والاختلافات، وحدود الجماعات وعلاقاتها. وتحيل الهُوِيّة إلى مفهوم الاقتسام والتشارك، بينما يحيل الاختلاف إلى مفاهيم التراتبيّة والنزاع. ويغطّي مشكل الهُوِيّات مشكل المصالح والإستراتيجيّات وتعابيرها الرمزيّة: الاعتراف بالانتماء إلى مجموعة والاختلاف عن مجموعة أخرى على مستوى الممارسات والأفكار. ويفترض هذا المستوى وجود حوار أو توتّر غير مطلق بين الجماعات يؤسس لعلاقة السلطة/ الثقافة.

- مستوى **القدرة على الإبداع** (نستعمل تعبير جون ديوي)، ويكمن داخل أنظمتنا الديموقراطيّة في العدد وفي تمثيله وتعديله ضمن إطار قانونيّ وسياسيّ موسّع. إنه مستوى الثلاثة واللامنتهي من العلاقات المعمِّمة للمعنى بين الأفراد والمجموعات، إلى أقصى حدود تعبير العلاقات بين البشر. إن أ مختلف عن ب، وإنّ أ وب مختلفان عن س... وهكذا. ويُنظر إلى الاتصال كنشاط معياريّ وأخلاقي وسياسيّ، وكعلاقة دينامية بين السلطة والثقافة والاختيار الديموقراطيّ.

يتمثّل الاتصال في استدعاء الأشياء، والعلاقات الاجتماعيّة، والنظم السياسيّة. وتقترح كل نظريّة اتصال عناصر مركبة غير قابلة

t.me/ktabpdf مكتبة

للتجزئة لحظتها: أنموذجًا من التبادل الوظيفيّ بين البشر، ووجهة نظر حول علاقاتهم بالسلطة والثقافة، ورؤية للنظام السياسيّ الذي يوحدهم. إن الكُتّاب الذين أهملوا مُساءَلة بُعد من هذه الأبعاد عرَّضوا أنفسهم عمليًّا للدفاع عن وجهات نظر ضمنيّة متعلّقة بهذا البعد، فإن كانت كل نظريّة تقدم إنارة مخصوصة للعالم، وللعناصر البسيطة التي تسمح باستنباط تركيبه وتعقده أي النماذج، فإنها تُعدّ أيضًا مركبًا من افتراضات علميّة أيضًا، ووجهات نظر أيديولوجيّة وأخلاقيّة وسياسيّة. ويعني نسيان طرح النظريّة في هذا البعد أو ذاك من الأبعاد الثلاثة، التعرضَ لعودة المكبوت. ويوضّح تاريخ تيارات البحث هذه النقطة إلى درجة الإشباع.

يكمن أحد أعظم التحديات الفكريّة في معرفة تمفصل هذه الطوابق والعلاقة بين العوالم الثلاثة والفصل بين ما هو طبيعيّ وثقافيّ وسياسيّ. ولا يعبر ذلك عن ثلاثيّة أساسيّة، بل يكشف عن التصور الذي نملكه اليوم عن مستويات الصعوبات والرهانات المرتبطة بالاتصال. وفي مرحلة ما، يمكن كل مستوى اتصاليّ أن يكون مستقلًّا ذاتيًّا. وتخضع وسائل الإعلام لحتميّة ماديّة: على رغم التقارب بين التلفزيون والسينما، فإن نقلهما الرسالة ذاتها يعني نقل رسالتين مختلفتين.

إنّ دراسة مكانة وسائل الإعلام في نمط خاص من الحياة يمكن أن تتم على مستوى القيم والعنف الاجتماعيّ وحده، والتفكير في السياسة والقانون يتم من دون إحالة جوهريّة إلى ظروفنا الماديّة

t.me/ktabpdf

مكتبة

والاجتماعيّة، على رغم أنه لا مجال للشك في أن لحظة استقلال المستويات المذكورة ذاتيًّا محدودة جدًّا، لذا ليس من باب الفذلكة اللغويّة القول إن مستويات الاتصال تتصل، فأن نضع الإكراهات والعادات والتكرارات في سجل الحتميّات من أجل رفض كل توجّه مثاليّ هو نوع من الماديّة الواسعة والمأمولة، والغاية هي رفض كلّ توجّه مثاليّ، على الرغم من أن هذه الماديّة ليست سوى منهجيّة تنبع أوّلًا من تصور سوسيولوجيّ، ولا يمكن أن تخفي الحقيقة التي تنصّ على أن الظواهر الإنسانيّة لا يمكن اختزالها في آليّات طبيعيّة يُنظر إليها على أساس أنها حتميّة. لقد أوضحت أن أهميّة مستويات الاتصال ذات قيم تصاعدية حسابيًّا، وهذا ليس من باب الدفاع عن فكرة سمو علم على آخر (كل علم يرتبط بقطاع متخصص إلى حد ما)، وليس بغرض إثارة صعوبة كبرى في دراسة هذا المستوى أو ذاك، بل للتأكيد على درجات حصافة مستويات الإنسان الثقافيّة والسياسيّة. ويُعدّ الاتصال قبل كل شيء حدثًا ثقافيًّا وسياسيًّا وليس تقنيّة، وهذا من دون رفض رؤية للطبيعة مفيدة لترويض العالم وفهم جزء من «طبيعتنا» الخاصّة في آنٍ واحد، لأن الإنسان ببساطة يوجد في هذا الجانب من مرآة العالم والمسمّى الفعل والمعنى. إن الكون يميل بالنسبة إلينا نحو هذا الاتجاه وليس نحو ذاك، إنه يتوسّع في اتجاه الاختيار والوعي وليس في اتجاه الموضعة أي جعلها موضوعيّة. هذا الافتراض، الذي لم يُفنّده إلى حدّ الآن أي تقدم في العلوم البيولوجيّة أو الفيزيائيّة دليل ثمين للدراسة، إذ يسمح بفهم لماذا لم يتم التفكير في التقنيّة ضمن إطار الحتميّة الناجمة عن المادة،

t.me/ktabpdf
مكتبة

ولماذا تُظهر الإعلام في وظائفها كعناصر اجتماعيّة وأنظمة منفصلة عن الطبيعة. وعندما يصنع الإنسان المواد التقنيّة ويستخدمها فإنه يغادر حقل الطبيعة، حقل الأشياء من دون حياة، إلى حقل الثقافة. ولا تُقوَّم التقنيّة إلا كتحوير للطبيعة، إنها مشكل اجتماعيّ على رغم أبعادها الوظيفيّة.

الاتصال الجماهيريّ في قلب التساؤلات

لقد تمّ التركيز في النظر إلى الاتصال منذ قرن من الزمن، على وسائل الإعلام جرّاء حداثتها البديهيّة، ولبروزها الصاخب في الحياة اليوميّة لأغلب الأفراد، بداية من نهاية القرن التاسع عشر. ويتمثّل السبب الآخر للنجاح في كونها تعدّ الحدث الاتصاليّ الأكثر أصالةً، والمحدِّد الأكبر للمجتمعات التي أصبحت تُعرف في غالبيّتها بالديموقراطيّة. إنها تثير في آن التساؤلات الثلاثة عن عالم انتماءاتنا، من خلال إمكان إقامة علاقات سريعة ودائمة بين الشعوب والثقافات بواسطة الصور والنُّصوص والأصوات. وهذا بإحداث قطيعة مع وسائل الإعلام السابقة والأنظمة السياسيّة السالفة، ففي هذا الإطار تُعّد وسائل الإعلام قضية القرن الكبرى. والتفكير في التغيّر الأكثر دلالة في العصر هو التفكير في وسائل الإعلام. ويمكن من وجهة النظر هذه التمييز بين خمس مراحل كبرى في التفكير: بَعد اللحظة التدشينية والمُؤَسِّسة للعلوم الاجتماعيّة، أو بالأحرى لحظة الصفر، نظرًا إلى غياب تراكم حقيقيّ للبحوث، توالت الأفكار التي وسعت تعريف مسار الاتصال إلى الأبعاد الثلاثة التي تميّزه عبر موجات منتظمة.

t.me/ktabpdf مكتبة

نهاية القرن 19 وتعثّر انطلاق سوسيولوجيا التواصل

نجد في كتابات ماركس (Marx) وتوكفيل (Tocqueville) ودوركايم (Durkheim)، وفيبر وغيرهم من الآباء الأوروبيّين مؤسسي السوسيولوجيا، بشكل مباشر أو غير مباشر، غالبيّة العناصر الضروريّة لتحليل معقد ومركب لوسائل الإعـلام التي تعكس الطروحات الساذجة للتأثير الضارّ على المجتمعات الخاضعة لوساطة وسائل الإعـلام. ويمكن أن نستنتج مع هـؤلاء الكُتاب العناصر المشكلة لوجهي المعضلة النظريّة، والتي تأخذ مسمى: الهيمنة الأيديولوجيّة / الثقافة، النزاع / الديموقراطيّة (انظر الفصل الثاني). وعلى رغم ذلك، فقد كان فكرهم تابعًا لنزعة تشاؤم من الحداثة التي أعاقت تطوّر تقليد قويّ للبحث في أوروبا. إن مسار العلمنة، والانتقال إلى العالم المصنّع، والعودة إلى الديموقراطيّة... كلها عوامل منحتهم شعورًا قويًّا إلى أبعد حدّ (anomie) بالقلق نلمسه في مفاهيم نزع الطابع السحريّ والاغتراب، وحالة تفكك(*) لا تناسب كثيرًا دراسة وسائل الإعلام التي

(*) أنوميا (Anomie): تعني في العلوم الاجتماعيّة «حالة عدم الاستقرار والتفكك الاجتماعيّ الناجمة عن انهيار المعايير والقيم الاجتماعيّة، أو الافتقار إلى الهدف والمثل العليا. دخل هذا المصطلح إلى السوسيولوجيا على يد عالم الاجتماع إميل دوركايم عام 1897، في كتابه **الانتحار**، واقتبسه من الفيلسوف الفرنسيّ جان - ماري غويو. تتجلى حالة الأنوميا في التفكك التنظيميّ لمؤسسات المجتمع وانهيار المعايير والانفصال بين الأهداف الاجتماعيّة المعلنة والوسائل الصحيحة لتحقيق هذه الأهداف، والتناقض الفاضح بين ما يشاع من أيديولوجيات رسمية وما يجري على أرض الواقع. ويشعر المرء سيكولوجيًا بالاغتراب والعبثيّة والانهيار الأخلاقيّ ما ينعكس سلبًا وعزلة وانحرافًا. انظر : جي. جي. كلارك، **التنوير الآتي من الشرق**، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، 346، ديسمبر 2007، ص59.

تعد مواضيع جديدة، ومقلقة، ومن المحتمل أن تكون تابعة للسلطات. ومقارنة مع ما سبق، فإنّ الكُتّاب الأميركيّين، من بيرس إلى ديوي، مرورًا بروبرت إ. بارك (Robert E. Park) وميد، قد اقترحوا رؤى للظاهرة الاتصاليّة الجديدة تتّسم بدرجة أقلّ من القلق، حيث وضعوا نماذج أكثر اكتمالًا لعلاقة التبادل وبروتوكولات إمبيريقيّة لدراستها، فأنشؤوا بذلك مناخًا فكريًّا مناسبًا لإقامة مدارس بحثيّة في هذا البلد.

هاجس المواضيع: زمن القلق المتعدّد و«الآثار»

لقد غطّى على أصوات هؤلاء الكُتاب، أو على بعض أعمالهم فقط، بدايةً ضجيجُ الأسلحة في الحربين العالميّتين، والافتتانُ بانتشار التقنيّات والشبكات الاقتصاديّة، أو تنديد «مقاولي الأخلاق» بالثقافة الجديدة التي تبدو في انتشارها مثل مرض. وعلى رغم حضور الأبعاد الثقافيّة والسياسيّة في الأفكار الأكثر انتشارًا في القرن العشرين، فإنّها قد وُسمت بهاجس العُدّة التقنيّة وبتشغيلها المفترض، وسُطِّحت بهذا المقدار أو ذاك، فضَبَطها الخطاب الكارثيّ والمَرَضيّ، فاتخذ خطاب تأثير وسائل الإعلام المفترض على سلوك الجمهور الفرديّ شكلَ «الذعر الأخلاقيّ» أو السلوكيّ (انظر الفصل الثالث). يتعلّق الأمر في الحالة الأولى بالتنديد بتأثير وسائل الإعلام الضارّ على النّاس، والذي صُوِّر على أنه يؤدي إلى تقليد محتوياتها (وسائل الإعلام تنشر العنف والذوق السقيم والتمرد أو الخنوع). ويتعلق الأمر في الحالة الثانية بتحليل إكلينيكي للتأثير الممارس عليهم من خلال مفهوم المنبّه أو المُحَفّز. إن التّاملات في طبيعة وسائل الاتصال أو

مكتبة t.me/ktabpdf

في ردود الفعل تجاهها، هي أوّلًا أيديولوجيات طبيعويّة للثقافة، وهي إرادات لإضفاء الطابع الجوهريّ على سلوك البشر وتَمَثُّلها كمعطى وآليّات أمام الأشياء. إن حدود هذه التأملات هي حدود كلّ فكر علمويّ (scientiste)، فما يجمع البشر بكلب بافلوف (Pavlov) أو بقطيع غنم بانيرج(*) (Panurge) ضعيف جدًّا. إن الخوف من التقليد يحجب الخشية من الدمقرطة، فالإمكانات المتزايدة لاختيار ما نستهلكه ونُؤَوله خارج القنوات المؤسساتيّة يخيف كل السلطات.

أمام هذه التيارات الساذجة، تمثل **النظريّة النقديّة** التي طورها تيودور أدورنو (Theodor Adorno) وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) (انظر الفصل الرابع) الشكلَ الأول للتفكير المعقد والمركب، فهذه النظريّة تعيّن تأثير وسائل الإعلام - أو بالأحرى مالكيها - على مستوى الفكر والعلاقات الطبقيّة، وليس على مستوى الغرائز، وذلك بربط النظريّة الماركسيّة للأيديولوجيا بدراسة «الصناعة الثقافيّة». وإذا توجب نقد وسائل الإعلام، فذلك لأنها تمدد الهيمنة الرأسماليّة عبر الإعلام والترفيه، وتقدم صورة زائفة للسعادة أو للفعل الذي نحلم به، وتجعل الجمهور مشاركًا في فقدان نفسه، بتذوقه المشهد وما هو خارج شروط وجوده تذوقًا لا

(*) بانيرج: بطل الكاتب الفرنسيّ فرانسوا رابليه، ومعناه في اللُّغة اليونانيّة القديمة الشخص الذي يعرف القيام بكل شيء. يتلاسن هذا البطل مع مالك قطيع من الغنم فيشتري منه رأس القطيع الذي يقود الأغنام، ويرميه في الماء فتتبعه بقيّة الأغنام. وتحوّلَ إلى قول مأثور للدلالة على محاكاة الغير في ما يقومون به والامتثال إلى الفكرة المهيمنة واستبعاد كل معنى نقدي.

t.me/ktabpdf مكتبة

يُلْجَم. وعلى رغم رسوخ نظريّة الصناعات الثقافيّة في الطرح الفيبريّ العلماني، فهي تُظهر فشل الفكر الذي تطارده أشباح التقنيّة. لقد صاغ أدورنو نظريّة للثقافة (سلبيّة) لكنه وصف الكائنات البشريّة كأسرى للمادة، تستلبهم التقنيّة والتشيُّؤ، ما أبعد أدورنو عن رؤية ممتلئة للثقافة.

لقد حدثت القطيعة الفعليّة في التفكير في وسائل الإعلام مع بول لازارسفيلد (انظر الفصل الخامس) الذي قدم بحوثًا إمبيريقيّة تعارض البحوث السالفة التي قادتها الافتراضات المسبقة حول الآثار الكامنة لوسائل الإعلام، وقادها كذلك الرفض النخبويّ، والموسوم بهذا المقدار أو ذاك بأذواق النّاس واختياراتهم. لقد قضى بول لازارسفيلد على القلق من التأثير المباشر لوسائل الإعلام في السياق الترحيبيّ للجامعة الأميركيّة المهيأة لهذا المنعطف بفضل الفلسفة الذرائعيّة والتفاعليّة، واستفاد من ثراء السوسيولوجيا، الذي قاده لاحقًا، بتحفيز من إليهو كاتز، إلى دراسة «الاستخدامات والإشباعات»، وذلك بإقامة علاقة بين اتصال الأشخاص والاتصال عبر وسائل الإعلام (بتفوق الأول عن الثاني). إن الجمهور في صيغة الجمع هو أوّلًا وقبل كل شيء، فاعل اجتماعيّ يتمتع بمخيّلة وقدرات نقديّة، وهو الذي يجب الاعتراف له بحريّة الاختيار، وليس متلقيًا سلبيًّا في نظام يُفرض عليه. وإن كان التيار النقديّ قد «اكتشف» مفهوم الأيديولوجيا من دون أن يفهمه[1]، وهو المفهوم الذي تجاهله

(1) بحسب هانو هاردت (Hanno Hardt) في تاريخ البحث عن الاتصال في الولايات المتحدة الأميركيّة.

مكتبة

t.me/ktabpdf

التيار اللازارسفيلديّ، فإن البحث الإمبيريقيّ اكتشف ديموقراطيّة المعنى الذي تجاهله أدورنو النخبويّ جدًّا، إذ ذَكَّر بمقدرة المتلقين على فك رموز الرسائل الإعلاميّة، والحفاظ على هامش من المسافة عمّا تقدمه الصناعات الثقافيّة والانفلات من تَوْسِيلهم، أي تحوّلهم إلى وسيلة أو أداة. بيد أن الانضمام إلى التحليل النسقيّ والوظيفيّ يعيق التفكير الذي يجبر الاتصال على ضرورة تحقيق التوازن الاجتماعيّ الدائم، لأن هذه النظريّة اللازارسفيلديّة تقرر استبعاد مسألة السلطة، والاستمرار في الانغلاق على بلاغة التأثير، «المحدود» بالطبع، ويظلّ انتصار لازارسفيلد محدودًا على مستوى الأفكار وإن تحقّق جماهيريًّا من وجهة نظر مؤسساتيّة خلال عقود من الزمن.

لقد انتهت المرحلة الأولى من البحوث في الاتصال - بعد بروزها المتعثّر في بداية القرن العشرين - منطقيًّا بازدهار نظريّات جديدة اتسمت بانشغالها بهاجس المواضيع. وهذه المواضيع المزدانة بالألوان الزاهية والمتفائلة عبر التاريخ كانت موضع تناوب بين التنديد والتبرير في وصف وسائل الإعلام. وكَمَنت أصالة هذه النظريّات في المغالاة بالمنطق الذي يختزل الاتصال البشريّ في الظواهر البيولوجيّة والفيزيائيّة، وفي إضفاء الطابع المثاليّ على الحوامل التقنيّة للتواصل بين البشر في آن (انظر السيبرنيطيقا في الفصل السادس، والنزعة الماكلوهانيّة في الفصل السابع). إن المنطق الكامن في المشاريع السالفة، مشاريع الاتصال ذات الطابع التقنويّ، يمجد تحرّر الإنسان بواسطة الآلة ويطمس الأبعاد الثقافيّة والسياسيّة

t.me/ktabpdf مكتبة

في حركة تراجع واسعة. لكن الإثارة والجدل في هذه المشاريع ساهما بقُوَّة في تشكيل جماعة فكريّة أثارت اهتمام أكبر عدد من النّاس بما أصبحنا نسميه «اتصال» أو «ميديا»، ففي ظل زخمها شكّل التفكير ضدها، كما فعل أعضاء مدرسة بالو ألتو(*) (Palo Alto) في حقل الاتصال الشخصيّ على سبيل المثال، مرحلةً ضروريّة للتفكير في الجانب الاجتماعيّ: فبعد أن بلغنا أقصى حامل للأيديولوجيا التقنويّة، و«جوهرها» الذي يميّز مجتمعاتنا الغربيّة، لا يسعنا سوى العودة من جديد بتفصيل إلى ما ذكرناه.

الانتقال إلى سوسيولوجيا الميديا وجمهورها: لعبة الإنتاج والتلقّي

حدث التطوّر الحقيقيّ لسوسيولوجيا الاتصال في أوروبا خلال السنوات 1960 ـ 1980، بعيدًا عن باراديغم التأثير ذي المردود الضعيف، وهو قام على تنسيب الأشياء لمصلحة تثمين منطق الفعل،

(*) مدرسة بالو ألتو: تأسست في عام 1950 على يد غريغوري بيتسون (Gregory Bateson) بالتعاون مع كل من دونالد د. جاكسون (Donald D. Jackson) وجون ويكلاند (John Weakland)، وجي هالي (Jay Haley)، وريتشارد فيش (Richard Fisch)، ووليام فراي (William Fry)، وبول فتزلافك (Paul Watzlawick). اشتغلت بنظرية الاتصال والعلاقات بين الأشخاص، لتتحول تيارًا فكريًّا اتخذ من مدينة بالو ألتو في كاليفورنيا مقرًّا له. من طروحاتها الأساسية «لا يمكن ألّا نتصل»، بمعنى أن اللّغة غير اللفظيّة والصمت اتصال، وأن رسالة الاتصال تتضمن طبقتين من المعنى: الطبقة الأولى تنبع من محتوى الرسالة، والطبقة الثانية تكمن في العلاقة التي يقيمها الاتصال. ولعل دانيال بونيو يُعَدّ من الباحثين الفرنسيّين الأكثر تأثرًا بهذه المدرسة.

t.me/ktabpdf مكتبة

فوسائل الإعلام عناصر من الكل الاجتماعيّ وليست المحدّدات الخارجيّة لهذا الكلّ، وهي التي يمكن أن تشكّله بيسر عبر الوعد أو الوعيد لجانبها الغريب عن النشاط الاجتماعيّ، فالأشخاص ومجموعات الأفراد هي التي تتوسط وسائل الإعلام بحسب الفكرة التي عرضها بول لازارسفيلد في الماضي. والاتصال ليس معطى طبيعيًّا، ولا مدًّا من البيانات (المعلومات وفق المعنى الذي تمنحه لها الرياضيّات) بمقدار ما هو رابط دائم للمعنى والسلطة يتجسد في المحتويات وأشكال الميديا.

لقد بادرت سيمياء(*) رولان بارت وأمبرتو إيكو (Umberto Eco) (انظر الفصل الثامن) بتغيير التفكير في وسائل الإعلام عبر الكشف عن الوسائل المعرفيّة التي تسجل بواسطتها موازين القُوَّة بين الأوساط الاجتماعيّة. إن إنتاج «أساطير» إعلاميّة لا يعني الغش والوهم والتضليل وتحريف الحقيقة، بيد أن إضفاء الصفة الطبيعيّة على العالم الاجتماعيّ بفرض نظام من التضمين لمصلحة المهيمنين، ينسجم مع السوسيولوجيا الإمبيريقيّة ويعزّز الآراء. إذًا، السيمياء تقدم بقايا ترسخ على المستوى الوظيفيّ، لأنها تحافظ على تعريف الاتصال بعباراته الطبيعيّة القائمة على فرضيّة التعريف اللسانيّ، وتنسى أيضًا أنها اجتماعية ـ سيميائيّة بالضرورة. ولا يمكن أن تقترح أدوات لتحليل المضامين من دون امتلاك طرح حول علاقة

(*) يستعمل الكاتب (sémiologie) و(sémiotique) في آن. ترجمنا المصطلحين المذكورين في هذا الكتاب إلى السيّمياء، واحتفظنا بهما معًا في المواضع التي أدركنا فيها أن الكاتب يريد أن يميّز بينهما.

t.me/ktabpdf مكتبة

الأشخاص بهذه المضامين، أو رؤية سياسيّة لعلاقاتهم. ومن هنا، فإن التحليل السيميائيّ يكون في العادة نقديًّا وراسخًا في الموقف الأدورنـي، ومناهضا للديموقراطيّة في آخر المطاف: فالمثقف هو الوحيد القادر على فهم العالم وتفكيك الهيمنة البرجوازيّة للصناعات الثقافيّة.

لقد اختفى هذا الافتراض الـذي انطلقت منه البحوث حول مسارات إنتاج الرسائل الإعلاميّة وتلقّيها بتطليق فكرة وجود وسائل الإعلام خارج المجتمع، والاقتناع بوجود تناسب بين قطبي الإنتاج والتلقّي أيضًا، فالالتفات إلى الاستهلاك ثمّ التلقّي باستخدام مناهج متنوعة (إحصاء المشتريات، والتواترات، والاستبيانات، والملاحظة بالمشاركة) من أجل إعطاء الكلمة للذين من المفروض ألا يتكلموا في هذا الصمت الجماهيريّ الكبير الذي يسمى «الاتصال الجماهيريّ»، يؤدي إلى دحض أطروحة الوهم والخداع الذي تمارسه وسائل الإعـلام. إن السوسيولوجيا وتاريخ الممارسات الثقافيّة الفرنسيّ (انظر الفصل التاسع) المتأثرة بالإمبيريقيّة الأميركيّة، وجماليّة التلقّي، و**ثقافة الفقير** (*La Culture du pauvre*) لريتشارد هوغارت، أعادت الاعتبار تدريجيًّا إلى المتلقّين (أصبحوا مع ميشال دو سارتو بمثابة فاعلين يتمتعون بالكفاءات التأويليّة والمُقاوَمة)، والمتأثرة أيضًا بثقافة وسائل الإعلام ذاتها. إن الثقافة الجماهيريّة، أو ما نطلق عليه هذه التسمية غير الكاملة بالضرورة، هي موضوع أصيل بالكامل يشترك فيه الجميع بشكل واسع (خلافًا لبقيّة الأشكال الثقافيّة التي لم تكن مشتركة بشكل واسع، وليست كذلك) ويمكن أن تشارك بشكل

مكتبة t.me/ktabpdf

موازٍ في تطوير ثقافة شعبيّة أصيلة، أو ثقافة متوسطة وثقافة الأقليّات. إن التعارض المعيش بين الاستهلاك التلفزيونيّ والتعرض للفنون المكرسة التي أَكَّدها بيار بورديو (Pierre Bourdieu) لا يلخصان معنى العلاقة بوسائل الإعلام. هذه الملاحظة عمّقتها «الدراسات الثقافيّة» (Cultural Studies) البريطانيّة والأميركيّة التي أسسها ريتشارد هوغارت، والتي أدت إلى تلخيص المواقف الإمبيريقيّة والنقديّة بمعية ستيوارت هول ودايفيد مورلي، فالاتصال الجماهيريّ حوار، حتى في ظل السيطرة والألم. ويشكل لعبة تتفاوض فيها العلاقات الطبقيّة المختلفة، والعلاقات بين الذكور والإناث، والسن، ولا تتم فيها سيطرة المركز على الأطراف فقط، فيجب الربط بين الأيديولوجيا والتاريخ، والهيمنة والنزاع، والسلطة والثقافة لوصف عالم وسائل الإعلام في حالة توازنه غير المستقر الذي تخترقه التوتّرات الداخليّة وعمليّات التملك والاستحواذ المتناقضة (انظر الفصل العاشر).

ومن ناحية الإنتاج ، تجتاز الدرب نحو الاعتراف بالتعقد والتناقض، أوّلًا وقبل كل شيء، سوسيولوجيا الصحافة (انظر الفصل الحادي عشر) التي برهنت على استقلاليّة الممارسات التي تتخللها الرهانات المعرفيّة والاقتصاديّة والسياسيّة غير المنسجمة، على الرغم من كل العلاقات البنيويّة التي توحّد هذه المهنة مع الأوساط المهيمنة والممارسات التابعة للعلاقات المُتخيَّلة بالجمهور. لقد أظهر الترفيه، مع دراسات إدغار موران (Edgar Morin) الرائدة حول الصناعات الثقافيّة المنمّطة والتجديديّة في آن، مدى غياب الرضا الذاتيّ لدى

t.me/ktabpdf مكتبة

المبدعين والمذيعين الذين أُجبروا على التكرار وإثارة الإعجاب، والعرض، وإحداث التغيير من دون أن يتحكموا في تأثيرهم (انظر الفصل 12).

مفهوم الفضاء العموميّ: التفكير في الاتصال بواسطة الديموقراطيّة

إنّ غياب الرضا الذاتيّ، الذي يعتبر في الغالب من نقائص وسائل الإعلام الجماهيريّ، دليل على خوائها، لكنه يشكل في الواقع مصدر قوتها المتمثل في مسار ديموقراطيّتها غير المكتمل بكل تأكيد، لكنه فعليّ. إن البحوث التي نَزَّلت الحوار حول الثقافة الجماهيريّة في نهاية القرن العشرين إلى مستوى شجار سياسيّ، سمحت بتجاوز التفكير - المفيد بالطبع - حول أشكال الثقافة الذي أدى إلى انشطار ثنائيّ «الإنتاج / التلقّي»، لكنه غير كامل كي يتمكن من تحليل ديناميكيّة هذين العنصرين اللذين يخضعان لضغط الثاني بشكل دائم: أن متلقّي المواد الإعلاميّة يتحوّلون إلى منتجي معنى بتأويلهم إياها، وبهذا يكون شأنهم في ذلك شأن منتجيها. وتتلقّى وسائل الإعلام الأحداث الاجتماعية أو تقوم بتفكيكها بالمقدار ذاته الذي تبتدع فيه محتويات جديدة وتقترحها للنقاش. بالطبع، يجب أن نتصور السياسة في معناها الواسع حتى نفهم أهميّة هذا التأكيد المزدوج ونبتعد، ولو ظرفيًّا، عن نظريّات الرأي العام (انظر الفصل الثالث عشر) التي تقترح رؤيةً للمسار الديموقراطيّ تتمركز حول مسألة واحدة، وهي التمثيل الرسميّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

يقدم الاتصال الجماهيريّ كل سمات الفضاء العموميّ التي طالب بها هابرماس (انظر الفصل الرابع عشر) غير أن عمل هذا الفضاء يتناقض مع فكرة التوافق الآني. لقد كان هابرماس، وريث مدرسة فرانكفورت، ومعاديًا لوسائل الإعلام عن عقلانيّة، إذ لم ير فيها سوى الانحراف عن الديموقراطيّة، وكان يحلم بإقامة أماكن موازية لها حيث تتم المناقشة العقلانيّة. إن هذا المطلب الذي خاب جزئيًّا، والنقد الذي وجّهه العديد من الكُتّاب إلى النظرة المثاليّة والمعياريّة للفضاء العموميّ، سمحا بتحديد المساهمة الخاصّة لفضاء الاتصال المعاصر كفضاء عموميّ. فوسائل الإعلام تقيم التواصل داخل المجتمع المدنيّ، وبين هذا الأخير والمؤسسات وفق نمط نزاعيٍّ أكثر من كونه توافقيًّا، فبالسرد والحلم أي العمل على الذّات، والتَمثّل والاحتجاج تقترح وسائل الإعلام التفاوض حول معنى الحياة المشتركة، وغير المتساوية، وغير الثابتة، لكن المتواصلة والمعممة، كما يشهد على ذلك الحوار الجاري اليوم حول تلفزيون الواقع.

لا تبدو وسائل الإعلام ميدانًا خصوصيًّا للمختصّين في أدوات الاتصال، أو العارفين بمسار الإنتاج والتلقّي، لكنها تظهر بمثابة هدف يتطلب تقديم معارف دقيقة حول العالم الاجتماعيّ، والوساطة التي ينشدها، والعائلة، والهويّة الجنسانيّة (ذكر أو أنثى)، والأوساط الحضريّة، والأمة، وغيرها أي كل الفئات التي يتم التفكير بواسطتها في العلاقات الإنسانيّة، ويطرح هذا تحديًا إبستيمولوجيًّا دائمًا، ونظرة مزدوجة يصعب توظيفها. لكن غياب هذه النظرة يؤدي إلى

t.me/ktabpdf مكتبة

الانطواء على مركزيّة الإعلام. لقد رفع العديد من التيارات الجديدة في السوسيولوجيا هذا التحدي، وهي التيارات التي انتبهت إلى العبر التي قدمتها «مدرسة الدراسات الثقافيّة» ونظريّات التجربة والتفكّر (réflexivité) (انظر الفصل الخامس عشر) أي تلك التي تشكك في فئات العلوم الاجتماعيّة التي رافقت تحوّل هذا التخصص. إنها مهمة محفوفة بالمخاطر.

العودة إلى الأشياء أو استحالة التراجع

إن كانت التساؤلات حول وسائل الإعلام تشكل جزءًا من التجديد الإبستيمولوجيّ في العلوم الاجتماعيّة في أواخر القرن العشرين، وتُعتبر بمثابة تأسيس ثانٍ لها، فإنها تشكل أيضًا عودة إلى التساؤلات حول العُدّة التكنولوجيّة بفضل التطوّر الهائل الذي شهدته الإنترنت والشبكات التقنيّة والاقتصاديّة الجديدة. وتأخذ هذه العودة الشكل المرئيّ والمبتذل لتوالي الطوباويّات ومعاداة الطوباويّات التقنويّة، وكذا النظريّات الموسومة بالحتميّة التقنيّة (انظر الفصل السادس عشر)، على رغم أن هذه الحركات الأيديولوجيّة تحجب التغيرات الكبرى في حقل نظريّات الاتصال. بالنسبة إلى كثيرين (خاصّة أولريش بيك Ulrich Beck وبرونو لاتور Bruno Latour) فقد تم نسيان التقنيّة التي يُنظر إليها كبناء مندمج في المسارات الاجتماعيّة ويُجعل وجودها ممكنًا وفعالًا، في العلوم الاجتماعيّة منذ مُدّة طويلة، بحُجّة عدم إمكان اندماجها في عوالم الإنسان. لقد أثار الانفصال لمُدّة ضروريّة سوءَ فهم واقعها ونُظُمها

t.me/ktabpdf مكتبة

الواقعيّة، وإضفاء الطابع المثاليّ على منافعها «الجوهريّة» أو إلى التنديد بفسادها «الطبيعيّ». ولا يمكن أن تتمّ العودة إلى الأشياء إلا انطلاقًا من رؤية ديموقراطيّة لتفاعلاتها (وليس تأثيرها) مع البشر وليس بمجرّد تساؤل ذي طبيعة خام ومستترة. إن ما يُفترض من مقتضيات «مجتمع المعلومات» أو «الديموقراطيّة الإلكترونيّة»، على سبيل المثال، هو موضع تنديد لسذاجتها، ولكنها تستخدم أيضًا أساسًا للنقاش لا يزال مكبوتًا حول العلاقات بين التكنولوجيات والاختيارات السياسيّة.

مكتبة t.me/ktabpdf

تمهيد

إنشاء موضوع

t.me/ktabpdf مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفصل الأول

صعوبة التفكير في الاتصال
ابتذالات وتنديدات وتنبؤات وطوباويّات

يقدم هذا الفصل، الذي يتوجّه إلى جمهور المبتدئين، عناصر تعريفيّة وضروريّة لدراسة وسائل الإعلام المعاصرة. ويستهلّ ذلك بلعبة صغيرة تسمح أيضًا بالإشارة إلى صعوبات التفكير السوسيولوجيّ في هذا المجال: إن نظرتنا لعوالم الاتصال مثقلة بالتخمينات والأفكار المسبقة، والتي من الضروريّ تحديدها واستبعادها إن أردنا القيام بفحصها. وأصل هذه التخيّلات المبنيّة للاتصال، سواء أكانت متفائلة أم متشائمة، والتي تبدو لنا عاديّة، يأتي من التعارض في القِدَم، والذي يعود إلى آلاف السنين بين العقل والتقنيّة، والمتجدد مع فلسفة الأنوار، ومن تشويه «الجماهير» الذي وُلد في القرن التاسع عشر مع تقدم الديموقراطيّة.

الشيء الأعدل قسمة في العالم؟

اكتبوا على قصاصة من الورق الجملة التالية: «إن التلفزيون يجعل النّاس...»، واطلبوا من أفراد مجموعات الطلبة ملء الفراغ، ثمّ قوموا بفرز الإجابات، فسوف تعثرون على النتائج ذاتها وبنسب تكاد تكون مستقرّة. ستجدون أوصافًا لهذه الوسيلة الإعلاميّة على درجة ضعيفة من المجاملة، كما أنها تتكرّر بكثرة، مثل: «سلبيّين» و«عنيفين»

t.me/ktabpdf مكتبة

و«عبيدًا» و«مرضى» و«أغبياء»... على رغم أنكم قد تصادفون بعض الإجابات أكثر إيجابيّة، مثل: «سعداء» و«اجتماعيّين»... إلخ. أعيدوا الاستطلاع ذاته حول الكمبيوتر والإنترنت مع السؤال: «المعلوماتيّة تجعل النّاس...»، وستجدون في الغالب ميولًا معاكسة هذه المرة، حيث سيعلو جواب: «منفتحين» و«أذكياء»، وينخفض اتّهام الكمبيوتر والإنترنت بالسلبيّة والنزعة غير الاجتماعيّة. ثم أعلموا أعضاء المجموعات المشاركة بأنهم يملكون تصورًا سلبيًّا جدًّا عن التلفزيون وعن دوره وعلى رغم ذلك لا يزالون يشاهدونه ويشعرون بأنهم غير معنيين كأفراد بالآثار السلبيّة التي وصفوه بها، وسجِّلوا التعارض بين الأوصاف التي ألصقوها بالتلفزيون وتلك التي وصفوا بها المعلوماتيّة والإنترنت، على رغم أنهم لا يستخدمونها بالضرورة كثيرًا.

بهذه اللعبة الصغيرة[2] تستطيعون استنتاج بعض المشاكل التي تطرحها دراسة وسائل الإعلام وجمهورها، إذ تصطدم هذه الدراسات بحواجز خاصّة جدًّا، أقلّها الوهم بالسهولة المزعومة التي نجدها في دراسة ما هو عاديّ ومألوف جدًّا، والمتمثل في مشاهدة التلفزيون وتصفح المجلات والاستماع إلى الإذاعة، وكل شخص متآلف مع هذا الميدان يملك آراء وأحكامًا عفويّة، وهي ليست بالضرورة بلا حُجّة وغير منسجمة، لكنها تستند بكل تأكيد إلى أحكام قيمية قبل كل شيء من دون أن تعتمد على أي دراسة علميّة. إننا لا نسمح لأنفسنا أبدًا أو أحيانًا بأن نعبّر عن رأينا حول المشاكل الخاصّة

---

(2) تمت استعارتها من ميشال سوشون الذي طبقها على التلفزيون وأوصى بتطبيقها على الكمبيوتر والإنترنت.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بالفيزياء أو الكيمياء، لكن نعتبر أنفسنا مؤهلين، في الغالب، لاتخاذ قرار بخصوص وضع الاتصال في مجتمعاتنا. فماذا نعرف عن واقع الميديا في حياة الأشخاص وفي سير المجتمع؟

عدم الشرعيّة الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة لوسائل الإعلام الكبرى

إن التشويه التاريخيّ لسمعة وسائل الإعلام (يُعدّ التلفزيون اليوم رمزًا لهذا التشويه) يفسر أن الأحكام العفويّة التي صدرت في حقّها كانت تلقائيًا سلبيّة، وذلك يبخسها قيمتها عندما نتعامل معها باستمرار، ونحن أيضًا حين نرى هذه الوسائل عاديّة جدًّا، وحتى تافهة، نمنحها في الغالب سلطة غريبة، واستثنائيّة، وشريرة، فمنذ ميلاد وسائل الإعلام ونحن نعتبر ابتذالها وضررها تحصيلَ حاصل، عبر نوع من المساواة بين اشتراك أكبر عدد فيها وانخفاض المستوى الفرديّ. ويُستمد مصدر هذه الظاهرة من تراتبيّة مجتمعاتنا ومن التمييز بين المنتجات الثقافيّة التي أُنتجت على مدار القرن 19: لقد أُعيد بقُوَّة تعريف الثقافة في ذاك العصر كمطلب نـدرة، وكنوع من الارتقاء الفكريّ يتجنب ما هو مشترك لمصلحة مجموعة صغيرة منتقاة من المقربين المحظوظين(*) (happy few)، فارتبطت ببعض الأشكال

(*) استعمل الكاتب هذه العبارة باللُّغة الإنكليزيّة، ويُعتقد أن الأديب الفرنسيّ ستاندال استعملها في روايته المشهورة (*La Chartreuse de Parme*)، وإن كان البعض يرى أن هذه العبارة لا تعني شيئًا في اللُّغة الإنكليزيّة اليوم، فالبعض الآخر يرجح أن الأديب الفرنسيّ اقتبسها من المقولة التالية لشكسبير:
We few, we happy few, we band of brothers.

t.me/ktabpdf مكتبة

الثقافيّة التي تُعتبر جوهريًّا أسمى (مثل الكِتاب والفنون التصويريّة). إن الحذر من الثقافة البسيطة الذي عبّرت عنه المؤسسات التعليميّة زاد في تشويه سمعتها وعَمَّقه، وأضاف له منذ مُدّة العداءَ للترفيه، وحتى للصورة، ورفض الوساطة غير المباشرة التي تنافس وساطة المؤسسات التعليميّة. ويُفسر هذا الرفض أيضًا بخوف سياسيّ من العدد، ومن التحشيد الذي يبدو أن أدوات الاتصال تمثله، والذي يمكن أن يفضي إلى خنوع الأشخاص وغسل أدمغتهم بواسطة الأخ الأكبر الإعلاميّ (مع كل الانحرافات النفسيّة الجماعيّة الممكنة). إنه الخوف من الصناعة والتقنيّة في آخر المطاف أي الخوف من النزعة التجاريّة لوسائل الإعلام التي تصنع موادها الثقافيّة وفق خط إنتاجيّ، مثلما ننتج القطع الميكانيكيّة والنقانق. وقد رزح هذا الخوف بثقله على إشاعة صورة المستهلكين الأشباح الذين يعانون هم ذواتهم من وجود مشروط. توجد علاقة واضحة بين دمقرطة الثقافة والسياسة والاقتصاد وبخس وسائل الإعلام: لقد انتشر مخيال ينتقد الجماهير وانسياقها كقطيع غنم، وابتذالها وعدم مسؤولياتها، مع البروز غير المنتظم للشعوب والأقليّات الاجتماعيّة في قنوات وسائل الإعلام وعبرها، هذه الوسائل التي تمخضت عن ثورة صناعيّة ومدنيّة لا تزال ماثلة في الأذهان، وعن العادات الاجتماعيّة.

هذا المخيال شموليّ لكنه متشذِّر أيضًا في العديد من الاتجاهات، بحسب هُوِيّات الذين يصدرون أحكامهم على الجماهير. والتنديد بوسائل الإعلام أضحى تنديدًا بتأثيرها المزعوم في الجماعات «الضعيفة»، الذي يتجلى عبر استهلاك منتجاتها، ويمكِّن الصحافة

t.me/ktabpdf مكتبة

الشعبيّة من أن تبدو بالنسبة إلى برجوازيّة الزمن الغابر مصدرَ تهديد، لأنها تخدع بإمكاناتها الرديئة الأوساط العماليّة وتوجّهها ضدها. وبالنسبة إلى الطلبة، فإن التلفزيون يوجَّه إلى الطفولة، والنساء الماكثات في البيوت، وكبار السن أي إلى الذين حُرموا النشاط أو الحرية. وعكس ذلك، بالنسبة إلى بالغي سن الرشد وكبار السن، فإن الأسطوانات الغنائيّة وإذاعات إف إم (FM) وموسيقى الروك ثمّ «الراب»، توجِّه شخصيّة المراهقين الطائشين إلى تأكيد صاخب وعنيف، فالجميع يلتقي في التنديد بالتأثير السلبيّ الذي يمارسه التلفزيون على شريحة الأطفال الأكثر ضعفًا.

أشكال النقد المتطرفة

لقد تخصص ضرب من الكهنوت الفكريّ، والمثقف منه على وجه الخصوص، في إدانة منتظمة لمختلف الأشكال الإعلاميّة طيلة قرن من الزمن، وذلك باللجوء إلى وسائل الإعلام ذاتها لنشر رسائله، مستخدمًا أعمدة الصحف والبرامج التلفزيونيّة. ومُنحت الدولة من جهتها، وخصوصًا في فرنسا، حقَّ النظر، وحتى التحكم في أدوات الاتصال الكبرى لغرض «تعليميّ» أو «عموميّ»، فقد طَبَعَ التنديدُ منذ بدايته الخطابات العليمة، لأنها تتوافق مع بعض التيارات الفكريّة، وخصوصًا العقلانيّة الماركسيّة، التي تروم وراثة فلسفة الأنوار (وثمّة أيضًا تيارات أيديولوجيّة أخرى منسجمة معها). وتكمن قُوَّة هذه التيارات في تأكيد هذا الشعور الغامض الذي نحس به جميعًا منذ أن أصبحنا كائنات مستنيرة، الشعور الدائم بالنقد والحكم بحيث لا تفلت من تحليل الأخطاء والعيوب أيُّ هيئة أو

t.me/ktabpdf مكتبة

مؤسسة، بما فيها وسائل الإعلام ومنتجاتها، وتَحَوُّل الحقّ في النقد، بل الواجب الشرعيّ في القيام به، إلى تنديد مبدئي من محكمة قاسية. إن إشكالات الثقافة الجماهيريّة التي طرحتها مدرسة فرانكفورت في منتصف القرن العشرين منهجت وعقلنت بمقدارٍ ما التنديدَ الغريزيَّ الذي يصبّ في تنبؤ سوسيولوجيّ احتكر المناقشات العامّة حول وسائل الإعلام منذ ذاك التاريخ. ويعلن هذا التنبؤ عن تفتُّت العلاقات الاجتماعيّة، والطغيان على العقل، ونهاية الفكر الحر، وحتى الذكاء، نتيجةً لمشهدة الثقافة وتسليعها (تحويلها إلى سلعة) وأمركتها...

يتّخذ هذا الرفض الأعمى للاتصال عبر وسائل الإعلام الكبرى شَكْلَ تخيُّلِ مجتمع تحكمه أيديولوجيا شموليّة أو شكل مناهض للطوباويّة يصور عالمًا خاضعًا لسلطة استبداديّة ومجردًا من كل إنسانيّة. ويعاني هذا الرفض من انحياز نخبويّ بائس لأنه ينطلق من فرضيّة أن الشعب مقهور وبليد، وأن أقليّة فقط من المثقفين يجب أن تنقذه من بؤسه الأخلاقيّ على رغم أنفه.

ويلتحق هذا التيار بواسطة هذه العبارات الدّاكنة بالتيارات الفكريّة غير العقلانيّة والعدمية التي تشجب بدورها الفراغ المنحرف الذي يعيشه العالم المعاصر، ويأتي في مقدمة هذا الفراغ ما خلقته وسائل الإعلام، هذه الكائنات الشريرة التي توظف لغتها لتلتصق بالواقع الفعليّ حتى تحرّفه وتمحوه وتحلّ محلّه. إن مثل هذا النقد يبلغ لدى بعض الكُتاب شكلًا صوفيًا برفضه النشِط لعالم مكرس للتقنيّة، والتجارة المذمومة، والتمثُّلات غير المُراقَبة، والممتلئة كليًّا بالأوهام والأكاذيب والشر.

t.me/ktabpdf مكتبة

أشكال التبرير المتطرفة

يكمن آخر أكبر عائق أمام دراسة وسائل الإعلام في ظهور الخطابات المتفائلة والمماثلة للخطابات السابقة، والمغالية أيضًا في تبريرها، فبعيدًا عن اعتبار الاتصال عبر وسائل الإعلام تهديدًا، ثمّنه أنصار الشعبويّة الثقافيّة بامتداح خصائصه التشاركيّة والاحتفاليّة المزعومة: إن وسائل الإعلام تقرِّب بين البشر وتمنحهم أساطير مشتركة وسحرًا متجدّدًا (نفترض أن هذه الروابط ترتخي باستمرار، كما تؤكد ذلك مدرسة فرانكفورت). لقد ظلّت هذه الخطابات، التي تنتمي إلى أقليّة متخندقة في الدفاع عن فكرة الثقافة الشعبيّة المشتركة والفولكلور (أو تحويل المجتمع إلى وسيلة) قائمة، لكن وهجها أطفأته الطروحات ذات الطابع التقنويّ، والمنبهرة بقُوَّة في وسائل الاتصال الحديثة، التي تعتبر هذه الأخيرة حلًّا آنيًّا لمشاكل سير دواليب السياسة والاقتصاد والاجتماع. لقد شكلت أفكار مارشال ماكلوهان (Marshall McLuhan) وتبعاتها في السمعيّ البصريّ، التي تقع في نقطة تقاطع النزعتين التقنيّة والجماعيّة (ميلاد «قرية عالميّة» وتطوّر النزعة القبليّة)، مرجعًا للتنبؤات الاتصاليّة خلال مُدّة طويلة. وتعولمت من جهتها أحلام نوربرت وينر (Norbert Wiener)، مخترع السيبرنيطيقا التي أنيط بها تحسين وضع البشريّة بمنحها «أدمغة إلكترونيّة»، والقضاء على الغلط والبربرية عبر البثّ المثاليّ للمعلومات.

يشكل الوعد بعالم شفاف قائم على التفاعليّة ومتحرّر من سوء الفهم بواسطة أفضل التقنيّات (استطلاعات الرأي، الفيديو، المعلوماتيّة)، نقطة من النقاط المكمِّلة للقلق العقلانيّ الذي يمكن أن

يطالب بانتمائه إلى فلسفة الأنوار، فإذا ثمّنت عمليّة إقحام المعلوماتيّة في الاجتماعيّ، على سبيل المثال، فذلك لأنها تبدو مرادفًا لثورة الذكاء، والتحكم الفرديّ أي العودة إلى مجتمع توافقيّ (لكنه غير مُحْتَشِد)، مجتمع يتكون من أفراد أكثر مسؤوليّة وانفتاحًا. إن معلوماتيّة ما هو اجتماعيّ تتوافق مع الاختيارات الأيديولوجيّة المتنوعة: تكنوقراطيّة، فوضويّة، ليبراليّة، وحتّى ليبراليّة متوحشة، وجماعويّة اشتراكيّة، لأن نواتها تكمن في الإيمان فقط بوجود علاقة بسيطة بين تطوّر التقنيّات وتطوّر الوعي والتطوّر الاجتماعيّ. لقد وُجدت التنبؤات الاتصاليّة التي تنشد عالمًا مثاليًّا وطوباويًّا منذ أزيد من قرن (رافقت اختراع التلغراف والهاتف وغيرهما)، لكنها أخذت أبعادًا غير مسبوقة في نهاية القرن العشرين مع تطوّر شبكة الإنترنت وقطاعات اقتصادية بأسرها خاصة بـ«التكنولوجيات الجديدة»، والتحق بها خطاب كل الذين لهم مصلحة في المطالبة بمركزيّة مواقفهم في الحقل الإعلاميّ، وما أكثرهم، أو الحالمين بهندسة ما هو اجتماعيّ: ممتهنو الاتصال، والصحافيّون، والمهندسون، والاختصاصيون، والتكنوقراط، ومعاهد استطلاع الآراء، واختصاصيو الاستشراف.... هذه التنبؤات التي استثمرت الحقل السياسيّ وقطاع الدولة اللّذين أدركهما جنوح فهم المعلوماتيّة بصفتها حداثة، عمّت المجتمع برمته، مع الاحتفاء بالتدفق الآنيّ للمعلومات وتبادل وجهات النظر التي تصقل بالضرورة عالمًا جديدًا، ومختلفًا جذريًّا. وهكذا، برزت نزعة صوفيّة لتستكمل المشهد الممغنط بالعالم التقنيّ، وتمتدح الانتشاء بالتأمل أو الانغماس في عالم الفضاء الإلكترونيّ أو الكون الافتراضيّ الذي يحظى بأهميّة أكثر من الواقع الإنسانيّ الماديّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

الأشكال المتطرفة للتنديد وتبرير وسائل الإعلام[3]

مديح وسائل الإعلام	التنديد بوسائل الإعلام
(صادر عن ممتهني الاتصال، والمهندسين، والتكنوقراطيّين، ومعاهد استطلاع الرأي والاستشراف، والباحثين، وغيرهم).	(صادر خصوصًا عن الفلاسفة والكُتّاب والمثقفين والمربين، والباحثين، وغيرهم).
«كهنة»: تبرير الدور التحرّريّ لوسائل الإعلام التي تعبّر عن الديموقراطيّة في شكلها العمليّ، وعن ثقافة شعبيّة.	«كهنة»: رفض المتعلمين وسائلَ الإعلام التي تعد تعبيرًا عن هيمنة اقتصاديّة وسياسيّة وابتذال بشريّ.
«أنبياء»: (طوباويّون وشعبويّون) قدوم ثقافة للجميع، والعودة إلى الاشتراك في السحر، وقدوم ثقافة إلكترونيّة شفّافة وكونيّة («قرية عالميّة»).	«أنبياء»: (تخيّل مجتمع شموليّ وبائس) الإعلان عن خنوع جماعيّ بواسطة الثقافة الجماهيريّة، ونهاية الثقافة «الحقّة» والحرية والسياسة العقليّة.
«صوفيون تأمليّون»: نشوة الانتزاع المزعوم لماديّة العالم (الكون الافتراضيّ) والافتتان التقنيّ والمرئيّ، وفوضى المعنى.	(صوفيون زهاد): هلع من عالم يُزعم أنه فاسد، ووهميّ، وفارغ، ورفض عدمي للصورة والتقنيّة.

(3) إنّ أشكال التنبؤ واليوتوبيا التي أثيرت ليست نقيّة، لأن لدى كُتّابها نوعًا من السخرية تجاه العالم الذي يتخيلونه أو يرفضونه. وأشكال الصوفية استعاريّة من جهتها، لأن الكُتّاب لا يولون أهميّة لوجودها في سلوكهم اليومي إلا نادرًا. والأكثر من هذا أنها وردت في المجتمعات المعقّدة التي يكون الإيمان فيها عائمًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

«تنظم الصحف والإذاعة الحوارَ العام حول الرهانات الوطنيّة، تقدِّم المعلومات وتَعْرِض حجج الطرفين، تمامًا مثلما كان يفعل النّاس ذاتهم في اجتماعات المدن(*). وأخيرًا بفضل تقنيّة الاستفتاء على طريقة العيِّنة يستطيع الشعب أن يعبِّر عن إرادته بعد الاستماع إلى حجج كل طرف من القضايا المطروحة». George Gallup, *Public Opinion in a Democracy*, 1939, trad. Hermès, 31, 2001.	«يقدم التلفزيون بديلًا بدائيًّا جدًّا لكنه لا يقاوم المنطق الخطيّ والتسلسليّ للكلمات المطبوعة، ويسعى إلى جعل صرامة التربية الأدبيّة غير ملائمة. إن مشاهدة التلفزيون لا تتطلب أي موهبة ولا تنميها». Neil Postman, *Il n'y a plus d'enfance*, 1982.
«إن الترجمة الحاليّة لحياتنا كلها في هذا الشكل الروحيّ أي الإعلام، يمكن أن تجعل من الكرة الأرضيّة بأسرها والعائلة البشريّة وعيًا واحدًا». Marshall McLuhan, *Pour comprendre les médias*, 1962.	«التأثير الإجماليّ للصناعات الثقافيّة هو مناهضة إزالة الغموض، ومناهضة التنوير (Aufklärung). والسيطرة التقنيّة تتحوّل تدريجيًا إلى خداع الحشود أي إلى وسائل لتقييد الوعي». Theodor Adorno, *L'Industrie culturelle*, 1962.

(*) اجتماعات المدن: شكل من الديموقراطيّة المباشرة التي مورست في بعض مقاطعات الولايات المتحدة الأميركيّة في القرن 17، حيث كان يجتمع سكان مدينة لتشريع ميزانيتها وسياستها الإداريّة. وقد تدرَّجَ استعمال هذا المصطلح ليدل على الاجتماعات العامة التي تناقش فيها القضايا ذات الصلة بالشأن العام، وليعبر عن المنتديات العامة التي ينظمها السياسيّون ويطرح الناخبون فيها أسئلة عليهم.

t.me/ktabpdf

مكتبة

«يستطيع كل النّاس في تنوعهم أن يتصلوا بعضهم ببعض بفضل الكمبيوتر والشبكات الإلكترونيّة، وأن يضعوا اليد في اليد، بدلًا من إعادة بناء هويّاتهم على المعنى. إن الكون الجديد يثبت ذاته في الانغمار. فكلنا نسبح في المياه ذاتها، في طوفان الاتصال ذاته. إن الأمر ليس انغلاقًا سيميائيًّا أو شموليّة (...) كل تشبيك جديد مكمّل يضيف المزيد من عدم التجانس، ومصادر جديدة للمعلومات، وخطوطًا أخرى لتسرّبها، لذا يكون المعنى الشامل أقلّ وضوحًا باستمرار، وتزداد صعوبة رسم حدوده أو تطويقها، أو التحكم فيها. إن هذا الكون الجديد يمنح اللذّة بما هو عالميّ وذكاء جماعيّ بالفعل للنوع: إنه يشركنا بكثافة في الإنسانيّة الحية من دون أن تكون هذه المشاركة متناقضة أو متعارضة مع تعدد الفردانيّات وانتشار الفوضى».

Pierre Lévy, «L'Universel sans totalité, essence de la cyberculture» in Sicard, M-N., Besnier, J-M., (dir.), *Les Technologies de l'information et de la communication: pour quelle société?* 1997.

«كل الهندسة المعمارية الحاليّة لوسائل الإعلام تستند إلى هذا التعريف الأخير: إنها ما يمنع الإجابة إلى الأبد، إنها ما يجعل التبادل مستحيلًا (إلا في أشكال من محاكاة الإجابة المدمجة هي الأخرى في الإرسال، وهذا لا يغير شيئًا في أحاديّة الاتصال). هنا يكمن تجريدها الحقيقيّ.

Jean Baudrillard, *Pour une critique» de l'économie politique du signe*, 1972.

«إن التلفزيون لا يقول سوى أنني صورة، والكلّ صورة. وشبكة الإنترنت والكمبيوتر لا يقولان سوى أننا إعلام، والكلّ إعلام (...)

اليوم، اللاإنسانيّ هو الذي يفكر فينا. وهذا ليس استعارة لكنه نوع من التناظر المعدي، من خلال تسرب مباشر لفكر مُعْدٍ، وافتراضيّ، وغير إنسانيّ. إننا أشياء وثنية لفكر ليس فكرنا، أو إنه طفرة نُمُوّ غير متحكم فيها».

Jean Baudrillard, *Le Paroxyste indifférent*, 1997.

t.me/ktabpdf مكتبة

التوتّر بين العقل والتقنيّة في قلب مسألة الاتصال

إنّ المخيال الذي أُسْقط على وسائل الإعلام هو مخيال الحداثة التقنيّة والاجتماعيّة، مخيال تشكيليّ جدًّا يسمح بكل الانقلابات الممكنة: يمكن المعلوماتيّة ذات السلطة التحرّريّة المشهودة أن تتحوّل مصدر قلق وتنديد شامل بمجتمع المراقبة والفساد، وذلك انطلاقًا مما نلاحظه من المشاكل المخصوصة التي تطرحها، مثل الرقابة البوليسيّة، والصور الإباحيّة والخليعة... فبعيدًا عن السياق التاريخيّ المحدّد الذي يعدل هذا المخيال باستمرار في اتجاهات متنوعة، فإنّ هذا الأخير يرسخ في تعارض عميق أبرزته الفلسفة منذ العصر اليونانيّ. إن التوتّر بين العقل الذي يُنظر إليه بوصفه إدراكًا آنيًّا لما هو حقيقيّ والتجرد من الأوهام، وبين التقنيّة التي ينظر إليها بوصفها وساطة خارجيّة فاعلة ومنحرفة، يفسر تعدديّة معنى كلمة **الاتصال** (communication)، ويشرح الخلافات العميقة التي تقع جراء تحليلها.

يجمع معسكر المثاليّة، منذ سقراط (Socrate) وأفلاطون (Platon)، كلَّ الذين يعتقدون أن البشر يجب أن يتحرّروا من الظروف الملموسة للتعبير عن الفكر، ويؤمنون بأن الفكر يحاور ذاته، ويتحاور مع بقيّة الأفكار وسط جماعة عقلانيّة، وأن الفكر يَنْحَطّ في كل ما يحوله إلى مادة، ويجعله مثل أي قطعة مزوَّرة تركَّب بدل القطعة الأصيلة (هكذا رفض سقراط الكتابة للتعبير عن فكره)، ففي أسطورة الكهف لا تشكل الشمس سوى عقل واحد، والظلال التي تتركها ليست سوى تحريف يضلّلنا. يجب

t.me/ktabpdf مكتبة

على البشر أن يخرجوا من الكهف، ويطردوا من المدينة كلَّ الذين يقومون بالوساطة أي الشعراء، لأن قصصهم خدّاعة. إن أشكال المثاليّة المعاصرة تُعْرف من دعوتها إلى إقامة علاقة آنيّة واتصال أصيل (إذا اتصل البشر فعلًا لا يحدث أي نقص في اتصالهم ـ وهذا يعني أنهم يتفاهمون ويتقاسمون المنطقَ ذاتَـه ـ ولا يخوضون الحرب)، أو تُعرف هذه الأشكال المثاليّة برفضها وسائلَ الإعلام التي نعتبرها أداة شيطانيّة (إنّ السياسة «الحقة» لا يمكن أن تمارس في التلفزيون، بل في اجتماعات الأحزاب والمؤسسات والتجمعات فقط، وفي الأماكن «الحقيقيّة» للاتصال المباشر، فالخوف من تأثير وسائل الإعـلام الضارّ على الأطفال هو ذاتـه الخوف الـذي أدى إلى طرد الشعراء، كما أشار إلى ذلك باكينغهام Buckingham, 1993). إن هذه الأشكال المثاليّة التي تطالب بالحقيقة تُعدّ حافزًا للعلوم الإنسانيّة.

طور السفسطائيّون، نقادُ المركزيّة الكلاميّة (logocentrisme)، الذين يشكلون اتجاهًا يعتبر أن للعقل وجودًا سابقًا اللغة بصفتها مقرًّا للكائن، البلاغةَ وتحليلَ ممارسة التلاعب باللغة، وشقوا إلى جانب المتأثرين بالممارسات الملموسة للوساطات وقدرتها على إنتاج ما يوحي بأنه الواقع، طريقًا للفكر الذي يمنحهم كل السلطات: سلطة الإغراء والتأثير وتشكيل المدينة، متخذين من الوسائل غايات. إننا نجد تراثهم المتنوع جدًّا في صفوف المختصّين في اللسانيّات، ولدى المهتمين بدراسة العلاقة بين البشر، وبين البشر وحججهم، ونجده أيضًا لدى الممارسين، مثل المعلنين المؤمنين بتأثير الرسائل

t.me/ktabpdf مكتبة

الإعلاميّة (فأن تتصل لا يعني أن تُعلم فقط، بل يدلّ على معرفة كيفية تغيير السلوك أيضًا، والتحفيز، والبيع). ونعثر عليه أيضًا لدى المكلفين بالاتصال الداخليّ، المقتنعين بفاعليّة تقنيّاتهم (النجاح في تمرير خطاب، تحسين علاقات العمل)، ونجده أخيرًا لدى مروجي اليوتوبيا التقنويّة المتمنّين اتصالًا إنسانيًا أفضل تؤازره الآلة أو تتفوّق عليه.

التعارض بين التقنيّة والعقل

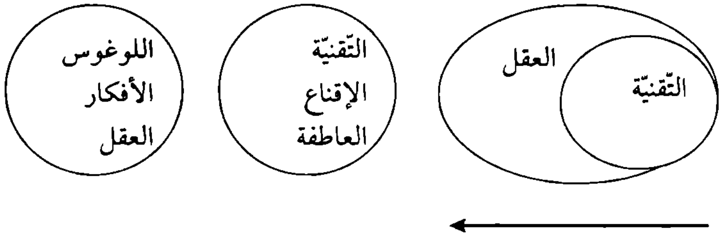

الفلسفة السقراطيّة محاولة انتزاع المعقوليّة من العالم الذي يعتبر وهمًا. وطلاق المثاليّين والسفسطائيّين يؤدي إلى التعارض الجذري بين رؤيتين للتواصل بين البشر.

كلمتا الاتصال والميديا

يشهد التطوّر السيميائيّ الذي عرفته كلمة «اتصال» (communication) التي ظهرت في القرن الرابع عشر في اللغة الفرنسيّة والخامس عشر في اللغة الإنكليزيّة، على التأرجح بين التصورين: العقل والتقنيّة، كما أشار إلى ذلك إيف وينكن (Yves Winkin). لقد اشتُقَّت هذه العبارة من الكلمة اللاتينيّة

t.me/ktabpdf

مكتبة

(communicare) وظلّت مُدّة طويلة مرتبطة بمعنى «المشاركة في... والشركة في» (حتى بالمعنى الماديّ). وامّحى معنى الاشتراك تدريجيًّا، ليحلّ النقل ووسيلة النقل محلّه، في ظل تعدد تقنيّات المواصلات (العربات التي تجرها الأحصنة، والبواخر، والقطارات، والسيارة...) وتقنيّات العلاقات بين الأشخاص أوالجماعات (الهاتف، والصحافة). وتدلّ كلمة الاتصال اليوم على مثل أعلى أو يوتوبيا (الاشتراك في لغة العقل ذاتها أو الانتماء إلى الجماعة عيْنها)، وتدلّ أيضًا على كل الأبعاد الإجرائيّة للتبادل: غاية التبادل ومحتواه (القيام باتّصال)، والتقنيّات المستخدمة (وسائل الاتصال الشفهيّة والمكتوبة، وغيرها)، والمنظمات الاقتصاديّة التي تدير هذه التقنيّات وتطوّرها وتأخذ شكل وسائل اتصال وطنيّة أو محليّة (تعتبر شركة والت ديزني «Disney» مؤسسة اتصال). إن لكلمة «اتصال» نصيبًا من الغموض الذي يمكن أن يُستمد من جانبي القيمة أو التقنيّة، فهذا الغموض يسمح لكل النشاطات بتملكها: فالسياحة اتصال، وبالمقدار ذاته المسرح أو التنشيط الاجتماعيّ والثقافيّ، والتجارة، والكشافة، وتدفق العاطفة، والتلقيح.

أما «ميديا» (média) (التي يعود أصلها إلى الكلمة اللاتينيّة medius، وتعني من هو في الوسط)، فتحيلنا بدورها إلى إقامة علاقة عن بعد ومن دون إمكان كبير للتفاعل بين المرسل والمتلقّي أي هي نوع من الاتصال المختلف عن ذاك الذي يتم بين الأشخاص (التواصل وجهًا لوجه)، ويتباين مع الاتصال التنظيميّ بين المجموعات الصغرى الذي يكون فيه للمُتلقّي قدرات ضعيفة للرد

t.me/ktabpdf مكتبة

على المرْسِل (اتصال المؤسسة، والاتصال أثْنَاء الدَّرْس في مدرسة على سبيل المثال). فكلمة الميديا المستقاة من اللغة اللاتينيّة تكتب بصيغة الجمع في اللغة الفرنسيّة، بينما تستعمل اللغة الإنكليزيّة كلمة(*) (medium) كمفرد لكلمة «ميديا» التي ترد في صيغة الجمع. لقد استخدمت اللغة الفرنسيّة كلمة (médium) سواء كمرادف لكلمة «ميديا» أو للإشارة إلى الجانب التقنيّ المحض للأداة (كأن نقول أن التلفزيون وسيط médium أي أداة تستند إلى تجهيز إلكترونيّ مرئيّ ومسموع، ويستخدم الكتاب اللغة المكتوبة والورق كحامل). أما الكلمة الإنكليزيّة (mass media) (تُستعمل في صيغة المفرد والجمع في آن)، فيقصد بها في اللغة الفرنسيّة تقنيّات الاتصال على أوسع نطاق (الصحافة، والسينما، والتلفزيون)، وتسمى أيضًا «وسائل الاتصال الجماهيريّ» (communication de masse)، ويحتفظ بها كما وردت في اللغة الإنكليزيّة ويُضاف إليها حرف s (médias)، وتدلّ أيضًا على الصناعة التي تنتجها. و«**وسائط الاتصال**» التي تتيح التواصل بأقلّ عدد من الأشخاص، تسمى الميديا الصغيرة ـ ميكرو ـ (الهاتف على سبيل المثال).

(*) تستخدم هذه الكلمات في اللُّغة العربيّة بدلالات مختلفة: فلفظة (medium) تستخدم بمعنى الوسيلة أو الوسيط، و(média) تستخدم بمعنى وسيلة إعلام، أما (médias de masse) التي صاغها المؤلف بديلًا من الكلمة الإنكليزيّة (mass media)، فتُستخدم بمعنى وسائل الإعلام أو وسائل الاتصال الجماهيريّ، وقد حاولنا الاحتفاظ بكلمة (média) وفق ما وردت في النص الأصليّ لمواكبة التطور الكبير الذي شهده معناها بفعل التكنولوجيا الرقميّة في مجال الاتصال والإعلام. (انظر الثبت التعريفيّ).

t.me/ktabpdf مكتبة

دلالات كلمات الاتصال والميديا

أ- الاتصال = فعل أو وضع مثاليّ

- تقاسم العقل من دون وساطة (مركزيّة كلاميّة)
- تقاسم العقل بفضل التقنيّة (يوتوبيا تقنويّة)
- المشاركة الاجتماعيّة والروحيّة والمادية (جماعويّة)

ب- الاتصال = فعل الشيء مشتركًا عبر تبادل وظيفيّ

- الموضوع المتبادل (الخطاب، الإشارة، وغيرهما)
- التقنيّات المستخدمة (الأداة، الميديا، وسائل الإعلام)
- المؤسسات المطوِّرة لهذه التقنيّات على أوسع نطاق

مستويات الاتصال[4]:

- ما بين الأفراد (وجهًا لوجه، علاقات أوليّة)
- تنظيميّ (فرق، أحزاب سياسيّة، مؤسسات)
- مؤسسات إعلاميّة (المسافة / المتلقِّي لا يرد ردًّا مباشرًا أو قليل الرد)

الخطاب السوسيولوجيّ

تعاني البحوث عن وسائل الإعلام من حساسية مفرطة للضغوطات التي تمارس من خارج الدوائر العلميّة لأنها تتمّ في

(4) شرائح رقيقة يجب إبرازها في هذه المستويات، وكذا تداخلاتها القويّة، فالمؤسسة تستخدم وسائل الإعلام، والتلفزيون الذي يمكن أن يُشاهد وسط العائلة، وبعض الميديا التي يقال إنها «تفاعليّة» مثل الكمبيوتر، تجعل التبادل بين الأشخاص والتبادل بين المنظمات ممكنًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

ميدان ذي ثقل معياريّ مرتفع جدًّا. وتقع بين فكي النقد والاحتفاء، وبين اللعنة والطوباويّة. لقد كشفت هذه البحوث، ومازالت تكشف في بعض الأحيان، عن بعض الصفات النموذجيّة لعدم نضجها العلميّ، نذكر منها:

- كتابة المقالات
- موقف متنازل عن موضوع الدراسة، خاصّة عندما يكون الجمهور المتعدد الذي يعتقد أن معرفة ما يفكر فيه وما يشعر به معرفة قَبْلِيّة (عبر اللجوء المفرط إلى التحليل النفسيّ بوصفه علمًا يدرس لاوعي الحشود) أو تبعيّة لتعريفات المهن المعنيّة بالاتصال وتطلعاتها.
- إعطاء قيمة مفرطة للاستبطان ولأحكام علم الاجتماع السياسيّ (التأويل الشخصيّ الذي يرتدي رداء التحليل الصارم للمضمون) أو الإفراط في منح الثقة للأدوات الإحصائيّة التي توهم بالطابع العلميّ.
- الخلط بين التقنيّات والمجتمعات.
- إحداث تماثل غير مراقب بين سلوك البشر وسلوك الحيوان، وبين الظواهر الفيزيائيّة والظواهر الاجتماعيّة.

يتطلب تطبيق نظرة العلوم الاجتماعيّة على وسائل الإعلام أوّلًا رفض المثاليّة والسَّفْسَطة معًا، فلا يُختصر ما هو اجتماعيّ في ما هو تقنيّ من أجل أن ينغمر أو يتجدّد فيه، لأنه يملك ديناميكيّته الخاصّة.

مكتبة t.me/ktabpdf

ولا يستند عقل الإنسان إلى «الحقائق الأبديّة» التي يتم تقاسمها عبر الحوار وحده، لأنه موجّه قبل كل شيء إلى العقول، في مسار حيث تتشكل الحقائق المشتركة تدريجيًا من دون أن تأخذ طابعًا يتعالى عليها. ونظرًا إلى أن وسائل الإعلام تصل البشر بعضهم ببعض، فيصح أنها تشكل ثقافات، وتساهم في ثقافات أخرى، وتعزّز بذلك سلطات، سواء بتثبيتها أو تقويضها. وتقع وسائل الإعلام في شبكات من السلطات لكنها لا تشكل في حد ذاتها شبكة السلطة، ولا كيانات شيطانيّة مستقلة ذاتيًا. سنعود تدريجيًا إلى التعارض بين المرامي الإقناعيّة والعقل التواصليّ في هذا الكتاب، وذلك بتعيين الحدود بين الطبيعويّ والثقافويّ.

إن تطبيق هذه النظرة على وسائل الإعلام يعني السعي الدؤوب إثر ذلك، وبتواضع، إلى بناء إطار تأويليّ للظواهر التي نلاحظها والقبول بفحصها إمبيريقيًا. ويضطلع الباحث بمهمة جعل الأحداث غير قابلة للنقاش وفق الأفق الذي يتبناه، وبحسب اختياره الإبستيمولوجيّ أي يثبت صحتها أكثر من مرّة، أو يجعلها قابلة للنقاش، فيسعى إلى دحضها على الصعيد الإمبيريقيّ والنظريّ في مسار من الإثراء المنتظم. بينما تظهر الأحداث في الحس المشترك الذي لا يخطئ، بالضرورة أنها على ما هي عليه أوّلًا وقبل كل شيء أي أنها معطى بديهيّ. بيّن بول لازارسفيلد في دراسة مشهورة يعود تاريخها إلى 1949، أن النّاس قادرون على تقديم إجابات عن أي موضوع ويُقدّرون أنها بديهيّة لكنها متناقضة تمامًا. لذا، من الممكن أن نقدم في بعض الأحيان إجابات عن بعض الأسئلة المقلقة التي يكتظ

t.me/ktabpdf مكتبة

بها حقل الاتصال عبر وسائط الإعلام، مثل: هل تؤدي المحتويات العنيفة التي تبثها وسائل الإعلام إلى ممارسة العنف؟ وهل تضلل وسائل الإعلام الرأي العام؟ وهل تنتشر الثقافة الأميركيّة عبر وسائل الإعلام؟ وهل يقضي التلفزيون على القراءة؟ وهل يُلحِق التلصُّص التلفزيونيّ ضررًا بالديموقراطيّة؟ وهل يُعَدّ الاتصال الإلكترونيّ مفتاحًا سحريًّا لعالم أفضل؟ أن هذه الأسئلة ليست بسيطة، لكنها تجد بلا كلل العديدَ من الإجابات البسيطة، بل التبسيطيّة «لأسباب وجيهة»، بينما لا معنى لها، أو أن ما تطرحه من مشاكل قد وجد تدريجيًّا حلولًا.

أخيرًا، إن دراسة وسائل الإعلام على ضوء العلوم الاجتماعيّة هي تجنّب كل المحاولات التنبئيّة والطوباويّة، مع الاعتراف بوجودها كعائق علميّ، وكمصدر فعل بعض الأشخاص (إذا لم تتحقّق هذه التنبؤات تثير ردود البعض، ومنهم العلماء). إذًا، من الضروريّ دراسة أدوات التحليل باستمرار من أجل تفادي السقوط في مطب التنديد، والتنبؤات، والطوباويّات. إن جينيولوجيا الخطابات حول الاتصال ترافق هذه الجهود لصياغة نماذج تأويليّة لسلوك المهنيّين، والمحتويات، والجمهور. وتُعنى دراسة تبعات التغيير - الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة - الذي تحدثه وسائل الإعلام، باجتناب استحضار الفضائل السحريّة للسلطات المجهولة، والعودة دائمًا إلى مخترعي هذه الوسائل ومستخدميها، إلى البشر والعلاقات التي توحدهم على مستوَيَي الفعل والأيديولوجيا.

t.me/ktabpdf
مكتبة

المراجع:

تمت الإشارة، في مراجع هذا الفصل والفصول الأخرى، إلى مكان نشر الكتب التي لم تطبع في باريس.

BRETON Philippe, PROULX Serge, *L'Explosion de la communication. À l'aube du XXI^{e} siècle* (1989), La Découverte, 2002.

BUCKINGHAM David, «Introduction: Young People and the Media», *in* BUCKINGHAM David (dir.), *Reading Audiences. Young People and the Media*, Manchester, Manchester University Press, 1993.

CASSIN Barbara, *L'Effet sophistique*, Gallimard, 1995.

_____, «La sophistique», *Encyclopædia Universalis*, 1982.

LAZARSFELD Paul, «The American Soldier: an Expository Review» (1949), *in* BOURDIEU Pierre, CHAMBOREDON Jean-Claude, PASSERON Jean-Claude, *Le Métier de sociologue*, Mouton/Bordas, 1968.

NEVEU Érik, *Une société de communication?* Montchrestien, 1994.

PLATON, *La République*, Garnier Flammarion, 2000.

SFEZ Lucien, *Critique de la communication*, Seuil, 1988.

WILLIAMS Raymond, *Keywords. A Vocabulary of Culture and Society*, Londres, Oxford University Press, 1976.

WINKIN Yves, (dir.), Présentation générale à *La Nouvelle communication*, Seuil, 1981.

t.me/ktabpdf

مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفصل الثاني

منعطف سوسيولوجيا الاتصال المفقود

الآباء المؤسّسون ومسألة وسائل الإعلام

يتوجّه هذا الفصل، خلافًا للذي سبقه، إلى جمهور يملك تكوينًا في العلوم الاجتماعيّة. لقد وضعناه في بداية هذا الكتاب احترامًا لتسلسل الأفكار الزمنيّ حول الاتصال، وكان حريًّا بأن يُقرأ مع الفصل الخامس عشر في آن، لأنه يتضمّن مفاهيم التفكُّر والتجربة. إن رهان إعادة قراءة لحظات ميلاد البحث في العلوم الاجتماعيّة الأولى يتجاوز إعادة قراءة تاريخ الأفكار، والقصد هو إظهار أن اللحظات الأولى أُدرجت في خانة المسكوت عنه أو اعْتُبِرت عديمة الفائدة، على رغم أنها تحدّد مسألة الاتصال. إن إحياء البحوث التي أنجزت في بداية القرن العشرين ساهم في تجديد البحث في بداية القرن الواحد والعشرين. والطرح الذي ندافع عنه في هذا المقام يكمن في القول إنه إذا كانت فكرة التأثير المباشر قد سيطرت على البحث في مجال وسائل الإعلام خلال النصف الأول من القرن العشرين، بمعنى تضليل الأشخاص بواسطة وسائل الإعلام، وتم تقبل هذه الفكرة التي تقدم صورة كاريكاتوريّة عن علم النفس الفرديّ وديناميكيّة العلاقات الاجتماعيّة، فإن المصادر النظريّة التي كانت متوافرة في مطلع القرن العشرين، تسمح بتطوير مبكر لدراسة

وسائل الإعلام وجمهورها بشكل دقيق يكشف تبايناتها. إن الآباء المؤسسين للعلوم الاجتماعيّة في أوروبا لم يتجاهلوا وسائل الإعلام، إذ قدم كل واحد منهم عناصر حاسمة للتفكير فيها، واهتم المفكرون البراغماتيّون في الولايات المتحدة الأميركيّة بمسألة الاتصال، لتأكيد مكانته المركزيّة في عالم السلوك. بيد أن القطيعة الأساسيّة التي يمثلها تأكيد الحداثة الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة أثرت تأثيرًا كبيرًا على المؤلفات ذاتها التي صاغها هؤلاء المفكرون، والمسكونة أحيانًا برؤى تشاؤميّة حول تطوّر المجتمعات، وقد ارتبطت هذه القطيعة بالصدمة التي أحدثتها الحربان العالميّتان وبروز أنظمة شموليّة. وقد تصدى هذا التشاؤم لإرساء تقاليد البحث في أوروبا في موضوع من أكثر المواضيع رمزيّة لهذه الحداثة. وفي الولايات المتحدة الأميركيّة، بدأت الأفكار بالكسوف منذ 1930، غير أن إرث البراغماتيّة ظلّ معتبرًا. وتسمح إعادة اكتشاف مفاهيمه وافتراضاته الإبستيمولوجيّة اليوم، بفهم تناقضات الحداثة الأكثر تطوّرًا، وإدراك أن مرجعيّة أبحاث القرن التالي تعود إلى هذا الإرث.

المفاهيم الأساسيّة للعلوم الاجتماعيّة والاتصال

طرح علماء الاجتماع الأوائل أسس دراسة الاتصال بين الأشخاص، والاتصال الجماهيريّ، وإن لم يطلقوا عليه هذه المسمّيات، في الوقت الذي وضعوا أسس تحليل العلاقات بين الأشخاص ذات الارتباط الشديد بظروف حركة التصنيع والدمقرطة، والتي اعتبروها تهديدًا لها في القرن التاسع عشر. واهتمت هذه الأسس

t.me/ktabpdf مكتبة

بالثوابت المفاهيمية والمنهجيّة التي سمحت بإدراك وجود العديد من المجتمعات أو تلك التي سبقتها في الوجود، والفعل التدشيني في هذا المضمار هو ذاك الذي أدى إلى عدم رؤية العالم الذي نسكنه على أنه تابع لنظام إلهيّ أو طبيعيّ، بل نتاج كامل للعلاقات التي يقيمها البشر. ووجب النظر إلى تجليات الواقع الاجتماعيّ كله، من أسرة وجيش وشهادة ووسيلة نقل وصحافة وتبادل اقتصاديّ وامتثال لأمر لفظيّ، كنتاج أو تجسيدات لعلاقات السلطة والمعنى التي توحد النّاس في المجتمع وتفرقهم. لقد فصل كارل ماركس البشر عن سلطة الطبيعة باستخدام مفهوم «العلاقات الاجتماعيّة» التي تسجل التبعيّة المتبادلة، سواء على مستوى الطبيعة (العمل) أو على مستوى الأفكار. وتحدث إميل دوركايم (Émile Durkheim) عن الواقع بصفته «أحداثًا اجتماعيّة»(*)، وتعامل معها بصفتها «أشياء». أما ماكس فيبر، فقد استخدم من جهته أشكالًا من «الفعل الاجتماعيّ» لا يمكن اختزالها في أي شيء، لأنه تابع للمعنى الذي يمنحه له الأشخاص. هذا الأمر غير المتحكَّم فيه، الذي يفضي في بعض الأحيان إلى الإفراط في الاختزال السوسيولوجيّ ويؤدي إلى تبنّي الموقف الذي يسمى بنائيًّا، والمرتبط بفكرة أن «الواقع هو نتاج بناء اجتماعيّ»، وفق تعبير بيتر برغر (Peter Berger) وتوماس لوكمان (Thomas Luckmann)، والتي يدافع عنها اليوم غالبيّة المفكرين.

(*) استعمل الكاتب الصيغة التعبيريّة اللاتينيّة (sui generis) التي تعني: من الصنف ذاته. وكان يقصد بها أن كلمة الواقع هي من صنف الأحداث الاجتماعيّة ذاتها.

مكتبة t.me/ktabpdf

لقد طور كل واحد من هؤلاء المفكرين نظرة خاصّة لما هو اجتماعيّ سمحت بإدراج معنى استخدامه. وبمفهومي «الأيديولوجيا» و«الطبقات الاجتماعيّة»، وضع ماركس الصراع في قلب دراسة المجتمعات، وجلب إليها فكرة أن هذا الصراع لا يقتصر على المصالح الماديّة فحسب، بل يشمل أيضًا الأفكار والتمثُّلات والصور التي نستعملها لتعبر بالمقدار ذاته الذي تفرض به وجهات نظر مبنيّة عن العالم (أيديولوجيات) يتقاسمها في الغالب الأشخاص الذين يشكلون جماعات اجتماعيّة متجانسة، والتي تحتل مواقع متقاربة في النظام الاقتصاديّ المعاصر، وفي الشكل التاريخيّ للإنتاج والاستهلاك الذي نسميه رأسماليّة. وتتحقّق السيطرة الاجتماعيّة التي تعاني منها الجماهير الكادحة عبر استغلالها الاقتصاديّ وتدمير قدراتها على خلق أيديولوجيتها الخاصّة لمصلحة الأفكار المهيمنة. إنها أفكار الطبقة المسيطرة بالضرورة. وخلافًا لماركس الثوريّ، فإن دوركايم اشتراكيّ جمهوريّ يركز على مفهوم التوافق والاندماج الاجتماعيّ، ويقدّر أنهما مهمان، ومن دونهما تحدث الفوضى الأخلاقيّة التي اكتشفها في كل أبعاد الحياة الجماعيّة، فاللغة على سبيل المثال، تنقل منذ الولادة، وليست وليدة اختيار حر، بل يحدث حولها «توافق منطقيّ» ينغرس في الذهن بحكم «الإكراه الاجتماعيّ»، على غرار العديد من طرائق وجودنا وتفكيرنا وتصرفاتنا: «إن المؤسسات تجبرنا ونحبها». فالتعلم واستبطان المعايير يصقلان الكائنات الاجتماعيّة التي ليست منشغلة بمتعها الأنانيّة فقط. ولم يتطرق دوركايم إلى المدرسة وعالم الشغل أو الدين

t.me/ktabpdf

مكتبة

فقط، بل درس أيضًا مشكل الإنتاج والمعرفة وأشكال المنطق، ويرى أن التصنيفات الدينيّة ثمّ العلمانيّة هي أطر لتأويل الواقع تستخدم لاكتشاف العالم الفيزيائيّ والنفسيّ والاجتماعيّ، وفي الوقت ذاته تُفرض كقيود للانتماء إلى جماعة بشريّة أو أكثر. وبهذا تترجم الوجود المسبق للجماعات البشريّة وبروز المخيالات الاجتماعيّة، و«الوعي الجماعيّ»[5]. أما فيبر، الليبراليّ والنيتشويّ، فإنه شديد الاهتمام بالطابع القصديّ للأفعال الاجتماعيّة، التي يقسمها إلى أربعة أنماط مثاليّة يتواءم فيها تنوع الممارسات ودوام ما سمي لاحقًا بـ «البُنى»: فعل عقليّ غائيّ (يربط الوسائل بالغايات)، وفعل عقليّ قيميّ (متجذر في المعتقدات)، وفعل عاطفيّ (تحمله العواطف)، وفعل عقليّ تقليديّ (الروتين والعادة). وكل فعل ذي معنى بالنسبة إلى الفرد هو فعل «عقليّ»، ويجب أن يكون له معنى بالنسبة إلى عالم الاجتماع، الذي يسعى إلى فهمه وليس إلى شرحه فقط، باختزاله في ارتباطات سببيّة جماعيّة، كما تقود نظريّة أشكال الهيمنة الثلاثة نظريّة اعتقاد تفترض أن السلوك الاجتماعيّ يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنظمة وفق دوافع الذين يخضعون لما يُعتبر ذا مشروعيّة. وتستند «المشروعيّة القانونيّة والعقلانيّة» إلى الإيمان بأن الشرعيّة أو النظام يقود الطاعة، فالمشروعيّة «التقليديّة» ترسخ هذه الطاعة في مرجعيّة الماضي، و«المشروعيّة الكاريزماتية» أو العاطفيّة تستند إلى الاعتقاد بالطابع الاستثنائيّ أو المقدس للشخص.

---

(5) نظرًا إلى كون سوسير دوركايميًّا جيّدًا، شرَحَ، في ذاك العصر، عمل اللغة انطلاقًا من مفهوم تعريفه الرمز، فكل مجتمع اختار أن يربط الدلالات بالظواهر من دون أن تكون هناك حتميّة طبيعيّة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

إلى هذه اللَّبِنات الأساسيّة في التحليل السوسيولوجيّ الماديّ (النقديّ، والشموليّ، و«المعرفيّ»، والشخصيّ/ الشامل، والمثاليّ)، التي نستخرجها عادة من مؤلفات هؤلاء الكتّاب الثلاثة وتتسم بشدة تعقيدها، تضاف مساهمات ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville)، مفكر الديموقراطيّة، الذي يعتبرها حركة متواصلة لمساواة شروط الوجود (تحويل العمال إلى أجراء والضمان الاجتماعيّ يصقلان العالم المشترك)، ومساهمة جورج زيمّل (George Simmel)، الذي يملك لباقة استحضار الظروف المتناقضة للإنسان المعاصر وثقافته، ومساهمات كل من فرديناند تونيس (Ferdinand Tönnies) وغبريال تارد (Gabriel Tarde)، سواء في توتّرها أو تعاونها، فتحت فضاءً واسعًا للتفكير في الاتصال. ويمكن وصف الاتصال الذي يجري بين شخصين أو بضعة أشخاص، على الأقلّ في البداية، انطلاقًا من الأدوات التي ورثت عن الآباء المؤسسين. إنه يتجلى طبعًا في التبادل التقنيّ للصوت والإيماءات، غير أن توجّهه وتأثيره يظلان غير مفهومين بالنسبة إلى الذين لا يدرجونهما في فضاء العلاقات الإنسانيّة الواسع. إن الانصياع إلى الأوامر ليس استجابة لشكل من الاتصال المصمم بشكل جيّد، ولا لتقنيّة فاعلة تجعل أي شخص يخضع لأي شخص آخر، لكنه إذعان إلى وجهة نظر عن العالم لأسباب وجيهة، ربما ترتبط بالسيطرة الاقتصاديّة والثقافيّة أو بالاعتراف بشرعيّة الأوامر (سواء كانت عقلانيّة، أو تقليديّة، أو كاريزماتيّة) أو وظيفتها الإدماجية اجتماعيًا (لا أحبذ تطبيق أوامر والديّ لكنني أمتثل لها حفاظًا على المجموعة

t.me/ktabpdf مكتبة

الأسريّة) في سياق التوافق الكافي بين الشرعيّة المدركة وطريقة التعبير عنها. وعصيان أمر ما لا يدلّ، في الغالب، على «إخفاق» الاتصال (لم يتم التعبير عنه بشكل جيّد أو لم يشدّ الانتباه)، بل يدلّ على نزاع مفتوح بين أشخاص أو جماعات اجتماعيّة متجانسة، كأن يأمر شرطيّ المتظاهرين بأن يتفرقوا فيقومون بعكس ما أمرهم به أي التجمع لتأكيد مخالفتهم أوامره، فشرطة مكافحة الشغب تُؤَول هذا الأمر وتعتبره إشارة لأفرادها لتحضير أنفسهم للتدخل لتفريق المتجمّعين. لقد قامت السوسيولوجيا في بدايتها بدور كبير وبنائيّ في بلورة نظريّات الاتصال بين الأشخاص والاتصال التنظيميّ، وقد استغل إرثها كل من علم النفس الاجتماعيّ (الفصل الخامس)، وأنثروبولوجيا الاتصال (الفصل السادس) والتيارات اللّاحقة.

الآباء الأوروبيّون المؤسسون ووسائل الإعلام

من السهل أن نزعم بَعديًّا القول إنه كُتِب على الاتصال عبر وسائل الإعلام أن يكون موضوعًا أساسيًّا في العلوم الاجتماعيّة يتّسم بالخصائص التي جذبت انتباه علماء الاجتماع الأوائل في بحثهم عن تعريف للحداثة. إن إقامة علاقة «جماهيريّة» عن بُعد بين الأفراد، والانقسام إلى مجموعات اجتماعيّة وثقافيّة، والانطواء في الفضاء الفرديّ، والتطوّر التقنيّ الدقيق... كلها عوامل تطرح رهانات العصر العويصة على التفكير، فقبل أن نعتبرها أشكالًا من العلاقات الاجتماعيّة، كان من الضروريّ نسيان تملّكها الضمنيّ. إن الرؤية السوسيولوجيّة التي تميل إلى رفض كل سببيّة تبسيطيّة تنسب الأفعال

الاجتماعيّة إلى مصادر طبيعيّة أو غامضة، قادت خطوات المعارف التي كانت قيد التشكل. لقد باشر إميل دوركايم حقًّا في كتابه **الانتحار** (*Le Suicide*) في 1879، تفنيدًا ساطعًا لفكرة تأثير الصحف المباشر على الوعي الفرديّ، وعزّزه بإحصاءات (انظر الفصل الرابع) في خضم نقده مفهوم التقليد الاجتماعيّ. وعلى رغم التطوّر الجماهيريّ للصحف في البلدان الغربيّة الكبرى، لا ننتحر بالمقدار ذاته في كل بلد منها. والانتحار لم ينتشر بشكل مرتبط بتغطيته الإعلاميّة. إذًا، إن سلطة التقليد التي تسببها الصحافة من خلال ما تنشره من أخبار عن الانتحار والجرائم، لا وجود لها في الواقع، فالانتحار ظاهرة تُفسر قبل كل شيء بـ«الوسط الاجتماعيّ» وإن أقبل بعض الأشخاص المُوَسْوَسين، القلائل جدًّا، على الانتحار بعد قراءة الصحف، فبعد مرور قرن من الزمن لا تزال هذه الملاحظة تحافظ على راهنيّتها. لقد تساءلت الصحافة الفرنسيّة في 1993، بنوع من الرضا عمّا تمتلكه من سلطة، ومن باب النقد الذاتيّ لممارستها، عن إمكان انتشار موجة الانتحار تقليدًا للوزير الأول الفرنسيّ بيار بيريغوفوا (Pierre Bérégovoy)(*). ولا زالت الصحف إلى غاية اليوم تنشر مواضيع عن انتشار الجرائم من باب التقليد، وكأنها تكفِّر عن إحساسها بالذنب بشكل أكثر من طقوسيّ.

ومن جهة أخرى، شحذ التفكير الذي لا يستند إلى نقد وسائل الإعلام، والمتمركز حول الصحافة، وسائلَ الإعلام الجماهيريّة

(*) بيار بيريغوفوا: وزير ورئيس الحكومة الفرنسيّة من 1992 إلى مارس 1993. انتحر بعد أن اتهمته صحيفة **لو كنار أنشيني** (*Le canard enchainé*) بأخذ قرض بمبلغ مليون فرنك فرنسيّ من دون فوائد في 1986.

t.me/ktabpdf مكتبة

في القرن 19، فـ«توكفيل» قدّم تنظيرًا هامًّا لفكرة الرأي العام، بجانب مساهمته في وضع الأسس الأولى لدراسة المجتمعات المعاصرة (انظر مؤلّفه **الديموقراطيّة في أميركا 1835 - 1840** *(De la démocratie en Amérique 1835 - 1840)*. إن للصحافة سلطة عظيمة في النظام الديموقراطيّ، كما يبيّنه المثال الأميركيّ، لكنها ليست السلطة المنسوبة إليها عادة أي تضليل الوعي: «تعرف الصحافة كيف تلهب المشاعر الإنسانيّة بيد أنها لا تستطيع بمفردها أن تنتج هذه المشاعر». إنها تضطلع عمليًّا بثلاث وظائف على الأقلّ، وهي:

- ضمان الحرية بتعرية الآليّات السرية للسياسة (إنها «تجبر الشخصيّات العامّة على المثول تباعًا أمام محكمة الرأي العام»).
- الحفاظ على الجماعة، بتزويد المواطنين بمرجعيّات مشتركة («لا يوجد سوى الجريدة ما يمكنه وضع الفكرة ذاتها في اللحظة عينها في ذهن الآلاف من النّاس»).
- التمكن من القيام بسرعة بعمل مُدَبَّر: (لأن النّاس والأحزاب السياسيّة «يتحدث بعضها مع بعض وتتفق من دون أن تلتقي»).

وتعني حالة الديموقراطيّة تجزئة الأفكار الفرديّة (كل شخص يرغب في الدفاع عن أفكاره ويستطيع فعل ذلك)، ويوجد في بعض الأحيان وفي الوقت ذاته، اتجاه ينحرف نحو النزعة الامتثاليّة القويّة، والتي تعود - بحسب توكفيل - إلى العديد من العوامل، منها على وجه الخصوص حركة المساواة في الشروط (يشعر الأفراد بأنهم أكثر قربًا)، والحاجة النفسيّة إلى الاستقرار على الآراء المشتركة، ومنح الثقة

t.me/ktabpdf مكتبة

(لا يمكن أن نشكك دائمًا في كل شيء). إن الصحف تلبي هذه التطلعات وتعزّزها من دون أن تلدها، فسلطتها تكمن في تمثيل الآراء المتنوعة، والسماح في الوقت ذاته لبعضها بالانتصار بسرعة كبيرة، عبر ترسيخ التوافق عليها، فلكل بلد تقاليده الديموقراطيّة الخاصّة، وصحافته التي تعكس هذه الخصوصيّة. لقد بيّن توكفيل أن الصحف في الولايات المتحدة الأميركيّة تختلف عن الصحف في فرنسا، عدديًا وعلى صعيد المحتوى والشكل، والسبب في ذلك لا يعود إلى اعتبارات اقتصاديّة، بل إلى عوامل ثقافيّة وسياسيّة في الأساس، وهذا الأمر لا يزال صحيحًا حتى اليوم. إن حيوية التشارك في الأفكار هي مصدر الآراء التي تنشرها الصحف وإن شكلت هذه الصحف تداعيًا نسقيًّا للأفكار، بمنح مؤلفيها إمكان الاجتماع والسير معًا. وتستطيع الصحف، نظرًا إلى كونها مستقلة، أن تسمح باستبداد الذوق السقيم أو أن تجنح نحو العنف، ويمكنها أيضًا أن تعزّز الأفعال المشتركة المتهورة، لكن كل هذا لا يطعن في مساهماتها الأساسيّة: «إن المرض الذي تسببه أضعف بالتأكيد من الأمراض التي تعالجها»، وإذا كانت الصحف قليلة الالتزام بالموضوعيّة، وبالنظرة النقديّة، ومشبعة بأفكارها المسبقة، فإن إخراسها لا يمكن أن يقضي على المصالح التي تدافع عنها. «الوسيلة الوحيدة للحد من تأثير الصحف هو مضاعفة عددها».

إن ماكس فيبر المعروف أكثر بمؤلفاته عن الاقتصاد والديانة، لم يجهل جهلًا تامًّا المشاكل التي أثارها ظهور وسائل الإعلام في المجتمعات المعاصرة، لأنه كتب نصًّا في 1910 خصه لـ«سوسيولوجيا الصحافة»، ووجّه تقريره الأولي عنها، الذي تضمن

t.me/ktabpdf مكتبة

سبع صفحات، إلى «الجمعية الألمانيّة لعلم الاجتماع» (Deutsche Gesellschaft für Soziologie). وشكّل هذا النصّ المكثف برنامجًا كاملًا للبحوث حول وسائل الإعلام، حيث أعلن عن دراسة مهن الاتصال (لقد تناول ماكس فيبر بالتحليل الصحافيّين أيضًا في كتابه **العالِم والسياسيّ**[*] *Le Savant et le politique*) وبُنية سوق الإعلام، وتنظيم مؤسسات الاتصال، وعلاقات الصحافة والسلطة السياسيّة، وعلاقات التكامل والتعويض بين وسائل الإعلام، والتأثير على الرأي العام... واستمتع ماكس فيبر بالتهكم على النظريّات المنتشرة يومئذ، والتي تمنح لقراءة الصحف تأثيرًا مباشرًا على الدماغ أو تسليمًا بتدمير الصحيفة الكتاب. لقد لاحظ أن تطلعات القراء ليست ذاتها في مختلف البلدان، وهي التي تعدّل الصحف أكثر من قيام هذه الأخيرة بتعديل قرائها، قبل أن يستحضر مبادئ التحليل الكميّ والنوعيَّ لمحتويات الصحف من دون أي محظور (كل أركان الصحيفة جيّدة للدراسة). وأخيرًا، اقترح تحليلًا للمساهمة الخاصّة التي تقدمها وسائل الإعلام للإنسان الحديث، و«تحويرًا جماهيريًّا» لطريقة إدراك العالم الخارجيّ التي تنجم عن تعدد وجهات النظر والمواجهة الدائمة بينها.

إن غبريال تارد، الذي وضع ببحوثه أصول علم الاجتماع الجزئيّ الفرنسيّ، واعتُبر لمُدّة طويلة غريمًا منكود الحظّ لدوركايم،

(*) محاضرتان ألقاهما ماكس فيبر في 1919 تطرق فيهما إلى مهنتي العالِم والسياسيّ، وحاول أن يستجلي أخلاقيّاتهما وغاياتهما، وقد قدم تحليله لهاتين المهنتين ضمن أفق تطور الرأسماليّة في أوروبا وبروز الحداثة.

t.me/ktabpdf مكتبة

لأنه دافع عن نظريّة التقليد الاجتماعيّ المثاليّة جدًّا، قدّم على رغم ذلك مساهمة حاسمة في نظريّات الاتصال، وفق ما ذكره إليهو كاتز (بعد لازارسفيلد، وت. ن. كلارك T. N. Clark، وروبرت إ. بارك). إنه مخترع نظريّة «انتقال المعلومات عبر مرحلتين» قبل الأوان، ومقترح أنموذج الاتصال الذي يرفض فكرة تأثير الصحافة المباشر والمتسلط لمصلحة فكرة الجمهور النشط، فالصحافة لا تفرض محتوياتها، ويمكن بالأحرى مقارنتها بلائحة الطعام في المطاعم، لأنها تعرض العديد من الآفاق الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة التي تُنَشِّط برامج المناقشات: «قلم واحد يكفي لتحريك ملايين الألسن». والاتصال بين الأشخاص لا يمكن اختزاله في الاتصال عبر وسائل الإعـلام، لأن الصحافة تغذي المحادثات التي تجري مسبقًا، وتجمع من دون كلل الأشخاص والمجموعات الاجتماعيّة. والمحادثة هي مصدر الآراء الفرديّة، وهي مُجمّعة في آراء اجتماعيّة: أن تأثير المحادثة وجهًا لوجه أكثر نجاعة من كل تأثير، وتفضي إلى تشكّل الأفكار المهيمنة. لقد اقترب تارد في العمق ممّا طرحه إميل دوركايم الذي تحدث عن تأثير «الوسط الاجتماعيّ»، لكنه وصف ديناميكيّة الاتصال بين الأشخاص بشكل أكثر دقة. وهكذا، نجد أن الآراء تتشكل في مسار المحادثات. وبالنسبة إلى تارد، إذا كان هناك للصحافة تأثير حتميّ فإنه يتجلى في حماية الحرية البرلمانيّة، وفي ظهور جماعات اجتماعيّة، مثل «الدول ـ الأمم». وسلطتها إذًا تكمن في ربط هذه الجماعات وجعل تنوّع وجهات النظر ممكنًا. كتب تارد: «قبل ظهور الصحيفة كان للعاهل وحده الإمكانات لقول ما يفكر فيه

مكتبة t.me/ktabpdf

النّاس في مختلف القرى، حيث كانت الوحدة الجنينيّة للأمة تلتقي في شخصه. لقد انتحلت الصحيفة هذه الوظيفة الملكيّة وجردتها من الوهم والغموض، فالصحافة التي تقوم بتقديم الأشخاص بعضهم لبعض في القرى المتناثرة، أصبحت معقلَ الاندماج الاجتماعيّ وعاملَه» (Katz, 1992, 267).

لقد درس كارل ماركس (الذي كان صحافيًّا لمُدّة طويلة) وفريدريك أنغلز (Friedrich Engels) الرواية الشعبيّة (الاشتراكيّة) المعنونة **أسرار باريس** (*Les Mystères de Paris*) لمؤلفها أوجين سو (Eugène Sue)، في مؤلفهما **العائلة المقدّسة** (*Sainte Famille*) في 1845، وتساءلا عن أثر هذه الرواية الإيجابيّ على الشعور الثوريّ: هل ضَمن كاتبها مساندة القراء عندما ندّد بظروف الحياة الصعبة التي تعاني منها الأوساط الشعبيّة؟ وهل عزّز بروز وعي يساريّ؟ ونظرًا إلى اقتناعهما بأن الأفكار (البنية الفوقية) يستحيل أن تغير العلاقات الاجتماعيّة التي تحدّدها العلاقات الاقتصاديّة (البنية التحية)، شبّها هذه الرواية، بطريقة آليّة، بالأدب الرجعيّ: لقد ضلّل الروائيّ سو القراء بالأفكار الجميلة والخاطئة التي تضمّنتها روايته، بإخفاء أيديولوجيا الحفاظ على «الوضع الراهن على ما هو عليه». إن هذا التشبيه يُضيع فرصة فحص العلاقة بين الجمهور والرسائل الإعلاميّة التي يستهلكها، مثل ملاحظة أثر الرواية الشعبيّة على أحداث 1848، كما لاحظ ذلك أمبرتو إيكو (**من السوبرمان إلى الإنسان الأعلى** *De Superman au surhomme, 1978*). وقد ترتب عن رفض التأثير المذكور للبنية الفوقية، أن الماركسيّة ظلّت عاجزة لمُدّة طويلة

t.me/ktabpdf مكتبة

عن تقديم مساهمة حاسمة في دراسة وسائل الإعلام التي تتهمها بانتظام بأنها تخدم القوى المسيطرة.

واستحضر عالم الاجتماع الألمانيّ فرديناند تونيس من جهته، في نصوص ثريّة لكنها عامّة جدًّا، فكرةَ أن الصحافة تؤدي إلى انفتاح الدول وتأسيس جمهوريّة عالميّة بلا عنف ويقودها العلماء والمفكرون. لقد تنبأ في رؤاه الطوباويّة بالتيارات التقنويّة التي تحن إلى الجماعات البشريّة مع الاحتفاظ بهامش سوسيولوجيّ تجاه الحركة التي يصفها بـ«ذكريات العنف»، بمعنى أن قُوَّة هُوِيّات المجموعات تظلّ دائمًا كبيرة.

غياب الاستئناف والتشاؤم من الحداثة

لم تستأنف جهود الآباء المؤسسين فورًا ولا حدسهم، ولم تتجسد في تقاليد بحثيّة. ويمكن تفسير ذلك بأسباب عديدة، فالمؤكد أن تخلف وسائل الإعلام الإلكترونيّة الأوروبيّة الكبرى على الصعيدين التقنيّ والاقتصاديّ مقارنة بالولايات المتحدة الأميركيّة (نتيجة احتكار الدولة الإذاعة)، لم يكن في صالح أوروبا. وتبدو الأرضيّة للقيام بتحقيق لتفسير غياب هذا الاستئناف مخفيّة. بيد أن بول لازارسفيلد (Lazarsfeld, 1970) قدم ملاحظة مبالغًا فيها تؤكد أن «الحربين العالميّتين بطّأتا تطوّر العلوم الاجتماعيّة في أوروبا الغربيّة، إذ لم يُنْشر أي كتاب مُهِمّ ذي علاقة بالتقاليد الكلاسيكيّة في أوروبا في الفترة الممتدة من 1920 إلى 1950». وميزة هذه الملاحظة أنها تذكرنا بالضريبة البشريّة، بخاصّة العلميّة، التي دفعتها الدول الأوروبيّة للحرب: لقد أضحى المطلوب بناء تخصصات عامّة في

t.me/ktabpdf مكتبة

العلوم الاجتماعيّة أو إعادة بنائها أكثر من إطلاق بحث خصوصيّ حول وسائل الإعلام في هذه الفترة.

إن السبب الأساسيّ الذي كبح البحث في ميدان وسائل الإعلام ولم يُدوّنه التاريخ بعد، نجده في مؤلفات علماء الاجتماع الأوائل أنفسهم، وفي السياق الفكريّ السائد في ذاك الوقت، فالسينما كانت صناعة مزدهرة في أوروبا (خصوصًا في فرنسا) في العصر الجميل، والأدب الشعبيّ كان حاضرًا. لكن ما يجب أن يُلاحظ أن ماكس فيبر لم يكتب **أخلاقيّات المسلسلات الروائيّة وروح الرأسماليّة**(*) (*L'Éthique des romans feuilletons et l'esprit du capitalisme*)، بينما كتب كتابًا علميًّا حول **سوسيولوجيا الموسيقى**[6] (*Sociologie de la musique*)، ولم يكتب إميل دوركايم أيضًا كتاب **الأشكال الأوليّة للحياة الإعلاميّة**(**) (*Les Formes élémentaires de la vie médiatique*). ولم يؤلف كارل ماركس

(*) ورد هذا العنوان للإشارة إلى أن ماكس فيبر ألف كتابًا بعنوان (*L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme*)، ولم يخصّه للمسلسلات الروائيّة (feuilleton)، فهذه الكلمة التقنيّة كانت تدلّ في اللُّغة الفرنسيّة على ما ينشر أسفل صفحات الصحيفة في القرن 19، والمخصص للنقد والمقالات العلميّة والأدبيّة، قبل أن تخصص لنشر الروايات الشَّعبيّة، في شكل حلقات متسلسلة بدءًا من 1836، وبهذا اكتسبت هذه الكلمة التقنيّة معناها الحالي.

(6) لإمكان استخدام هذه السوسيولوجيا تمكن العودة إلى المقدمة التي وضعها إيمانويل بدلر لهذا الكتاب في طبعته الفرنسيّة في 1998.

(**) للإشارة إلى الكتاب الذي ألفه إميل دوركايم في 1912 بعنوان: (*Les Formes élémentaires de la vie religieuse*).

t.me/ktabpdf مكتبة

كتابًا بعنوان **من أجل نقد الاقتصاد السياسيّ للصحافة** (*Pour une critique de l'économie politique du journalisme*).
إن ضعف الاعتراف العلميّ والاجتماعيّ الذي يمكن أن يجنيه الاستثمار في البحث في ميدان الإعلام، واحتقار عالم الصحافة التجاريّ، والنظرة البعيدة جدًّا والأبويّة لممارسات الأوساط الشعبيّة، وصعوبة التحليل الفعليّة الناجمة عن عدم أخذ البعد التاريخيّ بالاعتبار، كلها عوامل وقفت حاجزًا أمام دراسة وسائل الإعلام. لقد سادت فكرة هذه الدراسة منذ مُدّة طويلة، واضطلعت بها الماركسيّة خلال القرن العشرين، غير أن العلاقات الأوليّة «العميقة» الخاصّة بالعمل الصناعيّ والبيروقراطيّة والبنى العائليّة كانت أكثر حسمًا و«جديّة»، ولم تتجلَّ قيمة الميدان الثقافيّ إلا بدراسة الشجون الدينيّة قبل كل شيء، وهذا ما أفضى إلى منح الأولويّة لتطوير تخصصات العلوم الاجتماعيّة في العلاقات المذكورة أعلاه.

أخيرًا، يُفسّر النأي عن الأشكال الخصوصيّة للحداثة، على وجه التحديد، بتشاؤم عميق استُلهِم من الصدمة التي أحدثها التصنيع المقترن بالديموقراطيّة، ومن التركيز على طابعه التدميريّ. لقد لاحظنا وجود مقدار كافٍ من السمات المحافظة والرجعيّة في الأفكار السوسيولوجيّة الأولى، بما فيها تلك التي وُصفت بالثوريّة، المسكونة بفكرة فقدان الجوهر والأصالة أمام ما اعتبر بروز تقنيّة غير شخصيّة وغير إنسانيّة، وأيضًا انتشار المشاعر السوداء المستلهَمة من الانطواء على الذّات. إن «التفكك الاجتماعيّ» الدوركايميّ و«نزع الطابع السحريّ» الفيبريّ و«الاغتراب» الماركسيّ... كلها

مكتبة t.me/ktabpdf

تعبِّر عن أمراض الأزمنة الجديدة المزعومة. ولم يكن أغلب الآباء الأوروبيّين المؤسسين خرسانًا عندما تطرقوا إلى مسألة وسائل الإعـلام، بل كانوا قصيري النظر، ينظرون إلى ما هو قريب فقط. لقد أداروا ظهورهم للتأثير الضارّ لوسائل الإعـلام، أو اقترحوا برامج لدراسة تطبيقيّة، لكنهم ميّزوا بشكل سيئ مكانة الاتصال في الحداثة، واستصغروا أهميته الاجتماعيّة. وكان التشاؤم المعلن من الحداثة الذي أبداه بعض هؤلاء الكُتّاب أحيانًا، الدَّرْسَ الوحيد - في الغالب - الذي استخلصه ورثتهم المباشرون كلما أعملوا التفكير في وسائل الإعلام. إن وسائل الإعلام بنات العصر الملعونة، والتي سرعان ما اتُّهمت بفوضى المجتمع أو فقدانه المعنى. ودراسة الاتصال عبر وسائل الإعلام انْتُزِعت مبكرًا، قبل أن يُحصر مجالها من التيارات السوسيولوجيّة التاريخيّة والأنثروبولوجيّة وغيرها من الحقول المعرفيّة التي كانت تحظى بهيبة أكبر، مثل العمل، والدين، والعلاقات العائليّة التي كانت تتغذى من البحوث الأولى التي تدعي أنها تنتمي إلى العلوم الاجتماعيّة. ولكن هذا الانتزاع لم يمنع البحث في مجال وسائل الإعلام من أن يتطوّر على رغم بقائه مُدّة طويلة منقطعًا عن فكرة أن وسائل الإعلام يمكن أن تمثل ثقافة، وتكون حاملًا ديموقراطيًّا بصرف النظر عن جانبها الوظيفيّ.

إنّ تردّد الباحثين وتقاطعهم الفكريّ لم يكن مطلقًا، ففي فرنسا اشتغل الشاب جان ستويتزل (Jean Stoetzel) في ثلاثيّنيات القرن الماضي على موضوع الإعـلان، وقـرأ ريمون أرون (Raymond Aron) المؤلَّف الذي أنجزه والتر بنجامين (Walter Benjamin) عن

t.me/ktabpdf مكتبة

الفن في عصر إعادة الإنتاجيّة التقنيّة في 1936 وأدخل الإشكاليّات الألمانيّة إلى فرنسا، كما شاركت المدرسة الدوركايميّة في النقاش مع مدرسة شيكاغو... لقد هيمنت العقلانيّة على السوسيولوجيا الفرنسيّة في العقدين 1920 ـ 1940، وتضاعفت ببعض الابتعاد عن ملاحظة إثنوغرافيا الحياة اليوميّة. لذا تجب قراءة قصة زيارة موريس هلبواش (Maurice Halbwachs) الهزلية إلى شيكاغو وحَذَرَه من الإمبيريقيّة الأميركيّة، وهذا لفهم المسافة التي تفصل السوسيولوجيا الفرنسيّة عن مدرسة شيكاغو (Marcel, 1999)، (ونقارنها مع قدوم جون ديوي إلى المدينة ذاتها، Joseph, 2002). لقد كانت السوسيولوجيا في ألمانيا أكثر اهتمامًا بظروف الحياة الحديثة، لكن جورج زيمّل (الذي كان صحافيًّا) لم يدمج الصحافة والمنتجات الشعبيّة في بحوثه حول الثقافة «المحصورة» بالفن والمدينة، وعندما برز التيار الماركسيّ بقُوَّة وأصالة في حقل دراسة الإعلام مع مدرسة فرانكفورت، اتخذ أيضًا شكلَ تنديد بالهيمنة ممزوج برؤية كارثيّة للتقنيّة. لقد جرت مناقشة تأثير وسائل الإعلام الكبرى في ساحات أخرى غير ساحة الجامعة، فمناقشة السينما، على سبيل المثال، جرت في المجلات الأدبيّة ونشرات النقد السينمائيّ (انظر: Charney et Schwartz, 1995).

البراغماتيّة الأميركيّة

لقد غمرت موجة التنديد أيضًا المشهدَ العلميّ في الولايات المتحدة الأميركيّة لبعض الوقت، لكن يبدو أنها كانت شديدة التمييز وبنّاءةً بالنسبة إلى مسألة وسائل الإعلام منذ البداية. لقد عرفت

الولايات المتحدة الأميركيّة قطيعة مع الأحكام ذات النزعة المطلقة أقلّ غَلاظة من أوروبا، وشهدت مسارًا من العلمنة (sécularisation) كان على العموم أقلَّ نزاعًا. إن صدمة التصنيع عزّزت بروز الحنين المطبوع بالنزعة الجماعاتيّة ومعاداة الرأسماليّة، من دون أن يتلاشى الإيمان بالعلوم والابتكارات التي تُعدّ إرثَ فلسفة الأنوار العلمانيّ، ومن دون تشكيك كبير في الديموقراطيّة. فإذا كانت النزعة التقدميّة، مثل الفلسفة المقاولاتية المتصالحة اجتماعيًّا مع النزعة الـ«سان سيمونيّة»(*) التي ألهمت أدب الكاتب جول فيرن (Jules Verne) في الخيال العلميّ والروايات المتسلسلة لأوجين سو، قد استُنْفِدت تدريجيًّا في أوساط المثقفين الأوروبيّين، فإنها ظلّت تثير المناقشات في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي بأشكال أخرى، مثل التفكير السياسيّ والروايات المستقبليّة(**)، والهندسة المعماريّة، والفلسفة البراغماتيّة، فهذه الفلسفة التي تعد تيارًا مهيمنًا يريد أن يرفع لواء النزعة التقدميّة المختلف عن إشارة كارل ماركس الثوريّة، وواقعيّة فيبر، والنزعة الجمهوريّة لدى

(*) الـ«سان سيمونية»: مذهب اقتصاديّ واجتماعيّ وسياسيّ، كان له تأثيرٌ قويٌّ في القرن التاسع عشر، ينسب إلى الكونت سان سيمون (Saint Simon) (1760 ـ 1825)، الذي طالب بإقامة مجتمع يتآخى أفراده وتديره الكفاءات في مختلف المجالات: علماء وصناعيّون ومهندسون ومثقفون وفنانون... لتطويره خدمة للمصلحة العامة من أجل وضع حد للثورات والحروب والأنظمة الجائرة والإقطاعيّة والاستغلاليّة.

(**) الروايات المستقبلية: نوع أدبيّ وسينمائيّ يرتبط بأدب الخيال العلميّ لكن يختلف عنه من ناحية واقعيّته، ويجمع الأعمال التي تتناول الأحداث التي تدور في المستقبل القريب أو البعيد جدًّا.

t.me/ktabpdf مكتبة

دوركايم، تترجم عمليّة توطين حداثة مخصوصة. إن مؤسسي الفلسفة البراغماتيّة، وليام جيمس (William James)، وتشارلز س. بيرس، وجورج هـ. ميد، وجون ديوي قد رسخوها في رفض المعرفة المطلقة المرتبطة بـ«الحقائق الأبديّة» التي يَضْمَنها نظام مقدس، وهذا بالاتّفاق مع المقاربة السوسيولوجيّة في ضفتي المحيط الأطلسي.

ينصّ الافتراض الثاني الذي مَنح البراغماتيّة أصالتها الكلية، على أن النّاس هم المنتجون الحقيقيّون للمعنى وبه يعيشون، ولا يعني هذا أنهم يخضعون لما ورثوه من ظروف الحياة السالفة فقط ويتكبدونه، بل أنهم قادرون على التغيير، وعلى خوض التجربة أو «إمكان الفعل» (ديوي)، فالإنسان حيوان اجتماعيّ باستخدامه أداة جماعيّة، اللغة، حتّى يُعرف كموضوعٍ قبل أن يُعرف كذات. ويُعد التفكُّر مسارًا تواصليًّا يتضمّن تعريفُه تخريجَ ما تُكِنّه الذّات وسرد الأنا (Mead). إن التركيز على الجديد والحديث الذي يولد في الفعل وبه، يميّز المفكرين الأميركيّين، الذين يرون بشكل أساسيّ أن لا شيء يبدو صعب التجاوز، لا التناقض بين العلم والأخلاق، ولا بين المعطيات الواقعيّة والمعرفة، ولا بين النقد والتقدم.

تشارلز ساندرز بيرس ومسألة الاتصال

لقد تمّ تجاهلُ أعمال تشارلز ساندرز بيرس، التي ذُكرت بكثرة بعد قرن من كتابتها، لمُدّة طويلة بسبب تهميش مؤلفها، الذي لم ينل منصبًا جامعيًّا، ولجوئه إلى مستوى نادر من التجريد والتفكير الانعكاسيّ، إضافة إلى استخدامه تصنيفًا نمطيًّا خاصًّا جدًّا. إن بيرس، دون سائر البراغماتيّين، يفند بكلّ قُوَّة الوهم الموضوعاتيّ، مدّعيًا أن كلّ معرفة

مكتبة t.me/ktabpdf

استطراديّة تابعة لمسار من العلاقات بين المقترحات، مثل سلسلة من الحجج التي لا نهاية لها. إن العلم مسار من الحياة وليس نشاطًا مجردًا، ويرتكز على الفاعلين من البشر، وعلى جماعة الباحثين الذين يسعون إلى التوافق بينهم. إن الحجج لا تحوَّل من تلقاء ذاتها إلى أحداث أنطولوجيّة غير قابلة للمناقشة (هذا ما يقال إنه موقف «مناهض للديكارتيّة»). والاتصال الذي يعد فعلًا تنسيقيًّا يتم تقاسمه بين الذاتيّات هو خميرة المعرفة والتقدم. وبيرس الذي لا يجنح نحو الاسمية التي تنكر وجود الواقع، يرى أن «الواقع» موجود فعلًا، وإن كان دائمًا في شكل تمثّل، وينقسم إلى ثلاثة أنظمة من الظواهر: «النظام الأول، يكون نمط الوجود لما هو موجود كما هو عليه»، و«الثاني، يكون نمط الوجود لما هو موجود بالنسبة إلى الثاني»، و«الثالث يكون نمط الوجود لما هو موجود في علاقته المتبادلة بين الثاني والثالث». ويتمفصل تمثُّل الواقع هو الآخر في ثلاثة مستويات: مستوى الخصائص التي تؤثر علينا (العلامات)، ومستوى الأحداث الفعليّة التي تقاومنا (الأشياء الماديّة وغير الماديّة)، ومستوى قوانين الكون التي نلاحظها ونبنيها في الوقت ذاته (كمُؤَوَّلة). إن بيرس لا يرى أي حد لمنطق «التَمَثُّل»: فكل شيء علامة (أو تمثل) في العالم، لكن التمثُّل في شكل علامات ليس في حد ذاته سوى شكل من التمثّل، فالعلامات ليست سوى جزء من الفعل الاجتماعيّ والشخص الذي يقوم بتأويلها لا يُختزل في المُؤَوَّل، الذي هو علامة تربطه بعلامات أخرى، فالعلامة تساوي شيئًا ما، كائنًا، من دون أن تكون دلالته. لقد قرر بيرس أثناء تأسيسه «السيميائيّات» أو علم العلامات، البحث عن شروط إنتاج المعرفة من خلال المنطق المخصوص الذي يتحكم في

t.me/ktabpdf مكتبة

اللغة. لقد ميّز بين ثلاثة أنواع من العلامات التي سماها «أيقونات» (icônes) («طبيعيّة» لأنها «تشبه» الأشياء المُمَثَّلة وتستنسخها)، و«قرائن» (indices) («طبيعيّة» لكنها لا تقوم سوى بالإحالة إلى الشيء ولا تستنسخه)، و«رموز» (symboles) («تعاقديّة» مثل كلمات اللغة اللفظيّة وغير اللفظيّة). فإذا أردنا أن نوضح مساهمة السيميائيّات في الاتصال منذ بدايتها، سنجدها أكثر تعقيدًا، لأن عدم ضبط حدود مفهوم «التدليل»(*) (sémiose) جعل التفكير السيميائيّ عامًّا جدًّا أي قليل التطبيق عمليًّا، بينما صممت السيميائيّة كتوجّه براغماتيّ يستدعي

(*) لم تثِر ترجمة أي مفهوم في السيمياء لدى الكُتّاب العرب إشكالًا كبيرًا بمقدار ما أثاره مفهوم (semiosis)، فبعضهم تمسك بنقله كما ورد في اللُّغة الإنكليزيّة، حيث ترجمه عبد المالك مرتاض إلى سيمْيُوزَة ، وأطلق عليه سعيد علوش تسمية «سيميوزيس»، وترجمه عبد الرحمن بوعلي بـ«السيميوز». وقد حذوا في هذا حذو كُتّاب اللُّغة الفرنسيّة، فعندما ترجم جيرار دلدال Gérard) (Deledalle نصّ بيرس المعنون (*Pragmatism*) بـ **كتابات عن العلامة** (*Des Écrits sur le signe*) في السنة 1978، حافظ على كلمة سيميوزيس (semiosis) كما وردت في النصّ الأصليّ. واجتهد البعض الآخر في البحث عن مقابل له في اللُّغة العربيّة، فحسين خمري ترجمه إلى «الوظيفة السيميائية»، ووجد يوسف وغليسي في «التّشويم» مرادفًا له، ثم عدل عبد المالك مرتاض عن رأيه واقترح ترجمته بـ «المُوَاسم»، وترجمه بشير القمري إلى «التأشير»، وعرَّبَه بسام بركة بـ«عمل الإشارة». انظر: فريد أمعضشو، **المصطلح السيميائي والدلاليّ، إشكالية الترجمة**، مجلة الرافد، مارس 2016.

وفضلنا ترجمته بـ«التدليل» للاقتراب من المعنى الذي حدده له أمبرتو إيكو، حيث عرَّفه بالقدرة على إنتاج العلامات انظر:

Umberto Eco, *Que vive le journalisme critique*, Le monde, du 30 mai 2015.

t.me/ktabpdf

مكتبة

البحث الإمبيريقيّ. لكن الفكرة القويّة التي تقود السيميائيّات هي أنها تتمتع بميزة عرقلة كلّ محاولة الاستيلاء عليها من نظريّة اللغة، التي تريد أن تكون علمًا سيّدًا، فالمفهوم «الثلاثيّ» للعلامة يتعارض مع مفهومها «الثنائيّ» (الدالّ/ المدلول) الذي دافعت عنه لسانيّات دو سوسير التي سمحت بتأكيد جوانب أخرى من اللغة وتحوّلت تدريجيًا إلى أنموذج لاشتغال المعنى والفكر الإنسانيّ وحتى العالم. إن مفهوم المُؤَوَّل يحظر من جهته التسليم بانغلاق الواقع في اللغة ويفتح دراسة الاتصال على أفق أوسع يشمل ما هو اجتماعيّ ويجعله بمثابة كون من التأويلات يتم التنازع حولها وتُقتسَم لتُثبِّت بذلك العلامات المشتركة. وتبقى السيميائيّات، التي تعلن بتواضع عن الهدف من وصف عالم العلامات، مسكونةً أيضًا بطموح كبير. لقد كلفها كاتبها بحصر النشاط المعرفيّ، والمنطق، من خلال الفصل بين ظاهرة الاختزال والاستبطان والاستقراء (المرتبطة بالأنظمة الثلاثة التي تحدثنا عنها أعلاه). والمفارقة أن تفكير بيرس الإبستيمولوجيّ، الذي سعى لإيجاد منطق عام للبحث قد تجاوز مسألة الاتصال. لقد انطلق من فلسفة اللغة، بينما لا يمكن هذه الفلسفة أن تدرك مجمل المشاكل التي تثار، كما عاتبه على ذلك هابرماس (1968).

لقد حفز الانفتاح على الحداثة وعلى المستقبل، على رغم التفكّكات الاجتماعيّة للحاضر والملاحظة التي ترى أن لا معنى للحياة الإنسانيّة إلا بتبادل التجارب وتطوير التعاون، فالماديّة إنتاج إنسانيّ قبل كل شيء، وليست حتميّة الأفعال الاجتماعيّة، عبر حضّ هؤلاء المؤلفين على الاهتمام الإيجابيّ بالاتصال الجماهيريّ

t.me/ktabpdf مكتبة

بصفته مسارًا تنظيميًا للجماعات البشريّة. إن هذا التحوّل إلى ما هو حديث يحجب جزئيًا المواقفَ الماضويّة، مثل الندم على فقدان الجماعات البشريّة الصغرى، والحلم بتأسيس جماعة بشريّة كبرى تبدأ مما هو محليّ، عبر الثقة بالقدرات الفطريّة للأشخاص على التعاطف وإقامة العلاقات الاجتماعيّة قبل توسيع الوعي الاجتماعيّ تدريجيًا، وبناء ديموقراطيّة عظمى. حقًّا، لقد كان البراغماتيّون من الأوائل الذين آمنوا بالطوباويّة الاتصاليّة التي انتشرت في القرن العشرين، فجورج ميد يؤكّد أنه لو كان الاتصال بين النّاس كاملًا ومثاليًّا لكانت الديموقراطيّة كذلك أيضًا. وكان تشارلز هورتن كولي (Charles Horton Cooley)، عالم الاجتماع بمدرسة شيكاغو والقريب من البراغماتيّة ومخترع مفهوم «الجماعة الأوليّة» ومؤلف أطروحة حول النقل بالسكك الحديدية، من الأوائل الذين عَرَّفوا الاتصال بأنه يتضمّن اللغة والتفاعلات بين الأشخاص، ودعَمَ تعريفه هذا بحجج إمبيريقيّة. لقد رأى في ثورة الاتصالات التقنيّة: القطار، الطرق السريعة، البريد، التلغراف، المدارس، الصحف... وسيلةً لتأسيس جماعة بشريّة ثانويّة حقيقيّة. إذًا، لا تُختزل البراغماتيّة في موقفين متطرفين، لأنها تهتم أكثر بمضاعفة الاتصال بين الأشخاص عبر توزيع الوسائل الماديّة للتبادل بين البشر، كعلاج ملموس للأمراض التي تحمل مسمى الجهل واللامبالاة. وقد عمّق ديوي هذا الطرح عندما لاحظ أن الاتصال يقوم بما هو أكبر من تمديد الجماعات المحليّة، إنه عمليًا يفتح فضاءً أصيلًا، فضاء «الجمهور»، الذي هو ليس حشدًا مفكّكًا ومنحرفًا بل جماعة في انتظار التفكُّر،

مكتبة t.me/ktabpdf

والأدوات، وتحليلِ التمَثُّل الذاتيّ بجعل الفرد يفهم ظاهرة التبعيّة المتبادلة ويقدرها، ومنْحِ المؤسسات الشرعيّةَ التي تحصل عليها في النقاش الحقيقيّ. إن الديموقراطيّة الجديدة هي علاقة ذات أطراف ثلاثة: الجماعات الأوليّة، والجمهور، والمؤسسات (أو الجماعات الكبرى)، فخلافًا لطروحات ولتر ليبمان (Walter Lippmann) التي التزمت موقفًا حذِرًا من النّاس الذين اعتبرتهم بمثابة أغنام .تضللهم الصور النمطيّة في نظام ديموقراطيّ يقوده الخبراء الذين يملكون بمفردهم المعرفة، يؤيد ديوي بقُوَّة فكرةَ أن النّاس يملكون قدرات في التحليل ورد الفعل، فالأفكار التي عرضها في كتابه الجمهور ومشاكله (*Le public et ses problèmes*)، الصادر في 1927، حملت بذور العناصر الأساسيّة لنقاش مفهوم الفضاء العموميّ، فإذا أدرك مفهوم الحشد في أوروبا على أساس أنه مصدر تهديد، فإنه يحيل إلى التعدديّة في الولايات المتحدة الأميركيّة أي إلى المشاكل المرتبطة بالتسيير الفعليّ للديموقراطيّة.

لقد تعرضت الجذور العلمويّة للبراغماتيّة وتفاؤلها للنقد كثيرًا، إذ ذكر هانو هاردت (Hanno Hardt) (1992) أن هذا التيار الفلسفيّ يحمل في طياته فكر الداروينيّة الاجتماعيّة[7]، ويولي اهتمامًا ضعيفًا بالقضايا المرتبطة بعدم المساواة الاجتماعيّة في انسجامها مع الفكر المهيمن في مراحل ازدهار الولايات المتحدة الأميركيّة. لقد ساهم مفكرو الليبراليّة السياسيّة، الفلاسفة الذين يدافعون عن أولويّة الأحداث على حساب النقاش النظريّ حول النظام الاجتماعيّ،

---

(7) اقرأ أيضًا: Hostadter, 1944.

t.me/ktabpdf مكتبة

في تهميش الأفكار النقديّة في بلد لم يشهد أبدًا النظام الاشتراكيّ، فمناقشاتهم شقت الطريق إلى الوظيفيّة التي تأسست في ثلاثينيات القرن الماضي، واهتمت بفكرة الاستقرار الاجتماعيّ وبتحليل نزعة الجمهور الاستهلاكيّة. لكن يجب التخفيف من هذا النقد طالما أن غياب السذاجة يميز أيضًا المقاربة البراغماتيّة. إن كولي وديوي من قراء مؤلفات ماركس، ولقد قاما بنقد الاحتكارات الاقتصاديّة للإعلام الذي يترجم حضور المتطلبات الأخلاقيّة والسياسيّة القويّة في فكرهما. إن بيرس يعارض تطوّر الفردانيّة التي تقوض أسس الجماعات. إذًا، برزت البراغماتيّة ردًّا متوقَّعًا على فلسفة التاريخ الألمانيّة، ثمّ كُيِّفت في دخولها الولايات المتحدة الأميركيّة على يد الباحثين الأميركيّين الذين درسوا في ألمانيا، والمفكرين الألمان المنفيِّين[8]. وقد دعت حينئذ إلى تجاوز التعارض بين النظرة النقديّة والدفاع عن القيّم الديموقراطيّة، فبحسب ديوي، فإن وسائل الإعلام ليست خالية من العيوب لكنها ضروريّة.

وفي الختام، يجب التذكير بما أشار إليه توكفيل، الذي قال إنه لا بد من المزيد من الديموقراطيّة للتغلب على عيوبها، ويجب اعتبار وسائل الإعلام الحديثة التي ذُمّت كثيرًا من وجهة نظر فنيّة، وسائلَ إثراء الوجود اليوميّ للثقافة. وتحيل البراغماتيّة المعاصرة إلى كتاب ديوي الموسوم الفن كتجربة (*Art as Experience*) (وخصوصًا ريتشارد شسترمان Richard Shusterman, 1991)، وإلى تقاليد

---

(8) لتوضيح الاختلاف يمكن القول إن المفكر الفرنسيّ ريمون أرون أدخل هذه الفلسفة إلى فرنسا في 1938، ولم تفض إلى أخذ الاتصال في الاعتبار.

t.me/ktabpdf مكتبة

السوسيولوجيا الأميركيّة التي حاولت مع جيمس كاري (James Carey) صياغة موقف تقدميّ، نقديّ وتعبيريّ في آن.

مدرسة شيكاغو

لقد امّحت البراغماتيّة تدريجيًّا في العالم الجامعيّ قبل إعادة اكتشافها في نهاية القرن العشرين، لكنها كانت وراء هبوب.رياح الإمبيريقيّة المُحْتَفى بها، وبخاصّة في موضوع حسّاس مثل الاتصال، فدعمت بشكل غير مباشر بروز الوظيفيّة، التي لم تُنَظِّر لنزعة الجمهور الاستهلاكيّة فحسب، بل سلطت الضوء أيضًا على قدرات الأفراد الإدراكيّة، وبهذا قدّمت مساهمة كبرى لنظريّة الديموقراطيّة التي تواجه الاتصال المعمّم، وكان تأثيرها حاسمًا أيضًا على علم الاجتماع الحضريّ في مدرسة شيكاغو، التي كانت السبّاقة إلى وضع أسس إثنوغرافيا الصحافة بقيادة روبرت إ. بارك، المولود في سنة ميلاد ماكس فيبر، والمتلمذ على أيدي ديوي وجيمس ثمّ زيمّل. وفي زيارة بارك مدينة برلين التي استغرقت ثلاث سنوات، التحق بالجامعة وهو في الـ49 من العمر، بعد أن زاول مهنة الصحافة. لقد تطرق في أعماله إلى المواضيع التي شغلت بال موجِّهيه: المذهب البيولوجيّ والميل إلى البحث الميدانيّ أكثر من التوجّه نحو مَفْهَمَة (conceptualisation) مواضيع البحث والدفاع عن الاتصال كأساس للديموقراطيّة. ويعمِّق المذهب البيولوجيّ لدى بارك فكرةَ النظر إلى المدينة باعتبارها مشكلًا تنظيميًّا للإقليم يشبه ذاك الذي يطرحه نُمُوّ الحياة النباتيّة، لكنه يتعلق بتنوع قاطنيها من البشر، المهاجرين في

مكتبة t.me/ktabpdf

الغالب، والذين يعيشون حالة من التنافس، أو التكيّف، أو الاندماج، أو يأمل في إعادة «رسم التاريخ الطبيعيّ» للصحافة التي لا يمكن تفادي أشكالها المتوالية. إن الإمبيريقيّة قضية ذوق بمقدار كونها مسارًا مهنيًا. لقد قدم روبرت بارك، العارف بدقة العالم الذي ظلّت الأوساط الأكاديميّة تعتبره غرائبيًّا، عملًا سوسيولوجيًّا عن الصحافة، وهو دراسة تقسيم العمل في الصحف، وتحليل نظرة المهنيّ لعمله (ماذا ينتقي من أحداث؟)، وهي نظرة تعلن عن مهمة «حارس البوابة الإعلاميّة». لقد تأثر بحث بارك هذا بوجهات نظر زملائه السابقين في العمل، لكن ملاحظاته عن سلوكهم كانت ثريّة، وهو استفاد في دراسته عن التشكيل الفعليّ للجمهور، من البحث الميدانيّ الذي أنجزه توماس وزنانييسكي (Znaniecki) عن المهاجرين البولونيّين لفهم ماذا يفعل النّاس بالإعلام. إن المهاجرين في الولايات المتحدة الأميركيّة يقرؤون الصحف الصادرة باللغة الإنكليزيّة وإن كانوا لا يفهمون كل ما يقرؤونه، لكنهم يفعلون ذلك بهدف الانفتاح على المجتمع الذي استقبلهم، فوسائل الإعلام تُستخدم لإنجاز وظائف الاندماج التي امتدحها ديوي. والإحالة إلى الباحث «زيمّل» والاستعارة البيولوجيّة جعلا روبرت بارك ينأى بشكل متزامن عن الفضائل المزعومة للمصالحة بين الإكراهات، والتوزيع، والمثاقفة. إن الاتصال فضاء يمارَس فيه النزاع (المهاجرون يرغبون في قراءة الصحف بلغتهم الأصليّة) الذي لا يُعَدّ حدثًا عرضيًّا، بل يشكل جوهر المجتمع وإنْ وجب اعتبار التعايش والتفاعل بين النّاس ينتجان تجربة مشتركة. إن الرؤية التفاؤلية لجماعة موحدة بواسطة

t.me/ktabpdf مكتبة

وسائل الإعلام تستسلم في بعض الأحيان لنقد المصالح الخاصّة التي تروج لها الصحافة، وللشك المستلهم من ليبمان ولاسويل (Lasswell) في ذكاء الجمهور، وفي قدرات هذا الأخير على إنتاج رأي عام أصيل كما تمناه ديوي. إن السوسيولوجيا الأميركيّة، التي كانت السبّاقة مع بارك إلى إدماج الموضوعات الاتصاليّة، لا تزال تتأرجح بين الاكتشاف الإثنوغرافيّ والمعياريّة السياسيّة لكيْ تميل إلى جانب المعياريّة المذكورة، وهذا يفسر تزايد الموضوعات ذات الارتباط الشديد بالحرب العالميّة الأولى التي تثير المخاوف.

المراجع:

ARON Raymond, *Les Étapes de la pensée sociologique* (1967), Gallimard, 1989.

______, *Introduction à la philosophie de l'histoire. Essai sur les limites de l'objectivité historique* (1938), Gallimard, 1986.

BERGER Peter, LUCKMANN Thomas, *La Construction sociale de la réalité* (1966), Méridiens Klincksieck, 1986.

BLONDIAUX Loïc, REYNIÉ Dominique (dir.), «L'opinion publique. Perspectives anglo-saxonnes», *Hermès*, 31, 2001.

CAREY James, *Communication as Culture. Essays on Media and Society* (1989), Londres, Routledge, 1992.

CHARNEY Leon, SCHWARTZ Vanessa R. (dir.), *Cinema and the Invention of Modern Life*, Berkeley et Los Angeles, University of California Press, 1995.

t.me/ktabpdf

مكتبة

COOLEY Charles H., *Social Organization. A Study of the Larger Mind* (1909), New York, Schocken Books, 1962 (traduction partielle dans *Hermès*, 31, 2001).

DEWEY John, *L'art comme expérience* (1934), Université de Pau-Farrago, 2006.

___, *Le Public et ses problèmes* (1927), Université de Pau-Farrago, 2003.

DURKHEIM Émile, *Les Formes élémentaires de la vie religieuse* (1912), PUF, 1985.

_____, *Le Suicide* (1897), PUF, 1983.

DURKHEIM Émile, MAUSS Marcel, «De quelques formes primitives de classification» (1903), *in* MAUSS M., *Essais de sociologie*, Seuil, 1969.

ECO Umberto, *De Superman au surhomme* (1978), Grasset, 1993.

HABERMAS Jürgen, *Théorie de l'agir communicationnel*, 2 t. (1981), Fayard,

1987.

_____, *Connaissance et intérêt* (1968), Gallimard, 1976.

HARDT Hanno, *Critical Communication Studies. Communication, History and Theory in America*, Londres, Routledge, 1992.

HOFSTADTER Richard, *Social Darwinism in American Thought* (1944), Boston, Beacon Press, 1992.

JOSEPH Isaac, «Pluralisme et contiguïtés», *in* CEFAÏ Daniel et JOSEPH Isaac (dir.), *L'Héritage du pragmatisme. Conflits d'urbanité et épreuves de civisme*, Éditions de l'Aube, 2002.

t.me/ktabpdf

مكتبة

KATZ Elihu, «L'héritage de Gabriel Tarde. Un paradigme pour la recherche sur l'opinion et la communication», *Hermès*, 11 - 12, 1992.

LAZARSFELD Paul, *Qu'est-ce que la sociologie?* Gallimard, 1970.

LIPPMANN Walter, *The Phantom Public*, NewYork, Harcourt-Brace, 1925 (traduction partielle dans *Hermès*, 31, 2001).

_____, *Public Opinion*, New York, Harcourt-Brace, 1922.

MARCEL Jean-Christophe, «Maurice Halbwachs à Chicago ou les ambiguïtés d'un rationalisme durkheimien», *Revue d'Histoire des Sciences Humaines*, 1, 1999.

MARX Karl, ENGELS Friedrich, *La Sainte Famille* (1845), Gallimard, «La Pléiade», 1982.

_____, *L'Idéologie allemande* (1846), Éditions Sociales, 1976.

MARX Karl, *Contribution à la critique de l'économie politique* (1859), Éditions Sociales, 1972.

MEAD Georges, *L'Esprit, le soi et la société*, PUF, 1963 (1934, textes posthumes).

PARK Robert E., *The Immigrant Press and its Control*, New York, Harper, 1922.

PEIRCE Charles S., *Textes anticartésiens*, Aubier-Montaigne, 1984, traduction partielle de *Writings of Charles S. Peirce*, Bloomington, Indiana University Press, 1982 - 1983.

_____, *Écrits sur le signe*, Seuil, 1978, traduction partielle des *Collected Papers*, Cambridge, Harvard University Press, 1931 - 1958.

t.me/ktabpdf

مكتبة

SHUSTERMAN Richard, *L'Art à l'état vif. La pensée pragmatiste et l'esthétique populaire*, Minuit, 1991.

SIMMEL Georg, *La Tragédie de la culture* (1895 - 1914), Rivages, 1988.

TARDE Gabriel, *L'Opinion et la foule* (1901), PUF, 1989.

THOMAS William I., ZNANIECKI Florian, *Le Paysan polonais en Europe et en Amérique (1918 - 1920)*, Nathan, 1998.

TOCQUEVILLE Alexis de, *De la démocratie en Amérique* (1835 - 1840), 2 t., Flammarion, 1981.

TÖNNIES Ferdinand, *Communauté et société. Catégories fondamentales de la sociologie pure* (1887), Retz, 1977.

WEBER Max, «Le premier des sujets... allocution prononcée en 1910 à Francfort-sur-le-Main à l'occasion des premières assises de la sociologie allemande» (1910), *Réseaux*, 51, 101 - 108, 1992.

_____, *Sociologie de la musique. Les fondements rationnels et sociaux de la musique* (1921), Métailié, 1998.

_____, *Économie et société* (1922), 2 t., Plon, 1995.

_____, *Le Savant et le politique* (1919), PLon, 1986.

t.me/ktabpdf

مكتبة

القسم الأول

نزع الطبيعانيّة عن الاتصال

مشكل التأثير... أو كيف التخلص منه؟

t.me/ktabpdf مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

نتناول في هذا القسم المحاولات التنظيريّة الأولى للاتصال، وذلك أساسًا وفق تسلسلها الزمني. وتمكن الإشارة إلى أنه يبدو أن البراديغم الراسخ في العلوم الاجتماعيّة لم يبرز بشكل منتظم ومستقر، وأن الانشغالات الأوليّة في دراسة وسائل الإعلام كانت تتسم بنزعتها الطبيعيّة حيث مرت بمراحل دوريّة من التفاؤل والتشاؤم (القلق من الآثار المَرَضيّة لوسائل الإعلام، والنظريّة السلوكيّة، والسيبرنيطيقا والبروميثيوسيّة(*)، والحتميّة التكنولوجيّة المُحْتفى بها). لقد سمح النموذجان: النظريّة النقديّة وعلم الاجتماع النفسيّ اللازارسفيلديّ، بهيكلة المقاربات السوسيولوجيّة لوسائل الإعلام، بيد أن ثنائيّة التشاؤم والتفاؤل غمرتهما ولم ينجوَا منها إلا جزئيًّا. لقد منحا أهميّة كبرى لمفهومَي الأثر والتأثير، ويتضح هذا في المقاربة اللازارسفيلديّة، بينما ركزت المقاربة الأولى على النقد الميؤوس منه والجوهريّ للتقنيّة، في إطار تصور فقير للعلاقة بوسائل

(*) نسبة إلى بروميثيوس (Promêtheús)، وتعني الحكيم بعيد النظر والقادر على التنبؤ بالمستقبل، كما تقول الأسطورة اليونانيّة، والتي منحته القدرة على خلق البشر من بقايا الطين التي تحولت إلى صخر، وقد وهب البشر المعرفة المقدسة بعد أن أعطاهم قبسًا سرقه من النار المقدسة بجبل الأولمب.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الإعلام، وللعلاقة السببيّة بصفة عامّة. لكن الصعوبات التي واجهت تطوير باراديغم يتمحور حول المعنى وحول ما هو اجتماعيّ، لا يعني عدم اكتمال المسار النظريّ في دراسة وسائل الإعلام، بل على العكس من ذلك، فإن الانشغال بآثارها والطريق المسدود الذي بلغته تحرّرا من هذه الصعوبة في وقت سمح التغيير الحاصل في العلوم الإنسانيّة في سبعينيّات القرن الماضي، بإحداث تحوّل في المفاهيم والتوجّهات النظريّة (انظر القسم الثاني).

t.me/ktabpdf مكتبة

فخ نظريّات الآثار المباشرة
الذعر الأخلاقيّ والسلوكيّة

تصف النظرة السوسيولوجيّة المتزايدة في الضياع أو السلبيّة تجاه وسائل الإعلام، مسارَ أغلب الأفكار التي سادت في أوروبا، وجزئيًّا في الولايات المتحدة الأميركيّة. وجعلت الأفكار الثوريّة الأميركيّة التي بثت في 1776، والفرنسيّة في 1789 من الممكن التفاؤل بالصحف خلال قرن من الزمن تقريبًا. لقد كشفت الثقة في الصحافة، التي كان يُنْظر إليها بوصفها هيئة للإعلام التعدديّ ومصدرًا للتفكير المستنير، عن تناغمها مع المثل الديموقراطيّة وأيديولوجيا التقدم الاقتصاديّ والتقنيّ والعلميّ التي تأكّدت في القرن 19. إن حرية الرأي والصحافة التي رسخت في فرنسا بموجب قانون 1881، تعايشت مع الطوباويّات التي جعلت من البريد والكهرباء والتلغراف أدوات إنتاج حضارة كونيّة، فهذه الثقة التي لا تخلو من سذاجة، تلاشت تدريجيًّا تحت ثقل ما تحمله في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك عندما أصبح معنى التصنيع مرادفًا لتحوّل اجتماعي واسع ومقلق بعد انتشار الحقّ في الانتخابات، وبعد أن كفّت الصحافة عن توجيه خطابها إلى النخب فقط. لقد تحوّلت وسائل الإعلام التي كان يُنظر إليها على أنها ديموقراطيّة، إلى وحش لأولئك الذين رأوا فيها مصدر تهديد، وأداة تضليل وقرف، ومنفذًا غير مراقَب للتمثّل

t.me/ktabpdf مكتبة

والرمزيّة. لقد تبلور بعض الرؤى إلى ما هو اجتماعيّ على ضفّتي المحيط الأطلسي في مؤلفات مهمة، وهي: **علم نفس الحشود** (*La Psychologie des foules*) لغوستاف لو بون (Gustave Le Bon) (1895)، و**الرأي العام** (*Public Opinion*) لولتر ليبمان (1922)، و**تمرد الجماهير** (*La Révolte des masses*) لأورتيغا إي غاسيت (Ortega y Gasset) (1930). ونددت هذه المؤلفات ببروز شكل خطير من الرأي الجماعيّ، رأي الجماهير أو الحشود المتّسم بعدم العقلانيّة والهيستيريا. ويفسر نجاح هذا التنديد بأن الخطابات المهيمنة حول وسائل الإعلام ظلّت لمُدّة طويلة متمركزة حول مفهوم التأثير. لقد كان من المفروض أن تصقل وسائل الإعلام أفكار الأشخاص على رغم أنوفهم، وتضلّلهم، وتنوّمهم وتبتزّهم بما تنقله من صور نمطيّة. ووجد هذا الافتراض المسبق ترجمتَه في علم النفس، الذي يستند إلى فكرة المنبه أو المحفز (السلوكيّ)، فوسائل الإعلام تحقن العقول فينتج عنها بعض النماذج السلوكيّة (Lasswell).

الخوف من آثار وسائل الإعلام وأصوله

لم يكن التنديد بأثر وسائل الإعلام مقتصرًا على المجتمعات المعاصرة، فمن المحتمل أن نعثر على أحد أشكاله في العصور القديمة في جمهوريّة أفلاطون، وهي تقدم لنا سقراط، الذي قرر نفي الشعراء من المدينة لأن قصصهم يمكن أن تسيء إلى الشباب اليافع. ويأخذ هذا التنديد العديد من الأشكال المختلفة في الزمان، ويبلغ ذروته كلما أصبحت وسيلة الإعلام بارزة اجتماعيًّا ومرئيّة أكثر، ففي القرن

t.me/ktabpdf مكتبة

19 اتُّهمَت الروايات المتسلسلة، التي تُظهر الأبطال وهم يثأرون لما عانوه من اضطهاد على يد البرجوازيِّين الخسيسين، بأنها تمهد لإقامة الاشتراكيّة وتزود العمال بأفكار سيئة. وجرى الاعتقاد بأن الإذاعة كانت تقوم بغسل أدمغة النساء اللواتي يستمعن إلى المسلسلات الإذاعيّة التي كانت تبثّها في الفترة الممتدة بين الحربين العالميّتين. واعتُقد أن للإذاعة تأثيرًا قويًا سمح للنازيين بالاستيلاء على السلطة في ألمانيا. لقد استخدمها هتلر بقُوَّة، وبشكل منتظم، ورُبط الذعر الذي أصاب الأميركيّين بنَقْل الدراما المقتبسة عن حرب العوالم (*La Guerre des mondes*) لأورسن ويلز (Orson Welles) في 1938 على أمواج الأثير، والتي تحكي عن الكائنات الفضائيّة الغريبة التي تغزو الكوكب الأرضي(9)، وأُعْتُقد أن انتشار الانحراف وسط الشباب الأميركيّ في خمسينيّات القرن الماضي كان نتيجة لتطوّر وسائل الإعلام الموجّهة إليهم، وانتشار موسيقى الروك، والشرائط المرسومة (لقد جرت محاسبة ناشري هذه الشرائط في جلسات مجلس الشيوخ الأميركيّ المتلفزة أثناء الحقبة المكارثيّة، وعندما وضعت أوروبا أنظمة متشدّدة للرقابة على وسائل الإعلام)، فبعد السينما

---

(9) أظهر هوارد كنتريل (Howard Cantril) باكرًا، في البحث الذي قام به عام 1940 والذي اندرج في اتجاه السوسيولوجيا اللازارسفيلديّة، أن الذعر لم يصب الأميركيّين كافة الذين تابعوا الدراما الإذاعيّة، وإنما مس السكان الذين كانوا يفتقدون الأمن، لما كانوا يعانونه من بطالة. ونصّت النتيجة الوظيفيّة التي توصل إليها هذا البحث، على أن لا الإذاعة ولا الصحافة، ولا الدعاية تخلق الحروب والذعر، وإنما التفاوت الاجتماعيّ البنيويّ، في مجال التربية، على سبيل المثال، هو الذي فعل ذلك.

t.me/ktabpdf

مكتبة

تصَدَّر التلفزيون في ستينيّات القرن الماضي قائمة وسائل وسائط الإعلام التي اعتُبِرت مضرة، لما يبثه من عنف شخصيّ واجتماعيّ مزعوم. واليوم جاء دور ألعاب الفيديو والإنترنت لتكون في صدارة الانشغالات العديدة المرتبطة بالأميَّة والعنف في أوساط الشباب.

يعود نقد النفوذ المزعوم الذي تمارسه وسائل الإعلام، من دون أي تمييز بينها، غالبًا إلى القلق من فقدان السلطة عندما يخيم التهديد على النظام السائد. ويتجلى هذا التهديد عبر تشخيص الضحايا غير المسؤولين عمّا يحصل لهم، والذين يجب التكفل بهم وحمايتهم، فمن اليسير أن نلاحظ مخاوف المجتمع من الصحافة الشعبيّة في سنوات مجدها، المخاوف التي تحيلنا أوّلًا وقبل كل شيء، إلى بروز النقابات العماليّة، واستقواء مختلف الحركات الثوريّة التي بدأت تحتج على التنظيم الاقتصاديّ والاجتماعيّ الظالم، فالمسلسلات الإذاعيّة التي بُثت في السنوات الممتدة من 1920 إلى 1930 كانت كبش فداء لغضب ذكوريّ جرى في سياق حركة تحرّريّة واسعة تُرجمت بالتحاق جزء من النساء بسوق العمل، وتحقيق استقلاليّة في استهلاك وسائل الإعلام.

يتضاعف القلق على الشباب كلما تم التّشكيك في العلاقة القائمة بين بالغي سن الرشد والشباب والمراهقين والطعن فيها، وهو قلق يعود إلى عوامل بعيدة عن وسائل الإعلام. لقد صادف التوزيع الجماهيريّ للشريط المرسوم بروز الطفل المستهلك، الذي يعتمد بدرجة أقلّ على والديه. واقترن ميلاد موسيقى الروك بتحرّر المراهقين، نتيجة التعليم الجماهيريّ وتطوّر نزعة التمتع لدى هذه

t.me/ktabpdf مكتبة

الشريحة من الشباب (بسبب تزايد أوقات الفراغ والراحة وامتلاك الإمكانات الماليّة في هذه المرحلة من العمر، حيث يمكن الشباب عيش حياة احتفاليّة...).

مفهوم الدعاية

إذا بدا عالمُ الطفولة اليوم لبَّ التساؤلات حول آثار وسائل الإعلام (انظر الجزء الخاص بعلاقة وسائل الإعلام بالعنف)، فإن الحقل السياسيّ يطمح ليكون منبت الاعتقاد بمقدرة وسائل الإعلام على الإقناع في ظل النجاح الهائل الذي حقّقه مفهوم الدعاية. إن البحث عن اشتقاق كلمة يقودنا إلى فكرة القطع أي قطع غرسة وإعادة زرعها للحصول على نبتة جديدة. إن فكرة النقل فرضت ذاتها في القاموس الدينيّ فجعلت الدعاية نوعًا من البثّ والتوزيع البنّاء قبل أن تحمل الكلمة تضمينات سلبيّة بدءًا من القرن الثامن عشر أي قبل أن تصبح دالّة على ممارسة التأثير على الرأي. لقد استدعت الحرب العالميّة الأولى وما سببته من فقدان ثقة النّاس في وسائل الإعلام، والقلق الذي شاب الحرب العالميّة الثانية جراء ميلاد الأنظمة الشموليّة، مفهومًا يقدم التفسير الأولـي لبروز التطرف السياسيّ، فسيرج تشاكوتين (Serge Tchakhotine) الذي فر من الاتحاد السوفياتي إلى فرنسا، أثار مسألة اغتصاب الحشود بواسطة الدعاية السياسيّة (*Le Viol des foules par la propagande politique, 1939*)، بينما حدّد الأخصائي في العلوم السياسيّة هارولد لاسويل (Harold Lasswell) في الولايات المتحدة الأميركيّة، هدفًا لبحثه وحَصَرَه في

t.me/ktabpdf مكتبة

فهم تأثير التقنيّات الحكومية، **أساليب الدعاية في الحرب العالميّة** (*Propaganda Techniques in the World War*, 1927).

وعلى رغم ذلك، لا يوجد ما يثبت أن وسائل الإعـلام تملك سلطة غير محدودة حتّى في زمن الحرب، لذا يجب تفنيد الفكرة الشائعة والمسلَّم بها بالحجج الدامغة، والتي تؤمن أن النازية وباء انتشر بفضل الدعاية التي تصيب الفئات الضعيفة اجتماعيًّا والحشد الحضريّ الخطير الـذي أفـرزه الانـحـراف الاجتماعيّ والبطالة، فالبحث التاريخيّ يبرهن أن النازية، هذه الظاهرة الاجتماعيّة، لم تكتسح ألمانيا، وهتلر لم يحصل أبـدًا على غالبيّة الأصـوات في الانتخابات، ولم يستولِ على السلطة إلا بقرار من الرئيس هيندنبرغ(*) (Hindenburg) بعد مفاوضات بين مختلف القيادات الألمانيّة، وأن العلاقة بين الإذاعة وصعود النازية ليست سببيّة في نظر المؤرخين (راجـع التقويم الـذي أشـرف عليه لارسـان Larsen، وهيغتفت Hagtvet، وميكلبوست Myklebust، والأعمال الأوليّة لأنتوني أبرشال Anthony Oberschall) الذين أكَّدوا خصوصيّة الانتخابات النازية: لم يصوت العمال بالغالبيّة لهتلر، ولا الكاثوليكيّون ولا سكان المدن، بل البروتستانت في الأريـاف هم الذين انتخبوه بالغالبيّة، لإحساسهم بأنّ الأحزاب السياسيّة القائمة في ذاك العهد لا تمثّلهم (الحزب الكاثوليكيّ الألمانيّ Zentrum ـ الحزب الشيوعيّ العماليّ...). إن الفئات الأكثر تنظيمًا اجتماعيًّا والأقلّ تمثيلًا سياسيًّا

(*) يقصد به رئيس جمهورية فايمار (1925 ـ 1934) الذي عين هتلر مستشارًا لألمانيا في 1933.

t.me/ktabpdf

مكتبة

هي التي اختارت التصويت البروتستانتيّ. لقد أثبتت نتائج هذه الانتخابات الملاحظات التي قدمها بول لازارسفيلد، الذي قال: «إننا ننسى في الغالب، أن هتلر لم يصل إلى سدة الحكم بفضل الإذاعة، بل ضدها تقريبًا، ففي زمن صعوده لنيل الحكم كانت الإذاعة في يد أعدائه. لقد كانت للآثار المترتبة عن احتكار الإذاعة أهميّة اجتماعيّة أقلّ مما كنا نُقدِّر في الغالب». هذا ما ذكره مارشال ماكلوهان في كتابه **من أجل فهم وسائل الإعلام** (*Pour comprendre les médias*).

توجد الدعاية في قصد الباثّ الراغب في تمييع كل مقاومة، والتأثير على المتلقِّي وفرضها عليه. لكن هذه الدعاية لا تسمح بفهم أفعال المتلقِّي الذي يملك قدرات الانفلات منها ومعارضتها. ويمكن الدعاية أن «تنجح» لأنها تتناغم مع تطلعات الجمهور الذي تخاطبه وإنْ كان من الصعوبة القبول، في بعض الأحيان، بالفكرة التي تنصّ على أن بروز اليمين المتطرف في فرنسا خلال ثمانينيات القرن الماضي لم يكن ثمرة الدعاية التي أثّرت على الأشخاص الأكثر ضعفًا اجتماعيًا، بل كان نتيجة التقاء تطلعات الجمهور المتعدّدة، وهي ليست معادية للأجانب بالضرورة، بالخطابات الدعائية. ويمكن كلمة الدعاية أن تكون خاصّة بالمجتمعات الشموليّة الخالية من التعدديّة الإعلاميّة ومن تعدّد الرسائل وتنوّعها، والتي تعيش في بعض الأوضاع التي يخضع الاتصال العموميّ فيها إلى أقصى أشكال الرقابة، مثل الحروب. لكن حتّى في هذه الأوضاع تحتاج مسألة التأثير إلى مراجعة وتمييز، فالدعاية الشيوعيّة لم تمنع الاتحاد

t.me/ktabpdf مكتبة

السوفياتي من التفكك، كما لم تمنع وسائل الاتصال البديلة، مثل التندّر من النظام السياسيّ الذي سمح بمعارضته من الداخل[10].

أظهرت دراسة أوضاع الحرب أن عمليّة التسميم الإعلاميّ، إن كانت ممكنة الحدوث، هي أبعد من أن تكون آليّة ومنمّطة للعقول. إنها نقيض صورة الإيبينال[*] (L'Épinal)، صورة جنود الجمهوريّة الذين ذهبوا فرحين للدفاع عن الأمة، وجاهزين منذ مُدّة طويلة للانتقام من أعداء ألمانيا بالوراثة، ذوي اللِّحى الكثيفة الذين صعدوا إلى جبهة القتال ولم يضعوا ورودًا في فوّهات بنادقهم، يقودهم الحماس الذي حُشِيَت به عقولهم، كما بيّن ذلك جان جاك بيكر (Jean-Jacques Becker) (1977). لقد لاحظ شيلز (Shils) وجنوويتز (Janowitz) أن القوات العسكريّة الألمانيّة، التي كنا نتوقع أنها منهكة أخلاقيًّا في نهاية الحرب العالميّة الثانية (كما كان حالها في نهاية الحرب العالميّة الأولى، ما دفع إلى الاعتقاد بأن انهزام ألمانيا كان نتيجة لما قام به الحلفاء من قصف نفسيّ)، استخدمت مناشير الحلفاء «الدعائية» التي

---

(10) إن النفاذ إلى مصادر الإعلام الثانويّة والترفيه لعب دورًا في هذا الصدد (Tristan Mattelart, 1997). حتى وإن سقطنا من جديد تحت طائلة أسطورة تأثير الإعلام القويّ، فإن الأمر يتطلب الفحص الدقيق، للاعتقاد بأن المساهمة الخارجيّة للإعلام المستقل لا تستطيع بمفردها أن تعبث باستقرار نظام سياسيّ (Jacques Sémelin, 1997).

(*) الإيبينال: نقش مُلوَّن على الحجر والخشب والحديد ظهر في مدينة إيبينال (*Épinal*) في فرنسا في القرن 15، ويعد فنًّا شعبيًّا ساذجًا موجهًا إلى الأميين من أبناء الريف. ومع مرور الزمن أخذ معنى مجازيًّا وأصبح يدلّ على الرؤية المنمّقة والساذجة التي تبرز جانب الأشياء الجيّد. وهذا هو المقصود في هذا النصّ.

t.me/ktabpdf

مكتبة

وجّهت ضدها لإعادة تحفيز جنودها وتغذيتهم أيديولوجيًا للاستمرار في القتال حتّى الممات. وفي الغالب، استخدم مفهوم الدعاية بمعناه الواسع الذي يخون دلالته الفعليّة، انطلاقًا من فكرة أن وسائل الإعلام تضلل النّاس، فمفهوم الدعاية هو في الواقع مفهوم حدٌّ، وطابعه الإجرائيّ محدود.

الذعر الأخلاقيّ: مثال وسائل الإعلام والعنف

إنّ العلاقة بين وسائل الإعلام والعنف الفعليّ والواقعيّ مسألة رمزيّة، إذ تشير بقُوَّة، إلى الحيرة التي ولدتها وسائل الإعلام، فرزحت بثقلها على دراسة علاقة الشباب بوسائل الإعلام منذ بداية القرن العشرين.

لقد أضحت دراسة أثر عنف وسائل الإعلام على سلوك الجمهور استثمارًا ذا عائد مرتفع بالنسبة إلى العديد من الباحثين. وحظي هذا الموضوع بإنتاج متواصل من المقالات والكتب، حيث تم جرد أكثر من 2500 مقال في الولايات المتحدة الأميركيّة في مطلع 1980! ويمكن تفسير هذا الأمر بالطلب الاجتماعيّ والمؤسساتيّ الكبير على هذه الدراسة من لدن جمعيات الأسرة والدولة وقطاع العدالة والسلطات المكلفة بمراقبة وسائل الإعلام، وغيرها. لكنّ هذا الكمّ من المقالات لم يُفضِ إلى أي نتيجة علميّة كبرى، هذا إذا استثنينا تلك التي تعترف بعدم وجود نتيجة (وهذا شرط لديمومة البحث حول الموضوع). لقد اعتمد مختلف مدارس علم النفس وعلم النفس الاجتماعيّ التي وُظِّفت للقيام بتجارب ملموسة في هذا المجال، على نظريّات متنوعة سيطرت عليها فكرة التقليد: نظريّة التأثير والتعلّم

مكتبة t.me/ktabpdf

(تقليد أبطال الفيلم)، وأثر عدم التحفظ أو قلة الحياء (بالتدريج اعْتُبر العنف شيئًا «عاديًا» في الوجود «الفعليّ»)، وأثر تصريف العنف الكامن في الإنسان. وعلى العكس، دافع بعض التيارات الصغرى عن نظريّة التطَهُّر التي تسمح بفهم تأثير التنفيس على كبت الإنسان جراء تعرضه لعنف متخيَّل. لقد استهدفت التجارب عنصرًا بسيطًا جدًا، وهو أنه يمكن العنف في وسائل الإعلام أن يخيف، ويغضب، ويريح، لكنه يظلّ عنفًا رمزيًا أوّلًا وقبل كل شيء. إنه «تَمَثُّل» للعنف. وتم إدراكه على هذا الأساس حتى في أوساط الشباب الصغار (انظر أعمال دايفيد باكينغهام[11]. إذًا، من الصعوبة تعريف العنف، ومن الأصعب تكميمه [تحديد كميته] ولا يمكن أن يُخْتزل ويتحوّل إلى متغيّر وحيد من نوعه في الدراسة: فالبشر لا تحفّزهم الصور أو الكلمات مثل كلاب بافلوف الذين تحفّزهم الرسائل الشمّية والمرئيّة.

(11) يرتكز بعض النظريات على رؤية اجتماعيّة ـ ثقافيّة للعلاقة بوسائل الإعلام حتى تصل إلى الآثار ذاتها، فنظرية الغرس الثقافيّ لصاحبها غيربنر تدعم فكرة أن الوسط الإعلامي يؤثر، على المدى الطويل، بأخباره السلبيّة الدائمة، التي تُعَوِّد جمهور التلفزيون على الرؤية الكارثيّة للعالم التي تشكّل مصدر قلق، ومصدر عدم المبالاة بكل شيء، بما فيه العنف. ففي هذه الحالة، فإن إطار الأجندة التلفزيونيّة هو الذي يؤثر على الأفراد، فهذا الأنموذج يتعرض للنقد ذاته الذي تعرضت له النماذج السابقة (لا توجد أي إشارة تدل على العلاقة السببية)، مثلها مثل نظرية ترتيب الأولويات أو الأجندة (انظر أعلاه في المتن). وترتكز هذه النظريات على فرضيات تثير الجدل: لماذا تقترح وسائل الإعلام محيطًا سلبيًا في الغالب؟ يرى ماكلوهان أن الجمهور يعتبر الإعلانات أخبارًا إيجابيّة، وحتى الأفلام يمكن أن تطمح إلى القيام بالدور ذاته. أخيرًا، لو افترضنا أن وسائل الإعلام تمارس تأثيرًا مقلقًا، فلماذا يترجم هذا التأثير بالعنف في الغالب؟

t.me/ktabpdf مكتبة

ولم يتم التوصل إلى الكشف عن أي علاقة سببيّة بين المحتويات الإعلاميّة والمواقف السلوكيّة، وإن تم التوصل إلى تحديد الارتباطات بينها (وتكون في الغالب متناقضة) فإنها لا تتحدث عن العوامل المعقدة وذات الامتدادات المتشعبة، مثل الوسط العائليّ والقيم الاجتماعيّة، فيمكن الأشخاص العدوانيّين والمندمجين اجتماعيًا مع العنف، أن يرغبوا في التعرض للمحتويات الإعلاميّة العنيفة أكثر من غيرهم. ويمكن تفكك العائلات في بعض شرائح المجتمع أن يشجع النزعة العدوانيّة التي تترجم، في بعض الأحيان، باستهلاك البرامج الإعلاميّة العنيفة.

لا يوجد ما يسمح باستخلاص علاقة إحصائيّة بين ظاهرتين (وسائل الإعلام والعنف) على الصعيد الوطنيّ، ففي اليابان تُنتقد ألعاب الفيديو القتالية والـ«مانغاس» (mangas) أي الشرائط المرسومة، في الغالب لعنفها المفرط، في حين يُسجل في هذا البلد العدد الأقلّ من حالات الاغتصاب والقتل في العالم. والولايات المتحدة الأميركيّة التي تُعرف بإنتاج أفلام الحركة وبنسبة الجرائم العالية، تراقب عمليًا شبكة برامجها التلفزيونيّة بشكل أشدّ من الأوروبيّين (لا يوجد تقريبًا أي برنامج تلفزيونيّ عنيف موجّه للأطفال في أميركا). لقد نُسب تزايد انحراف الشباب في الولايات المتحدة الأميركيّة في خمسينيّات القرن الماضي، إلى وسائل الإعلام، لكن البحوث في علم الجريمة فنّدت هذا الرأي منذ بضع سنوات. لقد نُسب انفجار العنف في الأحياء الحضريّة واستعمال القُصَّر الأسلحةَ النارية في تسعينيّات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأميركيّة، إلى تزايد عدد القنوات

مكتبة t.me/ktabpdf

التلفزيونيّة «الكابليّة» وألعاب الفيديو والإنتاج الهوليووديّ لأفلام الحركة، بينما نجد أن لهذا العنف علاقة مباشرة بالخراب الاقتصاديّ والاجتماعيّ الذي حلّ ببعض المدن الأميركيّة، وبانسحاب قوات الأمن العموميّ منها، وتشكيل عصابات الإجرام، واستمرار التقاليد الفردانيّة التي تسمح بالبيع الحر للأسلحة في هذا البلد. إن تزايد العنف الأكثر غدرًا والهمجيّ الناجم عن انعدام الحس المدنيّ، يحيل إلى قُوَّة تفكّك الروابط العائليّة التي تعيشها البلدان الغربيّة منذ بضعة عقود من الزمن، وإلى عدم احترام بعض المؤسسات التي فقدت مصداقيّتها في ظل الأزمة الاقتصاديّة، فلهذا العنف أسباب اجتماعيّة يبدو أنها غير حتميّة. لكن وسائل الإعلام تقدِّم بعض الحالات الفرديّة التي تنتقيها من أجل «إثبات» وجود علاقة بين العنف والمواد الإعلاميّة: لقد اعْتُقِد أن بث فيلم **قتلة بالفطرة** (Tueurs nés) الذي أخرجه المخرج أوليفر ستون (Oliver Stone) في تسعينيّات القرن الماضي، أثَّر على قاتلَي ساحة فنسان (Vincennes) بباريس(*) (فلورنس ري Florence Rey وأودري موبان Audry Maupin) وحُمِّل استخدامُ الإنترنت ومشاهدة التلفزيون مسؤوليّةَ مصرع العديد من تلاميذ المدارس في الولايات المتحدة الأميركيّة وأوروبا. إن عدد هذه الحالات قليل، وليس له أي دلالة إحصائيّة من جهة، ويتطلب القيام بدراسة معقدة وأكثر عمقًا من جهة أخرى، فمن الضروريّ

(*) هزت هذه الجريمة التي وقعت يوم 4 أكتوبر 1994 فرنسا، حيث أودت بحياة خمسة أشخاص أربعة منهم من عناصر الشرطة، وقد وُصِف مرتكباها بالثوريَّيْن الفوضويّين، وأعادت النقاش حول حكم الإعدام في فرنسا. وربطت وسائل الإعلام الفرنسيّة بسرعة هذه الجريمة بالفيلم المذكور.

t.me/ktabpdf مكتبة

العودة كل مرّة إلى ماضي المجرمين لرسم مسار حياتهم الخاص حتى يتجلى الخلل النفسيّ العميق الذي أصابهم وأدى إلى انخراطهم في شبكات النشاط والأيديولوجيا المهيكلة التي تفسر تصرفاتهم. ويسمح التفكير في المتطلبات الأيديولوجيّة للمجتمعات المعاصرة، ومنها النزعة الفردانيّة المفرطة التي يكون ثمنها الشعور العميق بالإخفاق الشخصيّ، بفهم أفعال الذين يسعون إلى الخلود بواسطة العنف المنقطع النظير، حتّى يظهروا كأشخاص في عيون الآخرين، فإذا لم تخلق وسائل الإعـلام العنف الفعليّ من العدم، فمن الممكن أن يستعمل القتلة المواد الإعلاميّة لصقل عالمهم العنيف ومخيالهم المريض من جهة، وحتى يُعْترف بهم من جهة أخـرى. إن وسائل الإعلام مخزنٌ لأشكال الفعل وليست محفّزات للقيام به، وإنْ حدث تقليد فيتجلّى في إجراءات تنفيذ القتل، وليس في القتل ذاته.

ففي العمق، يوجد نوع من السخرية من الكلام عن أثر وسائل الإعلام على السلوك الفعليّ في البلدان الغربيّة، التي وإن كانت تعيش في عصر يتم فيه احتواء العنف الماديّ وقمعه أكثر فأكثر، فإن مجتمعاتها تعد أكثر مُسالمَةً في التاريخ، وأكثر استهلاكًا لوسائل الإعلام (هذا لا يعني أيضًا أن هناك علاقة بين المسالمة والاستهلاك المذكور). إن قُوَّة الدولة (التي تعد من خصائص المجتمعات المعاصرة) المالكة وحدها العنف الماديّ الشرعيّ مع الاستبطان النفسيّ للعنف الذي ينبع منها (أدت أحداث مايو 68 إلى وفاة شخص في فرنسا)، لم تقضِ بكل تأكيد على العنف الرمزيّ (في العلاقات الاجتماعيّة وعلاقات العمل على سبيل المثال) وما بين الـدول، بحسب نوربرت إلياس

t.me/ktabpdf مكتبة

(Norbert Elias). والرياضة تقدم أبرز مثال على ذلك: لقد اعْتُبرت غالبًا في القرن العشرين عنيفة، في الملاعب ومدرجاتها ووسائل الإعلام (هذا العنف الذي تجب محاربته بكل تأكيد)، فبدت بعيدة جدًّا عن المثالية اليونانيّة التي حملتها الألعاب الاولمبية، على رغم أن هذه الألعاب لا تناسب الصورة التي نملكها عنها. لقد كانت تعني المنافسة بأي ثمن، فخلع العيون وتهشيم الأطراف كانت ممارسات عاديّة ومسموحًا بها في مباراة المتصارعين، وقتل الخصم لم يكن محظورًا بل يعاقَب مرتكبه بإعلان المقتول منتصرًا، ففي سياق التنافس بين المدن كانت الرياضة تحضيرًا للمواطنين لخوض الحرب، ولم يتمكن العصر الوسيط من إضفاء النزعة السلمية على الطقوس الرياضيّة، وكان لا بد من انتظار القرون الحديثة حتّى تصبح الرياضة منافسة بدنيّة خشنة في بعض الأحيان، لكنها قائمة على المراقبة الذاتيّة.

أخيرًا، من المهم العودة إلى مسألة الآثار، ليس للسؤال هل توجد فعلًا، بل لمعرفة لماذا انتشر الاعتقاد بقوتها. فنلاحظ أن وسائل الإعلام تستخدم كبشَ فداء (Rowland, 1983, Barker et Petley, 1997). لقد طورت المجتمعات الغربيّة منذ قرنين من الزمن، أسطورة أن الطفل ملك، كائن نقيّ تجب حمايته باستمرار من الانتهاكات التي يتعرض لها من العالم (بحسب طرح فيليب أرياس Philippe Ariès). لقد وضعت المجتمعات المذكورة الطفولة في هذا المقام الإيجابيّ جدًّا، لأنه يشمل من اعْتُبِروا في السابق شبابًا غير مكتملي الرشد، وبهذا نسيت هذه المجتمعات أن عقل الأطفال ملتبس،

t.me/ktabpdf مكتبة

مثلما هو عقل آبائهم. ومن الممكن أن تندهش عندما تكتشف اهتمام هؤلاء الأطفال بأشكال من الفعل، بما فيها تلك الأكثر قساوة، التي تعبر عنه أذواقهم التلفزيونيّة، فترُجع هذا الاهتمام إلى تأثير وسائل الإعلام. إن اتّهام وسائل الإعلام يمكن أن يعذر بسرعة ضياع السلطة الأبويّة داخل الأسرة، واستخدام التلفزيون «كجليسة أطفال». ويستعمل أخيرًا، بشكل غير مباشر في تعيين المذنبين، وإدانة النّاس، فنقد العنف التلفزيونيّ كان وسيلة لنقد شباب سكان الضواحي الباريسيّة في تسعينيّات القرن الماضي، من خلال الجمع بين سلوكهم وعنف الشاشة.

لا تعني هذه الملاحظات عدم وجوب نقد عنف بعض المحتويات التي تبثها وسائل الإعلام، فمن المحتمل أن تكون سببًا في الصدمات النفسيّة وتستدعي ضبطًا عموميًّا. لكن من الصعوبة ربط هذه الصدمات بالمحتويات الإعلاميّة الخاصّة ما دام التنوع في درجات الخوف، والحوامل الإعلاميّة كبيرة، وتختلف من طفل إلى آخر، ويمكن أن تشكل جزءًا من مسار التدرب على الحياة (Buckingham, 1996, 2000, Gonnet, 1997). ومن الواضح أن الخيال في الأفلام (وبخاصّة تلك التي تسرد قصص الأبطال الذين يناضلون ضد الظلم، حيث يصوَّر العنف كلعبة) يخيف الأطفال بشكل أقلّ من عنف الأخبار التلفزيونيّة (نشرة الأخبار هي مصدر القلق الكبير لأنها تتحدث عن العالم الواقعيّ). ويطرح العنف على صعيد آخر مشكلًا نوعيًّا عندما يُستخدم كحل لمشكل تسويقيّ، أو كحل سهل للمنتجين أو المبدعين الذين خانهم التخيُّل.

t.me/ktabpdf
مكتبة

آثار المثير و«الإبرة تحت الجلد»

لقد تم شرح التأثير الذي من المفترض أن يمارس على الجمهور بنماذج مشتقة من علم النفس في العقود الأولى من القرن العشرين، حيث كان يقوده حلم الالتحاق بالعلوم الطبيعيّة ضمن رؤية آليّة صِرف للإنسان، فالجمهور سلبيّ، وهو صاحب رد فعل شَرطيّ، ويستجيب آليًّا للمحفِّزات المختلفة، إن لم يكن منقادًا بقوات لاإراديّة (الأنا، والانفعالات... وغيرها). إن السلوك الشرطيّ الذي أوضحه كل من عالمَي الفيزيولوجيا الروسيّين إيفان ب. بافلوف (Ivan P. Pavlov) وفلاديمير م. بيكتيريف (Vladimir M. Bekhterev) ونقلاه من الميدان الحيوانيّ إلى البشريّ، في وقت فرض مذهب جون ب. واتسون (John B. Watson) السلوكيّ الأميركيّ ذاته، إذ أوصى باستعمال الإجراءات التدريبيّة لدراسة الآليّات النفسيّة المدركة من خلال السلوك، الذي يعتبر ردًّ فعل على التغيرات التي تحدث في المحيط، فكل الأشكال المعقدة للحياة والعواطف والعادات وغيرها، هي نتاج عناصر عضليّة وغدديّة بسيطة لدى الإنسان، تمكن ملاحظتها وقياسها. لقد تحوّل علم النفس من كورت ليفين (Kurt Lewin) وفلويد ألبورت (Floyd Allport)، وصولًا إلى س. ميلغرام (S. Milgramm)، تخصصًا «علميًّا» يستخدم على رغم تنوعه الإجراءات «الموضوعيّة»، مثل التجارب في المختبرات، من أجل الحصول على نتائج يمكن استغلالها إحصائيًّا، فهذه المقاربة - التجديديّة - المعارِضة للتيّارات الاستبطانيّة تُعدّ ناقصة، نظرًا إلى إفراطها في الاختزال، إذ تختزل المحيط البشريّ في المحفّز الماديّ الذي يلخّص بمفرده علاقتنا

t.me/ktabpdf مكتبة

بالعالم. وتتمثّل طريقة عمل هذه التجارب في جمع بعض المتطوعين الذين يُنْتَقون بطريقة اصطناعيّة ويُسْتَخرجون من العالم الاجتماعيّ، ويُؤَطَّرون ببروتوكولات الاستقصاء الميدانيّ التوجيهيّة جدًّا، إلى درجة أن الباحثين يندهشون، في الغالب، من كون هذه المقاربة تعمل على إثبات النتائج. إن علم النفس التجريبيّ الذي واجه منافسة علم النفس الوراثيّ (بياجيه Piaget، فرويد Freud، والون Wallon)، يتقاسم معه فكرة أن تطوّر الإنسان محدود أساسًا، لأنه خلاصة معطيات (بيئيّة ووراثيّة ولاشعوريّة). ولا يُتصور العالم الإنسانيّ عمليّة بناء لا تتدخل فيها تصورات تصدر من شيء فيزيائيّ محايد وموضوعيّ، فهذا العالم علامات، ووساطات معقّدة، غير مفيدة بيولوجيًّا في الغالب، لكنها تضمن إمكانات تغيير غير محدودة للأفكار والأفعال.

تندرج في هذا المشهد مساهمة لاسويل، الطالب البراغماتيّ سابقًا والذي انتقل إلى دراسة تقنيّات الإقناع بكل برودة باسم النزعة التدخليّة للدولة، والمكلف بقيادة ذهنيّة شعوب الأمم الكبرى الديموقراطيّة عبر الدعاية، على غرار ما فعلت البرامج التي سميت بـ«الصفقة الجديدة»(*) في الميدان الاقتصاديّ. فخلاصة ما توصل إليه لاسويل عبَّر عنه مصطلح «الإبرة تحت الجلد» (hypodermic needle) الذي اخترعه لتعيين تأثير وسائل الاتصال الجماهيريّ على الجمهور السلبيّ والساكن، وهذا

(*) New Deal: مجموعة من البرامج الاقتصاديّة التي أعدها البيت الأبيض الأميركيّ في الفترة الممتدة من 1933 إلى 1936، خلال حكم الرئيس الأميركيّ فرانكلين روزفلت إبان عهده الأول، وذلك لمواجهة الكساد الاقتصاديّ الذي عرف بالأزمة الاقتصاديّة العالميّة.

t.me/ktabpdf مكتبة

من أجل تحديد حقل البحث في مجال وسائل الاتصال التي توصف بالجماهيريّة. لقد صاغ سؤاله الشّهير في 1948، والذي يُعد بمثابة برنامج عمل: مَن يقول ماذا؟ وبأي قناة؟ ولمن؟ ومن أجل أي تأثير؟ لقد كُلّف لاسويل بدراسة الأجزاء الفرعيّة في هذا الحقل (من دراسة منتجي الرسائل الإعلاميّة إلى أثرها)، فعزّز هذا النشاط التعريفيّ للاتصال الجماهيريّ في تطوّره ليصبح تخصصًا علميًّا في الولايات المتحدة الأميركيّة، وساهمت فيه مدرسة علم النفس بجامعة يال (Yale) الأميركيّة بقيادة كارل هوفلاند (Carl Hovland) بطريقة دالّة، والتي تجلت نتائج ما توصلت إليه تدريجيًّا في دحض الفرضيّات الأوليّة. إن تاريخ البحث في آثار وسائل الإعلام هو تاريخ مسار طويل عكسيّ، فمن الحلم بأولويّة الرسالة الحسيّة وصدارتها إلى الاكتشاف التدريجيّ للجمهور الذي يتمتع بملكات الانتباه والفهم والقبول والاحتفاظ بالمعلومات والتصرف حتّى داخل المختبر الذي تجري فيه التجارب. لقد لخصت السوسيولوجيا اللازارسفيلديّة هذا التطوّر في الدراسات النفسيّة من أجل تجاوزها[12].

هل الإشهار حُجّة على وجود الاتصال الإقناعيّ؟

إذا كان الحديث عن آثار المثير قد غادر علم النفس، فإنه يحيا دائمًا من جديد في المجتمع المدنيّ، والهيئات الوزاريّة والخطابات

(12) انقسم علم النفس الاجتماعيّ المعاصر إلى تيارات ظلت وفيّة لمساهمة هوفلاند ثم لازارسفيلد والتي قامت بفحص نوعيّ للمنظومات - الإعلانيّة على سبيل المثال - من ناحية مخطط الأفراد الإدراكيّ والمعرفيّ (انظر: Patrice Georget et Claude Chabrol, 2000). وتُركّز تيارات علم النفس المعرفيّ، والتيارات النوعيّة بصفة عامّة، على مفهوم التأويل، وتقترب من الدراسات الثقافيّة (Sonia Livingstone, 1990).

الاقتصاديّة، بحُجّة التأثير التِجاريّ الأبديّ: «إن لم ينجح الإعلان فلا أحد يصرف الكثير من الأموال من أجل إنجاحه». فعلى هذه الحُجّة التي تساير الفطرة السليمة، لم يردّ سوى القليل من الكُتّاب بشكل جيّد، مثلما فعل عالم الاجتماع الأميركيّ مايكل شودسن (Michael Schudson)، الذي كتب بسخرية عن أساطير المعلنين في كتابه **الإشهار وعدم ثبات الاقتناع** (*Advertising, the Uneasy Persuasion*)، (1984)، وأشار فيه إلى العديد من التداعيات التاريخيّة، ليخلص إلى أن المتصلين يعانون من غياب تام للمؤشرات، من دون أن يرفض العالم التجاريّ الذي يملك فوائد ويمكن التساهل معه، فإن كانت قُوَّة الرسائل الإعلانيّة حقيقيّة ومؤكّدة فعلًا، فكيف نفسر عدم استعانة قطاعات اقتصاديّة واسعة بها لتحقيق إقلاعها (بخاصّة البقالات الصغرى التي تبيع المواد الغذائية بأسعار منخفضة hard discount وتعدّ ظاهرة مركزيّة في قطاع توزيع السلع) وتحقيقها نجاحًا لا يصدق، وربما يكون الأكثر جماهيريّة على المستوى الاقتصاديّ منذ 30 سنة، وكانت هدفًا دائمًا للإعلانات الحكومية السلبيّة والمخدرات المحرمة؟ يجب التذكير بأن 80 في المئة من السلع الجديدة تخفق في ترسيخ قدمها في السوق، ولم تستطع الإعلانات الإشهاريّة أبدًا أن تنقذ قطاعًا يتراجع اقتصاديًّا بعصاها السحريّة. لقد أشار شودسن إلى أن المعلنين لا يعرفون قط هل سينجحون في التأثير على النّاس عندما يقومون بتجارب ناجحة على إعلاناتهم، فهذه التجارب لا تخبرهم سوى عن درجة تذكّر الجمهور السلع المعلن عنها ومدى رضا المستهلكين عنها، لكنها

لا تُعْلِمهم أبدًا عن كميّة مبيعات السلع في المستقبل. في الواقع، لا يعترف المعلنون الجيّدون أنهم سيضللون الزبائن، لكنهم يؤكّدون أنهم يستطيعون القيام بدور في عمليّة الشراء إن أخضعوا إعلاناتهم لطلب الزبائن، وإذا منحوهم المرآة الجيّدة. ويقتصر علم هؤلاء المعلنين في الغالب، على جملة من الوصفات الإمبيريقيّة أو عدم المعرفة. إن الأثر ـ غير المباشر ـ للإعلان هو استحضار السلع في المخيال (والأفضل وجودها فوق رفوف المتاجر) حتّى ينصرفوا بعدها إلى لعبة الأذواق والتفاوت الاجتماعيّ. «من المحتمل أن يساعد الإعـلان على بيع السلع وإن لم يقنع أبـدًا المستهلك بأي شيء»، فبحسب شودسن، الذي قدم مخططًا سمّي «حروف (R) الخمسة»(*) (*Des cinq R*) في نصّ آخر (Schudson, 1989) يكمن أثر وسائل الإعـلام، إذا جاز القول، لأن الأمر لا يتعلق بالأثر، بل بالفاعليّة الرمزيّة المشتركة مع الجمهور في:

1 ـ جعل السلع متوافرة. 2 ـ تطوير بلاغة الخطاب من أجل تَذَكُّر الإعلانات وترسيخها في المخيال الإعلانيّ وليس بغرض إقناع الجمهور. 3 ـ التناغم مع الأطر الثقافيّة. 4 ـ إعطاء ديمومة للسلع من خلال الاحتفاظ بها على الصعيد المؤسساتيّ (السلع المشتقّة من المواد المعلن عنها تنشّط الذاكرة باستمرار). 5 ـ أخيرًا، مساعدة الجمهور على اتخاذ القرار للرد على البرامج الإعلانيّة، بمنحهم

(*) إن سر هذا الحرف يكمن في أن عناصر المخطط المقترح تبدأ به، كما ورد في النصّ باللُّغة الفرنسيّة، وهي: (Rendre ـ Rhétorique ـ Résonnance ـ Rétention ـ Réponse).

t.me/ktabpdf

مكتبة

مخططات لحل المشاكل، فالإعلام - مثل الإعلانات والترفيه - لا يُنْظَرَ إليه كسلطات أو مواضيع أو أسباب، بل كمصادر أو سياقات.

عـزّزت بحوث علم النفس التجريبيّ اليوم التصور الباطنيّ الإيحائيّ، الذي أصبح موضع خشية مع تأكيد أثره الذي يتحقّق على المدى القصير جدًّا، فهذا التصور يُمحى خلال مئات الآلاف من الميلي/ ثوانٍ (milliseconds)، لذا «على المستهلك أو الناخب أن يسرع، على الأقلّ خلال 150 ميلي/ ثانية، للوقوف أمام رفوف المحلات التجاريّة أو مقصورة الانتخابات حتى يتجلى أثر الرسالة الإعلانيّة الإيحائيّة، فالتضليل الذهنيّ بواسطة الإعلانات الإيحائيّة غير ممكن في الواقع» (Ferrand et Segui, 2001).

خلاصة:

إن باراديغم الآثار القويّة ضعيف، لأنه يقدم معلومات محدودة جدًّا عن واقع التفاعل الاجتماعيّ، لكن يمكن على الأقلّ الاستعانة بنموذجه المتعلق بالحافز، أو المنبه (stimuli)، لفهم رد فعل المشاهدين الذين يسيل لعابهم أمام الإعلان عن الحلويات أي لتحليل تداعياته الحسيّة. ومن الصعوبة بمكان أن نشرح لماذا يمكن الأطفال (بعض الأطفال) أن يهتاجوا مؤقتًا بعد مشاهدة أفلام الكرتون العنيفة مباشرة (أو قبل مشاهدتها أو أثناءها أو لا يهتاجون أبدًا!). أخيرًا، لا يفسِّر الحافزُ أو المنبه بأي حال من الأحوال لماذا تُرتكَب الجرائم، ولماذا توجد اختلافات بين الأمم، وبين الأوساط الاجتماعيّة في علاقتها بالعنف، ولماذا تمكّن هتلر من الوصول إلى السلطة؟

t.me/ktabpdf مكتبة

المراجع:

AKOUN André, «Relire Gustave Le Bon», *Ethno-Psychologie*, 2, 1979.

ARIÈS Philippe, *L'Enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime*, Seuil, 1960.

BARKER Martin, PETLEY Julian (dir.), *Ill Effects. The Media/Violence Debate*, Londres, Routledge, 1997.

BECKER Jean-Jacques, *1914: comment les Français sont entrés dans la guerre*, FNSP, 1977.

BUCKINGHAM David, *After the Death of Childhood. Growing Up in the Age of Electronic Media*, Cambridge, Polity, 2000.

_____, *Moving Images. Understanding Chidren's Emotional Responses to Television*, Manchester, Manchester University Press, 1996.

CANTRIL Howard (avec Hazel GAUDET et Herta HERZOG), *The Invasion from Mars. A Study in the Psychology of Panic*, Princeton, Princeton University Press, 1940.

CHARTIER Anne-Marie, HÉBRARD Jean, *Discours sur la lecture (1880-1980)*, BPI Centre Georges-Pompidou, 1989.

DROTNER Kirsten, «Modernity and Media Panics», *in* SKOVMAND Michael, SCHRODER Kim Christian (dir.), *Media Cultures. Reappraising Transnational Media*, Londres, Routledge, 1992.

ELIAS Norbert, «Sport et violence», *Actes de la recherche en sciences sociales*, 6, 1976 (1971).

_____, *La Société de cour* (1969), Flammarion, 1985.

FERRAND Ludovic, SEGUI Juan, «La perception subliminale», *Pour la science*, 280, février 2001.

t.me/ktabpdf

مكتبة

GERBNER George, *Violence et terreur dans les médias*, UNESCO, *Études et documents d'information*, 102, 1989.

GILBERT James, *A Cycle of Outrage. America's Reaction to the Juvenile Delinquent in the 1950's*, New York, Oxford University Press, 1986.

GEORGET Patrice, CHABROL Claude, «Traitement textuel des accroches et publicités argumentées», *Revue internationale de psychologie sociale*, 4, 2000.

GONNET Jacques, *Éducation et médias*, PUF, 1997.

HOVLAND Carl *et al.*, *Communication and Persuasion*, New Haven, Yale University Press, 1953.

JARVIE Ian C., JOWETT Garth S., FULLER Kathryn H. (dir.), *Children and the Movies. Media Influences and the Payne Fund Controversy*, Cambridge, Cambridge University Press, 1996.

LARSEN Stein, HAGTVET Bernt, MYKLEBUST Jan Peter (dir.), *Who Were the Fascists? Social Roots of European Fascism*, Bergen, Universitetsforlaget, 1980.

LASSWELL Harold, «Structure et fonction de la communication dans la société» (1948), *in* BALLE Francis, PADIOLEAU Jean, *Sociologie de l'information et de la communication. Textes fondamentaux*, Larousse, 1973.

_____, *Propaganda Techniques in the World War*, New York, Knopf, 1927.

LE BON Gustave, *La Psychologie des foules* (1895), Flammarion, 1990.

LIPPMANN Walter, *Public Opinion*, New York, Harcourt-Brace, 1922.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LIVINGSTONE Sonia, *Making Sense of Television. The Psychology of Audience Interpretation* (1990), Oxford, Butterworth-Heinmann, 1995.

MATTELART Tristan, *Le Cheval de Troie de l'audiovisuel. Le rideau de fer à l'épreuve des radios et télévision transfrontières*, Grenoble, PUG, 1995.

MOSCOVICI Serge, *L'Âge des foules. Un traité historique de psychologie des masses*, Fayard, 1981.

OBERSCHALL Anthony, *Social Conflict and Social Movements*, Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1973.

ORTEGA Y GASSET José, *La Révolte des masses* (1930), Delamain et Boutelleau, 1937.

ROWLAND Willard, *The Politics of TV Violence. Policy Uses of Communication Research*, Londres, Sage, 1983.

SCHUDSON Michael, *The Power of News*, Cambridge, Harvard University Press, 1995 (traduction partielle dans *Politix*, 37, 1997).

_____, «How Culture Works. Perspectives from Media Studies on the Efficacy of Symbols», *Theory, Culture and Society*, 18, 1989.

_____, *Advertising, the Uneasy Persuasion. Its Dubious Impact on American Society* (1984), Basic Books, 1986.

SÉMELIN Jacques, *La Liberté au bout des ondes. Du coup de Prague à la chute du mur de Berlin*, Belfond, 1997.

SHILS Edward, JANOWITZ Morris, «Cohésion et désintégration de la Wehrmacht» (1966), in MENDRAS Henri (dir.), *Éléments de sociologie, Textes*, Armand Colin, 1978.

TCHAKHOTINE Serge, *Le Viol des foules par la propagande politique* (1939), Gallimard, 1992.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الفصل الرابع

مدرسة فرانكفورت ونظريّة الثقافة الجماهيريّة
الشمس السوداء للحداثة

كلنا نعيش، ولو لحظات، مع فكرة أن وسائل الإعلام تخدعنا أو تخدّرنا أوتحجب عنا طبيعة الواقع، الذي يدعو إلى العمل وليس إلى الخضوع، فمن النادر أن تتحوّل هذه الفكرة نظريّة يُسلَّم بها فعلًا، بعيدًا عن الشك في التأثير التنويميّ. وعلى هذا الأساس فإن فائدة «النظريّة النقديّة» التي طبقها أدورنو وهوركهايمر في صلب مدرسة فرانكفورت على وسائل الإعـلام، لا تخلو من الدقة ولا تجانب الصواب، بيد أن نقدها الجذري والممنهج لما يُصوَّر في الغالب ثقافةً منحطة ومُهينَة، يجاهر بأسس رفضه وسائلَ الإعلام من خلال استعراض أنموذج متماسك جدًّا للهيمنة الأيديولوجيّة التي تفرضها هذه الوسائل.

إذًا، ستظلّ هذه النظريّة راهنة، لأنها تقدم أنموذج حِجاجٍ يفترض فيه كل شخص أن الآخرين مغفلين فيما هو ليس مغفلًا. ومن وجهة نظر العلوم الاجتماعيّة، تكمن فائدة هذه النظريّة في تقديم سقّالة أولى لنظريّة الهيمنة الثقافيّة التي تعبّر عنها وسائل الإعلام. وإن ظلّت صياغة هذه النظريّة مُحْبِطة، ومدموغة بالأفكار المسبقة النخبويّة، فإنها تسمح بحصر مشكل العلاقة بين عالم وسائل الإعلام ولعبة عدم المساواة الاجتماعيّة أي أنها تطرح مشكل الأثر الأيديولوجيّ.

t.me/ktabpdf

مكتبة

من الثقافة الجماهيريّة إلى الصناعة الثقافيّة

تأسس معهد البحوث الاجتماعيّة في فرانكفورت (Frankfurt Institut für Sozialforschung) في 1923 على يد فلاسفة يهود ألمان عاشوا في ظل جمهوريّة فايمار (Weimar) وأُجْبر معظمهم على الهجرة إلى جنيف بسويسرا في 1933، ثمّ إلى نيويورك في 1934، خوفًا من الاضطهاد، بعد قيام النازيين بغلق معهدهم. لقد حدّد تيودور أدورنو، قائد هذا المعهد من دون منازع، بمعية ماكس هوركهايمر، الخطوط العريضة لنقد «الثقافة الجماهيريّة» في أربعينيّات القرن الماضي. وتحيل صفة «النقد» التي التصقت بهذه المدرسة إلى تيار بحثيّ محدّد. وحتى عبارة «الثقافة الجماهيريّة» أصبحت شائعة التداول و«مقبولة»، بخاصّة في معناها التحقيريّ[13]، فأصل هذا المعنى يعود إلى النقاش الحادّ الذي رافق ما توصلت إليه المجتمعات المعاصرة من اكتشاف فكريّ لمفهوم الجماهيرِ الذي وازى مفهوم الحشد في نهاية القرن التاسع عشر، في كتابات كلٍّ من فرويد ولوبون، وسبنغلر (Spengler)، وأورتيغا إي. غاسيت (Ortega Y. Gasset)، وت. س. إليوت (T. S. Eliot). إن الكُتَّاب التقدميّين والمحافظين يلتقون غالبًا في أفق يشوبه الحنين، وهم يندّدون بالانحراف المرَضيّ الذي يقوم على معاداة ظواهر دمقرطة الثقافة والاقتصاد التي تندمج بشكل أصيل في فكر ماركسيّ ضمن «النظريّة النقديّة».

---

(13) طالب المفكر الأميركيّ دوايت مكدونالد (Dwight Macdonald) بأبوّته لمفهوم الثقافة الشعبيّة في 1970، مبرزًا مقالًا كتبه في 1938، لكن الكتابات الأولى لأدورنو وهوركهايمر عن هذا الموضوع بدأت في مطلع أربعينيّات القرن الماضي، وتأثيرها على أبحاث مكدونالد واضح وجلي.

مكتبة t.me/ktabpdf

وتتسم الحداثة، في نظر أدورنو وهوركهايمر، بانتشار التكنولوجيا في كل مكان، وسلعنة العلاقات الإنسانيّة (أي تحويلها سلعةً)، وتفكك المؤسسات الاجتماعيّة الكبرى، مثل العائلة، التي تؤوي الأفراد وتعطي معنًى لحياتهم في ظل ضغط عالم الشغل وروح المنافسة. إذًا، لم يعد في وسع هذه المؤسسات حمايتهم من المحيط العام الذي يغزو بمتطلباته كل فضاءات الوجود، بما فيها تلك الخاصّة بالطفولة والترفيه («فالوسيلة الوحيدة للانفلات ممّا يجري في المصنع أو المكتب هو التكيّف معه خلال ساعات الترفيه»، **جدليّة العقل** *La Dialectique de la raison*, 1947). لقد تعرض أعضاء المجتمعات الصناعيّة لمعاناة نفسيّة، وأصابهم الوهن من وجهة نظر أيديولوجيّة على وجه الخصوص. وصفت حنّة أرندت هذه الهشاشة المفترضة بشكل صادم في خمسينيّات القرن الماضي. هذه الفيلسوفة الألمانيّة التي هاجرت، هي الأخرى، إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، ظلّت تحتفظ بوشائج فكريّة مع مدرسة فرانفكورت بمقدار ازدرائها إياها. لقد استعرضت تصورها بروز النازية في ألمانيا في نظريّتها عن النظام الشموليّ برفض تأويله بمصطلح الصراع الطبقيّ. فأكدت أن الاستبداد إذا تمكن من تثبيت أركانه فالسبب يعود إلى استفادته من الانسلاخ عن الجذور الاجتماعيّة وفقدان المعايير الجماعيّة، فخاصية «الإنسان الجماهيريّ» الأساسيّة يعبر عنها انعزاله ونقص علاقاته الاجتماعيّة، وفق ما ذهب إليه أدورنو وهوركهايمر، اللّذان شخّصا على المنوال ذاته أمراضَ المجتمعات المعاصرة في ظاهرة التَشذُّر الاجتماعيّ: لقد تُرِكَ النّاس لحالهم من دون عناية فأصبحوا غرباء عن

t.me/ktabpdf مكتبة

ذاتهم، «فباغترابهم» وفقدانهم جذورَهم الاجتماعيّة وانفصالهم عن جماعات انتمائهم، أصبحوا عرضة للتضليل من القوى الجديدة التي تحكم المجتمع، وبواسطة وسائل الإعلام، على وجه الخصوص، التي يواجهونها مباشرة. ويسلك هذا التضليل مسلكين كبيرين: التملق والإغـراء، فجاذبيّة القائد الكاريزميّ كما يجسدها المثال الهتلريّ، تُستمد من قُوَّة الأداة التي يستعملها (تكرار خطبه الإذاعيّة بشكل مستميت) ومن إطراء الحس الغريزيّ الاستبداديّ الذي يجيد إثارته. لقد وضع أدورنو سلّمًا يسمح بقياس ملموس لدرجة استبداد الأفـراد وفق منهجيّة استعرضها في مؤلفه **الشخصيّة الاستبداديّة** (*The Authoritarian Personality*) (1950).

إن الثقافة الجماهيريّة، التي أعيدت تسميتها بـ«الثقافة الصناعيّة» لتأكيد طابعها الميكانيكيّ والمُؤتْمت، لا تقتصر على استخدام الديكتاتور إياها، إنها قصفٌ مستمرّ لملكة الحكم وإنامةٌ للعقل بواسطة ضروب اللهو، فمنذ ميلادها القريب في القرن 19 وهيّ تدمّر ثقافة الماضي، الثّقافة الشعبيّة الأصيلة، وثقافة التقاليد الشفويّة والمطبخيّة التي تستند إلى «الفن الدونيّ»، وتدمر أيضًا تقاليد «الفن الراقي» الذي يبحث عن الصعوبات والعناية بالتعبير الرسميّ ونقد الهرميّات، فسلطة الذي يفرض ذاته في كل مكان لا تُعد ثقافةً حقيقيّةً، وإنّما مجرد هيمنة مستمدة من قدرته التقنيّة وكفاءته في إنتاج البرامج الإذاعيّة المتسلسلة، والأفلام والروايات التي تستند إلى الأخلاق التي تُستوعب بسهولة وترضي الذهن.

تمارس وسائل الإعلام التي تُدار ـ مثل الصناعات ـ إغراءً دائمًا، لأنها تخفف، وتريح، وتسمح بالحلم والتمني، وتختزل صورُها النمطيّة

t.me/ktabpdf مكتبة

تعقيدَ العالم، وتكمن متعتُها في رتابتها المُطمْئنة. ونماذج التماهي التي تقترحها ليست سوى مشتقات هزيلة ووسائل لبقاء النّاس منغلقين على ذاتهم داخل حالة سلبيّة لا حد لها. وهكذا، تدفع ألعاب الحظ إلى تخيل مخرج سريع وسعيد للمحنة الشخصيّة، وتقوم أفلام الوسترن (Western) الأميركيّة كلها على النزعة الفردانيّة التي تبدو منتصرة (وحده البطل ينتصر في النهاية) لكنّه انتصار يبدو وهمًا في آخر المطاف: فهذا النوع من الأفلام يجعل البعض يفكر في أنه يمكن المشاكل الاجتماعيّة أن تُحَلّ بالقُوَّة البدنيّة الفرديّة، لكن هذا الحلّ لا يقوم إلّا بحجب واقع الاستغلال الرأسماليّ الجماعيّ لمصلحة الطبقة التي تملك وسائل الإعلام مثلما تملك بقيّة القطاعات الاقتصاديّة والسلطة السياسيّة، فالوقت الذي يصرف في المتعة الناعمة التي تثيرها وسائل الإعلام، والحلم بالانتقام من القدر، والإعجاب بنجوم الفن بعيدي المنال لا يُستدرك أبدًا. وتشكِّل وسائل الإعلام جدارًا من دخان، وذلك للتستر على ما تمارسه فعليًّا. إنها بخار مُبَلِّد، يؤدي إلى إسكات الجماهير ويناهض «التنوير». إنها الشمس السوداء للحداثة: إنّها بخداعها البشر توهمهم، وتعمّم غياب الحس النقدي وفقدان احترام الثقافة الحقّة.

تجب الإشارة إلى أن «النظريّة النقديّة» لم تتأسس على فكرة المنبه أو المحفّز المبتذلة، ومساهمتها الكبرى تتجلى في إقحام التفكير حول الأيديولوجيا في البحث عن وسائل الإعلام (نتحدث هنا عن التأثير الأيديولوجيّ وليس رد الفعل الشرطيّ) وفي إقامة علاقة بين التاريخ والاتصال. وهكذا، مدّدت هذه النظريّة أفكار ماركس حول الاستغلال الاقتصاديّ وأدخلت فكرة السيطرة الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى عالم

t.me/ktabpdf مكتبة

الثقافة (لنتذكر القول الماركسيّ المأثور والعام: «الأفكار المهيمنة هي أفكار الطبقة المسيطرة»). إن الثقافة مجال يتجلى فيه ميزان القوى، وليست مجرد ترفيه نزيه أو فن بلا غاية. لكن العلاقة التي تقيمها هذه النظريّة بين الثقافة والهيمنة الاقتصاديّة والسياسيّة تظلّ جامدة وصارمة، فالبنية التحتيّة (الاقتصاديّة) تحدّد البنية الفوقيّة (الثقافة)، ولا خيار للإنسان الجماهيريّ ـ وفق هذه «النظريّة النقديّة» ـ سوى الهيجان (التوتّر الرجعيّ للحشد الهستيريّ الذي ندّد به المفكرون المحافظون) أو عدم المبالاة والخمول («زفرات الكائن المقهور» التي يستنكرها الثوريّون)، ولكليهما تأثير المُخدِّر المسيطر على العقل. وترى هذه النظريّة أن وسائل الإعلام تقوم بالدور ذاته الذي يقوم به الدين لدى ماركس أي أنها أفيون الشعوب الجديد. «إن المتعة تعزّز الخنوع، الذي من المفترض أن يساعد على النسيان» (جدليّة العقل). ويوجد تعاون بين الأفراد، سواء عن وعي أو من دونه، على خسارتهم، «فالرجال الخانعون يأخذون الأخلاق التي يلقنها لهم أسيادهم مأخذ الجد، ويلتزمون بها أكثر مما يتقيد بها هؤلاء الأسياد. والشيء ذاته ينطبق على الجماهير المخدوعة اليوم، التي تتوهم أسطورة النجاح أكثر ممّن نجحوا» («إن التعلق الكارثيّ للشعب بالأذى الذي تسببه له هذه الوسائل يتفوق على حيل السلطات»، جدليّة العقل).

ثقل مرجعيّة الحرب والنخبويّة الثقافيّة

إنّ الاعتراضات على هذه الرؤية عديدة، فأدورنو يدمج بين نظريّة العقلنة والتخلص من الوهم لفيبر (في نسختها الأكثر تشاؤمًا

التي لم يوافق عليها فيبر نفسه أبدًا) وبين نظريّةِ صنميّةِ (fétichisme) السلعة لكارل ماركس[14]. وتعد مؤلفات أدورنو استمراريّة لما جاء به الفيلسوف الماركسيّ المجري جورج لوكاتش (Georg Lukács)، الذي يعتبر أول من قام بتحليل مضمون الرواية البرجوازيّة في كتابه **نظريّة الرواية** (*Théorie du roman*) (1916) من منظور انعكاس العالم الاقتصاديّ. رأى لوكاتش أن أبطال روايات فلوبير (Flaubert) وبلزاك (Balzac) يعيشون في عالم منحط، مفكك وخالٍ من القيم، يحيل إلى فراغ العالم التجاريّ الذي هجره الفن. إن مشكل هذه النظريّة يكمن في استنادها إلى افتراضات مسبقة وشديدة الرومانسيّة والسوداويّة. ويبدو الأمر وكأن العالم كان أصيلًا ومملوءًا بالمعنى الأنطولوجيّ، ثمّ تراجع كلّ شيء وفقد قيمه. وتتردّد الدعوة إلى ثورة تحرّر العالم من الرأسماليّة بين الطوباويّة الساذجة (لنبني عالمًا جديدًا) والوجوديّة الرجعيّة (يجب العودة إلى الوراء).

بالطبع، من الصعوبة ألّا نلاحظ العلاقة بين تطرف هؤلاء الفلاسفة في تشاؤمهم السياق التاريخيّ الذي عاشوا فيه. لقد تأثروا أيّما تأثر بالحرب العالميّة الثانية، ثمّ بالمحرقة النازية فعمّموا تشاؤمهم حتى على الحداثة (سندرك ذلك عندما نقرأ الكتاب المهم والأخير الذي أصدره أدورنو بعنوان **جدليّة سلبيّة** *Dialectique négative*، والذي يطرح فيه المطلب الدائم: يجب أن نفكر ونعمل

---

(14) على رغم أن أدورنو يعترف بابتعاده عن عالم الاجتماع والاقتصاد الأميركيّ ثورشتاين فيبلن (Thorstein Veblen) (1857 ـ 1929)، إلا أن هذا الأخير شكل مصدر أفكاره.

t.me/ktabpdf

مكتبة

حتى لا يتكرّر معسكر اعتقال أوشفيتز النازي). وقد اعترف لوكاتش قبل هؤلاء الفلاسفة، بأن نقطة الانطلاق في نظريّته حول الرواية كانت الحرب العالميّة الأولـى، و«اليأس الدائم» الـذي استولى عليه. لقد اعتبر هؤلاء الفلاسفة الاستعراضَ الترفيهيّ الذي كانت تقوم به وسائل الإعلام الألمانيّة في الفترة الفاصلة بين الحربين، وهمًا وتمويهًا لحجب بروز النازية، وقد اصطدموا في هجرتهم إلى نيويورك بالثقافة الشعبيّة الأميركيّة التي تزعج المثقفين، وأدى كل هذا إلى شحذ حكمهم المعادي لهذه الثقافة. لقد كان أدورنو يبغض الإذاعة ويشمئز من السينما ومن الأنواع التي تعتبر «شعبيّة»، أو حتى نبيلة (موسيقى الجاز). لقد خصص دراساته ذات الأهميّة الكبرى للموسيقى التي تهمه («الموسيقى الكلاسيكيّة» أو «المعاصرة»)، ومَزَجَها بغيرها من الإنتاج الموسيقيّ الذي يزدريه. إن مفهومه للفن، كما لاحظ هانز روبرت جوس (Hans Robert Jauss)، نخبويّ بكل وضوح، ينبذ كل تجربة مرتبطة باللذة والمتعة الآنيّة، فالمتعة نسيانٌ للذات ولحالتها الاجتماعيّة، وإذعانٌ لـ«الوضع القائم». يجب أن يكون الفن مُتَّهِمًا، و«سلبيًّا»، ويتمثل في الاعتزال والزهد الأخلاقيّ والجماليّ (يتجلى على سبيل المثال في الفن التشكيليّ التجريديّ، أو الرواية الجديدة)، فمن يتحدث عن المتعة، متعة الأذن على سبيل المثال، «يخون ذاته» ويكشف عن عداوته البرجوازيّة للطابع الفكريّ للفن: «البرجوازيّة تتمنى الترف في الفن والزهد في الحياة، وكان لها أن تفعل ما هو أفضل لو تمنت العكس» (**نظريّة الجمال** *Théorie esthétique*, 1970)، هذا على رغم أن أدورنو يعترف بحدود كل

t.me/ktabpdf

مكتبة

تجربة زهدية للفن: فإذا تمّ إقصاء اللذة تمامًا، لا نعرف كيف نجيب عن السؤال الخاص بالجدوى من وجود الأعمال الفنيّة (**نظريّة الجمال**). إن رفض أدورنو المتعةَ يترجَم أوّلًا بالحذر من العاطفة ومن كل ما لا يمكن المثقفين مراقبته، وبهذا فإنه يقترب من أفلاطون الذي كان يتمنى فرض وصاية على الفنون وطرد الشعراء من المدينة[15].

مشاكل المناهج

إنّ النقد الأساسيّ الذي يجب توجيهه إلى الذين نصَّبوا أنفسهم مختصّين في النقد هو لرفضهم الاهتمام الإمبيريقيّ بالحقائق التي يندّدون بها. لقد اعتبروا إنتاج وسائل الإعلام بمثابة صور نمطيّة، أحاديّة في صياغتها، موحدة في تأثيرها على الجمهور، على رغم أن أدورنو ذاته أشار إلى أن إنتاج الأفلام والمسلسلات الإذاعيّة ليس صناعيًا سوى عن طريق التماثل أي أنه ليس صناعيًّا قط. وبالفعل، إنّه يبحث عن الربح، ويخضع للتخصص في العمل ولإرادة تلبية «الطلب» ولتنميط بعض الممارسات في عمليّة الإنتاج والتوزيع على وجه الخصوص. لكن لا نستطيع أن ننتج سلسلة من الروايات الناجحة مثلما ننتج المواد الغذائيّة بكميّة صناعيّة، وذلك لأن الإنتاج الثقافيّ لا ينمَّط بشكل تام أبدًا، فضلًا عن أنه من المستحيل عدم ملاحظة أن مصلحة المنتجين، والمؤلفين، والمعلنين وكل الفاعلين في مسار السمعيّ ـ البصريّ ليست ذاتها، ومسيرتهم الشخصيّة مختلفة، وتشخيص مصلحة هؤلاء في مصالح

---

(15) لأفلاطون نظرة مزدوجة للعاطفة، ففي محاورته المعنونة فايدروس (*Phèdre*) جعل من الرغبة في الجمال وساطة بين الإنسان والمقدس، أما في كتابه **الجمهورية** (*La République*) فقد جعلها مُهَدِّدة للنظام الاجتماعيّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

البرجوازيّة الصناعيّة يحصر هذا الإنتاج في نظريّة المؤامرة. «يجب ألّا نتقيَّد حرفيًا بعبارة الصناعة... فهذا الفضاء صناعيّ في المعنى فقط... وتشبيهه بالأشكال الصناعيّة للتنظيم وإن لم يقم بالإنتاج فعلًا، مثل عقلنة العمل المكتبي أكثر من الإنتاج العقلانيّ من وجهة نظر تكنولوجيّة فقط. لهذا السبب، فإن حالات الإخفاق في الاستثمار في الصناعات الثقافيّة كثيرة جدًا» («الصناعات الثقافيّة»). فإذا لم ينجح الاستثمار في الصناعات الثقافيّة ساعةَ القيام به، فهذا يعني أن هذه الصناعات ليست ذاك الكيان المؤذي والغيبيّ، كما يحلو وصفها في بعض الأحيان، خصوصًا وأنّ أذواق جمهورها تظلّ مجهولة. ولكن عمليّة تلقّي البرامج الإعلاميّة لم تُفهم إلا عبر فرضيّات حاسمة لا تقبل الطعن. لقد تم الاعتماد على التحليل النفسيّ في ملاحظة البلادة والسلبيّة المزعومة التي تمارسها المواد الإعلاميّة من دون إعطاء الكلمة للجمهور لإبداء رأيه في هذه المواد. ويعتبر أدورنو أن القيام بأي دراسة لرصد رد فعل الجمهور على برامج الإذاعة أو الأفلام تواطؤ مع الصناعات الثقافيّة، لكنه يقوم في المقابل بدراسة إمبيريقيّة عندما يتعلق الأمر بالكشف عن استبداد الأشخاص الجماهيريّين الذي يؤكّد فرضيّاته[16].

من المهم التأكيد في هذا المقام، على التباين بين ما قدمه أدورنو والجهود التي بذلها أعضاء مدرسة فرانكفورت الأكثر هامشيّة.

(16) إنّ السلّم الذي يسمح بقياس الاستبداد تستخدمه دائمًا بعض فرق البحث في العلوم السياسيّة التي تريد قياس كره ناخبي اليمين المتطرف للأجانب على سبيل المثال. وقد وُجّه إليه العديد من الانتقادات، خصوصًا تلك التي تراه يستبعد الطابع الاجتماعيّ والتاريخيّ لمصلحة المتغيّرات النفسيّة البحتة، والكشف عن استبداد اليمين (الفاشيّة) على حساب استبداد اليسار... وغيرها.

t.me/ktabpdf مكتبة

لقد اشترك كل من والتر بنجامين وسيغفريد كراكاوير (Siegfried Kracauer) مع أدورنـو في نزعته التشاؤميّة، إذ اشتركا في الرغبة بإخراج العالم من سباته الملعون، عالم يُعتبر خاليًا من المعنى الأصيل، فأصبح «جهنميًّا» بالأساطير الخادعة التي تحكمه (بحسب بنجامين). لكن في الوقت الذي تنحو خطابات أدورنو وهوركهايمر إلى التحوّل مجردَ لعنات خالية من العناصر الإمبيريقيّة الحقيقيّة، تتسم خطابات بنجامين وكراكاوير بملازمتها مواقف أكثر انفتاحًا على أشكال عينية للحداثة. لقد ورثا عن جورج زيمّل، مؤسس علم الاجتماع الألمانيّ الجزئيّ وملهم مدرسة شيكاغو بأعماله حول السلوك الحضريّ، دروسًا تجلّت في نقدهما الذي يترك مجالًا لملاحظة التفاصيل، وفي رصدهما الدقيق الذي يمكن أن يتعارض مع خلاصتهم المتشائمة. ويُعدّ كراكاوير من أهمّ الكُتّاب الأوائل الذين درسوا الرواية البوليسيّة (درسها بالمصطلحات ذاتها التي استخدمها جورج لوكاتش لكنه طور تحليله مضمونَها بشكل دقيق)، وأوبريتات أوفنباخ(*) (*Offenbach*) أو ثقافة «ذوي الياقات البيضاء». فلا جدال في مساهمة كراكاوير المنهجيّة من خلال اختياره العودة إلى «غرائبيّة الحياة اليوميّة» منذ 1920 أي الرجوع إلى تحليل العالم الاجتماعيّ بالانخراط فيه، والنظر إلى ما يعتمل في قاع المجتمع وليس في سطحه فقط. وهذا الاختيار جعله من السبّاقين في استخدام تقنيّة الملاحظة بالمشاركة في البحث. لقد استند بنجامين في حكمه

(*) جاك أوفنباخ: مؤلف موسيقيّ فرنسيّ من أصل ألماني (1819 _ 1880).

t.me/ktabpdf مكتبة

الدقيق على السينما، الذي يشوبه التناقض، إلى مسح ميدانيّ ناجح أيضًا، إذ اعتبر السينما تقنيّة تعيد الإنتاج ، وتلغي «الهالة» التي تحيط بها، وتقضي على التَفرُّد، وتبتعد عن العمل الفنيّ الأصيل (مثل اللوحة الفنيّة). إنها تقنيّة تخرب كلّ اندماج في تقاليد جمعوية من أجل الوجود المبتذل في كتلة الجمهور غير المتمايزة، وفق ما تذهب إليه طروحات التخلص من الوهم وصنميّة السلعة (اقرأ في هذا الصدد ما كتبه هنيون Hennion ولاتور عن «أخطاء بنجامين»). غير أن بنجامين ينظر إلى السينما من زاوية إمكان الإثراء الجماليّ (لقد تم تثمين تفاعلاتها مع المسرح، على سبيل المثال)، وحتّى السياسيّ (اعْتُقد أنه من المحتمل أن يكون شارلي شابلن Charlie Chaplin تقدميًّا).لقد عبَّر عن اهتمامه بالجمهور وأدار ظهره «للكليشيهات» التي ترى أن «الجماهير تبحث عن الترفيه لكن الفن يتطلب التأمل»، والتي يعتقد أنها لا تقوم سوى بتكرار «الشكوى القديمة». إن مقاربة بنجامين للجمهور تتمركز حول مفهومي التحشيد والكدح (الانتماء للطبقة الكادحة) في آن، وحول الشعور بأن وسائل الإعلام تسمح لعدد متزايد من الأشخاص بالتعبير وتطوير الكفاءات (من خلال «بريد القراء على وجه الخصوص»).

وَرَثة مدرسة فرانكفورت

إنّ تجزئة الحداثة إلى «شذرات من الحداثة»، على حد تعبير دايفيد فريسبي (David Frisby)، تميّز مؤلفات هذين الكاتبين، وتتعارض كمقاربة مع فلسفة أدورنو المجردة جدًّا والتي تمحو

فرضيّتها كلّ الخصوصيّات التي تتمتع بها هذه الحداثة. وانتحار بنجامين في 1940 (عندما كان يحاول اجتياز الحدود الإسبانيّة)، وامّحاء كراكاوير فكريًّا بعد الحرب العالميّة الثانية، ثمّ تجديد مدرسة فرانكفورت بحركة تنديد قويّة بالمجتمع الجماهيريّ مع إريك فروم (Erich Fromm) وهربرت ماركوزه (Herbert Marcuse) في السنوات 1960 ـ 1970، كلها عوامل خلقت معادلة آليّة بين «النظريّة النقديّة» والنزعة الكونيّة المجردة. إن غالبيّة مثقفي اليسار الأكثر ميلًا إلى الدفاع عن المثل الديموقراطيّة، والذين ثمّنوا مشاركة الجمهور، هم الذين ندّدوا أكثر بتأثير وسائل الإعلام الضارّ، وهم الذين وقفوا مع المحافظين وليس ضدهم في مقت «الفنون الشعبيّة» (Ross, 1989, Gorman, 1996)[17]. ويأخذ هذا المقت لدى المفكرين الفرنسيّين المناهضين للنزعة الإنسانويّة وكُتّاب التفكيكيّة البارزين، شكل تنديد عدمي، فسلطة وسائل الإعلام بالنسبة إلى جان بودريّار غير مرتبطة بالمحتوى الأيديولوجيّ للرسائل الإعلاميّة، بل ذات صلة بنظام المبادلات، وبالمدوّنات، التي تتحوّل إلى فضاء مستقل ذاتيًّا[18] والذي لا يستطيع الأشخاص الحلم باستثماره

---

(17) يمكن نقد وسائل الإعلام أن يتناغم مع الأحداث السياسيّة، مثل الانقلاب الأميركيّ ضد رئيس تشيلي سلفادور ألندي (Salvador Allendi)، الذي شكل خلفيّة لأعمال دورفمان (Dorfman) وماتيلار (Mattelart) عن الترفيه والصناعة الأميركيّة التي اتّهمت بتحضير السيطرة العسكريّة الأميركيّة وتمديدها.

(18) يمتزج تأثير المفكرين النقديّين بتأثير ماكلوهان في الحتميّة التكنولوجيّة التي تنفي التأثير المتبادل بين البشر والآلات، وهذا خلافًا لتأثير ماكلوهان.

t.me/ktabpdf مكتبة

أو تعديله (**من أجل نقد الاقتصاد السياسيّ للرمز** *Pour une critique de l'économie politique du signe,* 1972). وليست وسائل الإعلام مركز التأثير الأيديولوجيّ لكنها أيديولوجيا في حد ذاتها، وإن كانت أيديولوجيا خواء التَمَثُّل. ويقوم بودريّار بتحديث التعارض القديم بين الواقع والوهم، وكأن الفكرة أو الصورة التي لا معنى لها لا تشكل جزءًا من بناء الواقع. إن هذا التعسف المعمَّم يوجد أيضًا في مؤلفات ميشال فوكو، مثل **المراقبة والعقاب** (*Surveiller et punir*) (1975)، و**إرادة المعرفة** (*La volonté de savoir*) (1976)، التي تُنَظر لحضور سلطة مركزيّة متواجدة في كل مكان، ممثلة في منظومات النظر «الاشتماليّ» (le panoptique)، والاعتراف الذي يدفع إلى التعبير عن دواخل الفرد التي تسيطر عليها المؤسسات، فأثناء الانتقال من مجتمع تقليديّ إلى مجتمع حديث، تنتحل الدولة سلطة تأديب الممارسات باختراع نزعة فردانيّة يقوم كل شخص بتأويلها بسذاجة كانتصار للحرية، بينما ليست في الواقع سوى تقنيّة للمراقبة التي تفضي إلى خلق أشخاص متماثلين. ويلوم الجيل الجديد من كُتّاب مدرسة فرانكفورت، وناومي كلاين (Naomi Klein) ذات النظرة الحادة والمنددة في بعض الأحيان، الرأسماليّةَ الإعلاميّة على سلعنة الإنسان في حركة كلاسيكيّة ترفض الصناعة بعد الدولة.

هل يُعدّ ما يحدث اليوم في ألمانيا مفارقة نهائيّة أو مخرجًا منطقيًا لحركة سلبيّة جدًّا؟ إن هذا البلد يشهد تحوّل المفكرين النقديّين إلى معتنقي الحداثة والنزعة الإنسانويّة المناهضة للأرستقراطيّة مع آخر ممثّلي مدرسة فرانكفورت: يورغن هابرماس وأولريش بيك.

المراجع:

ADORNO Theodor, *Théorie esthétique* (1970), Klincksieck, 1974.

_____, *Dialectique négative* (1966), Payot, 1992.

_____, «L'industrie culturelle», in *Communications*, 3, 1963.

_____, «La télévision et les patterns de la culture de masse», in BEAUD Paul *et al.*, (dir.), *Sociologie de la communication* (1954), Réseaux-CNET, 1997.

ADORNO Theodor, FRENKEL-BRUNSWICK Else, LEVINSON Daniel J., NEVITT Sanford R., *The Authoritarian Personality*, New York, Harper and Row, 1950.

ARENDT Hannah, *Le Système totalitaire* (1951), Seuil, 1972.

BAUDRILLARD Jean, *Pour une critique de l'économie politique du signe*, Gallimard, 1972.

BENJAMIN Walter, «L'œuvre d'art à l'ère de sa reproductivité technique» (1936), in *Écrits français*, Gallimard, 1991.

DORFMAN Ariel, *The Empire's Old Clothes. What the Lone Ranger, Babar, and other Innocent Heroes Do to our Minds*, New York, Pantheon Books, 1983.

DORFMAN Ariel, MATTELART Armand, *How to Read Donald Duck. Imperialist Ideology in the Disney Comic*, New York, International General Editions, 1975.

FOUCAULT Michel, *Histoire de la sexualité*, t. 1, *La Volonté de savoir*, Gallimard, 1976.

_____, *Surveiller et punir*, Gallimard, 1975.

t.me/ktabpdf مكتبة

FRISBY David, *Fragments of Modernity. Theories of Modernity in the Work of Simmel, Kracauer and Benjamin*, Cambridge, MIT Press, 1986.

GORMAN Paul R., *Left Intellectuals and Popular Culture in Twentieth-Century America*, Chapel Hill, North Carolina University Press, 1996.

HABERMAS Jürgen, *Théorie de l'agir communicationnel*, 2 t., (1981), Fayard, 1987.

HENNION Antoine, LATOUR Bruno, «L'art, l'aura et la technique selon Benjamin ou comment devenir célèbre en faisant tant d'erreurs à la fois...», in *Les Cahiers de médiologie*, 1, 1996.

HORKHEIMER Max, ADORNO Theodor, *La Dialectique de la raison* (1947), Gallimard, 1974.

JAY Martin, *Adorno*, Cambridge, Harvard University Press, 1984.

_____, *L'Imagination dialectique. Histoire de l'école de Francfort (1923-1970)* (1973), Payot, 1977.

JAUSS Hans Robert, «Petite apologie de l'expérience esthétique», in *Pour une esthétique de la réception* (1970), Gallimard, 1978.

KLEIN Naomi, *No Logo. La tyrannie des marques* (1999), J'ai lu, 2004.

KRACAUER Siegfried, *Les Employés*, Éditions Avinus, 2000 (texte posthume).

_____, *Le Roman policier. Un traité philosophique* (1922-1925), Payot, 1981.

LEVINE Lawrence W., *Highbrow/Lowbrow, The Emergence of Cultural Hierarchy in America*, Cambridge, Harvard University Press, 1988.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LUKÁCS Georg, *La Théorie du roman* (1916), Éditions Gonthier, 1963.

MARCUSE Herbert, *L'Homme unidimensionnel* (1964), Minuit, 1968.

MCDONALD Dwight, «Culture de masse» (1944), in *Diogène*, 3, 1953.

ROSS Andrew, *No Respect. Intellectuals and Popular Culture*, New York, Routledge, 1989.

t.me/ktabpdf

مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفصل الخامس

النظريّة اللازارسفيلديّة للآثار المحدودة
قطيعة... ذات آثار محدودة

مصادر الإمبيريقيّة الأميركيّة

إنّ الدراسة الإمبيريقيّة عن وسائل الإعلام وجمهورها التي أحدثت قطيعة كبرى في تاريخ نظريّات الاتصال، لأنها دفعت بها إلى علم الفعل الاجتماعي ولم تتقوقع ـ على الأقلّ ـ في الوظيفيّة، لم تنطلق في أربعينيّات القرن الماضي مع تيار البحث الذي سعى (بقيادة بول لازارسفيلد) إلى المطالبة بتسميته «التيار الإمبيريقيّ»، بل تعود جذورها المباشرة إلى البحوث الحضريّة التي جرت في شيكاغو، وترجع بشكل غير مباشر إلى بروز الفلسفة البراغماتيّة الأميركيّة التي تحثّ على القيام بالبحث الوقائعيّ ودراسة ظاهراتيّة الأنشطة الإنسانيّة. لكن الطلب المتزايد على معرفة جمهور وسائل الإعلام شكّل حركة عميقة تعدت أسوار الجامعة، إذ نبع من الجمعيات المدنيّة، وهياكل الدولة، والمؤسسات الصناعيّة، ووسائل الإعلام ذاتها. ويمكن هذا الطلب أن يكون معياريًا لدى الجمعيات العائليّة أو تجمعات عمال الخدمات الاجتماعيّة، ويرتكز على الرغبة في معرفة تأثير عرض الأفلام على الشباب، على سبيل المثال. ويجب التنويه بالمكانة المرموقة التي نالتها البحوث الميدانيّة التي قام بها صندوق باين (Payne Fund)، وهو اسم

t.me/ktabpdf مكتبة

الجمعية التي اختارت في ثلاثينيّات القرن الماضي، تمويل البحوث حول السينما وضرر أثرها المزعوم على الأطفال. لقد قام فريق من علماء الاجتماع والنفس والتربية ذو مستوًى عالٍ من الكفاءة، بهذه البحوث ونشرها في اثني عشر مجلدًا في 1933. وبيّنت هذه البحوث لأول مرّة، أن السينما تقوم بدور نفسيّ سليم، وهذا بالاعتماد على الوقائع، ولا تنافس القراءة بشكل مباشر. إن مساهمة هذه البحوث ليست سلبيّة، فقد سمحت بالقضاء على الأفكار المسبقة العنيدة، وأظهرت أيضًا أن العلاقة بالأفلام ليست ظاهرة فرديّة فقط، بل تندرج كذلك في حياة الأطفال الجماعيّة، فالعرض السينمائيّ لا يُستخدم لتقليد سلوك الممثلين في الواقع، بل يستخدم لتجريب أدوار اجتماعيّة من النمط التخيليّ، من أجل التكيّف مع متطلبات التنشئة الاجتماعيّة (تعلّم مدونات العشق وتقنيّات تقديم الذّات، وغيرها)[19]. لقد سبق لهربرت بلومر (Herbert Blumer)، الكاتب الأساسيّ في المؤسسة المذكورة ومؤسس تيار «التفاعلات الرمزيّة»، أن وصَفَ العلاقة بوسائل الإعلام كالعلاقة بالمعنى وليس كالعلاقة بمُنبّه.

اكتسى طلب الأوساط الاقتصاديّة والسياسيّة معرفة وسائل الإعلام (الصحف اليوميّة والمحطات الإذاعيّة) طابعًا أداتيًّا أيضًا، لأنه حضَّ لأول مرّة على وضع مؤشرات للقراءة والاستماع إلى الإذاعة، وقياس العلاقة بين التصويت في الانتخابات، والشراء، ومتابعة برامج وسائل الإعلام... وغيرها. لقد شكلت الولايات

---

(19) قام كل من جارفي (Jarvie) وجوات (Jowett) وفولر (Fuller) بإعادة تقويم هذه البحوث في 1996.

t.me/ktabpdf مكتبة

المتحدة مركزًا أساسيًّا لدراسة الجمهور، نظرًا إلى كونها كانت تمثل إطارًا للتطوّر الهائل والمبكر لوسائل الإعلام وللأفكار الليبراليّة والنفعية التي رسخت فيها بقُوَّة، وقد عزّزت الحربان العالميّتان مكانة مركزها هذا. وكانت الرغبة في معرفة آليّات الدعاية وراء إفشالها أكثر من إرادة استعمالها. وقد ترجمت هذه الرغبة في الطلبات التي وجهتها الدولة الأميركيّة إلى هيئات البحث في العلوم السياسيّة وعلم النفس التجريبيّ، ما سمح بتمويل البحوث التأسيسيّة التي قام بها هارولد لاسويل وكارل هوفلاند.

وعلى رغم أن البحوث التي قام بها بول لازارسفيلد تندرج ضمن استمراريّة البحوث المذكورة، فقد شكلت قطيعة حاسمة. لقد اضطرّ عالِم الاجتماع وعالِم النفس النمساوي هذا للهجرة إلى أميركا عام 1935، على غرار فلاسفة مدرسة فرانكفورت، وقادته قناعاته إلى التشكيك في الفرضيّات السائدة عن وسائل الإعلام ومناهج التفكير فيها، كما قاده تعلقه بالمذهب الوضعيّ (انتسب إلى نادي فيينا(*) الذي كان وراء ميلاد «الوضعيّة المنطقيّة»، وأقرّ بتأثره بإرنست ماخ Ernst Mach، وهنري بوانكاريه Henri Poincaré، وألبرت آينشتاين Albert Einstein) إلى تفضيل جمع البيانات والمعلومات المتعلقة بسلوك النّاس على المزايدة المحضة في المناقشات، فالنشاط العلميّ في هذا النادي لا يكمن في الأخذ بالاعتبار إمكانات المعرفة أو

(*) نادي فيينا: تشكَّل هذا النادي من مجموعة من العلماء والفلاسفة في فيينا في 1923 واستمر لغاية 1936. وقد جمعهم برنامج عمل يضمّ تقاليد الفلسفة العقلانيّة والإمبيريقيّة.

مكتبة t.me/ktabpdf

مساءلة الكائن والأشياء، بل يتمثل في تنظيم الحقائق التي تفرزها التجربة. ويبدو أن هذا النشاط يكتسي طابع الأولويّة في مسألة لم تشهد بياناتها توثيقًا كبيرًا، مثل مسألة الإعلام. وتمكن صياغة كل هذا في شكل مفاهيم تعدّ أنظمة تصنيفيّة، حيث يستطيع كل مفهوم أن يكون مرمزًا ويُحَوّل إلى مؤشرات رياضيّة تقود إلى نتائج متعدّدة الأبعاد (يوجد في الغالب العديد من المؤشّرات إلى المفهوم الواحد)، وتندرج في نظام الاحتمالات فقط. لقد سمحت هذه «العقيدة» الإبستيمولوجيّة، التي نوقشت وأثارت جدلًا، للازارسفيلد بقطع الصلة مع الحقائق التلقائيّة، وحضّته على الانخراط في مشاريع الدراسة الكميّة للجمهور التي وقفت وراءها المؤسسات الصناعيّة، وعلى قياس ردود أفعال هذا الجمهور في المختبر (اختراع تقنيّة الكبس على الزر)، وعلى تحليل مضمون البرامج الإعلاميّة في إطار المشروع الذي موّلته شبكة الإذاعة والتلفزيون الأميركيّة «سي بي أس» (CBS)، «برنستون راديو بروجكت» (Princeton Radio Project) الذي قاده منذ 1938، ومؤسسة روكفيلر التي سمحت له بإنشاء «ديوان البحث في الإذاعة» (Office of Radio Research) بجامعة كولومبيا في نيويورك. وقام لازارسفيلد ببحوث ميدانيّة استغرقت مُدّة طويلة وارتكزت على إجراء مقابلات منتظمة للمتابعة (follow-up interviews) مع عدد كبير من النّاس من أجل قياس الفرضيّة الخاصّة بقُوَّة وسائل الإعلام في تفتيت المجتمع (قام بمقابلة 600 ناخب في مقاطعة إيري (Erie) أوهايو سنة 1940 أثناء حملة الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة، ودرس الاختيار الاستهلاكيّ

t.me/ktabpdf مكتبة

لـ800 امرأة في مدينة ديكاتور (Decatur)، إلينوي التي يقطنها 60 ألف ساكن، في سنتي 1945 و1946). وسمحت نتائج هذه البحوث الميدانيّة المتنوعة بإدخال الديناميكيّة الاجتماعيّة للمجموعات الأوليّة في النقاش حول أثر وسائل الإعلام، وبتطوير نظريّة التأثير الأصليّ.

«اكتشاف النّاس»

في الكتاب الذي ألّفه لازارسفيلد بمعية كل من برنار برلسون (Bernard Berelson) وهيزل غـودي (Hazel Gaudet) بعنوان **اختيار الشعب** (*The People's Choice*) (1944)، والذي قدم فيه ملخصًا للمسح الميدانيّ الذي أجراه في مقاطعة إيري، يكون أول من برهن أن التصويت في الانتخابات لا يأتي عن طريق الصدفة، وليس وليد اختيار فـرديّ فقط أو نتيجة للحملة الانتخابيّة التي تقودها وسائل الإعـلام، بل يمكن النظر إليه كنتاج ثلاثة متغيّرات اجتماعيّة، وهي: الطبقة، والانتماء الجغرافيّ، والدين. فالاندماج الاقتصاديّ والاجتماعيّ يُـدرك من خـلال الأسئلة المكررة عن الانتساب إلى الجمعيات والكنائس، والاختيارات السياسيّة السابقة، ومكان الإقامة، وامتلاك الأجهزة (هاتف، وغيره)، والعلاقات داخل الأسرة ومجموعة الأصدقاء، كلها متغيّرات تشرح القرار السياسيّ الذي يُتَّخذ ساعة التصويت وتطوّره عبر الزمن. لقد تم وضع مؤشر الاستعداد أو القابلية السياسيّة الذي يجمع التنبؤات بالتصويت في سلّم واحد (الناخبون الديموقراطيّون حضريّون وكاثوليكيّون، ومن الفئات الاجتماعيّة المحرومة أكثر من الناخبين الجمهوريّين) بيد أن

t.me/ktabpdf

مكتبة

استخدام هذا السلّم يظلّ محبطًا ولا يخلو من حتميّة اجتماعيّة، لكنه يفتح الطريق للبحوث عن العلاقة الترابطيّة بين السن، والمستوى الدراسيّ، والدخل في عمليّة التصويت، وهي المتغيّرات التي لا تزال تملك اليوم ثقلًا معارضًا للرؤية التي تتصور العلاقات الاجتماعيّة متشذّرة، ويمكن تضليلها والتلاعب بها.

تكمن الفائدة الكبرى التي جاء بها هذا المسح الميدانيّ، في «اكتشاف النّاس» أو «الشعب» أي إعادة إدراج الشبكات الاجتماعيّة في دراسة وسائل الإعلام. إننا ننتمي دائمًا إلى مجموعات «العائلة - المدرسة - مجموعة النظراء - العلاقات الرسميّة وغير الرسميّة في العمل - الجماعات الدينيّة» وإن كانت العلاقات داخل هذه الجماعات أكثر وضاعة من تلك الملاحظة في المجتمعات الريفيّة. ويقترح هذا المسح الميدانيّ أيضًا دراسة أحداث جديدة تشهد على قُوَّة المجموعات الاجتماعيّة التي يقال عنها أوليّة (مثل الاتصال وجهًا لوجه): إن الأوساط العائليّة وشبكات الصداقات متجانسة في اختياراتها السياسيّة، وهذا يمكن أن نفهمه لأن تنشئة أعضائها اجتماعيًّا متقاربة، لكن هذا التجانس يزداد متانة باقتراب موعد الانتخابات. وتؤكد المقابلات التي أجريت في المسح الميدانيّ، الذي قام به لازارسفيلد، أن المناقشات ترزح بثقلها على القرار النهائيّ الخاص بالتصويت. ويصرح الناخبون المتردّدون بأنهم يتّخذون قرار التصويت بضغط من الأصدقاء أو الأقارب أكثر من غيرهم. لقد وضع منظرو كتاب اختيار الشعب من يسمونهم «قادة الرأي» (opinion leaders) في قلب نظريّة «التأثير الشخصيّ» أي

t.me/ktabpdf مكتبة

الاتصال بين الأشخاص، الذي يمنحهم أهميّة قصوى وأكبر من الاتصال عبر وسائل الإعلام. وقدموا أول بورتريه ـ ملمح ـ عنهم: فـ«قادة الرأي» الذين يشكلون خُمس عينة المسح الميدانيّ المذكور، لا ينحدرون من وسط اجتماعيّ خاص لكنهم يتميّزون باهتمامهم الشديد بوسائل الإعـلام الإخباريّة وبقدرتهم على إعـادة ترجمة الرهانات السياسيّة في المناقشات اليوميّة: انهم يقومون بدور الوسيط أو همزة الوصل في مسار الإعلام واتخاذ القرار: إن تدفق الإعلام ليس مباشرًا ولا يتّخذ اتجاهًا أحاديًّا موجَّهًا نحو المتلقي وحده، إنه غير مباشر، ويجتاز مرحلتين في الواقع، فيمر عبر قائد الرأي إلى التابعين. واكتشاف المجموعات الأوليّة لا يعد في الواقع سوى إعادة اكتشاف، لأن العلوم الاجتماعيّة تشكلت جزئيًّا من التنظير لهذه المجموعات. ويعترف لازارسفيلد[20] بأن كولي كان الأبَ المؤسس للبحوث حول المجموعات الاجتماعيّة الأوليّة، ويستشهد في ذلك بتجديد الأسئلة التي طرحتها البحوث الميدانيّة التي قام بها إلتون مايو (Elton Mayo) عن تنظيم العمل في السنتين 1920 و1930، ثمّ تلك التي قادها ستوفر (Stouffer) عن الجندي الأميركيّ. إذًا، هذا هو الجو الذي بدا مناسبًا لتطوّر البحث في هذا الموضوع. لكن القياس الاجتماعيّ الذي قام به جاكوب مورينو (Jacob Moreno)، وديناميكيّة المجموعة لكورت ليفين كانت وراء الصياغات التي قدمها لازارسفيلد مباشرة. فكلّ ما هو اجتماعيّ يمكن أن يفسر بالعلاقات البسيطة بين الأشخاص، سواء حين يتمّ تفضيل البعض

(20) بمعيّة الباحث كاتز (Katz) في مؤلفهما (*Personal Influence*).

t.me/ktabpdf

مكتبة

على البعض أو النفور من البعض. وقد اعتبر هؤلاء الأشخاص كذرّات في نظام اجتماعيّ تجب دراسته كنظام فيزيائيّ تتجاذبه قِوًى. ورأى كورت ليفين أن مراقبة الإعلام جزء من خصائص قائد الرأي، فاستخدم مصطلح «حارس البوابة الإعلاميّة» (gatekeeper).

لقد استكملت دراسة ديناميكيّةَ المجموعة بتحليل ردود أفعال الاشخاص تجاه تدفق المعلومات، فأعادت الاعتبار للقدرات الفكريّة للأشخاص واستردت لهم كرامتهم التي سلبتها منهم الرؤى النقديّة ودراسات المحفّز أو المنبّه. إن مختلف دراسات الحملات الانتخابيّة، والتجارب النفسيّة التي تُجرى في المختبرات ودراسة جمهور وسائل الإعلام والترفيه، تظهر أن كلّ الرسائل تُؤوّل وتُسَيَّق (تُدرج في سياق) من الأشخاص الذين يستعملون مصفاة معرفيّة تسمح لهم بفرز وإقصاء وتعديل، وحتّى تشويه المعلومات التي لا يفضلون تلقيها. وتكمن السلطة الكبرى أوّلًا في قبول تَسَلُّم هذه الرسائل أو رفضه. والاستعراض «الانتقائيّ» لوسائل الإعلام وبرامجها يتمّ بناءً على الاهتمام الاجتماعيّ أو الشخصيّ الذي نوليه إيّاها. إن إحدى المفارقات الكلاسيكيّة للبثّ العموميّ لبرامج وسائل الإعلام، يكمن في أن البرامج التعليميّة، على سبيل المثال، تمس الأشخاص المتعلمين ولا تمس سوى القليل من الذين توجّه إليهم رسميًا. وفي الغالب، يظهر «تعزيز الآراء المكتسبة» سابقًا عبر الاهتمام الشديد بالرسائل التي تسايرها، والاهتمام الضعيف ببقيّة الآراء، ففي الحوار السياسيّ بين قائد من اليمين وآخر من اليسار، يميل منتخبو اليمين إلى تدعيم مرشحهم والاستماع إلى ما يقوله

t.me/ktabpdf مكتبة

باهتمام بالغ أكثر من منافسه، وينطبق الأمر نفسه على منتخبي اليسار. أخيرًا، إن «الإدراك والتذكر الانتقائيّ» يحيل إلى القدرات التأويليّة والاحتفاظ بالمعلومات. لقد نشرت باتريسيا كيندال (Patricia Kendall) وكاترين وولف (Katherine Wolf) دراسة رائدة في 1949، أظهرتا فيها أن حوالى ثُلث القراء لا يعتبرون الشريط الهزلي المرسوم الذي يناهض العنصريّة نقدًا للعنصريّة، وأن بعضهم يختار قراءته «لاحقًا» كتأكيد لأفكارهم المسبقة. إن التقاليد اللازارسفيلديّة، القريبة في أصلها من لاسويل وهوفلاند، تبتعد عمليًّا عن مفاهيمهما السلوكيّة المحضة والأداتيّة، لأنها تدعم فكرة أن الجمهور المختلف لا يُؤوِّل أبدًا الرسائل الإعلاميّة بالطريقة ذاتها، وأن التضليل عن طريق وسائل الإعلام ليس قضية تنظيم جيّد للرسائل الإعلاميّة.

انتقال المعلومات عبر مرحلتين

يشكل كتاب التأثير الشخصيّ (*Personal Influence*) الذي صدر سنة 1955، مرجعًا مُهِمًّا بكل تأكيد لعلم الاجتماع الإمبيريقيّ الأميركيّ في مجال «البحث في الاتصال الجماهيريّ» (Mass Communication Research) (بحسب المسمى الإنكليزيّ المعتمد). لقد عمّق بول لازارسفيلد نظريّته الخاصّة بـ«انتقال المعلومات عبر مرحلتين خلال وقتين مختلفين» (the two-step flow of communication) في الكتاب المذكور، مستعرضًا نتائج البحث الميدانيّ الدقيق الذي استغرق إنجازه مُدّة زمنيّة طويلة، والذي قام به في مدينة ديكاتور. ومنح الفرصة لأحد طلبته، وهو إليهو كاتز،

t.me/ktabpdf مكتبة

لاستكمال البحث عن وسائل الإعلام. وتَمَثّل الهدف من هذا البحث في الكشف عن محدّدات اختيار 800 امرأة لا تقل أعمارهن عن 16 سنة للمواد الاستهلاكيّة، والموضة، والأفلام السينمائيّة والشؤون العامّة (الإعلام السياسيّ وليس التصويت). وتمثلت المقاربة في اختيار مدينة صغيرة بمقدار ما يسمح به التمويل المرصود للإنجاز ولا تتضمّن الكثير من التنوع في بنياتها الاجتماعيّة من أجل أن يضمن بعض التمثيل لعيّنة البحث. أما المنهجيّة التي استخدمها، فقد استندت إلى الربط بين المقاربات، منها القياس الاجتماعيّ، الذي استُخدم عبر الأسئلة عن العلاقات داخل المجموعات الأوليّة (مَن يلتقي بمن؟ من يُعدّ متأثّرا بمن؟ وحول ماذا؟)، وتمت الاستعانة بشكل موازٍ بسوسيولوجيا الأذواق واستهلاك المواد الإعلاميّة (مَن يقرأ، أو يستمع، أو يشاهد؟ وماذا؟). لقد أجريت المقابلات مع المستطلَعين أنفسهم عبر مرحلتين، في شهري حزيران (يونيو) وآب (أغسطس) 1945، بتقنيّات البحث عن تقاطع الإجابات، ومراجعة دقيقة للأجوبة عن أسئلة التأثير (للبحث عن الأشخاص المؤثّرين، وعن مكانتهم في الشبكات العائليّة والأصدقاء) والعودة لطرح أسئلة الاستهلاك (لماذا تغير السلوك الاستهلاكيّ)، فتم إثبات صِحّة الفرضيّة التي تنصّ على أولويّة العلاقات الشخصيّة على وسائل الإعلام في التأثير على اتخاذ القرار، فقادة الرأي يؤثرون على قرار النّاس أكثر من الإعلانات في المجلات أو برامج الإذاعة، خاصّة في مجال المواد الاستهلاكيّة والسينما. ويمكن أن نفكر اليوم في أهميّة الاتصال الشخصيّ عند الذهاب إلى قاعات السينما، وفي ظاهرة

t.me/ktabpdf

مكتبة

الهمس في الأذن، التي تدفع فيلمًا ما إلى الشهرة وتديم عرضه فترة أطول، بينما يحدّد الصخب الإعلانيّ مستوى ارتياد قاعات السينما في الأيام الأولى لعرض هذا الفيلم. إن «الطنين» (buzz) شكل من أشكال اتصال المستهلكين بمستهلكين، تشجّعه مؤسسات التسويق من دون أن تسيطر عليه.

وعلى رغم أن وسائل الإعلام تقترح محتويات جذابة، يفسِّر كاتز ولازارسفيلد تفوّقَ تأثير العلاقات الشخصيّة عليها بجاذبيّة خطاب الشخص المؤثر في حد ذاتـه، وبوظيفة الرقابة، التي تظلّ مرتبطة بالاتصال المباشر، فما يمثله صديق بصفته الاجتماعيّة يُعدّ أكثر أهميّة مما يقوله. لقد بيّن الباحثان المذكوران في عرضهما المفصل للتأثير وفق القطاعات، أن قادة الرأي هم غالبًا من النساء المتزوجات إذا كان الأمر يتعلق بالمواد الاستهلاكيّة، ومن الشابات إذا تعلق الأمر بالموضة والسينما، ومن ذوي المستوى المعيشي المرتفع إذا تعلق الأمر بالشؤون العامّة (مع الآبـاء والأزواج، ويمكن للتقدم في السّنّ أن يكون مؤثرًا أيضًا). وبهذا يكون هذا البحث قد صحح نتائج البحوث الميدانيّة السالفة، إذ تمّ التراجع عن اعتبار قادة الرأي أشخاصًا استثنائيّين، منفصلين عن بقيّة السّكان: يستطيع شخص ما أن يكون قائدًا في مجال ما وتابعًا في مجال آخر، فالوقت والظروف هي التي تطوّر المواقف. إنهم لا يمارسون سلطة مطلقة ودائمة على من يتبعونهم. إنهم ينحدرون من الوسط ذاته الذي ينحدر منه الأشخاص الذين يؤثرون عليهم، ولا يتميَّزون إلّا بقُوَّة تنشئتهم الاجتماعيّة وكفاءتهم الاجتماعيّة التي يثق بها التابعون. وليس قادة الرأي طغاة،

t.me/ktabpdf مكتبة

ولا يحظون بالمصداقيّة إلا لكونهم يمتثلون للتطلعات الضمنيّة لأتباعهم. ويمكن تطبيق الصيغة المستعملة في الأنثروبولوجيا لوصف علاقات الزعيم بعشيرته في هذا المقام لتصبح: «أنا قائدهم، إذًا سأتبعهم». وإذا استعنّا بأبسط مثال، كالذهاب لمشاهدة فيلم في قاعة السينما، فيمكن أن نتأثر برأي بعض الأصدقاء الذين يحضّوننا على مشاهدة هذا الفيلم أو ذاك، لأننا نثق في أذواقهم (انطلاقًا من احتمال أن ذوقهم يتطابق مع ذوقنا، لكن من الضروريّ ألا تتكرّر خيبتنا في ذوقهم). ويسمح قائد الرأي لأتباعه بصياغة تطلعاتهم والتعبير عنها وإن اختلطت آراؤه بالنقاش الداخليّ الذي يدور بين الأتباع، فتطوّر مواقف الناخبين المترددين قبل التصويت والمطالبين بالنقاش يشهد على هذا العمل. إذًا، حلّ الأنموذج المركّز على التفاعليّة محلّ أنموذج الإقناع الأحاديّ والبسيط جدًّا.

وفي الخلاصة، يبدو أن الطرح المتعلق بجبروت وسائل الإعلام يجانب الصواب، وأن فكرة المجتمع المتشذّر هي بكل بساطة غير عقلانيّة، فآثار وسائل الإعلام محدودة وغير مباشرة، تغربلها قدرات الأشخاص التعليميّة، وتبثّ أفقيًّا داخل الشبكات الاجتماعيّة وليس عموديًّا من المرسل إلى المتلقّي. «إن الذين رأوا بروز وسائل الإعلام رمزًا لفجر الديموقراطيّة الجديد، يشتركون مع الذين يرونها أدوات للشر في تَمَثُّلهم 'مسار الاتصال الجماهيريّ'، ففي البداية كانوا يرون في الجمهور كتلةً متشذّرة من القراء والمستمعين والمشاهدين المستعدين لاستقبال الرسالة، ثمّ استندت إلى فكرة أن كل رسالة مثيرٌ قويّ ومباشر لفعل يكون استجابة آنيّة. وباختصار، اعْتُبرت وسائل

t.me/ktabpdf مكتبة

الإعلام قُوَّةً مُوَحَّدة جديدة، نوعًا من الجهاز العصبي، تصل كل عين وأذن في مجتمع يتسم بتنظيم اجتماعيّ غير متماسك وغير مشكل، وبندرة العلاقات الشخصيّة» (**التأثير الشخصيّ**، ص 16، ترجمتي).

نظريّة انتشار المبتكرات وتيار الاستخدامات والإشباعات

بهذا التفنيد لنظريّات التأثير المباشر وللمكتسبات المعرفيّة غير القابلة للجدل التي حقّقتها نظريّة المجموعات الأوليّة، سيطر كاتز ولازارسفيلد على حقل الاتصال لغاية حقبة الستينيّات، إلى درجة أصبحت فيها بحوث الاتصال تعادل «بحوث الاتصال الجماهيريّ». إن الملخص الشهير الذي أعده جوزيف كلابر (Joseph Klapper) حول الموضوع (ونشره في 1960 لكن صمّمه في الأربعينيّات) توصل إلى إثبات غياب أثر الاتصال الجماهيريّ المباشر. وأكَّد أن التأثير ليس سببًا ضروريًّا ولا كافيًا في سلوك الجمهور الذي يُغرس في نسيج اجتماعيّ معقّد لا تشكل وسائل الإعلام إلّا بُعدًا من أبعاده وليست عاملًا خارجيًّا يتدخل فيه. لقد تشعبت البحوث الأولى في اتجاهين كبيرين: عمّقت الدراسات عن انتشار المبتكرات التي قادها أفريت روجرز (Everett Rogers) نظريّة شبكات العلاقات الشخصيّة من خلال سعيها إلى تسليط الأضواء على المتغيّرات التي تتدخل في التكيّف مع المنتجات والتكنولوجيات الجديدة. لقد استخدم روجرز في البداية الصيغة الأولى لانتقال المعلومات عبر مرحلتين (نموذج انتقال المعلومات عموديًّا) في سعيه إلى تشخيص «الروّاد الأوائل» الذين يتجهون نحو المبتكرات، وتعيين الآليّات التي تقود

t.me/ktabpdf مكتبة

التابعين إلى الاقتداء بهم. لقد تم تعديل أنموذجه إبان سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته في اتجاه الأخذ بالاعتبار علاقات التبعيّة بين الأفراد من المجموعة الاجتماعيّة ذاتها، بحسب أنموذج الإقناع الأفقي.

لقد تطوّر تيار «الاستخدامات والإشباعات» (usages et gratifications) في ستينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته، وكان مصدره المنشورات الأولى التي أشرف عليها بول لازارسفيلد، والتي ترتكز على قدرات الجمهور على الفرز والانتقاء (أنجزتها كل من هرتا هرزوغ Herta Herzog، وباتريسيا كندل، وكاترين وولف، ومرجوري فيسك Marjorie Fiske على وجه الخصوص). لقد غيَّر الكثير من الكُتّاب، مثل دينيس ماكويل (Denis McQuail)، وجاي بلوملر (Jay Blumler)، وإليهو كاتز، وكارل إريك روزنغرين (Karl Erik Rosengren) وولبر شرام (Wilbur Schramm)، النظرةَ المألوفة إلى وسائل الاتصال، وحـدّدوا هدفهم مما تمليه الصيغة التعبيريّة المعتادة، بدراسة ما يفعل الأشخاص بوسائل الإعلام وليس ما تفعله هذه الوسائل بهم، فالبحث وفق التيار المذكور كان يسعى إلى الربط بين المتعة وآثارها على الأشخاص من خلال مؤشرات كميّة ونوعيّة تعمّق دراسة مختلف أبعاد الاهتمام والفهم والقبول والاحتفاظ بالمعلومات، في رؤية تمنح الجمهور التفكير في ما يستهلك من مواد إعلاميّة واختياره المكيّف مع ما يستهلك: ليست وسائل الإعلام آلهة استبداديّة يجب الخضوع لأوامرها، بل فضاءات منفتحة على الجمهور. (ينطلق البحث عن الإشباعات من

مكتبة t.me/ktabpdf

مفهوم الانتقاء، لكن الانتقائيّة المقصودة ليست مرتبطة فقط بالدراسة الدفاعيّة الراسخة في الآراء والعادات الموجودة سابقًا. إنها تتحوّل إلى فرز استشرافيّ يأخذ بالاعتبار الحاجات والتطلعات، فوسائل الإعلام تبدو كخدمة عموميّة يستخدمها الجمهور بطريقة انتقائيّة (Katz, 1990).

الإفراط في الاتجاه الوضعيّ ونسيان الأيديولوجيا

إن حدود نظريّة الآثار المحدودة وتطوّراتها اللاحقة هي حدود النظريّة الوضعيّة. لقد صرح لازارسفيلد بأن دراسة العالم الاجتماعيّ تقتضي قطع الصلة بكل تفكير أخلاقيّ أو سياسيّ وتشغيل أدوات فاعلة في قياس أبعاد الواقع. لكن هذه المقاربة المثاليّة في انفصالها عن هذا التفكير، تطرح إشكالية مضاعفة، فليس بالإمكان دائمًا إقامة علاقة بين بعض العناصر التي تمَّت ملاحظتها والعديد من المتغيّرات التي يُقال إنها مستقلة، وهذا ما قاد لازارسفيلد، في الواقع، إلى التركيز على المواضيع الجزئيّة، في بعض الأحيان، والتي تهتم بهذه العلاقة، وإهمال الدراسة الشاملة للمجتمع. ويمثل الانخراط في القياس الاجتماعيّ الذي وضعه كورت ليفين تقدمًا في علم النفس الاجتماعيّ، لكنه يتضمّن أيضًا مساوئ في هذا السياق، لأنه يحصر كلّ المواضيع في علم الاجتماع الجزئيّ، ويشاطره تخيّل علوم اجتماعيّة مستنسخة من الفيزياء (العلاقات بين الأفراد يمكن أن تكون ممثلة عبر حوامل، وتوصف على نمط علاقة الذرّات بعضها ببعض، وغيرها) أي الإيهام بموضوعيّة الأحداث، ففي الدفاع عن الرؤية الاختزاليّة

t.me/ktabpdf

مكتبة

للمقاربة العلميّة، بسط لازارسفيلد المسائل المركزيّة، مثل الصراع الاجتماعيّ والعلاقة بين السلطة والثقافة، من خلال نظريّة المجتمع، التي يقال إنها وظيفيّة، والتي تفترض أن البشر يسعون بالضرورة إلى التقولب مع إكراهات النظام، ومع الوظائف الظاهرة والمتسترة (أي الواعية وغير الواعية)، فهذه النظريّة تنحو إلى اختزال مشكل الاتصال في تكيّف الأفراد مع النظام الاجتماعيّ، ومع الوظائف التي يجب أن يضطلع[21] بها التواصل وجهًا لوجه أو عن بُعد. أما الدراسات التي أجريت في إطار الاستخدامات والإشباعات، وإن نأتْ أكثر فأكثر عن النزعة التسفيهيّة للجمهور مع مرور الزمن، وأضحت ناقدة للوظيفيّة، فقد اتسمت في الغالب بالنزعة النفسانيّة، وذلك من خلال ما قدمته من شرح يقرّ بوجود مراحل مبرمجة تقريبًا للتّطوّر النفسيّ الناجم عن الحاجات الأساسيّة التي تناسبها، بشكل آلي، أنواع من استهلاك المواد الإعلاميّة: يعيش الأطفال أوّلًا في كون يتّسم بالنزعة الإحيائيّة، لذا تظهر رغبتهم في الاحتكاك بالحيوانات الحقيقيّة أو المتخيَّلة. وبعدها ينتقلون إلى مرحلة التماهي مع الأشخاص البالغين، وهي المرحلة التي يناسبها الميل إلى الحكايات التي تبرز الأبطال البالغين، ثمّ يندمجون في مجموعات النظراء، ويديرون ظهورهم بشكل طبيعيّ للأفلام الساذجة (فكل من لا يتبع هذا المخطط المرسوم مسبقًا يعتبر

---

(21) لاحظ دينيس رونغ (Dennis Wrong)، الناقد الشرس لتالكوت بارسونز (Talcott Parsons)، وهو وجه آخر بارز من وجوه الوظيفيّة، أنه بمثل هذا المستوى من الاختزال لا فرق بين المجتمع الإنسانيّ ومجتمع النحل. ونعثر في كتاب بول بو (Paul Beaud) المعنون (*La Société de connivence*)، على نقد فرنسيّ للوظيفيّة الأميركيّة.

t.me/ktabpdf مكتبة

مريضًا)[22]، والشيء ذاته يمكن قوله عن نظريّة انتشار المبتكرات التي تطمح، في البداية، إلى وصف المراحل العاديّة لتطوّر انتشار التقنيّات في وسط النّاس ذوي القابلية الطبيعيّة للتغيير، ولا يمكن أن يعترضوا على انتشارها إلا بسبب تأخرهم العقليّ.

بالطبع، لا تخلو السوسيولوجيا اللازارسفيلديّة من وجهات النظر الأيديولوجيّة، خلافًا لما يدّعي مُلْهِمُها في نصٍّ فصّلَ فيه البحث الإمبيريقيّ أو الإداريّ الذي يملك بعض الفضائل عن النظريّة النقديّة أو السياسيّة الملتزمة، وهو **ملاحظات عن بحوث الاتصال الإداريّة والنقديّة** (*Remarks on Administrative and Critical Communications Research*) (1941). لقد اختار لازارسفيلد إبراز الوجه العلميّ المحايد، والامتناع عن إصدار أي حكم عن العالم الاجتماعيّ والسياسيّ الذي كان موضع لوم كثير، بخاصّة من تشارلز رايت ميلز (Charles Wright Mills) المندّد بعلم الاجتماع البيروقراطيّ، والمطلع على أدق بحوث لازارسفيلد، لأنه اشتغل على البحث الميدانيّ الذي جرى في مدينة ديكاتور. لقد انغلق لازارسفيلد في النزعة المحافظة المحضة ووُصف كمؤسس مجامل للشركة المتعددة الجنسيّات العلميّة، التي تلتقي مصالحها مع مصالح

---

(22) وفق الخلاصة التي توصل إليها المقال العلميّ الذي كتبته مرجوري فيسك وكاترين وولف عن قراءة الشرائط المرسومة في 1949، وبصرف النظر عن هذه الانتقادات التي وجهت إليه، يعد مقالًا أساسيًا لأنه من أوائل الآراء التي أعطت الكلمة للأطفال. وعلى رغم الانتقادات التي وجهت إلى تيار الاستخدامات والإشباعات الذي مثّله إليهو كاتز في منعطف القرن العشرين، فإنه يعدّ منجمًا للبحوث يمكن العودة إليه.

t.me/ktabpdf

مكتبة

مؤسسات الاتصال التي يشتغل لازارسفيلد لمصلحتها محوطًا بالعديد من الطلبة. لقد استُخدمت تقنيّاته نماذجَ لصناعة استطلاع الرأي والتسويق فنال على أثرها اعترافًا من خارج الوسط العلميّ (Pollak, 1979). ولا يمكن تبرير هذا النقد الشديد إلا جزئيًّا، فالنزعة المحافظة لعالم الاجتماع النمساوي، وسذاجته، وسخريته لم تُؤَكد بعد. لقد كان لازارسفيلد في شبابه صاحب أفكار اشتراكيّة فاستبدل بها في الولايات المتحدة الأميركيّة المُثُلَ التقدميّة القائمة على فكرة أن السلطة الاقتصاديّة (ويقصد بها في هذه الحالة سلطة الإعلان واستطلاع الآراء ودراسة المستمعين والتسويق) ليست في حد ذاتها عائقًا في وجه الديموقراطيّة، بل بالعكس، إنها وسيلة لتجسيدها، فانتصار وسائل الإعلام يمكن أن يكون انتصارًا للمناقشات المدنيّة، ويمكن السوق أن يكون مرادفًا لاختيار المستهلكين الواسع. هذه القناعة كانت قناعة غبريال تارد قبله، الذي لم يغب مؤلفه عن ذهن لازارسفيلد، كما لاحظ ذلك كاتز، فلازارسفيلد عالم الاجتماع الذي ينحدر من أصول نمساوية، يعتبر أن الاحتجاج الفكريّ على وسائل الإعلام جاء تعبيرًا عن اغتياظ النخبة التي تجاوزتها الديموقراطيّة، لكنه يرى النقد عنصرًا ضروريًّا في المجتمع الذي يجب أن تعتمل في داخله التناقضات بشكل دائم أي أنه موضوع للإصلاح، مشيرًا إلى أن «المصير المأسوي للنسيج الثقافيّ في مجتمع جماهيريّ يمكن ألا يربح ولكننا نصبح من دونه ضائعين» (نقلًا عن: Hardt, 1992. ترجمتي). وبهذا، فإنه يطالب بمأسسة النقد الذاتيّ المهنيّ في مدارس الصحافة لتفادي فصل البحث عن التعليم وعن العالم الصناعيّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

يرفض «البحث في الاتصال الجماهيريّ» أساسًا نظريّة الآثار المباشرة والآلية، لكن من أجل الاستمرار في الدفاع عن نظريّة الآثار، وفي أقصى تنازله للأفكار المسبقة عن الاتصال الجماهيريّ، لم يقطع صلته بالنماذج الخطيّة الكلاسيكيّة التي تبناها أيضًا النموذج الرياضيّ للاتصال (انظر الفصل التالي). إن طرح تعزيز الآراء الذي يمثل مساهمته التي لا جدال فيها، يمكن أن يوظفه النقد الماركسيّ، الذي يؤكّد، بمعية تود غيتلين (Todd Gitlin)، أن أثر وسائل الإعلام القويّ لا يحفز اصطناعيًّا السلوك لكنه يحافظ على «الوضع الاجتماعيّ القائم»، فالسوسيولوجيا الإمبيريقيّة الأميركيّة تسمح بالقطيعة مع الرؤى التضليليّة للاتصال، والتهويليّة للمخاطر التي تميز المدرسة النقديّة، وذلك بتقديم التلقّي بصفته مفاجأة محتملة، أو على الأقلّ نتيجة لمنطق اجتماعيّ لا منطق للخطاب الذي يفرض ذاته.

لقد خلت السوسيولوجيا الإمبيريقيّة الأميركيّة من نظريّة الثقافة والأيديولوجيا التي تسمح لها بمعرفة ماذا تمثّل الثقافة والأيديولوجيا بعيدًا عن وظائف الإعلام وإشباع حاجات الأفراد. واتجهت إلى شكل آخر من السلوكيّة (تلك التي يثيرها التسويق)، قبل أن تقدم صورة البحث الجامدة والعقيمة منذ نهاية خمسينيّات القرن الماضي، والسبب في ذلك لا يعود إلى عدم امتلاكها ما تقول، بل لأنها استنفدت منطقها. لقد اعتُبرت هذه السوسيولوجيا بمثابة منتهى البحث في مجال الاتصال، بينما لم تشكل سوى مبتدئه.

t.me/ktabpdf مكتبة

إن كان أصل العديد من الأعمال حول التلقّي يعود إلى «البحث في الاتصال الجماهيريّ»، فإن هذا البحث اقترح أيضًا منهجًا كمّيًا لدراسة الدلالات المرمَّزة في وسائل الإعلام، والذي سمي «تحليل المضمون»، فبعد سنتين من تطبيق هذا التحليل ضبط برنار برلسون (Bernard Berelson, 1952) قواعده في إطار تقاليد الاتجاه الوضعيّ: طرْح مشكل أو موضوع يرتبط بالمفاهيم التي يجب تشخيصها، ثمّ ترجمته إلى مؤشرات إحصائيّة، مثل: هل وسائل الإعلام عنصريّة؟ ويمكن ربط هذا السؤال بالتَمَثُّل الكميّ للأقليّات العرقيّة وبتواتر ظهورها في وسائل الإعلام مقارنة بتواتر ظهرَ غالبيّة السكان، وبتوزيع خصائصها السوسيو ـ مهنيّة في المسلسلات التلفزيونيّة والأدوار السلبيّة والإيجابيّة التي تقوم بها... إلخ.

لقد اسْتُغل تحليل المضمون بإفراط في مجالين أساسيّين، هما تمَثُّل المرأة والعنف في وسائل الإعلام، وسيظلان كذلك جزئيًا. لقد أثبت العديد من البحوث المنشورة الهيمنةَ الذكوريّة في وسائل الإعلام والأفلام، وسعت هذه البحوث إلى الحساب الكميّ لمختلف أنواع الحركات في المشاهد المرئيّة. والفائدة من تحليل المضمون أنه يسمح بالحصول على نتائج واضحة وتمكن مقارنتها عبر الزمن، واستخراج اتجاهات وسائل الإعلام والاتجاهات المعاكسة. والمشكل الذي يثيره هذا التحليل أن استخدامه الأرقامَ يستند غالبًا إلى الافتتان بأدوات الرياضيّات التي لا تحمل في حد ذاتها أي علم، والنتائج التي يصل إليها ليست محايدة أبدًا وإن اكتسبت برودة الجداول الإحصائيّة. إنها تجيب عن أسئلة الباحث بالطريقة التي يطرحها بها. وهكذا، تستطيع

t.me/ktabpdf

مكتبة

هذه النتائج أن تترجم إرادة التنديد بعنف المواد السمعيّة ـ البصريّة انطلاقًا من فرضيّة أنها حاضرة في كل مكان، وضارة أساسًا، فيكفي أن تؤخذ بالاعتبار المعايير التي تساير الاتجاه المرغوب لإثبات صِحَّة النتائج، وهذا ما يفسر أن الهيئات المعياريّة والباحثين المتعلقين بأطروحة الغرس الثقافيّ لجورج غيربنر (George Gerbner) يستخدمون بكثرة هذا المنهج، الذي من الصعب أن نتأكَّد منه عن طريق التحليل، لكنه فاتن عندما يظهر في شكل معطيات رقميّة. المشكل أن تحديد الفعل العنيف، وفائدته، وخطورته، واستخدامه الاجتماعيّ يجب أن يُطرح قبل الشروع في البحث، مع أخذ تطوّر أطر التحليل مع الزمن بالاعتبار. إذًا، تُعدّ المساعدة التي يمكن أن يقدمها تحليل المضمون للدراسات الإعلاميّة نسبيّة جدًّا، لأنه يولي القليل من الاهتمام للتباينات الطفيفة، ويحثّ على السكوت عن الافتراضات النظريّة والنقاش الطويل حول المفاهيم، وأدنى شيء يجب القيام به هو إحداث التمفصل حول التحليل الاجتماعيّ والتاريخيّ للمواضيع التي تُبنى في الدراسة. لذا، تأكَّد تراجع تحليل المضمون بعد بروز مناهج الدراسات النوعيّة، مثل السيمياء أو سوسيولوجيا وضع الأخبار (newsmaking). (لمزيد من الاطلاع على بانوراما قدرات هذه المناهج، انظر: Jean de Bonville, 2000).

المراجع:

BEAUD Paul, *La Société de connivence. Médias, médiations, classes sociales*, Aubier, 1984.

BERELSON Bernard, *Content Analysis in Communication Research*, Glencoe, Free Press, 1952.

t.me/ktabpdf مكتبة

BERELSON Bernard, LAZARSFELD Paul et Mc PHEE William, *Voting. A Study of Opinion Formation During a Presidential Campaign*, Chicago, Chicago University Press, 1954.

BLUMER Herbert, *Symbolic Interactionism. Perspective and Method*, Berkeley, University of California Press, 1969.

_____, *Movies and Conduct*, New York, Macmillan, 1933.

BLUMER Herbert, HAUSER Philip, *Movies, Delinquency and Crime*, New York, Macmillan, 1933.

BLUMLER Jay, KATZ Elihu, GUREVITCH Michael, «Uses and Gratifications Research», in *Public Opinion Quarterly*, 37/4, 1973.

BONVILLE Jean de, *L 'Analyse de contenu des médias. De la problématique au traitement statistique*, Bruxelles, De Boeck, 2000.

FISKE Marjorie, WOLF Katherine, «The Children Talk about Comics», *in* LAZARSFELD Paul et STANTON Frank (dir.), *Communications Research 1948-1949*, New York, Harper, 1949.

GITLIN Todd, «Media Sociology: the Dominant Paradigm», *Theory and Society*, 6, 1978.

HARDT Hanno, *Critical Communication Studies. Communication, History and Theory in America*, Londres, Routledge, 1992.

HERZOG Herta, «Professor Quiz. A Gratification Study», *in* LAZARSFELD Paul (dir.), *Radio and the Printed Page*, New York, Duell, Sloan and Pearce, 1940.

_____, «What Do We Really Know about Daytime Serial Listeners?», *in* LAZARSFELD Paul, STANTON Frank, (dir.), *Communications Research, 1942-1943,* New York, Harpers Brothers, 1944.

JARVIE Ian C., JOWETT Garth S., FULLER Kathryn H., *Children and the Movies. Media Influence and the Payne Fund Controversy*, Cambridge, Cambridge University Press, 1996.

KATZ Elihu, «À propos des médias et de leurs effets», *in* SFEZ Lucien, COUTLÉE Gilles (dir.), *Technologies et symboliques de la communication*, Presses Universitaires de Grenoble, 1990.

_____, «Les deux étages de la communication» (1957), *in* BALLE Francis, PADIOLEAU Jean, *Sociologie de l'information. Textes fondamentaux*, Larousse, 1973.

KATZ Elihu, LAZARSFELD Paul, *Personal Influence. The Part Played by People in the Flow of Mass Communications*, Glencoe, The Free Press, 1955.

KENDALL Patricia, WOLFF Katherine, «The Analysis of Deviant Case Studies in Communication Research» *in* LAZARSFELD Paul, STANTON Frank, (dir.), *Communications Research, 1948-1949*, New York, Harpers Brothers, 1949.

KLAPPER Joseph, *The Effects of Mass Communication*, New York, The Free Press, 1960.

LAUTMAN Jacques, LÉCUYER Bernard-Pierre (dir.), *Paul Lazarsfeld (1901-1976). La Sociologie de Vienne à New York*, L'Harmattan, 1998.

LAZARSFELD Paul, «Remarks on Administrative and Critical Communications Research», *Studies in Philosophy and Social Science*, 9/1, 1941.

LAZARSFELD Paul, BERELSON Bernard, et GAUDET Hazel, *The People's Choice. How the Voter Makes up his Mind in a Presidential Campaign*, New York, Duell, Sloan and Pearce, 1944 (second edition, New York, Columbia University Press, 1948).

t.me/ktabpdf

مكتبة

LAZARSFELD Paul, MERTON Robert, «Mass Communication, Popular Taste and Organized Social Action», *in* SCHRAMM Wilbur (dir.), *Mass Communication* (1948), Urbana, University of Illinois Press, 1960.

LEWIN Kurt, *Psychologie dynamique* (1935), PUF, 1959.

LIVINGSTONE Sonia, «The Work of Elihu Katz. Conceptualizing Media Effects in Context», *in* CORNER John, SCHLESINGER Philip, SILVERSTONE Roger (dir.), *International Media Research. A Critical Survey*, Londres, Routledge, 1997.

McQUAIL Denis, BLUMLER Jay et BROWN J. R., «The Television Audience: A Revised Perspective», *in* McQUAIL Denis (dir.), *Sociology of Mass Communications*, 1972.

MILLS Charles Wright, *L'Élite du pouvoir* (1956), Maspero, 1969.

POLLAK Michael, «Paul Lazarsfeld, fondateur d'une multinationale scientifique», *Actes de la recherche en sciences sociales*, 25, 1979.

RIESMAN David (avec la collaboration de Nathan GLAZER et Reuel DENNEY). *La Foule solitaire* (1947), Arthaud, 1964.

ROGERS Everett, *Diffusion of Innovations*, New York, Free Press, 1963.

ROSENGREN Karl Erik *et al.*, *Media Gratifications Research. Current Perspectives*, Beverly Hills, Sage, 1986.

SCHRAMM Wilbur, LYLE Jack, PARKER Edwin, *Television in the Lives of our Children*, Stanford, Stanford University Press, 1961.

WRONG Dennis, «The Oversocialized Conception of Man in Modern Sociology», *American Sociological Review*, XXVI, 2, 1961.

t.me/ktabpdf

مكتبة

من الأنموذج الرياضيّ إلى أنثروبولوجيا الاتصال
القياس على علوم الطبيعة والحياة

تُعدّ النظريّة الرياضيّة للاتصال والسيبرنيطيقا ابنتَيْ زمانهما. لقد وُلدتا من التفكير في آلات الحساب والأتمتة في أربعينيّات القرن الماضي، وكان بإمكانهما أن تتطوّرا بعيدًا عن العلوم الإنسانيّة بتركيزهما على وصف ما يُعتبر ميدانَهما المفضل، ألا وهو سير الآليّات الإلكترونيّة والبيولوجيّة، لكن مفاهيمهما توسّعت ـ لأسباب مختلفة ـ وشملت السلوك البشريّ، وهكذا عزّزتا هيمنة الأنموذج الخطيّ أو أنموذج التأثير أي أنهما دعمتا النظريّة الوظيفيّة اللازارسفيلديّة. إن هذا التوسّع، الذي يُعدّ مصدر التماثل السريع والاختزاليّ الفظّ والمنبئ بالنقاش حول تطبيق العلوم المعرفيّة في الميدان الاجتماعيّ، زرع الأمل في اكتشاف حجر الفلسفة، الذي يسمح بحل كل المشاكل التي يطرحها التباين في العلوم لتوحيدها في علم واحد. لقد كشف إخفاق هذا الهدف عن جدوى المقاربة التي صاغتها تيارات العلوم الاجتماعيّة على اختلافها، التي ترتكز على المعنى وتنأى بنفسها تدريجيًّا عن الاستعارات الآليّة.

شانون ونظريّة الإعلام الرياضيّة

وُلدت النظريّة الرياضيّة للاتصال من التلغراف والتشفير، وبذل عالم الرياضيّات ومهندس الكهرباء الأميركيّ كلود شانون

t.me/ktabpdf

مكتبة

(Claude Shannon) الذي اشتغل في مختبرات شركة بل (Bell) للهاتف، جهودًا لتوضيح مسار الرسائل المرمّزة خلال الحرب العالميّة الثانية ولضمان نقلها بطريقة أفضل (كيف يمكن نقل أقصى حد من المعلومات في أقصر وقت ومن دون أن يضيع جزء منها؟) أي أن هذه النظريّة تندرج في إطار رؤية أداتيّة للاتصال، لأنها تراه مسألة إرسال المعلومات من قطب إلى آخر، ما يتطلب إعادة إنتاج مجمل وحدات المعلومات أو مضاعفتها. إن «المخطط العام» الذي وضعه شانون وأثراه وارن ويفر (Warren Weaver) من أجل إبراز الحالة الخاصّة بالتلغراف أخذ شكل سلسلة تربط مصدر الإعلام بمرسل ينتج إشارة، فتنقل هذه الإشارة بواسطة القناة، ويمكن أن يحدث ضجيج يضعف الرسالة وتفقد بعضًا من مكوناتها قبل أن تصل إلى مفكك الإشارة، ويتسلمها المتلقِّي.

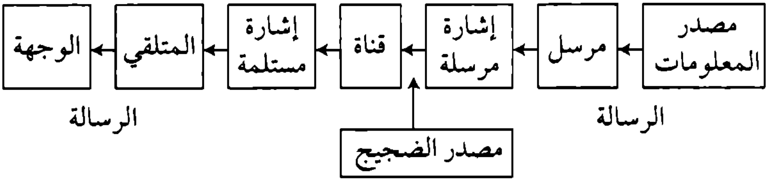

في حالة اللسان يأخذ هذا المخطط الشكل التالي:

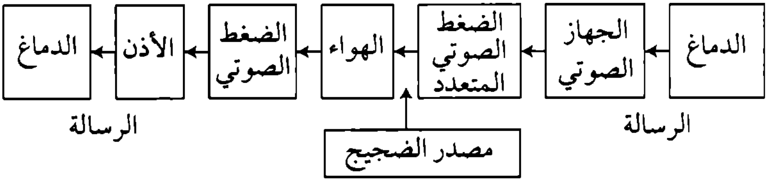

t.me/ktabpdf مكتبة

رافقت نظريّة الإعلام عمليّة تفكيك الاتصال هذه في شكل مسار فيزيائيّ يتماهى مع قوة الإحصائيّات. إن المعلومة مكسب، وشيء يضاف إلى ما يعرفه المرء، ويقاس باحتمال وقوع حدث ما أو لا؟ فـ«بت» (bit) المعلومات (binary digit أو signal binaire) هي إجابة سلبيّة أو إيجابيّة عن السؤال التالي: «هل سيجري هذا الحادث أم لا؟». إن كميّة المعلومات التي يحتويها هذا الخطاب تمثل العلاقة بين سلسلة الأحداث الكامنة وسلسلة الاحتمالات المتعلقة بها في حد ذاتها، فكلما كان الحدث متوقعًا ومُحتمَلَ الحدوث إحصائيًّا تضمَّنَ معلومات أقلّ (كالإعلان مثلًا أن الثلج لا يسقط في شهر أغسطس). وبالمقابل، إذا تم التأكّد من الإعلان (أن الثلج سيسقط في الشهر المذكور، فيشكل معلومة ذات أهميّة قصوى).

لقد أضحى أنموذج شانون ضروريًّا لتطوّر المعلوماتيّة، وفيزياء الصوت، والبيولوجيا، وعلوم الأتمتة التي تقيس كل الظواهر الاتفاقيّة (stochastique) أو الاعتباطيّة التي توصل المرسل بالمتلقي. لقد اسْتُلهم هذا النموذج من البحوث التي أنجزها كل من آلان تورينغ (Alan Turing)، وجون فون نيومان (John von Neumann) حول الحواسيب، والتي أدت إلى اختراع آلات معالجة المعلومات المسماة حواسيب في منتصف أربعينيّات القرن الماضي، وإلى تطوير علم الوراثة البيولوجيّ الذي يستعمل مصطلح المعلومات لتفسير دور الكروموزومات في نموّ الأشخاص، وإلى تطوير بحوث نوربرت وينر الذي كان شانون أحد تلاميذه.

t.me/ktabpdf مكتبة

مشروع نوربرت وينر السيبرنيطيقيّ

لم يقتصر وينر، الذي رسخ اسمه مؤسسًا للسيبرنيطيقا، على العلاقات البسيطة إلى حد ما، والتي سلطت نظريّة الاتصال الرياضيّة الأضواء عليها، بل اهتم أيضًا بتماثل الآليّات البيولوجيّة والفيزيائيّة. واستند تفكيره إلى تفوق الكل على الجزء: فكل جزء من جهاز عضوي هو «وظيفيّ»، ويجب أن يساهم في الحفاظ على النظام البيولوجيّ الكليّ. وهذا ما تؤكده نظريّة عالم الأحياء لودفيغ فون برتلنفي (Ludwig von Bertalanffy) في ثلاثينيّات القرن الماضي. إن هدف وينر يتجاوز هذا الحد، إذ كان يسعى إلى تطوير الأدوات الفكريّة الضروريّة لآلات التحليل المنطقيّ ضمن تقاليد «الفن الأكبر» (Ars magna) للفيلسوف الكاتالونيّ ريمون لول (Raymond Lulle) (1235 ـ 1315)، والطب «الآليّ»، والفلسفة الديكارتيّة واللايبنتزيّة التي تدافع عن فكرة أن البشر آلات بشكل ما. لقد اشتُقّ مصطلح «سيبرنيطيقا» من اللغة اليونانيّة (Kybernete)، ويعني «ربان السفينة» وفق ما ذهب إليه وينر[23]. وولج المصطلح اللغةَ الفرنسيّة عام 1831، على يد أندريه-ماري أمبير (André-Marie Ampère) ليدلّ على دراسة وسائل الحُكْم، لكنه لم يُستخدم قط قبل أعمال وينر، حيث استعمله الأخير من باب الاستعارة، للإشارة إلى الشخص الذي يقود دفة السفينة فيشكل نظامًا يجمع الإنسانَ ودفةَ قيادة السفينةِ والسفينةَ، من أجل الإحالة على فكرة أن الكائن الحي عبارة عن

---

(23) يبدو أن وينر نسي الأصل الأفلاطونيّ لهذه الكلمة، فربان السفينة هو منفذ مكلف بتقنيّة القيادة تاركًا لقائدها المسؤوليّة عن الرحلة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

سلسلة معقّدة من ردود الفعل. وتظهر السيبرنيطيقا كعلم الآلات أو التنظيم بصفة عامّة، الذي يطبق على أنظمة مغلقة في وضعيّة يكون جزؤها مجهولًا، فالجهاز المُؤَتْمت بشكل متسلسل (الساعة، المكنسة الكهربائيّة) حتميّ محض، ما يستجيب عادةً لانشغال المرء بالفاعليّة: فيكفي أن يكون هناك أمرٌ، ودافعٌ أي معلومةٌ، حتى يشتغل النظام بشكل مفيد. لكن الجهاز المؤتمت من هذا الصنف لا يسمح بحل المشاكل الأكثر تعقيدًا التي يتدخل فيها عدم التيقن، على غرار ما واجهه «وينر» خلال الحرب العالميّة الثانية، والمتمثل في تصويب تسديد القذائف المضادة للطائرات، حيث ظهر هامش كبير من الشك في مسارات الطائرات المستهدفة، فغدا رمي القذائف المبرمجة مسبقًا عديم الجدوى. لكن الوضع تغير بعد إدخال مسار «رد الفعل» أو «التغذية المرتجعة» (feedback): فالمصحح يسمح بتصحيح خطأ القذائف عبر مراحل، وتقليص نقص المعلومات بإعادة ضبط الآليّات (فالنظام في هذه الحالة يملك إمكان التوافق والاختلاف، وإصابة الهدف أو الابتعاد كليًّا عنه)، فمبدأ الغاية بنشاط البُنية وبإعادة هيكلة داخليّة، يقترب من آليّات تقليص «الضجيج» في مخطط شانون، الذي يشبه هو ذاته الشك، أو عدم التيقن، والذي يملك مجالًا واسعًا من التطبيق نجده في ميادين البيولوجيا الخليويّة، وإنتاج الأطراف الاصطناعيّة الطبيّة، ودراسة الحياة الديناميكيّة للنجوم أو الرحلات الفضائيّة، وتتّسم كل هذه المجالات بوجود عدد كبير من المتغيّرات حتى تأخذ الحتميّة موقعها (لا يوجد أبدًا تكرار للخلايا متطابق بدقة مع تلك الأصليّة، لأن الحامض النووي معقد جدًّا، والمسارات

t.me/ktabpdf مكتبة

الفضائيّة تتوقف على كل الأشياء الحاضرة في الكون والتي لا يمكن توقعها بشكل دقيق دائمًا). إن التعارض بين آليّات الغايات المتتالية وآليّات الفعل في البنية، يغطي عمليًا نوعين من العلوم لدى وينر: العلوم ذات الحتميّة (الآليّات السماوية) والعلوم ذات الحتميّة الضعيفة (الآليّات الإحصائيّة، والزمن البرغسوني البيولوجيّ)(*). يجب تطبيق مناهج الفيزياء على العلوم الثانويّة، فالتكامل بينها ممكن وإن ظلّت هذه العلوم غير مطلقة: يرى وينر في المبدأ الفيزيائيّ الذي يقرن المُلاحِظ بالمُلاحَظ، حدًّا للمعرفة، فالإنسان لا يستطيع كليًّا أن يدرس ذاته، لأنه هو موضوع الدراسة.

الآليّات الحتميّة والآليّات غير الحتميّة

يمكن تقديم العديد من الأمثلة لفهم الاختلاف بين الآليّات الأوتوماتيكيّة (الحتميّة) والآليّات ذات الأثر الرجعيّ (غير الحتميّة). إن الأجهزة المنزليّة، مثل المكنسة الكهربائيّة، تشتغل آليًّا بطريقة عمياء من دون أن تأخذ بالاعتبار مستوى الغبار، لكن العقل البشريّ يُدْخل الأثر الرجعيّ على نشاطها فيقودها عن طريق التحسس نحو الأماكن التي يكسوها الغبار أكثر (لكن لا يوجد أي تيقّن مطلق بعدم وجود

(*) هنري برغسون (Henri Bergson) (1859 ـ 1941): فيلسوف فرنسيّ تمتع بنفوذ واسع في حياته. حاول أن ينقذ القيم بعد انتشار المذهب الماديّ، لكن الفلسفة الوجودية أطفأت وهج فلسفته. شكل مبحثُ الزمن جوهر فلسفته، فميّز بين فكرتي المكان والزمان، وقسم الأخير إلى الوحدات الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل، فما يسميه بالديمومة هو الزمن الخالص فاقد الصلة بالمكان، ومن خصائص الديمومة عدم التنبؤ بما يحدث.

t.me/ktabpdf مكتبة

غبار أكثر ممّا يوجد تحت قطعة من أثاث المنزل). إن لعبة المعركة البحريّة، على سبيل المثال، تذكرنا ببطارية السلاح المضاد للطيران، حيث توضح بشكل جيّد الآليّات ذات الأثر الرجعيّ. وتتمثل هذه اللعبة في قصف المربّعات وفق آليّات الضبط المسبق (أي أن هذا القصف لا يعتبر نتائج ما سبق قصفه حتى يستدركه) أو الضبط الاستكشافيّ (الذي يوظف ما يجمعه من تقاطع المعلومات عن نتائج القصف السابق من أجل إعادة تصويب القصف نحو الهدف بشكل دقيق. فهذا التقاطع للمعلومات يقدم الاحتمالات عن حضور السفن المعادية أو عدم حضورها).

الاتصال، والأخلاق، ونظريّة الكل الفيزيائيّ

لقد خدمت نظريّة الإعلام الإحصائيّة مشاريع طموحة لتقليص الفجوة بين حكم الطبيعة وحكم الإنسان. كان وينر أول من بذل الجهد الأقصى في التفكير بآليّات التفكير الفلسفيّ ليدافع عن فكرة أن مدى بحوثه يتجاوز مدى العلوم التي يُقال إنها دقيقة، فالتّنسيق في المجتمعات الإنسانيّة هو مشكل اتصاليّ، لذا من الممكن تحسينه باستعمال السيبرنيطيقا. لقد أثر المشهد الكارثيّ الذي خلّفته الحرب العالميّة الأخيرة على وينر تأثيرًا كبيرًا، وحضّه على اقتراح حلّ تقنيّ (سد نقص اتصاليّ مفترض) لمشكل أخلاقيّ (وجود نزاع)، فالمطلوب من اختراع الذكاء الاصطناعيّ تحسين العلاقات بين النّاس، حيث أُدْمِجت العقول الإلكترونيّة في العالم البشريّ من أجل التعجيل في التحسين المستمر في المبادلات الغائبة بين البشر.

t.me/ktabpdf مكتبة

ولا تخلو هذه المثاليّة، الجديرة بأفضل سيناريوات أفلام الخيال، من السخاء (يصفها فيليب برتون Philippe Breton وسيرج برولكس Serge Proulx بـ«الفوضويّة العقلانيّة»)، لأنها تفترض أن الشر ينجم عن نقص بسيط في الاتصال، ولأنها تدعو أيضًا إلى الشفافية والانفتاح لكنها تتجنب الفهم التاريخيّ للعلاقات الإنسانيّة، وتهمل الاختلافات بين الآلات والأفراد.

لقد انتشرت تدريجيًا فكرة أن الفيزياء شارفت على الاكتمال، وأنه يمكن فهم العالم الإنسانيّ بواسطة مقولاتها، مع احتساب اختلاف يتمثّل في أن الصدفة أكثر أهميّة لدى النّاس، وجعلت مفهوم «الاتصال» معادلًا لمفهوم الطاقة أو مكمِّلًا له، فبعد الباحث وارن ويفر الذي اقترح نظريّة الفيزياء الكميّة(*) لفهم الكون البشريّ(24)، وهي الأطروحة التي لا يتفق معها وينر على رغم اقتناعه بأن الذكاء الاصطناعيّ ممكن ومأمول، إلا أنه حذر من تعميم مفاهيم الفيزياء. ودافع الباحث الفرنسيّ أبراهام مول (Abraham Moles) في

(*) (quanta): جمع لكلمة (quantum)، مصطلح فيزيائيّ يُستخدم في الفيزياء الكميّة لوصف أصغر كمّية يمكن تقسيمها، مثل الطاقة، فهي تنتقل في هيئة كمّ أي وحدات صغيرة لا يوجد أصغر منها. لقد اكتُشفت هذه الفيزياء في 1925 وأزاحت العديد من الأفكار المكتسبة حول الفيزياء في مطلع القرن الماضي.

(24) «لدينا إحساس مبهم بأن الإعلام والدلالة هما شيء يماثل الزوج الموحد من المتغيّرات في النظَريّة الكميّة وفق القواعد المعيارية. بعبارة أخرى، إنّ مصطلحَي الإعلام والدلالة يخضعان لتقييد مشترك يستلزم التضحية بأحدهما عندما نصمم على حيازة الكثير من الثاني» (عن أمبرتو إيكو، ص 91).

t.me/ktabpdf مكتبة

أطروحته الموسومة **نظريّة الإعلام والإدراك الجماليّ** (*La théorie de l'information et la perception esthétique*) (الصادرة في 1958) عن فكرة أن العالم الخارجيّ يتجلى عبر جانبين، هما:

- الجانب الطاقوي، جدليّة العلاقة بين الطاقة والمادة التي لخصها آينشتاين في المعادلة التالية: ($E=mc^2$)(*).

- الجانب الاتصاليّ أو التفاعل الفردانيّ للعالم الذي يمكن تفسيره بجدليّة الفعل/ الاتصال الجديدة التي تعوض الإنسان في عالم المعرفة.

يشبّه أبراهام مول العلوم الاجتماعيّة بالعلوم غير الدقيقة، على غرار وينر، لكنه يرى أنه يمكنها استخدام النماذج الإثباتية في إطار نظريّة الأنظمة (السيبرنيطيقا)، لأن الكلّ يمكن أن يقاس على أكبر نطاق(25). ويجب على علم النفس أن يدرس رسالة محيط الفرد وردود أفعاله. إنه علم أساسيّ يعود تطوّره الكبير إلى إدخال القياس، لكنه يظلّ معياريًّا، لأن الفرد كأي نظام، لا يُعرف أبدًا إلا في سلوك إحصائيّ يرصده علم النفس التجريبيّ. إن الفرد نظام مفتوحٌ، تُحدّد مجملَ سلوكه ثلاثة عوامل، وهي: اللسان الموروث (لسان جهازه)، ومجمل تاريخه الخاص (أفكاره، ذاكرته، «شخصيّته»)، والرسائل التي يحصل عليها من محيطه وردود أفعاله عليها. إن

(*) $E=mc^2$: حاصل ضرب الكتلة بمربع سرعة الضوء يساوي طاقته.

(25) اعتقد أبراهام مول أنه اكتشف السلّم النفسيّ لبوادر علم النفس الرياضيّ في نظريات كورت ليفين ووظيفيّة لازارسفيلد.

t.me/ktabpdf

مكتبة

مفهوم الإعلام هو قياس إحصائيّ لآثار العالم الخارجيّ من خلال العلامات أو العناصر أو الرموز التي تشكله. ويجب تطوير أداة قياس المعلومات في علم النفس المعرفيّ التي تكون دعامة لعلم النفس النظريّ الرياضيّ الذي يمثل تتويجًا للعلوم واندماجًا للإنسان في الكون الفيزيائيّ.

خداع القياس على الإنسان

تواجه هذه التصورات صعوبات عديدة لا يمكن تجاوز بعضها، فباختزال الاتصال في مسألة الإعلام، والإعلام في احتماليّة وقوع الأحداث، أتاح المختصّون في الرياضيّات، بكل تأكيد، إمكان خلق ماكينات مُبرْمَجة لكنهم لم يخلقوا الذكاء الاصطناعيّ، بالمعنى الحقيقيّ للعبارة، الذي يشرح المسارات الإنسانيّة للاتصال المستندة إلى دلالة. ويعترف وينر قائلًا: «يبدو مفهوم الاتصال الذي طورته هذه النظريّة غريبًا أوّلًا، ثمّ غير مُرْضٍ قليلًا ثانيًا. هو غير مُرْضٍ لأن لا علاقة له بالدلالة، وغريب لأن مرجعيّته ليست خطابًا فقط، بل تحيل بالأحرى إلى الخصائص الإحصائيّة لمجمل الرسائل» (نقلا عن Umberto Eco, 85). يشكّل الإعلام والدلالة واقعَيْن مختلفين (أحدهما كمّي والآخر نوعي). ويمكن الرسالة أن تكون ذاتَ دلالة أكثر من كونها محتمَلةً. (وتملك الجملة التالية «تنمو الأزهار في الربيع» أقصى حد من المعنى والقدرة على الاتصال، لكنها لا تضيف شيئًا لما نعرفه سالفًا، كما يؤكّد أمبرتو إيكو). ولا علاقة للإعلام بالمحتوى الصحيح أو الخاطئ للرسالة أو ببُعدها الجماليّ

t.me/ktabpdf مكتبة

ما دام تَصَوّره قد وقعَ قياسًا للإمكان. وتظلّ الماكنة الذكية التي حلم بها وينر، على هذا الأساس، نتاجَ الإنسان، ولا يمكن أن تبرر اختياراته، ولا تبلغ العاطفةَ التي يجب التذكير بأنها مُقصاة من كل المخططات الرياضيّة. ويظلّ الوعي المتّقد، المُقْصى هو الآخر، من هذه المخططات تحديًا مركزيًّا لأنصار العقل الحاسوبي، والمختزَل في الحساب (لقد تجدّد النقاش اليوم مع العلوم المعرفيّة).

لذا لم يحقّق علم النفس الذي تمناه أبراهام مول، المنسوخ عن النموذج الفيزيائيّ، التطوّر المرجو. فقد اصطدم بغياب وحدة نتائجه ولم يعرف القوانين العامّة. وقد تراجع أبراهام مول في كتابه **علوم ما ليس دقيقًا** (*Les Sciences de l'imprécis*) (1990) عما تمنّاه عندما لاحظ أن العلوم الصلبة انتحلت اسمها لأنها اهتمت بالجوانب الأكثر سهولة في القياس (الطول، المساحة، الحجم، الكتلة، الزمن، وغيرها). واهتمت العلوم الإنسانيّة، منذ بدايتها، بالظواهر العامّة، وغير الدقيقة، التي يجب تحليلها وفق ما هي عليه، لذا هي أكثر تقدمًا من العلوم الصلبة من وجهة نظر إبستيمولوجيّة. وتؤكّد هذه الحُجّة جيّدًا حدود تماثل الفيزياء مع علوم الاتصال، خاصّة وأن أبراهام مول لاحظ أن الفيزياء تطوّرت عن الصورة التي رُسمت لها في خمسينيّات القرن الماضي، وذلك بابتعادها أكثر فأكثر عن التمَثُّل الميكانيكيّ.

لقد سمحت السيبرنيطيقا بوضع فرضيّات واختبارها، وإعادة الوصل بالحلم الذي راود العلماء منذ قرن في جمع العلوم الإنسانيّة وتوحيدها تدريجيًّا مع علوم الطبيعة والحياة. لقد جرى التفكير

t.me/ktabpdf مكتبة

في تقاربها بطرق مختلفة، فشانون اكتفى بتوضيحها عن طريق الرياضيّات، ووينر استخدم علم الآلات والبيولوجيا ضد الفيزياء، مستلهمًا في ذلك من حلم الوحدة المذكورة أعلاه، وتصوّرَ ويفر وأبراهام مول فيزياء شبه متكاملة. وقد قاد هذا الحلم الكبير بحوث إدغار موران أيضًا بدءًا من سبعينيّات القرن الماضي، ويبدو أنه حلم ممكن لكنه أتى قبل أوانه في سياق السيبرنيطيقا، ولا يقضي تجسيده على مشكل المعنى من الوحدة المذكورة، الذي لم توضحه العلوم الدقيقة.

أخيرًا، لقد قادت الأيديولوجيا العلماوية والطوباويّة ذات الطابع الأخوي استخدام السيبرنيطيقا أكثر من الانشغال العلميّ، فالنزعة العلمويّة تطرأ عندما تكف المقارنة بالعلوم الدقيقة عن كونها منهجًا وتتحوّل إلى أيديولوجيا ترتكز سواء على العناصر الجزئيّة جدًّا، المفترض أنها خضعت لعمليّة التحرّي وتُنْقل إلى كل الأنشطة الإنسانيّة، أو على نظام من المفترض أن يكون مكتملًا بشكل نهائيّ، ففي مجال السيبرنيطيقا يُتَرجم هذا التوجّه بتثمين التصور على حساب الممارسة: لقد اعتُبر البشر ماكنات لمعالجة المعلومة بكل تأكيد وليسوا كائنات قادرة على الفعل والتصرف ومنغمسة في المعنى، وهذا ما هم عليه من دون ريب ومهما تم تبرير ذلك. إذًا، المشكل يكمن في الانتقال من الرسالة التي تعتبر ـ بصفتها نظامًا موضوعيًّا ـ من المعلومات الممكنة إلى علاقة الاتصال التي تربط الرسالة بالمتلقِّي: إنه مشكل التأويل والفعل وليس عمليّة تفكيك الرسالة التي يهدّدها الضجيج فقط.

أنماط الاتصال بحسب «وينر» وتجاهل المستوى الإنسانيّ

أنواع الاتصال	الميدان	مثال
المعلومات الثنائيّة	أنظمة حتميّة، ميكانيكيّة	الساعة
الاحتمال	أنظمة مغلقة في وضعيّة يكون جزؤها مجهولًا	مسار السفينة
الدلالة	عالم التأويل والفعل	معظم أفعال الإنسان

الالتقاء بالوظيفيّة

جرى انتشار النماذج الرياضيّة في العلوم الإنسانيّة ـ على النمط الاستعاريّ ـ في شكل يكاد يكون آنيًّا. لقد استخدم العديد من الباحثين في العلوم السياسيّة وعلم الاجتماع وعلم النفس، الرسومَ التخطيطيّة لنظريّة الإعلام ومعجمها اللغويّ وفق أفق ميكانيكيّ. ويفسر بسهولة هذا الافتتان بنظريّة البحث هذه في مجال الاتصال الجماهيريّ كفعل يجري بين الأشخاص. إن معظم المفكرين، بصرف النظر عن اختلافهم، سواء كانوا سلوكيّين أو إمبيريقيّين أو نقديّين، يتقاسمون الرؤية السببيّة للاتصال، بما فيه ذاك القائم على الأنموذج الخطيّ لنقل المعلومات. هذا الأنموذج الذي يستمد قوته من كونه يندرج في ضرب من التفكير السحريّ. التفكير الذي يستخدم السببيّة المباشرة ويبسط العلاقات بين الأشياء بوضعها في إطار علاقات التبعيّة البسيطة: إننا نؤمن بالآثار المباشرة لوسائل الإعلام على سلوك الأطفال مثلما نؤمن بتأثير الآلهة على مصائر البشر الفرديّة، ونفترض أن الدعايات تؤثر على الأشخاص مثلما تؤثر عليهم الأرواح الشريرة.

t.me/ktabpdf مكتبة

وتؤكد علوم الطبيعة والحياة، غالبًا وبطريقة ما، هذا الأنموذج الدقيق جدًّا والضمنيّ، فهذه العلوم التي تحظى بهيبة يمكن أن تُكسِب العلوم الإنسانيّة مجدًا، وتمنحها أيضًا شكلًا من المصداقيّة! إن أسئلة لاسويل، أو بالأحرى برنامجه، مثل الرسم التخطيطيّ للاتصال اللفظيّ لدى رومان جاكوبسن (Roman Jakobson) (الفصل الثامن) تشهد، بتشابهها مع المخطط الرياضيّ للاتصال، على التأثير الكبير لهذا الأنموذج الأخير، على رغم أنّها صُمّمت في سياقات خاصّة.

إن كانت النسقيّة والسيبرنيطيقا ساهمتا في التطوير الفعليّ للرؤية الاختزاليّة للاتصال، فقد قامتا أيضًا بدور بيداغوجيّ - تربويّ - محفّز لدراسة التبعيّة المتبادلة لعناصر الاتصال (وهذا مفيد، لأن كل علم يقوم بوصف العلاقات)، وذلك بتشجيع الإمبيريقيّة المُسْتَلهَمة من لازارسفيلد وعلم النفس الاجتماعيّ وتعزيز التبادل بين التخصصات العلميّة. وهكذا، تشكلت (مع دراسة الأدب وسيميولوجيا رولان بارت) إحدى جذور التيارات الفرنسيّة «لعلوم الإعلام والاتصال» التي تطوّرت في سبعينيّات القرن الماضي حول روبير إسكربيت (Robert Escarpit) وأبراهام مول. لقد حرّكتهما الرغبة في إنتاج نظريّة عامّة للاتصال في ذاك العصر تنسجم مع الميل الفرنسيّ إلى النزعة الفكريّة. لقد استخدمت هذه التيارات هذه النظريّة كموضوع للنقد الذي أضحى ضروريًّا حيث يسمح بتلبية الحاجات الجديدة التي يفرضها التعليم المحترف الموجّه إلى المؤسسات التي تتطلّب مخططات وظيفيّة تحدّد الأدوار وأنواع تأثير الفاعلين على مسار الاتصال الداخليّ والخارجيّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

مدرسة «بالو ألتو» والأنموذج الأوركستري للاتصال

أفضى الاستلهام السيبرنيطيقيّ مع أعضاء مدرسة بالو ألتو إلى أنثروبولوجيا حقيقيّة، لكنه اسْتُنْفِد وكاد يزول في العلوم الإنسانيّة، فهذه المدرسة التي استمدت اسمها من المدينة الكاليفورنية، ضمت بدءًا من أربعينيّات القرن الماضي وخمسينيّاته، فريقًا من المثقفين يتكون من علماء اجتماع وأطباء أمراض عقليّة وألسنيّين ومختصّين في الرياضيّات جمعتهم شبكات غير رسميّة أكثر من انتمائهم إلى جامعات مشتركة، فعلى غرار غريغوري بيتسون (Gregory Bateson)، الذي يميل إلى علوم الحيوان والأنثروبولوجيا وطب الأمراض العقليّة، يشهد مسار بقيّة أعضاء هذه المدرسة على افتتانهم القويّ بعلوم الطبيعة والحياة، ورغبتهم في نقل مفاهيم هذه العلوم إلى الميدان الإنسانيّ وتوحيد العلوم. لقد حاول غريغوري بيتسون، مؤلّف نافن (*Naven*) (1936)، الذي ركز فيه على طقوس القبائل في غينيا الجديدة، أن يصف المجتمع من وجهة نظر نسقيّة مع توقع ردود فعله على وجه الخصوص. إن مصاحبته الباحث وينر منذ أربعينيّات القرن الماضي، قادته إلى نظريّة عامّة للاتصال تتضمّن مخططين: (حيّ/ غير حيّ، المعلومات/ الطاقة) أو وفق معجمه اللسانيّ (الروح/ الطبيعة). وأرشده تعليمه في مجال الأنثروبولوجيا الموروث عن رادكليف-براون (Radcliffe-Brown) ودوركايم نحو الهدف البنيويّ (ووجهه هذا الهدف بدوره نحو الاستخدام السياسيّ - الإيكولوجي والتعاوني - للنظريّات البيولوجيّة التي يمكن القول إنها محفوفة بالمخاطر، كما بيّن وينر). ويكتسي

مكتبة t.me/ktabpdf

الاتصال لدى غريغوري بيتسون وبَقيّة أعضاء مدرسة بالو ألتو قيمة احتوائيّة، إنه (مصفوفة تتضمّن مختلف الأنشطة الإنسانيّة) (**الاتصال والمجتمع** *Communication et société*, 1951). وبهذا، ينأى غريغوري بيتسون عن التأويلات الميكانيكيّة لنظريّة الإعلام الرياضيّة والسيبرنيطيقا. إن الإيمان بأسبقيّة الاتصال على كل شيء لا يعني أبدًا الجنوح نحو النزعة الاختزاليّة أو السببيّة البسيطة، بل هو بالأحرى دعوة إلى مضاعفة دراسة ردود الفعل المعقّدة في اتجاهات دائريّة من البحث الذي يتجه إلى مضاعفة مستويات التحليل من دون أي توضيح. وخطأ هذه الأسبقيّة أنها لا ترضى أبدًا بالتحليل الجزئيّ وتركيبه لتنطلق منه في تقديم شرح فرويديّ ومقارنته مع الطقوس الحيوانيّة والنظريّات المنطقيّة. لقد سمحت الدراسات الميدانيّة التي قامت بها هذه المدرسة باستنتاج مفاهيم مبتكرة في ترافد مع المنطق وعلم النفس الاجتماعيّ، مثل مفهوم «الإكراه المزدوج» (double bind (أو double contrainte) أو «الإيعاز المفارقيّ» (injonction paradoxale) المنسوب إلى بيتسون، الذي يدلّ على وضعيّة يكون فيها نظام العلاقات قائمًا على إرغام مزدوج لا يطاق («كن تلقائيًّا»). وكان الغرض من صياغة هذا المفهوم في البداية يقتصر على دراسة مرض انفصام الشخصيّة، ثمّ امتد إلى دراسة الممارسات البشريّة.

لقد سمح رفض الأنموذج الخطيّ، والنظام من أجل النظام، بانتقال حاسم يتمثل في اكتشاف العناصر التي تشكل الكل وتنتجه، فالأنظمة في نظر غريغوري بيتسون ملازمة للأفعال، وتأخذ أشكال التفاعلات التي نلاحظها ولا تسبقها في الوجود، مثل المصادر المخفيّة والأفعال

t.me/ktabpdf مكتبة

التي تكون مماثلة للقوالب الصناعيّة التي تنتج المواد المتنوعة والمصنّعة بطريقة متطابقة في الوقت ذاته (وبالعكس، فإن هذا التشابه يسيطر على النظريّات الوظيفيّة التي تجعل الأفعال مُنتِجة للبُنى). لقد أحدثت مدرسة بالو ألتو لامركزيّةً في البحث النسقيّ، فتجاوزت مستوى التعميمات المجردة كثيرًا، وذلك باهتمامها بالواقع الاجتماعيّ الجزئيّ (المجهريّ) وبجوهر الحياة اليوميّة، فأصبحت الجملة التالية هي عملتها الحقيقيّة: «لا يمكن ألّا نتصل» (وفق الصيغة التي وضعها بول فتزلافك Paul Watzlawick في كتابه **منطق الاتصال** *Une logique de la communication*, 1967)، والتي تعني أن كل شيء منغمس في عمليّة إنتاج الإعلام. واهتم إدوارد هول (Edward T. Hall) من جهته، بـ«**الاتصال القُرْبيّ**»، أو لغة الفضاءات الشخصيّة (أي المسافة التي تفصل الأشخاص بحسب الأماكن والأوساط والثّقافات، وما هي الإجراءات المقبولة في الاتصال؟ وما دلالاتها؟)، فبعد الأنثروبولوجيّ الفرنسيّ مارسيل موس، أظهر راي بيردوستل (Ray Birdwhistell) أن الجسد لا معنى له أساسًا، وأن الإيماءات وطريقة وقوف الأشخاص تسجل بقُوَّة تخصصًا جديدًا، وهو «الإيمائيّة» (la kinésique) التي يجب أن تدرس الجسد[26]. أن استعمال استعارة الأوركسترا، التي يتدخل فيها كل فرد باستمرار ويتحرك فيها كل بُعد من الأبعاد الإنسانيّة، حلّت محلّ التلغراف مثلما يقترح إيف وينكن

(26) شرع بيردوستل، باتّباعه منحدرًا معروفًا جدًّا، في وصف نظام عام للوحدات الصغرى للإيماءات التي يُعرف غرورها (النظام لا ينغلق على ذاته، إذ يظل منفتحًا على التأويل كأي نظام بشريّ).

مكتبة t.me/ktabpdf

(Yves Winken)، فلا يوجد فصل صارم بين المرسل والمتلقّي: فالتعليم لا يتّخذ اتجاهًا أحاديًا عموديًا من الأستاذ إلى التلاميذ، بل هو تفاعلٌ معهم، تتخلّله أسئلة، ومظاهر الاهتمام أو عدم المبالاة، من دون أن يتوقف سيل التواصل (أن لحظة الصمت أو الهدوء في قاعة التدريس لا تعني غياب التبادل بواسطة النظر أو الإيماءات).

لقد أنهى إرفنغ غوفمان (Erving Goffman) هذا المسار في صيغة وداع للسيبرنيطيقا، وذلك بدمج مسألة الاتصال بين الاشخاص في علم الاجتماع الأميركيّ، علم جورج ميد وروبرت بارك، المتأثر بجورج زيمّل. لقد ظلّ عمل غوفمان النظريّ متّسمًا بالهدف الألسنيّ، وبجرد الأنظمة، و«النحو» و«تركيب الجمل» أو «قواعد» السلوك، وبخاصّة أنه سعى لقياس عمله بين سنة 1950 وسنة 1960 بنسقيّة عالم الاجتماع تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) في خمسينيّات القرن الماضي وستينيّاته، لكن ممارساته قرّبته أكثر من علم الاجتماع الجزئيّ التجريبيّ المهتم باكتشاف الأحداث الجديدة وترتيبها (Burns, 1992). واهتم غوفمان أيضًا بالأوضاع الاجتماعيّة التي يمكن وصفها بالفظيعة (الحياة في مستشفى الأمراض العقليّة)، وبالواقع اليوميّ المعيش واستظهاره (إنتاج الوسم الاجتماعيّ، وطريقة تدخين سيجارة) والسعي باستمرار إلى استخراج القواعد التي تسمح بالمحافظة على العلاقة بين المتصلين. إن المعنى شيء غير قابل للاختزال في الإعلام أو النظام أو المجتمع، إنه يمثل للآخرين ما ننتجه وفق الأدوار التي نقوم بها أمام الأشخاص الذين يهمنا أمرهم. والأدوار تعدّد على مقدار تعدّد الوضعيّات والأشخاص، والاتصال

t.me/ktabpdf مكتبة

البشريّ عبارة عن نزاع لا ينتهي وتتطلب تسويته استخدام «طقوس التفاعليّة» التي تضمن لكل واحد إمكان الحفاظ على «ماء الوجه» من دون القضاء على هذا النزاع. إن فن المعيشة وآدابها يسمح بإضفاء الطابع السلمي على العلاقات بين النّاس، ويتيح تجنب التجاوزات التي تفضي إلى العنف غير المحدود. لقد ألهمت فكرة إطار التبادل تيارات سوسيولوجيا الوضعيّات (انظر الفصل 16).

خلاصة:

لم تثبت مدرسة بالو ألتو أن كل شيء كان اتصالًا بالمعنى الذي تقصده السيبرنيطيقا واللسانيّات، بل قامت بإبعاد مسألة أنثروبولوجيا وسائل الإعلام كليًّا، لكنها بالمقابل أظهرت ضرورة إدماج أقسام كاملة من السلوك الإنسانيّ (خصوصًا تلك المتعلقة بتقنيّات الجسد) في العلوم الاجتماعيّة. إن السيبرنيطيقا عبارة عن جهد لفهم الأسس التقنيّة للاتصال البشريّ، بيد أن هذا الاتصال يتكون من ثقافة، وصمت، وإيماءات، وترانيم الصوت، وقواعد التفاعل التي تعبر عن النزاع وتحتويه. لقد لعبت الأنثروبولوجيا أيضًا دورًا في تجاوز التصورات الخطيّة للاتصال بالتركيز التدريجيّ على الفاعل ـ المتصل ـ التفاعليّة، وهذا ما لم يقم به أتباع بول لازارسفيلد إلا في حدود ضيقة، وعلى أساسه ظلّت سوسيولوجيا المجموعات الاجتماعيّة محافظة على نظرتها الثابتة والمستقرة للاتصال، وهذا ما قام به الكُتاب الماركسيّون بدرجة أقلّ، فاختزلوا الكل في الآثار الأيديولوجيّة، ولم يقم به السلوكيّون أصلًا.

مكتبة t.me/ktabpdf

جـدّدت العلوم المعرفيّة (للاطلاع على تياراتها انظر: Vignaux, 1992) بشكل عميق آليّات التعبير والتفكير والعاطفة، إلى درجة أنها تحوّلت مرجعًا، وأفقًا في بعض الأحيان، وبخاصّة في حقل الاتصال، الذي يبدو أنّه يزاوج الاتجاه الوظيفيّ في المعنى، جامعًا في طياته كلّ الأسئلة حول طبيعة التفكير، وتشكيل الأنظمة اللسانيّة، وسير التفكير الرمزيّ، وبعبارة أخرى، حول كل الآمال في نظريّة نهائيّة للاتصال حملتها سلفًا السيبرنيطيقا والسيمياء ونظريّة الحتميّة التكنولوجيّة.

سجّل بعض الكُتّاب تقدمًا في إضفاء السمة الطبيعيّة كاملة على ما هو اجتماعيّ، انطلاقًا من افتراض ماديّة مسار التفكير الذي فحصه علم الأعصاب، وفرضيّة التطابق بين مسارات التفكير الإنسانيّ وبرامج الكمبيوتر. ويمكن القول إن العمل الأكثر دلالـة في هذا المجال قام به دان سبربر (Dan Sperber)، عالم الأنثروبولوجيا المشهور المتأثر بقراءة مؤلفات نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) وجيري فـودور (Jerry Fodor) الجريئة التي وضعت أسس علم طبيعيّ للمجتمع غير تأويليّ. لقد استند دان سبربر إلى بعض النتائج التي توصل إليها علم نفس المعرفة للربط بين المعتقدات، والتَمَثّلات، والمؤسسات، وتقديمها كآثار عامّة لآليّات التفكير («عدوى الأفكار» La Contagion des idées, 1996، «الملاءمة. الاتصال والمعرفة» La Pertinence. Communication et cognition, 1989، بالتعاون مع ديردره ويلسن Deirdre Wilson). وكان الهدف من هذا الربط هو تقديم أنموذج مبتكر من وصف الثقافة بواسطة العدوى «علم أوبئة

t.me/ktabpdf مكتبة

التَمَثُّلات»، الذي يقدم فهمًا للثقافة باعتبارها بثًّا لأفكار شخصيّة إلى مجموعة من الأشخاص الآخرين. إنها وجهة نظر ماديّة تحثّ على ملاحظة الحياة الاجتماعيّة كنتاج عمليّة إرسال الأفكار عبر الاتصال والتقليد، وتتوَّج باستنساخ الأفكار الأصيلة المرسلة أو تحويرها وتعديلها (القاعدة هي التعديل). إذًا، لا بد من تعيين طبيعة مختلف أنماط الأفكار (المعتقدات، التَمَثّلات الفيزيائيّة) وشرح استقرارها كمؤسسة. ومن أجل ذلك، استخدم دان سبربر مفهوم «الملاءمة» لتوضيح مسألة تكرار الأفعال ذاتها والأفكار عينها عبر الزمن، كما هو شأن الممارسات الطقوسيّة. ويحيل هذا المفهوم إلى النظريّة الاقتصاديّة في الفكر الإنسانيّ، التي تسعى باستمرار إلى الحصول على أحسن علاقة بين الأثر والجهد في معالجة أي معلومة.

يظلّ علم الاتصال الإنسانيّ «الصلب»، على رغم كل هذه التطوّرات، أفقًا غير واقعيّ طالما أن تطوّر العلوم المعرفيّة عجز عن إضفاء السمة «الطبيعيّة» على العلوم الإنسانيّة (لا يوجد إجماع في هذه العلوم على النماذج النظريّة التي يجب تكييفها لأجل ذلك). ليس هذا فحسب، بل لأن هذا الأفق يبدو أيضًا مستندًا بشكل أساسيّ إلى فكرة طوباويّة أو كابوس مرعب (مع جعل الظواهر الاجتماعيّة تحاكي العوامل البيولوجيّة، كما هو الأمر في كتاب **الإنسان العصبوي** *L'homme neuronal* لجان-بيار شونجو Jean-Pierre Changeux، أو استحضار الذكاء الاصطناعيّ الأصيل). لقد برهن العديد من المفكّرين، أمثال هيوبرت دريفوس (Hubert Dreyfus) وهيلاري بوتنام (Hilary Putnam) وجون سيرل (John Searle)، الذين لا يعادون تطوّر العلوم المعرفيّة، أن البحث عن إضفاء السمة الطبيعيّة على العقل

مكتبة t.me/ktabpdf

لا أساس له منطقيًّا، فمن المستحيل عمليًّا تقديم العقل الإنسانيّ كنظام لمعالجة البيانات باستخدام استعارة الكمبيوتر، ولا يمكن المدافعين عن النزعة الطبيعيّة للمعرفة تفادي هذه الاستعارة: فالكمبيوتر آلة منطقيّة تعالج الرموز الاعتباطيّة باتباع القواعد المحدّدة المتتالية، بينما يقوم العقل بمعالجة شاملة لبعض المعلومات ويستوعب تعدديّة معاني بعض الكلمات، فالقيام بالتفكير يختلف عن القيام بالحساب، وهذا مخالف لما زعمه الفيلسوف سبينوزا (Spinoza)، فإذا علمنا أن الوعي هو نتاج مسارات الدماغ التي يجب تعميق معرفتها، فإن الربط بين عقل الإنسان والكمبيوتر لا يسمح بمعرفة دقيقة لهذا الوعي بعبارات «موضوعيّة» و«إدراكيّة»، لأن هذا الوعي «ذاتيّ» ويعارض كل أشكال حياد المُلاحِظ والمُلاحَظ واستقلاليّتهما. إنها عقدة لا انفكاك لها، تحيل على مشكل المرجعيّة الذاتيّة، وتفسّر بأن العوالم التي يسود فيها الذكاء الاصطناعيّ تظلّ عوالم إسحاق عظيموف (Isaac Asimov) وستانلي كوبريك (Stanley Kubrick) ودان سيمونز (Dan Simmons) أو عالم «ماتريس» (Matrix).

المراجع:

BATESON Gregory, *Vers une écologie de l'esprit* (1972), Seuil, 1977 et 1980.

_____, *La Cérémonie du Naven* (1936), Minuit, 1971.

BOUDON Raymond, *L'Analyse mathématique des faits sociaux*, Plon, 1967.

BRETON Philippe, *L'Utopie de la communication. L'émergence de l'homme «sans intérieur»*, La Découverte, 1992.

t.me/ktabpdf مكتبة

BRETON Philippe, PROULX Serge, *L'Explosion de la communication. À l'aube du XXI^e^ siècle* (1989), La Découverte, 2002.

BURNS Tom, *Erving Goffman*, Londres, Routledge, 1992.

CHANGEUX Jean-Pierre, *L'Homme neuronal*, Fayard, 1983.

DREYFUS Hubert, *Intelligence artificielle. Mythes et limites* (1979), Flammarion, 1984.

ECO Umberto, *L'Œuvre ouverte* (1962), Seuil, 1965.

ESCARPIT Robert, «Pour une nouvelle épistémologie de la communication», Premier Congrès Français des Sciences de l'Information et de la Communication, Compiègne, 21 avril 1978.

_____, *Théorie générale de l'information et de la communication*, Hachette, 1976.

GOFFMAN Erving, *Les Moments et leurs hommes*, Textes recueillis et commentés par Yves Winkin, Seuil/ Minuit, 1988.

_____, *La Mise en scène de la vie quotidienne, t.I La présentation de soi* (1959). Minuit, 1973, *t. II , Les relations en public* (1971). Minuit, 1973.

_____, *Les Rites d'interaction* (1967), Minuit, 1974.

_____, *Asiles. Études sur la condition sociale des malades mentaux* (1961), Minuit, 1968.

HEIMS Steve, *John von Neumann and Norbert Wiener*, MIT Press, Cambridge, 1982.

MATHIEN Michel, «L'approche physique de la communication sociale. L'itinéraire d'Abraham Moles», *Hermès*, 11-12, 1992.

t.me/ktabpdf

مكتبة

MAUSS Marcel, «Les techniques du corps» (1936) in *Sociologie et anthropologie*, PUF, 1950.

MOLES Abraham, *Les Sciences de l'imprécis*, Seuil, 1990.

_____, *Théorie de l'information et perception esthétique*, Flammarion, 1958.

MORIN Edgar, *La Méthode 1. La nature de la nature*, Seuil, 1977.

NEUMANN John von, *L'Ordinateur et le cerveau* (1958), La Découverte, 1992.

PUTNAM Hilary, *Représentation et réalité* (1988), Gallimard, 1990.

_____, «Ce qui est inné et pourquoi. Commentaires sur le débat», *in* PIATELLI-PALMARINI Massimo (dir.), *Théories du langage. Théories de l'apprentissage, Le débat entre Jean Piaget et Noam Chomsky*, Seuil, 1979.

RUESH Jurgen, BATESON Gregory, *Communication et société* (1951), Seuil, 1988.

SEARLE John, *La Redécouverte de l'esprit*, Gallimard, 1995 (1992).

_____, *Le Mystère de la conscience* (1997), Odile Jacob, 1999.

SHANNON Claude, WEAVER Warren, *Théorie mathématique de la communication* (1949), Retz-CEPL, 1975.

SPERBER Dan, WILSON Deirdre, *La Pertinence. Communication et cognition*, Minuit, 1989.

SPERBER Dan, *La Contagion des idées. Théorie naturaliste de la culture*, Odile Jacob, 1996.

t.me/ktabpdf

مكتبة

VIGNAUX Georges, *Les Sciences cognitives. Une introduction*, La Découverte, 1992.

WATZLAWICK Paul, HELMICK-BEAVIN Janet, JACKSON Don, *Une logique de la communication* (1967), Seuil, 1972.

WIENER Norbert, *Cybernétique et société* (1950), UGE, 1962.

_____, *Cybernetics or Control and Communication in the Animal and the Machine*, Cambridge et Hermann, 1948.

WINKIN Yves, *Anthropologie de la communication. De la théorie au terrain*, Bruxelles, De Boeck Université, 1996.

_____, (dir.), *Bateson: premier état d'un héritage*, Seuil, 1988.

_____, (dir.), *La Nouvelle communication*, Seuil, 1981.

t.me/ktabpdf
مكتبة

الفصل السابع

ماكلوهان والحتميّة التكنولوجيّة
نزعة التنبؤ بالقرية العالميّة

كان لبروز مارشال ماكلوهان في مجال بحوث الاتصال في ستينيّات القرن الماضي، وقْعُ إعصارٍ صغير يعصف بكل ما يجده في طريقه قبل أن يزول بسرعة (تاركًا المجال للتنبؤ بعواصف جديدة). تكمن قُوَّة هذا الجامعيّ الكندي المشهور، الذي يعتبر أحيانًا مؤسسَ تقاليد بحث في مدرسة تورنتو، في طرح إشكاليّة ظلّت غائبة عن بحوث زمانه وترتبط بعلاقة أنماط الاتصال بالمجتمعات. لقد ورد الوسيط في مخطط الاتصال الذي وضعه لاسويل، بَيْد أن معظم النظريّات لم تركز عليه، ولم تسأل قط عن البعد التقنيّ المحض في الاتصال الاجتماعيّ: ظلّ الوسيط (الوسيلة) بشكل ما علبةً سوداء تُركت مهمة شرحها وطريقة تشغيلها وبثها لمؤرخي التقنيّة والمهندسين. ويكمن ضعف مقاربة ماكلوهان في كونها جاءت في صيغة تنبؤات تم التعبير عنها بصيغة الآثار التكنولوجيّة. وكان لافتتان الجمهور الواسع بهذه المقاربة تأثيرٌ ذو طابع مفارقيّ تجلى عبر إثارة الاهتمام بمسألة الميديا، والمساهمة بقُوَّة في الانطلاقة التنظيميّة لبحوث... في فروع علوم إنسانيّة أو تخصصات جديدة يقال إنها تتعلق بالاتصال.

t.me/ktabpdf

مكتبة

«الرسالة هي الوسيلة»

هذا هو القول المأثور الذائع الصيت الذي ذكره مارشال ماكلوهان في كتابه **من أجل فهم وسائل الإعلام** (1964)، وساهم في صنع شهرته. إنه القول الذي يذكِّر بالجانب الآمر في فكرٍ ما انفكّ يتأكد طابعه الحدسيّ الغالب، وكونه عبارة عن مسوّدة. مزَجَ مارشال ماكلوهان المختص في الأدب والقادم إلى ميدان التقنيّة، المقولات والاستشهادات من مختلف المشارب والصور الجريئة للدفاع عن طروحاته، بدلَ القيام ببحث ميدانيّ منهجيّ: إن ترتيب حججه «كمن يحاول إلباس فيل سراويل» على حدّ قول جيمس كاري في مقاله العلميّ بعنوان **ماكلوهان: جينيولوجيا باراديغم وسلالته** (*McLuhan: généalogie et descendance d'un paradigme*). استعار ماكلوهان فكرته الأساسيّة من المؤرخ والاقتصاديّ هارولد إنيس (Harold Innis) الذي صاحَبَه في تورنتو بكندا (اقرأ ما كتبه جيمس كاري نفسه عن أصل النظريّات التقنويّة في أميركا الشماليّة): لقد رأى إنيس أن التغيير في التنظيم الاجتماعيّ يمكن أن يوصف بنتيجة التكيّف مع التقنيّة الجديدة. لكن ماكلوهان ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه ملهِمُه أو ماركس في مؤلَّفه **بؤس الفلسفة** (*Misère de la Philosophie*)، حيث ذكر أن العلاقات الاجتماعيّة ترتبط بشكل معقد بقوى الإنتاج وبالتقنيّة بطريقة غير مباشرة («يعطينا ذراع الطاحونة اليدويّة المجتمع الإقطاعيّ، بينما تعطينا الطاحونة البخاريّة المجتمع الرأسماليّ الصناعيّ»). وتجزم نظريّة ماكلوهان ذات السببيّة الأحاديّة، بأن وسائل الاتصال (بمعناها الواسع الذي يشمل وسائل

t.me/ktabpdf مكتبة

النقل والفنون) لا تهيكل المجتمعات لأسباب اقتصاديّة بل لعوامل حسيّة. وتمدّدُ أنماط الإدراك والمعرفة الحواس الإنسانيّة، وتؤثر على شخصيّة مستخدميها، لأنهم في مستواها. «لا تؤثر التكنولوجيا على مستوى الأفكار والمفاهيم، بل تغيّر تدريجيًا علاقات الحواس ونماذج الإدراك الحسيّ، وذلك من دون مقاومة تُذكر». ويختلف العيش في عالم تسيطر عليه العملة النقديّة عن العيش في عالم يخلو منها، بصرف النظر عن كيفيّة استخدامها. «تعيد النقود تنظيم الحياة الحسيّة للشعوب، وتدفعهم إلى الانفتاح والتبادل» (من أجل فهم وسائل الإعلام، 1964). وكذلك يجعل الكتاب المطبوع الحاجة للفردانيّة أشدَّ إلحاحًا بفرض علاقة شخصيّة بالعلم، لا بمحتواه بل بشكله. ويميّز ماكلوهان الوسيلة الإعلاميّة الساخنة عن الوسيلة الباردة (استقرأ ذلك من البحوث عن الحواس في مجال البيولوجيا والفيزياء) فسمح له بتقديم الخطوط العريضة لرؤيته لتاريخ البشريّة. إن الوسيلة الباردة (مثل الكلام، والمخطوطات، والتلفزيون) تتحَدّد بتعريفها الضعيف، بمعنى أن صورة أو صوتًا ما يضمّان عددًا قليلًا من المعلومات. وتتطلب هذه الوسيلة من مستخدميها مشاركة أقوى، واستثمارًا لما يُمنح لهم من فضاءات التعبير. ونظرًا إلى فقر التلفزيون، الذي نشاهده بشكل جماعيّ، فإنه يخطف الوعي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكلام، الذي يتطلب نقاشًا يشارك فيه كل واحد... أما الوسيلة الساخنة، فإنها عكس ذلك، فالسينما والإذاعة والكتاب تتحدّد بثرائها، وبقُوَّة تعريفها الذي لا يترك إلا مجالًا ضيقًا لمشاركة مستخدمها الذي يعاني من إكراهات محتواها. إننا نلتزم بالصمت

t.me/ktabpdf مكتبة

في قاعة السينما وأثناء قراءتنا كتابًا. وقد ترتب على تناوب وسائل الاتصال خلال قرون من الزمن، تقسيم التاريخ إلى ثلاث فترات (وهو تقسيم مستلهم عمومًا من قانون الحالات الثلاث لأوغست كونت Auguste Comte)، وهي: العصر القبليّ، الذي يتسم بالاتصال الشفهيّ والانغماس في عالم دائريّ تكون المشاركة فيه مكثّفة. وعصر المطبعة، الذي يشكل قطيعة مع التبعيّة التي رسخها الكلام فأدّى إلى خطيّة الاتصال والاستبطان والفردانيّة. والعصر الإلكترونيّ، الذي نعيشه ويشكّل عودة جزئيّة إلى السهولة الشفهيّة والقبليّة التي فرضتها الوسائل السمعيّة ـ البصريّة.

يتحوّل ماكلوهان، بإعلانه عن الثورة التي يحدثها التلفزيون، إلى نبيٍّ حقيقيّ، فهذا الوسيط الحسيّ المتعدّد، الشفهيّ والمرئيّ، يُعزّز الوعي بشكل أشدّ تحفيزًا وشمولًا في تكوين ثقافة مشتركة لا تحدّها حدود، وفي بناء « قرية عالميّة» يكون فيها لكل شخص علاقة بالغير. إن وسيط ماكلوهان يقترنُ بإطرائه المفرط لجماليّة الوسائط الإلكترونيّة، وبالمحلّل السياسيّ. إنه يقدم من دون تمييز تحليلًا سارًّا للثقافات الجديدة، ودروسًا في التسويق التلفزيونيّ، ويستعرض المناظرة التلفزيونيّة التي جرت بين مرشّحَي الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة: جون كينيدي (John Kennedy) وريتشارد نيكسون (Richard Nixon) في ستينيّات القرن الماضي، وهذا أوضح مثال على التسويق. كانت المناظرة في اعتقاده لمصلحة المرشّح الأول، الشخصيّة الناعمة وذات الحضور الفيزيائيّ المناسب لبرودة التلفزيون، خلافًا للثاني، ذي الحضور الساخن كثيرًا والذي من

t.me/ktabpdf مكتبة

الممكن أن يكون خطابه في الإذاعة أفضل (مثل هتلر، الذي كان من الممكن أن يفشل لو وُجِد التلفزيون في زمانه...).

حجج وأمثلة مضادة

«ثمّة أشياء جيّدة لدى ماكلوهان، مثلما هي لدى مدخني الموز أو أعضاء حركة الهيبيز(*)، يجب الانتظار حتى نرى ما هي قادرة على فعله»، هذا ما كتبه أمبرتو إيكو من دون تحفظ (**الكوجيتو المنقطع** *Le cogito interruptus*, 1967). بالفعل تتضمّن مؤلفات ماكلوهان ملاحظات مفيدة عن علاقات الميديا التي يمكن توظيفها في الدراسات الإمبيريقيّة، مثل تلك التي ركزت على فكرة أن كلّ ميديا جديد يكتفي ساعةَ ميلاده باستعمال محتويات واستخدامات الميديا الذي سبقه في الوجود (فالسينما قَلَّدت المسرح، والتلفزيون قَلَّد السينما، وغير ذلك)، وتلك الملاحظات المتعلقة بالبعد الشفهيّ الكبير للتلفزيون الذي تجاهلته البحوث السابقة. لكن ماكلوهان طَعَّم هذه الملاحظات بفرضيّات عن الاتصال الجماهيريّ لا يمكن أن تصمد أمام الكثير من الحقائق، فالتمييز بين وسائل الإعلام الساخنة والباردة هو تمييز أسطوريّ، وتصنيف التلفزيون في خانة وسائل الإعلام الباردة نظرًا إلى ضعف مشاركة مشاهديه دفعت بعض الكُتّاب إلى القول، من باب المزاح، إن «ماكلوهان يملك جهاز تلفزيون

(*) (Hippies): حركة اجتماعيّة سادت في أوساط طلبة الجامعات الأميركيّة في ستينيّات القرن العشرين وسبعينيّاته، ثم امتدت إلى بقيّة الدول الغربيّة لمناهضة القيَم الرأسماليّة: النزعة الاستهلاكيّة، وتشيؤ الإنسان، والحروب. وابتكرت هذه الحركة نمطًا من المعيشة والسلوك واللباس خاصًّا بها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

معطوبًا» (مثلما يذكر روث Ruth وإليهو كاتز في مقالهما العلميّ بعنوان: «من أين أتى وأين اختفى؟»). إن العلاقة بوسائل الإعلام مسألة استثمار اجتماعيّ، فقاعات السينما الفرنسيّة صامتة ومغلّفة بجو من الجِدّ والمواظبة، وهي بعكس ذلك في الولايات المتحدة الأميركيّة، صاخبة وتشاركيّة. ويبدو التلفزيون مندمجًا في الحلقة الأسريّة في الأوساط العماليّة، بينما يبدو بعيدًا عنها لدى الأوساط المتعلمة. والإذاعة يستخدمها الشباب كوسيلة تفاعليّة (البرامج الحواريّة) ومتخصصة (الموسيقى)، بينما يستخدمها الآخرون كوسيلة جماهيريّة عامّة، فـ«الميديا» لا يحدّدها كونُها امتدادًا لحواس الإنسان بشكل ما، بل واقعُها كامتداد اجتماعيّ للأشخاص والمجموعات التي تستخدمها من أجل أن تتحد أو تتعارض. إننا نعثر على كل التناقضات الاجتماعيّة في الميديا ذاتها.

لا يقدم ماكلوهان أيَّ دليل يؤكّد صحة ما يدّعيه، بل يستعرض أمثلة تاريخيّة. والكل يعلم أن التاريخ يقدم أمثلة عن كل شيء، وحججًا عن لا شيء، وفق الصيغة التي استعملها الشاعر والفيلسوف الفرنسيّ بول فاليري (Paul Valéry)، إذ يمكن أن نقدم مثالًا يعارض كل مثال قدمه ماكلوهان لتأكيد الحتميّة التكنولوجيّة، فتطوّر المطبعة في أوروبا ساهم في تعزيز النزعة الفردانيّة والنهضة، بينما أدى إلى مركزيّة المعرفة والسلطات في الصين. ورافق تطابق البنيات التقنيّة في الدول الرأسماليّة والشيوعيّة، في السنوات الممتدة من الخمسينيّات إلى الثمانينيّات، تباين قويّ في الأيديولوجيات السياسيّة والاجتماعيّة. وبصرف النظر عن هذه الأمثلة، فإن التسويق التلفزيونيّ

t.me/ktabpdf مكتبة

لرجال السياسة والظروف الاجتماعيّة وضغوط المواطنين، كلها عوامل تخضع لقوانين أكثر تعقدًا من الوسيلة «الساخنة» أو «الباردة»، فالصورة التلفزيونيّة لمرشّح ساخن في الانتخابات - إن وُجِد - يمكنها ألّا تنال إعجاب قطاع واسع من الناخبين في بعض الظروف، والعكس صحيح في ظروف أخرى: لنفكّر في المصير الإعلاميّ المعقد للمنتخَبين، مثل شارل ديغول (Charles de Gaulle)، وفرانسوا ميتران (François Mitterrand)، وهلموت كول (Helmut Kohl)، وبيل كلنتون (Bill Clinton). ينتسب بعض الباحثين إلى الماكلوهانيّة من أجل الدفاع عن فكرة أن الإنترنت هو الميديا الجديد الذي يكوِّن أصل «القرية العالميّة»، ويتناسون أنه كان على التلفزيون في نظر ماكلوهان، أن يقوم بهذا الدور، لأسباب تعارض تمامًا تلك التي نسوقها اليوم عن هذه الوسيلة (إننا نقدر أن التلفزيون قليل التفاعليّة ويعزل الأشخاص). وبالفعل، تساهم كل وسيلة من هذه الوسائل في حركات العولمة والعودة إلى التموضع في المحليّ من دون أن تنتجها فعلًا، وتأخذ كل واحدة منها شكل اجتماعيّة ووطنيّة متغيّرة.

هل يعني ما سبق أن التقنيّة محايدة ولا تستخدَم إلا مُعَجِّلًا للتغيرات الاجتماعيّة الموجودة مسبقًا، وأن لا جدوى من دراستها؟ تجيب البحوث التي أُجريت منذ ماكلوهان وتحت تأثيره في بعض الأحيان، عن هذا السؤال بالنفي. لقد عبَّر عالِم الأنثربولوجيا جاك غودي (Jack Goody)، بوضوح عن البعد الحتميّ للتقنيّة، مثل الكتابة، في مؤلَّفه **حُجّة الرسم البيانيّ** (*La Raison graphique*). وشرح أفكاره بمقارنة المجتمعات القَبَليّة الأفريقية التي تستخدم

t.me/ktabpdf مكتبة

الكتابة بتلك المحرومة منها، فالكتابة حامل ماديّ يسمح بتخزين المعلومات: فما هو مكتوب يدوم ويبقى، خلافًا لما يُقال (أو على الأقلّ يستمر في البقاء فترة أطول). ونظرًا إلى حيّز الكتابة الفضائيّ، فإنّها تسمح بممارسة التحليل أكثر من النمط الشفهيّ، إذ يتم تقطيع الجملة المكتوبة فوق ورقة إلى كلمات، وتُفصل الجمل بعضها عن بعض كأنها تتضمّن دعوات لرسم مسافة واللّعب بقواعد اللسان. ونظرًا إلى أن الكتابة تستند إلى تصور ذي بعدين وفق المبادئ العموديّة والجانبيّة (إننا نكتب من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار أو العكس)[27]، فإنها تسمح أخيرًا بتطوير بعض أشكال التفكير النسقيّ، مثل الترتيب وفق الجداول. إذًا، يوجد نوع من التناغم بين هذه التقنيّة في الاتصال وأنماط التنظيم الاجتماعيّ القائمة على التسيير الإداريّ بواسطة التسجيل والترتيب في ملفات، والذي يستند إلى نظام تراتبيّ للأشخاص والمجموعات الاجتماعيّة. وقد أشار جاك غودي إلى الروابط الواضحة التي تربط بناء الإمبراطوريّات البيروقراطيّة بانتشار الكتابة، وأكَّد علاقة السلطة المتعلمة بتثمين عالم الذكاء والعقل، ولاحظ «أن الكتابة تشجع أشكال مخصوصة من النشاط اللسانيّ وتطوّر بعض الطرائق لطرح المشاكل وحلّها». إنّ اختيار غودي الكاشف عن التباينات في الخلاصات التي

(27) الكتابة من الأعلى إلى الأسفل كونيّة وتحيل إلى تصوّر الجاذبيّة الأرضيّة، وإلى تراتبيّة ضمنيّة لدى كل الشعوب بين ما هو أعلى وما هو أسفل. بينما الجانبيّة ليست موجّهة كونيًّا وفق تصور لقانون فيزيائيّ، ما يفسر أن بعض اللّغات تكتب من اليمن إلى اليسار (اللُّغة العربيّة واليابانيّة) خلافًا للغات الأخرى، وخصوصًا الغربيّة.

مكتبة t.me/ktabpdf

استنتجها، جعله مختلفًا بدقة عن ماكلوهان، فليس من اليسر دائمًا تفضيل الكتابة في الأنظمة الخطيّة التي تبنتها المجتمعات التي يقال إنها تفتقد الكتابة، فالكتابة شرط لإمكان ظهور الفكر «العقلانيّ» (بالمعنى التحليليّ) وليست سببًا ضروريًّا وكافيًا لذلك. ولا تقوم سوى بالمساهمة في التغيير وليست مصدر كل التراتبيّة[28]. وأخيرًا، إنها لا تبتكر مسألة السلطة بل تزحزحها عن مكانها في المجتمع، بتحرير أنماط جديدة من الهيمنة يتناقض بعضها مع بعض: سلطة المثقفين وسلطة الدولة، التي يمكن أن تكون في خدمة أقليّة ولكن في خدمة المجموع أيضًا.

لقد قادت المؤرخة إليزابيث آيزنشتاين (Elisabeth Eisenstein) بحثًا ميدانيًّا واسعًا حول العلاقات بين تطوّر المطبعة والمجتمعات الغربيّة، فنفت السببيّة الماكلوهانيّة بشكل قاطع، على رغم أنها انطلقت من مسلَّماتها، إذ رأت مع ماكلوهان أن بروز مجرّة غوتنبرغ في أوروبا في القرن الخامس عشر تُرجم بتعديلات أُدخلت على المخطط الذهنيّ (المطبعة شجّعت الانفتاح على العالم وإقامة علاقة شخصيّة بالمعرفة)، وتُرجم أيضًا بإقامة مسارات تراكميّة لا رجعة فيها دليلًا على تأثير هذا الابتكار. وبرهن بحثها الميدانيّ على أنه يحتمل أن يكون فصل بعض آثاره عن بعض وتوحيدها صعبًا، إن لم تكن هذه الآثار متناقضة. لقد حدثت النهضة الأوروبيّة قبل اختراع المطبعة، لكن أهميّة هذه النهضة تزايدت بما وفّرته المطبعة

(28) للتذكّير، فإنّ إمبراطورية الإنكا كانت تخضع لنظام تراتبيّ خاص لكنها لم تعرف الكتابة. وتعرف فقط تقنيّات بسيطة في الحساب بواسطة حبال صغيرة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

من إمكانات جديدة أتاحت الوصول إلى النصوص الكلاسيكيّة. والإصلاح اللوثري(*) جاء بعد ميلاد المطبعة، وبدا أن تناغمه مع نمط الاتصال المطبوع الذي يفضّل الحركات المتسامحة على الدوغمائية المتشددة، يشير إلى علاقة لا لبس فيها تمت ملاحظتها بشكل واسع: إن طباعة الإنجيل (باللغة الألمانيّة القديمة في البداية) تعني بروز ممارسات مستقلة ذاتيًّا، وحرية دينيّة... على رغم أن الكاثوليكيّة كانت أول المستحوذين على الطبّاعين في حربها الصليبيّة ضد تركيا. لقد عزّزت المطبعة العقيدة المسيحيّة ونهجها التقليديّ بمجمعها في ترينتو(**) (Trente) وطبعت الكُتيّبات لتذكير المؤمنين بالاستخدام الجيّد لطقس القربان المقدس. ويمكن سرد مثال آخر في هذا المقام: لقد شجع النمط المطبوع انتشار الكتابة وقيام جمهوريّة الآداب، وعَضَد انتشار الصورة واللوحات المصوّرة لغايات معرفيّة ودينيّة وترفيهيّة. إن مبدأ فعل التقنيّة يتلاشى في غبار التفاعلات، أو بالأحرى في العلاقات البينيّة، فهل أهملت آيزنشتاين إثارة «الآثار» التي يمارسها المجتمع بدوره على المبتكرات التي من المحتمل أن حركة النهضة كانت تنتظرها وساهمت بكل تأكيد في إيجادها، أو ساهمت على الأقلّ في قولبة الدلالة الاجتماعيّة

(*) نسبة إلى الراهب مارتن لوثر، الذي حاول القيام بحركة إصلاحيّة داخل الكنيسة الكاثوليكيّة بلا جدوى، في القرن السادس عشر، فانفصل عنها وأسس كنائس مستقلة سميت بالكنائس الإنجيلية أو البروتستانتيّة.

(**) ويسمى أيضًا مجمع ترينت. عقد دوراته الثلاث بين 1545 و1563 في مدينة ترينتو بإيطاليا، وتمخضت عنها عدة دساتير تعتبر جزءًا من التعليم اللاهوتيّ للكنيسة الكاثوليكيّة في شرح الإنجيل.

t.me/ktabpdf

مكتبة

للكتاب بحكم النزعة البروتستانتيّة؟ فتشغيل المخترعات كان دائمًا تابعًا لطلب «دقيق وملحٌ»، كما بيّن ذلك فرنان بروديل (Fernand Braudel) بخصوص آلة الغزل والنسيج أثناء الثورة الصناعيّة، أو مثلما يذكّرنا فشل آلة الحساب لتشارلز بابيج (Charles Babbage)، سلف الكمبيوتر الذي اخترع في القرن 19 من دون حدوث أي أثر على المجتمع في حينه[29].

أين تتوقّف التقنيّة؟

لا يوجد أساسًا سوى ثلاث طرق لتصور العلاقات القائمة بين التقنيّة والمجتمع، اثنتان منها تحثّان على مناقشة مسألة «أيُّ تأثير كان الأسبق، تأثير المجتمع على التقنيّة أم تأثير هذه الأخيرة عليه؟»، وهي مناقشة لا حدَّ لها، ففي الطريقة الأولى يتداخل كليًّا المستوى التقنيّ بالاجتماعيّ. إنها تبرز ما هو اجتماعيّ كانعكاس للتقنيّة، وتخلط بين الآليّات الأداتيّة والإنسانيّة. وهنا تلتقي الحتميّة التقنيّة بالتيارات السيبرنيطيقيّة الأكثر علمويّة وسذاجة، والتي تجعل عالم البشر يحاكي عالم الماكينات. والطريقة الثانية مثاليّة أو روحانيّة، تفصل الفكر عن المادة فصلًا نهائيًّا من دون أن تكون مُرْضِية، مثل الطريقة الماديّة، إذ تقدم التقنيّة بصفتها كيانًا مستقلًّا ومؤذيًا، أو بالعكس، قوى في خدمة الإنسان، فالقول إن كل شّيء تقنيّ، أو إن شيئًا ما يفلت من التقنيّة بشكل جوهريّ، لا يُعَدّ حدثًا، بل هو قول أيديولوجيّ، سواء كانت هذه الأيديولوجيا دينيّة أو علميّة أو بيروقراطيّة. حقًّا تمكن قراءة ما هو اجتماعيّ وتقنيّ

(29) أظهر سيمون شيفر (1995) إدماجه في المجتمع الصناعيّ في زمانه.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بشكل متبادل، انطلاقًا من قطب إلى آخر أي من المجتمع إلى التقنيّة أو العكس، لكن ثمن هذه القراءة يتجلى في التناقضات التي لا يمكن تجاوزها، فالنّاس يختارون أدواتهم التقنيّة لكنهم يتكبّدون إكراهاتها، فإذا استطاعت اليد أن تقوم بدور في تشكيل حواسّ الإنسان، ثمّ قام المخّ الذكيّ بتغيير علاقتنا بالعالم بتوسيل جسدنا (تحويله إلى وسيلة)، وإذا بدت وسائل الاتصال امتدادًا لذاتنا، فلا شيء من هذا التسلسل يخبرنا عمّا هو اجتماعيّ، ولا عن إنتاج المعايير والقيم والتغيير في العالم البشريّ الذي لا ينفلت من العالم الماديّ.

وتكمن الطريقة الثالثة، التي تشق الدرب إلى العلوم الاجتماعيّة في الاعتراف بدرجة من استقلاليّة عالم البشر عن التقنيّة، أو بالأحرى بلامبالاته بها، فهذه الطريقة لا تشكل حلًّا وسطًا، لأنها تفترض أن العقل أداة وإن اعترفت بقدراته العالية أو بانتمائه إلى نظام يختلف عن قدرات المواد التي تسمى «تقنيّة». ويمكن أن يعبِّر عن ذاته بالعديد من الأوجه. إن العلوم المعرفيّة ذاتها التي تفترض أن الدّماغ يحاكي الأداة التقنيّة تتراجع وتواجه حدًّا لافتراضها هذا، الذي يجعل بالإمكان إحداث ديناميكيّة ثقافيّة وسياسيّة، فالسوسيولوجيا التورينيّة [نسبة إلى آلان تورين Alain Touraine] التي أَكَّدت على وجه الخصوص ديناميكيّة التغيير هذه، ببيان أن «المجتمعات لا تتحدّد بأدائها الوظيفيّ، بل بقدراتها على التغيير» (**من أجل علم الاجتماع** *Pour la sociologie*, 1974). إن كان النّاس مغمورين كليًّا في التقنيّة، و«يُديرون» ذواتهم بأنفسهم كأدوات تقنيّة، فإنهم يملكون دائمًا القدرة على تعديل علاقاتهم، وتجاوز ما يلاحظونه من تسيير

t.me/ktabpdf مكتبة

بواسطة تسيير آخر، وبآليّات أخرى. ويمكن تفسير عدم مبالاة النّاس بالتقنيّة بعبارات أنطولوجيّة مع الفيلسوف برونو لاتور (**غاية الوسائل** *La fin des moyens*, 2000)، الذي يرافع لمصلحة عدم الفصل بين الإنسان والأشياء، ومن أجل التفاضل بين أنظمة الوجود، فالتقنيّة ليست الكينونة، وليست بالتأكيد عدم الكينونة أو كيانًا يهدّد من الخارج أو تسيطر عليه الكينونة، كما أنها ليست في وسط الطريق بينهما، إنها شكل من الكينونة ونمط من الوجود، ما يفسر أهميتها في كل لحظة وعدم ملاءمتها في الوقت ذاته، عندما نتساءل على سبيل المثال عن طريقة أخرى من الوجود الأخلاقيّ أو السياسيّ. إن التقنيّة حبلى بالوعود بالنسبة إلى السياسيّ لكنها ليست ما هو سياسيّ، ولا تغيّر شيئًا في ماهية الديموقراطيّة، وإن كان استخدام الميديا يغير ممارستها.

أنواع الوسائط

	وسائط فيزيائيّة	وسائط بيولوجيّة	الفكر	
وسائط حركيّة	الأدوات: مطرقة، مجرفة، وغير ذلك	أعضاء بدنيّة: يد، رجل، وغير ذلك	المخ	الحواس
وسائط حسيّة	وسائط: الكتابة، الإذاعة، وغير ذلك	أجهزة حسيّة: العين، الأذن، وغير ذلك		

إن العالم الفيزيائيّ والجسم البشريّ في علاقة وطيدة، ووسائلنا الاتصاليّة امتداد لوسائطنا الحسيّة، وأدواتنا امتداد لأعضائنا البدنيّة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

ويمكن اعتبار الدماغ أداة ترتبط ببقيّة الوسائط لأنه يمدّدها، مثلما يتمدّد عبرها. لكن توجد انقطاعات أيضًا بين المستويات التقنيّة، فلا نمرّ من مستوى إلى آخر بواسطة الاستنباط البسيط، فهناك قفزة نوعيّة حقيقيّة من عالم الحواس الذي يصوغه الدماغ إلى الوسائط الفيزيائيّة والبدنيّة، فالدماغ ليس «وسيطًا» فقط.

حيلة التاريخ: الماكلوهانيّة بوصفها هرمونيطيقا

غالبا ما تُستوعب كتابات ماكلوهان كاحتجاج على السوسيولوجيا الإمبيريقيّة الأميركيّة، التي حُكم عليها بأنها محدودة جدًّا في علاقتها بمحتويات وسائل الإعلام وطروحات التأثير المحدود على المدى القصير. لقد رأى البعض في ماكلوهان مؤسّسًا لعلوم الاتصال التي أصبحت علوم الميديا وعلوم الأدوات الماديّة لتقنيّات الفكر. ولم يُضِفْ ماكلوهان - بسبب عوامل عديدة - إلى هذه العلوم سوى القطعة الأخيرة من لعبة آثار وسائل الإعلام، وذلك بدفاعه عن سببيّة الوسيلة. إنها سببيّة تفقيرية جدًّا، لكن مع مرور الزمن، الذي فعل فعله، يُعاد اليوم تقويم تراث ماكلوهان، الذي نعثر عليه لدى جوشوا ميرورويتز (Joshua Meyrowitz) (الذي رسم لوحة للتغيرات الاجتماعيّة التي أحدثتها وسائل الإعلام الإلكترونيّة)، ولدى بينيدكت أندرسون (Benedict Anderson) الذي اعتبر المطبعة عاملًا مؤسسًا للأمة. إنه يُعاد في اتجاه يبدو مفارقيًّا: اتجاه الهرمونيطيقا أي نظريّة التأويل. لقد كان ماكلوهان في بداياته (في خمسينيّات القرن الماضي) مصابًا برُهاب التقنيّة وناقدًا لها ومعاديًا لتطوّر وسائل

t.me/ktabpdf مكتبة

الإعلام الجديدة، لكنه غَيّر رأيه بقدوم التلفزيون، الذي بدا له ثوريًا، فاقترب من الباحث وينر، الذي قرأ مؤلفاته وشاطره افتراضاته ذات الطابع التقنويّ والمولعة بالتقنيّة، خاصّة تلك التي تستند إلى فكرة أن الماكنة الذكيّة يمكن أن تساعد الإنسان. إن التحاق ماكلوهان بالسيبرنيطيقا وما تلاه من تحليلاته المندفعة، يجب ألّا يحجب التبصر في تفكيره حول التقنيّة الذي قاده إلى الطريقة الثالثة التي ذكرناها آنفًا. إن ماكلوهان، في نظر جيمس كاري، لم يَعتبر أبدًا التقنيّة قوى فيزيائيّة محضة، فلقد طرح مسألة وسائل الإعلام بعيدًا عن نقل الرسائل أو تعديل قدرات البشر بواسطة الأشياء الماديّة. إن وسائل الإعلام هي امتدادات للعقل وتجسيدٌ له في الوقت ذاته، فهي بالتالي تمظهر للحواس. والأداة هي أكبر من وسيلة، إنها عضو اصطناعيّ يحل محل اليد والعين والصوت، والدماغ أخيرًا. هي إذًا نصّ ونظام من التأويل وليست نظامًا من الإكراه المتبادل بين الماديّ والاجتماعيّ. وتستلزم مواجهة الوسيلة العودة إلى كل ما يفعله النسيج الاجتماعيّ للمفاوضات الإنسانيّة. وعن السؤال الكلاسيكيّ حول تأثير الوسيط على الثقافات، الذي لا يزال يحتفظ بحدته في السياق الكندي: «ماذا يحدث للمضامين الكندية في التلفزيون إن انصبت الثقافة الشعبيّة القادمة من خلف الحدود في تلفزيوناتنا؟»، يجيب ماكلوهان: «إن كان الكنديون هم الذين يشاهدونها فالمحتوى كندي». إن الانتشار المذهل لأفكار ماكلوهان جعل إليهو (Elihu) وروث كاتز (Ruth Katz) يعتبرانه مصدرًا من مصادر «الدراسات الثقافيّة» على رغم سذاجة رؤيته لوظائف السلطة التي تقوم بها وسائل الإعلام.

t.me/ktabpdf

مكتبة

أخيرًا، إن قريحة ماكلوهان وقُوَّة قناعته، وتفاؤله بوسائل الإعلام الحديثة في زمانه، واهتمامه بجماليّة ما تبثه، ورفض تقسيم الثقافة إلى ثقافة شعبيّة وجماهيريّة ونخبويّة، والتي أصبح يُنْظَر إليها على أنها متداخلة، كلها عوامل قامت بدور رائد في الأخذ بالاعتبار وسائل الاتصال، التي يقال عنها جماهيريّة، بصفتها ثقافة كاملة. إن الترويج للثورة الإلكترونيّة لأسباب يمكن اعتبارها في كثير من الأحيان خاطئة، والاحتفاء بالأشكال الجديدة للفن اليوميّ، وإعادة إنتاج الأشياء، كلّها عوامل جعلت ماكلوهان يضفي شرعيّة على النظرة إلى وسائل الإعلام، في وقت سيطرت النظريّة النقديّة والنيل من سمعة هذه الوسائل. لقد لفظت الحتميّة التقنيّة أنفاسها مع إعصار ماكلوهان، وكان يجب انتظار السبعينيّات والثمانينيّات مع اختراع المعلوماتيّة ثمّ تسعينيّات القرن الماضي مع شبكة الإنترنت حتى تُبْعث من جديد[30].

---

(30) يجب أن نولي مكانة خاصة لعلم الميديا أو الميديولوجيا (médiologie)، فهذا التيار التقنويّ الذي أسسه رجيس دوبري، في مطلع التسعينيّات من القرن الماضي، استعمل طروحات ماكلوهان وجيله وقسّم التاريخ إلى ثلاث فترات «تشكل فضاءات ميدياتيكيّة»، برؤية فيزيائيّة للاتصال، وبلاغة أدبيّة اختزالية بدرجة أساسية (حول هذه النقطة راجع نصّ إيف جانريه Yves Jeanneret, 1998). إن خصوصية هذه الحتميّة التكنولوجيّة تنأى عن تكنولوجيات الإعلام الجديدة أو تتجاهلها، تلك التكنولوجيات التي ازدهرت في وقتها. لقد اهتمت هذه الحتميّة بشكل أساسي بمسألة المكتوب والمطبوع وأهملت كل المبتكرات في زمانها، ولم يسترجع ما شكّل أصالةً مقاربة ماكلوهان أي اهتمام بالأشكال الجديدة للثقافة التي استعملها كنذير(*).

(*) استعمل الكاتب كلمة (héraut) التي وظفت في القرون الوسطى للدلالة على الضابط العسكريّ المكلف بالإعلان عن الأخبار أمام الملأ أو نقل الرسائل الهامة.

t.me/ktabpdf مكتبة

لكن هذا الإعصار تمكن أخيرًا من المساهمة في تشكيل رؤية للاتصال بمصطلحات الثقافة، وإن بنوع من المغالاة، فمنح أهميّة لوسائل الإعلام الإلكترونيّة.

المراجع:

ANDERSON Benedict, *L'imaginaire national. Réflexions sur l'origine et l'essor du nationalisme* (1983), La Découverte, 1996.

BRAUDEL Fernand, *Civilisation matérielle. Économie et capitalisme*, t. III, Armand Colin, 1979.

CAREY James, *Communication as Culture. Essays on Media and Society* (1989), Londres, Routledge, 1992.

_____, «McLuhan: généalogie et descendance d'un paradigme», *Quaderni*, 37,1999.

DURAND Pascal (dir.), «Mc Luhan, trente ans après», *Quaderni*, 37, 1999.

ECO Umberto, «Le cogito interruptus» (1967), in *La Guerre du faux*, Grasset, 1985.

EISENSTEIN Elisabeth L., *La Révolution de l'imprimé dans l'Europe des premiers temps modernes* (1979), La Découverte, 1991.

FLICHY Patrice, *L'Innovation technique. Récents développements en sciences sociales vers une nouvelle théorie de l'innovation*, La Découverte, 1995.

_____, «La question de la technique dans les recherches sur la communication», *Réseaux*, 50, 1991.

GOODY Jack, *La Raison graphique. La domestication de la pensée sauvage* (1977), Minuit, 1979.

t.me/ktabpdf

مكتبة

JEANNERET Yves, «La médiographie à la croisée des chemins. Poétique sociale de la trivialité et/ou critique de la raison appareillée», *Les Cahiers de Médiologie*, 6, 1998.

KATZ Ruth et Elihu, «D'où venait-il, où a-t-il disparu?», *Quaderni*, 37, 1999.

LATOUR Bruno, «La fin des moyens», *Réseaux* 100, 2000.

MARCHAND Philip, *Marshall McLuhan. The Medium and the Messenger*, New York, Tichenor and Fields, 1990.

MARX Karl, *Misère de la philosophie* (1847), Éditions Costes, 1950.

McLUHAN Marshall, *Pour comprendre les médias. Les prolongements technologiques de l'homme* (1964), Seuil, 1990.

_____, *La Galaxie Gutenberg. La genèse de l'homme typographique* (1962), Mame, 1967.

MEYROWITZ Joshua, *No Sense of Place. The Impact of Electronic Media on Social Behaviour*, New York, Oxford University Press, 1985.

SCHAFFER Simon, «Les machines calculatrices de Babbage et le «Factory System»», *Réseaux*, 69, 1995.

TOURAINE Alain, *Pour la sociologie*, Seuil, 1974.

t.me/ktabpdf

مكتبة

القسم الثاني

تثقيف الاتصال
لعبة الإنتاج / التلقّي

t.me/ktabpdf مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفصل الثامن

من السيمياء إلى التداوليّة
نظريّة اللغة و/ أو الاتصال؟

يمكن أن نصف السيمياء بالحركة الفكريّة الأوروبيّة، بل القاريّة، لأن مركزها فرنسيّ وإيطاليّ قبل كل شيء. إن جذورها الجغرافيّة توضح، في هذه الحالة، البعد المكانيّ لمروِّجيها مقارنة بالمقاربة اللازارسفيلديّة الوظيفيّة المبتهجة بانتصارها في الولايات المتحدة الأميركيّة. لقد اعتُبرت هذه المقاربة بالغة التجريب، وبُعدها النقديّ غيرَ مُرْض. وتأخذ السيمياء موقعًا وسيطًا في التحوّلات الثلاثة في تاريخ نظريّات الاتصال التي اقترحَتها في مجال البحث فيه. لقد نمت السيمياء في بدايتها في أحضان نظريّة اللّغة، فتحوّل طموحها بسرعة ليصبح شاملًا ومتطابقًا مع طموح ما يسمّى علومًا دقيقة، ثمّ أدرجت مسألة الأيديولوجيا في دراسة الاتصال خلال ستينيّات القرن الماضي، لتصقل بذلك أعمال مدرسة فرانكفورت، وتعيد طرح الأسئلة حول آليّات إقناع الرسائل الاتصاليّة. إن الصعوبات التي واجهت السيمياء في هذين الاتجاهين قادتها أخيرًا إلى طريق التداوليّة وأخْذ فاعلي الاتصال بالاعتبار. إذًا، تبتعد السيمياء بمسافة متساوية عن نظريّات التأثير التي لا تزال تُزَودها لبعض الوقت ببعض الحجج، ومحاولات تأسيس علوم عامّة للاتصال شاهدنا رسوخها، سواء في الافتتان بأنموذج العلوم

t.me/ktabpdf مكتبة

الدقيقة أو في تأكيد المسألة التقنيّة، وعن التصور الجديد للاتصال الذي يتجلى عبر النظر إليه بصفته نشاطًا حواريًا وليس عمليّة نقل فقط.

«المنعطف اللغويّ»

شكلت أَلسُنيّة فرديناند دو سوسير (Ferdinand de Saussure) التي صاغها في بداية القرن العشرين، منطلقًا لتقليد ثريّ حول سير اللّغة اللفظيّة والمكتوبة الراسخ في الرؤية الدوركايميّة. لقد تم تصور اللّغة بمثابة شيء منفصل ومستقل عن البشر، وهي نتاج المجتمع الذي يُفْرض على النّاس بمقدار ما يسمح لهم بالتعبير[31]. وترتكز اللسانيّات على نظريّة العلامة، التي تُعتبر موضوعًا أساسيًا يبدو من تعريفه أنه عام، لأنه يتجاوز مجال اللسان، فكل شيء يملك معنى هو علامة: الكلمة والجملة والصورة والشيء الذي نُضمِّنه معنى (يمكن الفانوس المقوّس أن يذكرنا بصورة شيخ منحني الظهر، وتذكرنا كعكة المادلين بطفولتنا). إذًا، ليست اللسانيّات سوى فرع من العلوم العامّة للعلامة، التي سمّاها دو سوسير سيميولوجيا، فكان على هذه الأخيرة أن تضمّ دراسة الصورة والعلامات السمعيّة وغيرها. وقد قسمت الطبعة السوسيريّة العلامة إلى عنصرين مستقلين بمقدار

---

(31) إن هذه الرؤية للّغة كأداة هي مركزية أيضًا لدى عالمَي اللسانيّات سابير (Sapir) وورف (Whorf)، اللّذين تلتقي نظرياتهما مع الحتميّة التقنيّة بطريقة ما، فالوسيط اللُّغويّ يظهر في نظرهما في شكل قوة مهيكلة. ولكل لغة ما يناسبها من أنماط التفكير الإكراهيّة، ففي اللُّغة الصينيّة لا يوجد فعل «أكون» (verbe être)، ما يجعل من اليسر نوعًا ما التفكير في مواضيع تدفع إلى تصور بعض الأفكار.

t.me/ktabpdf

مكتبة

استقلاليّة وجهي قطعة نقديّة واحدة، فالدالّ هو حامل المعنى (الكلمة والجملة)، والمدلول هو المعنى ذاته. وأضيفت إلى هذا التقسيم ثنائيّة التعيين والتضمين: فالتعيين يقصد به المعنى الأول، أو الآنيّ للدالّ، والذي يحظى بإجماع، أما التضمين فيقصد به المعنى الثاني، فكلمة «وردة» على سبيل المثال تعيّن زهرة، أما تضميناتها فمتعددة: اللون، والشغف بها، وشوكها... وغير ذلك. فهناك اعتباطيّة في العلامة، لأن المجتمعات هي التي تضبط معنى الدالّ وليس الطبيعة (تحيل كلمة حسّاس sensible إلى العاطفة في اللُّغة الفرنسيّة وإلى المنطق في اللّغة الإنكليزيّة). واللّغة نظام أو بنية، والتعيين والتضمين تقنيّات علائقيّة. والعلامة تُنَظَّم في علاقاتها ببقيّة العلامات، إذ لا يعني الخطاب في حد ذاته أيَّ شيء، لكن دلالته تتجلى عبر الاختلاف.

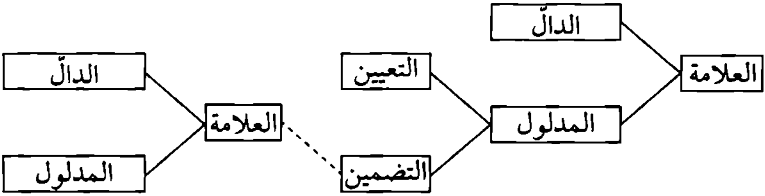

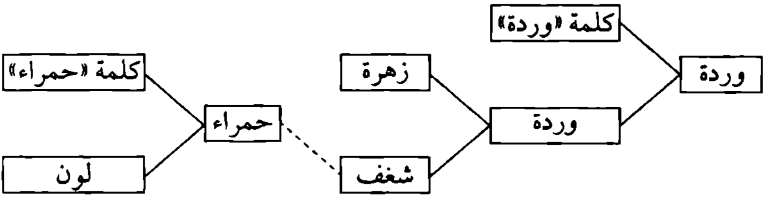

يمزج المشروع السوسيري طموحين على الأقلّ. يتمثل الطموح الأول في توضيح قواعد سير اللّغة (تركيب الجملة) التي من

t.me/ktabpdf

مكتبة

المفترض أنها تشكل «واقعًا فريدًا». والطموح الثاني يجسده تأسيس نظريّة تبادل المعنى التي تتضمّن أشكالًا من التخيّل الذي يربط النّاس بعضهم ببعض (تحاكي آليّات التضمين ذاتها) في إطار استمراريّة أعمال دوركايم حول الأساطير والتصنيفات الدينيّة.

اللسانيّات البنيويّة والحلم بعلم شامل للاتصال

لقد برز العديد من التيارات اللسانيّة من البوتقة المسمّاة بنيويّة (بالرجوع إلى فرضيّة تفوّق الكل على الجزء) والتي وَسَّعت مدى نظريّة اللّغة بين خمسينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته. لقد نفذ رومان جاكوبسن انقلابًا أساسيًّا في دراسة اللّغة من خلال التقريب بين اللسانيّات والتحليل الرياضيّ للاتصال في إطار المدرسة الشكلانيّة الروسيّة وحلقة اللسانيّات ببراغ. وعلى غرار الرياضيّات، قامت اللسانيّات بتحليل الخطاب اللفظيّ في شكل سلسلة نهائيّة من وحدات إعلاميّة ابتدائيّة («الفونيمات»(*) التي تشكل اللسان). واكتشف جاكوبسن أهميّة مبدأ الانشطار الثنائيّ في سير اللّغة (يماثل الإشارات الثنائيّة) الذي تقوم به انطلاقًا من نظام نهائيّ: «تعدّ أنظمة الرموز الأخرى كلّها مجرد زينة أو مشتقات من نظام اللّغة مقارنة باللسان، فهذا الأخير أداة الاتصال الرئيسيّة الحامل للمعلومات». لقد تمت محاكاة السيمياء باللسانيّات التي يُنْظر إليها كعلم عام للاتصال، فشكل اللسان (الفونولوجيّ- الصوتيّ- النَّحْوِيّ) يمكن أن يخضع

(*) الفونيم: العنصر الصوتي في تمفصل اللّسان يتحدد من وجهة نظر فيزيولوجيّة ولفظيّة.

لقوانين حتميّة، إذ يوجد «قاسم مشترك» لكل اللّغات. ويجب أن تكون الديناميكيّة الزمنيّة والنحو (التحوّل في العلاقة بين العلامات) موضوع وصف كمّيّ. ومن المفروض بالسيمياء، التي تُعنى بدراسة العلاقات بين العلامات والأشياء أي المعنى والحقيقة التي يرومها كل مسعى سيبرنيطيقيّ، أن تُسْتنبط من النَّحْوِ، وتكون قابلة للتحليل من داخل اللّغة، «فسيماها الجوهريّة لسانيّة».

ويقدم جاكوبسن على هامش هذا البرنامج، أنموذجًا من الاتصال مشتقًّا من الأنموذج الرياضيّ للتبادل الوظيفيّ للرسالة، وذلك بإعادة صياغة هذه الأخيرة بمصطلحات أَلسُنيّة. وقد مدّدَ هذا الأنموذج (الذي كان تعليميًّا محضًا في بدايته) إلى العناصر التقليديّة المقصيّة، مثل العاطفة والشعر، فالاتصال يتطلب عناصر أخرى تُضاف إلى المرسل والرسالة والمرسل إليه. إنه يتطلب إقامة صلة بين النّاس، ومدونة مشتركة (مدونة اللّغة)، وأخذ السياق بالاعتبار.

السياق
المرسل ------------ الرسالة ------------ المرسل إليه
الصلة
المدونة

حَدَّد جاكوبسن ستّ وظائف تناسب العناصر أو العوامل الستة التي ذكرها في مسار الاتصال. إن الوظيفة المرجعيّة، التعيينيّة أو الإدراكيّة، تحيل إلى السياق (الخطاب عن العالم)، وهي الوظيفة الوحيدة التي أخذها شانون بالاعتبار. وكلمة «أنا» في الخطاب تحيل إلى الوظيفة التعبيريّة التي تعبّر عن حضور المرسل إليه وحالاته

مكتبة t.me/ktabpdf

(سخرية، غيظ)، وكلمة «أنت» أو «أنتم» تحيل إلى المرسل إليه في صيغة الطلب (الوظيفة الاعتزاميّة أو الدعوية ـ التي تدعو إلى ـ مثل «اشربوا»). أما الوظيفة التنبيهيّة، فتحيل إلى العلاقة بين الفاعلين، وإلى التأكّد من التواصليّة: («هل أنت بخير؟» و«ألـو»)، ووظيفة ما وراء اللغة تهدف إلى التأكد من قواعد اللغة: («ما معنى كلمة sophomore؟[*]»). وأخيرًا، الوظيفة الشاعريّة التي تملك القدرات التي يملكها اللسان الـذي لا يعيّن سوى استخدامه عبر أشكال أسلوبيّة، مثل جملة: («ألفرِد الفظيع» l'affreux Alfred، التي لا تقول أي شيء سوى أن «الشخص الذي يسمّى ألفرِد مرعب» لكن صيغة الجِناس جعلت هذه الجملة شاعريّة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الشعار «أنا أحب آيك» I like Ike)[32][**].

المرجعيّة

التعبيريّة ------------ الشاعريّة ------------ الندائيّة

التنبيهيّة

الميتا لسانيّ (ما وراء اللغة)

(*) تُجمع القواميس على أن هذه الكلمة تستعمل في اللُّغة الإنكليزيّة المنطوقة في الولايات المتحدة الأميركيّة للدلالة على أن الطالب في سنته الثانية الثانويّة أو الجامعيّة، أو صفة للألبوم الموسيقيّ الثاني لفنان ما، أو الفيلم الثاني لمخرج سينمائيّ.

(32) الأمثلة مقتبسة من: Jakobson (1963).

(**) آيـك: كُنْيَةٌ أطلقت على الرئيس الأميركيّ آيزنهاور في زيارته الأكاديميّة العسكريّة الأميركيّة، وتحولت إلى شعار «أنا أحب آيك» في حملته الانتخابيّة للرئاسة الأميركيّة في 1952 و1956. وطبع طاقمُ حملته الانتخابيّة هذا الشعار على أزرار صغيرة وُزعت على الناخبين.

t.me/ktabpdf مكتبة

يثري هذا الأنموذج المركب (الـذي يلخص مساهمات كارل بولر Karl Bühler اللسانيّة وبرونيسلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowski الأنثروبولوجيّة حول العلاقات الطقوسيّة أو التنبيهيّة والنظريّة الشاعريّة لجاكوبسن) الرؤية الوظيفيّة للاتصال، بالمحافظة على الفكرة التقييديّة لخطيّة المسار. ويبـدو أنـمـوذج اختيار الوظائف هذا اعتباطيًّا أيضًا، فهل تختلف وظيفة ما وراء اللغة عن الوظيفة الشاعريّة كما عبر عنهما جاكوبسن؟ ألا يُذَكِّر تعريفُ الشعر بصفته هدفًا داخليًّا للسان، بالشعراء التأويليّين في القرن التاسع عشر (ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé وإدغـار آلان بو Edgar Allan Poe)؟ لكن قبل كل هـذا، إن كـان على ظاهرة الاتصال الانفتاح على المستخدمين المختلفين لتشملهم، فلماذا لا تكون وظائف الاتصال أكثر عـددًا لتناسب كل أشكال التبادل الاجتماعيّ؟

يبلغ النُّمُوّ الزائد غير المتكافئ للأنموذج اللسانيّ أوجه لدى كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) الـذي يدافع عن رؤية موسعة للاتصال كظاهرة أنثروبولوجيّة عرضيّة تشمل تبادل الكلمات والممتلكات والنساء، فالأنظمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والجنسيّة مطابقة للأنموذج الذي يقدمه اللسان[33]. ويبدو أن هذه الأنثربولوجيا، التي ظلّت في حالة مشروع يُنتَقد بسهولة وقليل الإقناع أيضًا، لنزعتها الذكوريّة الضمنيّة، تشكل حالة من النجاح

(33) تبنّى التحليل النفسيّ مع لاكان الأنموذج اللسانيّ أيضًا، من خلال الافتراض بأن لاوعي الإنسان مهيكل مثل اللّسان.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الباهر عندما تدرس أساطير مجتمعات سكان أميركا الأصليّين، فبعد إميل دوركايم ومارسيل موس، بَيَّن كلود ليفي ستروس أن البشر يستخدمون الدلالة باللجوء إلى الصيغ الأسلوبيّة (الاستعارة، والكناية، وغيرها)، والتي تعد آليّات انتقال المعنى الذي ينظّمونه في بُنًى نسمّيها سردًا أو مرويّات. ويقوم فلاديمير بروب (Vladimir Propp) في تحليله البنيويّ للأساطير في الفولكلور الروسيّ بالكشف عن المنطق الذي ظلّ مرفوضًا، ويتجلى عبر تصنيف عناصر الطبيعة والثقافة في أنظمة متعارضة ومتكاملة تجيب عن الأسئلة الوجوديّة بفعل عمليّة التحوّل والتغيير: إن التعارض بين الحياة والموت يصبح التعارضَ بين النباتات والحيوانات، والأغذية تقسم وفق محور المطبوخ والنّيء. ويُشْرح العالم بالتناقضات بين الأعلى والأسفل، والمذكر والمؤنث... وهكذا، يسمح هذا التصنيف للمجتمعات الغربيّة بالتصالح مع المجتمعات المسمّاة «بدائيّة» ويُحْكَم عليها، في الغالب، بالدونيّة من وجهة نظر فكريّة. إن الافتتان بصرامة العلوم الدقيقة في هذا المقام، يؤدي إلى توجّه منهجيّ مفرط، وإلى الفكرة التي مفادها أنه يمكن فهم المخيال بملاحظة اللسان وحده. لقد اعتقد التحليل البنيويّ أنه اكتشف الحلّ الرياضيّ الكلّي الذي يمنح قواعد تشكيل الخطابات وتغييرها بعرضه الأساطير كمنتجات مغلقة على ذاتها ومنفصلة عن العلاقات بين النّاس، بينما تخترق النزاعات والتناغمات هذه الخطابات وتعبِّر عن ذاتها بعيدًا عنها. وهكذا، يستنفد هذا التحليل ذاته في تصنيف عقيم لامه عليه الكاتب جاك غودي. ويظهر هذا التوجّه في التحليل أيضًا لدى ألغيدراس غريماس

(Claude Brémond) أو كلود بريمون (Algeidiras J. Greimas) الذي سعى إلى وضع قواعد كونيّة لسير المرويّات أو السرد بصرف النظر عن مكانها وعصرها، وذلك بتجزئتها إلى قطع متتالية وفق معايير بسيطة من التعارض: التحسن والتراجع وسلسلة من الأفعال تربط المرسل (الوكيل مصدر البحث عن بطل الحكاية) بالمرسل إليه (البطل)... إلخ.

لم يواجه مشروع النَّحْو التوليدي لنعوم تشومسكي مثل هذه المشاكل، لأنه درس اللسان على مستوى تقنيّ أكثر، وعلى صعيد المسألة الوحيدة المتعلقة بأصل الكفاءات اللسانيّة الكونيّة. إن الأمر يتطلب تحديد الثوابت النحويّة انطلاقًا من دراسة مختلف اللّغات المحكيّة، فاللسانيّات عادت إذًا إلى طبيعتها الوظيفيّة، وإلى البحث عن الملكات المتعالية التي يملكها كل النّاس. إن هذا المشروع (المثمر لأنه يستند إلى برنامج إمبيريقيّ) لا يفلت في آخر المطاف من التخيّلات العلماويّة واستبعاد المسألة السيميائيّة في الوقت ذاته (هذا الموضوع الموصوف ديكارتيّ وعقلانيّ ومستقل ذاتيًّا لكنه يماثل الماكنة). ولا نستطيع افتراض أن المعنى يمكن أن يُسْتَنْبط من القواعد المجردة وحدها التي تشكل اللسان، وعلى صعيد الكفاءة الشخصيّة، كما يوحي بذلك تشومسكي. وعلاوة على ذلك، فإنّ هذه العقلانيّة المتطرفة لدى هذا المؤلف ترافقها رؤية أساسيّة نقديّة للاتصال الجماهيريّ، حيث يُنْظَر إليه كمكان لممارسة الكذب المُنَظَّم، والمراقبة والتلاعب بالآراء وتضليلها، مقارنة بالتواصل المباشر وجهًا لوجه، الذي يُحْتمل أن يكون طبيعيًّا ومستنيرًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

سيميولوجيا وسيمياء الاتصالات الجماهيريّة[34]: بارت وإيكو

بنت سيمياء الاتصالات الجماهيريّة، هي الأخرى، علوم العلامات على الأنموذج اللسانيّ في ستينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته، ومدّدته إلى مختلف الحوامل الإعلاميّة (السينما، والتلفزيون، والشريط المرسوم، وغيرها) وكلّ أنظمة العلامات (من الصور إلى المنتجات الاستهلاكيّة، مثل الملابس أو الأغذية). وقامت على التمييز بين الدّالّ والمدلول، والتعيين والتضمين. إن سيمياء الكُتّاب أمثال رولان بارت أو أمبرتو إيكو، القادمَيْن من الحقل الأدبيّ، تسمح بوصف العالم الاجتماعيّ الذي نغوص فيه وكأنه مغطى بغشاء سميك من العلامات التي تنشرها وسائل الإعلام أي كنوع من البَشَرة الثانية التي تَخْنُق التعبير والحرية.

لقد كان رولان بارت أول من فكّك إعلانًا مرئيًّا في مقال علميّ عنوانه **بلاغة الصورة** (*Rhétorique de l'image*) (1964)، فأظهر صورة فوتوغرافيّة تتضمّن قفّة على شكل شبكة تسوُّق مملوءة فواكهَ وخُضَرًا، وعلبة من المعجنات من ماركة بنزاني (**Panzani**) محفوفة بألوان العلم الإيطاليّ. ويمكن تفكيك المدوّنة المرئيّة

(34) السيميولوجيا والسيمياء عبارتان لا تتغيران، لكنّ هناك توجهًا نحو استعمال السيميائيّة بدل السيميولوجيا منذ المؤتمر التأسيسيّ بباريس في 1969 الذي كان من المفترض أن يسجل الانتقال نحو نظرية التأويل. إن التعلق بكلمة السيميائيّة تعزّز اليوم برغبة ممارسيها بالنأي قليلًا عن الحركة السيميولوجيّة التي وجدت في الستينيّات من القرن الماضي، باستثناء التيار الذي يطالب بإرث رولان بارت وكريستيان ماتز.

t.me/ktabpdf

مكتبة

لهذه الصورة إلى نصّ يتضمّن أوّلًا النزعة الريفيّة والأصالة (المواد الطازجة المشتراة توًّا من السوق)، كما يتضمّن ما يسمى «الروح الإيطاليّة»، فألوان العلم تثبت أصل المعجنات وحميميّة التعايش المفترَضة لدى الإيطاليّين، وهذه التضمينات التي يقدّرها المشترون تنزاح عن واقع المنتج الصناعيّ المعروض في المتاجر الكبرى و... الفرنسيّ! فمقالات رولان بارت البارعة، التي جمعها في كتاب **ميثولوجيات** (*Mythologies*) سنة 1957، تُفَصِّل مختلف أبعاد الإخراج الإعلانيّ الترفيهيّة والسياسيّة. ويختتمها بنصّ نظريّ حاول فيه تحديد مكانة السرديّات الإعلاميّة مقارنة بالأساطير. وتكمن طبيعة هذه الأخيرة في جعل ما تتحدث عنه غير قابل ليكون موضوع أسئلة، وليس ذلك بحجبه، بل بتحويله إلى شيء عاديّ وبديهيّ، فصورة «زِنجِيّ» في مجلة **باري ماتش** (*Paris Match*) الفرنسيّة على سبيل المثال، يرتدي بذلة عسكريّة ويحيِّي العلم الفرنسيّ أثناء فترة مكافحة الاستعمار في أفريقيا، تحمل رسالة إمبرياليّة لا يمكن السكوت عن وجودها، وكأنها تقول: نحن في مستعمراتنا كأننا في وطننا. لقد تم تسلّم هذه الرسالة كما هي، لأنها تدعم اتجاه من يبرّرون وجود الاستعمار. ويبتعد رولان بارت عن كلّ تأويل بعبارات التلاعب والتضليل، فـ«الأسطورة لا تخفي أي شيء، ووظيفتها هي التشويه وليس الإخفاء، فلا يوجد أي تستر في هذا المفهوم مقارنة بالشكل، ولا حاجة إلى اللاشعور لشرح الأسطورة». والأسطورة هي «سرقة اللسان»، إنها سلب يضاعف ذاك السلب للأوساط الاجتماعيّة الخاضعة لقوانين البرجوازيّة في عالم اقتصاديّ

t.me/ktabpdf

مكتبة

واجتماعيّ: لا يملك الجمهور أي هامش للنأي عن الرسائل التي ينتجها كُتّاب الصحف بسخرية الذين يُعَدّون أذرع البرجوازيّة المسلحين، ولا يقدر على كشف زيفهم وخداعهم سوى الميثولوجيّين (مع رولان بارت).

ويَعْتبر أمبرتو إيكو، هو الآخر، المنتجات الجماهيريّة محافِظة بنيويًّا، سواء بتشكيل عالم قائم وثابت يسوده النظام، أو منهار يُستعاد فيه النظام بوسائل شرعيّة أو غير قانونيّة. وتُعدّ دراسة جيمس بوند (James Bond) في روايات إيان فليمنغ (Ian Fleming) المعنونة **جيمس بوند: ترتيب سرديّ** (*James Bond: Une combinatoire narrative*) (1966) مفيدة في هذا المقام. إنها تكشف عن نظام من التعارضات (على نمط فلاديمير بروب أو ليفي ستروس). التعارض بين أبطال ذكور وذوي بشرة بيضاء وأنغلوساكسونيّين، وخصوم سوفيات، ومن البحر الأبيض المتوسط وآسيويّين، ويهود. ولا تحتل الأنثى (الآنسة مانيبيني Moneypenny) في هذه الروايات سوى موقع لا تحسد عليه، فهي حليفة خاضعة، ومسلوبة من كل بطولة، ومنافسة تُغرى جنسيًّا، ويكون عقابها الموت. ويرى أمبرتو إيكو أن الاتصال الجماهيريّ يتناسب والدوغمائيّة، مقارنة بالفن المنفتح دائمًا على التأويل غير المحدود. يجب عدم التنديد بإيان فليمنغ لأنه مُعادٍ للسامية وبطريركي فحسب، بل لأنه يحلّل السرد بواسطة مخطط تبسيطيّ. « فالبناء وفق المخططات التبسيطيّة والتقسيم الثنائيّ المانويّ دوغمائيٌّ دائمًا». إن إيان فليمنغ رجعيّ مثلما هي الأسطورة أو الخرافة في أصلها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

تتأسف السيمياء إذًا أسفًا كبيرًا على ما تقوم به وسائل الإعلام من وظائف إعادة إنتاج النظام القائم وتُحَمِّل الجمهور مسؤوليّة ذلك. هذا الجمهور العاجز عن تجاوز جذوره البرجوازيّة الصغيرة وإدراك الرسائل التضمينيّة (يعتبرها عاديّة و«طبيعيّة»)، إنه قليل الاطلاع، ومحدود الثقافة، ولا وقت له لتطوير قدراته. وهكذا، وجدت السيمياء في مدرسة فرانكفورت وتعريف الأيديولوجيا الذي صاغه كارل ماركس في كتاب **الأيديولوجيا الألمانيّة** (*L'Idéologie allemande*)، ملهِمَها. أكَّد ماركس في هذا الكتاب أن الأفكار المهيمنة هي أفكار الطبقة المسيطرة، وبهذا لا تتجنب السيمياء الانجرار إلى شكل من الخطاب التنديديّ بالنظام الإعلاميّ، الخطاب الذي تتجاور فيه الاتّهامات «المانويّة»، وحتّى «الفاشيّة»، مع النزعة النخبويّة والوجوديّة للأشكال الثقافيّة. إن النقد الأدبيّ البنيويّ (رومان جاكوبسن، وجيرار جينيت Gérard Genette وتزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، وأمبرتو إيكو) يبحث عن المعايير «الأدبيّة» التي تسمح بتحديد ما هو أدبيّ محض وحقيقيّ (أي تعدديّة المعاني، والنصّ المفتوح) بينما النقد البنيويّ للاتصال الجماهيريّ (رولان بارت، وأمبرتو إيكو) يبحث عن الخصائص الجوهريّة للسرديّات الشعبيّة (التكرار والاختزال المانويّ). وتقدم السيمياء أداة قويّة تحدّد الآليّات المفترضة لتأثير الرسائل. هذه الأداة الغامضة جدًّا لدى أدورنو وهوركهايمر، ليست أصلًا سوى آليّات لتعزيز الآراء: تتمثل الأيديولوجيا في تشفير وتوزيع الرسائل التضمينية التي تعمل على إثبات المعيش كتحصيل حاصل، أو أمر بديهيّ. إنها تغيير

للتاريخ، بمعنى أنها تحوّل علاقات المعنى والقُوَّة في لحظة ما إلى أمر طبيعيّ وعاديّ أي جعل الفضاء / الزمن نهائيًّا. وهكذا، يوجد بعض الانعطاف في العودة إلى نظريّة الثقافة الجماهيريّة، لأن الدفاع في الأيديولوجيا لا يتم من أجل فكرة الإقناع المباشر، بل من أجل تأكيد الأفكار المسبقة[35].

الإدراج الاجتماعي للخطاب

إنّ مزالق مثل هذه المقاربة صارخة. وإذا اقتبسنا من ماركس الصيغة التعبيريّة التي طبقت على بعض متملِّقيه، فيمكن القول إن السيميائيّين يميلون إلى خلط منطق رؤيتهم الأشياء بمنطق هذه الأشياء، فأوّلًا لا يكشف منطق اللّغة بشكل كامل عن أنظمة العلامات الأخرى، ومن المستحيل اختزال الصورة على سبيل المثال في نسق من العلامات غير الظاهرة، فالصورة لا ترمز إلى ما تمثله فقط، بل هي «تشبهه»، وأساس تماثله، وهذا يؤدي إلى القول في بعض الأحيان إن «الصورة خير من ألف كلمة». ويجب على تقاليد البحث المركّزة على الفن التشكيليّ (هوبير داميش Hubert Damish) أو السينما (كريستيان ماتز Christian Metz) أن تُذَكر بخصوصيّة الحوامل التي تدرسها لتبيّن بالتّالي عدم وجود فصل صارم بين التعيين

---

(35) لم يتم تحليل المسار الذي تسلكه الأيديولوجيا لفرض ذاتها أبدًا، لذا بحث بعض الكُتّاب عن تحالف مع المحلّلين النفسانيّين في سبعينيّات القرن الماضي، ما سمح بشرح رسوخها في اللاوعي، وأدّى إلى نماذج محبطة من السلوكيّة أو التحليل النفسيّ الفرويديّ، وإلى وجود قوى ظلاميّة وقويّة جدًّا.

t.me/ktabpdf

مكتبة

والتضمين. ويجري النزاع على التأويلات أيضًا حول ما يعتبر أمرًا بديهيًّا أي على المستوى التعيينيّ. من الصعوبة بمكان قبول التميز الأساسيّ بين الدالّ والمدلول، وهو التقسيم الثنائيّ المُطَمْئن الذي يدفع إلى الاعتقاد بالواقع الموضوعيّ. إن العثور أخيرًا على نصوص دو سوسير غير المنشورة، والمعنونة **الماهية المزدوجة للسان** (*De l'essence double du langage*)، يبيِّن أن مؤسس الألسنيّة توصل إلى هذه الخلاصة التي تقرّبه من بيرس، «في اللسانيّات، يمكن المرء أن يتساءل أن كانت وجهة النظر التي نرى منها الشيء ليست كلّ شيء، وبالتالي لو انطلقنا من وجهة نظر واحدة لشيء ما ملموس، فما من شيء آخر سوى وجهات نظرنا المتعدّدة إلى ما لا نهاية».

وتطرح قلةُ تقدير كفاءة الجمهور السيميائيّة، أو بالأحرى عدم تقويم إجابات الجمهور عما يُفْترض أنه يعاني منه، السؤالَ حول مكانة الباحث، التي ترتبط بتحليله النصّ من الداخل، وبأشكال استبطان النظر الذي يملكه عن العالم الاجتماعيّ. أخيرًا، تسجل البنيويّة والسيمياء إخفاقَ البحث عن نظريّة الأنواع الأدبيّة المحضة، والبحث عمّا هو أدبيّ والمعايير التي تميز الثقافة الأصيلة عن الثقافة الجماهيريّة، اللّتين يُعتقد أنه يمكن اكتشافهما في طبيعة مخفيّة، طبيعة اللّغة. إن جهد البنيويّة والسيمياء يترجم وجود أسطورة راسخة في الأوساط الأدبيّة تتمثل في الاعتقاد بالتفوُّق الجوهريّ لنوع ثقافيّ على آخر (الأدب الكلاسيكيّ الذي يُدَرِّسانه ويقدّرانه)، وتفوُّق قسم من النّاس (المثقفين) على آخر («الحشد» والبرجوازيّة الصناعيّة التي تؤذي الوعي بواسطة «صناعتها الثقافيّة»).

مكتبة t.me/ktabpdf

إنّ انهيار البارادیغم السيميائيّ عبَّر عنه مروِّجوه بوضوح، فرولان بارت ينفتح على نظريّة اللذّة الأدبيّة في **لذّة النصّ** (*Le Plaisir du texte*) (1973)، وهو نصّ يضع القارئ في قلب التحليل وليس في نظُم العلامات. إنه ينقد بشدّة الأيديولوجيا الأدبيّة المثاليّة بتدمير أسطورة الكاتب والكتاب (مع ميشال فوكو في الوقت ذاته). وتُعدّ الأسطرة أساس الوهم بالسمو المطلق لثقافة على أخرى، نظرًا إلى فكرة الوجود الخالص للنصّ، ووجود وحدة الأعمال الأدبيّة وكُتّابها التي يجب تدريسها باستمرار في قاعات الدَّرْس. لكن بارت، يبتعد مع مرور الوقت، عن افتراضاته السيميائيّة ودراسة وسائل الإعلام التي يعترف بأنه لا يقدّرها، ويُعَدُّ ميلُه الضعيف إلى السينما أو الشريط المرسوم في آخر المطاف عائقًا، لأنه لم يسمح له باستكمال لاهوته الأدبيّ السلبيّ (والضروريّ أحيانًا) باللاهوت الإيجابيّ للأشكال الجديدة للثقافة. إزاء تطوّر هذا التيار، يجب اعتبار شكل أمبرتو إيكو الحِرباوي مركزيًّا، إذ انخرط في السيمياء والتحليل الأدبيّ في آن، بيد أنه توقع مبكرًا تغييرًا في هذا البارادیغم باستعداده الكامل لتقدير بعض أشكال «الثقافة الجماهيريّة» بعيدًا عن النقد الجامح والمُتبدِّل. ويقوم أمبرتو إيكو بتعميق نظريّة اللّغة بإدماجها في مختلف التقاليد مع التشكيك الجزئيّ في إمبرياليّة تأويل الباحث. إن تعدد التخصصات ومناهج تحليل إنتاج المعنى يتجسد عبر انفتاح السيمياء على المنطق وتاريخ الفن أو البلاغة، ما يؤدي إلى انفجار العلامة التي حُكِم عليها بأنها جامدة جدًّا وعاجزة عن الكشف عن تعقد الأفعال التأويليّة. وبالمناسبة، فقد اعتُبر تأويل الأعمال «الشعبيّة» فعلًا منفتحًا، فأمبرتو

t.me/ktabpdf مكتبة

إيكو، الكاتب الذي يمارس التفكُّر، يستخدم أيضًا أدب المثقفين وأدب عامّة النّاس للحديث عن السيمياء، ويستخدم السيمياء للحديث عن متعة القراءة. إنه ناقد حصيف لجويس (Joyce) وللشعر الإيطاليّ، ولروايات القرن التاسع عشر المتسلسلة، ولبرامج التلفزيون، وأفلام الكرتون المسماة السنافر(*) (Schtroumpfs) أيضًا. إذًا، لقد شُقَّ الطريق إلى الوصف الشاعريّ، والبلاغيّ وغير النقديّ للبرامج الأقلّ تقديرًا. وتمركز الوصف في فرنسا وإيطاليا على موضوع التلفزيون منذ تسعينيّات القرن الماضي (قام غيوم سوليز Guillaume Soulez، على سبيل المثال، بمقارنة مذيع نشرة الأخبار بالخطيب في العصور القديمة) وبعد «اكتشاف» السينما (أعمال فرانسوا جوست François Jost التي سارت على خطى كريستيان ماتز)، ثم تمحور الوصف منذ فترة قصيرة على بناء مواقع الويب. على صعيد آخر، تبتعد السرديّات من جهتها عن جمود نماذج غريماس في البحث الأنغلوساكسونيّ (Currie, 1998) والفرانكوفوني (Lits, 1997, Arquembourg et Lambert, 2005, Fleury-Vilatte, 2003). وتقترب من التيارات الظاهراتيّة (الفينومولوجيا) والتأويليّة (من خلال أعمال بول ريكور Paul Ricœur) من أجل الأخذ بالاعتبار مطاطيّة التأويل.

(*) السنافر: سلسلة من أفلام الكرتون البلجيكيّة، ابتكرها «بيو» (Peyo) في 1958. تروي مغامرات شعب من الكائنات الصغيرة جدًّا التي تسكن في قرية من الفطريّات وسط غابة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

أخيرًا، يقضي أمبرتو إيكو على الإحالة إلى فكرة انغلاق النُّصوص والآليّات الخطيّة للتبادل، بتدمير العلاقة السيبرنيطيقيّة القائمة بين المرسل والمتلقّي: فالرسالة مُرَمّزة محليًّا دائمًا، وفق معارف المتلقّي. إذًا، لا يقتضي الأمر معرفة ما إذا كان المتلقّي قد تسلمها أو أن الرسالة فقدت بعض مكوناتها أثناء نقلها وبثها، بل يحتاج إلى التساؤل دائمًا عن مآلها، وعن إعادة بنائها، أو بالأحرى عن اشتراك القارئ في بنائها. هذه الفكرة التي وردت في سبعينيّات القرن الماضي في **معاهدة السيمياء العامّة** (*Trattato de semiotica generale*) كانت لها تبعات كبرى، لكنها مازالت موضع تفكير بمصطلحات المدوّنات (وكأن المتلقّي يملك نظامه الخاص باللّغة) وليس انطلاقًا من التموقعات الاجتماعيّة. وتتوج هذه الفكرة بالذرائعيّة، التي تشكل التطوّر الأخير للألسنيّة / السيمياء، وبالتالي حدودها.

التحوّل التداوليّ

تدرس التداوليّة العلاقة بين اللّغة ومستخدميها، والخطابات وسياقاتها، ويتم التفكير فيها كتجاوز للدراسة النحويّة والسيميائيّة بعد خيبة البرامج الصلبة التي تمثلها اللسانيّات البنيويّة، والنَّحْو العام، وسيمياء الاتصال الجماهيريّ. إن أصول هذه التداوليّة وتطوّراتها متعدّدة، لذا يصعب تقديم عرض موحد لها. وبالإمكان أن نلتمس إرادةً لفهم العلاقة التي يقيمها متحدثو اللّغة الفعليّون في البحث عن الفلسفة التحليليّة (بقيادة كرناب Carnap، وفريغه Frege، وراسل Russell)

أي في لغة منمذجة في شكل برهان رياضيّ، ثمّ في إخفاقها. وأخيرًا، في تحوّل الفلاسفة إلى تحليل اللّغة العاديّة. ويشكل البحث النفسانيّ والاجتماعيّ والبيداغوجيّ مصدرًا ثانيًا: لقد طور كلٌّ من غريغوري بيتسون وبول فتزلافك فحص الأبعاد المرَضِيّة أو العلاجيّة للعلاقة باللّغة، والبُعد الاجتماعيّ للّغة. وعرض بيار بورديو أو باسيل برنشتاين (Basil Bernstein) عدم مساواة مختلف الأوساط الاجتماعيّة في امتلاك مصادر اللسان الذي يُسْتعمل في الصراع من أجل السيطرة الثقافيّة كاعتراض أساسيّ على اللسانيّات المثاليّة. لقد شكّك بعض اللسانيّين مثل أوسوالد ديكرو (Oswald Ducrot)، وبعض المختصّين في البلاغة مثل شيم بيريلمان (Chaïm Perelman) في الفئات التي وُضعت انطلاقًا من الحقل ذاته لتحليل الخطاب.

يجسد مؤلّفان على وجه الخصوص، التحوّل التداوليّ، الأول هو الأب المؤسس تشارلز ساندرز بيرس، الذي سبق أن استعمل هذه العبارة في بداية القرن، خلافًا للتقليد الثاني، الذي كان متأثرًا بقراءة منجزه. إن رغبته في تأسيس علم عام للتدليل، الذي يخلط بين الفكر والإدراج في العلامات، يدشن نظريّة تربط العلامة بالمُؤَوِّل (لقد تم تصوره كعنصر تكوينيّ للعلامة ذاتها) وبمن يقوم بتأويلها (الشخص الإمبيريقيّ). وقد أصبحت هذه النظريّة مطلوبة اليوم عالميًا، وبخاصّة من التيار السيميائيّ ـ التداوليّ في فرنسا وإيطاليا، وهو يحاول التوفيق بين التحليل الداخليّ للنصوص أو الأعمال السينمائية، ومراعاة تطلعات المتلقّين أو ما ينتظرونه من هذه النُّصوص أو الأعمال كما يتصورها المنظِّرون. والأب المؤسس

t.me/ktabpdf مكتبة

الثاني هو لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein)، الذي يظلّ تطوّره الفلسفيّ ذا مغزى في إعادة التوجيه نحو الاستخدامات، بنقائه وتبكيره، ففي مؤلَّفه المعنون رسالة منطقيّة فلسفيّة *Tractatus* (*) (*Logico-philosophicus*، يمثل فيتغنشتاين في مرحلة أولى اللّغة بمنطق القضايا، واضعًا كل ما لا يقوله هذا المنطق في خانة ما لا يمكن وصفه، محتذيًا في ذلك براسل، فالصوفية هي حدود المعنى «كل ما لا يمكن قوله يجب السكوت عنه». وفي مرحلة «ثانية»، جمع فيتغنشتاين كتاباته ونشرها في مؤلف بعنوان **تحقيقات فلسفيّة** (*Investigations philosophiques*) (1953)، وكان مسكونًا بفكرة الحدود التي تبرهن، بطريقة ما، فراغَ البرنامج المنطقيّ الذي يجعل علمًا صوريًّا معيّنًا هو الدليل الوحيد لفهم تبادل العلامات، وسلّم أخيرًا بأنّ الثرثرة سمة الأفراد، بمعنى أنهم قادرون على التعبير من دون الالتزام فقط بإكراهات النَّحْوِ التي تسلم بها النظريّة، والعلامة لا توجد في لغة كونيّة لكن في أوضاع الفعل، وليس المعنى مستقلًّا أبدًا عن السياق. والبيئة التي تدغم فيها الرسالة تسمى «لعبة اللّغة»، ثمّ «شكل الحياة». ويقدم لودفيغ فيتغنشتاين قائمة متفرقة وغير متجانسة من الكلمات والجمل من أجل تأكيد المفاجأة التي يمكن أن يشكلها الاستخدام الدائم: أَمَرَ أو أطاع، وَصَفَ، صاغ فرضيّة، عرض

(*) صدر هذا الكتاب باللُّغة الألمانيّة، ثم ترجم إلى اللُّغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة. لقد حافظ المترجم جيل غاستون غرونجيه (Gilles Gaston Granger) على العنوان الأصليّ بلغته اللاتينيّة في طبعته الفرنسيّة الصادرة عن دار غاليمار، باريس، 1993.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بواسطة الجداول، اخترع قصة، مَثَّل في المسرح، شكر، لعن، حيّا، صلّى... وبالعودة التنازليّة لتسييج المعنى، يهمل حتى التنظيم النسقيّ لمصلحة هدف وصفيّ بحت ومحايد نظريًا. إن الجهد التنظيريّ والانشغال بجرد «أفعال الخطاب» وغلق القائمة، تميِّزُ ـعلى العكس من ذلكـ بحوثَ جون أوستن (John Austin)، ثمّ جون سيرل القريبين من التقليد الفيتغنشتايني: يقترح الأول التمييز بين نظام إخباريّ (ملفوظات «قوليّة» إخباريّة) ونظام إنجازيّ (الملفوظات «المتضمّنة في القول» و«المؤثّرة بالقول») ويسعى إلى توضيح هذا التمييز بواسطة التعابير اللسانيّة المستمدّة من الحياة اليوميّة. يحترم الخبريّ التمييز بين الكلمة والشيء، في حين يخلط الإنجازيّ بين الواقع والعلامة: «أعَمِّدُك»، أو إصدار أمر هو نتاج عالم لحظة الحديث عنه أي الفعل بالقول.

لقد شكل مُؤَلَّف جون أوستن نقطة انطلاق البحوث المعقدة حول اللّغة وقوتها، ومحاولات تفكيك أفعال اللغة إلى عناصر بسيطة، غير قابلة للاختزال وتؤوّل أيضًا إلى مفارقات: فليس من اليسر، دائمًا استبانة أنظمة الأفعال التي تتقاطع غالبًا، أو التي تعتمد على سياق بث الكلام على أوسع نطاق.

في ما هو أبعد من الحدّ: الاجتماعيّ

تكمن حدود تقاليد البحث هذه، التي إليها يعود الفضل في الانفتاح على العلاقة بالمتحدثين، في كونها ـ للمفارقة ـ بعيدةً عنهم. تسأل التداوليّة الفلسفيّة اللغة اليوميّة فقط انطلاقًا من وضعيّات

t.me/ktabpdf مكتبة

تبادل الرسائل في الحياة اليوميّة كما يتخيّلها الباحثون. وتكتسب هذه الملاحظة أهميّة عندما يعبِّر عنها سيميائيّ مثل إليسيو فيرون (Eliseo Verón) في مؤلَّفه **التدليل الاجتماعيّ** (*La Sémiosis sociale*) (1987): «من وجهة نظر تقنيّة، لم يكن منظِّرو أفعال اللغة بالمبتكِرين، بل قاموا بمثل ما يفعله السيميائيّ الشكليّ دائمًا في تحليله، وهو اقتراح جمل على القارئ وتأويلها». ويرى فيرون أن الخلاصة التالية «لا توجد تداوليّة لأن المتحدثين لا يتلفظون بجمل تفرض ذاتها في خضم النشاط اللغويّ، بل يخطبون». وبالطريقة ذاتها، يجب أن نلاحظ أن السيمياء التداوليّة للاتصال الجماهيريّ تأخذ في الاعتبار المتلقِّي عبر تخيّل ردود فعله المتعدّدة إن أمكن، من دون أن توجّه إليه أي سؤال أو تلاحظه. إنها تظلّ محدودة بمجهولَيْن: المجهول الأول هو ديناميكيّة إنتاج المعنى (مَن يفعل ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟). إنه سؤال تنظيميّ (في مجال السينما والعلاقات بين المهن والمنتجين والمخرجين والممثلين والموزعين... إلخ) وشخصيّ في الوقت ذاته (ماضي المؤلفين ومسارهم المهنيّ). والمجهول الثاني يتمثل في ديناميكيّة التلقّي. إن السيمياء التأويليّة تقبض على شظايا المعنى (نصّ، صورة، فيلم)، ومقطع من سياق مع أخذ هذا السياق بالاعتبار من دون التمكن من استخراج بُنى المعنى الداخليّ لهذه الشظايا، فهذا ما يدعمه أمبرتو إيكو باستناد السيمياء إلى شاعريّة أرسطو. وهناك طرق للكتابة، وبُنًى سرديّة ثابتة لا تتغير. إن رصد هذه الثوابت ممكن لكنه لا يفصح عن أي شيء من المعنى في مؤلَّف ما، ولا يقوم سوى بوضع مؤشرات

t.me/ktabpdf مكتبة

على الجوانب الشكليّة. والخطأ المألوف يكمن في الاعتقاد بإمكان إقامة علاقة بين البُنى السرديّة والمعنى والجمهور والمواقف الثقافيّة والاجتماعيّة. تَبْني السيمياء بالأحرى نماذج لتأويل محتويات الاتصال. ولا تُعدّ منهجًا وحيدًا لفحصها، وهذا يعني أنها لا تعبر عن طموح إلى احتكار الفعل التأويليّ لهذه المحتويات، ناهيك بالحديث عن «تأثيرها» على الجمهور أو عن «قصديّة» المؤلفين. إذًا، السيمياء منهج يجب أن يكون دائـمًـا مرتبطًا بافتراضات الباحث الأيديولوجيّة. إنها ذات صلة بالرؤية لما هو اجتماعيّ، وبالسوسيولوجيا الضمنيّة.

أن التحوّل التداوليّ هو إذًا تحوّل اتصاليّ، وليس تحوّلًا إمبيريقيًّا حقيقيًّا، ولا حتى تحوّلًا حواريًّا دائمًا. وبعيدًا عن توظيف مساهماتهما العلميّة الفعليّة، يُسْتخدم مؤسّسا التداوليّة الكبيران، في الغالب، كذريعة في بعض بحوث اللسان، حتى لا تتطرق إلى التجارب الاجتماعيّة. إن الرجوع إلى فيتغنشتاين المُكَلَّل بكلّ هالة الفيلسوف والمنطقيّ، يسمح بتجنب الإحالة إلى أعمال عالم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا التي تبدو أقلّ نبلًا لكنها أدت عمليًّا إلى دراسة «أشكال الحياة» منذ بداية القرن الماضي. أما الإحالة إلى بيرس، فقد سمحت لها بالتعبير عن انفتاح مبدئي على السياق (التوسل إلى التداوليّة)، وعدم التنكر للمشروع السيميائيّ (بيرس هو أول من استعمل هذه العبارة)، وترسيخه أيضًا في التقاليد القديمة البديلة لتلك التي أرساها دو سوسير، من دون أن تبتعد بذلك عن تحليل النُّصوص من الداخل. بينما يرى بيرس أن أساس الواقع في

t.me/ktabpdf

مكتبة

آخر المطاف اجتماعيٌّ وليس لسانيًّا. إن فكرة فعل الاتصال، سواء أكان شفهيًّا أم لا، والتي تجعله أقرب إلى عمليّة التبادل من النقل أو الإرسال، أي أقرب إلى رسوخه في «أشكال الحياة» وسياقها، لم تَرسَّخ في علوم اللسان إلا في نهاية القرن العشرين، على الرغم من أنها كانت في قلب كتابات ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) منذ عشرينيات القرن الماضي (بما فيها تلك التي وقعها باسم فولوسينوف (Volosinov) التي طابقت فعل الاتصال على الحوار. وقد ورثها الكُتّاب الماركسيّون الأنغلوساكسونيّون، أتباع «الدراسات الثقافيّة»، الذين يعتبرون الأيديولوجيا عمليّة تبادل دائم وليست فرضًا للأفكار فقط.

والحاصل، أن ما تسميه علوم اللسان بـ«السيمياء» و«التداوليّة» يشكل حدودًا للسيميائيّ من الأنفع الانطلاق منها في البحث. لكن هذه اللسانيّات تسير في اتجاه سلبيّ، لكونها تدرج مسألة اللسان في إطار أوسع. إن إنتاج المعنى ومسألة فعل الاتصال يجب أن تتكفل بهما العلوم التاريخيّة والاجتماعيّة التي تَعتبر اللّغة اللفظيّة والمكتوبة عنصرًا في العلاقة بين البشر فقط، ولا أنموذجًا للعلاقات الإنسانيّة، وترى أن نظام المعنى يشمل نظام الخطاب وليس العكس، وأنّ فهم مستخدم العلامات ومؤوّلها لا يتم انطلاقًا من تكثيفها. لقد وُجِدَت لحظة سيميائيّة في تاريخ نظريّات الاتصال، وتوجد لحظة سيميائيّة تندرج في مقاربة أكثر شمولًا لدراسة أفعال الاتصال والمعنى.

t.me/ktabpdf مكتبة

المراجع:

ALTHUSSER Louis, «Idéologie et appareils idéologiques d'État», *La Pensée*, 151, 1970.

ARISTOTE, *Poétique*, Les Belles Lettres, 1990.

ARMENGAUD Françoise, *La Pragmatique*, PUF, 1985.

ARQUEMBOURG Jocelyne, LAMBERT Frédéric (dir.), «Les récits médiatiques», *Réseaux*, 132, 2005.

AUSTIN John, *Quand dire c'est faire* (1962), Seuil, 1970.

BAKHTINE Mikhaïl, *Le Marxisme et la philosophie du langage. Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique* (1929), Minuit, 1977.

BARTHES Roland, *Essais critiques*, Seuil, 1981.

_____, *Le Plaisir du texte*, Seuil, 1973.

_____, *Système de la mode*, Seuil, 1967.

_____, «Rhétorique de l'image», *Communications*, 4, 1964 (repris dans L'Obvie et l'obtus. *Essais critiques III*, Seuil, 1982).

_____, *Mythologies*, Seuil, 1957.

BERNSTEIN Basil, *Langage et classes sociales. Codes socio-linguistiques et contrôle social* (1971), Minuit, 1975.

BONNAFOUS Simone, JOST François, «Analyse de discours, sémiologie, tournant communicationnel», *Réseaux*, 100, 2000.

BOURDIEU Pierre, *Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques*, Fayard, 1982.

t.me/ktabpdf

مكتبة

Communications, 8, L'analyse structurale du récit (1966), Seuil, 1981.

CURRIE Mark, *Postmodern Narrative Theory*, Londres, Macmillan, 1998.

DEMERSON Guy, «La leçon de Mikhaïl Bakhtine. L'entrechoquement des langues et des cultures», *Esprit*, Mars-Avril, 2002.

ECO Umberto, *Kant et l'ornithorynque* (1997), Grasset, 1999.

_____, *Lector in fabula* (1979), Grasset, 1985.

_____, *De Superman au surhomme*, Grasset, 1993 (1978).

_____, *La Production des signes*, Librairie générale française-Le Livre de Poche, 1992 (traduction partielle du *Trattato de semiotica generale*, 1975).

_____, «Sémiologie des messages visuels», *Communications*, 15, 1970, repris dans *La Structure absente. Introduction à la recherche sémiotique* (1968), Mercure, 1972.

_____, «James Bond: une combinatoire narrative» (1966), *Communications*, 8, L'analyse structurale du récit, Seuil, 1981.

_____, *Appocalittici e integrati. Communicazioni di massa e teorie della cultura di massa*, Milan, Bompiani, 1964.

_____, *L'Œuvre ouverte* (1962), Seuil, 1965.

FLEURY-VILATTE Béatrice (dir.), *Récit médiatique et histoire*, INA-L'Harmattan, 2003.

GOMBRICH Ernst H., *L 'Art et l'illusion. Psychologie de la représentation picturale* (1960), Gallimard, 1987.

GREIMAS Algeidiras J., *Sémantique structurale*, Larousse, 1966.

JAKOBSON Roman, *Essais de linguistique structurale, I, Les fondations du langage*, Minuit, 1963.

JOST François (dir.), «Le genre télévisuel», *Réseaux*, 81, 1997.

_____, *Un monde à notre image. Énonciation, cinéma, télévision*, Méridiens Klincksieck, 1992.

LÉVI-STRAUSS Claude, *Anthropologie structurale*, Plon, 1958.

LITS Marc (dir.), «Le récit médiatique», *Recherches en communication*, 7, 1997.

METZ Christian, «Au-delà de l'analogie, l'image», *Communications*, 15, 1970.

ODIN Roger, «Pour une sémio-pragmatique du cinéma», *Iris*, 1, 1983.

PEIRCE Charles S., *Écrits sur le signe*, Seuil, 1978, traduction partielle des *Collected Papers*, Cambridge, Harvard University Press, 1931-1958.

PROPP Vladimir, *Morphologie du conte* (1928), Seuil, 1970.

RICŒUR Paul, *Temps et récit*, 3 tomes, Seuil, 1983, 1984, 1985.

SAUSSURE Ferdinand de, «De l'essence double du langage», in *Écrits de linguistique générale*, Gallimard, 2002 (inédits).

_____, *Cours de linguistique générale* (1915), Payot, 1972.

SEARLE John, *Les Actes de langage* (1969), Hermann, 1977.

t.me/ktabpdf

مكتبة

SOULEZ Guillaume, «La Rhétorique comme lien entre les théories. L'exemple de la «crédibilité» des journalistes radio et de télévision», in *Actes du 12ᵉ Congrès de la SFSIC*, Paris, Unesco, 10-13 janvier 2001.

TODOROV Tzvetan, *Mikhaïl Bakhtine. Le principe dialogique*, Seuil, 1981.

VERÓN Eliseo, *La Sémiosis sociale. Fragments d'une théorie de la discursivité*, Presses Universitaires de Vincennes, 1987.

WITTGENSTEIN Ludwig, *Tractatus Logico-Philosophicus* suivi des *Investigations philosophiques* (1921 et 1953), Gallimard, 1995.

الفصل التاسع

سوسيولوجيا الممارسات الثقافيّة
الاستهلاك والتلقّي

وسّعت العلوم الاجتماعيّة النظرَ إلى الاتصال بسحبه من إطار التحليل الداخليّ للخطابات، وتحليل أفعال الخطاب، من أجل إيلاء الاهتمام بفاعلي الاتصال الحقيقيّين ونشاطاتهم الإمبيريقيّة. وهذا لا يعني أنها تنفذ إلى نوع من الواقع الآنيّ أو إلى معطًى خام لم تنفذ إليه السيمياء، فلا يمكن أن نكون من المعارضين الحقيقيّين للسيمياء التي تنفصل عن كل شيء.

تنتج السوسيولوجيا والتاريخ، على غرار السيمياء، نماذج تأويليّة للعلاقة بالنصّ أو بالمواد السمعيّة ـ البصريّة ضمن نظريّات العلاقات بين الأشخاص التي تكيّف نتائج التأويل. لكنهما يختلفان عن السيمياء، لاستنادهما إلى معطيات أكثر اكتمالًا ترتكز على خصوصيّات خارجيّة عن إرادة الباحث: حركة البيع، وإجراءات استخدام وسائل الاتصال، والمقابلات مع مستخدميها، وملاحظة ممارساتهم الماديّة. إن البناء الاجتماعيّ للاتصال يتم بواسطة أدوات متنوعة، إحصائيّة ونوعيّة، تتمثل في حصر الاستهلاك والاستخدامات والتلقّي. لقد سمحت معاينة هذه العناصر تدريجيًا، في النصف الثاني من القرن العشرين، بدحض الأفكار المسبقة عن وسائل الإعلام، وذلك بتبيان أن لا وسيلة

t.me/ktabpdf مكتبة

إعلاميّة تحلّ ببساطة محلّ أخرى (على سبيل المثال لم تقضِ الصورة على ما هو مكتوب)، أو لا يمكن اختزال استخدامات التلفزيون في ما هو سلبيّ. وقد سمحت المعاينة بتعميق النقاش حول تحوّلات الثقافة المعاصرة تحديدًا بطريقة حاسمة، وذلك برسم نماذج من العلاقة بين وسائل الإعلام والثقافة والسلطة في ظل التوتّر القائم بين سوسيولوجيا السيطرة (بيار بورديو) والأبعاد الاجتماعيّة والثقافيّة لأشكال الثقافة والمعتقد (ميشال دو سارتو).

الاستهلاك: تراتبيّة الممارسات الثقافيّة من منظور بيار بورديو

شكلت السوسيولوجيا الثقافيّة الفرنسيّة قُوَّة دفع، فكانت أعمال بيار بورديو ذات الصلة بأعمال جان كلود باسرون (Jean-Claude Passeron)، ثمّ تلك التي أنجزها غيرهما متميزةً، لأنها جدّدت هذه الدراسات في ستينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته، انطلاقًا من الخلاصات التي توصلت إليها نظريّات المشروعيّة لماكس فيبر، والعنف الطبقيّ لكارل ماركس، والخيال لإميل دوركايم وليفي ستروس (انظر على وجه الخصوص كتاب بيار بورديو **الخطوط العريضة لنظريّة الممارسة** *Esquisse d'une théorie de la pratique*, 1970). لقد تتلمذ بورديو على يد ليفي ستروس وريمون أرون، فزاوج في بدايته بين النظرة الأنثروبولوجيّة ونقد المجتمعات الصناعيّة أي البنيويّة الفرنسيّة التي توصل إليها إميل دوركايم، والاهتمام بعلم الاجتماع الألمانيّ الفيبريّ، وأضاف إليهما وجهة نظر ماركسيّة. وحتى نعيّن أبعاد منجز بورديو، من الضروريّ أن نلاحظ

t.me/ktabpdf مكتبة

أنه يندرج ضمن امتداد علم الاجتماع التربويّ النقديّ الذي يبرهن وجود آليّات لإعادة الإنتاج الاجتماعيّ التي تعزّزها المدرسة: إن الذين يعبرون بشكل أفضل (داخل النظم الدراسيّة) وعلاقتهم ودّية بالمكتوب، وتكون الكتب المصفوفة فوق رفوف مكتبات الوالدين في متناولهم، هم الذين ينجحون في الدراسة أكثر من غيرهم. والتحكم في المدوّنات التي تتطلبها المؤسسة المدرسيّة والمنقولة سلفًا إلى الأسرة والزملاء بواسطة «بيداغوجيا مخفيّة» (وفق ما عبّر عنه باسيل برنشتاين الذي أثر تأثيرًا واسعًا على هذه الدراسات)، يُمَيِّز «ورثة الثقافة» عن عامّة النّاس الذين حُرموا من التعليم (الورثة، *Les Héritiers*, 1964). وقد تم تعميم هذه الملاحظة على حقل الثقافة بصفة عامّة، والتي لا تشكل المدرسة سوى حلقة صغيرة فيها. لقد رأى بيار بورديو في الثقافة (بمعناها الأكثر نبلًا) مجموعةً من المخيالات المهيكلة والرموز المشتركة، والتي يعترف بشرعيّتها الجميع لكنْ ثمّة عدم تكافؤ في امتلاك المدوّنات المؤهِّلة للنفاذ إليها واستخدامها بشكل جيّد من الجميع، فالثقافة ـ على الأقلّ تلك المعترف بها ـ تُعَدّ طريقًا يسمح بالنفاذ إلى أشكال من المعرفة والمتعة، لكنها أيضًا نسق من الأفكار والأعمال تفرضها الأقليّة على الغالبيّة، نظام يعتبر طبيعيًّا وعاديًّا ومنيرًا، فعلم الاجتماع الكميّ، والسوسيو ـ ديموغرافيّ تحديدًا، مجنّد للبرهان على هذا النظام (Pierre Bourdieu وآلان داربل Alain Darbel، حب الفن *L'Amour de l'art*, 1966). إن ورثة الثقافة يرتادون المتاحف والمكتبات قبل غيرهم، وزيادة العَرْض الثقافيّ، وحتى مجانيّته، لا تسمح قَطّ بجذب الجمهور

t.me/ktabpdf مكتبة

الـذي دأب على العيش بمنأى عنه: فهذا الجمهور لا يملك الإمكانات المؤهّلة لتأويل هذا العرض تأويلًا مناسبًا، ولا الكفاءة الفنيّة والجماليّة والتعليميّة التي وحدها تسمح بتذوق الأعمال الفنيّة المتميزة، والتي تُمَيّز بدورها من يستسيغها. إن الإحصائيّات تبرهن، بشكل متبادل، أن الجمهور المتوسط والشعبيّ يبحث أوّلًا عن محتويات وسائل الإعلام غير المتمايزة بشكل واسع، وتلك الخاصّة بـ«الفنون الوسطى» (التي هي بصدد كسب المشروعيّة)، مثل الصورة الفوتوغرافيّة (بيار بورديو وآخرون: **فن متوسط، عن الاستخدامات الاجتماعيّة للصورة الفوتوغرافيّة**، *Un Art moyen. Essai sur les usages sociaux de la photographie,* 1965).

قام بورديو بتحليل نوعيّ للممارسات التي تربط المنظومات الاجتماعيّة الموروثة «التطبعات» (les habitus)(*) بالأذواق في مؤلّفه

(*) يتفق معظم الذين نقلوا منجز بيار بورديو العلميّ إلى اللُّغة العربيّة على ترجمة (habitus) بـ«التطبُّع»، إلا أن أحمد حسان في ترجمته مجموعة من مقالات بيار بورديو وحواراته التي نشرها في كتاب بعنوان **بيار بورديو بعبارة أخرى، محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسيّة**، الصادر عن ميريت للنشر والمعلومات بالقاهرة في 2002، يؤكد أنه تُرجم أيضًا بالـ«كوناتوس» (conatus) «النزوع». وتعمد بيار بورديو شرح معناه بطرق مختلفة، نكتفي بذكر واحدة وردت في متن المرجع المذكور طبعة دار مينوي (Minuit) الفرنسيّة، السنة 1979، صفحة 190، إذ يؤكد أنه «المبدأ التعميميّ للممارسات الموضوعيّة المصنفة، ونظام لتصنيفها في الوقت ذاته، ففي العلاقة بين القدرتين يتحدد التطبع: القدرة على إنتاج الممارسات والأعمال المصنَّفة، والقدرة على تمييز هذه الممارسات وهذه المنتجات (الذوق) التي يتشكل فيها العالم الاجتماعيّ المتمثل أي فضاء أساليب الحياة».

t.me/ktabpdf مكتبة

التمييز (*La Distinction*) (1979). وقسمها إلى ثلاث مجموعات كبرى: (المثقفة والمتوسطة والشعبيّة). وجعل المسافة التي يتّخذها المستهلك من المحتويات الثقافيّة مبدأ أساسيًّا في هذا التصنيف، حيث تم التركيز على الجوانب الشكليّة لأنها الأقلّ حدسيّة وتتطلب مُدّة زمنيّة أطول لاكتسابها، فالأوساط المثقفة تمنح، في هروبها الدائم إلى الأمام، شرعيّة لقنوات الثقافة، حتى تتجنب بخس قيمتها: الشعر، والموسيقى، والرواية، وهي القنوات التي ظلّت عسيرة على الفهم عبر التاريخ، لتبقى منغلقة على عدد من النّاس. أما الفئة المتوسطة، فتعبّر عن «إرادة ثقافيّة جيّدة»، وتعمل على متابعة المنتجات الثقافيّة بنوع من التأخير وعدم التوفيق: إنها تخون باستمرار مستواها المتدنّي وقلة «تربيتها» على الذوق المهيمن «لغياب ذوقها». وعلى الأوساط الشعبيّة أن تكتفي بتحمل مصيرها، وترضى بالمواد التي «أُجْبِرت» على استهلاكها، لضعف دَخْلِها، وضيق وقتها، وقصور كفاءتها الرمزيّة. وجماليّة هذه الأوساط تُختصر في « الذوق الضروريّ»، وتبعيّة الشكل للوظيفة، والانخراط الساذج في المحتويات، والامتثال. وتضامن الطبقة الاجتماعيّة وحده يزودها بالمعنى من التجربة المعيشة المشتركة.

تعدّ هذه السوسيولوجيا المنددة بالنظام الرمزيّ للبرجوازيّة المثقفة، ردًّا على الخطابات الأثيريّة(*) (éthérés) عن فكرة الثقافة المضادّة والثقافة البروليتاريّة الأصيلة، وحتى على الثقافة المتوسطة المشتركة التي أضحت موضة في ستينيّات القرن الماضي. فلا توجد استقلاليّة

(*) نسبة إلى الأثير بمعناه الكيميائيّ أي السائل العضويّ الذي لا لون له ويستخدم لتذويب المواد العضوية والتطهير والتخدير أيضًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

للممارسات المترابط بعضها ببعض بفعل التصنيفات الاجتماعيّة، ولا يوجد استظهار خارجيّ مطلق للمجموعات الاجتماعيّة والأفراد. إن وجود الثقافات الشعبيّة والفلاحيّة والبروليتاريّة ضعيف، إلى درجة أنه يترجم أوّلًا الهيمنة التي تُمارَس عليها. وليست الثقافة المضادّة في الغالب سوى طبعة معاصرة للثقافة المُكَرّسة يحملها الشباب المتعلم والمتمرد ضد من هم أكبر منه سنًّا، ثمّ تتحوّل إلى فن مُكرَّس وعقيدة ثقافيّة عندما تنجح في فرض ذاتها. بكل تأكيد، توجد محاولات لتأسيس «فن متوسط»، لكنه فن اعتباطيّ يظلّ «مدموغًا» بأصوله البرجوازيّة الصغيرة. وأخيرًا، لا توجد ثقافة مشتركة حقيقيّة، لأن استخدام المنجزات والمواد الثقافيّة ذاتها وأدوات الاتصال عينها تتبايَن باختلاف أخلاقيّات الطبقات الاجتماعيّة وأذواقها: فالمثقف يهتم في الغالب بجماليّة الصورة الفوتوغرافيّة التي تُظهر تَشَقّقَ يدَي إمرأة بينما يهتم العامل بمحتوى هذه الصورة، بتاريخ هاتين اليدين المزعوم. فبهذا المعنى ينبغي فهم نظريّة التلقّي، التي يجب أن تكتفي بتعيين تعابير التطبع: «يساهم كل متلقّ في إنتاج الرسالة التي يتلقاها، ويقدرها، ويضيف إليها كلًّ ما يصنع تجربته الفريدة والجماعيّة» (ماذا يعني أن نتكلم *Ce que parler veut dire*، 1982).

تكمن قُوَّة هذه النظريّة في ربطها معنى الممارسات الثقافيّة بالمكانة الاجتماعيّة. إنها تضع المجموعات الاجتماعيّة في قلب الدراسة، رافضة كل حتميّة تقنيّة، مثلما فعل لازارسفيلد، فما هو اجتماعيّ «يشفِّر» علاقات الاتصال وليس العكس، فالاجتماعيّ ذو بعد رمزيّ مشترك، ويشكّل في الوقت ذاته عنفًا مخصوصًا جماعيًّا،

t.me/ktabpdf

مكتبة

واعترافًا بشرعيّة هذا العنف من طرف الذين يمارَس عليهم. ينطلق بيار بورديو من الافتراضات الماركسيّة مثل أدورنو، لكنه يرفض الاحتفاء الساذج الذي يوليه هذا الأخير لفلسفة الأنوار ونخبويّته المتغطرسة. وتزيل بنيويّة بورديو الوهم عن الثقافة المكرّسة، إذ تؤكد أن الثقافة والميديا فضاءان متماسّان تعبِّر فيهما الهيمنة الاجتماعيّة عن ذاتها، هيمنة الحائزين أكثر على رأسمال «لسانيّ» ورأسمال «ثقافيّ» على من يملكون نصيبًا أقلّ، أو المحرومين منهما. لقد تجنب بورديو، منذ البداية، المَطَبّ المزدوج، مطب تيار الوضعيّة وتماثل الصناعات الثقافيّة، إذ بيّن أن وجهة نظر الفاعلين جزء من عالمهم أي أنها ظواهر الاتصال. وإن حدثت هيمنة على المعوزين ثقافيًا، فالسبب لا يعود بالضرورة إلى أنهم يستهلكون بأنفسهم المواد الثقافيّة الأقلّ أهميّة، بل لأنهم يستهلكون المواد التي يقدّر واضعو المعايير أنها أقلّ أهميّة وشأنًا وتم تجاوزها. إن الخيال العلميّ هو الأدب المعاصر الأشدّ انفتاحًا على التساؤلات الإنسانيّة الجوهريّة والمعاصرة، لكنه يظلّ نوعًا أدبيًا مهيمَنًا عليه لأنه لا يستجيب للمعايير الشكليّة للذوق الجيّد الذي يقصي كلّ أوليّة للمحتوى على الشكل، وكل استملاك للمرجعيّة[36]. فالاستماع إلى معزوفة شتراوس (Strauss) أو إلى الموسيقى الكلاسيكيّة المحدّثة على يد الموسيقيّ أندري ريو André Rieu لتلائم ذوق العصر الحاليّ) لم يعد فعلًا مميّزًا في

(36) تعتبر المسلسلات التلفزيونيّة التي تعالج المخدرات وشجون الحب والنزاع داخل الأسر ضعيفة فنيًا وغير واقعيّة، فالفن يجب أن يهتم بالمشاكل الإنسانيّة «الكبرى» الحقيقيّة في بواطنها وتجريدها، وجعلها مادة للتأمل.

مكتبة t.me/ktabpdf

القرن العشرين، بل بالعكس، فهواة الموسيقى «الحقيقيّون» ملتزمون بأعمال « أكثر تشدّدًا». وليست محتويات وسائل الإعلام بالضرورة أكثر تكرارًا وتواترًا من الأعمال الثقافيّة المتميزة (يقدم بيار بورديو الموسيقى الغريغورية كمثال عن ذلك). وليس الترديد بالضرورة عديم الفائدة، والجمهور لا يتماثل مع العمال الذين يعملون في الإنتاج الصناعيّ المتسلسل. وليست العلاقات القائمة بين الجمهور والمواد الثقافيّة التي يستهلكها علاقات جوهريّة، وإنّما هي في بناء دائم، وهذا يختلف عمّا نلاحظه في فلسفة أدورنو.

مشكل المركزيّة الإثنيّة الثقافيّة

إنّ مشكل هذا المخطط أنه يتوج برؤية دائريّة تعيد إدخال التيار الوظيفيّ الذي تم استبعاده سلفًا، فلكل تطبُّع ما يناسبه من استهلاكات ثقافيّة، ولكل استهلاك ما يناسبه من تلقٍّ للمواد الثقافيّة وفق الطبقة الاجتماعيّة والتطبُّع: إن العالم الاجتماعيّ ماكنة لإعادة إنتاج الاختلافات. وعلى رغم كون هذا المخطط انعكاسيًّا، إلا أنه يؤدي أيضًا إلى تقويم يندّد بالاستهلاك الثقافيّ، فالنخب الثقافيّة تملك حرية تنويع استهلاكها الثقافيّ وأذواقها، بشرط أن تحتفظ دائمًا بمسافة تُبعدها عن بقيّة الجماعات الاجتماعيّة، بينما في الطرف الآخر من الطيف الاجتماعيّ، يؤدّي العنف إلى تغييب الاختيار الذي يُفضي إلى امتثال النخب إلى ما هي عليه اجتماعيًّا. لقد رأى بيار بورديو في كتابه التميز، أن وسائل الإعلام مشربٌ ترتوي منه أسواق المنتجات المنمّطة، يقودها «مهندسو الإنتاج» الذين يخططون لأذواق

t.me/ktabpdf مكتبة

الخاضعين للسيطرة أو لغياب أذواقهم. ويكمن سبب هذا التراجع في افتتان نظريّة الشرعيّة الثقافيّة بالأنموذج «الثقافيّ» الذي تنتقده على رغم أنها تُذكّر بطبيعته التاريخيّة. لقد أراد بيار بوديو أن يندّد بالعقيدة المدرسيّة، وأسطورة الأعمال الكبرى والمؤلّفين الخالدين، لكنه ظلّ أسيرها بإفراطه في تقدير قوتها وبقراءة ما يعارضها أو ينزاح عنها بعبارات الإخفاقات أوعدم البراعة. وقام بيار بورديو بجرد كلّ الحيل التي تستخدمها النخب من أجل عدم اختلاطها بالشعب حتّى وهي تستهلك المواد الثقافيّة، وذلك من خلال تحليله الحاد لإنتاج الثقافة الكلاسيكيّة والعلاقات بين استهلاكها وعدم استهلاكها: عدم استهلاكها بالطريقة ذاتها (مشاهدة فيلم شعبيّ بنوع من السخرية)، رَكْمُ الاستهلاك الثقافيّ بانتقائيّة (الاستماع إلى موسيقى الروك «بجانب» الموسيقى الكلاسيكيّة، وهذا لا يقوم به موسيقيّو الروك «الشعبيّ»)... ويصف بورديو بشكل متبادل، تأثير الهيمنة الثقافيّة على إستراتيجيّات المؤلفين الذين عفّى عليهم الزمن (ادعاء متفاقم أمام الشعور بالفشل الدائم)، كما يصف بورديو التخبط والإحراج الذي يعاني منه الجمهور ذو الثقافة المحدودة، وأخيرًا يحلّل الطريقة التي تلوي بها الأيديولوجيا عنق ممارسات المهمَّشين وتزيد في توتّرهم، وتعزّز ممارسات الصفوة.

وبعيدًا عن تأثير الأيديولوجيا ـ وهو المسمى الآخر لأيديولوجيا الثقافة الجماهيريّة ـ لم يُفْحص واقع الممارسات الثقافيّة. لقد أخفق بيار بورديو كليًّا في إعطاء معنى لهذه الممارسات التي تقوم بها الفئات الوسطى والشعبيّة التي يُنظر إليها نظرة انتقاصيّة، ومن زاوية الخطأ والحرمان: تبدو هذه الممارسات جوفاء أو نسخة مشوهة

من الممارسات العالمة أو المثقفة. ويعطي بورديو الأولويّة لفكر ماركس انطلاقًا من التراث النظريّ الذي يستند إليه، عندما يلقي نظرة على الأوساط الشعبيّة، وينسى تمامًا فكرة دوركايم وليفي ستروس التي تنصّ على أن لكل مجموعة اجتماعيّة ثقافتها الخاصّة بالمعنى الأنثروبولوجيّ لكلمة الثقافة، وعكس ذلك تم التأَكُّد منه عندما يتحدث عن المهيمنين. وبهذا، فإنه يتجنب قارة الممارسات الثقافيّة اليوميّة في تحليله أمام الأرخبيل التعليميّ. إنه يسكت عن تعقد استهلاك النخبة والفئات المُهيمَن عليها للموادّ الإعلاميّة والثقافيّة، ويعتبر تلقّي الأوساط المثقفة للثقافة العالمة أمرًا بديهيًا وتحصيل حاصل.

إنّ الموقف النخبويّ لبيار بورديو الذي لا ينتمي إلى «الورثة» الذين تحدث عنهم، والرافض بصورة مبكّرة كلّ مماهاة مع الشعبيّ (انظر: Maigret, 2002)، هو موقف المثقف الذي لم يتمكن من الانعتاق من المركزيّة الإثنيّة الثقافيّة. وإن كان التفكير في الثقافة يتطلب تبنّي موقف من خارج الأوساط الشعبيّة والمتوسطة وجعل الغائبين يتحدثون، كما بيَّن ذلك ميشال دو سارتو (Michel de Certeau, 1974) في نصّ قارن فيه بين هذا التفكير واستدعاء جمال الميت(*)، فمن الضروريّ مراعاة المسافة المفتعلة التي تنشأ والعنف الذي يمارسه

(*) يقصد بعبارة «جمال الميت» أنّ الثقافة الشَّعبيّة تصبح جذابة بعد أن تزول وتندثر، إذ تصبح موضوعًا يثير الاهتمام والدراسة لأنها لا تشكل أي خطورة، فالثقافة الشَّعبيّة لا تفهم إلا على نمط الغياب. لمزيد من التفاصيل انظر:
Certeau (de) M. [1993], «La beauté du mort» *in La culture au pluriel*, Paris: Christian Bourgeois, 1974, 231p., (Points Essais).

t.me/ktabpdf مكتبة

المُفكِّر على الأشياء والأشخاص الذين يسيطر عليهم انطلاقًا من موقعه الجامعيّ، فهذا التفكير يعترضه عائقان كبيران، أحدهما يسمى «النزعة الشعبويّة»، والثاني «النزعة البؤسيّة». لقد تعقْلن شعور التعالي أو الشفقة في التنديد بالفقر الرمزيّ للخاضعين للهيمنة في الحالة الأولى، وفي تبرير ثقافة أصيلة ساذجة وغريزيّة في الحالة الثانية. ويستعرض جان كلود باسرون وكلود غرينيون (Claude Grignon) اللّذان كانا قريبين من سوسيولوجيا بيار بورديو ثمّ تشدّدا شيئًا فشيئًا في نقد مواقفه النقديّة وصاغا ملاحظاتهما المنهجيّة في مؤلفهما **العالِم والشعبيّ** (*Le Savant et le populaire*) (1989)، ويدعو هذا الكتاب السوسيولوجيا الفرنسيّةَ إلى تطليق الرؤية التي تتأسس على مفهومَي التطبع وإعادة الإنتاج الاجتماعيّ وحدهما، ومما فيه أنه:

- يتضمن الحديث عن «الثقافة الشعبيّة» مُخاطَرةً بتخيّل اكتشاف ثقافة أخرى داخلها تكشف ثقافة مستقلة ذاتيًا، بشكل جذريّ، تديرها قوانين خاصّة، وخطر نزعة الاستقلال الذاتيّ التي تقود إلى «الشعبويّة».

- يشكل اعتبار الممارسات الشعبيّة فارغة وغير متماسكة وسطحيّة، أو العثور فيها على مبادئ سير الثقافة الشرعيّة على نطاق ضيق ووفق أنموذج صغير، انحرافًا ينزع إلى المشروعيّة ويقود إلى «النزعة البؤسيّة».

يعتقد المؤلفان المذكوران أعلاه أنه لا يوجد حل بسيط للمشكل الذي تطرحه نظرة الباحث. ويقترحان تبني مبدأ التأرجح بين الاعتراف بالإكراهات التي تعاني منها الثقافات الشعبيّة واكتشاف ثراء محتوياتها، المبدأ الذي يغطي في العمق التمييز الكلاسيكيّ بين

مكتبة t.me/ktabpdf

الشرح والفهم. إن تعبير «الثقافة الشعبيّة»، غير مقنع كثيرًا، وغامض، لأنه يخفي العنف الذي يشكل هذه الثقافة، ولا أهميّة لاستعماله إلا في حالة إزالة سحر المفهوم «البئيس» عن ممارسات الفئات الشعبيّة للثقافة. وبعد إزالة هذه الفكرة المسبقة حول الجماهير المتجانسة وغير الناضجة، فإن الكلمة تصبح للبحث الإمبيريقيّ ليبرهن وجود ومنطق ممارسات ثقافيّة ثريّة أكثر مما هو متوقع.

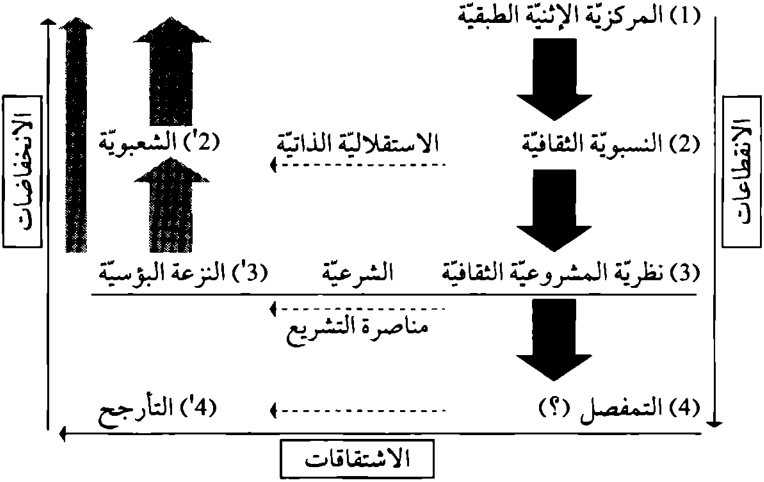

المصدر: نقلًا عن: Grignon et Passeron (1989)

التحوّلات المعاصرة في الثقافة

تشكل الإحصائيّات المتوافرة عن الممارسات الثقافيّة، وبخاصّة تلك التي استقتها وزارة الثقافة[37] في فرنسا، منذ سبعينيّات القرن

(37) هي الدراسات المسحيّة الخاصة بممارسات الفرنسيّين الثقافيّة المعنونة بـ *Les Pratiques culturelles des Français*، والتي قدمها أوليفييه دونّا (Olivier Donnat) على وجه التحديد.

t.me/ktabpdf مكتبة

الماضي، مشهدًا أصبح أكثر تعقيدًا ويمكن تلخيصه في خمس نقاط. إنها تؤكد أوّلًا على سوسيولوجيا الشرعيّة الثقافيّة، لما تُظْهره تراتبيّة ارتياد المؤسسات الثقافيّة وعروضها التي تتغير مع الزمن، بشكل نسبيّ قليلًا، حيث تُثبت أن 68 في المئة من الفرنسيّين لم يحضروا حفلًا راقصًا طيلة حياتهم في 1997، و72 في المئة منهم لم يحضروا حفل موسيقى كلاسيكيّة، و43 في المئة منهم لم يشاهدوا عرضًا مسرحيًّا محترفًا. فالعلاقة الترابطيّة بين مستوى القراءة والشهادات العليا والوسط الاجتماعيّ الراقي تفصح عن ذاتها، فأقلّ من 1 في المئة من الفلّاحين الفرنسيّين يقرؤون أكثر من 50 كتابًا في السنة، و7 في المئة منهم يرتادون المكتبة مرّة على الأقلّ في السنة، مقابل 17 في المئة و19 في المئة من الكوادر على التوالي. لقد أخفقت دمقرطة الثقافة، كما أكَّد ذلك أوليفييه دونّا (Olivier Donnat) في العديد من أعماله. هذه الثقافة صُممت أثناء المنتصف الثاني من القرن العشرين كوسيلة للزيادة في ارتياد الأماكن الثقافيّة أو ترقية القراءة والاستماع إلى عينة من الأعمال التي تعد متميزة جدًّا. لكن المشاركة في الأنشطة الثقافيّة القَيِّمة تتزايد ببطء، والعلاقة بين الممارسات الأبويّة والشبابيّة تتباعد، فحتميّة انتقال الممارسة الثقافيّة ذاتها من الآباء إلى الأبناء ضعيفة.

والحدث الثاني البارز يتمثل في تناقص عدد الكتب المقروءة، وقد شكّل ذلك ظاهرة اعتُبرت مقلقة وخطيرة، منذ ثمانينيّات القرن الماضي، وأسالت الكثير من الحبر حول موضوع التراجع الثقافيّ لمجتمعاتنا. لكنها تكشف في الواقع عن تراجع الأيديولوجيا التي

t.me/ktabpdf مكتبة

تجعل من النمط المكتوب نقطة العبور شبه الوحيدة إلى الثقافة: فالقراءة رحلت من مكانها المعهود وزال تقديسها أكثر من انقراضها. بالفعل، لقد ارتفع عدد القراء في المجتمعات الغربيّة مع مرور الزمن، وكفاءات التلاميذ في المدارس لا يطاولها شك بشكل أساسيّ، ففي هذا الصدد أجرى كل من كريستيان بودلو (Christian Baudelot) وروجيه إستبلي (Roger Establet) **(المستوى يرتفع** *Le Niveau monte*، 1989) اختبارًا تعليميًا وعسكريًا للمقارنة بين مستوى تلاميذ العصر الحاليّ وتلاميذ مطلع القرن العشرين، فاستنتجا تفوق تلاميذ هذا العصر في النحو والمنطق وتدني مستواهم في الإملاء مقارنة بتلاميذ مطلع القرن المذكور، وفي زمن كان على المدرسة إدارة الانتقال من نظام تعليميّ مخصص للنخبة فقط إلى نظام تعليميّ جماهيريّ (كانت نسبة 1 في المئة من الفرنسيّين الحاصلين على شهادة الثانويّة العامّة في مطلع القرن العشرين، ونصف الفرنسيّين لم يكونوا يقرؤون في الأربعينيّات)، ثمّ تحوّلت مهمتها من «التعليم المدنيّ» الذي تم تصميمه في البداية كتعليم مستنير ومكون للفكر الوطنيّ، إلى تربية أقلّ هيمنة وأقلّ احترامًا أيضًا، مع كل ما انجرّ عنها من اضطرابات بيداغوجيّة. ويعود التراجع في القراءة جزئيًا إلى ما تمكن تسميته «إيهامًا بصريًا»، وذلك لأن المستطلَعين في سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته كانوا يبالغون في قراءاتهم عندما وجّه إليهم الباحثون أسئلة عن القراءة. واليوم، يبدو أن العزوف عن القراءة لم يعد مخجلًا، فمن المحتمل جدًّا أن يعترف البعض بأدنى تردد أنهم يقرؤون أقلّ، وعكس ذلك، فالذين يقرؤون أكثر لا يثمّنون ما يقومون

t.me/ktabpdf مكتبة

به، ويقلّلون من شأن ممارستهم الثقافيّة. أخيرًا، يعود تراجع القراءة أوّلًا إلى قلة إقبال من كانوا يعدّون كبار القراء على القراءة (الذين صرحوا بأنهم يقرؤون أكثر من خمسين كتابًا في السنة)[38]. ثمّ إن مكانة القراءة تغيرت في المجتمع، فقد ظلّت إلى عهد قريب فعلًا ثقافيًّا مركزيًّا، يندرج في قلب إستراتيجيّات إعادة الإنتاج الاجتماعيّ، فأضحت اليوم فعلًا عاديًّا نسبيًّا، وغير مرتبطة بالنجاح المدرسيّ، ومتعددة الأشكال. ويظلّ الكتاب مخيفًا لنسبة تتراوح بين ربع الفرنسيّين الذين لا يقرؤون أو قليلي القراءة ونصفهم (انظر: كريستيان بودلو، وروجيه إستبلي وآخرين، **وعلى رغم ذلك يقرؤون** *Et pourtant ils lisent*... 1999). لكننا نقرأ اليوم محتويات أكثر تنوعًا على حوامل مختلفة (المخطوطات، المجلات، النصّ الإلكترونيّ، وغيرها)، في أماكن خاصّة وعامة (لقد تزايد الإقبال على التسجيل في المكتبات والوسائط الإعلاميّة) من دون أن نحترم بدقة التقسيم بين الإنتاج والاستهلاك، مثلما أكَّد روجيه شارتييه (Roger Chartier)، فالكتابة والطباعة والقراءة لم تعد متخاصمة في نظر هواة الثقافة الشعبيّة أو الثقافة العالمة ومؤسسي مواقع الويب (web) أو الطلبة.

إنّ هذا التداخل في الحدود بين هذه الممارسات لا يشكل حالة خاصّة ارتبطت بصعود ممارسات الهواة، بل يعدّ عنصرًا في تطوّر الممارسة الثقافيّة، فالشباب والأصغر منهم سنًّا يحدّدون ممارستهم الثقافيّة انطلاقًا من المشاركة القويّة في النشاطات

---

(38) كان لإعادة توجيه الطلبة نحو المواد العلميّة خلال السنوات الأخيرة دور أكيد في هذا المسار.

مكتبة t.me/ktabpdf

الموسيقيّة، والفوتوغرافيّة، والغرافيّة، والأشغال الحرفيّة، والفيديو، ويضاعفون أيضًا الحوامل التي تجسد هواياتهم، فحوالى ثلث الفرنسيّين يمارسون هواية جمع التحف أو الاغراض للذكرى، و10 في المئة منهم يمارسون الفنون التشكيليّة، و11 في المئة الكتابة (انظر دونّا، 1998). ويبدو بوضوح أن استملاك الفنون لم يعد شديد الارتباط بالمؤسسات العموميّة والخاصّة كما كان في السابق، وأن توزيع التكنولوجيات الإلكترونيّة (جهاز الحاكي، وجهاز الفيديو، والكمبيوتر) شجع ارتحال استخدامها إلى البيت. ولا يمكن تصور ارتياد «الفنون الوسطى» بديلًا بسيطًا من الثقافة، بل يجب اعتباره بحثًا حقيقيًا عن المعنى يخترق كل الأوساط الاجتماعيّة (Hennion, Maisonneuve, Gomart, 2000).

كان انتشار السمعيّ - البصريّ ظاهرة القرن الأكثر استعراضيّة. تقارب مشاهدة التلفزيون الفرديّة وحدها في فرنسا 3 ساعات و30 دقيقة في 2005، و4 ساعات في الولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا، ومعدل ما يصرف من وقت في مشاهدة التلفزيون في المجتمعات الغربيّة يقارب ما يخصص للعمل (بحسب عدد الساعات في السنة!)، إذا استثنينا جماعات محدّدة بدقة[39]. لا يوجد تنافس واضح بين النمطَين المكتوب والسمعيّ - بصريّ في المجتمع، فالوقت الذي يُصْرف أمام الشاشات، وفي الاستماع إلى الإذاعة

(39) بيّن روجيه إستبلي وجورج فيلوزي (Establet et Felouzis, 1992) وغيرهما، أن الكثير من الأفراد لا يبحثون عن الأشياء ذاتها في الكتاب والتلفزيون، وقسمًا من كبار مشاهدي التلفزيون هم أيضًا من كبار القراء.

t.me/ktabpdf مكتبة

أو الأسطوانات الفونوغرافيّة قد سُحب من الوقت الناجم عن انخفاض مُدّة العمل، وتطوّر نظام التقاعد عن العمل أو الإحالة إلى المعاش، والدراسة في المؤسسات الثانويّة والجامعيّة. لذا ندرك أن الممارسة التلفزيونيّة الحاضرة بقُوَّة والمرئيّة أكثر تثير التساؤلات حول وظائفها وتأثيرها وفائدتها الاجتماعيّة. لقد ألصقت صفة السلبيّة بالجمهور الذي سقط في فخ قُوَّة الصورة. سلبيّة يؤكّدها الواقع الذي يكشف أن ربع المشاهدين فقط يعرف ماذا يريد أن يشاهد عندما يشغل جهاز التلفزيون، وأن المشاهدة المذبذَبة بين القنوات التلفزيونيّة تبدو قاعدة عامّة. لكن يجب التفكير في التلفزيون كممارسة ثقافيّة ذات معنًى وإن شُوهدت برامجه بالمواثبة(*) فالتلفزيون يلاحم المجموعات الوطنيّة والدوليّة التي تتقاسم الطقوس ذاتها، لأنه لا وجود لممارسة ثقافيّة في مجتمعاتنا يكون فيها الاختلاف في السلوك ضعيفًا بهذا المقدار مثل مشاهدة التلفزيون: 96 في المئة من الأسر تملك جهاز تلفزيون، وتأتي المضامين التي يبثها هذا الجهاز في المرتبة الثانية في

(*) يقصد بمصطلح «المواثبة» (Zapping) القفز بسرعة وبشكل متواتر من قناة إلى أخرى، أو عدم الاستقرار على مشاهدة برنامج تلفزيونيّ محدد في قناة ما إلى نهايته. وقد اقترحه المترجم كبديل من (zapping) في الكتاب الذي أصدره بسوريا في 1997 بعنوان: **التلفزيون والمشاهدة: آراء ورؤى**، بينما حافظ البعض، ومنهم الفيلسوف المغربيّ عبد السلام بنعبد العالي، على الكلمة ذاتها في إحدى ومضاته الفكريّة التي كان ينشرها في صحيفة **الحياة** اللندنية والموقع الإلكتروني «الأوان». انظر: عبد السلام بنعبد العالي: (zapping)، الأحد 15 حزيران (يونيو) 2008، مسترجع بتاريخ: 28/ 7/ 2015 من الموقع: http://www.alawan.org/Zapping.html.

t.me/ktabpdf مكتبة

قائمة المناقشات التي تجري في المؤسسة (بعد ساعات العمل) وفي المدرسة. وتظلّ هذه الممارسة غير متكافئة بكل تأكيد، لأن أقليّة فقط تشاهد برامج التلفزيون أكثر من المعدل الوطنيّ للمشاهدة، وتتشكل من كبار السن والفئات الأكثر شعبيّة، وأغلبهم من الإناث، فـ10 في المئة من الجمهور يشكل حوالى 30 في المئة من المشاهدين، و30 في المئة من الجمهور يشكل حوالى 60 في المئة من المشاهدين. أما المتمردون على مشاهدة التلفزيون، والذين يقدرون بحوالى 10 في المئة من الفرنسيّين، فلا يشكلون سوى 1 في المئة من نسبة المشاهدة. إذًا، لا يمكن النظر إلى أكبر مستهلكي ما يبثه التلفزيون، أو «الجمهور العريض»، كمغتربين مقارنة بغيرهم وإن تعرضوا لهيمنة ثقافيّة، فبعض المعطيات الإحصائيّة تفند هذا الطرح. إن الجمهور العريض أكثر انتقائيّة في مشاهدته التلفزيون من «النخب» (الحاصلون على شهادات تعليميّة من الباريسيين هم أقلّ المشاهدين معرفة بما يريدون مشاهدته). إن هذا الجمهور ينتظر من التلفزيون تنويع برامجه (إنه يشاهد كل أنواعها)، فإذا كان ثمّة جمهور للجرائد المتلفزة، والمجلات المصورة، والأفلام الوثائقيّة، والبرامج الثقافيّة، فلأنها تُشاهَد من الذين يتابعون برامج التلفزة كثيرًا. أما الذين يتابعون ما يبثه التلفزيون بدرجة أقلّ، فلا يركزون في ممارستهم الثقافيّة على البرامج التلفزيونيّة المرموقة، فحاملو الشهادات العلميّة يشاهدون بشكل متناسب الأفلام التلفزيونيّة والرياضة أكثر من كبار مشاهدي برامج التلفزيون!...

أخيرًا، إن عولمة الاستهلاك الثقافيّ وشبابيّته تميّزان الثقافة المعاصرة. إنهما متلازمان، فالتعرض لوسائل الإعلام الدوليّة لا يتم

t.me/ktabpdf مكتبة

من دون التنافس بين الأجيال، فالشباب هم الذين يُكَيِّفون في الغالب المواد الثقافيّة الأجنبية على الصعيد المحليّ. لقد أظهر البحث الميدانيّ الذي قام به فريق من الباحثين بقيادة صونيا ليفنغستون (Livingstone et Bovil, 2001) حول «الشباب والشاشات» في أوروبا، أن الصورة المبتذلة (الكليشيه) الأكثر اجترارًا عن هذه الفئة العمريّة خاطئة ومضللة، فشغف الشباب بالتلفزيون معتدل جدًّا. ولئن كانوا يثمّنون الشاشة الصغيرة التي يتابعها من هم في سنهم في العالم، والتي تشكل محفزًا دائمًا على النقاش، فلا شيء يثبت أي هيمنة تمارسها هذه الشاشة عليهم، فالذين تتراوح أعمارهم بين 4 و14 سنة يشكلون شريحة عمرية يكون فيها استهلاك المواد التلفزيونيّة ضعيفًا. والمراهقون يفضلون السينما، ويرتادون قاعاتها مع الأصدقاء أكثر من التلفزيون. ولا ينافس التلفزيون والكمبيوتر القراءة بشكل مباشر. والشباب يبتدع ثقافة أكثر تجانسًا اجتماعيًا من ثقافة من هم أكبر سنًّا، وثقافتهم أكثر تلونًا في جذورها الوطنيّة، وتتأسس أكثر على الاستماع إلى الموسيقى في الإذاعة (Glevarec, 2005). إنها مصدر التعلم الفرديّ والجماعيّ أي مصدر الكفاءات في فكّ الصورة والمكتوب، ومصدر المهارة في الممارسات العلائقيّة، مثلما يؤكّد دومينيك باسكييه. إنها تتجه للانتشار في وسط ثقافة الكبار وليس العكس. والمعلوماتيّة الترفيهيّة والإنترنت تثبتان على أتمّ وجه هذا التوجّه، لأنهما تُسْتَملكان أوّلًا ـ وفي الغالب ـ من الشباب، وبهذا تشكّلان انقلابًا كاملًا على تأثير الإرث الثقافيّ (انظر: الفصل 16).

t.me/ktabpdf مكتبة

«من الإقصاء إلى الانتقائيّة»

إنّ تعدديّة الأنشطة الثقافيّة والاستهلاك المعمّم لثقافة «الجمهور العريض» يُظهران أن الأشخاص ينشغلون بدرجة أقلّ بتراتبيّة الممارسات الثقافيّة المفترضة، وحتى تلك الأكثر تفرقة، مثل الأوبرا والرقص، اللّذين يظلان حكرًا على الحاصلين على شهادات أرفع. إننا نمر من نظام التفرقة إلى نظام الاختلاط، ومن «الإقصاء إلى الانتقائيّة»، كما يلخص ذلك دونّا (Donnat, 1994). ويحاول بعض الكُتّاب شرح هذا التغيير بفضل نماذج من التراتبيّة التي أصبحت أكثر تعقيدًا. وهكذا يشير ريتشارد بترسون (Richard Peterson, 1992) إلى التعارض بين مجموعتين جديدتين، هما: «أكَلة كل شيء» (omnivores)، وأكَلة صنف واحد من الأغذية (univores). تنبع المجموعة الأولى من الأوساط الاجتماعيّة العليا المنفتحة على النشاطات الشريكة في الثقافات الشعبيّة، وتضيف إليها الممارسات، وذلك بتطوير الذوق من أجل التنوع، الذي يشكل في الوقت ذاته إستراتيجيّة الحفاظ على التنوع. أما المجموعة الثانية، القادمة من الأوساط الاجتماعيّة الشعبيّة، فهي أكثر إقصائيّة في اختياراتها الضيقة في مجال وسائل الإعلام، ولا تملك قدرات للعب بالمدوّنات. لقد أثّر التغيير في موقع الشرعيّة الثقافيّة في بروز النزعة الانتقائيّة في الممارسة الثقافيّة. فهذه النزعة تعدّ «ضربًا من التميّز النهائيّ»، كما دافع عنه فيليب كولانجون (Philippe Coulangeon, 2003, 2004)، وتشكل آليّات الديموقراطيّة. إذًا، تصطدم محاولات الدفاع عن النماذج العموديّة الخالصة بالدراسات التي تؤكد تنوع أنماط

t.me/ktabpdf مكتبة

«أكَلة كل شيء» واستحالة تحويل هؤلاء إلى «أكَلة صنف واحد من الأغذية». وتبدو هذه المحاولات تقييديّة أمام اتساع النقلة الثقافيّة الحاليّة. لقد أظهر كُوِن فان آيك (Koen Van Eijck) وفيم كنولست (Wim Knulst) (2005) أنها تشكل بالفعل قطيعة بين الأجيال، فالشباب يتجه أكثر فأكثر نحو مختلف ثقافات وسائل الإعلام، بينما يحافظ الأكبر منهم سنًّا على الرسوخ في ثقافة «كلاسيكيّة»، ففرضيّة المباهاة الثقافيّة ليست ضروريّة لفهم المساهمة المتزايدة في ثقافات وسائل الإعلام.

لقد أعاد برنار لاهير (Bernard Lahire) من جهته فحص الدراسات الإحصائيّة للأذواق التي يصرح بها الفرنسيّون، من أجل إثبات أن «الغالبيّة الساحقة من الأشخاص تتأرجح بين السجلّين الثقافيّين: المشروع وغير المشروع»، وذلك في مؤلفه **ثقافة الأفراد** (*La Culture des individus*) (2004). والتنافر هو القاعدة وليس التماثل مع التطبّع، المفترض أنه متجانس. وهذا على رغم أن الكاتب اختار تعديل أنموذج المشروعيّة الثقافيّة أكثر من الاعتراض عليه. فإذا كان الأفراد لا يوزعون اختياراتهم الثقافيّة ولا يتوزعونها بينهم وفق سُلّم المشروعيّة الثقافيّة التي فرضها المهيمنون (التي من المفترض أن تتناقل المؤسسات المدرسيّة والثقافيّة معتقداتها)، فلأنه يوجد في الواقع تنافس بين العديد من موازين المشروعيّة. إن وسائل الإعلام هيئات جديدة لتكريس الثقافة (عن طريق الكم) بالتعارض مع الهيئات المدرسيّة / الثقافيّة (التي تعتمد على الندرة والنبل). ويمكن أن نضيف إليها ثقل السياقات التي تتدرج فيها الأفعال

t.me/ktabpdf مكتبة

(الظروف التحفيزيّة، الإجبارية...) وتنوع هيئات التنشئة الاجتماعيّة (تأثير مجموعات النظراء) التي تضبِّب عمليّة إعادة الإنتاج الخالصة للممارسات الثقافيّة. بيد أن هذا التحليل يصطدم بحدود النظريّة التي يريد إثراءها. ويلاحظ هرفي غليفاريك (Hervé Glevarec) في **نهاية الأنموذج الكلاسيكيّ للمشروعيّة الثقافيّة** (*La fin du modèle classique de la légitimité culturelle*) (2005)، أن التصنيف القبليّ للمواد الثقافيّة وأنواعها من أجل تحديد الملامح المتناغمة أو المتنافرة، مثلما فعل الباحث برنار لاهير، هو نتاج تأثير نزعة المشروعيّة الخالصة، فمَن الذي يقرر أن هذه الأعمال تملك قيمة كبرى بهذا المقدار أو ذاك؟ إن تأكيد تفوق الباحث الذي يستطيع أن يقرر في آخر المطاف أن مشروعيّة أغاني الراب ضعيفة ومشروعيّة موسيقى الروك متوسطة، لا يقدم إجابة مُرْضِية تتجنب عدم الانسجام من وجهة نظر إحصائيّة تفيد بأن موسيقى الروك وأغاني الراب تحظى باستهلاك مفرط من الأوساط الاجتماعيّة العليا!

تفرض التحوّلات في الممارسات تغييرًا حقيقيًّا في أنموذج الثقافة: النشاطات الثقافيّة أبعد من إمكان اختزالها في بُعد المشروعيّة. إنها سعي إلى اكتساب التجارب (Gerhard Schulze, 1992) المستقلة ذاتيًّا عما هو اجتماعيّ (بالمعنى الذي تقصده «الدراسات الثقافيّة». انظر: الفصل التالي) والتي لا يقاس بعضها ببعض (John Frow, 1995). يقترح هرفي غليفاريك الانتقال من ملاحظة «تعدديّة أنظمة المشروعيّة» التي قام بها برنار لاهير، إلى ملاحظة «عدم تجانس أنظمة المشروعيّة» الذي يستند إلى شكل جديد

t.me/ktabpdf مكتبة

من التسامح. وهذا في استناده إلى النتائج الإحصائيّة والنوعيّة المستقاة من ميدان الموسيقى. وإن لم يَكُفّ الأشخاص عن تقويم النشاطات الثقافيّة ووضع نظام تراتبيّ لها فلأنهم يميلون إلى فعل ذلك داخل المجموعات الكبرى المشكلة وفق الأنواع (الأغنية، الروك، الراب، الموسيقى الكلاسيكيّة، وغيرها)، وبدرجة أقلّ بين الأنواع الثقافيّة ذاتها: «يتساكن العديد من أنظمة القيمة من دون أن يتمكن أي نظام من الهيمنة على الآخر». وتنفصل هذه الأنظمة عن آليّات العنف الرمزيّ تجاه تنوع الأعمال والأذواق الأخرى، فهذا التطوّر يعود إلى عدم التجانس المتزايد في الأوساط الاجتماعيّة (الحركيّة الاجتماعيّة، الهجرة، العمل / البطالة، التنوع في أشكال العائلة)، ويرجع في الوقت ذاته إلى الشرعيّة التي تمنحها الدولة لـ«الفنون الوسطيّة»، وإلى المعايير المدرسيّة الأقلّ بروزًا، وإلى تراخي «الرقابة الاجتماعيّة» التي تريح الأوساط الاجتماعيّة العليا من مطلب إظهار علوِّها الاجتماعيّ، وتخفف من شعور الفئات الشعبيّة بذنب حبّ المنتجات الثقافيّة التي حُكم عليها بعدم المشروعيّة. ويوجد اتجاه أيديولوجيّ عميق يسمح أيضًا بشرح هذا المسار، يتجلّى في ما سمّاه غليفاريك نسق «العدالة الثقافيّة». إن المجتمعات المعاصرة المتعدّدة ثقافيًّا أكثر فأكثر، تحرِّم على نفسها التفكير في الاختلافات المطلقة، وتحفز على تجنب مشاكل التراتبيّة، وتشجع على الانفتاح والاحترام في كل الأوساط الاجتماعيّة وليس لدى الفئات الاجتماعيّة العليا، والأجيال الأخيرة فقط. «إن عدم المساواة الاجتماعيّة والاقتصاديّة لم تَزُلْ لكن أشكال الهيمنة الرمزيّة لم تحافظ عليها مثلما كانت تفعل في الماضي».

t.me/ktabpdf مكتبة

من الاستهلاك إلى التلقّي

لا تقدم البيانات الإحصائيّة، مهما بلغت من ثراء، سوى مؤشرات محدودة عن شراء السلع الثقافيّة وارتياد المؤسسات الثقافيّة في إطار ما نسميه «المورفولوجيا الاجتماعيّة». وتكمن قُوَّة هذه الإحصائيّات، مثل ضعفها، في كونها تستند إلى تحديد المجموعات الاجتماعيّة والأشياء ذات السمات الثابتة، التي تدفع - في الغالب - إلى تثبيت جوهر هذه الممارسات من جهة، وجوهر أنواع المواد الرمزيّة من جهة أخرى. إن المتغيّرات السوسيو - ديموغرافيّة (الجنس، العمر، الديانة، الانتماء الإقليميّ، مستوى الدراسة، الدخل) في ارتباطها بوسائل الإعـلام، تكفي لوصف المحتويات (المصنفة بحسب «الأنواع»، ونمط الكتابة أو المحتويات الثريّة بهذا المقدار أو ذاك)، والممارسات الثقافيّة («الشعبيّة» و«المثقفة»، وغيرها). وتبلغ هذه الممارسات من التنوع درجةَ أنها تفلت من التصنيفات بهذه البساطة، فعندما نضبط خارطة تتقاطع فيها بيانات جمهور مختلف أنواع الكتب، ندرك أن الأذواق التي تم اكتشافها لا تحترم الحدود بين أنواع الكتب، بالمعنى الحرفيّ للعبارة، فهناك بعض الأشخاص يختارون الروايات البوليسيّة أو روايات الجاسوسيّة والكتب التاريخيّة (يتشكلون من جمهور مذكر ومتقدم في السن)، وبعضهم يجمعون بين الروايات العاطفيّة والبوليسيّة والوثائقيّة والمذكرات (وهذا اختيار الإنـاث في الغالب). وقد تكون أنـواع الكتب ذاتها موضع اختيار متناقض من جمهور متجانس نسبيًّا: الجمع أوّليًّا بين كتب الفن والروايات العالِمة أو المثقفة (من خصائص النساء الثريّات

t.me/ktabpdf مكتبة

غير العاملات) أو على العكس، الجمع بين الكتب العلميّة والتقنيّة (المهندسون الذين اكتسبوا «ثقافة أدبيّة»).

تنتقل الكتب من وسط اجتماعيّ وثقافيّ إلى آخر من دون احترام الحدود المفترضة للأذواق، وهذا ما يؤكّده المؤرخون، ويستدلون، على سبيل المثال، بالنجاح الذي لقيته أعمال شكسبير (Shakespeare) المقتبسة في شكل «ميلودراميّ» لدى جمهور من الأميّين في بعض الأحيان (يؤكّد لورانس ليفين Lawrence Levine, 1988 هذا النجاح في الولايات المتحدة الأميركيّة في القرن 19). لقد لاحظ روجيه شارتييه أن سلسلة الكتب المعنونة بـ«المكتبة الزرقاء» التي أصدرتها مطبعة مدينة تروا (Troyes) الفرنسيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ووجّهتها إلى جمهور واسع من قراء الفئات الشعبيّة في طبعة رديئة وبيعت بأسعار زهيدة، ليست سوى نصوص مستلّة من الكتب المجلدة أي بعبارة أخرى، إن هذه السلسلة من الكتب ليست شعبيّة في حد ذاتها لكنها تنتمي إلى كل الأنواع وكل الأزمنة وكل الأجناس الأدبيّة. فهذه الأمثلة تَشْهد على استحالة التفكير في المجموعات الاجتماعيّة كـ«تجسيدات» للمنتجات التي تستعملها، أو ترى في «المؤلفات الشعبيّة» أشياء ثريّة، أو لا تتبع محورًا مرجعيًا وحيدًا.

يبدو عدم انسجام سوسيولوجيا المشروعيّة الثقافيّة ومعضلات المنهج الكميّ أكثر بروزًا بمجرد أن ننقل تحليل الممارسة الثقافيّة إلى المستوى النوعيّ. برهنت سوسيولوجيا الفن والقراءة، منذ سبعينيّات القرن الماضي، على بطلان فكرة تناسب المنتجات الثقافيّة مع

t.me/ktabpdf مكتبة

الجمهور الذي تدرسه والتي ظلّت تطبعه. وتعلمنا الدراسة الشهيرة التي أنجزها بيار ميشال منجيه (Pierre-Michel Menger) بعنوان **الأذن المضاربة. استهلاك الموسيقى المعاصرة وتصورها** (*L'oreille spéculative. Consommation et perception de la musique contemporaine*) (1986)، أن المؤلفات الموسيقيّة للفنان ميسيان (Messiaen) أو بوليز (Boulez) التي يؤديها جمهور الموسيقى المعاصرة ذو المستوى الثقافيّ العالي، والتي تقدم في قاعات الحفلات، لا يعيشها الجمهور كمتعة دالّة، بل يعتبرها الذين دأبوا على متابعتها باستمرار «واجبًا ثقافيًا للاستهلاك». ويبدو استهلاك هذه الموسيقى سلبيًّا ومُحبِطًا، وذلك لأنه من الجليّ أنه يخالف الأذواق التي يعلن عنها عشاق الموسيقى هؤلاء. لقد أجابت إحدى المستجوَبات في الدراسة المذكورة أعلاه عن سؤال خاص بأنواع الموسيقى التي تفضلها قائلة: «يجب أن تُحْفظ الموسيقى. أحب أن أتذكر الموسيقى التي استمعت إليها وأستطيع أن أغنيها بعد الحفلة الموسيقيّة». والأدهى من هذا عندما ندرك، على وجه التحديد، الطابع المفكّك وغير الملحن لهذه الموسيقى المعاصرة العالِمة! فلا شيء يَضْمَن أنه كلما ارتقينا في السلم الاجتماعيّ وعلى مستوى المؤلّفات الثقافيّة والجمهور يرتفع تقديرنا للجمال، وتتطوّر قدراتنا على الحكم على جماليّات المنتج الثقافيّ أي تقترب من قدرات المحترفين[40].

(40) نعثر على الكثير من هذه الأمثلة في ميدان الفنون التشكيليّة والتأويل الأدبيّ في بحوث جان كلود باسرون التي جمعها في مؤلفه (*Le Raisonnement sociologique*) (1992).

t.me/ktabpdf مكتبة

هذه العلاقة، التي يُعتقد أنه تم التأكُّد من صحتها، نظرًا إلى الحلقة المفرغة التي يدور فيها تعريف المواد الثقافيّة، لم يتم التحرّي عن صحتها بشكل آليّ، فالحاصلون على النصيب الأوفر من «الرأسمال الثقافيّ» يختارون أفضل المواد التي تقوم هي الأخرى بدورها في التعريف بهم، فنلاحظ أن خطابات المستهلكين ذات السمة الثقافيّة المشبعة بالتكوين المدرسيّ، ليست في الغالب سوى ستائر تحجب عبثيّة التجارب الجماليّة الأساسيّة المميّزة أكثر من غيرها من الخطابات. ويستطيع الرأسمال الثقافيّ (التنشئة الاجتماعيّة واندماج الأذواق) أن يحدّد، بهذا المقدار من القُوَّة أو ذاك، الاستهلاك (انظر النقطة السالفة) من دون تحديد التلقّي، فهذا الرأسمال لا يطلعنا على ممارسات الهواة (عشاق الموسيقى، جمهور متحمس للمسرح) الذين ينتمون في الغالب إلى جمهور متعلم لكنهم يملكون خصائص تختلف عنه. إنها الخصائص التي تنبع من المواجهة الطويلة للأشكال الثقافيّة التي تفرض علاقة صارمة ومتشددة على مستهلكيها. علاقة «المهتدي» أو المتحوّل إلى ممارسة أخرى، وفق الصيغة الفيبريّة التي صاغها إيمانويل بدلر (Emmanuel Pedler).

تقاليد البحث عن التلقّي

يشكل مفهوم التلقّي، الذي نبع من المعجم التقنيّ والمنفصل عن تضميناته السيبرنيطيقيّة والسلوكيّة، ملتقى كل التساؤلات حول الجمهور منذ أن تحدثت المدرسة الأدبيّة التي سميت باسم مدينة كونستانس (Constance) في ألمانيا بقيادة هانز روبرت جوس وولفغانغ

t.me/ktabpdf

مكتبة

إيسر (Wolfgang Iser)، عن «جماليّة التلقّي» كرد فعل على النظريّة النقديّة. لقد قام جوس في سبعينيّات القرن الماضي بإحداث قطيعة عندما أقحم اللذّة في أنماط قراءة العمل الأدبيّ (لقد أعاد الأدب إلى المجال اليوميّ) وأثار فكرة التقاء أفق الانتظار أو تطلع النصّ (متطلباته الأسلوبيّة الخالصة) بأفق القارئ الشخصيّ (عالمه الشخصيّ والاجتماعيّ). وهكذا أنزل الأدب من عليائه وأدرجه في حقل الاتصال والحوار، مثلما حاولت سيميائيّة أمبرتو إيكو القيام به في الوقت ذاته، ما يفسر تأثيره الشديد على التحليل الأدبيّ الكلاسيكيّ ودراسات ممارسات القراءة، وعلى سوسيولوجيا الفن والثقافة. لقد اهتم العديد من الباحثين، على امتداد بحوثهم، بجمهور القراء والمستمعين وزوار المتاحف، واستخرجوا العديد من المتغيّرات التأويليّة[41].

لا تشكل مدرسة كونستانس إلا مصدرًا للتفكير، يظلّ محدودًا بتطبيقاته في ميدان الأدب وحده بغياب التنظير للعلاقات الاجتماعيّة[42]. «وتوجد على الأقلّ خمسة تقاليد في البحث العلميّ حول الجمهور»، كما أكّد كلاوس برون جنسن وكارل إريك روزنغرين (Klaus Bruhn Jensen et Karl Erik Rosengren, 1990)،

---

(41) انظر المؤلفات التي نسقها Michel Picard (1987)، أو Martine Poulain (1988)، أو Bernadette Seibel (1995) وكتاب Jacques Leenhardt وPierre Jósza (1982).

(42) يذكر لورنس ألار (Laurence Allard) (1994) أن جمالية التلقي تحتفظ ببقايا النخبويّة الأدبيّة، وأن جوس يجعل الاتصال الجماهيريّ في تعارض مع الأدب بطريقة معيارية.

وهـي: النظريّة اللازارسفيلديّة حـول التأثير الـمـحـدود، وتيار الاستخدامات والإشباعات (الناجم عنها) اللّذان يشكلان النواة الأولى لهذا البحث، ويركزان على وسائل الإعلام الجماهيريّ لكنهما مشبعان بالنزعة الوظيفيّة. والتحليل الأدبيّ، الذي يتقاطع في الغالب مع التحليل السوسيولوجيّ في القارة الأوروبيّة، طاردًا من قلعته الجامعيّة الاعتقاد بالجوهر الأسمى للأدب من دون أن ينفتح حقيقة على الثقافات «الشعبيّة» و«الجمهور العريض». إن بحوث التلقّي، و«الدراسات الثقافيّة» على وجه التحديد (التي نتناولها في الفصل القادم)، تشكل الكتلة التاريخيّة الأخيرة والتجديد الأكثر أهميّة، لأنه يثير التساؤل عن وسائل الإعلام والثقافات المهمشة. إذًا، ليس التلقّي موضوعًا نظريًا لكنه حقل إمبيريقيّ، ومفاجأة دائمة للعديد من تيارات البحث التي تقتسم بعض الافتراضات الأساسيّة، وهي:

- لا يمكن أن يُختزل الحضور إلى حفل موسيقيّ أو مشاهدة مادة سمعيّة بصريّة أو القراءة في الاستهلاك البسيط للمواد ذات الخصائص الموضوعيّة، والتأثير ذي المعنى الأحاديّ.

- يجب تحليل خطابات المستخدمين أو المتلقين عن ممارساتهم الثقافيّة، وتسليط الضوء على مختلف مخاوفهم وفهمهم للمواد ذاتها التي يتلقّونها.

- تشكل العلاقة بوسائل الإعلام ومحتوياتها موضوع تفاوض اجتماعيّ أو هويّاتي من الذين يستخدمونها في الحدود التي ترسمها الوسيلة الإعلاميّة ومحتوياتها.

t.me/ktabpdf مكتبة

ميشال دو سارتو ومسألة التلقّي

إنّ الصياغة الأكثر أناقة للأفعال التأويلية التي تتمّ أثناء القراءة أو الاستماع أو مشاهدة استعراض سمعيّ - بصريّ، هي تلك التي صاغها ميشال دو سارتو في كتابه، الذي لخص بكثافة جُلّ التساؤلات التي تُطرح حول هذا الموضوع. لقد سلك دو سارتو مسارًا غير نمطيّ في حياته الجامعيّة، حيث حافظ على استقلاليّته عن التيارات النقديّة التي كانت مهيمنة في فرنسا في ذاك العَهْد (للاطلاع على سيرته الفكريّة والدراسة المنجزة عن علاقته بالبحث التاريخيّ والسوسيولوجيّ والدراسات الثقافيّة، انظر: Maigret, 2000)، فهذا اليسوعي الشغوف بالصوفية الكلاسيكيّة (صوفية القرنين السادس عشر والسابع عشر)، بدأ يهتم تدريجيًّا بالمتدينين الذين نبذهم النظام الدينيّ المهيمن: الزهّاد والزنادقة والسحرة، وطوّر نظرة المؤرخ المتمسك بالموقف المشكّك بكتابات النخبة، المتأثرة بالنزعة الإثنومركزيّة. إن المعرفة عن هذه الفئات المنبوذة كانت مستقاة من تقارير السلطات القضائيّة ونصوص الكنيسة أو الكتّاب أنفسهم في القرنين المذكورين، والبعيدين جدًّا عن تصريحات الفاعلين أنفسهم. وعلى المؤرخ أن يعيد تشكيل هذه النصوص، آخذًا في الاعتبار المسافة التي يُحدثها العنف الذي يسلِّطُه ببحثه على ثقافة هذه الفئات من خلال سرده إياها. ثمّ وجه نظره تدريجيًّا إلى القرنين 18 و19، ببحوثه التي أنجزها عن الفلاحين في ظل الثورة الفرنسيّة، ثمّ انتقل إلى البحث عن القرّاء في أوساط الفئات الاجتماعيّة الشعبيّة، قبل أن يتطرق إلى الممارسات الثقافيّة الأكثر معاصرة، بخاصّة تلك المرتبطة بوسائل الإعلام. لقد

t.me/ktabpdf

مكتبة

أزال ميشال دو سارتو الصفة الانفراديّة التي التصقت بالجمهور الذي تشكّله الفئات الشعبيّة وتلك التي ارتبطت بالتأثير المفترض الذي تمارسه وسائل الإعلام الذي راج في سبعينيّات القرن الماضي، مذكّرًا بمتغيّرات هيمنة حكم النخب: النزعة البؤسيّة أو الشعبويّة. إن الإجابة التي قدمها دو سارتو في بحوثه تربط خيوط تداوليّة فيتغنشتاين، وسيميائيّة أمبرتو إيكو، وإثنولوجيا هوغارت العماليّة (انظر الفصل التالي) وتاريخ «الحوليات» (Les Annales)(*). وتستمد إجابته هذه من سياسة الاستعارات الإيحائيّة المكلَّفة منح مضمون الممارسات أو «فنون الأداء العمليّ» في إطار إعادة اكتشاف الفعل، وهذا ما قام به مفكرون آخرون في الوقت ذاته (إرفنغ غوفمان، أو آلان تورين، أو أنطوني غيدنز Anthony Giddens).

لقد رأى ميشال دو سارتو، في فصل شهير من الجزء الأول من كتابه **ابتكار الحياة اليوميّة: فنون الأداء العمليّ** (1980)، الذي يحمل عنوان «قراءة الصيد غير الشرعيّ»، انطلاقًا من الدَّرْس الماركسيّ الذي يرى أن العلاقة بين منتجي المعنى ومستهلكيه ليست متساوية، أن الذين يتكلمون ويكتبون أو يُخرجون الكتاب إلى السوق أو يجعلونه مقروءًا، يمارسون سلطة على المستهلكين، سواء أكانوا قراء الكتب لغاية دراسيّة أم للتسلية، إنها سلطة فرض المعنى والأشكال

(*) الحوليّات: مصطلح يطلق على التيار التاريخيّ الذي أسسه لوسيان فيفر (Lucien Febvre) (1878 ـ 1956) ومارك بلوك (Marc Bloch) (1886 ـ 1944) في فرنسا على أنقاض المدرسة الممنهجة في التاريخ. ويؤمن هذا التيار بكتابة التاريخ الشامل وعدم الاقتصار على الجوانب السياسيّة والعسكريّة فقط.

t.me/ktabpdf مكتبة

التي تنقله. لكن هذه العلاقة كانت دائمًا نزاعيّة ولا ينتصر فيها أحد الطرفين على الآخر بسهولة. إن الاستقلال الذاتيّ للأوساط الخاضعة للهيمنة قد تزايد على مر التاريخ، بخاصّة مع العلمنة وحدوث أشكال الترفيه المتمايزة عن سلطة الدولة. إن منتجي المعنى هم بمثابة مالكي أراضٍ (النُّصوص) يضبطون قواعد النفاذ إليها واستخدامها. ويشْبه المستهلكون (لا يستعمل ميشال دو سارتو مفهوم المتلقّين الذي تحوّل لاحقًا إلى موضة) الصيادين غير الشرعيّين الذين يختلسون المواد بطريقة غير شرعيّة لتشكيل حياتهم اليوميّة: ينتقون عناصر من هذا النصّ، ويقرؤونه على طريقتهم، ويربطونه بعناصر خارجة عن إنتاجه. ويضع هؤلاء الملّاك إستراتيجيّات وأفعالًا للتحكم في الفضاء، الذي يوقع الخاضِعين للهيمنة في الفخ (يجب المرور على أراضيهم أي على أيديولوجياتهم)، بينما يقوم الصيادون غير الشرعيّين بتكتيكات المقاومة وأفعالها الزائلة، وحرب العصابات الظرفية (التي تنجح في تسديد بعض الضربات). ويجب الارتكاز على نظريّة التملك لفهم أن قراءات الخاضعين للهيمنة غير منسجمة مع القراءة المرجعيّة (التي يتطلبها الكاتب والصناعة والمدرسة) التي تفترض معنى في حد ذاته للنصوص، فكل قارئ يشكّل ثقافته الاجتماعيّة ويعيد إنتاجها جزئيًّا مع أشياء غير متجانسة «القارئ هو صانع البساتين التي تقوم بتصغير عالم ومراجعته (...) يقرأ رولان بارت مؤلفات مارسيل بروست (Marcel Proust) في نصّ ستندال (Stendhal) والمشاهد يقرأ منظرًا دأب على مشاهدته في طفولته وهو يتابع ريبورتاج الأحداث المتلفزة». والقراء هم أيضًا قوم رُحَّل

t.me/ktabpdf مكتبة

يتنقلون من أرض إلى أخرى. إنهم لا يقرؤون النُّصوص التي من المفترض قراءتها، على رغم خياراتهم، وهم لا يستطيعون تحديد هذه النصوص باختيارهم، وهذا ما تؤكده جيّدًا الإحصائيّات الخاصّة بالممارسات الثقافيّة (وليس غريبًا أن يمثّل دو سارتو أحد المصادر الفكريّة للبحوث الميدانيّة التي قامت بها وزارة الثقافة منذ سبعينيّات القرن الماضي). إن دلالة الترحال (غياب القراء الصادم) ليست ـ بحسب الأوساط ـ دلالة الشرائح المثقفة التي تقترب مما نسميه الانتقائيّة لدى شريحة من المتعلّمين، وبحريّة الاختيار، بينما تمثّل «العمل بما هو متاح»، المشحون بالمعنى لدى شريحة من الفئات الشعبيّة.

«طرائق العمل» بحسب ميشال دو سارتو

الفاعل	المكان	الفعل	مستوى الفعل	نوع الغياب
المُلاك	أراض محتلة	إستراتيجيّات	الفضاء	حياة الترحال= انتقائيّة
الصيادون غير الشرعيّين	التنقل	تكتيكات	الزمن	حياة الترحال= العمل بما هو متاح

عمليًّا، تستند رؤية التلقّي هذه إلى اقتران الطروحات الأربعة: الضعاف، مثل الآخرين، قادرون على الأفعال الحاذقة، وحتى المقدامة، على غرار من يقفز على الحبل، فهو يعرف ما يقوم به من دون أن يفكر فيه (وهذا هو معنى مفهوم «فن العمل» لدى كانط):

t.me/ktabpdf مكتبة

تحيل التكتيكات إلى كفاءات أساسيّة وذات حضور كوني. لنضرب مثلًا (لا نجده لدى سارتو) عمّا اعتدنا تسميته بالنَّفَق الإعلانيّ الذي يربط نشرة التلفزيون المسائية بالفيلم الذي يبث في وقت الذروة (prime time). إن قنوات التلفزيون والمعلنين يسيطرون على هذا الفضاء، ومن المستحيل تغيير المحتوى من أجل المشاهدين (لا يستطيع هؤلاء النفاذ إلى إستراتيجيّات الإنتاج، لكن يمكنهم دائمًا تطوير التكتيكات الزمنيّة للالتفاف على المحتويات بشتى السبل، مثل المشاهدة بالمواثبة، والانصراف إلى تنظيف طاولة الأكل بعد تناول وجبة العشاء، والمناقشة الجانبيّة، والانغمار في بعض الإعلانات للهروب منها أو للهروب إليها (السخرية منها والنسيان والانخراط الجزئيّ)... إنه المستوى الأول.

ويختلف التعبير عن الكفاءات باختلاف الجمهور وفق معايير اجتماعيّة وهويّاتيّة، فكبار السن يمارسون المشاهدة بالمواثبة أقلّ من الآخرين، إذ يفضلون متابعة السرد التلفزيونيّ الخطيّ، لكنهم يولون - على سبيل المثال - اهتمامًا بالإعلانات أقلّ من الشباب، الذين يهتمون بالعناصر الجماليّة للإعلانات أو للمحاكاة الساخرة للّقطات الإعلانيّة. إن اختيار هؤلاء لما يشاهدونه أو اختيار أولئك، يتوقف على عمليّة التملك، والأذواق الاجتماعيّة، ومتغيّر الجنس، ومتغيّر الأجيال، والأشخاص (المستوى الثاني).

يبيّن البعد السياسيّ لكل فعل، وجانبُه المعرفيّ العسكريّ أننا نتحدث عن مقاومة للسلطات المسيطِرة عندما نتطرق إلى التكتيكات

t.me/ktabpdf

مكتبة

والصيد غير الشرعيّ، إذ يمكن النظر إلى الأفعال التي يقوم بها المشاهدون كممارسات صغرى تحرّريّة من سلطات التلفزيون، ومن الأيديولوجيات التي ينقلها، ومن نفوذ السوق (المستوى الثالث).

الطرح الأخير (المستوى الرابع) يقطع الصلة بتقاليد الحتميّة الاجتماعيّة، فلا توجد قاعدة تسمح بالفهم الكامل والتنبؤ بما يقوم به هذا الشخص أو ذاك الجمهور أمام المحتويات (والمقصود: الإعلانات). يتحدث ميشال دو سارتو عن ظاهرة فوضويّة، بالمعنى الرياضيّ، للسلوك الذي يبلغ درجة كبرى من التعقد، ويحمل متغيّرات، ولا يقبل الاختزال في معادلة واحدة أو أكثر. فالفاعلون يواجهون دائمًا غيريّة تعيق المسارات (يبدو الكل متشابهًا في البنية، حيث تتدخل التفاصيل التي تحدث تغييرًا في السير والتوازن) («فنون الفعل»، «أزمنة الحكايات»). والتصوف يكتنف في الواقع الأفعال الأكثر رتابة والتي تتكون من المرامي الطوباويّة الصغيرة، وتعبر عنه في الحديث اليوميّ فكرةُ أن الأفراد قادرون على التَّمَلُّص والتجربة والتعلم والاكتشاف. ويكمن هذا الحدس المبكر في صميم النظريّات الاجتماعيّة التي سادت في العقود السالفة (انظر الفصل 15).

خلاصة:

لقد أعطت السوسيولوجيا والتاريخ، من تحليل الاستهلاك الإعلاميّ إلى التلقّي، محتوى للممارسات الثقافيّة «الشعبيّة» التي تعبر عنها استعارة «الصيد بطريقة غير شرعيّة» بشكل أفضل. لكن دراسات التلقّي ينقصها عنصر حتى تكتمل، لأنها تشكلت في

تعارض مع النظريّات النقديّة. لقد سعت إلى البحث عن قدرات الأشخاص المُقاوِمة للسلطات التي تُرمّزها وسائل الإعلام. إذًا، لقد ظلّت تابعة للتصور الماركسيّ والبنيويّ للسيطرة، وتحاول أن تعكسه، إذ ترى أن السلطة متمركزة في الأعلى، وذات كتلة واحدة متماسكة ومتراصّة. ويمكن أن نتصدى لها من الأسفل (هنا يكمن التبرير الفكريّ المحض للعصيان الصغير اليوميّ المتعدد). ويبرِّر ميشال دو سارتو، الواعي بهذه الرهانات، الممارسات الثقافيّة الشعبيّة من باب العلاج بالكتابة المناهضة للنخبة، ويطور أربعة مستويات لقراءة «الصيد غير الشرعيّ» التي ترفض اختزاله في موضوع بسيط جدًّا. لكننا نعثر في نصوصه على الفكرة التي استعارها ميشال فوكو، والمتمثلة في المواجهة التي تجري بين السلطات المُؤَسسة والعقابيّة والشخص الذي يقوم بتكتيكات. وهي الفكرة التي ترفض أيضًا التفكير في الممارسات الإعلاميّة كثقافات وأماكن معقدة يُعبّر فيها عن النزاع على مختلف المستويات وليس كمقاومات فقط.

هل يتعارض التلفزيون والثقافة؟

أو لنتجاوز التعريف المدرسيّ للثقافة

غالبًا ما يُحكم على تجربة الاتصال الجماهيريّ بأنها متناقضة مع الأثر الفنّي. حقًّا، تُعَرّف الثقافة في مجتمعاتنا الغربيّة بمرماها الجماليّ، وبفكرة انفرادها، وتراتبيّة القيم. ويُفترض أنّها تجمع أفضل ما في الثقافة (بمعناها الواسع)، بينما يكون التلفزيون قريبًا من تدفق الصور، وعدم المبالاة، والروتين الصناعيّ، والسلبيّة، والمتعة الآنيّة، ويستطيع

t.me/ktabpdf مكتبة

بالكاد أن يُستخدم كأداة لدمقرطة الثقافة وذلك بخلق برامج أو قنوات تلفزيونيّة خصوصيّة (مثل قناة أرتي *Arte*)(*). لكن هذه النزعة المانويّة لا تصمد طويلًا أمام تحليل تاريخ الأفكار، وأمام دراسة مضامين البرامج التلفزيونيّة وممارسات المشاهدين.

اختراع الثقافة العالِمة

إنّ تعريفنا للثقافة «العالِمة» راسخ اجتماعيًّا إلى درجة أنّه يبدو بديهيًّا. ولكنه يرتكز على بناء تاريخيّ، وعلى منطق المنتَج الثقافيّ الذي مجده الرومانسيّون، ثمّ مناصرو الفن من أجل الفن منذ القرن 18 فقط، ودافع عنه بحماسٍ فيّاض الكُتّاب، مثل فلوبير ومالارميه في القرن 19. وتناقلته المدرسة وبسطته، ثمّ ضخمته السياسات الثقافيّة في القرن العشرين. إن الثقافة تتطلب من الكتّاب استقلاليّة اجتماعيّة مطلقة في الفعل الإبداعيّ التي تبدو طوباويّة بصرف النظر عن العصر المدروس، ثمّ تفرض على الجمهور قدرات خاصّة جدًّا على التبصر والتقدير والتمييز حلَّلها الكاتب آلان فيالا (Alain Viala) (1985)، جيّدًا في صيغتها المدرسيّة الكلاسيكيّة. ويُفهم المعيار الذي يدير ممارسة القراءة، أوّلًا وقبل كل شيء، كأخلاقيّات متعة تقصي المتعة. ومن واجب الأدب الذي يُحدّده المعيار اللسانيّ أي الكتابة الجيّدة، أن يكون هدفه شكليًّا: فالاعتماد الذي يحصل عليه العمل الأدبيّ يجب

(*) أرتي: قناة ذات ملكية مشتركة بين فرنسا وألمانيا، تقدم خدمة عموميّة، وتمتاز بطابعها الثقافيّ الرصين. شرعت في البث يوم 30 أيار (مايو) 1992 من ستراسبورغ بفرنسا.

t.me/ktabpdf

مكتبة

أن يُمحى أمام العناصر البلاغيّة التي تحثّ على إنجازه (ما هي الصيغ البلاغيّة التي يستخدمها لتحقيق هذا التأثير؟)، وأمام رهانات الحقيقة (ما هو الجديد الذي أطلعنا عليه الكاتب؟)، وأخيرًا أمام التأثير الأخلاقيّ الذي من المفترض أن يقوم بدور تطهيريّ (كاثارسيس) (تدريس الشجاعة أوالجِدّيّة من خلال النصّ، واستخلاص العبرة). ويفرض التعليق على النصّ إعادة قراءته أكثر من مرّة، وتقطيعه إلى أسطر، ويدعو إلى الانتشاء، لكن هذا الانتشاء يتلاشى وتتلاشى معه اللذّة الأوليّة. وتطوّرت هذه العلاقة بالعمل الأدبيّ عبر الزمن لكنها حافظت على غايتها الشكليّة، ويُمْحى الهدف الأخلاقيّ أكثر فأكثر بالبحث عن متعة معرفيّة خالصة متوارية في خندق عالم الفن المعاصر (انظر منجزات رايموند مولان Raymonde Moulin). لكن ميزة هذه العلاقة أنها شرعت في دراسة الأشكال والجماليّات بإلغاء المتعة الآنيّة، واقترحت متعة مؤجلة على الذين لا يملكون الوسائل لفعل ذلك. وقد نجم عنها إقصاء عدد كبير من الأفراد من الثقافة. إذًا، تُستخدم الدعوة إلى سياسات ثقافيّة كامتداد لمهمة التبشير العلمانيّ بواسطة المدرسة التي تعدّ أداة البث الديموقراطيّ «للثقافة» والكفاءات المخصوصة التي نريد بثها.

لقد صرح أندريه مالرو (André Malraux)، وزير الثقافة الفرنسيّ السابق، يوم 27 أكتوبر 1966 بما يلي: «يجب أن نقدم للثقافة ما قدمته الجمهوريّة الثالثة للتعليم. فلكلّ طفل فرنسيّ الحقّ في اللوحات الزيتية والمسرح والسينما مثل حقّه في الأبجديّة». لقد تخلّلت بحوث علماء الاجتماع الفرنسيّين ذوي النزعة الإنسانيّة هذا التصور الأبويّ،

مكتبة t.me/ktabpdf

مثل جوفر دومازيدييه (Joffre Dumazedier) الذي استهدفه بيار بورديو في نقده، وهم امتلكوا الشجاعة في ستينيّات القرن الماضي لكبح النقد الحاد الموجّه لوسائل الإعلام بسبب ما تمارسه من تأثير ضارّ على الجمهور. لكن التلفزيون ظل في ذهن هؤلاء مراقَبًا من الدولة، التي اعتقدوا أنها تشكل محركًا مناسبًا للثقافة العالمة والتي يمكن تحويلها إلى شعبيّة.

الطابع المركب للثقافة

إنّ النظرة المبالغ فيها للكتابة التي عزّزها ارتفاع عدد الطلبة والمعلّمين وتشكيل وسط أدبيّ مستقل ذاتيًّا، وعزّزتها الدولة كمؤسّسة معقلنة، أدت إلى اعتبار بعض أشكال الكتابة ثقافة راقية (بالمعنى الأنثروبولوجيّ العام). وقادت هذه النظرة إلى إعادة تشكيل تاريخ مثاليّ للأدب يخلط كل أنواع الإنتاج الثقافيّ المكتوب في التاريخ. أدب جدير بأن يدخل إلى متحف الخالدين والعظماء، ويُعتمد كأنموذج يستنسخ المرء منه تصورًا لأشكال الاتصال الأخرى (النحت، الرسم الزيتي، وغيرها). بينما تكمن أهميّة البحوث التي تناولت العصر اليونانيّ القديم في برهانها على أن النمط الأولي الذي صاغ **الإلياذة** (*Illiade*) أو **الأوديسا** (*Odyssée*)، وهي منجزات حاسمة في تاريخ الأدب، كان شفهيًّا أي أن **الإلياذة** أو **الأوديسا** كانتا مرتجَلتين وارتبطتا بالإحياء الطقوسيّ للجماعة، وهذا ما سمح لعالمة الأنثروبولوجيا فلورانس ديبون (Florence Dupont) بالكشف عن خطأ شائع ذي طابع مركزيّ إثنيّ في كتابها المعنون **هوميروس ودالاس** (*Homère et Dallas*)

t.me/ktabpdf
مكتبة

(1990)، حيث أكّدت «أن ما يثير إزعاج من يقضي حياته محاولًا إعادة تشكيل ثقافات العصور القديمة بكل اختلافاتها يكمن في رؤية هؤلاء الإنسيين الجدد يحتكرون هوميروس (Homère) أو لوكريتيوس (Lucrèce) ليجعلوا منهما الآباء المؤسسين لعقيدتهم. إنّه لدجل كبير جدًّا، فشعراء العصور القديمة لا يستطيعون أن يكونوا عربونًا لهؤلاء المناضلين، مناضلي الفكر والعقل والكتاب، بدءًا بالذي دأبت النزعة الإنسانيّة على جعله أصل كل الثقافة الغربيّة». «لقد حان الوقت للتسليم بأن ثقافتنا، ثقافة الكتاب والنصب التذكاري، لا يمكن أن تطالب بشكل شرعيّ بثقافة الصوت والحدث». إن «ثقافتنا العالمة» ليست كتلة أحاديّة كما تريد أيديولوجيا المنتَج الأدبيّ البسيط إقناعنا به. إن زهد منطق العلاقة بالنمط المكتوب والاستقلال الذاتيّ للفن لا يلخصان العلاقة بالثقافة، وهذا ما يؤكده أيضًا العديد من الدراسات حول إنتاج الفن وإدراكه في مختلف العصور (راجع مؤلفات مايكل بكسندال Michael Baxandall المتعلقة بالفن في عصر النهضة).

التلفزيون بوصفه ثقافة أو «وسيطًا ثقافيًا»

لم يعد الدفاع عن فكرة أن التلفزيون ليس ملحقًا مخجلًا في ثقافتنا المعاصرة، أمرًا سخيفًا، لأنه أصبح أحد أعمدتها الأساسيّة، فالتلفزيون ميديا النزعة الشاعريّة والفنيّة(*)، بحسب الصيغة التي

(*) استعمل المؤلف صفة (bardique) وتنسب إلى الموظف في العصور القديمة المختص في الإدارة والتعليم والقوانين والفنون والآداب. ثم تدرّج استعمالها فأصبحت مرادفًا للشاعر والمغنّي.

t.me/ktabpdf

مكتبة

تقدّم بها الكاتبان جون فيسك وجون هارتلي (John Hartley). إنه يعيد الصلة بالثقافة الشفهيّة في جوانب عديدة، بمنتجاته الضعيفة في الغالب، التي تجسدها المسلسلات التي لا تكفّ عن تكرار سرديّاتها وتعديلها، مثلما يفعل الشاعر في علاقته بجمهوره، فلا شيء أقرب اليوم إلى بُنَى **الأوديسا** من مسلسل **دالاس** (Dallas) التلفزيونيّ، على سبيل المثال، في نظر الباحثة فلورانس ديبون التي استخرجت بعض الانسجام بين الأثرين المختلفين جدًّا، فالتلفزيون هو وسيلة إعلاميّة علائقيّة في جزئها الأكبر (وفق الباحث دومينيك ماهل). إنه شكل جديد من الثقافة التساهميّة التي يستحوذ عليها الجمهور من أجل تنشيط المحتويات، ومنحها حياة في التبادل اللفظيّ ومخيال علاقة الاشتراك في بناء المعنى الذي يمكن أن يسري في الأفلام، والألعاب والحديث الاستعراضيّ لـ«التوك شو» (talk show)، فالتلفزيون في النظام الديموقراطيّ يخدم أكبر عدد من المشاهدين في ما يتبادلونه يوميًّا، مثل «ثقافة الجمهور العريض»، والذي يتموقع إزاءها كل فرد بشكل مختلف على رغم اقتسامه مع الغير المرجعيّات ذاتها (إدغار موران، دومينيك وولتون Dominique Wolton)، فالتلفزيون بالنسبة إلى الجمهور، الذي يشاهده أكثر، والبعيد في الغالب عن المواد والخدمات الثقافيّة، سواء على صعيد التربية أو الأذواق أو العرض المتوافر، يمكن أن يُسْتخدم كبوابة عبور إلى مختلف أشكال الاتصال وفق صيغة all purpose) (medium التي يستعملها دينيس ماكويل أي أنه «وسيلة للقيام بكل الخدمات» (الإعلام، الترفيه بمختلف أشكاله، مناقشات المجتمع)،

t.me/ktabpdf مكتبة

فيعوض بقيّة الأشكال الثقافيّة المختلفة، مثلما يؤكّد ذلك ميشال سوشون (Michel Souchon). ويمكن أن يُعتبر التلفزيون في بعده الشبابيّ والموسيقيّ بمثابة فن الحياة على طريقة ريتشارد شسترمان التداوليّة، الذي جعل موسيقى الراب مثالًا لثقافة لا تفصل التعبير الفنيّ عن المتعة الجسديّة. أخيرًا، إنه من الخطأ نسيان أن التلفزيون ليس جماليّة الحياة اليوميّة فقط، فلا يفلت من البُعد الرسالي ـ نسبة إلى الرسالة ـ (بُعد الأخبار على وجه التحديد)، ولا يحيد عن منطق المُنتَج الثقافيّ ذاته أي عن أيديولوجيا الفن للفن. إنه منطق التميز والإبداع التراثي الذي يعاشر تدفق الأفلام، وأفلام الكرتون، والمسلسلات، والمنوعات الغنائيّة التي تشجع التجارب المُبْتكِرة (من المسلسل التلفزيونيّ الفرنسيّ المعنون السجين Prisonnier، إلى كولومبو Columbo، إلى المسلسل التلفزيونيّ الأميركيّ آلي ماكبيل (Ally McBeal). ويبقى أيضًا إنتاج جماليّة عصر ووسيلة إعلاميّة تمزج، بحسب التقييم الرائد الذي قام به دايفيد ثوربورن (David Thorburn) أو أمْبرتو إيكو (Umberto Eco) (1987)، التقنيّات الحرفيّة والثقافة الشفهيّة، والبُنى الأسطوريّة والمبتكرات الشكليّة التي تنجز ذاتها بمفردها، والسخرية والتناصّ في المنتج الثقافيّ الواحد. وباختصار، يمزج بين ضروب الموضة القديمة والأقل قدمًا. إن التلفزيون المتعدد، والتلفيقيّ في عمقه، هو أنموذج لـ «وسيط ثقافيّ» (médiaculture). إنه شكل جديد للوساطة السياسيّة والجماليّة التي لا تستند أساسًا إلى ثقافة تراتبيّة، ولا إلى الفصل بين الفن والاتصال (Maigret, Macé, 2005).

t.me/ktabpdf مكتبة

أبعد من صدمة الثقافات: ما هو مستقبل المدرسة؟

تأخذ غالبيّة النّاس في الاعتبار الوجود الضمنيّ للثقافة التلفزيونيّة، على رغم ما يُسجّل في الغالب من ابتعاد عن كل ما يُعتبر تافهًا ورديئًا (هذا ما يمكن استخراجه من تقويم الثقافة، وأيضًا من التنازل للمعيار الأدبيّ، ففي الوقت الذي شرعت الأيديولوجيا المدرسيّة بالتراجع، يجب على المدرسة أن تعيد تعريف مهمتها بصعوبة. ولازالت النزعة المانويّة حاضرة أيضًا في هذا المقام، ويجب تجنبها. والمدرسة لا تستطيع أن تتحوّل إلى مؤسسة تسجل صدى الممارسات اليوميّة والثقافة الشعبيّة (ما هي؟) بعد أن قامت بالتعبير عن ثقافة النخبة. إنّها تبحث اليوم عن طريق نصف معبَّد للوصول إلى أشكال معاصرة للثقافة وتعليم الكفاءات التقليديّة التي تشكل أيضًا، ثقافتنا.

المراجع:

ALLARD Laurence, «Dire la réception. Culture de masse, expérience esthétique et communication», *Réseaux*, 68, 1994.

BAUDELOT Christian, CARTIER Marie, DETREZ Christine, *Et pourtant ils lisent*..., Seuil, 1999.

BAUDELOT Christian, ESTABLET Roger, *Le Niveau monte*, Seuil, 1989.

BAXANDALL Michael, *L'Œil du Quattrocento* (1972), Gallimard, 1985.

BERNSTEIN Basil, *Langage et classes sociales. Codes socio-linguistiques et contrôle social* (1971), Minuit, 1975.

t.me/ktabpdf مكتبة

BOURDIEU Pierre, *Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques*, Fayard, 1982.

_____, *La Distinction. Critique sociale du jugement*, Minuit, 1979.

_____, *Esquisse d'une théorie de la pratique*, Genève, Droz, 1970.

BOURDIEU Pierre, BOLTANSKI Luc, CASTEL Robert, CHAMBOREDON Jean-Claude, *Un Art moyen. Essai sur les usages sociaux de la photographie*, Minuit, 1965.

BOURDIEU Pierre, DARBEL Alain, *L'Amour de l'art. Les musées d'art européens et leur public*, Minuit, 1966.

BOURDIEU Pierre, PASSERON Jean-Claude. *Les Héritiers. Les étudiants et la culture*, Minuit, 1964.

CERTEAU Michel de, *L'Invention du quotidien*, t. I, *Arts de faire* (1980), Gallimard, 1990.

_____, (écrit en collaboration avec Dominique JULIA et Jacques REVEL), «La beauté du mort. Le concept de culture populaire», *in* CERTEAU, Michel de, *La Culture au pluriel* (1974), Seuil, 1993.

CHARTIER Roger, *Au bord de la falaise. L'histoire entre certitudes et inquiétudes*, Albin Michel, 1998.

_____, *Culture écrite et société. L'ordre des livres (XIV^e^-XVII^e^ siècle)*, Albin Michel, 1996.

_____, «Textes, imprimés, lectures», in POULAIN Martine, (dir.), *Pour une sociologie de la lecture. Lecture et lecteurs dans la France contemporaine*, Le Cercle de la Librairie, 1988.

COULANGEON Philippe, «Classes sociales, pratiques culturelles et styles de vie. Le modèle de la distinction est-il vraiment obsolète?», *Sociologie et sociétés*, 36/1, 2004.

_____, «La stratification sociale des goûts musicaux. Le modèle de la légitimité culturelle en question», *Revue française de sociologie*, 44/1, 2003.

DAYAN Daniel (dir.), «À la recherche du public. Réception, Télévision, Médias», *Hermès*, 11-12, 1993.

DONNAT Olivier, «La stratification sociale des pratiques culturelles et son évolution. 1973-1997», *Revue française de sociologie*, XL/1, 1999.

_____, *Les Pratiques culturelles des Français. Enquête 1997*, La Découverte-La documentation Française, 1998.

_____, *Les Français face à la culture. De l'exclusion à l'éclectisme*, La Découverte, 1994.

_____, «Démocratisation culturelle: la fin d'un mythe», *Esprit*, 34, Mars-Avril 1991.

DONNAT Olivier, COGNEAU Denis, *Les Pratiques culturelles des Français, 1973-1989*, La Découverte-La documentation Française, 1990.

DONNAT Olivier, TOLILA Paul (dir.), *Le(s) Public(s) de la culture*, Presses de Sciences Po, 2003.

DUMAZEDIER Joffre, *Vers une civilisation du loisir?* Seuil, 1962.

DUPONT Florence, *Homère et Dallas. Introduction à une critique anthropologique*, Hachette, 1991.

ECO Umberto, *De Superman au surhomme* (1978), Grasset, 1993.

_____, «Innovation et répétition: entre esthétique moderne et post-moderne », *Réseaux*, 68, 1994 (1987).

ESTABLET Roger, FELOUZIS Georges, *Livre et télévision: concurrence ou interaction?* Presses Universitaires de France, 1992.

ÉTHIS Emmanuel, *Sociologie du cinéma et de ses publics*, Armand Colin, 2005.

_____, (dir.), *Avignon, le public réinventé. Le festival sous le regard des sciences sociales*, La documentation Française, 2002.

FISKE John, HARTLEY John, «Bardic Television» in *Reading Television*, Londres, Methuen, 1978 (repris dans NEWCOMB Horace (dir.), *Television, The Critical View*, New York, Oxford University Press, 1987).

FROW John, *Cultural Studies and Cultural Value*, Oxford, Clarendon Press, 1995.

GLEVAREC Hervé, *Libre antenne. La réception de la radio par les adolescents*, «Médiacultures», Armand Colin-INA, 2005.

_____, «La fin du modèle classique de la légitimité culturelle.. Hétérogénéisation des ordres de légitimité et régime contemporain de justice culturelle. L'exemple du champ musical», *in* MAIGRET Éric, MACÉ Éric (dir.), *Penser les médiacultures. Nouvelles pratiques et nouvelles approches de la représentation du monde*, Armand Colin-INA, 2005.

GLÉVAREC Hervé, PINET Michel, «La radio, un espace d'identification pour les adolescents», *in* DONNAT Olivier (dir.), *Regards croisés sur les pratiques culturelles*, DEP-La documentation Française, 2003.

GRIGNON Claude, PASSERON Jean-Claude, *Le Savant et le populaire. Misérabilisme et populisme en sociologie et en littérature*, Gallimard-Seuil, 1989.

t.me/ktabpdf

مكتبة

HENNION Antoine, MAISONNEUVE Sophie, GOMART Émilie, *Figures de l'amateur. Formes, objets, pratiques de l'amour de la musique aujourd'hui*, La documentation Française, 2000.

INSEE. *www.insee.fr* (consulter notamment Insee Première et la liste des publications portant sur les pratiques culturelles).

ISER Wolfgang, *L'Acte de lire*, Bruxelles (1976), Pierre Mardaga, 1985.

JAUSS Hans Robert, *Pour une esthétique de la réception* (1970), Gallimard, 1978.

JENSEN Klaus Bruhn, ROSENGREN Karl Erik, «Cinq traditions à la recherche du public» (1990), *Hermès*, 11-12, 1992.

KALIFA Dominique, *La Culture de masse en France (1860-1930)* (2 vol.), La Découverte, 2001.

LAHIRE Bernard, *La Culture des individus. Dissonances culturelles et distinction de soi*, La Découverte, 2004.

LE GRIGNOU Brigitte, *Du côté du public. Usages et réceptions de la télévision*, Economica, 2003.

LE GUERN Philippe, PASQUIER Dominique (dir.), «Les nouvelles formes de la consécration culturelle», *Réseaux*, 117, 2003.

LEENHARDT Jacques, JÓSZA Pierre (avec Martine BURGOS), *Lire la lecture. Essai de sociologie de la lecture*, Le Sycomore, 1982.

LEVINE Lawrence W., *Highbrow/Lowbrow, The Emergence of Cultural Hierarchy in America*, Cambridge, Harvard University Press, 1988.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LIVINGSTONE Sonia, BOVILL Moira (dir.), *Children and their Changing Media Environment. A European Comparative Study*, Mahwah, Lawrence Erlbaum Associates, 2001.

MAIGRET Éric, «Pierre Bourdieu, la culture populaire et le long remords de la sociologie de la distinction culturelle», *Esprit*, Mars-Avril 2002.

_____, «Les trois héritages de Michel de Certeau. Un projet éclaté d'analyse de la modernité», *Annales HSS*, 3, 2000.

MAIGRET Éric, MACÉ Éric (dir.), *Penser les médiacultures. Nouvelles pratiques et nouvelles approches de la représentation du monde*, Armand Colin-INA, 2005.

MAUGER Gérard, POLIAK Claude, PUDAL Bernard, *Histoires de lecteurs*, Nathan, «Essais et Recherches», 1997.

MÉDIAMÉTRIE, Enquête annuelle sur les audiences TV (*www.mediametrie.fr*)

MEHL Dominique, *La Fenêtre et le miroir. La télévision et ses programmes*, Payot, 1992.

MENGER Pierre-Michel, «L'oreille spéculative. Consommation et perception de la musique contemporaine», *Revue française de sociologie*, XXVII/3, 1986.

MISSIKA Jean-Louis, WOLTON Dominique, *La Folle du logis. La télévision dans les sociétés démocratiques*, Gallimard, 1983.

MOULIN Raymonde, *L'Artiste, l'institution et le marché*, Flammarion, 1992.

t.me/ktabpdf

مكتبة

PASQUIER Dominique, *Cultures lycéennes. La tyrannie de la majorité*, Autrement, 2005.

PASQUIER Dominique, JOUËT Josiane (dir.), «Les jeunes et l'écran», *Réseaux*, 92-93, 1999.

PASSERON Jean-Claude, *Le Raisonnement sociologique. L'espace non-poppérien du raisonnement naturel*, Nathan, «Essais et Recherches», 1991.

PEDLER Emmanuel, *Sociologie de l'opéra*, Parenthèse, 1999.

_____, (avec Emmanuel ETHIS), «En quête de réception : le deuxième cercle. Approche sociologique et culturelle du fait artistique», *Réseaux*, 68, 1994.

PETERSON Richard A., «Le passage à des goûts omnivores: notions, faits et perspectives», *Sociologie et sociétés*, XXVI/1, 2004.

_____, «Understanding Audience Segmentation. From Elite and Mass to Omnivore and Univore», *Poetics* 21, 1992.

PICARD Michel (dir.), *La Lecture littéraire*, Clancier-Guénaud, 1987.

POULAIN Martine (dir.), *Pour une sociologie de la lecture. Lecture et lecteurs dans la France contemporaine*, Le Cercle de la Librairie, 1988.

SCHULZE Gerhard, *Die Erlebnisgesellschaft. Kultursoziologie der Gegenwart*, Francfort et New York, Campus Verlag, 1992.

SEIBEL Bernadette (dir.), *Lire, faire lire. Des usages de l'écrit aux politiques de la lecture*, Le Monde Éditions, 1995.

t.me/ktabpdf

مكتبة

SHUSTERMAN Richard, *L'Art à l'état vif. La pensée pragmatiste et l'esthétique populaire*, Minuit, 1991.

SOUCHON Michel, «La télévision dans l'espace des loisirs», *Projet*, 229, 1992.

_____, *La Télévision des adolescents*, Éditions Ouvrières, 1969.

THORBURN David, «Television as an Aesthetic Medium», *in* CAREY James W. (dir.), *Media, Myths, and Narratives. Television and the Press*, Newbury Park, Sage, 1990.

_____, «Television Melodrama», *in* NEWCOMB Horace (dir.), *Television, the Critical View*, Oxford, Oxford University Press, 1987.

VAN EIJCK Koen, KNULST Wim, «No More Need for Snobbism : Highbrow Cultural Participation in a Taste Democracy», *European Sociological Review*, 21/5, 2005.

VIALA Alain, *Naissance de l'écrivain. Sociologie de la littérature à l'âge classique*, Minuit, 1985.

WOLTON Dominique, *Éloge du grand public. Une théorie critique de la télévision*, Flammarion, 1990.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الفصل العاشر

الدراسات الثقافيّة
من النقد إلى التلقّي وما بعدهما

يمكن وصف حركة «الدراسات الثقافيّة» البريطانيّة والأميركيّة التي ازدهـرت في الفترة الممتدّة من سبعينيّات القرن الماضي إلى تسعينيّاته، كخلاصة للجهود التي بُذلت في موضوع الثقافة الجماهيريّة، بالنظَر إلى العديد من الجوانب. فعلًا، لقد جمعت هذه الدراسات بين النظرة النقديّة لوسائل الإعلام المتيقِّظة لأشكال الهيمنة الثقافيّة، والمنحى الفهميّ لاستخدامات الثقافة الإعلاميّة في إطار حلّ نظريّ جديد لمشكل العلاقة بين السلطة والثقافة. واهتمت هذه الحركة بشدّة بالمقاربة النوعيّة التي تجمع التقاليد الأدبيّة والإثنوغرافيا وسوسيولوجيا الملاحظة بالمشاركة، بإطار نظرة ترفض أن تكون نخبويّة. لقد شكلت «الدراسات الثقافيّة» مرحلة أساسيّة في التفكير في الثقافة الجماهيريّة، بقضائها على «محرَّم» (tabou) التفوق المطلق لأشكال ثقافيّة على أخرى، وبانفتاحها على ممارسات الجمهور الثريّة. وهذا بصرف النظَر عما نعتبره في العادة أخطاء شعبويّة وما بعد حداثيّة.

ثقافة الفقير: نحو إثنولوجيا الأوساط الشعبيّة

يعود أصل ما شكَّل سديم البحوث الكبير، والذي تجاوز حدود التخصصات العلميّة والقارّات، إلى ريتشارد هوغارت، أستاذ الأدب

t.me/ktabpdf مكتبة

في جامعة برمنغهام ومؤلف كتاب **ثقافة الفقير** (1957)، الذي يقع في نقطة تقاطع السيرة الذاتيّة والكتابة الإثنوغرافيّة. ينحدر هذا الكاتب من الطبقة العاملة البريطانيّة التي عاشت ظروفًا قاسية، وارتقى مختلف درجات السلّم الاجتماعيّ بفضل منحة التعليم التي حصل عليها، والتي سمحت له بمتابعة دراساته العليا. لقد تغلب على شتى أنواع العار والإحراج التي تنتاب تلميذًا مُسْتَحِقًا، وتغلب أيضًا على الانفصال عن وسطه الاجتماعيّ الأصليّ، لكنه ظلّ شديد الارتباط بعالم العمال، الذين اعتُبروا مغتربين عن واقعهم نتيجة تعرضهم لوسائل الإعلام، وغير قادرين على تشكيل ثقافة حقيقيّة، فألقى نظرة عالِم الأنثربولوجيا على هذا العالَم الذي يعرفه وعاش في كنفه. لقد لاحظ في البداية أن قراء الصحافة الشعبيّة ذات المقروئيّة الواسعة، والمملوءة بالقصص العجيبة، والمتسمة بالإثارة، ليسوا سلبيّين تجاه محتوياتها. إنها موضع الاهتمام المُنزاح (أو «الاستهلاك غير المكترث» كما ورد في ترجمة الكتاب المذكور أعلاه إلى اللغة الفرنسيّة التي قام بها جان كلود باسرون). ولا يوجد انخراط قويّ في محتويات هذه الصحف التي يتولاها القرّاء بسخرية، ولامبالاة، وعدم ثقة، إذ يجب عليهم معرفة «ما يُؤْخذ منها وما يُتْرك». إننا نتصفح الصحيفة لمعرفة النهاية قبل أن نبدأ، ولا نتوقف عند الإعلانات المنشورة. إننا نتعلق بعالم يمتِّعنا من دون أن نحكم عليه بأنه واقعيّ. وتلتقي هذه الملاحظات في جوهرها مع تلك التي قدمها كُتّاب الاستخدامات والإشباعات ومنظرو المصفاة التعليميّة، مع اختلاف أن معنى الممارسات حاضر

t.me/ktabpdf مكتبة

في «الدراسات الثقافيّة» في بعده الكامل. يقدم هوغارت لمكونات الثقافة العماليّة وصفًا شديد الارتباط بالرغبة في تجاوز ظروف العمل القاسية رمزيًّا من خلال الميل إلى الحيويّة، والحماس، وممارسة ألعاب القمار. إن القيمة العليا لهذه الثقافة تكمن في البيت: يشكل الحي والسكن معبدًا أمام التهديدات الخارجيّة، ويهيكل التعارض بين «هم» و«نحن» العلاقات الاجتماعيّة، نظرًا إلى أن عالم الشغل والطب، على سبيل المثال، يظلان بعيدَين عن هذا المعبد. وتستخدم وسائل الإعلام لتغذية الحياة اليوميّة بلذَّة إثر لذّة على الدّوام، ومن أجل تعزيز الشراكة المقدسة داخل البيت. إن هذه الوسائل تتحدث عن عالم من الوعود يشكل بيئة الأوساط العماليّة، لكنها تدفع، على وجه الخصوص، الجمهور للحديث عنها وعن المواضيع التي تثيرها، وتزيد في النشاط داخل البيت. وقد سبق تحليل وسائل الإعلام هذا قدوم التلفزيون، لكننا نعرف إلى أي حد يسمح هذا التحليل بفهم الاستخدامات الشعبيّة للتلفزيون: في بيوت العمال يقبع جهاز التلفزيون وسط قاعة الأكل، ولا يتوقف عن البث مالئًا القاعة بأصوات زائدة، ويُستخدم حاملًا لأطراف الحديث المتبادل من دون التركيز على برامجه، إن لم يُسْخَر منها[43].

---

(43) يمكن العثور على دراسة شبه هوغارتيّة خاصة بالنجاح الذي حققه التلفزيون لدى الأوساط الشّعبيّة، في البحوث الفرنسية التي قام بها أوليفييه شوارتز (Olivier Schwartz) (1990) أو في الدراسات التلفزيونية التي قام بها شامبا وإهرنبرغ (Chambat et Ehrenberg, 1988) ودومينيك بوييه (Dominique Boullier, 1988, 2004).

t.me/ktabpdf مكتبة

ماركسيّة «ستيوارت هول» الجديدة

تلتقي تحليلات هوغارت مع تلك التي قام بها إدوارد بالمر تومسون (Edward P. Thompson)، المؤرخ البريطانيّ المعارض للرؤية الكئيبة للبروليتاريا التي روّجتها الماركسيّة في زمانه، وتلتقي أيضًا مع تحليلات رايموند وليامز (Raymond Williams) خصوصًا، الذي ينحدر مثله من عالم العمال. لقد كان الأخير ناقدًا للنظريّة الماركسيّة للثقافة[44]. وهكذا، تشكلت كوكبة من المفكرين جعلت التفكير في نظريّة مدرسة فرانكفورت ممكنًا بالابتعاد عنها، لكنها تصرح بانتمائها إلى اليسار الجديد. أسس هوغارت مركز **الدراسات الثقافيّة المعاصرة** (Centre for Contemporary Cultural Studies) في 1964، وهو أصبح مُسمّى تيار بحثيّ تطوّر في برمنغهام لتحقيق الطموح ذاته، وبعد أن انشغل بانطلاقة التلفزيون العموميّ البريطانيّ وشارك في أشغال منظمة اليونسكو، تنازل عن إدارة المركز المذكور لستيوارت هول في سبعينيّات القرن الماضي. إن لهذا الجامعيّ الجامايكيّ المولد مسارًا خاصًّا. لقد تأثر جدًّا بتجربة الاختلاف الثقافيّ وانسلاخ الأقليّات المهاجرة في بريطانيا عن أصولها. إنه من أبناء الاستعمار البريطانيّ، وعرف كيف يكون «قطعة سكر في كوب الشاي الإنكليزيّ» كما يُقال. وعانى في حياته

---

(44) لوحظ التقارب الفكريّ بين هوغارت ووليامز إلى درجة أنه تحول أسطورة انتشرت حول هذين المؤسسين للدراسات الثقافيّة، علمًا بأنّ وليامز لم يشارك في مركز البحث الذي أسسه هوغارت بمفرده، وأن الاختلاف بينهما موجود أيضًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

من لون بشرته[45]، وتحوّل إلى «مثقف الشتات» بعد إقامته في بريطانيا بفضل منحة دراسيّة. لقد التحق بالتيار الماركسيّ على رغم رفضه سلطته التعليميّة: لم تعزّز رغبتُه في التغيير الاجتماعيّ الميلَ السائد آنذاك لدى العديد من المفكرين المتطرفين إلى السلطة والنخبويّة. أحدث ستيوارت هول الثورة النظريّة التي كانت منتظرة في الماركسيّة البريطانيّة، فقَبِلَ فكرة أن الهيمنة الرأسماليّة تتجسد عبر العمل والثقافة في آن، وفق ما كان يؤكّدهُ كتاب **الأيديولوجيا الألمانيّة** لفريدريك إنغلز وكارل ماركس، وأن مؤسسات التعليم والتربية ووسائل الإعلام تنشر أيديولوجيا المهيمنين بواسطة عالم من العلامات، وهذا ما فهمته سيميائيّة رولان بارت وأمبرتو إيكو، لكنه تأثر بكتابات أنطونيو غرامشي وماركس المؤرّخ، فأعطى محتوى أنثربولوجيًّا لما كان يُعتبر في العادة قناعًا للمصالح وستارًا من الأوهام: الأيديولوجيا نظام من الدلالات والممارسات التي تعبر عن قيم مجموعة اجتماعيّة، وليست إستراتيجيّة فقط، وحيلة موجّهة لخداع الذين يقعون في فخها. لقد أُدخل التناقض في المخطط وعلى كل مستويات المجتمع. وعالم المسيطرين ليس موحدًا ومتجانسًا، لكنه نزاعيّ، ويستند إلى تحالف شرائح اجتماعيّة ظرفيّ. وعالم وسائل الإعلام الذي ينتمي إلى «الطبقة الحاكمة»، هو صدى لصراعاتها الداخليّة،

---

(45) نعثر على العديد من العناصر حول المسار الفكريّ لهذا الكاتب في الكتاب الذي ألفه كل من دايفيد مورلي (David Morley) وشين كوان ـ هزينغ (Chen Kuan-Hsing) بعنوان *Stuart Hall.Critical Dialogues in Cultural Studies*، 1996.

t.me/ktabpdf

مكتبة

ويملك أيضًا استقلاله الذاتيّ في التسيير. إن وسائل الإعلام تتجه إلى إعادة إنتاج الحقل الأيديولوجيّ للمجتمع وبُنية هيمنته، ولكن لا يتعلق الأمر إلّا باتجاه منسّق، فإذا كانت أيديولوجيا المهيمنين تسعى إلى تقديم نفسها طبيعيّة وكونيّة، وتفرض نفسها في شكل «هيمنة» أي أيديولوجيا مُسَيْطِرة، فالتناقضات تتخلّلها وتكون في حالة «توازن غير ثابت»(Gramsci). إن الأيديولوجيا متغيّرة تاريخيًّا، وتواجه صراعًا طبقيًّا يتجلى في قدرات المقاومة وتناقضات الأوساط الشعبيّة. ويجب أن نعيد لعالم العمال كرامتهم كفاعلين، مثلما فعل هوغارت أو جورج تومسون (George Thompson). ومن الضروريّ، أيضًا، عدم الاكتفاء بعالم العمال فقط. وكل الشرائح الاجتماعيّة الخاضعة للهيمنة تشارك في اللّعبة الثقافيّة، وتعبر بواسطة وسائل الإعلام الجماهيريّ وعبر علاقتها بها.

أنموذج التشفير / فكُّ التشفير

جعل ستيوارت هول من الثقافة فضاءً للنزاعات، ورفَضَ فكرة التطابق بين لحظة إنتاج الرسائل الإعلاميّة وتلقّيها، فلا يمكن أبدًا حتّى الحديث عن الاتصال إن كان القطبان مختلطين! لقد ساهمت في ذلك لسانيّة باختين (أو فولوسينوف) مع سيميائيّة رولان بارت وأمبرتو إيكو «المُصَحَّحَة»، تلك التي لا تؤمن بفرض رسائل أيديولوجيّة على الجمهور الذي يعتبر شموعًا ليّنة، فأمام تشفير الرسائل الذي تقترحه وسائل الإعلام، يرصد ستيوارت هول ثلاثة أنماط من تلقّي الرسائل أو فكّ التشفير (Codage/décodage) (1973):

مكتبة t.me/ktabpdf

1- **النمط المهيمن**: يتعادل فيه فكّ التشفير الذي يقوم به المتلقّي مع تشفير المرسل. لقد تم التحقّق من هذا النمط «عندما يدمج مشاهد المعنى الضمنيّ من الأخبار التلفزيونيّة أو من برنامج إخباريّ، مباشرة ومن دون قيد في الشَّفْرَة المرجعيّة التي استخدمت للتشفير، ويفكّ شفْرَات الرسالة وفق الشَّفْرَة ذاتها». وبطريقة ما، تناسب هذه الحالة تلك التي سَلَّمت بها السيمياء في ستينيّات القرن الماضي، حيث كانت تتخيل أن الجمهور يبتلع الرسالة كما تم تصنيعها أو يتجرعها (لكن هذه السيمياء اعتبرت أيضًا أن الجمهور كان ينتظر المعايير المتوسطة، والشَّفْرات المفروضة)، لكنها لم تعفِ الرسائل، حتى في هذه الحالة، من التوتّرات والتناقضات، لأن الأيديولوجيا التي تحملها هي نتاج تنافس بين المهيمنين أنفسهم، وبين المهيمنين و«وكلائهم الدالّين» أي المنظمات الإعلاميّة.

2 ـ **النمط المفاوض والمغيّر لجزء من الدلالات المستخلصة من الرسائل**. يتقبل المتلقّي تعريف الواقع الذي تنقله الرسالة، لكنه يكيّفه محليًّا، ويحدّ من مراميه، وحتّى يعترض جزئيًّا عليه. فالعامل يستطيع أن يتقبل الحجج التي تروجها الأخبار، والمتعلقة بتجميد رواتب العمال باسم المصلحة الوطنيّة، لكنه يقرر الإضراب عن العمل للدفاع عن راتبه.

3 ـ **النمط المعارض**: ويظهر المرجعيّات الأجنبية للتشفير من أجل معارضته. ويُحْدِث المتلقّي في هذه الحالة تعارضًا بين الأيديولوجيا التي ينخرط فيها والأيديولوجيا التي ينتقد تضميناتها.

t.me/ktabpdf مكتبة

وحتى نستعيد المثال الذي قدمه ستيوارت هول، والمتعلق بتجميد الرواتب (في سياق سبعينيّات القرن الماضي)، يستبدل المشاهد «المصلحة الوطنيّة» بـ«مصلحة الطبقة الاجتماعيّة» في الخطاب الإعلاميّ: «إن المتلقّي يسحب الرسالة من الكود الذي يفضله المرسل من أجل إعادة إدماجها في إطار مرجعيّ آخر».

لا يوجد سبب يدفع إلى فك تشفير رسالة بشكل آلي مثلما تم تشفيرها، على رغم هيمنة الصدفة في نظر ستيوارت هول، الذي يعتبر السلطة حدثًا يتواجد في كل مكان. إن الهيمنة هي فرض معنى مسيطر أو افتراض قراءة «تفضيليّة» للرسالة. لقد أكَّدت البحوث الميدانيّة التي قام بها دايفيد مورلي على أنموذج مركز الدراسات الثقافيّة المعاصرة على الصعيد الإمبيريقيّ، ففي دراسة عنوانها **على الصعيد الوطنيّ** (*Nationwide*)، وجّه دايفيد مورلي أسئلته إلى 29 مجموعة من المشاهدين لبرنامج إخباريّ، وأبرز الفجوة القائمة في قراءتها، فتجلت الفروق الفعليّة بينها وفق الوسط الاجتماعيّ والسن والجنس. وفي تقديمه صورة معقدة للتلقّي، عرّض مورلي أنموذج «التشفير/ فكّ التشفير» للخطر، الذي يخلط أبعاد المعرفة والفهم والتأويل، والرد على الرسائل. إن إعادة اكتشاف النتائج اللازارسفيلديّة من باحثين يساريّين كانوا في البداية معادين لهذا التيار البحثيّ، وفق اتّهام جيمس كوران (James Curran)، الذي تحدث عن إعادة اختراع العجلة في مقاله العلميّ المعنون «عقد المراجعات. البحث في الاتصال الجماهيريّ في الثمانينيّات» (1992)، لا تقتصر على هذا فقط، فلقد استمد عالم الاجتماع دايفيد مورلي فكرة أن الأشخاص

t.me/ktabpdf مكتبة

ورثة منظومة اجتماعيّة وثقافيّة وقادرون على اختراع أشكال من الفعل وإنتاجه، من الأبحاث التي أنجزها غيدنز وبرنشتاين وبورديو ودو سارتو، فأدمج مفهوم «أيديولوجيا ـ حوار» في بحوثه، وهذا لم يقم به بول لازارسفيلد، فبتصدّيه للدراسات النسويّة التي قدمتها فان زونن (Van Zoonen) (1994)، تخلّى مورلي عن التأويل المتمركز حول الطبقة الاجتماعيّة وحدها، إذ بيّن أن السلطة ليست مرتبطة بالصراع الطبقيّ فحسب، بل بالاختلاف في سنّ الأشخاص، والأدوار المتعلقة بجنسهم، ذكورًا أو إناثًا... إلخ. إنها منتشرة نسبيًّا في الجسم الاجتماعيّ بأسره. واستلهم ستيوارت هول أنموذجه المقترح، الذي يعيد ضمنيًّا إنتاج التقسيم الثلاثيّ الكلاسيكيّ بين نظام القيم المهيمن (البرجوازيّة) ونظام القيم التابع (قيم الشرائح الوسيطة)، ونظام القيم المتطرف (التابع للأحزاب الثوريّة)، من بحوث فرانك باركن (Frank Parkin) حول الطبقات الاجتماعيّة، غير أن مسألة التفاوض حول المعنى ليست مرتبطة بالطبقة الاجتماعيّة فقط.

على رغم هذه الصعوبات، من الممكن الحديث عن ملخص بريطانيّ لدراسة التواصل في مطلع ثمانينيّات القرن الماضي. ويتضمّن القول إن كل شخص يختار ما يرغب فيه من أشكال التعبير والمعنى، فكرة ساذجة، لكن بالموازاة مع هذا القول تم الطعن في مخطط الثقافة الجماهيريّة الفقيرة والمُفقِرة، لأنه لا يمكن تصور أن العلاقة بين وسائل الإعلام وجمهورها آليّة ومباشرة، بمعنى أنها تغريبيّة وتقوم بغسل المخ. إن الثقافة «الشعبيّة» أو «الجماهيريّة» ليست تعبيرًا فنيًّا متحرّرًا من الإكراهات الطبقيّة، وليست تأثيرًا خالصًا

t.me/ktabpdf مكتبة

للسيطرة. إنها عبارة عن علاقة يتمّ التفاوض حولها لكن لمصلحة الأوساط الاجتماعيّة المسيطرة.

الانزياح الأميركيّ

يجب أن يوصف انتقال «الدراسات الثقافيّة» إلى الولايات المتحدة الأميركيّة بعبارات كَميّة: لا تمكن مقارنة عدد الأساتذة في بريطانيا بعدد الباحثين منهم المهتمين بدراسة الاتصال. وباستثناء جامعة برمنغهام وغولدسميث كولدج بلندن، التي يُدَرِّس فيها دايفيد مورلي، تطوّرت «الدراسات الثقافيّة» في الأقسام الجامعيّة الهامشيّة نسبيًّا في بريطانيا (في المعاهد المتعددة التقنيّات التي لا تعادل المعاهد الجامعيّة للتكنولوجيا في فرنسا(*)) .ولقد تمّ فتْح خطط للأساتذة الباحثين في «الدراسات الثقافيّة» ببريطانيا بوتيرة بطيئة منذ ثمانينيّات القرن الماضي، وبضغط من الطلبة وليس بمبادرة من الجامعة، خلافًا للولايات المتحدة الأميركيّة، التي أسست أقسامًا جامعيّة بمسمى «الدراسات الثقافيّة»، وتغيّرت المراحل التعليميّة القديمة لتبنّي هذه الراية. ويعود السر في نجاح هذه الدراسات إلى لقاء إرادتين نقديّتين. لقد اعتبرت «الدراسات الثقافيّة» بمثابة إعادة هيكلة تخصص علميّ أوّلًا (أو بالأحرى كعلم من دون تخصص محدّد) انطلاقًا من رفض التخصصات العلميّة الكلاسيكيّة التي تطبعها البنيويّة، والوجوديّة، والمواقف النخبويّة، فالدراسات الأدبيّة لا تركز سوى على الأدب المُكَرّس، بدءًا من «الدراسات السينمائيّة»

(*) يمكن القول، من باب التوضيح، إنها معاهد تؤهل الطلبة للتأطير التقنيّ والمهنيّ في القطاعات الإنتاجيّة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

إلى عشاق السينما (film studies). أما العلوم الاجتماعيّة، فقد أهملت راهن وسائل الإعلام في آنيته، لذا كان من المأمول خلق شكل جديد من التعليم. ثمّ برزت «الدراسات الثقافيّة» كحركة اجتماعيّة مناهضة للنخبة البيضاء المتعلمة، البروتستانتيّين الأنغلوساكسونيّين البيض (WASP)، وتحالفت مع التيارات النسويّة، وجعلت من نضال الأقليّات الإثنيّة والمثليّين قضيتها. إذًا، لقد التقت ظاهرة الجماعات الاجتماعيّة في عز تطوّرها بالاهتمام بأشكال الهويّة التي تُعَدُّ مقموعة: يمكن أن نعتبر «قسم الدراسات الثقافيّة» في الولايات المتحدة الأميركيّة كتلة لتعليم تاريخ الثقافة الأفرو - أميركيّة، وثقافة الأميركيّين المنحدرين من أصول آسيويّة... وغيرهم. لقد استُخدمت الدراسات الثقافيّة في 1980 نقطةَ لقاء، وعُمْلةً تتداولها مختلف التخصصات العلميّة والحقول المعرفيّة (الدراسات الأدبيّة، والدراسات الإنكليزيّة، والدراسات السينمائيّة، والدراسات الإعلاميّة، ودراسات الجندر، والدراسات عن المثليّين، ودراسات الإثنيّة والزنوج... وأخرى). لقد ارتبطت كل هذه الدراسات برد الاعتبار إلى الثقافة الشعبيّة والجماهيريّة. وكانت النتيجة أن عبارة «الدراسات الثقافيّة» شرعت في رصد مواضيع، ومواقف نظريّة، وممارسات لم يطالب بها مؤسسوها بالضرورة.

المواقف النظريّة الجديدة: نقد جذري للنخبويّة

تم التحضير للدراسات الثقافيّة الأميركيّة أساسًا من خلال التقليد الذرائعيّ، وسوسيولوجيا رايت ميلز وهربرت غانز (Herbert Gans)،

مكتبة t.me/ktabpdf

وإصـدارات ماكلوهان وجيمس كـاري أو مجلة الثقافة الشعبيّة (Journal of Popular Culture) لجون كاولتي (John Cawelti)، وسلكت نهجًا أصيلًا بإحداث نقلة نظريّة ومنهجيّة على العديد من المستويات. بالطبع، كانت بريطانيا المحفز الفكريّ للدراسات الثقافيّة حتى في انفتاحها على «الثقافات الفرعيّة» وعلى النقد الجامعيّ، فأستاذ الأدب أنطوني إيستهوب (Anthony Easthope)، اقتنع بضرورة «نهاية» الأدب، وريتشارد داير (Richard Dyer) برهن مبكرًا على خصوصيّة قراءة الأساطير الهوليووديّة الكبرى من وجهة نظر المثليّة الجنسيّة، وبهذا قَرَّب الدراسات عن المثليّين جنسيًّا إلى الدراسات السينمائيّة، واتجهت أنجيلا ماكروبي (Angela McRobbie) وشارلوت برانسدون (Charlotte Brunsdon) إلى البحث في مجال «الـدراسـات النسويّة» (Women's Studies)، واشتغل مارتن باركر (Martin Barker) على الشريط المرسوم... لقد حجّ العديد من الباحثين الأميركان إلى برمنغهام، نذكر منهم أنـدرو روس (Andrew Ross) المختص في موضوع المثقفين الأميركيّين وعلاقتهم بما هو شعبيّ، ولورانس غروسبرغ (Lawrence Grossberg) الـذي جسد حركة التجديد في تسعينيّات القرن الماضي. لكن الدراسات الثقافيّة الأميركيّة طالبت بشدة بقطيعة منهجيّة، حيث أعلنت عن إرادتها الحديث عن الثقافة الجماهيريّة من داخل هذه الثقافة، وعدم الحديث عنها وعن استخداماتها بطريقة «محايدة» أو «باسم الغير». لقد تحوّلت إلى مؤسسة راديكالية لنقد النخبويّة الثقافيّة وتأثيرها، وذلك بالقضاء الدائم على تأثير التعريفات

t.me/ktabpdf مكتبة

التي يقدمها الباحث للثقافة الجماهيريّة ويفرضها بواسطة دراسة ذاتيّة لموقفه الاجتماعيّ والمؤسساتيّ (وهو في هذا يمارس العنف على كل ما يشكل موضوعًا، خصوصًا الشعبيّ منه)، فلا يمكن أن نتحدث باسم الآخرين، لذا تجب محاولة إلغاء المسافة التي تفصلنا عن الشعب والأقليّات الاجتماعيّة والعرقيّة بشكل ملموس، وإلغاء حتى المسافة السوسيولوجيّة التي تتحدث عن الحياد القيميّ، فهذه المحاولة الصحيّة هي نقد لنقد أدورنـو، من دون أن تكون توبة أو حُبْسَة فكريّة. يمثّل جون فيسك ـ من وجهة النظر هذه ـ الوجهَ الأكثر دلالة، فلقد التزم بتبرير قصديّ للثقافة التلفزيونيّة، وأعلن أنه جامعيّ ومعجب بالمسلسل التلفزيونيّ الخاص بالخيال العلميّ الذي يحمل مسمّى (Star Trek) على سبيل المثال (انظر كتابه **فهم الثقافة الشعبيّة** *Understanding Popular Culture*, 1989)، فعندما يقوم أحد ورثته، الباحث الثنائيّ الميول الجنسيّة هنري جنكينز (Henry Jenkins)، باكتشاف القراءات المزدوجة الميل الجنسي ـ باعتباره هو كذلك ـ للمسلسل التلفزيونيّ ذاتـه، على غـرار الباحثين في مجال «الدراسات عن الشاذين أو المثليّين جنسيًّا» (Gay or Queer Studies) الذين قاموا بالإفصاح عن ميولهم، فهو يبلور فكرة أن الجمهور منتج أيضًا للنصوص وليس متلقّيًا فقط، وأنه إستراتيجيّ وليس تكتيكيًّا، وذلـك فـي كتابه **الصيد النصّي غير الشرعيّ، المعجبون بالتلفزيون والثقافة التشاركيّة** (*Textual Poachers. Television Fans and Participatory Culture*) (1992). وقد استعاد فيه حدس ميشال دو سارتو حول الصيد غير الشرعيّ من

أجل تطبيقه في مسألة المعجبين بالمنتجات الدراميّة ونجومها والأنواع الثقافيّة.

أزاحت الدراسات الثقافيّة الأميركيّة حدود البحوث في مجال الثقافة المبخوسة، من خلال اهتمامها بكل ما له صلة بالمعنى في عالم «وسائل الإعلام»: الثقافة الوسيطة، ثقافة الفئات الاجتماعيّة المتوسطة... ويجب الاعتراف بأن الدراسات الثقافيّة البريطانيّة ظلّت متحفظة تجاه كل ما لا يمثل، من وجهة نظرها، الثقافة الشعبيّة الأصيلة: الثقافة العماليّة (الذكوريّة)، فكتاب **ثقافة الفقير**(*)، الذي يمكن أن يمثل مدخلاً جيّدًا لدراسة التلفزيون واستخداماته الشعبيّة، يتضمّن لهجة تنديديّة بوسائل الإعلام الجديدة المتهَمة بتخريب الثقافة العماليّة التقليديّة التي تصونها وسائل الإعلام التقليديّة (الصحافة المكتوبة): لم يتجنب هوغارت الانسياق وراء الموقف المندّد بالثقافة المتوسطة الجديدة والفردانيّة التي تعمل على تآكل التضامن العائليّ. لقد اعتبر ديك هيبداج (Dick Hebdige) «الثقافة الفرعيّة» للمنحرفين تمردًا عماليًّا في كتابه **الثقافة الفرعيّة، معنى الأسلوب** (*Subculture. The Meaning of Style*)، (1979). وبهذا شكل استئنافًا لهوغارت في تحيّزه ذي النزعة العماليّة. وقد سار على الدرب ذاته فريق البحث الذي قاده كل من ستيوارت هول وتوني جيفرسن (Tony Jefferson) عن

(*) العنوان الأصليّ للكتاب هو (*The Uses of Literacy: Aspects of Working Class Life*).

t.me/ktabpdf مكتبة

«حليقي الرؤوس»(*) (Skinheads)، وفيلم روكيرز (Rockers)(**) (انظر مؤلفهما بعنوان **المقاومة من خلال الطقوس، ثقافات الشباب الفرعيّة في مرحلة ما بعد الحرب ببريطانيا** *Resistance through Rituals. Youth Subculture in Post-War Britain,* 1976). لقد أثارت شارلوت برانسدون الجانب الهامشيّ في «دراسات الجندر» (gender studies) في برمنغهام واستنكرته، بينما أشار البعض إلى أن ستيوارت هول جامايكيّ المولد، ولم يشر أبدًا قبل 1990[46] إلى معنى أن تكون زنجيًّا في الكومنولث... ولم يتناول هوغارت وهول بالدَّرْس مَن نسميهم - من باب السخرية - «برجوازيّين صغارًا» في سبعينيّات القرن الماضي. لقد فنّدا أطروحة خداع الجماهير، ووقفا موقف استنكار لعالم تحتقره الماركسيّة بوجه خاص، هذا بخلاف العديد من الدراسات الأميركيّة حول ثقافات المعجبين، وهي ثقافات متنوعة، وليست خاصّة بوسط اجتماعيّ واحد، بل تنتمي أوّلًا، في أشكالها الأوضح، إلى الفئات الاجتماعيّة الوسيطة. ويقع التلفزيون

(*) حليقو الرؤوس: حركة ظهرت في أوساط الشباب البريطانيّ المنحدر من الطبقة العاملة في ستينيّات القرن الماضي، اتسمت بنمط لباس أعضائها وميلهم إلى الموسيقى الزنجية - بخاصة القادمة من جامايكا - وباستخدام عضلاتهم في الشجار.

(**) روكيرز: عنوان فيلم جامايكيّ أخرجه للسينما ثيودور بافالوكوس (Theodoros Bafaloukos) في 1978، ومثّل فيه العديد من نجوم موسيقى «الريغي» (Reggae) الجامايكيّة.

(46) تجب الإشارة إلى أن بول غيلروي (Paul Gilroy) دشن التفكير في هويّة الإثنيّات والأقليات «العرقيّة».

t.me/ktabpdf مكتبة

في قلب البحوث الميدانيّة، لبعده التشاركيّ، ولكونه يشكل ثقافة وسيطة أي ثقافة مشتركة، فالمسلسلات التلفزيونيّة، مثل دالاس ودواينستي (Dynasty) تحوّلت إلى ذريعة للعديد من المناقشات، فخرجت الأقليّات الإثنيّة والجنسيّة من دائرة المسكوت عنه، فكل ما ليس له علاقة بنظام التناقض بالمعنى الطبقيّ أضحى مطروحًا في مؤلفات دونا هاراواي (Donna Haraway)، وكونستانس بينلي (Constance Penley)، وأندرو روس، وبل هوكس (Bell Hooks)، مثل الممارسات الجسديّة الهامشيّة أو غير الهامشيّة (الوشم، وغُـرزات الجسد... إلـخ)، والـمـواد الإباحيّة، وألعاب الفيديو، والسايبرتكنولوجيا... وغيرها. إن الدراسات الثقافيّة الأميركيّة تصف عالمًا أكثر مساواة من ذاك الذي تخيلته النماذج العموديّة التي قدمها بيار بورديو، وغبريال تارد، وإليهو كاتز، وبول لازارسفيلد، لكنه عالم مدموغ بالتعبير الحاد عن الاختلافات والهويّات.

تعدّد المعاني والتفاوض المعمَّم حول المعنى

قامت الدراسات الثقافيّة الأميركيّة بتجذير أنموذج «التشفير/ فك التشفير» على صعيد نظريّة الممارسات، باستدعاء مبدأ الاستقلال الذاتيّ للقارئ في تأويله الذي استعرضه رولان بارت في كتابه لذة النصّ، وبيّنه بشكل خاص ميشال دو سارتو. إن الأيديولوجيا هي فرض سلطة، يخضع لها المرء، أو يتفاوض حولها و/ أو ينتقدها، لكن خلافًا لهول ومورلي، تم التركيز على التفاوض، أو بالأحرى على النقد. إن الممارسات الشعبيّة هي تكتيكات مقاومة ترتكز على

t.me/ktabpdf مكتبة

تعدّد أساسيّ لمعاني المحتويات مهما كانت طبيعتها. إنه التعدّد الذي يدمج المتعة ويعزّز الهويّات. من أجل توضيح فكرة تعدديّة التأويل، يشرح جون فيسك، بمزاح، أن فيلم رامبو (Rambo) الأول (بطولة سيلفستر ستالون Sylvester Stallone) كان يندّد بالاضطهاد الذي يعاني منه أحد قدماء المقاتلين في فيتنام عندما عاد من الحرب إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، ويستعرض رده الحربي على العنف الذي تعرض له. لقد كان هذا الفيلم من الأفلام التي يفضلها الرئيس الأميركيّ السابق رونالد ريغان (Ronald Reagan) عند عرضه في قاعات السينما، وفَضَّله أيضًا سكان أستراليا الأصليّون. ومن دون القيام بدراسة تلقّي هذا الفيلم، من الممكن تخيّل أن التضمينات الرجوليّة والنزعة الوطنيّة الكامنة فيه دفعت الرئيس الأميركيّ المذكور إلى تبني هذا الفيلم، بخاصّة أن هذا الرئيس كان حريصًا على طي صفحة ماضي الشعور الأميركيّ بالإثم جراء هذه الحرب، وساهرًا على إبراز الولايات المتحدة الأميركيّة قُوَّة منتصرة. أما بالنسبة إلى سكان أستراليا الأصليّين، فقد استعان جون فيسك بدراسة الباحث الأسترالي إريك مايكلز (Éric Michaels)، الذي بيّن درجة لامبالاة هؤلاء السكان بالشأن الأميركيّ في هذا الفيلم. لكنهم وجدوا ذاتهم في بطله. هذا الشخص الأخرق، والناطق باللغة الإسبانيّة أي غير المؤهل للتعبير بمصطلحات البروتستانتيّين الأنغلوساكسونيّين البيض المهيمنة، والمطارد من الشرطة، والعائد إلى وضعه الطبيعيّ باللجوء إلى العيش في الغابة. لقد أدرك السكان الأصليّون بأستراليا السرد الفيلميّ المذكور كاستعارة لظروف حياتهم الخاصّة: كان على

t.me/ktabpdf مكتبة

هؤلاء السكان تبني التقاليد اللسانيّة البريطانيّة، وشكلوا مجموعة اجتماعيّة تعاني من أعلى نسبة انحراف في أستراليا وتواجَه بأقسى عقاب، فكانت علاقتهم قويّة بالطبيعة، و«الأحــراش» تحديدًا. وتزدحم كتب جون فيسك بالأمثلة المدهشة، فأغنية **«أسِرَّة تحترق»** (Beds are burning) التي تؤديها الفرقة المسماة **«زيت منتصف الليل»** (Midnight Oil)، تحظى بشعبيّة كبرى لدى عمال المناجم الأستراليين الذين يهتمون بإيقاعها الصوتي (موسيقى الروك القويّة) ولا يهتمون بكلماتها المتعاطفة مع سكان أستراليا الأصليّين، لأنها تتعارض مع أحكامهم العرقيّة المسبقة. وتصوِّر أغنية «مولود في الولايات المتحدة الأميركيّة» (Born in the USA) التي يؤديها بروس سبرينغستين (Bruce Springsteen)، وهي قصيدة شعرية ثلاثيّة، خيبةَ أمل التقدميّين في الحلم الأميركيّ، لكنها تشكل نشيدًا وطنيًا جديدًا بالنسبة إلى المحافظين. وتمثل المغنية مادونا (Madonna) مادة للتخيّل الجنسيّ لدى الشباب وحلمًا بالتحرّر بالنسبة إلى الشابّات. وتختلف الاستخدامات الاجتماعيّة لسروال الجينز بشدّة.

يستعرض مسار الباحثة جانيس رادواي (Janice Radway) الفكرة التي اشتغل عليها العديد من الجامعيّين في ذاك العصر. قرّرت هذه الباحثة المدافعة عن حقوق المرأة والمختصة بالأدب، الاهتمام بالروايات العاطفيّة الكندية التي نشرتها سلسلة **أرلوكان** (Harlequin) الكندية الشهيرة، لتكون شاهدة على الهيمنة التي تمارسها على قارئاتها. وقامت بتحليل الروايات سيميائيًّا، واختارت الاتصال بمجموعة من القارئات المعجبات بها في مدينة تقع غرب وسط الولايات

t.me/ktabpdf مكتبة

المتحدة الأميركيّة وفق مقاربة يُقال إنها إثنوغرافيّة تُطلق مقاربات الكُتّاب المندّدين بهذه الروايات. كانت القارئات المتحمسات اللواتي التقت بهن ماكثات في البيت وينتمين إلى الفئات الوسطى، ويتبادلن الروايات ويناقشن ما يفضّلنه في قراءتهن في نادٍ. لقد عبرت رادواي عن اندهاشها، الذي تزايد تدريجيًّا، في كتابها **قراءة الرواية** (*Reading the Romance*) (1984)، وهو ما كشف عنه تحليلها نصوصَ هذه الروايات. لقد أبان محتواها السرديّ المكرّر والأبويّ، الذي لا يكف عن تأكيد دونيّة النساء اجتماعيًّا، حيث يُبرز امرأة شابة وجميلة تقع في غرام شابّ ميسور الحال. إنهما معروفان مهنيًّا، الشاب يرفض الفتاة في البداية لكن علاقتهما تنتهي بالزواج، فهذه الروايات تبرز دائمًا بطلاتها سلبيّات، وحتى خانعات لأوامر الذكور (قيام البطل باغتصاب الأنثى في مطلع كل رواية ليس حالة نادرة)، لأنهن مرغوبات لجمالهن فقط، ومتعطشات للزواج. وهذا يكرّس التفوق الذكوريّ وقبولهن بالإهانات التي توجّه إليهن. إن تأويل القارئات هذه الروايات متجانس، ويتعارض في الوقت ذاته مع تأويل الباحثة إياها، فسلسلة روايات أرلوكان تعدّ دروسًا رائعة للرجال ولطبيعتهم المتوحشة، لأنها تظهرهم في طور التحوّل للالتحاق بمواقف النساء. تتبنّى قارئات الروايات العاطفيّة بكل تأكيد، الكليشيهات أو الأقوال المأثورة الرومانسيّة والأبويّة الكامنة في هذه الروايات، والتي تعزّز دونيّتهن الاجتماعيّة. إنهن يفعلن ذلك لأن تمشهد السيطرة الجنسيّة واستعراضها اللذين تعاني منهما النساء يوميًّا في حياتهن، حاضران لمنح مصداقيّة لوضعيّة يجب أن تزاح في اتجاه آخر كليًّا.

t.me/ktabpdf مكتبة

قراءة روايات أرلوكان (وفق جانيس رادواي، 1984)

السرد «السيميائيّ»	سرد القارئات
لقاء امرأة شابة وفاتنة لكنها فقيرة تلتقي برجل ثريّ ومعترف به مهنيًّا. التفوق الاجتماعيّ للرجل. الحب يحجب السيطرة.	**لقاء** امرأة شابة وفاتنة لكنها فقيرة تلتقي بشاب ثريّ ومعترف به مهنيًّا. التفوق الاجتماعيّ للرجل. الحب مرفق بالسيطرة.
القطيعة الرجل فظّ مع المرأة: تمرّ الهيمنة الاجتماعيّة أيضًا عبر الهيمنة البدنيّة.	**القطيعة** الرجل فظّ مع المرأة: السيطرة الاجتماعيّة تتحقّق، أيضًا، عبر السيطرة البدنيّة.
الانفصال المرأة تعمل على تَقَبُّل دونيّتها.	**الانفصال** الرجل يعمل من أجل التحوّل إلى القيَم الأنثويّة.
التصالح انتصار ذكوريّ، لأن المرأة تتقبل العنف السالف والزواج يكرّس تفوق الزوج.	**التصالح** انتصار أنثوي، لأن الرجل يعترف بالعاطفة ويرفض العنف.

ترى القارئات أن بطلات الروايات كائنات متعطشات إلى الاستقلاليّة ومستعدات للصراع ضد البطل، ويحصلن في النهاية على الاعتراف بهويتهن الخاصّة كنساء. ويتأنث البطل في نهاية الرواية من

t.me/ktabpdf مكتبة

خلال التصريح، بحنان، عن حبه باكيًا. إن التحوّل إلى القيم التقليديّة التي تعتبر «مؤنثة» يأخذ كل معناه في الروايات العاطفيّة، التي إن لم تُظْهِر المرأة في ظروف الخانعة لا تكون واقعيّة وصائبة[47]. إن أول ما تراه جانيس رادواي في هذا التلقّي المدهش للروايات المذكورة، هو قمة مكر الأيديولوجيا الأبويّة، فنظرًا إلى عدم قدرة القارئات على تغيير حياتهن، يحلمْن بانتصار متخيّل يمنعهن من التصرف في هذا الاتجاه في العالم الواقعيّ. واستنتجت رادواي في مقدمة الطبعة الجديدة لكتابها المذكور في 1992، شكلًا من الحركة النسويّة التي تروّج لها الروايات العاطفيّة أو تصقلها، وهذا بعد أن اطّلعت على البحوث التي أُنجزت في مجمل حقول «الدراسات الثقافيّة». ولئن خلت هذه الروايات من النزعة الثوريّة فهي تدفع بعض النساء إلى مواجهة ظروفهن بوعي، وتسمح لهنّ بالتفكير فيها، وتصوّر حلولًا جديدة لها. باختصار، تشجع هذه الروايات أيضًا التغيير الاجتماعيّ، فالتفاوض حول المعنى المستمَدّ من وسائل الإعلام يُعدّ تجربة متناقضة وتقدميّة جزئيًّا.

صعوبات «الديموقراطيّة السيميائيّة» و«النزعة ما بعد الحداثيّة»

إنّ المغالاة المفرطة في الممارسة «الثقافيّة» تبدو محفوفة بالخطر من الناحية المنهجيّة، فالحديث عن مجموعات ذات هُويّات

---

(47) من أجل تحديث محتويات روايات أرلوكان (Harlequin)، راجع مؤلف برونو بيكينيو (Bruno Péquignot) *La Relation amoureuse. Analyse sociologique du roman sentimental moderne*، 1991.

t.me/ktabpdf مكتبة

ثابتة جدًّا، تقوم بفكّ تشفير الرسائل انطلاقًا من هذه الهويّات، يقود إلى نزعة جوهرانيّة وإلى النزعة الثقافويّة. و«الشعبويّة» ليست بعيدة عن هذا الخطر عندما تجعل المرء يفتخر بثقافة يعتقد أنه ينتمي إليها، ويحافظ في الوقت ذاته على الكرسيّ الجامعيّ، فيمكن المرء أن يتحدث باسم «الشعب» ويمتلك الوعي الكامل بانتمائه إلى الذين يعتقد أنهم منفتحون على الآخرين، فيطور على وجه الخصوص التخيّلات الفكريّة التي تخلط تأويلاتهم: شعب مُتَخَيَّل، وشعب يريد ملاحظته. لقد ندّد ستيوارت هول بهذا الأمر الذي يعد بمثابة «صوت يصدر من البطن»، وابتعد عما يعتبره انحرافًا.

وفي ترحيل «السلطة» من النصّ إلى القارئ، الذي تحوّل إلى منتج للمعنى في آخر تحليل، هرب بعض الكُتّاب تدريجيًّا إلى الأمام في اتجاهين متعارضين ومتكاملين. يؤدي التثمين الأحاديّ «للثقافات الشعبيّة» أوّلًا إلى تبرير حرية الفاعلين. وجون فيسك يطرح فكرة «حرب العصابات السيميائيّة» انطلاقًا من الطبعة الفوضويّة لما يسميه ميشال دو سارتو «الصيد غير الشرعيّ» و«تكتيكات» الالتفاف على الرسائل، وهذا من أجل أن يشرح فكرة أن مستخدمي وسائل الإعلام قادرون دائمًا على اختيار ما يناسبهم مما يبدو أنه أصبح سوقًا للقيم: إنه النصّ المتشعب لـ«الديموقراطيّة السيميائيّة»[48].

(48) إنّ الصورة التي يقدمها المؤلّف التلفزيون كمنتدى ثقافيّ لهوراس نيوكومب (Horace Newcomb) وبول هيرش (Paul Hirsch) (1987) قريبة من هذه الملاحظات. ومن جهة أخرى، يمكن الإطلاع على كتاب دانيال دايان (Daniel Dayan) (1992) لأخذ صورة عن النقاش حول اهتزاز الجمهور وعدم ثباته.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بينما لاحظ العديد من النقاد، ومورلي تحديدًا، أن في هذا التوجّه سعيًا إلى إضفاء طابع الشرعيّة على العقلنة الوحيدة لآليّات السوق التي تقوم بها الثقافة الجماهيريّة. يستطيع المرء أن يجد الأسباب التي تجعله يستهلك منتجًا ثقافيًّا محدّدًا من الثقافة الجماهيريّة ويبرره في إطار الليبراليّة المتطرفة. ومن جهة أخرى، يفسر نجاح الدراسات الثقافيّة في الولايات المتحدة الأميركيّة بمغازلتها تيّارًا نتج عن موت البنيويّة. إنه تيار فلسفة «ما بعد الحداثة» وإشكاليّتها «التفكيكيّة» التي تغذّت من النظريّات الفرنسيّة (جان فرانسوا ليوتار، وجان بودريّار، وميشال فوكو، وجاك دريدا Jacques Derrida). إن كان كلّ شيء مبنيًّا بواسطة الخطاب فكل شيء يمكن أن يُفكَّك، ولا يوجد جوهر الأشياء وإنّما تمثّلات تسير نحو نهايتها (مقتبس) إلى درجة أن الهويّات والمعتقدات تصبح متشذّرة ومهتزة وغير مستقرة (لورانس غروسبرغ)، وأن الواقع لا شيء سوى الخطابات التي يتلفّظ بها المرء. إن الحدس بعدم استقرار الممارسات الثقافيّة، في هذا المقام ثريّ جدًّا لأنه يتعارض مع النزعة الثقافيّة التي ترى أن الهويّات ثابتة وساكنة. فتعدد منطق المرء أو مجموعة من الأشخاص يُحْتمل أن يكون متناقضًا. لكن هذا الحدس يتحوّل، في نظر البعض، إلى نظريّة عدم تماسك الهويّات، والسيولة والميوعة، والترحال. بينما تؤدي الملاحظة المعزولة، التي تؤكد قدرات الجمهور الكبرى ومرونة الهويّات، إلى الابتذال مثلما بيّن ذلك المؤلفان الأستراليان، ميغان موريس (Meaghan Morris) وجون فرو (John Frow) في نقدهما.

t.me/ktabpdf مكتبة

ومقابل نظريّة التفكيك هذه التي تؤدي إلى فلسفة الواقع المتشعب والصور الزائفة، يقدم ستيوارت هول تأويلًا أقلّ تجريدًا لما هو اجتماعيّ. إن رهان «ما بعد الحداثة» أقلّ من رهان تعريف تجارب الحداثة الجديدة أو التجارب داخلها والتي تعبر عنها صور «الأجنبي» و«البدوي المُترحّل» (موضوع المقيمين في الشتات) والخُلْس والهجانة الثقافيّة. لقد استحوذت «الدراسات الثقافيّة» على إعادة تجديد سياق مسألة الهويّات، وعلاقاتها بالثقافة الجماهيريّة المعولمة والتي تتسم بهجانة متزايدة بواسطة الباحثين الأستراليين والآسيويّين الذين ركزوا على إزاحة مسألة الهويّات، وفئات العلوم الاجتماعيّة والحداثة، عن طروحات «ما بعد الكولونياليّة». وأعادوا طرح الدراسات الثقافيّة في إشكاليّة أقرب إلى المُساءلة السوسيولوجيّة عن النزعة الفردانيّة المعاصرة، وأشكال التجربة والاتّفاق، بالعودة أيضًا إلى البحوث الفرنسيّة، لكن هذه المرّة في مجال السوسيولوجيا (انظر الفصل 15).

بعيدًا في البنائيّة:
منعطفات الشذوذ الجنسي ودراسات ما بعد الكولونياليّة

يمكن القول كخلاصة، إن الدراسات الثقافيّة تقدم أنموذجًا من التفاوض حول المعنى أو الاتصال متعدّد الأصوات يسمح بتجاوز التعارضات الجذريّة بين الثقافة النبيلة / المسيطرة والثقافة الشعبيّة الخانعة (التعارض الذي تبرهن عليه السوسيولوجيا الثقافيّة بدقة في الممارسات الثقافيّة). وتُذَكّرنا الدراسات الثقافيّة بتطبيقها ما جاء

مكتبة t.me/ktabpdf

به المنعطف الغرامشيّ للماركسيّة بوجود علاقات سلطة في الثقافة بصفة عامّة، والاتصال الجماهيريّ بصفة خاصّة، ذات تأثير مهيمن، لكنه ليس مضمونًا، كما يوضحه ستيوارت هول. إن الخطابات التي تروجها وسائل الإعلام ليست متجانسة أبدًا وإن كان مرسلوها يرومون هيمنة حقيقيّة: ليست الأوساط المهيمنة قادرة، ببساطة، على احتلال مواقع من دون الاستناد إلى نظام من التحالفات المؤقتة وغير المستقرة بالضرورة، فجزء من التفاعلات التي تتمّ بين الصحافيّين وكتّاب السيناريو ومالكي القنوات التلفزيونيّة والقائمين بالإشهار والمصالح الاقتصاديّة تفسّر النزاع في الوسط الإعلاميّ. وتبيّن عبر نزاعها هذا تعدديّة المعاني الإعلاميّة. والأكثر من هذا أن التجارب الاجتماعيّة للمجموعات التابعة والمهمَّشة التي أنشأتها العلاقات الطبقيّة والنوع (ذكر أو أنثى) و«العرق» أو الإثنيّة، ليست كلها منغمسة في العنف الثقافيّ المعيش، لكنها تميل إلى التعبير عن ذاتها عبر اختراع العديد من الثقافات الفرعيّة أو الثقافات المضادة، والتي تؤثر بدورها، إلى حد بعيد، على الثقافة الجماهيريّة، مثلما نلاحظه في موسيقى الجاز، وثقافة الهيب ـ هوب(*)، وثقافة المثليّة الجنسيّة والسحاق، فمن مؤلفات الاتصال الجماهيريّ ذاتها تتناسل الاستخدامات والتأويلات المنفلتة من قصديّة المنتجين والموزعين لتتحوّل حواملَ لبناءات هويّاتية مختلفة: احتجاجيّة، ومعارضة، وغير

(*) Hip-hop: حركة ثقافيّة قادها الشباب من أصول أفريقية في جنوب نيويورك في سبعينيّات القرن الماضي، تجمع بين الراب والرسوم الفنيّة على الجدران.

مكتبة

t.me/ktabpdf

متزامنة استوعبتها الدراسات الثقافيّة في إطار تحوّلها الإثنوغرافيّ. إن تجاوز الصعوبات التي واجهتها الدراسات الثقافيّة (النزعة الثقافويّة الخالصة وما بعد الحداثة السائلة(*)) تمَّ باللجوء إلى نظريّة التجارب التشكيليّة للحداثة.

إن التحوّل الجديد الأكثر بنائيّة والأكثر اتساعًا في مرجعيّاته وأبعاده من التحوّل الثقافيّ الذي عاشته «الدراسات الثقافيّة» يسمح لها أيضًا، بألا تظلّ متأرجحة بعقم بين الوجوديّة وما بعد الحداثة، فالبنائيّة لا تحثّ على الانتقال من المرجع إلى الواقع فقط، بل تحفز أيضًا على عدم تصور الواقع خارج مسار التأويل. والطبعة الأكثر تتويجًا لهذا التحوّل هي تلك التي طورتها جوديث باتلر (Judith Butler) (1990)، وإيف كوسوفسكي (Eve Kosofsky) (1991) وتيريزا دو لَوْريتس (Teresa de Lauretis) (1987)، في إطار دراسات عن الشذوذ الجنسيّ (Queer Studies)، كتخصص فرعيّ في الدراسات الثقافيّة التي تركز على تحليل الأقليّات المثليّة والسحاقيّة الأكثر حرمانًا اجتماعيًّا (تعني كلمة queer باللغة الإنكليزيّة: غريب وشاذ،

(*) «الحداثة السائلة»: استعارة استعملها عالم الاجتماع زيغمونت باومان (Zygmunt Bauman) في جملة استعاراته: الحياة السائلة، الحب السائل، الأزمنة السائلة، الثقافة السائلة، الخوف السائل، المراقبة السائلة... وهي الاستعارات التي تصف انتقال الحداثة الغربيّة من مرحلة الصلابة إلى السيولة، فما هو سائل لا يستطيع أن يحافظ على شكله بعد تعرضه لضغط أو قوة خارجيّة، وهذا ينطبق على المجتمعات الغربيّة المعاصرة التي أصبحت تتسم بهشاشة الروابط الاجتماعيّة. إنها تتطور بسرعة فائقة من دون أن تمنح الوقت لهذه الروابط والمؤسسات لتتماسك وتتصلب.

t.me/ktabpdf مكتبة

وتُعَدّ شتيمة). وتحوّل هذا التخصص الفرعيّ إلى بوتقة للتحوّلات في مجمل العلوم الاجتماعيّة. لقد قدمت جوديث باتلر، التي تأثرت بميشال فوكو في نظرته إلى سياسة الهويّة، وجهة نظر راديكاليّة عن المعارف التي تجعل من المسار الهوياتيّ والأفعال الإنسانيّة مجموعة من «الكفاءات»، بالمعنى الذي ذهب إليه جاك دريدا وجون أوستن، وذلك لأن القول فعل، والواقع الاجتماعيّ هو أوّلًا وقبل كل شيء لعبة إلصاق الصفات التي تتصلب عبر الزمن، فليس المذكر والمؤنث قوّة طبيعيّة ومعطًى، بل مجموعة من العمليّات التاريخيّة التي يجب تشخيصها وتعيينها أمام الفصل البيولوجيّ الواضح للأنواع، فـ«الجنس»، هذا التعيين المفترض أنه أكثر فجاجة، يبدو دائمًا «مستهلكًا». إن تصنيف النوع (رجال ـ نساء) والتصنيف الجناسيّ (التغاير الجنسيّ والمثليّة الجنسيّة) هما مجرد بناء تاريخيّ ينتج الأحداث التي يحيل إليها. فالاضطهاد الأبويّ أو البطريركيّ هو الذي كان وراء هذه الانشطارات الثنائيّة، وليس الطبيعة. واقترحت جوديث باتلر الدخول إلى مصنع الاختلافات من أجل التنديد بها، وارتأت تحرير الجنس من علاقات الهويّة، واستكشاف إمكانات العلاقة بالجسد والتَمَثّلات في وسائل الإعلام. لكن بعيدًا عن أطروحة ما بعد الحداثة، فإن فكرة جوديث باتلر هي تفكيك هذه العلاقة بالإخفاء أي عبر البيان أو الاتفاقيَّة الخاصّة بالنظرة للجنس (بالمعنى الذي ذهبت إليه الفيلسوفة بياتريس بريسيادو Beatriz Preciado) وليس بالإعلان مثلما ذهب إليه جان بودريّار. إن السياسات المعارضة للهويّات ليست بسيطة، ولا يتم التهافت عليها في عالم تَشَبَّع بالمعاني لتنزلق

t.me/ktabpdf مكتبة

إلى عالم من دون إكراهات، عالم ناعم ومجرد من المعنى. فما يسمى أيضًا «تكنولوجيا النوع»، تبعًا لـ«تكنولوجيات الذات»(*) لميشال فوكو، يمكن أن تكون في خدمة لعبة التفكيك الجزئيّ للهويّات لتغيير آثار التعيين الهويّاتي من دون أن تلغيها.

إن تطبيق المعرفة عن الشذوذ الجنسي في مجال الثقافة الإعلاميّة يسمح بتطوير مقاربة تستغني عن إلصاق الأوصاف مسبقًا بالثقافة النبيلة والأقلّ نبلًا، فمفهوم الأداء أو الإنجاز اللغويّ(**) يمنح أداةً لتحليل الأوضاع التي يكون عليها الأشخاص، سواء على مستوى الصورة أو الجسد أو اللّغة، فيجب توصيف الواقع الاتصاليّ الذي لم يُعَرَّف بطريقة واضحة ومستقرة، ويتوجب الإدراك أن التعريف ينتج تأثير السلطة. إن العناصر المرئيّة الدالة تعالَج كوحدات للفكر، والتَمَثُّل، والضبط، وللتأويل بحسب المعلومات المتوافرة عن مؤلفيها وجمهورها وليس باعتبارها أنظمة علامات مستقلة وحاملة دلالة في ذاتها. إن الصور الإباحيّة (Bourcier, 2001, 2005,

(*) يرى ميشال فوكو أن الانسان يتسم بالقدرة على ضبط النفس، ويضبط تكنولوجيا الذّات في الأبعاد الثلاثة: الغذاء، والاقتصاد، والإثارة الجنسيّة.

(**) لرفع اللبس عن المفهومين: الكفاءة اللُّغويّة (competence) والأداء أو الإنجاز اللّغويّ (performance)، تمكن الإشارة إلى أن نعوم تشومسكي ميَّز بينهما من خلال تأويله ثنائيّة دو سوسير: اللّسان والكلام، فالكفاءة اللُّغويّة في نظره مشتركة بين الناطقين بلغة ما، أي القدرة على معرفة المعجم اللسانيّ وملفوظاته النحويّة، وتسمح بتأويل الجمل الحبلى بالمعاني. بينما الأداء أو الإنجاز اللسانيّ هو إنتاج الملفوظات، ويرتبط بالفعل الفرديّ الذي لا يصل إلى الكفاية بحكم مستوى المهارات وضعف الذّاكِرَة.

t.me/ktabpdf مكتبة

(Williams, 2004 تذوب في موضوع موحد، وتتخذ أشكالًا موجّهة إلى الجمهور العريض (قضية كلينتون/ لوينسكي) والطلائعيّين والمثليّين جنسيًّا... إن التنديد الفرنسيّ بارتداء الفتيات الصغيرات الحجاب (Guénif-Souilamas et Macé, 2004) يحيل إلى تكتيكات توسيم مجمل هويّات سكان ضواحي باريس(*) ولا يروم حقيقة مساواة علمانيّة نبيلة فقط. هذه المقاربة تجعل من الممكن تحرير النظر أكثر فأكثر، من التصورات المسبقة التي تعيق فهم الثقافات المدروسة، وهكذا تقترب الدراسات عن المثليّة الجنسيّة من «دراسات التابع» (Subaltern Studies) و«الدراسات ما بعد الكولونياليّة» التي أدرجت في برنامجها انفتاح الخطاب العلميّ على وجهات نظر الأقليّات غير الغربيّة، على وجه التحديد، تماشيًا مع البحوث الرائدة لكل من بول غيلروي (Paul Gilroy)، وستيوارت هول، وهومي بابا (Homi Bhabha)، وإدوارد سعيد (Edward Said) وغاياتري شاكرافورتي سبيفاك (G. Ch. Spivak). تسمح مناهضة النزعة الجوهريّة في نظر هؤلاء الكُتّاب، بإعادة منح الكرامة للفاعلين الذين نفاهم التاريخ. وتُستخدم أيضًا لفهم مسار إحداث الانسجام في الهويّات وفي مشاعر الأقليّات المتناقضة، فأن تكون زنجيًّا، كما أشار غيلروي، هو نتاج اجتماعيّ وتاريخيّ مصطنع، وشكل من السيطرة، وثقافة أيضًا، وهويّة «معيشة

(*) تستعمل وسائل الإعلام الفرنسيّة مصطلح الضواحي الباريسيّة للإشارة إلى ساكنيها من الجيل الثالث من أبناء المهاجرين من دول شمال أفريقيا، حيث ترتفع نسبة البطالة والحرمان الاجتماعيّ.

t.me/ktabpdf

مكتبة

كشعور منسجم (وإن لم يكن مستقرًّا دائمًا) لتجربة الـذّات، وإن لم يكن واقعًا طبيعيًّا وتلقائيًّا ونتاج نشاط عمليّ» يتجسّد ـعلى سبيل المثال ـ في الممارسات الموسيقيّة التي تسمى زنجيّة، مثل الهيب ـ هوب.

لماذا تأخر وصول الدراسات الثقافيّة إلى فرنسا وإيطاليا؟

لئن عرفت الدراسات الثقافيّة نجاحًا حقيقيًّا في الدول الأنغلوساكسونية ودول شمال أوروبا وبعض الدول الآسيويّة أخيرًا، فيبدو أنها ظلّت غائبة في فرنسا وإيطاليا لمُدّة طويلة. ومن المحتمل أن غياب تقليد مثل هذا هو نتيجة لـ«آثار أحداث 1968» التي تُرجمت إلى نوع من التساهل الاجتماعيّ، ونتيجة أيضًا لتطوّر الحركات القويّة التي ترفض السلطات المُؤَسَّسة في هذه الدول، حيث اعتُبِرت وسائل الإعلام ـ من باب النخبويّة ـ جزءًا من هذه المؤسسات، سواء على صعيد وظائفها الإخباريّة أوالثقافيّة، ففي فرنسا دافع كلّ من جورج فريدمان (Georges Friedmann) وإدغار موران تحديدًا ورولان بارت (إلى حد ما، لأنه ظلّ بعيدًا عن الثقافة الإعلاميّة في إطار مركز دراسات الاتصال الجماهيريّ CECMAS) عن تقاليد البحث المهمة في فرنسا. لقد اهتمت هذه التقاليد بنقد الصناعات الثقافيّة، والدفاع عن الثقافات الجديدة، لكنها اندثرت في سبعينيّات القرن الماضي مع عودة مدرسة فرانكفورت، أو بالأحرى اكتشاف منجزاتها. إن انتصار سيميولوجيا ركزت على المحتويات في البلدين، وتثبيت سوسيولوجيا ثقافيّة فرنسيّة معادية نوعًا ما لدراسة وسائل

t.me/ktabpdf مكتبة

الإعلام، دراسة بيار بورديو مثلًا، فعلان طالما سحبا المشروعيّة من موقف هو على الأصح متسامح وسرعان ما نُعت بالشعبويّ. لقد اعتُبر مشكل عدم المساواة الاجتماعيّة حينئذ أساسيًا في فرنسا، لأنها وليدة مخيال «جمهوريّ» فرنسيّ يعاديّ صراحة كلَّ تصور للأقليّات. وبهذا، وُضِع الاختلاف في السن والجنس والإثنيّات (التصور الذي يُطرح في قلب مقاربات الدراسات الثقافيّة) في ذيل اهتمامات التقاليد البحثيّة الفرنسيّة.

إذًا، يمكن أن نعتبر ميشال دو سارتو الوحيد الذي جسد التقاليد «الثقافيّة» في فرنسا خلال الفترة الممتدة من سبعينيّات القرن الماضي إلى ثمانينيّاته، وذلك نظرًا إلى ما قام به من دور في إنجاز البحوث الميدانيّة حول الممارسات الثقافيّة في هذا البلد، ولتأثيره على الدراسات الخاصّة باستخدامات القراءة. لقد استُمدّ الكثير من الدراسات الثقافيّة الأنغلوساكسونيّة من أفكار ميشال دو سارتو وإن لم يتناسب استخدامُه من مختلف التيارات بالضرورة مع مواقفه ومؤلفه المعقد والأكثر سعة من مسألة التلقّي. ويُعدّ أمبرتو إيكو في إيطاليا ناشرًا للبحوث السخيّة ثقافيًا والمنفتحة على مختلف أشكال التعبير، ومدافعًا في الوقت ذاته عن سيميائيّة متألقة ومشهورة، لكنها شكليّة أي أنها لا تركز على الجمهور.

إنّ إعادة اكتشاف الثقافة الجماهيريّة بمفهومها الممتدّ وبمعناها غير السلبيّ والخالي من التوسيم، تمّت بفضل بحوث المؤرخين أو المواقف الموروثة عن إدغار موران، فكتاب جان لوي ميسيكا (Jean Louis Missika) ودومينيك وولتون **الافتتان بالخيال** (*La Folle*

t.me/ktabpdf مكتبة

(*L'Éloge du* وكتاب وولتون في مدح الجمهور العريض *du logis*) (*grand public* اللّذان صدرا في ثمانينيّات القرن الماضي، يمثلان دعوة قويّة لتجاوز مرحلة توسيم التلفزيون وجمهوره على مستوى توصيف وسائل الإعـلام الجماهيريّة كـأدوات تشكيل الجماعات الديموقراطيّة أكثر منه على مستوى المعنى من تحليل الثقافات. ففي فرنسا، وعلى غـرار إيطاليا، ضاعفت سيميائيّة أحفاد رولان بارت وأمبرتو إيكو وكريستيان ماتز التخصصات العلميّة، والرؤى، والمواضيع بإعادة ترحيل حدودها (مع بحوث فوستو كولومبو Fausto Colombo, 1998، على سبيل المثال). وسمح العمل الضروريّ الذي قام به دانيال دايان (Daniel Dayan) باستعادة تداول النُّصوص، فتيّار «علوم الإعلام والاتصال» يدرس قربه من «الدراسات الثقافيّة» (Jeanneret, Ollivier, 2004). وغيّرت السوسيولوجيا (الثقافة والحركات الاجتماعيّة) مسارها عبر انعطافها الواضح واتجاهها نحو وسائل الإعلام الجماهيريّ. لقد تجسدت هذه الحركة في إيطاليا انطلاقًا من تجربة مجلة **إيكون** (*IKON*) التي أشرف عليها جيوفانّي سيسارو (Giovanni Cesareo) القريب من ستيوارت هول ومن بحوث سلفاتوري أبروزيس (Salvatore Abruzzese).

المراجع:

ANG Ien, *Living Room Wars. Rethinking Media Audiences for a Postmodern World*, Londres, Routledge, 1996 (chapitre traduit: «Culture et communication. Pour une critique ethnographique de la consommation

t.me/ktabpdf مكتبة

des médias dans le système médiatique transnational», *Hermès*, 11-12, 1993).

_____, *Watching Dallas* (1985), Londres, Routledge, 1989.

BAKHTINE Mikhaïl, *Le Marxisme et la philosophie du langage. Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique* (1929), Minuit, 1977.

BARKER Martin, *Comics, Ideology, Power and the Critics*, Manchester, Manchester University Press, 1989.

BHABHA Homi K., *The Location of Culture*, Londres, New York, Routledge, 1994.

BOULLIER Dominique, *La Télévision telle qu'on la parle. Trois études ethnométhodologiques*, L'Harmattan, 2004.

_____, «Les styles de relation à la télévision», *Réseaux*, 32, 1988.

BOURCIER Marie-Hélène, *Sexpolitiques. Queer zones 2*, La Fabrique, 2005.

_____, *Queer zones. Politiques des identités sexuelles, des représentations et des savoirs*, Balland, 2001.

BRANTLINGER Patrick, *Crusoe's Footprints. Cultural Studies in Britain and America*, Londres, Routledge, 1990.

BUTLER Judith, *Le Pouvoir des mots. Politique du performatif* (1997), Éditions Amsterdam, 2004.

_____, *Trouble dans le Genre. Pour un féminisme de la subversion* (1990), La Découverte, 2005.

CAREY James, *Communication as Culture. Essays on Media and Society*, (1989), Londres, Routledge, 1992.

_____, «Mass Communication Research and Cultural Studies: An American View», *in* CURRAN James, GUREVITCH Michael, WOOLLACOTT Janet (dir.), *Mass Communication and Society*, Edward Arnold/The Open University Press, 1977.

CHAMBAT Pierre, EHRENBERG Alain, «De la télévision à la culture de l'écran. Sur quelques transformations de la consommation», *Le Débat*, 52, 1988.

COLOMBO Fausto, *La cultura sottile. Media e industria culturale in Italia dall'Ottocento agli anni noventa*, Milan, Bompiani, 1998.

CURRAN James, «La décennie des révisions. La recherche en communication de masse des années 80» (1990), *Hermès*, 11-12, 1992.

DAVIES Ioan, *Cultural Studies and Beyond. Fragments of Empire*, Londres, Routledge, 1995.

DAYAN Daniel (dir.), «À la· recherche du public. Réception, Télévision, Médias», *Hermès*, 11-12, 1993.

_____, «Les mystères de la réception», *Le Débat*, 71, 1992.

DYER Richard, *Le star-système hollywoodien* suivi de *Marilyn Monroe et la sexualité*, L'Harmattan, 2004.

_____, *Heavenly Bodies. Film Stars and Society*, Londres, BFI, 1986.

_____, *Stars*, Londres, BFI, 1979.

EASTHOPE Anthony, *Literary into Cultural Studies*, Londres, Routledge, 1991.

FISKE John, *Understanding Popular Culture*, Boston, Unwin Hyman, 1989.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, *Reading the Popular*, Boston, Unwin Hyman, 1989.

_____, «Moments of Television: Neither the Text nor the Audience», *in* SEITER Ellen, BORCHERS Hans, KREUTZNER Gabrielle, WARTH Eva-Maria (dir.), *Remote Control. Television, Audiences and Cultural Power*, Londres, New York, Routledge, 1989.

_____, «British Cultural Studies and Television», *in* ALLEN Robert (dir.), *Channels of Discourse*, Chapel Hill, Londres, University of North Carolina Press, 1987.

_____, *Television Culture* (1978), New York, Routledge, 1994.

FOUCAULT Michel, «Technologies du soi», in *Dits et écrits, 1954-1988*, II, Gallimard, 2001.

_____, «Sexe, pouvoir et la politique de l'identité», in *Dits et écrits, 1954-1988*, IV, Gallimard, 1994.

_____, *Histoire de la sexualité*, vol. 3, *Le souci de soi*, Gallimard, 1984.

FRITH Simon, *Performing rites: on the value of popular music*, Cambridge, Harvard university Press, 1996.

FRITH Simon, *Sociology of rock*, Londres, Constable, 1978.

FROW John, *Cultural Studies and Cultural Value*, Oxford, Clarendon Press, 1995.

GANS Herbert, *Popular Culture and High Culture*, New York, Basic Books, 1974.

GILROY Paul, *L'Atlantique Noir. Modernité et double conscience* (1992), Kargo, 2003.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, *There Ain't No Black in the Union Jack. The Cultural Politics of Race and Nation*, Londres, Hutchinson, 1987.

GRAMSCI Antonio, «La question des intellectuels, l'hégémonie, la politique» (1931), dans *Textes, Éditions Sociales*, 1983.

GRIPSRUD Jostein, *The Dynasty Years. Hollywood Television and Critical Media Studies*, Londres, Routledge, 1995.

GROSSBERG Lawrence, *It's a Sin. Essays on Postmodernism, Politics and Culture*, Sydney, Power Publications, 1988.

GUÉNIF-SOUILAMAS Nacira, MACÉ Éric, *Les féministes et le garçon arabe*, Éditions de l'Aube, 2004.

HALL Stuart, «New Ethnicities», *in* MORLEY David, KUAN-HSING Chen (dir.), *Stuart Hall. Critical Dialogues in Cultural Studies*, Routledge, 1996.

_____, «*Cultural Studies* and its Theoretical Legacy», *in* GROSSBERG Lawrence, NELSON Cary, TREICHLER Paula (dir.), *Cultural Studies*, New York, Routledge, 1992.

_____, «The Problem of Ideology: Marxism without guarantees» (1986), *in* MORLEY David, KUAN-HSING Chen (dir.), *Stuart Hall. Critical Dialogues in Cultural Studies*, Routledge, 1996.

_____, Introduction à MORLEY David, *Family Television. Cultural Power and Domestic Leisure*, Londres, Routledge, 1986.

_____, «Culture, the Media and the «Ideological Effect» », *in* CURRAN James, GUREVITCH Michael, WOOLLACOTT Janet (dir.), *Mass Communication and Society*, Edward Arnold/The Open University Press, 1977.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, «Codage/décodage» (1973), *Réseaux* 68, 1994.

HALL Stuart, JEFFERSON Tony (dir.), *Resistance through Rituals. Youth Subculture in Post-War Britain*, Londres, Harper Collins, 1976.

HARRIS David, *From Class Struggle to the Politics of Pleasure. The Effects of Gramscianism on Cultural Studies*, Londres, New York, Routledge, 1992.

HEBDIGE Dick, *Subculture. The Meaning of Style*, Londres, Methuen, 1979 (traduction partielle: «Système du mod», Réseaux, 80, 1996).

HOGGART Richard, *La Culture du pauvre. Étude sur le style de vie des classes populaires en Angleterre* (1957), Minuit, 1970.

JEANNERET Yves, OLLIVIER Bruno (dir.), «Les sciences de l'information et de la communication. Savoirs et pouvoirs», *Hermès*, 38, 2004.

JENKINS Henry, *Interview in* HARRISON Taylor *et al.* (dir.), *Enterprise Zones. Critical Positions on Star Trek*, Boulder, Westview Press, 1996.

JENKINS Henry, *Textual Poachers. Television Fans and Participatory Culture*, New York, Londres, Routledge, 1992.

JONES Paul, «The Myth of «Raymond Hoggart»: On «Founding Fathers» and Cultural Policy», *Cultural Studies*, 8/3, 1994.

KAENEL André, LEJEUNE Catherine, ROSSIGNOL Marie-Jeanne (dir.), *Cultural Studies*. Etudes Culturelles, Nancy, Presses Universitaires de Nancy, 2003.

KOSOFSKY Eve S., *Epistemology of the Closet*, Londres, Penguin, 1991.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LAURETIS Teresa de, *Technologies of Gender. Essays on Theory, Film and Fiction*, Indianapolis, Indiana University Press, 1987.

MAIGRET Éric, MACÉ Éric (dir.), *Penser les médiacultures. Nouvelles pratiques et nouvelles approches de la représentation du monde*, Armand Colin-INA, 2005.

MATTELART Armand, NEVEU Érik, *Introduction aux Cultural Studies*, La Découverte, 2003.

_____, «Cultural Studies Stories. La domestication d'une pensée sauvage?», *Réseaux*, 80, 1996.

MILLS Charles Wright, *L'Élite du pouvoir* (1956), Maspero, 1969.

MORLEY David, *Television, Audiences and Cultural Studies*, Londres, Routledge, 1992 (un chapitre dans Hermès, 11-12, 1993).

MORLEY David, *The «Nationwide» Audience.. Structure and Decoding*, Londres, BFI, 1980.

(تضمن جزءًا من أبحاثه التي أنجزها بمعيّة شارلوت برانسدون).

MORLEY David, KUAN-HSING Chen (dir.), *Stuart Hall. Critical Dialogues in Cultural Studies*, Routledge, 1996.

MORRIS Meaghan, «Banality in *Cultural Studies*», in MELLECAMP Patricia (dir.), *Logics of Television: Essays in Cultural Criticism*, Bloomington, Indiana University Press, 1990.

MUNSON Eve Stryker, WARREN Catherine A. (dir.), *James Carey. A Critical Reader*, University of Minnesota Press, 1997.

t.me/ktabpdf

مكتبة

NEWCOMB Horace, HIRSCH Paul, «Television as a Cultural Forum», *in* NEWCOMB Horace (dir.), *Television, the Critical View*, Oxford, Oxford University Press, 1987.

PASSERON Jean-Claude, «Présentation», in *Richard Hoggart en France*, BPI-Centre Georges-Pompidou, 1999.

PÉQUIGNOT Bruno, *La Relation amoureuse. Analyse sociologique du roman sentimental moderne*, L'Harmattan, 1991.

PRECIADO Beatriz, *Manifeste Contra-sexuel*, Balland, 2000.

PROULX Serge (dir.), *Accusé de réception. Le téléspectateur construit par les sciences sociales*, L'Harmattan, 2000.

RADWAY Janice, *A Feeling for Books. The Book-of-the-Month Club, Literary Taste and Middle-Class Desire*, The University of Carolina Press, 1999.

_____, «*Writing* Reading the Romance», introduction à *Reading the Romance*, édition 1992.

_____, *Reading the Romance. Women, Patriarchy and Popular Literature*, Chapel Hill, University of North Carolina Press, 1984.

ترجمة جزئيّة لـ:

«Lectures à «l'eau de rose». Femmes, patriarcat et littérature populaire», *Politix*, 51 2000.

SAID Edward, *L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident* (1978), Seuil, 1997.

SCHWARTZ Olivier, *Le Monde privé des ouvriers. Hommes et femmes du nord*, PUF, 1990.

t.me/ktabpdf

مكتبة

SILVERSTONE Roger, *Television and Everyday Life*, Londres, Routledge, 1994.

SPIVAK Gayatri Chakravorty, *A Critique of Postcolonial Reason. Toward a History of the Vanishing Present*, Harvard University Press, 1999.

TULLOCH John, JENKINS Henry, *The Science-Fiction Audience. Dr Who, Star Trek and their Fans*, Londres, Routledge, Chapman and Hall, 1995.

VAN ZOONEN Lisbet, *Feminist Media Studies*, Londres, Sage, 1994.

WILLIAMS Linda (dir.), *Porn Studies*, Londres, Duke University Press, 2004.

WILLIAMS Raymond, «Les formes de la télévision», *Réseaux*, 44/45, 1990. (extrait de *Télévision. Technology and Cultural Form*, New York, Schocken,1974).

_____, *Culture and Society, 1780-1950*, Londres, Chatto & Windus, 1958.

سوسيولوجيا مهن الاتصال

ماذا يفعل الصحافيّون؟

مكتبة

ماذا يجري في العلبة السوداء لإنتاج المعلومة والترفيه؟ هل من الممكن والمأمول دراسة المُرْسِل وفق أنموذج لاسويل؟ ودراسة سؤال «مَن» الشهير أي مصدر الرسالة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكون نعم بالطبع، بيد أن هذه الإجابة تطلبت عقودًا ضروريّة من الزمن قبل أن تصبح على هذا النحو بالنّسبة إلى الباحثين. إن الاحتقار الفكريّ الذي عانت منه وسائل الإعلام التي زُعِم أنها تافهة ومبتذلة، والانشغال بــ«تأثيرها» على الجمهور، وتأثير المدرسة النقديّة التي ترى أن «الصناعات الثقافيّة» هي مجرّد حلقات وصل الأيديولوجيا المسيطرة، والاهتمام بالصناعات الإعلاميّة من أجل البحث عن مستمعي الإذاعة والتلفزيون وجمهور وسائل الإعلام بصفة عامّة، وانتصار تيار بول لازارسفيلد إلى بداية ستينيّات القرن الماضي الذي لم يولِ سوى القليل من الاهتمام لمنتجي المادة الإعلاميّة والثقافيّة... كلّها عوامل تضافرت لتجعل موضوع محترفي الاتصال غير جذّاب للباحثين، بصرف النظر عن جهود بعض الرواد الأوائل[49].

(49) أشار دومينيك باسكييه إلى البحوث التي أنجزها ليو روستن (Leo Rosten) عن مراسلي الصحف، وتلك التي قامت بها هورتنس بودرميكر (Hortense Powdermaker) عن هوليوود، وذلك في مقدمة كتابه المخصّص خصصته لكُتّاب السيناريو التلفزيونيّ (1995)، وفي الكتاب الجماعي (*Sociologie de la communication*) (1997).

t.me/ktabpdf

مكتبة

وهذا على الرغم من أن استكشاف عالم الإنتاج الإعلاميّ والثقافيّ يحمل مفاجآت حقيقيّة. إنه يعمق المعارف عن العلاقة بين الثقافة والسلطة بالكشف عن آليّات تبعيّة / استقلاليّة الصحافيّين ومؤلفي الترفيه سياسيًّا واقتصاديًّا مع تأكيد تنوع مسارهم المهنيّ وأيديولوجياتهم وكفاءاتهم، فإذا كانت البحوث عن ممتهني الإعلام لا تسمح قط بالوصول إلى تعدديّة الرؤية للمجتمع، حيث يستطيع أي شخص أن يقول ما يفكر فيه ويكون مسموعًا أيضًا، فإنها تُظهر أشكال التعبير المتعددة في المجتمعات بعيدًا عن الصورة الكاريكاتوريّة وعن وسائل الإعلام التي تمارس الاضطهاد المعمّم.

علم اجتماع الصحافة الوظيفيّ: دراسة «صُنْع الأخبار»

تُوِّج الانشغال بمستمعي الإذاعة والتلفزيون بسرعة بتأسيس صناعة التسويق، وبدأ الاهتمام بمحترفي الإعلام والترفيه ببطء قبل أن يُعزّز بدوره تطوّر سوسيولوجيا الصحافة التي تكاد تصبح صناعة. ولقد استحوذ الصحافيّون على اهتمام الباحثين نظرًا إلى مكانتهم المركزيّة في المسار الديموقراطيّ ولقربهم من أوساط المثقفين، فليس من الغرابة في هذا السياق أن تكون السوسيولوجيا الوظيفيّة للمهن الليبراليّة المستلهمة من لازارسفيلد وميرتون (Merton)، متجاوبة في الغالب مع تطلعات مهنة تسعى إلى كسب شرعيّتها، وتُستخدم إلى حد كبير كإطار مرجعيّ[50]. فتفترض هذه

---

(50) دافع جاك م. ماكلويد (Jack M. McLeod) وسيرل أ. هولي (Searl E. Hawley) (1964) عن المقاربة الوظيفيّة في الستينيّات من القرن الماضي. والعرض الذي قدمه كلود دوبار (Claude Dubar) (1991) لسوسيولوجيا المهن مفيد جدًّا في هذا المقام.

t.me/ktabpdf

مكتبة

السوسيولوجيا تعريفًا للمهنة يكاد يكون طبيعيًّا ويلبي حاجة المجتمع المحدّدة بدقة. والصحافيّ وجه محدّد جدًّا، ينتمي إلى مجموعة مرجعيّة، ويتمتع بالعلم والكفاءات التقنيّة، ويجب أن يقوم بدور مزدوج لمصلحة الجمهور: دور المخبر المحايد وغير المتحيز (حتى يجعل العالم شفافًا)، ودور السلطة المضادة (المدافع الملتزم عن المصلحة العامّة)، فيكفي أن نقيس توافق الممارسات الحقيقيّة للمهنة مع هذا الأنموذج لفهم عمل الصحافيّين. يتمثّل المشكل الذي يطرحه تعريف الإعلام المستخدم في هذا المخطط، في أنه يُشَيِّئ هذا الأخير ويجعله طبيعيًّا، وكأن الإعلام مسألة تشكيل بسيط لواقع موجود في حد ذاته وليس صراع تأويل لوجهات النظر عن العالم.

وتوجد بقايا هذه الوظيفيّة في العديد من البحوث الأنغلوساكسونيّة التي تبنّت مقاربة أكثر إثنوغرافيّة وحاولت حصر آليّات صُنْع الأخبار بدءًا من ستينيّات القرن الماضي. لقد وصف دينيس ماكويل[51] في ملخص من أفضل الملخصات عن الموضوع، مراحل البحث، بدءًا من الأعمال حول تأثير المتغيّرات الفرديّة على صناعة الإعلام، وصولًا إلى البحوث الميدانيّة الكبرى عن الإعلام، سواء باعتبارها مؤسسة أم منظمة هيكلت الإعلام. لقد كان دايفيد ماننغ وايت (David M. White) أول من طبق مفهوم «حارس البوابة الإعلاميّة» أي الشخص الذي ينتقي الأخبار للنشر أو البث

(51) في مؤلفه (*Mass Communication Theory*)، الذي يعاد طبعه بانتظام منذ 1983.

t.me/ktabpdf مكتبة

على الصحافيّين، واقتبسه منه كورت ليفين في دراسته برقيات وكالات الأنباء التي اختارتها صحيفة محليّة للنشر. وقد استنتج من دراسته هذه أن الأذواق والتصورات ذاتيّة، بمعنى أن التجربة الشخصيّة تفسّر جزءًا كبيرًا من اختيار الأخبار المنشورة، أي أن نشر الأخبار لا يخضع لمعايير موضوعيّة وغير شخصيّة، كما يقود انتظام اختيارها في هذه الجريدة أو تلك إلى التَّشْكِيك في فكرة أن هذا الاختيار يتوقف، أوّلًا وقبل كل شيء، على التطلعات الفرديّة. وهناك إكراهات تنظيميّة يسميها الكُتّاب، الأميركيّون تحديدًا، «الروتين البيروقراطيّ»، الذي يكون مصدر سلوك «قطيع الأغنام» الذي تسلكه وسائل الإعلام. وتُنتقى أحداث معيّنة بشكل ممنهج وتُحَوّل إلى أخبار لأنها تعد دراميّة أو تلائم الوسائل التقنيّة التي يستخدمها المخبرون والصحافيّون المحررون، فالتي تحظى بأولويّة في النشر هي الأخبار عن القضايا الجديدة والمفاجئة، والتي يمكن إدراجها بسهولة في سياق ويمكن الاستقصاء عن صحتها بسرعة (في مدار 24 ساعة)، والتقارير الواضحة نسبيًّا التي تخضع لتطلعات الجمهور. أما الأحداث ذات الصلة بالأسئلة التي تطرح على المدى البعيد وذات التعقيدات الاجتماعيّة والسياسيّة المسترسلة، فتُستبعَد من النشر. لقد أشار مايكل شودسن في نصّ مختصر بعنوان **الأخبار كمعرفة عامّة** (*News as Public Knowledge*) وصدر في كتاب بعنوان **سلطة الأخبار** (*The Power of News*) في 1995، إلى أنه يفترض بوسائل الإعلام نشر الأخبار في السياق الأميركيّ وفق التوصيات الأربع: (1) تفضيل معالجة الأحداث السلبيّة أو الدراميّة،

مكتبة t.me/ktabpdf

(2) بطريقة تحافظ على الحياد، (3) وممكنة تقنيًّا، (4) وبالاعتماد على المصادر الرسميّة.

يُعتبر كتابا **تحديد ما هي الأخبار** (*Deciding What's News*) (1979) لهربرت غانز، و**صُنْع الأخبار** (*Making News*) (1978) لغاي تاكمان (Gaye Tuchman) بمثابة منارة البحث في هذا المجال[52]. لقد بَيّنا أن الصحافة صناعة تبحث عن شكل من تنميط الممارسات لجني عوائد اقتصاديّة وتحقيق استقرار تنظيميّ أيضًا. لقد أشار تاكمان، الذي استلهم بحوثه من الفلسفة الظاهراتيّة الألمانيّة ومن علم اجتماع غوفمان، إلى أهميّة الزمن، وتحديدًا في تصور صياغة الأخبار، فصُنعها يتطلب ضَفْر خيوط شبكة لاصطياد الأحداث في عالم متواصل خارج السيطرة وغير مفهوم أي القيام بـ«نمذجتها». ويستند الصحافيّ إلى الأحداث المتواترة، أو المُتوَقَّعة، والمتحكم فيها جيّدًا على الصعيد التنظيميّ، لأنها في متناول المراسلين ماديًّا. ووضع هارفي مولوتش (Harvey Molotch) وماريلين ليستر (Marilyn Lester) (1974) شرطين لنشر الأخبار، هما «قصديّة الأخبار أو غيابها»، و«هُوِيَّة كاتب الأخبار أو انعدامها، ومَن يؤطرها»، وقسّما الأخبار التي تقوم وسائل الإعلام ببنائها إلى

---

(52) يتضمنان نصوصًا بعناوين مكرّرة في: *Newsmaking* (1975) لروشكو (Roshco)، و*Making the News* (1979) لغولدنغ (Golding) وإليوت (Elliot)، و*Manufacturing News* (1981) لفيشمان (Fishman)، و*The Manufacture of News* (1973) الذي أنجزه فريق أشرف عليه كوهين (Cohen) ويونغ (Young).

t.me/ktabpdf مكتبة

أربع فئات انطلاقًا من ملاحظة الممارسة، وهي: «الأحداث الروتينيّة» (وتُعدّ الأكثر إحصائيًا، مثل التظاهرات الرياضيّة التي يكون الإعلام عنها مدبَّرا من منظميها، وغيرها)، و«الفضائح» (التي تُبنى عن قصد لكن على حساب المتسبّبين بها، مثل فضيحة ووترغيت Watergate أو فضيحة جنون البقر)، و«الأحداث العرضيّة» (انفجار غير منتظر في مصنع من دون أن يكون هدف مرتكبه الاتصال أو تمرير رسالة من خلال ما قام به)، و«الصدفة السعيدة» (زلّة لسان رجل سياسيّ أمام الملأ، الخلط بين الإرادة في التعبير والصدفة). لقد وُجدت الصلة بين هيكلة محتويات وسائل الإعلام والأفعال التي يقوم بها الصحافيّون، ودُمجت في مجمل الوحدات التنظيميّة.

عودة النقد: الصحافيّون ومحيطهم

يجب أن نلاحظ التقاء البحوث في صناعة الأخبار التي تتسم بطابعها الوظيفيّ والتبريريّ بشكل أساسيّ، بالتيار النقديّ والماركسيّ، فالملاحظات عن الجوانب الإكراهيّة في الممارسة الصحافيّة تفتح المجال لتحليل العلاقات بين وسائل الإعلام والمؤسسات، وعلاقة المحتويات بالتموقعات الأيديولوجيّة بشكل أشمل، فما نعتبره سهل الإنتاج وخاضعًا للحاجات، أو أمرًا بديهيًا في منظمة إعلاميّة، يمكن أن يكون وليد اختيار أيديولوجي، فليس طبيعيًا اعتبار بعض الإجراءات، كالنقل المباشر للأحداث تحديدًا، ثريًا بالمعلومات، وكذا اختيار منح الأوليّة لحديث الأقوياء (السلطات العسكريّة في البلد وليس خصمها) الذين يتمتعون بإمكان أخذ الكلمة

في وسائل الإعلام حتى أثناء الأوضاع الاستعجالية، وفي الأحداث العنيفة، مثل الحرب. إن السعي الجموح إلى آنيّة الأخبار يحيل إلى هاجس القلق الغربيّ بالحاضر وحيرته، والاهتمام المتزايد بوزن الأقوياء في الأخبار يترجِم ضغوطَ السلطات/ النخب أو الانسجام بين تطلعات هؤلاء الأقوياء ووسائل الإعلام. وبصرف النظر عن خصوصيّات الصحافيّين، ومنطق العمل الصحافيّ في هذه الوسيلة الإعلاميّة أو تلك، فإنهم ينتمون إلى أوساط اجتماعيّة وثقافات ينتجونها ويعيدون إنتاج ذاتهم عبر خطاباتهم. يجب تجنب «مركزيّة وسائل الإعلام»، والقيام بربط الممارسات الصحافيّة بالأوساط الاجتماعيّة الواسعة التي ولدت فيها، مثلما أوصى فيليب شليسنجر (Philip Schlesinger) (1992). يجب تجنّب المركزة الإعلاميّة وربط الممارسات بالأوساط الموسّعة التي تشهد ولادتها، لكن ما هي القنوات التي ينساب منها التأثير؟ على العموم، يمكن تمييز ثلاثة مستويات، وهي: التفاعلات التنظيميّة، والبُنى الاقتصاديّة، وأخيرًا التأثيرات الاجتماعيّة والثقافيّة.

التفاعلات مع الوسط

لا يمكن توصيف علاقة وسائل الإعلام بمصادرها الإخباريّة (وبخاصّة في الأوساط السياسيّة) ومُعْلنِيها ومسؤوليها من دون صعوبة، فأغلب الصحافيّين يتفقون على الإشارة إلى التأثير عليهم دون أن يقدموا أنموذجًا منسجمًا بهذا الخصوص، فالمعلنون ـ على سبيل المثال ـ انتصروا في المعركة التاريخيّة حول البرامج الإذاعيّة والتلفزيونيّة، وكسبوا موطئ قدم في وسائل الإعلام التي صقلوها

t.me/ktabpdf مكتبة

جزئيًّا، فـ«الأوبرات الصابونية»(*) (soap operas) الأميركيّة الشهيرة اتخذت هذا الاسم لأن تجار مواد التنظيف كانوا يمولونها أي يصقلونها، بدءًا من خمسينيّات القرن الماضي، بغية الوصول إلى جمهور نسويّ. ومعظم الصحف الإخباريّة الكبرى يمتلكها أرباب الصناعة المهتمّون بمصالحهم... غير أن سلطتهم محدودة لعوامل متعدّدة، منها وجود مصادر ماليّة بديلة لعائدات الإشهار: فالأسبوعيّة الفرنسيّة السياسيّة الساخرة **لو كانار أونشيني** (*Le Canard enchaîné*) لا تمولها سوى مبيعاتها، والقنوات التلفزيونيّة المدفوعة، مثل **كانال بلوس** (*Canal +*) الفرنسيّة أو **هوم بوكس أوفيس** (*HBO*) الأميركيّة(**)، تملكان أكبر الإمكانات للتعبير. إن هيبة وسائل الإعلام الوطنيّة الكبرى أو سلطتها السياسيّة، ثمّ وضعيّاتها الاقتصاديّة الجيّدة، كلها عوامل تشكل رهان استقلاليّتها الكبرى. لقد حُدّ تأثير المعلنين على وسائل الإعلام من خلال الطابع العشوائيّ لنشاطاتها التي لا يتحكمون فيها بشكل أفضل من المبرمجين أو الصحافيّين المحررين. إن خاصية وسائل الإعلام هي أن تنتج، بشكل متواصل، المحتويات الجديدة التي تهم الجمهور الذي يظلّ، في آخر المطاف، الحاكم الحقيقيّ على البرامج الإعلاميّة. فيحدث إذًا تبادل دائم، بين الفاعلين في مسار الإنتاج الإعلاميّ

(*) المسمى الذي أطلق على المسلسلات الإذاعيّة التي كانت تبثها محطات الإذاعة في أميركا، ثم المسلسلات التلفزيونيّة. سميت بهذا المسمى لأن الشركات المنتجة للصابون وأدوات التنظيف هي التي كانت تنتجها وتمولها، وقد صمم في البداية لجمهور غالبيته من النساء.

(**) Home Box Office: قناة تلفزيونيّة أميركيّة تملكها تايم ورنر. أنشئت في 1972، ويشترك في خدماتها أكثر من 40 مليون مشترك أميركيّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

والترفيهيّ حول تحديد التوجّهات التي تحقّق عائدًا ماليًّا والمعلنين الذين يجب أن يتواروا أمام مؤلفي المواد الدراميّة أو الصحافيّين الأكثر انخراطًا في عمليّة الإبداع أو في تقديم شهادتهم، وهذا ما بيّنه عينيًّا وبوضوح الباحث البريطانيّ جيريمي تانستول (Jeremy Tunstall) في نصوصه الرئيسيّة حول هذا الموضوع.

يجب التفكير في العلاقة بالقادة، وهو الموضوع الذي اشتغل عليه غانز بطريقة معمقة، من منطلق فكرة التفاوض وليس الهيمنة الأحاديّة، فالضغط الممارس على قاعات التحرير هو واقع يتبدل بحسب الأوقات والرجال، وإذا كانت السياسة الإعلاميّة تُقرَّر مرّة واحدة وبشكل نهائيّ على أعلى مستوى، فإنّ تطبيقها يختلف من يوم إلى آخر بحسب الظروف وقدرات الصحافيّين والمخبرين على استيعابها. وليست النزاعات بغائبة عن قاعات التحرير، وبصرف النظر عنها يَطرح قياس تأثير البنى الاقتصاديّة العديد من المشاكل المفاهيميّة على قاعات التحرير (انظر أسفله).

لقد صاغت سوسيولوجيا الإعلام البريطانيّة الحوار حول مصادر الصحافيّين وتأثيرها على المادة الصحافيّة في سبعينيّات القرن الماضي. هذه السوسيولوجيا التي تعارض تقاليد الوظيفيّة الأميركيّة والمطالبة بتفكير نقديّ، تأثرت بأعمال ليو روستن (Leo Rosten) وإيفيريت هيوز (Everett Hughes) ذات التوجّه الإثنوغرافيّ[53].

(53) عناصر من هذا التيار الذي يضمّ كُتّابًا مثل جيمس كوران وفيليب شليسنجر تتعايش في بريطانيا مع الدراسات الثقافيّة، وقد وردت في كتاب تكريم جيريمي تانستول الذي أشرف عليه هوارد تمبر (Howard Tumber) (2000).

t.me/ktabpdf مكتبة

لقد أجرى تانستول مقابلة مع 200 صحافيّ قبل أن يكتب مؤلَّفه **صحافيّون في العمل** (*Journalists at work*)، وفضّل استخدام تقنيّة المقابلة نصف المقنّنة، واقترح أنموذجًا من التفاعلات المهيكلة بين الصحافيّين ومخبريهم (مصادرهم الإخباريّة)، إذ يجب على الطرفين أن يتعاونا ويناضلا في الوقت ذاته من أجل تمرير الأخبار أو استقصائها بحسب مصلحة كل طرف. إن هذا التفاعل يجري في إطار علاقات مختلة، بحسب غانز. ونظرًا إلى أن رد فعل عالم الصحافيّين ضعيف على التنوع الاجتماعيّ، فنادرًا ما يبادر إلى مضاعفة عدد مخبريه، ويضع المسائل التي يتطرق إليها في سياقها ويكشف عن أبعادها، لكون هذا العالم يرتكز على المصادر المعروفة، والمكرّرة، والمُشبَعة بالصور النمطيّة، وتُولي الأفضليةُ إلى المصادر التي تستفيد من سلطة الصحافة التي تعمل بالنسيان وإقصاء المخبرين غير المقبولين. ويَعتبر هارفي مولوتش وماريلين ليستر أن نفاذ مصادر الأخبار إلى وسائل الإعلام يتزايد باستعدادها لاقتراح خطابات تتوافق مع تطلعات هذه الوسائل أي التي تشكلت من أجل تدفق الإعلام. إن حظ المرء الأقصى في التدخل في وسائل الإعلام يتحقّق عندما يصقل مداخلاته ويدرجها في فئة «الأحداث الروتينية»، لأن بقيّة الأحداث المتذبذبة يصعب التحكم فيها[54].

---

(54) يمكن أن نعارض هذه الحجة بأمثلة مضادة معروفة جيدًا، فتغطية بعض الحروب، مثل حرب الخليج وحرب العراق، والأحداث العشوائيّة إن وجدت، لم تؤدّ إلى انسحاب مصادر الأخبار الرسمية على الصعيد الإعلامي (Ferro, 1991, Wolton, 1991, Mathien, 2001, Charon, Mercier, 2004). فكلما كان الحدث غير متوقع تنازل الصحافيون عن حقهم في الكلام جماعيًا لمصلحة السلطات والخبراء في بعض الأحيان.

t.me/ktabpdf مكتبة

لقد اهتمت البحوث التي جرت في ضفتي المحيط الأطلسي في تسعينيّات القرن الماضي بظاهرة عكسيّة، ألا وهي سلطة الصحافيّين على مصادر أخبارهم، ومنها تلك التي تنتمي إلى عالم السياسة. إن النجاح المنقطع النظير الذي حقّقته وسائل الإعلام على صعيد رفع هيبتها وزيادة عدد متتبّعيها، وتحرير قطاع السمعيّ ـ البصريّ من هيمنة الدولة، وتأكيد «سلطة وسائل الإعلام» (médiacratie) كلها عوامل أدت، في المقابل، إلى التأثير على المُنْتَخَبين الذين يمكن أن تسلط الأضواء عليهم وتدفعهم إلى المثول أمام «محكمة الرأي العام» (لنفكر في مختلف الأحكام بالإعدام التي أصدرتها وسائل الإعلام من دون محاكمة في حقّ البعض، بدءًا بمونيكا لوينسكي، التي كانت موضوع دراسة جون تومسون (John Thompson, 2000). إن سوسيولوجيا الرجل السياسيّ «الذي طحنه الاتصال المنتشي بانتصاره» (Dominique Wolton, 1997) تتطوّر، وإن لم تُحدث إلا انقلابًا جزئيًّا في العلاقة القائمة بين مصادر الأخبار / ووسائل الإعلام (Charon et Mercier, 2003)، وهي تَشْهَد كذلك على توسع سلطات الجمهور.

السوق

لا وجود لأيّ إجماع بصدد التحقّق حول البُنى الاقتصاديّة وتبعاتها على الممارسة الصحافيّة، فالكُتّاب الأكثر قربًا من النظريّات النيو ـ كلاسيكيّة، وعادة هم من الأميركيّين، يؤيدون الطرح الذي ينصّ على أنه كلما كان العرض أكثر تنوعًا في السوق كانت إمكانات تعبير الصحافيّين أكثر قُوَّة، واستطاع الجمهور النفاذ إلى أشكال الإعلام المتنوع، فالاحتكار العموميّ لوسائل الإعلام يؤدي،

t.me/ktabpdf مكتبة

بالعكس، إلى تقييد الإعلام. ويردّ عليهم مناصرو الخدمة الإعلاميّة العموميّة، وهم عادة أوروبيّون، بالقول إن الإعلام ليس أذواقًا فقط أو مصالح خاصّة، بل هو في خدمة المصلحة العامّة، وضروريّ لتشكيل الجماعة الاجتماعيّة ككيان سياسيّ: إن قيام الاحتكارات الكبرى للإعلام في النظام الليبراليّ يؤدي إلى إفقار الإعلام عندما تقود المنافسة الشرسة في سوق مُتَشَذِّر إلى الرداءة والتشتت. وحتّى إن زاد الاقتناع بأنّ هذين الموقفين متكاملان والشقاق بين الولايات المتحدة الأميركيّة وأوروبا قد خفّ، فإنه لا يسمح بفهم عدم التجانس الشديد في أوضاع الدول. لقد قام الاحتكار العموميّ للإعلام التلفزيونيّ والإذاعيّ في فرنسا بدور واضح ضد تعدديّة التعبير، إلى درجة أن الرئيس الاشتراكيّ فرانسوا ميتران قام بخصخصة قطاع الإذاعة والتلفزيون. إن شِدَّة التمركز أو التشذّر الاقتصاديّ تُلاحظ اليوم في أسواق التلفزيون (تسعى المجموعات الخاصّة الكبرى إلى السيطرة على العديد من القنوات التلفزيونيّة ومحتوياتها) أو في شبكة الإنترنت (تناسل المواقع الإلكترونيّة المجترة والمُطْنِبة التي ليس لها ما تقدمه). وفي سياقات أخرى، يمكن أن تكون للتنافس المحتد آثار إيجابيّة على مستوى الابتكار، لكن احتكار الأقليّة من النوع الشومبيتريّ(*) يمكن أن يقود سياسات جريئة، ويطلق استثمارات كبرى بعيدة المدى، ومكلفة ومجازفة، لكنها تصبح ممكنة لحجمها.

(*) نسبة إلى جوزيف ألويس شومبيتر (Joseph Alois Schumpeter) (1883 - 1950) العالم الأميركيّ في الاقتصاد والعلوم السياسيّة الذي اشتهر بترويجه نظرية الفوضى الخلّاقة في الاقتصاد.

مكتبة t.me/ktabpdf

إن بروز المجموعات الاتصاليّة الوطنيّة والعالميّة الكبرى يدلّ، في بعض الأحيان، على منح الصحافيّين استقلاليّة أكبر، ويفرز مصالح محليّة وإدارة الكيانات الواسعة جدًّا، عن طريق صياغة معايير غير شخصيّة (تتمركز حول فكرة تلبية طلب) تنتفي عنها النزعة العائلية (لأن مسيِّري الصحف يمكن أن يعتبروها أشياءهم). وتقوم الخدمات العامّة المعاصرة، من جانبها، بالوظائف التي لا يقوم بها السوق (فحتى في الولايات المتحدة الأميركيّة توجد قنوات تلفزيونيّة برلمانيّة). إن الحُجّة التوكفيليّة التي ترافع لمصلحة ضرورة التعدديّة الإعلاميّة لأنماط التعبير وحواملها، والتي تعتبرها علاجًا لمشاكل ضيق مجال التعبير أو رداءته، تحافظ على قوتها من دون أن تمنح ما يحقّق التقدم في ديموقراطيّة الرأي. وجود أو عدم وجود علاقة ترابطيّة دقيقة بين بنيات السوق و«نوعيّة» الإعلام، هو قضية كبرى في مستقبل البحث الذي يُطرح في قلب تيارات اقتصاد الإعلام الجديدة (انظر: Le Floch et Sonnac, 2000) والتيارات التي لا تكتفي بتطبيق نماذج بسيطة من الاقتصاد الكلاسيكيّ الجديد في حقل الإعلام والثقافة أو استنتاج التفاهات السوسيولوجيّة النقديّة من اقتصاد وسائل الإعلام (قد يتحول الإعلام أكثر فأكثر إلى «صناعة»، ويفقد نوعيته... إلخ).

الانتماء الاجتماعيّ وانتقال المدوّنات الثقافيّة

لقد كشف العديد من البحوث الميدانيّة عن الأصول الاجتماعيّة للصحافيّين، فانتماؤهم إلى الفئات الوُسْطى، والعليا على وجه

مكتبة t.me/ktabpdf

الخصوص، يبرر ما يؤخذون عليه، وهو إيلاء الأولويّة للمواضيع غير الشعبيّة. وذلك بسبب رفضهم النشط «للشعب» أو جهلهم بصفة عامّة. لكن يمكن استنباط أبسط شيء من هذه الملاحظة، فإذا كان مايكل شودسن يتمنى توسيع القاعدة الاجتماعيّة للذين ينفذون إلى وسائل الإعلام من أجل زيادة تنوع محتوياتها، فإنه لاحظ أن التقمّص الاجتماعيّ ليس مستحيلًا أبدًا، فحُجّة انغلاق النخبة الدائم والمطلق على ذاتها لا يصمد أمام الواقع، فالكُتّاب اليساريّون يشيرون إلى ضعف تفاعل وسائل الإعلام مع الأفكار التقدميّة، وهذا الأمر مؤكد إحصائيًّا. ويلاحظ الكُتّاب اليمينيّون أن توظيف الصحافيّين على المستوى الوطنيّ يتم في الغالب لمصلحة «ليبراليّي» (اليسار)، ويندّدون بالحملات الصحافيّة التي تُنَظم ضد القادة المحافظين، وخصوصًا الرجعيّين. هاتان الواقعتان اللتان سجلتهما السوسيولوجيا في سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته تظلان مناسبتين في مطلع القرن الواحد والعشرين. ويبيّن هربرت غانز أن قسمًا من الصحافيّين يخلطون بين وجهات نظر المحافظين والتقدميّين، لأنهم يتقاسمون القيم المهيمنة في المجتمع الرأسماليّ المُنَظَّم اجتماعيًّا. لكن الصحافيّين يعتقدون أنهم ديموقراطيّون ومعتدلون، بيد أن انتماءهم إلى «الطبقة الوُسْطى» يَحُدّ من رؤيتهم العالم، ويشهد في نظر الجميع على ولائهم للمؤسسة، لكنه يضمن لهم، لهذا السبب ذاته، حرية التعبير وهامشًا من المناورة.

وعلى الصعيد الماكروسوسيولوجيّ، طرح كُتّاب، مثل نعوم تشومسكي وإدوارد هيرمان (Edward Herman) وجوشوا هربرت

t.me/ktabpdf مكتبة

ألتشول (J. Herbert Altschull)، مسألة التأثير البنيويّ للأوساط المهيمنة على الصحافيّين، فهؤلاء الكُتّاب يؤمنون بأن العلاقات العضوية بين الصحافيّين والقوى المُهيمنة موجودة بشكل دائم وبطريقة واسعة، فالصحافة تخدم المصالح الرأسماليّة، ولا تقوم سوى بإعادة نشر أفكارها، وثقافتها، بحسب نظريّة الانعكاس الماركسيّة. إن غياب الحجج الإمبيريقيّة والجانب الفظ في هذه القناعة، يبطلان هذه الطبعة الجديدة لنظريّة المؤامرة. فمنذ سبعينيّات القرن الماضي، اتجهت الماركسيّة إلى مسألة انتقال المخططات الثقافيّة، وأطر التعبير التي تبنتها وسائل الإعـلام كأولويّة، وليس المحتويات المشتقة مباشرة، وبشكل دائم، من المصالح المُهَيْمِنة كأوامر يجب الامتثال لها. وفي كتاب جماعيّ بعنوان **ضبط الأزمة: الابتـزاز، والـدولـة، والقانون والنظام** *(Policing the Crisis: Mugging, the State, and Law and Order)* (1978)، عرض ستيوارت هول أطروحة إعادة إنتاج الهيمنة التي تعود إلى التأثير المهيكل لخطاب الأقوياء لأنهم الأوائـل الذين يتدخلون للتعليق على الأحداث ويسيطرون على المدوّنات الرمزيّة الشرعيّة، فالأقوياء يفرضون على الصحافيّين أو المتدخّلين في وسائل الإعلام «التعريف الأولي» للمشاكل التي تثار فيظلّ الصحافيّون أسراها. ونجد لدى غانز أو جيريمي تانستول تصورًا قريبًا من التأثير البنيويّ. وفي الفترة الزمنيّة ذاتها، أثار بيار بورديو (مع لوك بولتانسكي Luc Boltanski, 1976) بشكل مختزل سلطة «تعريف الواقع» التي يملكها منظمو الحوار التلفزيونيّ. لقد كانت المواجهة التلفزيونيّة التي جرت بين

t.me/ktabpdf مكتبة

جورج مارشيه (Georges Marchais) الأمين العام للحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، وجاك شيراك (Jacques Chirac) السياسيّ اليمينيّ، لمصلحة هذا الأخير الذي تخرج من المدرسة الوطنيّة للإدارة مثل الصحافيّين الذين كانوا حاضرين بجانبه. كان جورج مارشيه يعبّر بطريقة فظّة، وشعبيّة وغير ديموقراطيّة، لكن المعلومات والحوار الإعلاميّ كان ينقاد بطريقة غير واعية بواسطة الأطر الثقافيّة المكتسبة في الأوساط الاجتماعيّة العليا والمدارس المتميّزة. هذا على رغم أننا نستطيع أن نقدم العديد من الحجج التي تعارض هذا التحليل، فأطروحة ضعف الأداء الإعلاميّ لجورج مارشيه مفاجئة جدًّا، لأن شريحة واسعة من الفرنسيّين كانت تُقَدره في تلك الأثناء، وتُقَدر فيه حتّى طريقة حديثه، وكان يحقّق نتائج انتخابيّة مرتفعة لمصلحة حزبه (وهذا خلافًا لما يلاحظ في بقيّة الدول الأوروبيّة)، فجورج مارشيه كان محل إعجاب الجمهور الذي لا يهتم بتعريفات الحوار السياسيّ «المهيمنة» ولا يعطيها الأولويّة، ويُعْتَبر شخصًا يجيد التواصل، بطريقته الخاصّة، يستضيفه الصحافيّون باستمرار لإجراء مقابلات صحافيّة، ويعتبرونه مهمًّا أو تمثيليًّا، على رغم أنهم لا يحبونه. ويبدو من خلال هذا المثال، أن المقاربة البنيويّة تقلل كثيرًا من شأن أهداف الأوساط الإعلاميّة المتعددة، وتهمل قدرات رد الجمهور، وتُعَيّن مجموعات ثقافيّة يكون الانسجام فيها عشوائيًّا.

إن كانت «الدراسات الثقافيّة» التي قام بها ستيوارت هول، قد تخلّت لاحقًا عن فكرة الوحدة العميقة للبرجوازيّة المسيطرة، وفكرة أن وسائل الإعلام تروّج حديثها، وأعطت الإمكان للمعارضات

t.me/ktabpdf مكتبة

الشعبيّة من دون أن تَتَخَلَّى عن مفهوم السلطة، فإن سوسيولوجيا بيار بورديو عزّزت موقفها من وسائل الإعلام، فبصرف النظر عن بحوثه التي يؤكّد فيها بلباقةٍ الطابعَ المزدوج لإنتاج الإعلام، المُجَدِّد والمُنَمِّط في الوقت ذاته، فإن نصوصه التي نشرها في نهاية القرن الماضي (انظر كتابه **عن التلفزيون/ تأثير الصحافة** *Sur la télévision/L'emprise du journalisme*, 1996)، والتي يشير فيها إلى تواطؤ الصحافيّين مع السلطات، أو إلى الضغط غير المحتمل الذي تمارسه الإكراهات المهنيّة عليهم فقط، من دون أن يقترح أرضيات للتحليل والدراسات، ترى هذه النُّصوص في الصحافيّين «دمى الضرورة»، على حد تعبيره، وليسوا فاعلين يطورون إستراتيجيّات في فضاءات العلاقات المتعدّدة (وينسجم هذا مع مواقفه النظريّة التي بلورها في مؤلفه **موجز في نظريّة الممارسة**. ويعدّ كتابه ضربًا من الهجاء، لكنه بيداغوجيّ، لأنه يرصد ظواهر حقيقيّة ويقدم صورة كاريكاتوريّة للمواقف الماركسيّة، في حين يشكل عودة غريبة إلى طروحات مدرسة فرانكفورت بعد أن كان بيار بورديو، الكاتب اليساريّ، أبرز نقادها (لقد رفض، في كتاب **التمييز**، الاستعارات الصناعيّة التي طرحها أدورنو).

مشكل تعدديّة الأهداف

لئن كان النقاش حول البناء الأيديولوجيّ للإعلام غير مُرْض فلا بُدّ أن تكون خلاصته متناقضة. وتكون وسائل الإعلام تابعة في معظم الأحيان أي محافظة، لكنها تابعة أيضًا للمجموعات المُحْتَجَّة عندما تتمكن هذه الأخيرة من إسماع صوتها (خارج وسائل الإعلام).

t.me/ktabpdf

مكتبة

لقد كانت الأخبار مؤيدة للتدخل العسكريّ الأميركيّ في فيتنام خلال مطلع ستينيّات القرن الماضي، لكنها تحوّلت إلى مُعارِضة عندما تضاعف عدد التظاهرات الاجتماعيّة المناهضة لهذا التدخل في ستينيّات القرن ذاته (انظر دان هالين(*) Dan Hallin، «**الحرب غير الخاضعة للرقابة**»، **وسائل الإعلام وفيتنام** *«The Uncensored War», The Media and Vietnam,* 1986). وفي السياق ذاته، لم تُظهر الصحف أبدًا تظاهرات العاطلين من العمل والصعوبات التي تواجهها المهن الزراعية، أو أظهرتها قليلًا فقط، في تسعينيّات القرن الماضي، لكنها اتجهت فجأة في الألفية الحاليّة، إلى التغطية الإعلاميّة المفرطة للنضال المناهض للعولمة والمطالب النقابية التي رفعتها المنظمات الزراعية اليساريّة (لقد أفرطت في الإبراز الإعلاميّ للشخصيّات الدالة على هذا النضال: جوزي بافي José Bavé من فرنسا، ولوري والاش Lori Wallach من الولايات المتحدة الأميركيّة، وفندانا شيفا Vandana Shiva من الهند). ولهذه التغطية الإعلاميّة تأثير مُلْتَبِس على منظمي الاحتجاجات والتظاهرات، ويمكن أن تنفخهم أو تَفُشُّهم بسرعة، كما يذكر تود غيتلين، الذي

(*) دان هالين: عُرِف هذا الباحث بمجالاته في التغطية الإعلامية للظواهر والأحداث (Hallin's spheres) التي استقاها من تحليله ما تنشره الصحف الأميركيّة وقنوات التلفزيون الأميركيّ عن الحرب الأميركيّة في فيتنام، وقسمها إلى ثلاثة مجالات، وهي: مجال توافق الآراء، ويشمل المواضيع التي تحظى بانسجام في الرأي، ومجال الجدل الشرعيّ، ويضم المواضيع التي تثير النقاش والجدل ويُستخدم فيها العقل، ويتّخذ فيها الصحافي موقفًا محايدًا، ومجال الانحراف، ويتضمن المواضيع المحرّمة أو العقيمة التي لا فائدة من إثارتها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

يُعدّ أول من حَلَّل العلاقة بين المجموعات المتنافسة في التنديد بحرب فيتنام (انظر كتابه **العالم كلّه يشاهد** *The Whole World is Watching*, 1980). وفي كلّ الأحوال، فإن الملاحظة التي تنصّ على أن وسائل الإعلام تُشَوِّه الحركات الاجتماعيّة بشكل منهجيّ غير مصدّق عليها إمبيريقيًّا.

ترتبط مرونة مستويات الانضمام السياسيّ للصحافيّين ودرجة تغيّر دعمهم للفاعلين الاجتماعيّين، بتعدديّة الأهداف التي يتبعونها. ومن الضروريّ العودة إلى مسألة المنطق التنظيميّ لتحليل هذه الظاهرة. ولمواكبة تعقد العالم، وللتموضع في المجتمع، يتبنى الرجال والنساء الذين يصنعون الإعلام موقفًا يكاد يتسم بطابع مفارقيّ، وذلك بخلق روتين الاستثناء، أو «بيروقراطيّة عدم الروتين»، على حد تعبير جيريمي تانستول، وهي تحجب عدم الاستقرار الحاضر وتدفع إلى الاعتقاد بجمود ممارسة الإعلاميّين، وبمصلحتهم الحصرية في الأوضاع المكتسبة. وللرد على عدم الاستقرار هذا، يجب على الصحافيّين الابتكار، والمخاطرة، والتوجّه إلى فاعلين جدد، والاهتمام بما يعتقدون أنه يشكل الاتجاهات العميقة في المجتمع، والاضطلاع بأدوار متشعبة، شأنهم في ذلك شأن كلّ منتجي الموادّ الإعلاميّة الذين ينتجون باستمرار «النماذج» ذاتها، ففي صباح كل يوم تصدر الصحيفة عددًا يشبه ذاك الذي أصدرته بالأمس. إنها منمَّطة بشكل ما لكن محتواها يكون جديدًا بالضرورة ليواكب عالمًا تم إدراكه كما هو، وإن قامت الصحيفة بعكس ذلك فالقراء النقديّون يعاقبونها، إلى حد ما، على المدى الطويل. وتحدث

في كثير من الأحيان انحرافات، ويقع عدم الاستقرار في قاعات التحرير الصحافيّ وإن بدت الأمور مرتبة بين مسيِّري الصحيفة ومصادر أخبارها. فلا حتميّة في هذه القاعة. ويكمن المشكل بالنسبة إلى الباحثين في عدم قبول الأيديولوجيا (ربما الأكثر تأثيرًا في عالم الإعلام بحسب الباحث تاكمان) التي شحذها الصحافيّون انطلاقًا من معاينة حياد موقفهم، وولوجهم عالمًا من الوقائع الخام ذات درجة عالية من الأصالة، وهم مكتشفوها. وما هو مُهِمّ في هذا المقام يتمثل في معرفة ما إذا كانت الفوضى التي كشفت عنها هذه الممارسات تخضع للقوانين، مثلما هو الأمر في الرياضيّات، أم أنها حالة من انعدام النظام تم التفاوض حولها؟ يعارض فيليب شليسنجر، سليل التقاليد البريطانيّة في بحوث الإعلام، جيريمي تانستول وستيوارت هول في إحدى مقالاته الثرية (Schlesinger, 1992)، ويطالب بتشكيل سوسيولوجيا قويّة تتكفل بدراسة التفاعل بين مصادر الأخبار والصحافيّين، على غرار ما قام به بيار بورديو عندما تحدث عن حقل المصالح والإستراتيجيّات، فبمثل هذه السوسيولوجيا يمكن فهم الممارسات الصحافيّة وخطابات الصحافيّين من دون حتميّة، ورفض نسبيّة أيديولوجيتهم المتّسمة بالتردّد وعدم توافر الوقت للاستيعاب. إن مطلب فيليب شليسنجر قد تبناه كُتّاب أنغلوساكسونيّون (مثل رودني بنسون Rodney Benson) وطوره قبلهم كتّاب فرنسيّون (مثل إريك نوفو Erik Neveu). ويمكن أن يتوج بإحداث تقارب في التقاليد السوسيولوجيّة بين ضفتي قناة المانش، ويسمح بالنظر الممنهج إلى عالم الإعلام لكنه يصطدم بميل بيار بورديو ذاته إلى الحتميّة بمجرد

t.me/ktabpdf مكتبة

التطرق إلى مسألة وسائل الإعلام، وبالحدود القويّة التي يرسمها مفهوم الحقل(*) الذي لا يستعرض مجمل الأفعال الإنسانيّة. الحقيقة هي أن فكرة الحقل التي قدمها بيار بورديو توظف لتصوُّر الفاعلين في مسار الإعلام مترابطين بآليّات المنافسة (أقران ضد أقران) وبالمصالح المشتركة (الأقران ضد الدخلاء على الحقل الصحافيّ، مثل رجال السياسة). إن فكرة الحقل تُحَسِّن المعلومات عن العديد من الأوضاع، بما فيها لحظات التقليد التي تجعل كل صحف الصباح تعيد نشر الأخبار ذاتها، والتي ليست بالضرورة أساسيّة بالنسبة إلى القراء، بيد أن جماعة الصحافيّين يعتبرونها كذلك، فكل صحافيّ يحاول ببساطة أن يبرز ويتميَّز قليلًا عن بقيّة زملائه (ويسمى هذا التقليد «التدفق الدائريّ للإعلام» الذي ندّد به بيار بورديو). إن فكرة الحقل تقوم على فرضيّة التجانس والصرامة التي تم تفنيد صِحّتها بقُوَّة (الفاعلون يقودهم اللاوعي بتطبعهم، وفكرة المصلحة تُختزل في تعريفها «الاقتصاديّ»، وإقصاء منتظم ومفترض للذين لا يملكون مفاتيح لولوج الحقل...)، لذا أهملت فكرة الحقل وجود أكثر من منطق متناقض داخل هذا الحقل، وأكثر من منطق معارض للممارسات المسيطرة. ومن هنا، وفي لحظة هذا الانسجام في الحقل، تبدو ضرورة تَذَكُّر فكرة عدم دقة الأحداث والممارسات التي

(*) (champ): مفهوم أساسي لدى بيار بورديو، يتجلى عبر تشغيل مبدأ أساسي يقوم على أن الواقع الاجتماعيّ علائقيّ. ولا يُفهم معنى العلاقات في هذا المقام على أساس التفاعلات الاجتماعيّة، بل كبُنى غير مرئيّة. وتوظيف هذا المبدأ يكون في بناء المواضيع، فنقول الحقل العلميّ، والحقل الديني، والحقل الصحافيّ، ومنه تنتج المعارف التي تكون موضع نقاش ومواجهة ونقد.

t.me/ktabpdf مكتبة

اقترحها تانستول، الكاتب المتعلق بنمذجة العلاقات بين الصحافيّين وناقد سلطة الصناعات، من جهة، ويجب ألّا ننسى من جهة أخرى، مساهمة ستيوارت هول، الذي على رغم بنيويّته الماركسيّة الأقلّ منطقيّة والغرامشية (أو بسببها)، بلور فكرة الأصوات المتعارضة في وسائل الإعلام، وهذا ما يرفضه بيار بورديو بقُوَّة.

ويمكن تعدديّة الأدوار أن تُقْرأ انطلاقًا من الفلسفة السياسيّة بمنأى عن المستوى التنظيميّ والمعرفيّ (Muhlmann, 2004)، أو انطلاقًا من علم الاجتماع الفهمي. يصطدم صحافيّو الأخبار بالإكراهات ذات الطابع الشكليّ في إطار سياق تاريخيّ محدّد (Cyril Lemieux **صحافة سيئة**(*) *Mauvaise presse,* 2000). وبتنصيب أنفسهم كمحكمة رأي، لا يمتثل الصحافيّون لقواعد الحُجّة القانونيّة على رغم أنه يمكنهم الاقتراب منها، ويقومون بتأليب الفضاء العموميّ على الدولة. إن هويتهم وأخلاقيّاتهم «مُراوِغة». ويُعدّ التعدد الأساسيّ في القيم والأدوار في الأنظمة الديموقراطيّة بكل تأكيد أصل المواقف التعدديّة، والمعاديّة أحيانًا، فجاك لو بوهيك (Jacques Le Bohec) يذكِّر في كتابه **العلاقات القائمة بين الصحافة والسياسة، ترتيب تيبولوجي مثاليّ** (*Rapports presse-politique. Mise au point d'une typologie idéale*) (1997)، أن كلمة «الديموقراطيّة» يمكن أن تعني المشاركة في مسار مشترك

(*) عنوان الكتاب باللغة الفرنسيّة مقتبس من تعبير شائع في فرنسا ظهر في منتصف القرن العشرين، وقد استعمله الكاتب، من باب التلاعب باللفظ، ليقول لنا إن للصحافة سمعة سيئة (La presse a une mauvaise réputation).

t.me/ktabpdf

مكتبة

والتنافس بين المشاريع وتمثيل الجميع وترتيب إجراءات التعبير وتحديد السلطات. إذًا، يجب التفكير في الصحيفة الإخباريّة بصفتها ساحة عامّة(*)، وفضاء لتعبير الأحزاب (أو الأطراف)، وخدمة عموميّة، ومكانًا للتعبير الحر وللسلطة المضادة، ما يتطلب مواقف دعم المشاريع الخاصّة أو خصامها، واحترام جميع وجهات النظر، وذاتيّة الصحافيّ في اتخاذ المواقف، والحذر من المصالح القائمة. لا يُختصر النشاط الإعلاميّ في إنتاجٍ بسيط للأفكار المهيمنة، أو في المرآة التي تعكس العالم بأمانة، إنه بالأحرى مسار من التفاوض يزن فيه البعض أكثر من الآخرين، ويحاول كل واحد في هذا المسار أن يحافظ على ماء الوجه بالنظر إلى القيم المتعدّدة. إن لعبة المصالح بين صانعي الإعلام تتمّ على مستويات مختلفة، وهذا ما يفسر أن العلاقة تأخذ أشكالًا مختلفة بحسب السياقات، فالصحافيّ يمكن أن ينسج علاقات ودّ أو ألفة مع السياسيّ في إطار خاص، ويقيم معه علاقات تتسم بعدم الثقة في العلن وبالسخرية بين زملائه... ويمكن العلاقات الوثيقة بين الصحافيّين المحليّين والنخبة أن تترجم بوجود تواطؤ بينهم، كما يمكن أن تدلّ أيضًا على أنها مجرد تبعيّة متبادلة وحيويّة بين الصحافة ومصادر أخبارها.

مورفولوجيا الصراعات الهويّاتيّة: من هم الصحافيّون؟

تستمد البحوث الإمبيريقيّة الأنغلوساكسونيّة قوتها من ربط المُنْتِج بإنتاجه أي بالإعلام، مع خطر إضفاء السمة المثاليّة على الإعلام

(*) استعمل الكاتب مصطلح الأغورا (Agora)، وهي ساحة دائريّة في أثينا تشكل ملتقى العامة والفلاسفة.

t.me/ktabpdf مكتبة

في طبعته الوظيفيّة. لقد اهتمت السوسيولوجيا الأوروبيّة «القارية» على جهة الأولويّة، بالهويّات ومسارات المنتجين[55]، وتنازلت في الغالب عن المحتوى للمختصّين في تحليل العلامات، الذين يسعون إلى وصف متغيّرات الخبر «ما بين الإعلاميّين» (انظر إليسيو فيرون، 1981)، وتحليل أساليب الخطابات أو إكراهات مختلف الحوامل الإعلاميّة (مع بحوث باتريك شـارودو Patrick Charaudeau, 1997، على سبيل المثال، والسيمياء الإيطاليّة لكل من باولو فابري Paolo Fabbri، وجيانفرنكو بتيتيني Gianfranco Bettetini وفرانشيسكو كاسيتي Francesco Casetti...). والكشف عن ظهور المفردات المعجمية (Simone Bonnafous, 1991) بجانب بحوث المختصّين في العلوم السياسيّة حول المنظومات التلفزيونيّة (Arnaud Mercier, 1996). فهذه السوسيولوجيا أقلّ شموليّة من التيار الأنغلوساكسونيّ، وتُبنى خلاصات هذا الأخير بإظهار عدم تجانس الأوساط المهنيّة اجتماعيًّا، وكذا الممارسات التي تقوم بها. لقد بيّنت بحوث جان ماري شارون أو ريمي ريفل (Rémy Rieffel) العمل الذي قام به الصحافيّون لتحديد تخوم مهنتهم منذ قرن، وكشفت عن سعيهم الطويل لهويّة لم تُتَوّج سوى بانغلاق مهنيّ متخيل لسمة رمزيّة جسدتها البطاقة المهنيّة. ينقسم عالم الصحافة تقليديًّا إلى صحافة الأخبار العامّة (التي تتسم بفكرة القيام بدور السلطة المضادة) والصحافة السمعيّة - البصريّة (الموزعة

(55) نشير إلى التطور الأخير لسوسيولوجيا المهن (Siracusa, 2001) وإلى أبحاث المؤرخ جيروم بوردون (Jérôme Bourdon, 1994).

t.me/ktabpdf مكتبة

بين الترفيه والأخبار)، والصحافة المتخصصة (التي تريد أن تكون أكثر بيداغوجيّة)، والصحافة المحليّة (ذات الوظائف المرتبطة بشدة بالجماعة الاجتماعيّة). لقد انطمست حدود مهنة الصحافة، التي تفجَّرَت وأصبحت أكثر هشاشة (Accardo *et al.*, 1995, 1998) أمام مهن الاتصال (الإشهاريّون ومدراء الاتصال الذين قام جاك ولتر بدراستهم (Jacques Walter, 1995) وتحمّلت فقدان شرعيّة مرتبطًا بالغموض الكبير المحيط بها. لكن يجب ألّا يحجب هذا المسار الذي آلت إليه المهنة، والذي يبدو في نكوص، الانتصارَ الكبير الذي حقّقه الصحافيّون، والذي لا يمكن فهمه إذا سلك المرء الطريق المسدود الذي يؤدي إليه التعريف الوظيفيّ للمهن. وإذا تجاوزنا الكفاءات والتقنيّات واعتبرنا الطموحات التي تحدّد أيضًا المجموعات الاجتماعيّة، يبدو أن الصحافيّين نجحوا في فرض أنفسهم مجموعةً ذات شكّ في التشكّل والإنتاج. لقد أطلق دينيس رويلان (Denis Ruellan) على الصحافة مفهوم «احترافية الغموض»، اقتداءً بالبحوث التي قام بها «لوك بولتانسكي» عن الكوادر الإداريّة، وذلك للتذكير بحالة عدم التيقن التي يمكن أن تكون مفيدة في ظل بعض الشروط لأنها تسمح بالاستفادة من كل نوع من دون الانغلاق في تخصص، فالغموض ليس سوء تفاهم بالنسبة إلى الذين يطمحون إلى منزلة مؤرّخ في الوقت الحاضر ويستطيعون إبراز نعوتهم (موقف نقديّ، دعوة إلى الخبرة) وإلى منزلة السلطة الرابعة، أو يطمحون بجدّة أكبر إلى أن يكونوا مهماز العدالة (Charon et Furet, 2000)، هذا مع الحفاظ أحيانًا على علاقات قويّة مع جماهير الترفيه،

t.me/ktabpdf

مكتبة

والرغبة في تكوين جمهور، والتحوّل إلى نجم، مثل تلك التي يتمتع بها مذيع نشرة الأخبار المتلفزة (Leroux, 1997).

خلاصة: مشهد من دون جمهور؟

لقد أفرغت الدراسات التي خُصصت للصحافة مفاهيم مهنة الإعـلام من جوهرها، فأبرزتها كبناءات أو تسويات، ولـم تسعَ إلى طرحها في إطار الثقافة الديموقراطيّة الجديدة، والصراعات الاجتماعيّة للتمثلات التي تجاوزت حدود الإعلام والترفيه. لقد طُرحت مسألة نوعيّة الإعـلام، التي تعدّ أيضًا مسألة بناء، بصيغة محدودة ذات صلة بتأثير المصادر الإخباريّة واتجاه الصحافيّين والبُنى الأيديولوجيّة المكتفية ذاتيًا. وصُممت العلاقة بالعالم في شكل تبادل مع المحيط الخارجيّ يُقصى فيه جمهور الصحافة. وظَلّ التفكير في وسائل الإعلام يعتبر الإعلام بمثابة فضاء مستقل حتمًا، بشكل عاديّ وطبيعيّ، لا فضاء اسْتقل ذاتيًا للقيام بوظيفته الديموقراطيّة، وهذا ما أدّى إلى خلط اتجاهاته أو قيوده بخصائصه الأساسيّة. إن حلقة الاحتراف الصحافيّ المفقودة، في نظر فيليب شليسنجر (Schlesinger, 1978) تكمن في الجمهور الغائب عن اتخاذ القرارات وتَمَثُّلات للفاعلين في الإنتاج (هذا إذا استثنينا النمط الساخر). أما بالنسبة إلى العديد من الكتّاب الآخرين، فإنّ إدغام الترفيه في الإعلام (infotainment) بشكل تدريجيّ، يترجم الضغط التجاريّ الذي يمارسه الجمهور، والذي اعتُبر في الغالب تهديدًا مطلقًا، وعلامة على انزلاق الإنتاج من تقديم مادة ذات نوعيّة جيّدة

t.me/ktabpdf مكتبة

إلى مادة تافهة، وكدلالة على استخدام القوالب الإعلاميّة الإكراهيّة التي تميل أكثر فأكثر إلى السخرية والاختصار والتمركز حول الحوار. إنّ مبدأ فصل «التعليق» عن «الحدث» الذي استندت إليه الصحافة تاريخيًّا أضحى في حكم الماضي. لقد بيّنت الدراسة الإحصائيّة التي قام بها تيري واتين (Thierry Watine) في منطقة كيبيك بكندا في 2005، أن القصص الإخباريّة الخالصة لا تمثل أكثر من 32 في المئة من ملفوظات الصحافة المكتوبة الإخباريّة و26 في المئة من الملفوظات التلفزيونيّة، و50 في المئة من الملفوظات الإذاعيّة. إن تعايش الأركان الصحافيّة، مثل الأخبار الباردة، والتفاعل مع الضيوف والجمهور، وغمزات الصحافيّ ووجهات نظره، هي التي تتفوق على «أنماط التشكيل الصحافيّ» القديمة (Lochard, 1996). لكن هذا التطوّر الذي يعد أكثر من سخرية على نطاق واسع، يقر باعتبار متلقّي الإعلام فاعلين يجب احترامهم، والتخلي عن الصلاحيات المثاليّة للصحافيّين الذين نعرف أن حيادهم يرزح تحت ثقل الضغوط، وعلى انفتاح بعض المجالات. أخيرًا، إن اندماج الإعلام بالترفيه لا يشكل سوى أحد توجّهات الصحافة التي لا يمكن نكران دورها الشعبيّ والبيداغوجيّ في بعض الأحيان (Brants, 1998/2003). وباستثناء بعض الظروف القصوى، يظلّ تقديم الأخبار ذات النوعيّة الجيدة في قوالب مقيّدة وهجينة ممكنًا، بشرط احترام قواعد المقارنة بين الأوضاع، واستبصار العوامل والسياقات التاريخيّة، والتفكير في العلاقة بالمصادر، حتى في برنامج تلفزيونيّ يستغرق دقيقتين فقط. لا يُعَدّ تزايد الترفيه والحوار في التلفزيون مرادفًا لتراجع الإعلام بل

t.me/ktabpdf مكتبة

يجب أن يفهم كترجمة لقدرة وسائل الإعلام المتزايدة على الوصول إلى الرهانات الاجتماعيّة عبر حوامل متنوعة للنقاش العام والعلني، وعلى فهم العالم. ولا يمكن أن تحجب هذه الملاحظة الواقع الذي يؤكّد أن محترفي الإعلام والترفيه قليلو العدد، وأن منتجاتهم لا تمثل سوى قناة ضيقة جدًّا لمناقشة العلاقات الاجتماعيّة، جاعلة مجمل رهانات المعنى متمركزة في المجتمعات الديموقراطيّة. إن هذا الضغط الرهيب يفسر الصعوبات المهنيّة التي تواجه محترفي الإعلام في بحثهم عن الإعلام أو المشهد التلفزيونيّ المناسب، ويفسر أيضًا شكوكهم ذات الطابع الهويّاتيّ.

المراجع:

ACCARDO Alain (dir.), *Journalistes précaires*, Bordeaux, Le Mascaret, 1998.

_____ (dir.), *Journalistes au quotidien. Outils pour une socio-analyse des pratiques journalistiques*, Bordeaux, Le Mascaret, 1995.

BOLTANSKI Luc, *Les Cadres. La formation d'un groupe social*, Minuit, 1982.

BONNAFOUS Simone, *L'Immigration prise aux mots. Les immigrés dans la presse au tournant des années 1990*, Kimé, 1991.

BOURDIEU Pierre, *Sur la télévision*, suivi de *L'Emprise du journalisme*, Liber-Raisons d'agir, 1996.

BOURDIEU Pierre, BOLTANSKI Luc, «La production de l'idéologie dominante», *Actes de la recherche en sciences sociales*, 2, 1976.

BOURDON Jérôme, *Haute fidélité. Pouvoir et télévision 1935-1994*, Seuil, 1994.

BRANTS Kees, «Who's Afraid of Infotainment?», *European Journal of Communication*, 13/3, 1998 («De l'art de rendre la politique populaire... ou «qui a peur de l'infotainment?»», *Réseaux*, 118, 2003, avec un dossier spécial).

CHARAUDEAU Patrick, *Le Discours d'Information médiatique. La construction du miroir social*, Nathan, 1997.

CHARON Jean-Marie, *Cartes de presse. Enquête sur les journalistes*, Stock, 1993.

_____, «Journalisme: l'éclatement», *Réseaux*, 52, 1992.

CHARON Jean-Marie, FURET Claude, *Un Secret si bien violé*, Seuil, 2000.

CHARON Jean-Marie, MERCIER Arnaud (dir.), *Armes de communication massive. Informations de guerre en Irak: 1991-2003*, CNRS éditions, 2004.

_____, «Les journalistes ont-ils encore du pouvoir?», *Hermès*, 35, 2003.

DELFORCE Bernard, «Le constructivisme: une approche pertinente du journalisme», *Questions de communication*, 6, 2004.

DEVILLARD Valérie, LAFOSSE Marie-Françoise, LETEINTURIER Christine *et al.*, *Les journalistes français à l'aube de l'an 2000. Profils et parcours*, Éditions Panthéon-Assas, 2001.

DUBAR Claude, *La Socialisation. Construction des identités sociales et professionnelles*, Armand Colin, 1991.

t.me/ktabpdf

مكتبة

FERRO Marc, *L'information en uniforme. Propagande, désinformation, censure et manipulation*, Ramsay, 1991.

GANS Herbert, *Deciding What's News. A Study of CBS Evening News, NBC Nightly News, Newsweek and Time*, New York, Pantheon Books, 1979.

GITLIN Todd, *The Whole World is Watching. Mass Media in the Making and the Unmaking of the New Left*, Berkeley, University of California Press,1980.

HALL Stuart *et al.*, *Policing the Crisis: Mugging, the State, and Law and Order*, Londres, Macmillan, 1978.

HALLIN Dan, «Images de guerre à la télévision américaine. Le Vietnam et le Golfe persique», *Hermès*, 13-14, 1994.

_____, *«The Uncensored War». The Media and Vietnam*, New York, Oxford University Press, 1986.

LE BOHEC Jacques, *Les Rapports presse-politique. Mise au point d'une typologie «idéale»*, L'Harmattan, 1997.

LE FLOCH Patrick, SONNAC Nathalie, *Économie de la presse*, La Découverte, 2000.

LEMIEUX Cyril, *Mauvaise presse. Une sociologie compréhensive du travail journalistique et de ses critiques*, Métailié, 2000.

LEROUX Pierre, «Les deux publics des 7 d'or. Principes de célébration et de consécration du journalisme télévisuel», *Politix* , 37, 1997.

LOCHARD Guy, *L'information télévisée. Mutations professionnelles et enjeux citoyens*, Vuibert-Clémi-INA, 2005.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, «Genres rédactionnels et appréhensions de l'événement médiatique: vers le déclin des «modes configurants»»», *Réseaux*, 76, 1996.

MARCHETTI Dominique, «Les conditions de réussite d'une mobilisation médiatique et ses limites: l'exemple d' Act Up-Paris» *in* CURAPP, *La Politique ailleurs*, PUF, 1998.

MARTIN Marc (dir.), *Histoire et médias. Journalisme et journalistes français, 1950-1990*, Albin Michel, 1991.

MATHIEN Michel (dir.), *L'information dans les conflits armés. Du Golfe au Kosovo*, L'Harmattan, 2001.

_____, *Les Journalistes et le système médiatique*, Hachette, 1992.

MCLEOD Jack M., HAWLEY Searl E., «Professionalization among Newsmen», *Journalism Quarterly*, 41, Fall 1964.

MCQUAIL Denis, *McQuail's Mass Communication Theory* (1983), Londres, Sage, 2000.

MERCIER Arnaud, *Le Journal télévisé. Politique de l'information et information politique*, FNSP, 1996.

MISSIKA Jean-Louis, WOLTON Dominique, *La Folle du logis, La télévision dans les sociétés démocratiques*, Gallimard, 1983.

MOLOTCH Harvey, LESTER Marilyn, «Informer: une conduite délibérée. De l'usage stratégique des événements», *in* BEAUD Paul *et al.* (dir.), *Sociologie de la communication* (1974), *Réseaux- CNET*, 1997.

MUHLMANN Géraldine, *Du Journalisme en démocratie*, Payot, 2004.

_____, *Une histoire politique du journalisme XIXe-XXe siècle*, PUF, 2004.

NEVEU Érik (dir.), «La politique saisie par le divertissement?», *Réseaux*, 118, 2003.

_____, *Sociologie du journalisme*, La Découverte, 2001.

_____, «Médias, mouvements sociaux, espaces publics», *Réseaux*, 98, 1999.

PADIOLEAU Jean Gustave, «Système d'interaction et rhétoriques journalistiques», *Sociologie du travail*, 3, 1976.

PALMER Michael, «Agences de presse urgence et concurrence», *Mots*, 47, 1996.

_____, *Des petits journaux aux grandes agences. Naissance du journalisme moderne*, Aubier, 1983.

PASQUIER Dominique, «Le paradoxe du scénariste», Introduction à *Les Scénaristes et la télévision. Approche sociologique*, Nathan cinéma, 1995.

POWDERMAKER Hortense, *Hollywood. The Dream Factory*, Boston, Grosset, 1950 (traduction partielle «Hollywood, l'usine à rêves», Réseaux, 86, 1997).

RIEFFEL Rémy, «Pour une approche sociologique des journalistes de télévision», *Sociologie du Travail*, 4, 1993.

_____, (dir.), *Les Journalistes français en 1990. Radiographie d'une profession*, La documentation Française, 1992.

_____, (dir.), *Sociologie des journalistes, Réseaux*, 51, 1992.

_____, *L'Élite des journalistes. Les hérauts de l'information*, PUF, 1984.

t.me/ktabpdf

مكتبة

ROSTEN Leo, *The Washington correspondents*, New York, Harcourt Brace,1937.

RUELLAN Denis, *Le Professionnalisme du flou. Identités et savoirs des journalistes français*, PUG, 1993.

SCHLESINGER Philip, «Repenser la sociologie du journalisme. Les stratégies de la source d'information et les limites du média-centrisme», *Réseaux*, 51, 1992.

_____, *Putting «Reality» Together. BBC News*, Londres, Methuen, 1978 (traduction partielle «Le chaînon manquant: le professionnalisme et le public», *Réseaux*, 44-45, 1990).

SCHUDSON Michael, *The Power of News*, Harvard University Press, 1995 (traduction partielle dans Politix, 37, 1997).

_____, *Discovering the News. A Social History of American Newspapers*, New York, Basic Books, 1978.

SIRACUSA Jacques, *Le JT, machine à décrire. Sociologie du travail des reporters à la télévision*, Bruxelles, INA-De Boeck, 2001.

THOMPSON John B., «La nouvelle visibilité», *Réseaux*, 129-130, 2005.

_____, *Political Scandal. Power and Visibility in the Media Age*, Cambridge, Polity, 2000.

TUCHMAN Gaye, *Making News. A Study in the Construction of Reality*, New York, The Free Press, 1978.

_____, «Objectivity as Strategic Ritual. An Examination of Newsmen's Notions of Objectivity», *American Journal of Sociology*, 77, 1972.

TUMBER Howard (dir.), *Media Power, Professionals and Policies*, New York, Routledge, 2000.

t.me/ktabpdf

مكتبة

TUNSTALL Jeremy, *Journalists at Work. Specialist Correspondents, Their News Organizations, News Sources and Competitor-Colleagues*, Londres, Constable, 1971.

_____, *The Westminster Lobby Correspondents. A Sociological Study of National Political Journalism*, Londres, Routledge-Kegan Paul, 1970.

VERÓN Eliseo, *Construire l'événement. Les médias et l'accident de Three Mile Island*, Minuit, 1981.

WALTER Jacques, *Directeur de communication. Les avatars d'un modèle professionnel*, L'Harmattan, 1995.

WATINE Thierry, «Séparation des faits et des commentaires. Le déclin d'un principe journalistique fondateur» *in* BERNIER Marc-François, DEMERS François, LAVIGNE Alain, MOUMOUNI Charles, WATINE Thierry, *Pratiques novatrices en communication publique. Journalisme, relations publiques et publicité*, Les Presses de l'Université Laval, 2005.

WHITE David M., «The Gatekeeper. A Case Study in the Selection of News», *Journalism Quarterly*, 27, 1950.

WOLTON Dominique, *Penser la communication*, Flammarion, 1997.

_____, *War Game. L'information et la guerre*, Flammarion, 1991.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الفصل الثاني عشر

مهن الإنتاج بمنطق متعدد
ضغط التنميط والابتكار في الصناعات الإبداعيّة

أمام البحث في مجال الصحافة الذي يتجه إلى إهمال التفاعلات الكاملة بين فضاء الميديا وبَقيّة الفضاءات المرتبطة بالجمهور، بخاصّة تلك التي يمارس فيها ضغطًا تجاريًا واتصاليًّا، تشكل سوسيولوجيا مهنيّي الترفيه والإنتاج الثقافيّ بديلًا أو امتدادًا له، فهذه السوسيولوجيا التي يُعدّ إدغار موران رائدَها، تستعرض بالتفصيل الصعوبات التي يعاني منها الكاتب العامل في حقل الصناعات الثقافيّة، وتستعرض غياب الانسجام في وضعه القانونيّ، وخيبة تطلّعاته، ومكبوتاته، وما حقّقه من نجاح، وتكشف عن تبعيّة الصناعات الثقافيّة، بشكل أساسيّ، للمخيال الديموقراطيّ الذي يُحدث قطيعة أساسيّة في إنتاج الثقافة. وبهذا، تُسلّط هذه التبعيّة الأضواء على العلاقة بالنّاس، وتبيّن أن منتجي المعنى في وضعيّة تفرض عليهم، في الغالب، إدراك المتطلبات والآراء، وذلك من خلال إحداث التصالح بين المثل الفنيّة والإكراهات التنظيميّة، فيمكن التوافق ـ الجزئيّ على الأقلّ ـ مع «طلبات» «الجمهور»، أن يأخذ شكل السعي اليائس والأسطوريّ للوصول إلى أكبر عدد من المستمعين والمشاهدين، وهذا ما يؤدي إلى تشكيل ثقافات أكثر مساواة مما كانت عليه في المجتمعات السالفة.

t.me/ktabpdf مكتبة

إدغار موران: التوتّر بين التنميط المعياريّ والابتكار

إنّ النقاش الحاد جدًّا والعنيف حول الصّناعات الثقافيّة الذي أطلقته مدرسة فرانكفورت، تجدَّدَ بعمق في ستينيّات القرن الماضي، على يد إدغار موران في صفحات كتابه **روح العصر** (*L'Esprit du temps*) (1962). سنتابع في هذا الفصل القراءة المتميّزة التي قدمها له إريك ماسي (Macé, 2001). إن إدغار موران كاتب يساريّ ذو نزعة إنسانيّة، وغير مؤمن، ابن عائلة يهودية من شتات البحر الأبيض المتوسط. تعلق بالماركسيّة، ولم تكن علاقته متوتّرة بالرسوم المتحرّكة أو بالسينما الهوليووديّة التي ارتاد قاعاتها في طفولته في الشوارع الشعبيّة بحي منيلمونتون (Ménilmontant) بباريس. استهدفت جهوده التي عاصرت تلك التي بذلها الباحث هوغارت، من دون تَحَيُّز، فهم التغيرات الشاملة التي أحدثها بروز ثقافة جديدة أُنتِجَت قبليًّا وفق معايير الإنتاج الصناعيّ، الذي يتوجّه إلى طبقة اجتماعيّة ضخمة «مجمع من الأشخاص»، متجاوزًا البُنى الداخليّة للمجتمع (الطبقة، العائلة، وغيرها). ويستعمل الكِتاب المذكور أعلاه، جزئيًّا، ألفاظًا من معجم أدورنو وهوركهايمر عندما يتحدث عن المنتجين، ويوظف مصطلحات أنثروبولوجيا الدين عندما يتطرق إلى المحتويات أو المخاييل المنتجة، وهذا ما أدّى إلى تصنيف إدغار موران ضمن مريدي النظريّة النقديّة، أو ضمن سوسيولوجيا الافتنان. غير أن أطروحته خرّبت هذين التيارين من الداخل، فهو يرى أن ميلاد الثقافة التي لا تنتجها المؤسسات (الدولة والكنيسة، إلخ) ولا النخب، بل مؤسسات في سوق، تأتي لتُضاف إلى الأشكال

t.me/ktabpdf مكتبة

القومية والدينيّة والفنيّة لا لتكون بديلًا منها، كما يزعم أدورنو، إنّما تشكل، أوّلًا وقبل كل شيء، فعل دمقرطة بالمعنى التوكفيليّ. وقد جاء السوق لتحقيق المساواة في ظروف البحث العام عن الترفيه، من خلال المشاركة في تشكيل جمهور جديد تاريخيًا. إنه «الجمهور الواسع» الذي لا يدلّ على اندثار الحواجز الاجتماعيّة لكنه يعني إقامة علاقات بين الهويّات والاختلافات. «إن الثقافة الصناعيّة هي الأرضيّة الوحيدة للاتصال بين الطبقات الاجتماعيّة». ومهما كانت هويّات النّاس ومواقعهم في المجتمع، فنحن نقتسم مرجعيّتها المشتركة، وهذا ما يخوّلها منزلة «أول ثقافة كونيّة في تاريخ البشريّة».

لم يكن نجاح الثقافة الصناعيّة نتيجة مسار من التضليل المنوّم للعقول، لأنه يُفسّر أوّلًا بأهليّتها لنيل إعجاب النّاس وجذب اهتمامهم بمنجزاتها التي تتمتع بمقدار كبير من الثراء و«الواقعيّة» على الصعيد الاجتماعيّ. ويسترجع موران في الكتاب المذكور نتائج سوسيولوجيا لازارسفيلد، ويضيف إليها البعد التنظيميّ والثقافيّ، فإذا كان السوق يؤدي إلى إنتاج أشكال من الثقافة الرديئة وتسخيفها لأن المنطق التجاريّ والتنميط المعياريّ هما المسيطران على الثقافة، فإن سير هذا السوق غير المستقر بطبعه يمنع التفكير في كون المنتجات الثقافيّة المندمجة فيه مجترّة كليًا. فحتّى تتمكن المؤسسات من البقاء والتطوّر يجب عليها التجديد، واقتراح منتجات أصيلة، والمجازفة، «فالإبداع الثقافيّ لا يمكن أن يكون مندمجًا كليًا في نظام الإنتاج الصناعيّ». حقيقة، يمكن الروايات العاطفيّة أن تُنتج وفق القالب ذاته (القلب يمكن تعليبه) لكن نجاحها لا يدوم من دون تجديد سرديّ، واكتشاف

t.me/ktabpdf مكتبة

إشكاليّات جديدة في طريقة التعبير ذات صلة بالتطلعات الاجتماعيّة. إن الصناعات الثقافيّة أرضيّة لصراع دائم بين منطق «صناعيّ - بيرقراطي» و«احتكاري - ممركز ومنمّط معياريًّا» يكبت القدرات الإبداعيّة، ويقلّص المبادرات ويكتفي بتوظيف الصيغ الناجحة، ومنطق مضادّ «فردانيّ وابتكاريّ وتنافسيّ ونزّاع للاستقلال بذاته وإبداعيّ» يتطلب إعطاء الحرية للكُتّاب على أمل أن تكلّل جهودهم بالنجاح. هذه الثنائيّة الجوهريّة، وهذا التوتّر المؤسس الذي نجده فاعلًا في السينما والموسيقى يمنع اختزال صناعتهما في فضاء امتثاليّ.

وحتى تُرسى الثقافة الجماهيريّة، يتوجّب أن تتضمن مُنْتَجاتها الجديد، ليس على الصعيد الشكليّ فقط بل على مستوى العلاقات الاجتماعيّة التي تتطوّر باستمرار أيضًا. وبالإضافة إلى تنوع الثقافة الجماهيريّة فإنها ملتبسة وغامضة وتوفيقيّة وانعكاسيّة. ونظرًا إلى قدرة هذه الثقافة على الجمع بين الوحدة والتنوع، فإنها تظهر في شكل نصوص متناقضة في ما بينها (متضاربة) و(ملتبسة) داخليًا، فليس من المستحيل على الجمهور الأنثويّ أن يكتشف في الإنتاج السمعيّ - البصريّ محتويات نسويّة بجانب محتويات يغلب عليها الطابع الذكوريّ، ويستهلك منتجات نسويّة ومناهضة للنسويّة في الوقت ذاته (هذا ما بَيّنه الباحثون في مجال الدراسات الثقافيّة بانتظام، مثل جانيس رادواي). وتعدديّة المعنى - سواء أكانت قصديّة أم من دون قصد - تُعدّ من مكونات الثقافة المعاصرة التي يَطْلبها كثير من النّاس، وكي يستحوذوا عليها، فالسعي للوصول إلى أكبر عدد من المستمعين والمشاهدين، يفرض على المواد الثقافيّة طابعًا

مكتبة t.me/ktabpdf

«انتقائيًّا وتلفيقيًّا» حتّى تحقّق أملها في الحديث إلى مجموعات غير متجانسة من الجمهور في آن. ويَنتج هذا من المزج غير القابل للتصديق بين الأجناس الثقافيّة والتواضعات السرديّة والمواضيع (الفولكلوريّة، والكوسموبوليتيّة، إلخ) وفئات الجمهور المستهدفة (فوسائل الإعلام الموجّهة للبالغين والراشدين شبابيّة أكثر فأكثر، وصحافة الأطفال أكثر انفتاحًا على عالم الراشدين) وطرائق ربط اختلافاتها. والمطلوب هو استحضار التنوع في المشاكل التي لوحظت في مجتمع مركب ومعقد، وهذا ما يفسر الجانب التحرّريّ للشباب والنساء في الثقافة الجماهيريّة التي تقدم حلولًا ترفيهيّة لكنها لا تكفّ عن التحول إلى مشاكل بالنسبة إلى متابعيها. إن «ارتداد» المحتويات التي تقدمها الثقافة الجماهيريّة أو «طابعها التّطوّري»، يترجمان تبعيّتها للنزاعات، التي تتجلى في كلّ ما هو اجتماعيّ: فلا شيء يتسم بالجمود في المجتمعات الديموقراطيّة، سواء على مستوى التوافق أو التسوية في عالم الشغل أو العائلة أو على مستوى التَمَثُّلات الإعلاميّة.

تبدأ سوسيولوجيا إدغار موران بمقاربة تنظيميّة، وتنتهي بعلم اجتماع الكليّ أو ماكروسوسيولوجيا المخيالات، التي يُقال إنها ميثولوجيات حديثة. وهذا ما افتُقد لكليّانيّته الساذجة المزعومة، فمفهوم «روح العصر» يتسم بلهجة رومانسيّة وجماعيّة لعبارة (zeitgeist)(*) الألمانيّة، لكن هذا المفهوم يكتسب طابعًا مركبًا

(*) (zeitgeist): يتفق معظم القواميس على أن المقابل لهذه العبارة الألمانيّة هو «روح العصر».

t.me/ktabpdf مكتبة

ومعقدًا كثيرًا وديناميكيًا لدى إدغار موران، الذي يقترب من مؤلّف ماكس فيبر **الأخلاقيّات البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة** (*L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme*)، ومن دوركايم عندما يشير إلى الحركة المزدوجة لتشكيل الصور «بحسب الحاجات الشخصيّة التي تظهر»، ومن «النماذج التي تحفز على بعض الممارسات العمليّة». تُستخدم وسائل الإعلام كالمرايا التي تعكس الحياة الاجتماعيّة، وكنوافذ على العالم تجعل التعلم أو التدريب ممكنًا، كما لاحظ دومينيك ماهل (1992). وتتبع «روح العصر» إنتاج واستقرار الأطر المشتركة والمتناغمة مع المنظومات والتجارب الأكثر حدوثًا والأكثر دلالة في المجتمع، وتدعمهما. إن «روح العصر» مخيال معروف من الجميع، ومن دون أن يكون مخيال الجميع الذي ينطلق منه النقاش. لقد وصف موران «روح العصر» التي سادت في الفترة الممتدة من 1930 إلى 1960، والتي بدت له موسومة بتزايد المتعة والبحث عن الاكتمال الفرديّ في قطيعتها مع أخلاقيّات الزهد التقليديّ. و«روح العصر» مخيال تم التشكيك فيه عندما ظهرت «أزمة السعادة» في نهاية ستينيّات القرن الماضي، فعرّت كلّ خيال والأوجه السلبيّة لمسار الفردانيّة، فإذا لم يبيّن إدغار موران المراحل المنهجيّة لتحليل المخاييل المعاصرة بالمقدار الكافي، وجنح إلى المبالغة في قُوَّة انسجامها (يجب أن نتحدث على الأقلّ عن عدة أرواح للعصر متعايشة وعن فضاءات عموميّة نزاعيّة)، فإنه فتح أبواب البحث عن التفاعلات الاجتماعيّة العامّة المُنْتِجَة لمجموعات مهيكلة من المحتويات في وسائل الإعلام، التي أكَّد في الوقت ذاته مرونتها:

t.me/ktabpdf مكتبة

أن قُوَّة النزعة التطوريّة للأسطورة المعاصرة وعلاقتها في الاتجاهين بالجمهور، تجعلها لا تتماهى مع الأسطورة الدينيّة المؤسَّسة (يوجد فعلًا «تفكّك المقدس» وليس عدم العودة إلى المقدس)، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى أسطورة رولان بارت السيميائيّة، التي لم تستخدم سوى للتنديد بالطابع المحدود للبرجوازيّة الصغيرة المحرومة من قدرات الحوار في الثقافة الجماهيريّة.

الاقتصاد السياسيّ:
من الصناعات الثقافيّة إلى الصناعات الإبداعيّة

يعدّ تسليط الأضـواء على التوتّرات التي تعاني منها وسائل الإعلام نتيجةً مكتسبة أيضًا في تقاليد الاقتصاد السياسيّ للاتصال. وقد تأكَّد ذلك منذ ستينيّات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأميركيّة مع كتابات هربرت شيلر (Herbert Schiller) المندّدة بـ«الإمبرياليّة الثقافيّة الأميركيّة»، ثمّ في أوروبا، مع ما نشره البريطانيّان جيريمي تانستول ونيكولاس غارنهام (Nicholas Garnham)، والفرنسيّان برنار مياج (Bernard Miège) وأرمان ماتيلار (Armand Mattelart). وهذا التيار ذو الاسم الغامض، والذي لا يسعى إلى تطوير اقتصاد حقيقيّ لوسائل الإعلام بمقدار ما يروم الاعتراض على بعض الظواهر، مثل تمركز وسائل الإنتاج في أيدي الولايات المتحدة الأميركيّة، يرتكز بادئ ذي بَدْء، على دراسة الوقائع التنظيميّة والاقتصاديّة ضمن أفق نقديّ. لقد تمكن من اكتساب وضوح أكبر في ثمانينيّات القرن الماضي، بعد تحليل مفصَّل للتفاعلات وولوج

t.me/ktabpdf مكتبة

العلبة السوداء للصناعة الثقافيّة. وأضفى هذا التيار على الصناعة صفة الجمع لتصبح الصناعات ثقافيّة، وتبنّى الفكرة التي تنصّ على أن هذه الصناعات هي استعارة أكثر من كونها واقعًا ملموسًا (انظر العرض الذي قدمه تريستان ماتيلار Tristan Mattelart, 2001). والواقع أن الشركات الأميركيّة تسيطر على أسواق الصناعات الثقافيّة، والسبب في ذلك لا يعود إلى مشروع السلطات الأميركيّة الماكيافيليّ أو لنجاح بنيويٍّ لمنتجاتها، بل يرجع إلى الموهبة التي طورتها شركات التلفزيون والسينما الأميركيّة بصبر، وإلى تحكمها في كُلْفة إنتاجها، ما يفسر قدراتها على التصدير، ثمّ يعود أيضًا إلى انتهازيّتها: رفع يد الدولة عن القنوات التلفزيونيّة في بعض الدول الأوروبيّة في ثمانينيّات القرن الماضي وتسعينيّاته خلق طلبًا كبيرًا ومفاجئًا على المواد التلفزيونيّة والسينمائيّة لم تستطع هذه الشركات تلبيته في البداية. لقد بيّن جيريمي تانستول أنه إذا تم التمسك بمفهوم الإمبرياليّة الحسّاس، فيجب أن يصف أيضًا السياسة الثقافيّة الفرنسيّة والبريطانيّة. ويُمكن أن تُضَاف إليهما أيضًا سياسة مصر، والهند، واليابان، والبرازيل، وألمانيا، والعديد من الدول التي استطاعت أن تنشئ أنظمة تلفزيونيّة وسينمائيّة طموحة. إن تنوع المنتجات المتزايد في العالم، وظهور قِوى جديدة مُصَدِّرة لمنتجات الصناعات الثقافيّة، يُضْفيان طابعا نسبيًّا على فكرة الهيمنة (وليس السيطرة)، ويُذكِّران بأن عدم الاستقرار، والابتكار، والتنوع تكمن في قلب الظاهرة الثقافيّة (Hesmondhalg, 2002).

وقد تشكَّل التيار الآخر، الذي يمكن أن يطالب بتسميته «الاقتصادَ السياسيّ للاتصال» لكنّه سُمِي «اقتصاد الثقافة» بسبب اهتمامه

t.me/ktabpdf مكتبة

بالأعمال والنشاطات المكرّسة في المجال الثقافيّ، في الأصل على يد الاقتصاديّين «التقليديّين» الذين أتوا لاكتشاف الفنون ووسائل الإعلام. وانطلقوا من افتراضات مختلفة لكنهم توصلوا إلى ملاحظات مشابهة لتلك التي صاغها كُتّاب الاقتصاد السياسيّ، ووظفتها اليوم الدراسة الاجتماعيّة والاقتصاديّة للثقافة. لقد بادر الباحثان بومول وبوين (Baumol et Bowen,1966) بالتفكير في الأنموذج النيو كلاسيكيّ الذي أخذ شكل سلسلة طويلة من المفارقات. وضد الصورة النمطيّة الرائجة عن الثقافة التي توصف بأنها تمثل اقتصادًا مزدهرًا ومربحًا في كل الحالات، تُعدّل هذه الثقافة بعمق بالمجازفة، وتتبنّى الإستراتيجيّات حتّى تُصَحح. إن تاريخ إستوديوهات الإنتاج الأميركيّة هو تاريخ تمركزها وإفلاسها المنتظم (الذي أثر أيضًا على المشترين اليابانيّين، ثمّ الفرنسيّين، في ثمانينيّات القرن الماضي). وسوق العمل الفنيّ من أكثر الأسواق تثبيطًا للعزائم، فالذين يحدوهم الأمل في أن يصبحوا فنانين لا يسعفهم الحظ كلهم لبلوغ ذلك، بل يمكن واحدًا فقط من بين 500 طامح أن يكون فنانًا في الموسيقى «الكلاسيكيّة»، ومن بين الآلاف في الموسيقى «الشعبيّة» (Towse, 2001)، وتتضاءل آمالهم في تحقيق دخل ماليّ مرتفع بمجرد دخولهم الميدان. إن المهن الثقافيّة تتحدّد بالتدريب والتعلم الدائم، وبتنوع مناصب الشغل لتلبية «سوق العمل، الذي يسعى إلى مرونة وظيفيّة شديدة جدًّا لمهن عالية التخصص» (Menger, 1997). يوجد ضعف إذًا في العلاقة الأوليّة بين التكوين في الوظائف ذات الصلة بالصناعات الثقافيّة والكفاءات المكتسبة لاحقًا. إن الفنانين متعلمون جدًّا، في الغالب، لكنهم يرضون

t.me/ktabpdf مكتبة

بأجور ذات معدل ضعيف مقارنة بـذوي المستوى التعليميّ ذاتـه، ويجازفون ماليًّا بمسار مهنيّ احتماليّ، لكنه يمكن أن يؤدي إلى تحقيق ثروة في بضعة أسابيع. إن وجود تكاليف دائمة ومرتفعة، ووفرات الحجم أو اقتصاد الحجم الـذي تسمح به سعة الأسـواق، وظاهرة تهافت المشاهدين والمستمعين الجماهيريّ على بعض الأفـلام وبعض التسجيلات الغنائيّة، كلها عوامل تؤدي إلى ما يجنيه بعض الفنانين المشهورين الذين يوصفون بـ«النجوم»، من مبالغ ماليّة طائلة (Rosen, 1981) والذين يزداد طلب الجمهور وأرباب العمل عليهم، سواء عن إعجاب أو من باب ضمان أمن الشركات الماليّ (لاحظ إدغار موران أن «النجم هو أفضل مناهض لمجازفة الثقافة الصناعيّة»). لكن لا يمكن التنبؤ بالأرباح التي تستطيع الصناعات الثقافيّة تحقيقها إلا إذا استثنينا حالة المنتَج الثقافيّ الذي تتراجع مكانته في السوق بعد أن كان يحقّق أعلى المبيعات، وذلك لأن الطلب على هذه الصناعات مرن جدًّا مقارنة بالعرض. إن عبارتي الموهبة والإبداع مركزيّتان لكن لا يمكن تعريفهما، لذا من المستحيل إعادة إنتاجهما بطريقة صناعيّة، فيظلّ الشك الكبير في النجاح مسيطرًا، بحسب الملاحظة الهامة التي قدمها بيار ميشال منجيه (Pierre-Michel Menger) (1989)، وبشكل أكثر حدة في القطاع الذي يقال إنه «تجاريّ» و«مُصَنَّع» من قطاع «الفن والتجارب». وإذا كان الطلب على الموسيقى «الكلاسيكيّة» على سبيل المثال، قليلًا جدًّا مقارنة بالطلب على الأغاني الشعبيّة، ففي المقابل تُعدّ هذه الموسيقى مستقرة ولا تعاني من صدمات ومن المد والجزر الذي يميّز الأعمال الفنيّة ذات الصلة بما ينتظره قطاع واسع من النّاس. وعلى العكس

t.me/ktabpdf مكتبة

من الرؤية الأدورنية، يجب اعتبار وسائل الإعلام عوالم غير مضمونة أبدًا، وبالتالي مسكونة بهاجس التقليل من المخاطر، لكنها مَنْذورة للاستثمار ومضاعفة المحاولات وتطوير سجل إنتاجها على أمل النجاح. فمن الضروريّ إذًا الانتقال من مفهوم الامتثال إلى مفهوم التجديد، بل الإبداع، عندما يطرح نجاح الأعمال الشعبيّة التجاريّ الخشية من حدوث انقلاب في العلاقة السببيّة. يترك مفهوم «الصناعة الثقافيّة»، حتّى في صيغة تعدّده، مكانه لمفهوم الصناعات الإبداعيّة في آخر القرن العشرين، وذلك ليس من دون مقاومة. الحقيقة، إن الخطاب الأكاديميّ يلتقي خلال سعيه إلى نزع صفة عدم الشرعيّة والرداءة المبدئيّة التي التصقت بوسائل الإعلام، مع الخطاب النيو ليبراليّ - التسييريّ والتابع للدولة، الذي يثمّن امتداد القطاعات الديناميكيّة للإعلام والاتصال، ومع فكرة انغماس إبداعيّ في العمل (David Hesmondhalgh, 2002, Richard Caves, 2000)[56].

هوارد بيكر: الإنتاج بصفته تعاونًا

لقد درس المؤرخون وعلماء الاجتماع الخطوط المركزيّة لاقتصاد وسائل الإعلام في كلّ قطاع على حدة وبطريقة تعاقبيّة،

---

(56) سبقت زيادة المرونة في الأوساط الفنيّة المرونة في أغلب القطاعات الاقتصاديّة الأخرى، لكن يظل الغموض قائمًا حول: هل يمكن استنتاج أن المجتمع برمته يتبع منطق المهن الفنيّة، أو أن هذه المهن ليست سوى مواقع متقدمة لظواهر السوق العامة؟ (انظر: Christopherson et Storper, 1989, Storper, 1989, Menger, 2003 et 2005).

مكتبة t.me/ktabpdf

وحاولوا تعيين الاتجاهات السائدة في بُنى الإنتاج وسير سوق العمل (انظر: الملخص الذي قدمه Patrice Flichy et Dominique Pasquier, 1997، وأعمال بول هيرش Paul Hirsh, 1972 التي تشكل لبنة البحث في هذا الميدان)، وهي: أهميّة الكُلفة الثابتة واقتصاديات الحجم، وتزايد الهشاشة في سوق العمل، والانتقال في العمل من نظام الأجير الدائم إلى العامل المؤقت التناوبيّ، وغياب مراكز التكوين الحقيقيّة للكُتّاب التي تسمح بتراتبيّة المهن، وتطوّر التسويق... وتغيب في هذه الاتجاهات الرؤية على المدى الطويل، التي تسمح بالنظر إلى عدم ديمومة هذه التطورّات، فكل وسيلة إعلاميّة تعيش تحولات دوريّة وفوضويّة (Peterson et Berger, 1975). إن هشاشة وضع الكُتّاب، على سبيل المثال، وفقدانهم الاستقلاليّة، تُوازنها ضرورة منح الحرية لهم. لقد سيطر المنتجون والموزعون والمخرجون على التوالي، على فروع السينما في العالم، وتعقدت العلاقات أكثر مع هؤلاء في بعض البلدان التي تملك دولها آليّات التدخل في قطاع السينما (انظر: Bonnell, 1989, Dagnaud, 2006)، أو تعقدت عوامل التشابك بين السينما والتلفزيون التي يجب شرحها بتفصيل (Chaniac, 1994, Chaniac et Jézéquel, 1998, Creton, 2003, 2005). فكل حركة موسيقيّة وليدة (موسيقى البانك punk(*)،

(*) البانك: حركة موسيقيّة وثقافيّة ظهرت في بريطانيا في 1975، تتسم بجملة من المظاهر الخارجيّة غير الامتثاليّة، وحتّى الاستفزازيّة: صباغة الشعر بألوان مختلفة، وحلاقته بطريقة غريبة، وحمل سلاسل في الرقبة، ووضع أساور في المعصم للتعبير عن رفض المجتمع، الذي يُعتبر تافهًا.

مكتبة t.me/ktabpdf

والـراب، وموسيقى الغرنج grunge(*) تستند إلى الابتكار وحرية التجريب التي توفرها صناعات الموسيقى للمؤلفين الموسيقيّين الشباب، قبل تزايد المراقبة عليها وإخضاعها لصيغ أكثر نمطيّة (Guibert, 2006). ويعني استيعاب الإنتاج الثقافيّ في مرحلة معينة، استكشاف السلسلة التي تربط المالكين وأصحاب الأسهم والقادة والمديرين والمكلفين بالتسويق والمبتكرين والفنيّين والموزعين وغيرهم.

ويمكن هذا الاستكشاف أن يتم انطلاقًا من سوسيولوجيا الهيمنة، مثل تلك التي استخدمها بيار بورديو ووظفها للكشف عن قواعد السير الداخليّ للإنتاج الثقافيّ في الدراسة التي أنجزها عن الحقلين الأدبيّ والصحافيّ، لكنه استبعد احتمال التفاعل مع الجمهور من جهة، وأقصى من جهة أخرى الطابعَ المتقلب لبعض جوانب التطوّر التي تُعتبر شبه حتميّة (غلْق الفضاء التلفزيونيّ في وجه المثقفين، واستقلاليّة النظرة الجماليّة، إلـخ)[57]. ويتطابق هذا الاستكشاف أكثر مع رؤية حتميّة الواقع الاجتماعيّ التي دافع عنها هوارد بيكر

(*) الغرنج: نوع من موسيقى الروك أو الروك البديل، ظهر في أوساط الشباب البيض في سياتل بولاية واشنطن، في الولايات المتحدة الأميركيّة، أخذ مسمى جيل X.

(57) إن تنوع الأوضاع القطاعيّة والوطنيّة يوضح جيّدًا حدود الوصف ذي الطابع العام، فإذا كانت التلفزة العموميّة الفرنسيّة تطورت من دون اللجوء إلى «المثقفين» وعانت من احتقارهم إياها قبل أن تعاني من تنافس القنوات التلفزيونيّة الخاصة العنيف (الوضع الإيطاليّ يؤكد أكثر هذا الأمر)، لقي التلفزيون العموميّ البريطانيّ الذي يبدو أكثر هيمنة، من جهته دعمًا في عالم المثقفين. الشيء ذاته يقال عن الاستقلال الذاتيّ الفنيّ الذي يتغير وفق النوع الذي نختاره، سواء أكان شريطًا مرسومًا فرنسيًّا أم أميركيًّا، أو السينما الأميركيّة أو الأوروبيّة، أو الفنون البلاستيكيّة، وغيرها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

(Howard Becker) الذي يشترك مع بيار بورديو في فكرة تجديد سياق الفاعلين أي إدراجهم في سياق (تجنب اللجوء إلى المخيال الرومانسيّ للمبدع العبقريّ المعزول)، من دون افتراض وجود هوّة بين المنتجين والمتلقّين. لقد عرف عازف البيانو في موسيقى الجاز هوارد بيكر، وريث مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع، من الداخل شبكات تحافظ على وجود تشكيلات موسيقيّة «شعبيّة» ولاحظها (انظر مؤلفه الغرباء 1963 *Outsiders*)، وقام بالتنظير لإنتاج العمل الفنيّ واعتبره بمثابة فعل جماعيّ يلتزم فيه الفاعلون بالتعاون وبعقد اتفاقيات، في كتابه عوالم الفن (*Les Mondes de l'art*) (1982). وتشمل الشبكات المذكورة أعلاه المنتجين أو المُلّاك وصنّاع الموادّ والمبدعين والفنيّين والموظفين والوسطاء، وأيضًا صانعي الماضي والحاضر الذين يُعَدون مراجعَ، والجمهور المستهدف. ويتضمّن المنتَج الثقافيّ، الذي يعد بمثابة نشاط جماعيّ، الآثار الماديّة والإدراكيّة للعديد من التفاعلات، النزاعيّة في الغالب، التي تلتقي فيها التقنيّات الشخصيّة، ومهارات المجموعة، والروتين، ومقولات الإدراك... إذًا، من الممكن أن نقرأ فيها بعض الاتفاقات التي نجمت عنها، فعالم الفن يتطوّر بالاتفاقات التي تصقله، ولا يتبع بالضرورة التوجّهات ذاتها التي تتبعها القطاعات الأخرى، ولا يقوم الاعتراف الثقافيّ بـ«الفن»، أو ازدراء «الأعمال الحرفيّة»، أو احتقار «الثقافة الفرعيّة»، سوى بترجمة نجاح التحشيد حولها أو فشله، ولا يتعلق بجوهر هذا العالم.

ويسعى الاقتصاد السياسيّ إلى فهم الأشكال الثقافيّة من خلال دراسة الإكراهات التي تلقي بثقلها على كاهل المبدعين وإن

t.me/ktabpdf مكتبة

كانت لا تستطيع أن تسلم بتكافؤ بسيط بين البُنى التنظيميّة وأنواع المحتويات. ولا تحدّد بُنى الإنتاج الأشكال الفنيّة أو الإعلاميّة، كما يذكر دينيس ماكويل (1992). إن ما يسمى علم اجتماع التفاعل المتبادل، يمنح بدوره قدرات التفاوض للفاعلين الذين يعرفون كيف يمتثلون للاتفاقات أو يتلاعبون بها أو يفرضون أخرى. وتؤثر الأنظمة القانونيّة لحقوق المؤلف والنشر، والعلامات التجاريّة، بشتّى السبل في الطريقة التي يتصور بها المبدعون أعمالهم. لكن إن كان القانون يـوزع المواقف الإكراهيّة، فإنه لا يفضّل أنواعًا معينة بذاتها من الخطابات، فالقانون ـ كما ذكرت جاين غينز (Jane Gaines, 1991) الباحثة في تخوم تقاطع الدراسات القانونيّة مع الدراسات الثقافيّة ـ اتفاقية تندمج في اتفاقيات أكثر اتساعًا: ويمكن تأويل النصّ بطريقة مختلفة في شتّى القطاعات والعصور، على الرغم من عدم إمكان تجاهل وجوده في عصر ما. وبالطريقة ذاتها يمكن أن نلاحظ تأثير المبتكرات، مثل التلفزيون الذي يشترط مقابلًا ماليًا لمشاهدة برامجه. وقنوات هذا التلفزيون الجديدة أقلّ تبعيّة للمشاهد من القنوات التلفزيونيّة المنافسة، وتَمنح في الغالب المبدعين هامشًا من الحرية أكبر من بقيّة القنوات التلفزيونيّة، والبُنية تؤثر على المحتويات. وعلى رغم كل هذا، لا يمكن أن نستنتج غياب التجديد في القنوات المجانيّة (انظر: Thompson, 1997, Beylot, Sellier, 2004)، عن الأفلام البوليسيّة «ذات النوعيّة الجيّدة») مع انطلاقة المسلسلات الجريئة في عَقْد 1990، فأي مسلسل تلفزيونيّ من المسلسلات التالية: أوز (Oz) وأصدقاء (Friends) وآلي ماكبيل وطوارئ (Urgences)، يمكن القول

t.me/ktabpdf

مكتبة

إنه «مسلسل قنوات الكيبل» (Cable) أو «القنوات المجانيّة»؟ فمن الممكن إنتاج مؤلفات «ذات نوعيّة جيّدة» مع تحمّل شدة الإكراهات. إن متغيّر الهويّة الفنيّة، والطريقة التي يتصوّر بها الكُتّاب علاقاتهم بالمنتجات، تبدو على الأقلّ أكثر حتميّة من الإكراهات المفروضة.

تحدّي الهويّة الفنيّة في زمن وسائل الإعلام

يجب على التاريخ وسوسيولوجيا الفن أن يساعدا سوسيولوجيا وسائل الإعلام، التي تقدم صورة مثاليّة للنشاطات الفنيّة التي جرت في الماضي، وتتمسك بفكرة المبدعين المعاصرين الذين تحرروا من الوهم. إن الربط الصّعب بين هذه التيارات البحثيّة يفترض تناظرًا تامًّا لوجهات النظر. هذا الرّبط أنجزه دومينيك باسكييه وسابين شالفون ـ دمرسي في فرنسا، وريتشارد بترسون في الولايات المتحدة الأميركيّة، وهو يسمح بتجاوز النقاش حول حرية الإبداع، فمثلما ذكرت باسكييه وشالفون ـ دمرسي، الإكراهات القويّة هي التي تميّز بشكل أفضل الفن في القرون الماضية... وفي حاضرنا[58]. لقد أُنجزت

(58) يضفي الكاتب الإيطاليّ ألسندرو باريكّو (Alessandro Baricco) الصفة النسبيّة على الإكراه الماليّ كمعيار لتحديد المؤلفات، مستعرضًا المثال الخاص بشراء أسطوانة بيتهوفن الموسيقيّة، المؤلف «الخالص»، إذ يقول في هذا الصدد: «كان بيتهوفن يؤلف الموسيقى من أجل المال. وفي حدود علمي، فإنّ المال له شخصيًّا وللمؤسسة التي قامت بنشر أسطواناته، ولعازف البيانو الذي عزفها لأجلكم، فما اشتريتموه ساهم فيه العديد من الأشخاص الذين كانوا يرغبون في أشياء كثيرة، منها المال (...) لكن بيتهوفن علامة تجاريّة، والانطباعيون الفرنسيّون كذلك، وكافكا وشكسبير وأمبرتو إيكو علامات تجاريّة أيضًا... وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجمهورية و«ميكي» و«نادي جوفنتوس» الإيطاليّ لكرة القدم، فكل هؤلاء يشكلون عوالم ويملكون دلالات تتعدى ما هم عليه» (*Next. Petit livre sur la globalisation et le monde à venir,* Albain michel, 2002).

كل اللوحات الزيتية في عصر النهضة تحت الطلب، أما الإبداعات المشتركة، وحتّى تلك المجهولة الهويّة، فقد شكلت قاعدةً أكثر منها استثناءً. إن القطيعة الكبرى التي حدثت في هذا المجال تتجلى في تطوّر أيديولوجيا الكاتب والمُؤَلف الرومانسيّة، والتي عزّزت تحقيق الذّات النفسيّة والاجتماعيّة، طامسة الطابع الجماعيّ للإبداع وتبعيّته، وطمست معه إثراءه التقاليد الثقافيّة. ويحتل الفن المعاصر من وجهة النظر هذه، مكانة مفاجئة، لأنه يثمّن مؤلفين شديدي الانفراد تابعين لمنطق السوق، أو يقومون بتلبية طلبات عموميّة، إلى حدّ أن هذا الفن بلغ درجة من التبعيّة لم يبلغها أي فن في التاريخ إلا نادرًا (كما كشف عن ذلك علماء اجتماع الفن، مثل هينيش Heinich، ومنجيه، ومولان، كل بحسب طريقته). وبشكل متماثل، فإن مؤلفي التلفزيون والسينما أعادوا صلتهم بالإنتاج الجماعيّ الذي كان يحدث في الماضي (وبخاصّة في الولايات المتحدة الأميركيّة)، ساعين إلى العيش بتوافق مع الشركات التي تتفاقم فيها الذاتيّات. وتزايد التوتّر الناجم عن هذا التوافق، الذي استوعبته جيّدًا إيف شيابيلّو (Eve Chiapello) (1998). ويُعدّ هذا التوتّر من وجهة نظر إداريّة، من المواضيع التي تجب دراستها أكثر من الإكراهات التنظيميّة أو مورفولوجيا المهن. إنه يطبع مخرجي التلفزيون الموزّعين بين حلمهم في الإخراج باعتبارهم محترفين (Corset, 1984, Bourdon, 1993) وإكراهات منتجي السمعيّ - البصريّ (Dagnaud, 2006, Glevarec, 2001, Tunstall, 1993) الذين يجب أن يوفقوا بين الطموحات الإبداعيّة لكُتّابهم وكُلْفة إنتاج مُؤلَّفاتهم

t.me/ktabpdf

مكتبة

وأطماعهم الفنيّة، وبهذا فإنهم «يلوّثون المنطق الإداريّ» (Chalvon-Demersay, 1997). أما مذيعو التلفزيون، هذه الوجوه المألوفة، الوجوه الهوغارتيّة، فإنهم يحظون بحب الجمهور ويكرههم الفنيّون والمخرجون. (Chalvon-Demersay, Pasquier, 1990).

أكَّدت دومينيك باسكييه نتائج النزاع الهويّاتيّ الوخيمة في بعض الأحيان بين محترفي العمل في القطاع السمعيّ - البصريّ، وذلك في البحث الميدانيّ ذي القيمة النموذجيّة الذي قامت به وشمل كُتّاب سيناريو التلفزيون الفرنسيّين، كما وظفت فيه بشكل متزامن، الاقتصاد السياسيّ وسوسيولوجيا الفن. وأصدرته في كُتّاب السيناريو والتلفزيون: مقاربة سوسيولوجيّة (*Les Scénaristes et la télévision :Approche sociologique*)، (1995). لقد رأت هذه الباحثة أن مهنة كاتب السيناريو تتسم، كأي مهنة أخرى، بلعبة «الحاجز» و«المستوى» اللبقة (نستعمل في هذا المقام المفردات اللغويّة ذاتها التي استعملها غوبلو Goblot, 1925) أي أن هذه المهنة تتميز بالبحث عن هوية مشتركة تستند إلى معايير تقنيّة و/ أو فنيّة، وبإرادة إقامة مراقبة على الملتحقين بالمهنة تميّزها وتحميها. لقد أخفق كُتّاب السيناريو في أن يُشخّصوا ذاتهم بشكل جماعيّ وينتظموا بطريقة قويّة أي أنهم لم يشكلوا نقابة لكنهم انضموا إلى تجمع (خلافًا للصحافيّين ومخرجي التلفزيون)، ولم يستفيدوا من اعتراف الجمهور بهم (خلافًا لمذيعي التلفزيون). لكن بإمكانهم الاستناد إلى الوضع القانونيّ الذي يتمتع به المؤلف أو الكاتب، والذي يوفره لهم

t.me/ktabpdf مكتبة

قانون الملكيّة الفكريّة (على غرار الفنانين التشكيليّين وخلافًا لكتّاب السيناريو الأميركيّين، الخاضعين لـ«حقوق النشر» copyright). لقد تعاقبت ثلاثة أجيال على الكُتّاب القدماء، الذين عاصروا احتكار الدولة الفرنسيّة التلفزيون ودافعوا عن منطق المُنْتَج التلفزيونيّ. والتحق الجيل الجديد بالعمل التلفزيونيّ بدءًا من ثمانينيّات القرن الماضي، وتأهل في الغالب لكتابة الرواية البوليسيّة، وباشر الجيل الثالث الجماهيريّ والأخير، عملَه التلفزيونيّ منذ تسعينيّات القرن الماضي بمناسبة محاصصة الإنتاج الناطق باللغة الفرنسيّة، وهو يتشكل من الكُتّاب الشباب القادمين من مشارب مختلفة: تقنيّي القطاع السمعيّ - البصريّ، وممثلين، ومخرجي التلفزيون. ويمكن أن تنتج نزاعات عن عدم التجانس في توظيفهم، وفي الأفكار والممارسات والعلاقات التميّزية التي تربطهم بالمخرجين والمنتجين، فالكُتّاب الشباب يطالبون بمنظمة تحمي مهنتهم، وبعقلنة أشكال للكتابة قريبة من تلك المعتمدة في الولايات المتحدة الأميركيّة (وفق نظام ورشات الكتابة)، بينما يظلّ الكُتّاب القدماء متمسكين بالوضع القانونيّ للكاتب الذي غالبًا ما يغبطهم عليه الأميركيّون. ويمكن أن نلاحظ تبادلًا غريبًا للوضعيّات، «ففي الوقت الذي يطالب القسم الأكبر من كُتّاب السيناريو الفرنسيّين بحماية مهنيّة على الطريقة الأميركيّة، يسعى نظراؤهم الأميركيّون إلى الحصول على الحقوق الأدبيّة على الطريقة الفرنسيّة». إن الروح الجماعيّة الكامنة في المُنْتَج التلفزيونيّ مقيدة في فرنسا، ما يفسر أيضًا الشعور بالتضايق الذي يعاني منه كُتّاب السيناريو الشباب الذين يستثمرون طموحهم

t.me/ktabpdf مكتبة

الفنيّ في الفيلم التلفزيونيّ، ويُستبدل به الابتذال التجاريّ بمجرد أن يشرعوا في العمل لإنجاز مسلسل تلفزيونيّ كوميدي (sitcom) يُصمم كإنتاج صناعيّ، وتُثَبط عزائمهم بالقول «كفى مبالغة، فهذا ليس عمل شكسبير»، مثلما يردد أحد الكُتّاب. إن تراتبيّة الأنواع التلفزيونيّة قويّة في فرنسا وتسيء إلى المسلسلات، وحتّى إلى كُتّاب السيناريو أنفسهم، وإلى منتجي الأفلام التلفزيونيّة الذين يسيئون إلى سمعتهم بالحفاظ عليها، على الرغم من أن المسلسلات تمثل شكلًا تعبيريًا كاملًا، كما يعبر عنه بوضوح الإبداع الأميركيّ في سياق تكوّن العقلنة والتبادل المثمر لأساليب عمل أكثر رسوخًا، سواء في الحالة الأسوأ (التجرد من الذاتيّة) أم في الحالة الأفضل (مضاعفة عدد المتدخّلين، وبالتالي تزايد النظرات الذاتيّة النقديّة).

هل توجد ديكتاتوريّة جمهور وسائل الإعلام؟

لا يمكن تصور وسائل الإعـلام من دون تفاعل يُفترض أن يكون مع جمهور متعدد غفير وغير متجانس، فالعمل للوصول إلى «الجمهور العريض» في المجتمعات التي يكون فيها المشروع الفنيّ فردانيًا يشكل دلالة على اعتراف شعبيّ وتململ هويّاتيّ في الوقت ذاته. ويشكل هذا الاعتراف والتململ مصدر التوتّر الذي يبلغ أوجه مع بداية استخدام عتاد التكميم المكلف بتحديد ردود فعل الأشخاص الذين تتوجّه إليهم وسائل الإعلام. لقد تحوّل منطق الجمهور تدريجيًا إلى السّعي لوضع خارطة برامجية فيدرالية تتحدّد بنتائج المشاهدة بالنسبة إلى وسائل الإعلام الخاصّة التي يمولها

t.me/ktabpdf مكتبة

الإشهار بشكل أساسيّ ولوسائل الإعلام التابعة للقطاع العام التي تستمد جزءًا من شرعيّتها في الكمّ (عدد المشاهدين). ويبدو بادئ ذي بدء أن تاريخ قياس المشاهدة التلفزيونيّة يعدُّ تاريخ النجاح المتزايد لأقسام الإعلان، والمعلنين، ومعاهد قياس المشاهدة، لكنه يشكل أيضًا، نجاح السلطات العموميّة على حساب المنتجين والمبدعين، في حركة عامّة من التنميط المعياريّ، والسّعي للعثور على أصغر قاسم مشترك بين الجمهور (ضمن الأفق النقديّ لباتريك شمبانيو Patrick Champagne, 1994). ويدعو تعقد هذا التطوّر منذ خمسينيّات القرن الماضي، إلى توضيح دقيق لهذه الملاحظة (Chalvon-Demersay, 1998, Bourdon, 1992, Méadel, 2004).
وفي ظل غياب تمثيل بديل للجمهور يترجم انتصار قياس المشاهدة في الولايات المتحدة الأميركيّة، تراجعَ المعلنون الذين كانوا يحدّدون البرامج انطلاقًا من تطلعاتهم الخاصّة (فتجار مواد التنظيف المنزليّ، على سبيل المثال، يطلبون البرامج المسماة «الأوبرات الصابونية» مساءً للجمهور المشكل من الإناث)، بينما شكّل الشروع في استخدام قياس المشاهدة التلفزيونيّة في أوروبا تحرّرًا من تَمَثُّل الدولة السابق للجمهور. لقد تم الاعتراف الكامل بالمشاهد ـ المستهلك، المُهَدِّد المحتمل للتلفزيون وليس التلميذ الذي تجب تربيته. لقد أنتج الهروب إلى الأمام نحو تكميم المشاهدين في غمار السحر الذي يمارسه التَمثُّل التبسيطيّ للتطلعات، انحرافات لا يمكن التشكيك فيها تتعلق بديكتاتورية المشاهد، التي تدفع القنوات التلفزيونيّة إلى التضحية بما يمكن تحقيقه على المدى الطويل لمصلحة ما يمكن

t.me/ktabpdf مكتبة

إنجازه على المدى القصير، واستبعاد البرامج الجزئيّة، عملًا بمبدأ أن النتائج الجيّدة تستحق الإذعان إلى اختيارات اليوم وغدًا. إن المنطق الاقتصاديّ للعدد الأكبر من المشاهدين يستند إلى تمثيل جزئيّ جدًّا للجمهور، ومفهوم المشاهدة يُستخدم لقياس بعض ردات الفعل اللاحقة تجاه البرامج أي على عرض تلفزيونيّ معين، ولا يستخدم لفهم الطلب الذي لا نعرف كيف تُقوّم نوعيته أو كثافته، ففي هذا المعنى لا توجد ديكتاتوريّة الجمهور، بل يوجد ببساطة فرض طلب متخيَّل للبرامج التلفزيونيّة.

تقدم البحوث التي أنجزها تود غيتلين، والتي تُعدّ غوصًا إثنوغرافيًّا حقيقيًّا في كواليس التلفزيون الأميركيّ، ما يثبت إمبيريقيًّا هذه الملاحظات، ففي كتابه **داخل وقت الذروة** (*Inside Prime Time*) (1983)، يبيّن هذا الكاتب أن التلفزيون الأميركيّ يسير مثل «فن تصوير النسخ»، ونظرًا إلى أن اختيار البرامج سلبيّ وتابع، فعليه تجنّب ما يحرمه من رضا أكبر عدد من المشاهدين، وألا يحتفظ سوى بالأنواع التلفزيونيّة والمواضيع المفترض أنها مقبولة، فتعاد برمجتها وبثّها باستمرار. يميل التلفزيون إلى العمل من أجل النواة الصلبة في الجمهور، ويقصي بقيّة فئاته. ولا تحدث التغيّرات إلا عبر التأثير المرحلي، فالمثليّة الجنسيّة على سبيل المثال كانت غائبة في المسلسلات التلفزيونيّة في سبعينيّات القرن الماضي، بذريعة أن إثارتها يمكن أن تصدم المشاهدين. لكن يمكن أن يُكافأ مُنْتِج تلفزيونيّ لجرأة عمله فيحقّق نسبة جيّدة من المشاهدة فيجر القنوات التلفزيونيّة المنافسة إلى استنساخه (يمكن أن نذكر في هذا المقام

برامج تلفزيون الواقع التي تضاعف عددها بشكل مذهل). ويمكن الاختبارات[59] التي تقوم بها القنوات التلفزيونيّة أن تقدم معلومات كميّةً إضافيّة وتعزّز هذه الملاحظة. ومن النادر أن تؤدي النتائج التي يتم الحصول عليها في هذه الاختبارات إلى تغيير آراء مختلف الفاعلين الذين شاركوا في الإنتاج التلفزيونيّ، بل تسمح للمنتجين والموزعين باستغلالها لفرض وجهات نظرهم على المبدعين. إن هذه النتائج أدوات داخليّة للتفاوض وإضفاء شرعيّة على القرارات (تغيير مقطع من عمل تلفزيونيّ، تحجيم موضوع معين، إلخ) التي تخدم سياسات الإنتاج التلفزيونيّ أكثر من التقويم الحدسيّ لتطلعات الجمهور ولما ينتظره من هذا الإنتاج.

لا يقتصر استخدام البيانات على ما نجهله عن الجمهور. ولم يختر غيتلين سوى الجانب الامتثاليّ في السمعيّ ـ البصريّ لوصفه وتبدو استنتاجاته غامضة في جوهرها لأنها تشير إلى التغييرات التي يثيرها بعض الإستراتيجيّات الابتكاريّة وتقدم تصورًا للنسبة الجيّدة التي تحقّقها المشاهدة التلفزيونيّة. لقد قامت سابين شالفون ـ دمرسي (Sabine Chalvon-Demersay) (1998) ورجين شانياك (Régine Chaniac) (2003)، باستكشافات أخرى في الأوساط السمعيّة ـ البصريّة حيث بينتا ثنائيّة السعي نحو رفع نسبة المشاهدة التلفزيونيّة. والبيانات وإن كانت سيئة

(59) تتمثل هذه الاختبارات في جمع مائة شخص في قاعة انطلاقًا من تصوّر عام لدرجة تمثيلهم المجتمع المدروس بالنظر إلى السن والمستوى التعليمي، فتطرح عليهم أسئلة خاصة بتصور الحلقة النموذجيّة من البرنامج التلفزيونيّ أو فيلم لم يبثّ من قبل.

t.me/ktabpdf

مكتبة

من الناحية التقنيّة، فهي تستخدم كوسائل اتصال بين محترفي السمعيّ - البصريّ والجمهور. ولئن تضمّنت الاختبارات المذكورة العديد من العيوب، واستجابت أوّلًا لمطلب حلّ النزاعات الداخليّة المتعلقة بالإنتاج، فإنها تسمح بتسريب بعض ردود الفعل، في بعض الأحيان، على غرار اختبارات الإعلانات[60]. إن السعي للوصول إلى أكبر عدد من الجمهور بواسطة القياس هو أسطورة تساهم في الاهتمام بتعدّد التطلعات: فالتوتّر الذي يعتمل في وسائل الإعلام لا يمكن أن يزول في الكم. وأرقام مشاهدة البرنامج التلفزيونيّ لا تشكل حقيقة نهائيّة بمقدار ما توفر عنصرًا للتفاوض في القناة التلفزيونيّة بين مختلف الفاعلين في الإبداع التلفزيونيّ، فأول من يستغل هذه الأرقام هم مدراء الإنتاج ، من خلال مفهوم نسبة المشاهدة والجمهور، بإخراس التقويم الشعبيّ واستبعاد إمكان دفاع المبدعين عن أقاليم إبداعهم. إن وسائل الإعلام الكبرى لا تخطئ أبدًا في هذا الأمر، إذ لا تتوانى في أن تكون إيجابيّة، فتضاعف المؤشرات (صغار المستهلكين

(60) لا يقيس محترفو العمل التلفزيونيّ النتائج التي يحققها منتَج ما في المستقبل مثلما يفعل المعلنون، لكن يمكنهم استخلاص دروس من اختبار ما. ويمكن أن نورد المثال التالي الذي تحول إلى نكتة: قامت شركة بيك (Bic) في ثمانينيّات القرن الماضي بإنتاج عطر يباع بسعر زهيد في الأكشاك من دون أن تجرى عليه الاختبارات القبلية، بقناعة أنها غير دقيقة وتعجز عن تقديم صورة عن تأثير مبتكر جديد. لكن دراسة الفشل الذي لقيه هذا العطر سمح بفهم أن المستهلكين اعتبروا سعر العطر ومحلات بيعه رمزًا لدونية منتَج مشحون بتضمينات الترف، فمن الممكن جدًّا ألا تقيس الاختبارات المذكورة نجاح هذا العطر أو فشله في السوق، لكن من المحتمل أن تكتشف بعض التردد في شرائه.

t.me/ktabpdf مكتبة

وكبارهم، استقرار المشاهدة، إلخ)، والدراسات النوعيّة والقياس الاجتماعيّ من أجل خلق فن للبرمجة يُكْمِل فن تصوير النسخ (انقلاب تصويت المؤهلين للانتخابات رأسًا على عقب، انتخاب الفقراء) بحسب العبارات التي استعملها ميشال سوشون، فاختبارات المشاهدة لا تملك قيمة تنبئيّة لكنها تعدّ أداة أساسيّة للتلفزيون الذي لا يشتغل في دائرة مغلقة، بل تنفتح على بعض التطلعات، وتأتي في مقدّمها تطلعات كبار المستهلكين. إن هذه الاختبارات تلبّي أكبر حاجة لـ«تلفزيون الطلب» (بحسب دومينيك ماهل)، وتلبّي حاجة التلفزيون القادر على إدماج العوالم التي يعيشها الجمهور (بحسب جون فيسك)، فتُقيم على الأقلّ حدًّا أدنى وبشكل سلبيّ من «ديكتاتوريّة ديموقراطيّة» لا يتحمّلها أولئك الذين لا يتقبّلون فكرة أن برامج المنوعات وبرامج «تلفزيون الواقع» أو مباريات كرة القدم التي تحظى بإقبال كبير من المشاهدين تناسب الاختيارات والأذواق وليست أوعية محملة بغياب التميز لدى الجماهير السلبيّة.

خلاصة:

يفضي النقاش حول الصناعات الإبداعيّة إلى اكتشاف مفارقات، ليست أقلّها تلك المتعلقة بالنظر في التناقض بالنسبة للجمهور المتابع، فلا يوجد توتّر بين الإنتاج والتلقّي فقط، بل يوجد أيضًا في أفعال الإنتاج والتلقّي. ومن الصعب فهم مصدر هذا التوتّر إذا بقينا في سوسيولوجيا الفاعلين، التي يكون فيها كل من المنتِج والمتلقي منغلقًا على ذاته من دون روابط سوى تلك التي أقامها الاتصال

t.me/ktabpdf مكتبة

الجماهيريّ. ويظلّ النقاش محدودًا لأنه ينصبّ حول تقاطع تطلعات الجمهور ولا يركز على الديناميكيّة التاريخيّة. إن هدف القسم الثالث من هذا الكتاب هو إدراج وسائل الإعلام في خضم المحيط الاجتماعيّ، وحصر الثقافة ليس بمعناها الوظيفيّ، وبطريقة مُطمئِنة على منوال السيبرنيطيقا، ولكن بطريقة ديموقراطيّة في قلب نزاع التأويلات.

مسألة الإمبرياليّة الثقافيّة:

ملف مسلسل «دالاس» التلفزيونيّ.

إن المسلسلات التلفزيونيّة حوامل أنموذجيّة للتفكير في مسألة الإمبرياليّة الثقافيّة. ومعظم هذه المسلسلات حظي بتوزيع على نطاق واسع يتعدى حدود البلد الذي أنتجها، أميركا. لقد حصلنا، منذ ثمانينيّات القرن الماضي، على بحوث مهمة حول تلقّي الجماهير مسلسل **دالاس** التلفزيونيّ، الذي يمكن أن يُعَدّ الأشهر في تاريخ التلفزيون، وبيّن بحث ميدانيّ دولي أشرف عليه إليهو كاتز وتيمار ليبس (Temar Liebes) بعنوان **تصدير المعنى عبر قراءات ثقافيّة لدالاس** (*The Export of Meaning. Cross-Cultural Readings of Dallas*) (1990)، بنوع من الثراء، غموض أطروحة الإلزام الثقافيّ. ففي تقاليد «الاستخدامات والإشباعات» يستند هذا الالتزام إلى مقارنة بين ردود فعل الجمهور المتنوع تجاه إعادة بثّ الحلقات ذاتها من المسلسل المذكور (لقد وجّهت أسئلة البحث إلى المبحوثين في إسرائيل، بشكل خاصّ، لأسباب الملاءمة والكُلْفَة).

t.me/ktabpdf

مكتبة

وقد شملت عيّنة هذا البحث:

- مجموعة من العرب الإسرائيليين.
- مجموعة من اليهود الإسرائيليين من كيبوتز(*).
- مجموعة من الإسرائيليين الروس الذين حلّوا بإسرائيل أخيرًا.
- مجموعة من الأميركيين سُئلوا في الولايات المتحدة الأميركية.
- مجموعة من اليابانيين سُئلوا في اليابان.

وتم اختيار القائمين بإجراء المقابلات من الوسط الوطنيّ والاجتماعيّ ذاته للمبحوثين الذين يقابلونهم، فوُجّهت إليهم بعض الأسئلة المحدّدة ذات الصلة بحلقات المسلسل المذكور (الذي شاهدوه على جهاز الفيديو)، وترك لهم المجال للمناقشة الحُرَّة (استخدام المقابلة نصف المقنَّنة، والملاحظة بالمشاركة).

ولتفادي أي انحراف أو عدم انسجام، تم اختيار مجموعة المبحوثين من المتقاربين من الناحية السوسيو- ديموغرافيّة. ويستنتج من كلّ مقابلات هذا البحث أن المبحوثين من شتّى الأوساط الثقافيّة قاموا بفكّ شفْرات لُحمة هذا المسلسل انطلاقًا من العناصر السرديّة ذاتها ومن المواضيع التي توصف بأنها أساسيّة (رهان الثروة، النزاعات العائليّة، قصص الحب، وغيرها)، فظهرت ردود الفعل ذاتها الساخطة على جي. آر (J. R.) البطل الأساسيّ في المسلسل، وافتتان بجمال بعض الشخصيّات، وسخرية حقيقيّة من بعض التبسيطات في السرد

(*) الكيبوتز: مستوطنة زراعية وعسكريّة إسرائيلية أقيمت فوق الأراضي المحتلة، وهي عبارة عن مجمع مستوطنين إسرائيليين، من فلاحين وعمال، يسكنون ويعملون معًا.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الذي صاغه كُتّاب السيناريو. وبعد هذا المسح، تجدر ملاحظة أن الجمهور ينقسم في الواقع حول الأهميّة التي يمنحها لمختلف المواضيع، وفي لجوئه المتواتر، بهذا المقدار أو ذاك، إلى أنماط الخطاب الكبرى (لأجل ذلك استخدم كاتز وليبس شبكة تحليل الخطابات، التي قسّماها إلى أربع فئات مستلهمة من لسانيّات جاكوبسن، وسيميائيّة رولان بارت).

بعض أنواع القراءات بحسب ليبس وكاتز:

المرجعيّة «اللهويّة»: استحضار السرد مع التقيّد بهامش من الانفصال عنه ولعب الأدوار.

المرجعيّة «الواقعيّة»: إحداث اقترابات بين السرد والحياة اليوميّة.

نقد ميتا لغويّ: تحليل المسلسل التلفزيونيّ من وجهة نظر صناعته.

نقد أيديولوجي: رفض المحتويات لأسباب أيديولوجيّة.

إنّ أفراد المجموعات «التقليديّة» (عرب، ويهود الكيبوتز) يلجؤون باستمرار إلى المرجعيّات اللهويّة، فيرون أكثر من غيرهم في مسلسل **دالاس**، ملحمة عائليّة ترتكز على السلطة الأبويّة، والتنافس بين الإخوة حول الاعتراف بحقّ البِكْريّة أو العقم. إنهم يجدون أنفسهم في هذا المسلسل، الذي يبدو لهم أنّه يصف عالمًا تظلّ فيه عصبة العائلة مركزيّة على رغم أنه اتخذ ولاية تكساس في القرن العشرين إطارًا له. إن اليهود «السوفيات» هم الذين يسخرون أكثر من هذا المسلسل، الذي يبدو لهم أنّه يسلط الأضواء أوّلًا على رذائل الرأسماليّة الأميركيّة (هَوَس المال) وتناقضاتها الأيديولوجيّة (النّاس ليسوا سعداء). أما الأميركيّون، فهم فضوليون لمعرفة ظروف صناعة المسلسل المذكور (النقد الـ«ميتا

مكتبة t.me/ktabpdf

لغويّ»)، ويهتمون بالممثلين، والتطوّر المبرمج للمسلسل، ومقارنته بمسلسلات هوليووديّة منافسة أخرى. فعن سؤال لماذا يكثر الحديث عن الرُضَّع في مسلسل **دالاس**؟ يجيب العرب بالقول إنهم في قلب الشجار الذي ينشب بين الورثة، وإنهم رهان إعادة إنتاج العائلة، بينما يقدر الأميركيّون أن وجود الرضع في المسلسل مفيد جدًّا لكُتّاب السيناريو، حتّى تطول مُدّة بثّ المسلسل! إن دراسة المثال اليابانيّ المضاد يضيء الجانب الوحيد في إخفاق مسلسل **دالاس** (الإخفاق كان في البرازيل، وتمكن إعادته إلى كثرة إنتاج **التلينوفيلا**(*) telenovelas التي استطاعت أن تقطع طريق دخول المسلسلات الأميركيّة إلى هذا البلد). لقد سُحب هذا المسلسل بسرعة من التلفزيون اليابانيّ بحُجّة الضعف الكبير في الإقبال على مشاهدته، ما أثبت عدم وجود أي احتمال لنجاحه. لقد بيّن تفريغ استمارات مقابلات البحث المذكور الذي جرى في هذا البلد، أن عداء الجمهور اليابانيّ له نجم عن وصفه العلاقات الاجتماعيّة الكارثيّة التي تهدّدها النزاعات باستمرار. إن اليابانيّين الذين يُعدّون من كبار مستهلكي المسلسلات الأميركيّة، كان يمكن أن يصوتوا بالإجماع لمصلحة المسلسل المذكور، فالعنف دائم الحضور في شاشاتهم التلفزيونيّة، لكن لئن كانت النزعة الأبويّة أكثر هيمنة في اليابان من الدول الغربيّة، فإن تعلق اليابانيّين بالعلاقات الهادئة

(*) التلينوفيلا: عبارة إسبانية مركبة تختصر كلمتين: الأولى «تيلي» ويقصد بها التلفزيون، و«نوفيلا» وتعني الرواية، أي الرواية التلفزيونيّة، وهي تُعرض في جلّ دول أميركا الجنوبية الناطقة باللُّغة الإسبانية. وقد اتجهت القنوات التلفزيونيّة العربيّة إلى استيرادها و«دبلجتها» إلى اللُّغة العربيّة قبل أن تتجه إلى المسلسلات التركية.

t.me/ktabpdf مكتبة

المثاليّة القائمة على الانسجام الظاهر في الروابط العائليّة يقف في وجه الإقبال على الاستعراض التلفزيونيّ للعائلات التي تمزقها النزاعات الخالية من الكياسة. لقد صدم مسلسل **دالاس** الصورة التي كوّنَها اليابانيّون عن أميركا، صورة البلد التوافقيّ ذي الذكوريّة المسؤولة (وهذا يفسر نجاح المسلسل الأميركيّ المسمى **البيت الصغير وسط المروج** La petite maison dans la prairie).

وخلاصة القول أن الجمهور يؤول ذاته أكثر مما يؤول المسلسل، وهذا انطلاقًا من أصله ومصادره الثقافيّة، ومن مدى قربه من المُنتَج التلفزيونيّ أيضًا، فمسلسل **دالاس** لم يأتِ لكتابة الرواية الأميركيّة على ورقة الثقافات الوطنيّة البيضاء، والدراسات التي أجريت في بلدان أخرى في ثمانينيّات القرن الماضي أثبتت هذه الخلاصة. لقد بيّنت الباحثة إيين آنغ (Ien Ang) من خلال البريد الواصل، أن اهتمام الهوليووديّين بمسلسل **دالاس** كان شديد الارتباط بطبيعة مجتمعهم الليبراليّ: أن هذا المسلسل لم يقدم صورة لمجتمع تقليديّ، فالأسرة التكساسيّة تبدو كأنموذج لعالم من العلاقات المفكّكة وكترياق للأزمة التي تعاني منها البُنى الاجتماعيّة. لقد أشارت الباحثة هرتا هرزوغ إلى أن رفض «جي آر»، بطل المسلسل المذكور، في ألمانيا ربّما كان أقلّ من بقيّة البلدان الغربيّة، وبخاصّة هولندا، على رغم أنه بلد مجاور. والسبب في ذلك يعود إلى الطابع الأبويّ الأكثر رسوخًا في هذا البلد (إن جي آر غير محبوب لكن مكانته كضامن للرابط العائليّ ومؤهلاته في العراك لا يمكن إهمالها). وأكّدت جويل ستولز (Joëlle Stolz)، من جهتها، أن أحد أسباب نجاح **دالاس** في الجزائر يعود إلى كونه يحيل على أنموذج عائليّ راسخ في التقاليد، في زمن تعيش المجتمعات المغاربيّة تحوّلات عميقة في

t.me/ktabpdf
مكتبة

تقاليدها (يعمل مسلسل دالاس كـأداة للتفكّر يمتلكها الحنين إلى الماضي واستشراف المستقبل في الوقت ذاته).

كيف نفسر النجاح العالميّ الذي حقّقه بعض المسلسلات التلفزيونيّة؟

يمكن أن نوجّه نقدًا منهجيًا لهذه البحوث، كأن نقول إن (عيّنة الرسائل التي اعتمدت عليها الباحثة إيين آنغ ودرستها صغيرة، أو نقول إن التشيكلة الاجتماعيّة للمجموعات التي اشتغل عليها البحث الواسع الذي قاده كاتز وليبس ليست متماثلة على الدوام، وإنّ هناك ميلًا لمصلحة الأوساط العليا والمثقفة في مجموعة المبحوثين المختارة في اليابان). لكن لا يمكن الشك في مساهمة هذه البحوث في النقاش حول الإمبرياليّة الثقافيّة. ويرتبط نجاح المسلسلات الأميركيّة بالعديد من العوامل، ولا يعود ببساطة إلى القُوّة الضاربة للصناعة وتأثيرها على فرض ثقافة. ويبدو الإنتاج السمعيّ - البصريّ الأميركيّ مكيّفًا لتصدير مسلسلاته إلى العالم أجمع في بنياته التِجاريّة والتنظيميّة على وجه التحديد. لقد استجاب التلفزيون، منذ ثمانينيّات القرن الماضي، لمنطق الطلب الذي تكيّفت معه الشركات الأميركيّة تمامًا. إن نهاية احتكار الدولة للتلفزيون، ومنطق العرض في أوروبا (وفي العديد من مناطق العالم) جعلا من الضروريّ استيراد المسلسلات الأميركيّة بأسعار زهيدة، لكونها استرجعت ما استثمرته من أموال مع أرباحها من السوق الأميركيّ الواسع. وهذا يفسر انتشار بثّ مسلسل دالاس في كل شاشات العالم (ثمّ مسلسلي بيفرلي هيلز(*) Beverly Hills

(*) بيفرلي هيلز: مسلسل أميركيّ من 294 حلقة، مدة كل حلقة 44 دقيقة. استمر بثه بين عامي 1990 و2000، وبيع للعديد من القنوات التلفزيونيّة في العالم.

t.me/ktabpdf

مكتبة

وبايونش(*) Baywatch منذ تسعينيّات القرن الماضي). ومن جهة أخرى، فقد أُنتِجت المسلسلات الأميركيّة وفق المبادئ المعمول بها في السينما الهوليووديّة، وهي: الاعتماد على كُتّاب السيناريو المختصّين، إجراء تجارب على المسلسل من خلال اختبار أنموذجيّ لعيّنة منه، قياس المشاهدة، حبك دسائس بسيطة، عرض شخصيّات محوريّة في المسلسل تستجيب لمنطق التلفزيون العلائقيّ (بالتعارض مع التلفزيون ذي الرسالة). إن هذه المسلسلات لا تفلح في إغراء المشاهدين المختلفين إلا من خلال المحتويات العالميّة تقريبًا التي تعرضها، ويتباين جمهورها في الغالب من بلد إلى آخر. وتستند المسلسلات الأميركيّة الكبرى إلى مخططات معروفة (علاقات عاطفيّة، روابط عائليّة، التعارض بين الخير والشر، إلخ)، وتندرج في سياقات أقلّ دقة تجعل الاستثمار الشخصيّ للمشاهدين ممكنًا من دون أن تقلص الطاقات الطوباويّة للمسلسلات (تُثمّن هذه المسلسلات أيضًا لكونها أميركيّة، وتلبي تطلع المرء للتيهان: ناطحات السحاب، الصحاري، الثراء الماديّ...).

لم يكن لبعض المسلسلات التلفزيونيّة أن تحقّق نجاحًا استثنائيًا من دون أن تمزج أكثر من جمهور خاص في أكثر من بلد، وتجمعهم تحت تأثير الموضة. وتختلف أسباب نجاح المسلسلات من دولة إلى أخرى، فبعضها يعود إلى تأثير الموضة، والفضول، والرغبة الجامحة في رؤية مسلسل معروف. ويوجد دومًا تقبّل ثانويّ لكل مسلسل:

(*) بُث هذا المسلسل الأميركيّ في التلفزيون الفرنسيّ بعنوان إنذار في مدينة مليبو، يتكون من 243 حلقة، شُرع في بثه العام 1989، شاهده مليار شخص في أسبوع بعد أن بثته قنوات تلفزيونيّة عديدة في العالم.

t.me/ktabpdf مكتبة

وجود «طائفة اجتماعيّة دوليّة» على مستوى متواضع جدًّا (انظر المسلسل الفرنسيّ **هيلين والشباب** Hélène et les garçons، الذي نشاهده سواء أحببناه أم كرهناه). إذًا، من الممكن أن نرسم حدود الإمبرياليّة الثقافيّة بالتذكير بوجود جماهير متمايزة أصبحت معروفة الآن، ونثني على مؤهلات المسلسلات الأميركيّة. ومن الممكن أيضًا أن نستنكر وجود احتكار في قطاع تصدير المسلسلات التلفزيونيّة، وأن نُذكّر بأن المشاهدين ليسوا طالبي مشاهدة المسلسلات التلفزيونيّة الأجنبية فحسب، بل طالبي مشاهدة الإنتاج التلفزيونيّ الوطنيّ وبقيّة أنواع البرامج، فالعديد من البحوث بيّنت أن الجمهور يميل إلى تفضيل الإنتاج الوطنيّ التلفزيونيّ، إن وُجد، على الإنتاج الأميركيّ (لقد ازداد هذا الإنتاج خارج الولايات المتحدة الأميركيّة بين 1990 و2000)، ويؤكّد نجاح برامج تلفزيون الواقع هذا الأمر، فبرنامج مثل **الأخ الأكبر** (Big Brother) يملك أكثر من طبعة وطنيّة مختلفة جدًّا عن تلك التي انْتِجت في البلد المُصَدِّر.

أخيرًا، إن تحديد ماذا عسى أن تكون ماهية الثقافة الأميركيّة في المستقبل، وماذا عساها تكون القيم التي تصدّرها إلى الخارج، مشكلٌ يُطرح بكل حِدَّة. ومن الصعوبة بمكان اختزال مجتمع ما في بعض العناصر، والأكثر صعوبة أن نميّز ما يملكه في مشهد معولم. إن نجاح مسلسل **بافي**(*) (Buffy) يستند جزئيًّا إلى عولمة الوضع القانونيّ

(*) بافي: هو الاسم المختصر للمسلسل التلفزيونيّ الأميركيّ Buffy (the Vampire Slayer، الذي يستعرض حياة فتاة مراهقة تقاتل مصاصي الدماء والشياطين والأعداء الآخرين. استمر بثّه ستّ سنوات متواصلة.

t.me/ktabpdf مكتبة

للمراهق وإلى ألعاب التخريب المحدودة للهويّات الجنسانيّة (Wilcox, Lavery, 2002) التي ليست وليدة تأثير الأمركة، وإلى جاذبيّة ما هو خارق للطبيعة والنقد المؤسساتيّ (Clark, 2003). وإذا تمسكنا بإحداث تعارض بين الكتل الثقافيّة المتنافسة، فلا بد من ملاحظة أن البحوث الكبرى حول القيم (Inglehart, 1998) استخلصت أن الثقافات الوطنيّة لا تقترب من الأنموذج الأميركيّ، إن وُجِد، بل تدنو من أنموذج دول شمال أوروبا، التي يُعدّ تصديرها للمواد السمعيّة ـ البصريّة ضعيفًا.

المراجع:

ANG Ien, *Watching Dallas. Soap Opera and the Melodramatic Imagination* (1985), Londres, Routledge, 1989.

BAUMOL William, BOWEN William, *Performing Arts. The Economic Dilemma*, New York, The Twentieth Century Fund, 1966.

BECKER Howard, *Les Mondes de l'art* (1982), Flammarion, 1987.

______, *Outsiders. Études de sociologie de la déviance* (1963), Métailié, 1985.

BEYLOT Pierre, SELLIER Geneviève, (dir.), *Les séries policières*, L'Harmattan, 2004.

BONNELL René, *La Vingt-cinquième image. Une économie de l'audiovisuel* (1989), Gallimard-FEMIS, 1996.

BOURDIEU Pierre, *Les Règles de l'art. Genèse et structure du champ littéraire*, Seuil, 1992.

t.me/ktabpdf مكتبة

_____, «Le marché des biens symboliques», *L'Année sociologique* ,vol. XXII, 1971.

BOURDON Jérôme (dir.), «Une télévision sans service public?», *MédiaMorphoses*, Hors série, 2005.

_____, «Les réalisateurs de télévision. Le déclin d'un groupe professionnel», *Sociologie du travail*, 4, 1993.

_____, «À la recherche du public ou vers l'indice exterminateur. Une histoire de la mesure d'audience à la télévision française», *Culture technique*, 1991.

CAVES Richard E., *Creative Industries. Contracts between Art and Commerce*, Cambridge, Harvard University Press, 2000.

CHALVON-DEMERSAY Sabine (dir.), «Les Publics: généalogie de l'audience télévisuelle», *Quaderni*, 35, 1998.

_____, (dir.), «Modèles et acteurs de la production audiovisuelle», *Réseaux*, 86, 1997.

CHALVON-DEMERSAY Sabine, PASQUIER Dominique, *Drôles de stars. La télévision des animateurs*, Aubier, 1990.

CHAMPAGNE Patrick, «La loi des grands nombres. Mesure de l'audience et représentation politique du public», *Actes de la Recherche en Sciences Sociales*, 101-102, 1994.

CHANIAC Régine, (dir.), «L'audience», *Hermès*, 37, 2003.

_____, «La télévision de 1983 à 1993», *Chronique des programmes et de leurs publics*, INA-SJTI, 1994.

CHANIAC Régine, JÉZÉQUEL Jean-Pierre, *Télévision et cinéma. Le désenchantement*, Nathan-INA, 1998.

t.me/ktabpdf

مكتبة

CHIAPELLO Ève, *Artistes versus managers. Le management culturel face à la critique artiste*, Métailié, 1998.

CHRISTOPHERSON Susan, STORPER Michael, «The Effects of Flexible Specialization on Industrial Politics and the Labor Market: The Motion Picture Industry», *Industrial and Labor Relations Review*, 42/3, 1989.

CLARK Lynn Schofield, *From Angels to Aliens. Teenagers, the Media, and the Supernatural*, Oxford University Press, 2003.

CORSET Pierre, «La sociologie d'un corps professionnel. Les réalisateurs de télévision», *Réseaux*, 9, 1984.

CRETON Laurent, *Économie du cinéma. Perspectives stratégiques*, Armand Colin, 2005 (3e édition).

_____, (dir.), *Le Cinéma à l'épreuve du système télévisuel*, CNRS éditions, 2003.

DAGNAUD Monique, *Les Artisans de l'imaginaire. Comment la télévision fabrique la culture de masse*, Armand Colin, 2006.

FISKE John, *Television Culture* (1978), New York, Routledge, 1994.

FLICHY Patrice, PASQUIER Dominique, «Programmes et professionnels. Introduction», *in* BEAUD *et al.* (dir.), *Sociologie de la communication, Réseaux CNET*, 1997.

GAINES Jane, *Contested Culture. The Image, the Voice, and the Law*, Chapel Hill, The University of North Carolina Press, 1991.

t.me/ktabpdf

مكتبة

GITLIN Todd, *Inside Prime Time*, New York, Pantheon Books, 1983 (traduction partielle: «Prévoir l'imprévisible», *Réseaux*, 39, 1990).

GLEVAREC Hervé, *France Culture à l'œuvre. Dynamique des professions et mise en forme radiophonique*, CNRS éditions, 2001.

GOBLOT Edmond, *La Barrière et le niveau* (1925), PUF, 1967.

GUIBERT Gérôme, *La Production de la culture. Le cas des musiques amplifiées en France*, Irma, 2006.

HEINICH Nathalie, *Le Triple jeu de l'art contemporain*, Minuit, 1998.

HERZOG-MASSING Herta, «Decoding Dallas», *Society*, 24/1, 1986.

HESMONDHALGH David, *The Cultural Industries*, Londres, Sage, 2002.

HIRSCH Paul, «Processing Fads and Fashions. An Organization-Set Analysis of Cultural Industry Systems», *American Journal of Sociology*, 77/4, 1972.

INGLEHART Ronald, «Choc des civilisations ou modernisation culturelle du monde?», *Le Débat*, 105, 1999.

LIEBES Tamar, KATZ Elihu, «L'exportation du sens: lectures transculturelles de la télévision américaine», *Études et documents d'information*, UNESCO, 104, 1992.

_____, *The Export of Meaning, Cross-Cultural Readings of Dallas*, New York, Oxford, Oxford University Press, 1990 (traduction partielle: «Six interprétations de la série «Dallas»»», *Hermès*, 11-12, 1993).

MACÉ Éric, «Éléments d'une sociologie contemporaine de la culture de masse. À partir d'une relecture de *L'Esprit du temps* d'Edgar Morin (1962)», *Hermès*, 31, 2001.

t.me/ktabpdf

مكتبة

MATTELART Armand, DELCOURT Xavier, *La Culture contre la démocratie? L'audiovisuel à l'heure transnationale*, La Découverte, 1984.

MATTELART Tristan, «L'internationalisation de la télévision entre déterritorialisation et reterritorialisation», in PAGÈS Dominique, PÉLISSIER Nicolas (dir.), *Territoires sous influence 2*, L'Harmattan, 2001.

McQUAIL Denis, *Media performance. Mass Communication and the Public Interest*, Londres, Sage, 1992.

MEHL Dominique, *La Fenêtre et le miroir. La télévision et ses programmes*, Payot, 1992.

MÉADEL Cécile (dir.), «Public: cher inconnu!», *Le Temps des Médias*, 3, 2004.

MENGER Pierre-Michel, *Les intermittents du spectacle. Sociologie d'une exception*, EHESS, 2005.

_____, *Du Labeur à l'œuvre. Portrait de l'artiste en travailleur. Métamorphose du capitalisme*, Seuil, 2003.

_____, *La Profession de comédien. Formations, activités et carrières dans la démultiplication de soi*, Ministère de la culture et de la communication, 1997.

_____, «Rationalité et incertitude de la vie d'artiste», *L'Année sociologique*, 39, 1989.

_____, *Les Laboratoires de la création musicale. Acteurs, organisations et politique de la recherche musicale*, La documentation Française, 1989.

_____, *Le Paradoxe du musicien*, Flammarion, 1983.

MIÈGE Bernard *et al.*, *Capitalisme et industries culturelles*, Grenoble, PUG,1978.

MORIN Edgar, *L'Esprit du temps, 1 Névrose*, Grasset, 1962.

MOULIN Raymonde, *L'Artiste, l'institution et le marché*, Flammarion, 1992.

PASQUIER Dominique, «La télévision comme expérience collective: retour sur les Mondes de l'art», *in* PESSIN Alain, BLANC Alain (dir.), «L'Art du terrain. Mélanges offerts à Howard S. Becker», L'Harmattan, 2004.

_____, *Les Scénaristes et la télévision. Approche sociologique*, Nathan, 1995.

PASQUIER Dominique, «Une télévision sur mesure. Les données d'audience dans le système américain», *Réseaux*, 39, 1990.

PASQUIER Dominique, CHALVON-DEMERSAY Sabine, «Les mines de sel: auteurs et scénaristes de télévision», *Sociologie du travail*, 4, 1993.

PETERSON Richard, «Mais pourquoi donc en 1955 ? Comment expliquer la naissance du rock», in MIGNON Patrick, HENNION Antoine (dir.), *Rock, de l'histoire au mythe* (1990), Anthropos, 1991.

_____, «La sociologie de l'art et de la culture aux États Unis», *L'Année sociologique*, 39, 1989.

PETERSON Richard, BERGER David, «Cycles in Symbol Production: the Case of Popular Music», *American Sociological Review*, 40/2, 1975.

ROSEN Sherwin, «The Economics of Superstars», *American Economic Review*, 75, 1981.

SCHILLER Herbert, *Mass Communications and American Empire* (1969), Boulder, Westview Press, 1992.

SOUCHON Michel, «L'apport des méthodes quantitatives à la connaissance du public de la télévision», *Hermès*, 11-12, 1993.

t.me/ktabpdf مكتبة

_____, «Les programmateurs et leurs représentations du public», *Réseaux*, 39, 1990.

_____, *Petit écran, grand public*, La documentation Française, 1980.

STOLZ Joelle, «Les Algériens regardent *Dallas*», in *Les Nouvelles chaînes*, PUF, 1983.

STORPER Michael, «The Transition to Flexible Specialisation in the US Film Industry. External Economies, the Division of Labour, and the Crossing of Industrial Divides», *Cambridge Journal of Economics*, 13/3, 1989.

THOMPSON Robert J., *Television's Second Golden Age*, Syracuse University Press, 1997.

TOWSE Ruth, *Creativity, Incentive and Reward. An Economic Analysis of Copyright and Culture in the Information Age*, Cheltenham, Edward Elgar Publishing, 2001.

TUNSTALL Jeremy, *Television Producers*, Londres, Routledge, 1993.

_____, *The Media are American. Anglo-American Media in the World*, Londres, Constable, 1977.

TUNSTALL Jeremy, PALMER Michael, *Media Moguls*, Londres, Routledge, 1991.

WILCOX Rhonda, LAVERY David (dir.), *Fighting the Forces: What's at Stake in Buffy the Vampire Slayer?*, Lanham, Rowman & Littlefield Publishers, 2002.

WILLIAMS Raymond, *Culture and Society, 1780-1950*, Londres, Chatto & Windus, 1958.

t.me/ktabpdf

مكتبة

القسم الثالث

لنجعل الاتصال متعدّدًا

الديموقراطيّة والإبداع والتفكُّر

t.me/ktabpdf مكتبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفصل الثالث عشر

النظريّات السياسيّة والرأي العام
هل تمكن العودة إلى الآثار القويّة؟

إنّ تحويل الاتصال إلى موضوع سوسيولوجيّ ووقفه على ذلك، كما فعلنا في القسم الثاني، يعني إحداث تعارض بين منطق بناء الأفعال الإنسانيّة والمنطق الوظيفيّ الخالص للإرسال. وسائل الإعلام فضاءات يجري فيها التكوين وإعادة الإنتاج والاعتراض على مجمل الممارسات والاعتقادات من دون تمييز بين السلطة والثقافة، ويُقرأ كل عنصر من هذه العناصر على ضوء العنصر الآخر. لقد تمّت الإشارة أكثر من مرّة إلى المخاطرة التي تتضمّنها هذه المقاربة، التي تتصور أن الأفعال الاجتماعيّة معطيات مغلقة على ذاتها داخل نظام يجنح إلى النزعة الثقافويّة أو البنيويّة التي ترتكز على الهيمنة الرمزيّة. وقد جاء هذا الانزياح ليستبدل بالمذهب الطبيعيّ نزعة سوسيولوجيّة، وهذا ما فنّده بشدّة العديد من التوتّرات والتناقضات التي لوحظت، على سبيل المثال في وسائل الإعلام. فأمام هذه المخاطرة، بلورت السوسيولوجيا طائفة إضافيّة من التوصيفات للأفعال الإنسانيّة التي لا يمكن اختزالها أبدًا في مُنتجات أحاديّة المعنى. إن التأويل والتغيير يقعان في قلب النشاطات، ويتجليان بوضوح في شكل نزاع وتجارب الذاتّ والغير في المجتمعات الديموقراطيّة. وتمثلت المرحلة التالية لسوسيولوجيا الاتصال في فهم الديناميكيّة بين إنتاج المعنى وتلقيه

t.me/ktabpdf مكتبة

كشكل من بناء علاقة بين المتواصلين والمحتويات وجمهور متعدد بإدراج وسائل الإعلام في مجمل العلاقات الاجتماعيّة التي يشوبها النزاع الواسع في مسار متواصل من الدمقرطة. وهذا ما حاولنا توضحيه على مستوى الميكروسوسيولوجيّ في الفصل الخاص بالتلقّي والإنتاج.

يمكن أن يتم التفكير في الاتصال الجماهيريّ كحيز تصنع فيه الديموقراطيّة انطلاقًا من نظريّات الرأي العام السياسيّة التي جدّدت التصورات لدور الإعلام، منذ سبعينيّات القرن الماضي، باقتراح العودة إلى مفهوم الأثر والاستعانة بنماذج «الأجندة» أو «لولب الصمت»، فهذه العودة التأويليّة تسمح بطرح أسئلة ظلّت مُضْمَرة: ما هو دور وسائل الإعلام في تشكيل حياة المجتمع بأسره بصرف النظر عن الثقافات التي تكونه؟ هل يمكن أن نقيس درجة نفاذ الفضاء الإعلاميّ إلى الرهانات السياسيّة المتناقضة؟ إن صيغة العودة إلى آثار وسائل الإعلام، التي تم الاعتراض عليها لرسوخها الوضعيّ أو للإغراء الرجعيّ الذي يمكن أن تحدثه، تحجب عمليًّا التقدم الدّال نحو رؤية تعليميّة وبنائيّة للتَمثّل السياسيّ. ومن وجهة النظر هذه، تلخّص نظريّات الرأي العام مسار تطوّر الفكر السوسيولوجيّ وانتقاله من التأثير إلى البناء الاجتماعيّ للأحداث، لكن بزحزحة التفكير إلى المستوى الماكرواجتماعيّ، مستوى مواجهة مجمل وسائل الإعلام والمجتمع. إن نظريّات الرأي العام تشكل همزة ربط المفاهيم الوظيفيّة أو المعياريّة بتلك الراسخة في فكرة الدمقرطة.

t.me/ktabpdf مكتبة

آثار الأجندة ولولب الصمت

إنّ البحث في مجال علم السِّياسة المنبهر بوسائل الإعلام التي اتهمها ليبمان وتشاكوتين بالمساهمة في عدم عقلنة الجماهير وافترض لاسويل أنها تربّيهم، قد اكتمل مبكرًا، وبشكل عقيم بكل تأكيد، مع نظريّة التأثير المحدود. وعليه فإن التجديد في الأفكار تم بالقطيعة مع البراديغم اللازارسفيلديّ في سبعينيّات القرن الماضي، والذي يركز على آليّات الدفاع الفرديّة أو ما بين الأشخاص (الانتقائيّة) فقط على المدى القصير. إن آثار وسائل الإعلام تتجسد على المستوى المجتمعيّ وعلى المدى الطويل، ليس من خلال انغراسها بل بتحييد الانتقائيّة أو بتوجيهها نحو مجموعة ضيقة من الاختيارات. وبمفهوم «الأجندة»، امتلك ماكسويل ماككومبس (Maxwell McCombs) ودونالد شو (Donald Shaw) (1972) أداة أصيلة لتشخيص الآراء التي تنقلها وسائل الإعلام ومقارنتها بآراء المواطنين وإقامة الرابط بينها. فالأجندة هي ترتيب للأولويّات، وقائمة من الرهانات المصنفة بحسب الأهميّة المتزايدة، والتي يمكن «القبض عليها» من خلال إحصاء المواضيع التي عالجتها الصحافة في لحظة ما، والمُدّة الزمنيّة التي مُنحت لها في البث الإذاعيّ والتلفزيونيّ و/ أو خطوطها العريضة، أو باستطلاع آراء المواطنين وإجراء مقابلات معهم. إن ربط أجندة وسائل الإعلام بأجندة الجمهور، الذي تأكَّد منه الباحثان إحصائيًّا، واهتمامات الصحافيّين السابقة تؤدي إلى طرح مسألة التأثير الناجم عن أثر بنية وسائل الإعلام، فهذه الوسائل لا تقول لنا كيف نفكر بل «ما يجب أن نفكر فيه»، بحسب التعبير

t.me/ktabpdf مكتبة

الشهير لبرنارد كوهين (Bernard Cohen). فإذا كان لا شيء يحدّد الآراء، سواء الإيجابيّة أو السلبيّة أو غير المبالية تجاه حدث ما، فكل شيء يدفع إلى إنتاج آراء أي إقصاء كلّ ما لا يحدّدها حينما يكون ذلك ممكنًا. وبطريقة قريبة من «نظريّة الأجندة» تدعم «نظريّة لولب الصمت» لإليزابيث نوال ـ نيومان (Elisabeth Noelle-Neumann) (1974)، الفكرة التي مفادها أن وسائل الإعلام تتدخل في الفضاء الاجتماعيّ بقمع تعدديّة الآراء. لقد لاحظت الباحثة المذكورة وجود تفاوت في آراء الأشخاص والتعبير عنها في العلن أمام الملأ (وهذا ما يمكن رصده إحصائيًّا في بعض الظروف)، وقد ارتكزت في ذلك على تحليل النوايا في التصويت خلال الانتخابات الفيدرالية الألمانيّة في 1965. كان التردد في البداية يشوب الموقف الانتخابيّ، ثمّ انتصر الديموقراطيّون المسيحيون في هذه الانتخابات بعد نشر التوقعات التي تنبأت بفوزهم. وبهذا، أكّدت الباحثة على أثر كرة الثلج أي انضمام الناخبين إلى معسكر المنتصرين. إن أصالة هذه الطبعة الجديدة لآثار التبعيّة، والتي تسمى (band-wagon)(*) (أي الالتحاق بالقطار وركوبه أثناء سيره) أو الانسحاب (يترك الأشخاص المنشقون النقاش أو الانتخاب)، وهي مزاعم متكررة ودائمة في العلوم السياسيّة تكمن في مجمل فرضيّاتها: يقود الخوف من العزلة الأشخاص في المجتمعات المعاصرة، وغياب اللقاء بالغير يؤدي إلى جهل تنوع الآراء في المجتمع والتبعيّة الشديدة إلى ما يمكن تصوره

(*) الترجمة الحرفيّة لهذه الصيغة التعبيريّة هي عربة السيرك أو عربة الفرقة الموسيقية.

t.me/ktabpdf مكتبة

مُهَيْمِنًا. ولا يكفّ الأشخاص عن تقييم الآراء المهيمنة إحصائيًّا في محيطهم من أجل تبني مواقف تجنبهم العزلة، فقوة الالتزام العلنيّ بموقف ما يتجسد بحسب إدراك درجة احتمال نجاحه. والمجموعة التي تشكل الغالبيّة تُحْدِث في الغالب ديناميكيّة تعزّز تفوقها، لكنها تفقد زعامتها إن شَكّت في آرائها لمصلحة مجموعة أكثر اقتناعًا بقوتها ومدافعة عن آرائها علنًا، ففي الطبعة الثانية لكتاب **لولب الصمت** (*The Spiral of Silence*) (1984)، تضع إليزابيث نوال - نيومان وسائل الإعـلام في قلب الآليّات التي تقربها من آليّات الأجندة. ولا يتم تصور الآراء المهيمنة على مستوى المحيط فحسب، لكن بالنظر إلى خطابات «قادة الرأي» في التلفزيون والإذاعة والصحافيّين والشخصيّات المرموقة. إنّ مجموعة صغيرة من النّاس قادرة على الحد من معنى نقد الأشخاص الذين ينسحبون من المناقشات التي تدخلهم في لولب الصمت فتنشئ رأيًا مُهيمنًا: و«تخبرنا» وسائل الإعلام «بما يجب ألّا نفكر فيه».

هل حقًّا تصنع وسائل الإعلام الانتخابات؟

هاتان الإشكاليّتان اللّتان طرحتهما نظريّة الأجندة ولولب الصمت، تزكيان الشك الذي يحوم حول الانتخابات، بالإشارة إلى الضغط الذي يمارسه التعريف الإعلاميّ للواقع، وعلى الناخبين المتردّدين على وجه الخصوص. والانتقادات التي وُجّهت لهاتين النظريّتين ومراجعاتهما من مؤلفيهما تسمح على الأقلّ بإدراك نسبيّة نطاقهما، فنظريّة الأجندة تظلّ جزئيّة جدًّا إن لم تدمج أجندات أخرى

t.me/ktabpdf مكتبة

غير أجندة وسائل الإعلام والمواطنين، بخاصّة أجندة رجال السياسة، وإذا لم تدرس في الوقت ذاته كل التفاعلات بين هذه المجموعات وكلّ التفاعلات في كلّ مجموعة منها.

ومن البحوث اللاحقة التي قام بها ماككومبس وشو ووِرَنْتُهم (انظر: Bregman, 1989, McCombs et Shaw, 1993, Weaver, 1997) وبحوث كوهين الرائدة (Cohen, 1963)، وكوب وإلدر (Cobb et Elder, 1972) عن أجندة أصحاب القرار السياسيّ («بناء الأجندة» agenda building، بالتعارض مع «وضع الأجندة» l'agenda setting، وبالتالي مع بناء الرأي العام)، يمكن أن تبرز لوحة من العلاقات الشديدة الغموض. لقد تم التنويه باستمرار بالتأثير المشترك لأجندتي المواطنين ووسائل الإعلام على رجال السياسة، مع المثال الشهير لحادثة ووترغيت (Lang et Lang, 1983)، لكن العلاقة المتبادلة، بل المتشابكة بين عناصرها هي المهيمنة (كان للمواقف التي اتخذتها الحكومة دور في حالة ووترغيت). وتأثير أجندات وسائل الإعلام على المواطنين يكون عكسيًّا في بعض الأحيان، ونسبيًّا بصفة عامّة، لأنه لا يمارَس على الجميع وفي كل لحظة، نظرًا إلى أن المواطنين قادرون على معارضة أخبار وسائل الإعلام وقيمها بأخبارهم الخاصّة وقيمهم. ويتوقف هذا على مدى اعتقاد المواطنين بمصداقيّة وسائل الإعلام. ويمكن أن نسوق العديد من الأمثلة التي تظهر اختلافًا كبيرًا بين الأجندتين المذكورتين أو تثبت غياب السببيّة البسيطة، ففي فرنسا قرأ الصحافيّون الانتخابات الرئاسيّة التي جرت سنة 1988 على ضوء نظام المساكنة في الحكم بين

t.me/ktabpdf مكتبة

اليسار واليمين، بينما ظلّت البطالة شغل المواطنين الشاغل والدائم (Bregman et Missika, 1987)، وهذا خلافًا لانشغالات الصحافة. وقد جرى التصويت على معاهدة الاتحاد الأوروبيّ المسماة ماستريخت (Maastricht) سنة 1992 في ظروف حسّاسة وأدى إلى نتائج غير متوقعة. وعلى رغم أن إدوار بالادور (Édouard Balladur) مرشح الرئاسيّات الفرنسيّة في 1995 كان الأوفر حظًّا في الانتخابات لدى وسائل الإعلام الكبرى، وساندته قناة التلفزيون الفرنسيّ الأولى ذات الشعبيّة الواسعة، فقد أخفق في الجولة الأولى من الانتخابات. ومن الصعوبة بمكان تفسير اجتياز اليمين المتطرف الجولة الأولى في الانتخابات الرئاسيّة الفرنسيّة التي جرت سنة 2002 في سياق حملة انتخابيّة ركزت على مسألة انعدام الأمن بتأثير الأجندة، على رغم أن انقياد وسائل الإعلام إلى ما ركزت عليه الحملة المذكورة كان صارخًا ومثيرًا للشفقة. كانت مسألة انعدام الأمن على رأس أجندة المواطنين عندما بدأت الانتخابات الرئاسيّة سنة 2002، وقرر جاك شيراك، الفائز فيها لاحقًا، أن يجعل منها موضوع حملته الانتخابيّة (Mercier, 2003). وكان منافسه الاشتراكيّ قد وضعها في المرتبة الثانية في أجندته الخاصّة، منذ سنة 1997، من دون أن يتمكن من التفاوض حول تعريف انعدام الأمن بشكل لا يستغله اليمين المتطرف. وفي إيطاليا، لم يمنع حضور سيلفيو برلوسكوني (Silvio Berlusconi) الدائم في وسائل الإعلام بعد فوزه في الانتخابات التي جرت سنة 1994، من السقوط المدوي في انتخابات 2001. ولا يمكن تفسير هذا السقوط بالتضليل والتلاعب الإعلاميّين، بل بحملة سياسيّة قدمت

t.me/ktabpdf

مكتبة

توليفة ماهرة بين طائفتين من الناخبين المصممين على اختيارهم الانتخابيّ من دون إغراء مجمل المواطنين (Lazar, 2002).

لقد فندت بحوث علم نفس **الأقليّات النشِطة** (*Psychologie des minorités actives*) (1979)، التي أنجزها سيرج موسكوفيسي (Serge Moscovici) نظريّة لولب الصمت، والتي ذَكّـرت بأن الأقليّات تتمتع بقدرات عديدة للتعبير والمساهمة في التغيير الاجتماعيّ أكبر مما افترضته نوال ـ نيومان، فأطروحة إدراك الذات من زاويـة الانـحـراف عن الجماعة وحـده لم تتم المصادقة على صحّتها تمامًا: مفهوم الانحراف ذاته يختلف من مجتمع إلى آخر ومن شخص إلى آخر من دون إمكان عولمة آليّات بسيطة لقمعه ولنتائجه المفترضة والممثلة في لولب الصمت. وإن وجد اختلاف دالّ بين نوايا التصويت في الانتخابات ونتائجه الفعليّة على بعض أحزاب الأقليّات (يميل ناخبو الأحزاب المتطرفة إلى التكتم عن نواياهم الانتخابيّة أكثر من بقيّة الناخبين) فلا يمكن إصدار أي قانون عام يتعلق بالانسحاب من الحياة العامّة. ويمكن تقديم العديد من الأمثلة المضادة كلما أشرنا إلى ما تقوم به وسائل الإعلام من تثبيط العزائم، ففي انتخابات الرئاسيّات الفرنسيّة التي جرت في 1995 وشهدت انهيار اليسار خلال الأشهر الأولى من الحملة الانتخابيّة (أمام استطلاعات الرأي التي رشحت إدوار بالادور للفوز، في ظل الشعور بأنّ غالبيّة بصدد النشوء)، أفرزت نتائج صناديق الاقتراع فوز ليونيل جوسبان (Lionel Jospin) بالمرتبة الأولى في الجولة الأولى من الانتخابات. البعض يشير إلى ظاهرة «التأثير المضاد» أو

t.me/ktabpdf مكتبة

ما يسمى «تأثير الخاسر» أو «تأثير المظلوم» (underdog) (احتجاج الأقليّة التي تتمنى نجاح الغالبيّة) الذي كان بإمكانه القيام بدور، فقد هَبَّ الذين صوتوا لمصلحة إدوار بالادور في الجولة الأولى إلى إنقاذ جاك شيراك، المرشح الذي أعْلِن عن فشله في الانتخابات، والذي برز كخاسر ودود، متناسين أنه لا يمكن البرهان على وجود هذا التأثير، على غرار ركوب القطار أثناء سيره، فكلما اقترب موعد الانتخابات يجد المرشّحون والأحزاب السياسيّة مسارات ذات أهميّة أقلّ لوسائل الإعلام في بحوثها اللاحقة، حيث انطلقت من مبدأ التكهن بنتائج الانتخابات من خلال تشخيص مجموعة من قادة الرأي (على غرار مؤلفي كتاب **اختيار الشعب** الذين يفترضون وجود من يقود الرأي بشكل يكاد يكون طبيعيًّا)، فاكتشاف نوايا هؤلاء القادة في الانتخاب يفصح مبكرًا عن نوايا أتباعهم. إن تاريخ نظريّة لولب الصمت مثل نظريّة الأجندة، يُطرح تدريجيًّا في الأنموذج اللازارسفيلديّ وفي تعقّد التفاعلات الاجتماعيّة المركّبة.

إن الإغراء الذي تمارسه هذه النماذج يُستمد من طابعها الوضعيّ الذي يعتقد بفكرة إمكان تكميم [تحديد الكميّة] تأثير وسائل الإعلام أو هو مستمَدٌّ من جذورها النقديّة. لقد أراد ماككومبس وشو أن يكونا أداتيَّيْن، وتمنّيا بلورة نظريّة على النطاق المتوسط تتسم بضعف دقتها السوسيولوجيّة، لكن يمكن التحرّي عن صحتها إمبيريقيًّا. لقد بلغت الأداة التي طوّراها من الخيبة أنها لا تقدم إلا نادرًا معلومات منسجمة. إن تعلقهما بالبعد المفهوميّ للآثار البسيطة لوسائل الإعلام يساهم في تخيّل تأسيس علم ميكانيكيّ بحت للأفعال البشريّة، بينما

t.me/ktabpdf مكتبة

متغيّرات التأثير ليست مستقلة، وتتفكّك بدورها إلى أعداد لا تحصى من المتغيّرات، نظرًا إلى أن وسائل الإعلام تشكل مجموعة فرعيّة من الكلّ الاجتماعيّ[61]. يلتف مروِّجو تأثير الأجندة على هذا الإخفاق بالقيام بتجربة في المختبر تجعل المعارف المُكتسبة في الميدان أكثر تجريدًا، ويُرَحِّلون تفكيرهم إلى مستوى نوعيّ للأطر الإعلاميّة (الحديث عن **تأطير الأجندة** agenda framing بالمعنى الذي وضعه غوفمان) مقتربين من السيمياء النفسيّة، فمع نوال - نيومان يتأَكَّد طموح أنثربولوجيّ في أعقاب استبداد الامتثال الاجتماعيّ لتوكفيل، والذي يبدو أنه يشكل خطوة إلى الوراء في هذه الحالة، فلوسائل الإعلام القدرة على إخراس الرأي مثلما لها القدرة على إنتاجه، لأن الرأي حقيقةٌ يمكن جعلها موضوعيّة تمامًا ولا علائقيّة، فالآراء تولد خارج الاجتماعيّ، ويمكن أن تقاس، ثمّ تتعرض للضغط الاجتماعيّ من أجل أن تكون قابلة للقياس مرّة أخرى، فوسائل الإعلام تُكْره الأشخاص على التعبير أو تقمع الآراء التي يصوغونها ويفصحون عنها علنًا في إطار نظريّة ما قبل سوسيولوجيّة.

ومن السخرية، أن هذا التصور لرأي عام مستَلب يُراد له أن يكون يمينيًّا ذا صلة برؤية تود غيتلين الماركسيّة (Gitlin, 1978)، فعلى رغم أنها أكثر دقة وتطوّرًا إلا أنها تكتشف، إثر تعزيز الرأي المزعوم من أتباع لازارسفيلد، جذور آثار وسائل الإعلام على المدى

(61) إن نظريتي آثار الأجندة ولولب الصمت أقرب إلى الحقيقة، بمعنى أن الاختناق التام للإعلام في وسائل الإعلام يقوم بدور في إنتاج التوافق، بشرط أن يكون المجتمع غير مالك شبكات إعلام بديلةً.

t.me/ktabpdf مكتبة

الطويل: السلطة هي الحفاظ على الوضع القائم لمصلحة المسيطرين أوّلًا وقبل كل شيء، وليست انقلابًا سحريًّا بالتأثير المباشر. إن أثر تعزيز الرأي العام هو أثر وسائل الإعلام القويّ التي تقول لنا «ما يجب ألّا نفكر فيه» أو «بماذا يجب ألّا نفكر»، وهذا لمصلحة السلطات المؤسسة بنيويًّا التي تمنحنا الاختيار الوهميّ بين الأشياء المتكافئة: مشروب البيبسي (Pepsi) أو الكوكا كولا (Coca-Cola)، الرئيس كارتر (Carter) أو ريغان. وبصرف النظر عن هذه الاختلافات، فإن هذا التقارب بين الرؤيتين اليمينيّة واليساريّة، لا يُذكر من باب الصدفة إذا علمنا انسجامهما في النظر إلى أسطورة المجتمع الجماهيريّ، وتأثير «النظريّة النقديّة» على نوال ـ نيومان، الباحثة الألمانيّة وطالبة أدورنو السابقة، المنشغلة بالحضور الإعلاميّ المفترض لـ«الإنتليجنسيا» اليساريّة في كل مكان، وقدرتها على تغيير المناخ السياسيّ في ألمانيا.

هل يوجد رأي عام؟

يشكّل مفهوم الرأي العام رهانًا عميقًا للمناقشات، وتحت طرح تضليله والتلاعب به يختفي عدم وجوده، أو على الأقلّ عدم منطقه وتماسكه. إن عداء بعض التيارات العلميّة لهذا المفهوم يبلغ مستوى الآمال التي أثارها منذ قرنين من الزمن لدى السياسيّين، ثمّ صنّاع استطلاعات الرأي الذين احتكروا فعلًا التعبير عنه، فالمفترض أن يقوم استطلاع الرأي بحل التناقض القائم بين الديموقراطيّة التمثيليّة وحكم الشعب بالشعب ويترجمه بالإرادة العامّة، والإجماع الضمنيّ أو رأي الغالبيّة المقدم للمُنْتَخَبين. فأمام هذه الرؤية المنسجمة بمثاليّة،

t.me/ktabpdf مكتبة

والتي ما زالت سارية المفعول (تتجسد عبر القول «يرى الفرنسيّون أن...»)، نجد النقد القويّ الذي وجَّهه بيار بورديو للرأي العام (1970 والذي استلهمه من هربرت بلومر (Herbert Blumer) 1948) والذي تحوّل مرجعًا، فالمجتمع يتشكّل من موازين قوى تمنع التفكير فيه ككيان منسجم يستند إلى إجماع، فلا يوجد موضوع في حد ذاته «سياسيّ» ولا رأي «شخصيّ»، بالضرورة، وبدرجة أقلّ «عام»، بمعنى المشترك، فليست غالبيّة النّاس قادرة على إبداء الرأي بشكل تجريدي حول المواضيع المعروفة مسبقًا أو تقرّ بالتعاريف المسيطرة. إن الحقل السياسيّ صياغة تاريخيّة للبرجوازيّة، وفكرة امتلاك رأي اختراعٌ استشرى اجتماعيًّا لمصلحة المتعلمين من أجل إقصاء المحرومين من التعليم أو الذين لا يُسمع صوتهم، فاستطلاعات الرأي تقيس وضعًا اجتماعيًّا اصطناعيًّا، باللعب على «عدم الإجابة»، والإجابات المتغيّرة، وتلك المفروضة على القائمين باستجواب المبحوثين أمام ما يُعتبر شرعيًّا في الإجابة (نتيجة فرض إشكاليّة). والاستطلاعات لا تقبض على «واقع بعينه»، لكنها تعمل على بنائه: صورة الرأي العام هي انعكاس للذين يطلبون قياسه، ويُعِدّونه، ويؤوِّلون نتائجه[62]. إن

---

(62) لقد عمق دانيال غاكسي (Gaxie, 1978) وباتريك شمبانيو (Champagne, 1990) هذه الانتقادات، فأكد الأول قوة أثر فرض فئات السيطرة في بناء الرأي العام، وشدّد الثاني على طابع الرأي العام المبني تاريخيًّا. إنه «آلة حرب أيديولوجيّة ابتكرتها النخبة المثقفة وبرجوازية العباءة خلال القرن 17 لإضفاء شرعيّة على مطالبها». [برجوازية العباءة تجمع كل النبلاء الذين تولوا وظائف حكومية في قطاعي المالية والعدالة. وتستخدم هذه العبارة لتمييزهم عن «نبلاء السيف» أي الذين يتبوّؤون مناصب عليا في الجيش].

t.me/ktabpdf مكتبة

التزام المثقفين بحركة اجتماعيّة قويّة وحده هو الذي يسمح بالتحرّر الشعبيّ. لقد شكّك المتمسكون بالديموقراطيّة عبر النضال، بوجود الرأي العام، وعاملته تيارات العلوم السياسيّة معاملة سيئة (وهذا ما لاحظناه مع ماككومبس وشو ونوال ـ نيومان) الذين سعوا إلى فهم منطقه. لقد لاحظ فيليب كونفرس (Converse, 1964) أن الفكرة التي تنصّ على أن الآراء الفرديّة متناقضة وجمعها يثير الريبة، قد تحوّلت إلى مرجع منذ مُدّة طويلة. وقد أدت هذه الريبة، في بعض الأحيان، إلى الاعتقاد بأن الديموقراطيّة ستسير بشكل أفضل لو التمسنا آراء المواطنين والخبراء بشكل أقلّ، أو لو اعتمدنا على الحركات النضاليّة بدلًا من الإجراءات الانتخابيّة.

لم تكن هذه الحالة لتنشأ إلا بفضل الإفقار الظاهر في إشكاليّة الرأي العام. فسوسيولوجيا السيطرة في هذا المقام، مثل أي مقام آخر، بالغت في فكرة تجانس الآراء وفي ثقل التعريفات المسيطرة، وقلّلت من شأن القدرات الشعبيّة في التفكير والفعل. إنها تقترب من تصور النزاع التواصليّ لتفسير عدم وجود رأي عام: السلطة هي الطاعة، ولا تمكن الاطاحة بها إلا بفعل جذريّ. ويظلّ علماء السياسة، من جهتهم، متمسكين بمقاربة الحالة القصديّة في إطار معقوليّة فقيرة، كالقول مثلًا: «لنترك القرار للصدفة» (سواء أكنّا متفقين أم غير متفقين). فلو عدنا إلى الأفكار الأولى حول الموضوع أي إلى عهد مؤسسي العلوم الاجتماعيّة، كما اقترح العديد من الباحثين منذ نهاية القرن العشرين، فإن تحليل الرأي العام يصبح مثمرًا، فالباحث جون ديوي يفتح للرأي العام فضاءً أكثر اتساعًا من مراقبة المؤسسات، إذ

لاحظ أن الديموقراطيّة تستند إلى المراهنة على نشاط حقيقي أو إبداعيّ «للجمهور». إن السّياسة لا تتمثل في جمع الآراء الجاهزة لكن في النقاش الممتد الذي يسلك العديد من السبل التي تؤدي إلى تغيير ذاتـيّ لوجهات النظر. إنه التصور ذاتـه الـذي نجده لدى الباحث تارد الذي يعتقد أن الرأي العام يُشْحذ في المناقشة، بحسب الفكرة المنسوبة إلى موليير (Molière) التي تؤمن بأن المناقشة تشكل مفاجأة يعرض فيها المرء فكرة لم يكن واعيًا إلى أنه يمتلكها. وللتعبير عن الرأي بلغة التفاعليّة بمعية لويس كيريه (Quéré, 1990)، يمكن القول إن نظريّة الرأي باعتباره محتويات الفكر وحالات ذهنيّة واستعدادات، يجب أن تتنازل عن موقعها لمصلحة نظريّة قوامها ألعاب اللّغة والاستخدامات والرموز والممارسات المشتركة، فعبارة الخاص والحميميّ هي أوّلًا حوار مع الذات يدمج المحيط المشترك. إن التفاعليّة العلنيّة لا توجد كشيء مستقل ذاتيًّا لكن كديناميكيّة تمكِّن الآراء الفرديّة والمشتركة من الالتقاء لتجسم الأفكار وتشكّك فيها بشكل دائم. لقد أحدث جون زالّر (Zaller, 1992) منعطف تشكل العلوم السياسيّة الدلاليّ أو الإجرائيّ. (انظر التقديم الذي خصه لويك بلونديو Loïc Blondiaux لنصّه في طبعته الفرنسيّة)، إذ لخص البحوث المتعلقة بعدم استقرار الرأي التي أنجزها كونفرس، وما لقي من اعتراضات (بعض الآراء الجماعيّة ثابتة في الوقت). ولخص أيضًا السوسيولوجيا اللازارسفيلديّة من أجل العثور على الافتراضات التداوليّة، فالأشخاص يتعرضون بشكل انتقائيّ للأخبار السياسيّة، ويَـرُدون بطريقة نقديّة على خطابات النخبة وفق درجة كفاءاتهم

t.me/ktabpdf مكتبة

السياسيّة، وآراؤهم ليست ثابتة ولا موحدة، لكنها متشذّرة في العديد من وجهات النظر حول الموضوع ذاته، ومتناقضة ضمنيًا ومتطوّرة. إن ضعف انسجام مواقف الأشخاص يدلّ على أن استطلاعات الرأي يمكن أن تقود جزئيًا الإجابات من خلال صياغة أسئلتها أو في سياق انتقالها الذي يدفع إلى تبني موقف بسيط. هذا الضعف في الانسجام لا يعود إلى نقص في العقلانيّة، بل يرجع إلى الطابع الجماعيّ والمشترك لمسار الرأي (هذا المسار الذي يملك في الغالب، انسجام الحالات على صعيد جمعها). إن المرونة الكبرى للمواقف وتضاربها مظهران لاستمراريّة التفاعل الديموقراطيّ الذي يجعل من المستحيل إنهاء وجهات النظر، ووقف الديناميكيّة الزمنيّة. إن جمع الآراء بواسطة الاستطلاعات هو عمل تأطيريّ تؤثر عليه نخب، لكن «لا بد من وجود مَن يقوم بتبسيط الرهانات وتجسيمها بطريقة تجعل الفعل ممكنًا».

ومهما كانت استطلاعات الرأي ناقصة أو جذابة، فإنها لا تستحق الخزي ولا المدح، لأن هدفها لا يعكس الرأي العام بطريقة وهميّة بحتة، حتى في لحظة معينة، ولا يخدم مصالح الحكام فقط كهيئة تسهر على عقلنة العدد وانضباطه (Reynié, 1998)، بل هدفها يكمن في مساعدة الرأي العام على أن يظهر بشكل مستمر ومتناقض، فالتاريخ السياسيّ حسب لويك بلونديو (Blondiaux, 1998) يبيّن أن ما هو أكثر أهميّة ليس السؤال عن آثار استطلاعات الرأي على اللعبة السياسيّة بل في فهم الاستطلاعات كنتيجة لعمليّة الدمقرطة. إن الرأي العام الذي تقدمه استطلاعات الرأي هو خيال، كأي خيال آخر (مثل ذاك الذي يتحدث عن الحركات الاجتماعيّة)، يملك

ميزة الاستناد إلى المسلَّمات ذاتها التي تستند إليها الأخْيِلَة الكبرى الأخرى في الديموقراطيّة، مثل الاقتراع العام: فكل شخص يستطيع أن يعبّر عن رأيه، وكل الأصوات تتساوى في وزنها. فليس العدد الأكبر من استطلاعات الرأي هو الذي «يصنع» الديموقراطيّة، بل الديموقراطيّة هي التي اختارت صناعة استطلاعات الرأي، وبالتالي صناعة ذاتها من خلالها، وذلك بحلّ المشكل المتمثل في تجسيد الشعب صاحب السيادة[63] بمساعدة هذا الشعب: بقبول استطلاعات الرأي، هذه التقنيّة التي طورها المهندسون والباحثون والسياسيّون، «شارك الشعب في إنتاج هذا الرأي العام، وبالتالي في تعريفه إلى ذاته». ومن جهة أخرى، فقد انتُقِد هذا الاختراع لعدم كفاءته ونقص دقته، حيث اعتبر مشرحة لحفظ الجثث الصناعيّة. والاعتراض عليه بقُوَّة لم يصدر سوى عن الذين يميزون بين التجسيد الجيّد والسيئ للشعب. التجسيد الذي يقوم به الاقتراع واستطلاع الرأي، وعن الإدراك المتزايد بحدوده (تزايد التضارب في الأجوبة واضطرابها وعدم استقرارها، وتناسل استطلاعات الرأي الذي يسيء إليها).

الاتصال السياسيّ بوصفه تفاعلًا

لوسائل الإعلام واستطلاعات الرأي تأثير قويّ على السياسة، لكنه لا يصبّ بشكل أساسيّ في المسار الذي بموجبه يفوز رجال السياسة

(63) تُعدّ استطلاعات الرأي وسيلة لتوسيع إجراءات التمثيل الشعبيّ، أو «لمنح الديموقراطيّة متنها» بحسب الصيغة التعبيريّة التي استعملها المؤرخ بيار روزنفالون (Pierre Rosanvallon)، على رغم أن فكرته الأولى كانت دعوة لاتخاذ الحذر مما هو متلفز.

t.me/ktabpdf مكتبة

في الانتخابات. حقيقةً، لقد تغيرت المنافسة السياسيّة بعمق مع تطوّر التسويق السياسيّ القائم على الإغراء والسرعة، وعلى معجم لغويّ محدود وبسيط، لكن ما يشبه التبسيط يمكن أن يستخدم في الغالب كمختصر تعليميّ للمواطنين، فلو قام التلفزيون في بدايته بانتقاء المرشحين لمظهرهم، لتكيّف أغلب السياسيّين معه وطوّعوا هذه الوسيلة (Bourdon, 1994). إن تأثير استطلاعات الرأي على الانتخابات غير حاسم، لأنها لا تشكل سوى عنصر من عناصر تفكير الجمهور الانعكاسيّ، فالتغيير الكبير الذي أتاحته وسائل الاتصال الجماهيريّ هو عكس ما تم التنديد به في الغالب، وهذا التغيير الذي يكمن في إمكان إقامة شكل من التمثيل المستمر لرأي هش وغير متكافئ بالضرورة، يقترح مشهدًا تلتقي فيه الحجج والعواطف. وهذه الملاحظة الراسخة في سوسيولوجيا الباحث توكفيل للمساواة في الظروف، وفي فلسفة كلود لوفور (Claude Lefort) للنزاعات الديموقراطيّة، وفي فلسفة آلان تورين، قادت ملاحظات دومينيك ولتون (Wolton, 1989) عن مساهمة الاتصال في اللعبة الديموقراطيّة. إن الاتصال السياسيّ الذي يربط الفاعلين الثلاثة المركزيّين، وهم رجال السياسة والصحافيّون و«الرأي العام عبر الاستطلاعات»، إثر صراع دام قرنين من الزمن في سبيل الحقوق الفرديّة وحرية التعبير، لا ينتج مجتمع الإجماع المتصالح بشكل ساحر، بما يتبادله أفراده من رسائل تبرز عبرها إرادة عامّة، بل ينتج فضاءً للبناء الشاق، فضاءً نزاعيًا يعدّ من خصائص الديموقراطيّة.

ونظرًا إلى أن الرأي العام لا يوجد بذاته، وُجد الاتصال السياسيّ، فمِن تصادم التعريفات وُجد هذا الاتصال وبرز من الأقطاب الثلاثة

t.me/ktabpdf مكتبة

المذكورة. إن ظاهرة الإقصاء وتأثير فرض الإشكاليّات لا يزولان في أي لحظة من مسار الديموقراطيّة، على رغم أن هذا المسار يشجع المشاركة المتزايدة، فلا مجال للشك في أن المنتخَبين، مثل الصحافة، مرتبطون بتصورهم للرأي العام، فيسعون جاهدين للقيام بدوره والتكيّف معه، وعلى رغم عيوب الاتصال السياسيّ فهو يُعَدّ شرط إدارة ما هو سياسيّ، ويعمل ضد تراجعه، إنه «عامل تنظيم اللاعقليّة السياسيّة في إطار تواصليّ». ومن جهة أخرى، طرح الباحث دومينيك ولتون السياسة في فضاء أوسع من الاتصال، يقوم على مرجعيّة «الجمهور العريض» في وسائل الإعلام بالمعنى الذي حدّده إدغار موران، ومنع التفكير في الديموقراطيّة التي يعتبرها لعبة تقتصر على ثلاثة لاعبين فقط في الفضاء السياسيّ، فهذا الفضاء الواسع يؤسس للتفكير في مفهوم الفضاء العموميّ.

نحو مفهوم الفضاء العموميّ

إن جرّدنا نمذجات نظريّتي «الأجندة» و«لولب الصمت» من النزعة السلوكيّة، وجعلناها أكثر نوعيّة، فيمكن عندها أن تقترب من هذا البناء السياسيّ، فهاتان النظريّتان اللّتان تصفان أطر التعبير بتأكيد عامل الوفرة (بفعل اقتراح مواضيع للتفكير) تقدمان أداة للتحليل والتفاعلات السياسيّة ونشر الأيديولوجيات. إن الهيكلة بالإقصاء وترميز الدلالات يؤثران في الأفكار بطريقة ما، فما هي الأيديولوجيا إن لم تكن نظامًا إكراهيًا من التأويلات؟ إن التأطير الكميّ والنوعيّ للواقع هو أداة المعرفة كسيطرة، والحياة السياسيّة في صياغتها

مكتبة t.me/ktabpdf

الجماعيّة الدائمة التي تخترقها التناقضات لم تنغلق أبدًا على ذاتها، إذ تستند إلى مخيِّلة اجتماعيّة، وإلى إنتاج الكلمات والصور والروزنامات والتراتبيّات التي من خلالها يُقال «الشعب»، ويتجنّد عبرها، ويتخيل ذاته في العديد من الأجزاء التي تتعارض وتتفاعل. ومع ذلك، يجب ألّا ننسى وجود موارد فكريّة أخرى يمكن تجنيدها بواسطة الأشخاص غير تلك التي تم قياسها من محلّلي الأجندة، وأن مبدأ الحوار ينطبق على كل التَمَثُّلات. لقد بيّن العديد من المؤلفين، مثل دايفيد مورلي وبيتر دالغرين (Peter Dahlgren) أو وليام غمسون (William Gamson)، بوضوح أن للأخبار تأويلات متنوعة، مثل المواد الدراميّة، وأنها تدمج في التساؤلات التي تتجاوز الفضاء السياسيّ. إن تحليل الرأي العام وإن اقترب من السوسيولوجيا السيميائيّة، لا يُعتبر مجتمعيًّا بالمقدار الكافي، ولا يأخذ بالاعتبار وجود وضع اجتماعيّ ذي طبيعة نزاعيّة مؤكدة، ووجود عدد هامّ من الفاعلين. لذا، تُطرح مسألة التمثيل في فضاء عموميّ موسع غير سياسيّ بالمعنى الحصريّ.

المراجع:

ACHACHE Gilles, «Le marketing politique», *Hermès*, 4, 1989.

BLONDIAUX Loïc, *La Fabrique de l'opinion. Une histoire sociale des sondages*, Seuil, 1998.

______, (dir.), «Les sciences du politique aux États-Unis», *Politix*, 40-41,1997 et 1998.

BLONDIAUX Loïc, REYNIÉ Dominique (dir.), «L'opinion publique. Perspectives anglo-saxonnes», *Hermès*, 31, 2001.

t.me/ktabpdf مكتبة

BLUMER Herbert, «L'opinion publique d'après les enquêtes par sondages», *in* PADIOLEAU Jean (dir.), *L'Opinion publique, examen critique, nouvelles directions* (1948), Mouton, 1 981.

BLUMLER Jay CAYROL Roland, THOVERON Gabriel, *La Télévision fait-elle l'élection?*, FNSP, 1978.

BON Frédéric, *Les Sondages peuvent-ils se tromper?* Calmann-Lévy, 1974.

BOURDIEU Pierre, «L'opinion publique n'existe pas», in *Questions de sociologie* (1973), Minuit, 1980.

BOURDON Jérôme, *Haute fidélité. Pouvoir et télévision 1935-1994*, Seuil, 1994.

BREGMAN Dorine, «La fonction d'agenda: une problématique en devenir», *Hermès*, 4, 1989.

BREGMAN Dorine, MISSIKA Jean-Louis, «La campagne. La sélection des controverses politiques», *in* GRUNBERG Gérard, DUPOIRIER Élisabeth (dir.), *Mars 1986. La drôle de défaite de la gauche*, PUF, 1987.

CHAMPAGNE Patrick, *Faire l'opinion. Le nouveau jeu politique*, Minuit, 1990.

CHARRON Jean, «Les médias et les sources. Les limites du modèle de l'agenda-setting», *Hermès*, 17 - 18, 1995.

COBB Roger, ELDER Charles, *Participation in American Politics.The Dynamics of Agenda-Building*, Baltimore, John Hopkins University Press, 1972.

COHEN Bernard, *The Press and Foreign Policy*, Princeton, Princeton University Press, 1963.

CONVERSE Philip, «The Nature of Belief Systems in Mass Publics», *in* APTER David (dir.), *Ideology and Discontent*, New York, Free Press, 1964.

t.me/ktabpdf

مكتبة

DAHLGREN Peter, «Les actualités télévisées: à chacun son interprétation» (1988), *Réseaux*, 44-45, 1990.

GAMSON William, *Talking Politics*, New York, Cambridge University Press, 1992.

GAXIE Daniel, *Le Cens caché. Inégalités culturelles et ségrégation politique*, Seuil, 1978.

GERSTLÉ Jacques (dir.), *Les Effets d'information en politique*, L'Harmattan, 2001.

GITLIN Todd, «Media Sociology: the Dominant Paradigm», *Theory and Society*, 6, 1978.

KATZ Elihu, «La recherche en communication depuis Lazarsfeld» (1987), *Hermès*, 4, 1989.

LANG, Kurt, LANG Gladys, *The Battle for Public Opinion. The President, the Press and the Polls during Watergate*, New York, Columbia University Press, 1983.

LAZAR Marc, «Faut-il avoir peur de l'Italie de Berlusconi?», *Esprit*, Mars-Avril 2002.

LEFORT Claude, *L'Invention démocratique*, Fayard, 1981.

McCOMBS Maxwell, SHAW Donald, WEAVER David (dir.), *Communication and Democracy. Exploring the lntellectual Frontiers in Agenda-Setting Theory*, Londres, Lawrence Erlbaum Associates, 1997.

McCOMBS Maxwell, SHAW Donald, «The evolution of agenda-setting research: twenty-five years in the marketplace of ideas», *Journal of Communication*, 43/2, 1993.

McCOMBS Maxwell, SHAW Donald, «The agenda-setting function of mass-media», *Public Opinion Quarterly*, 36, 1972.

t.me/ktabpdf

مكتبة

MERCIER Arnaud, «Les médias en campagne», *in* PERRINEAU Pascal, YSMAL Colette (dir.), *Le vote de tous les refus*, Presses de Sciences Po, 2003.

MOSCOVICI Serge, *Psychologie des minorités actives*, PUF, 1979.

NOELLE-NEUMANN Elisabeth, «Seeing the Future through Opinion Leaders: A Methodology to Define Opinion Leaders», *Wapor 52nd Conference*, Paris, septembre 1999.

_____, «The Theory of Public Opinion. The Concept of the Spiral of Silence», *Communication Yearbook*, 14, 1991.

_____, *The Spiral of Silence. Public Opinion Our Social Skin*, Chicago, University of Chicago Press, 1984 (reprend le texte publié en 1974 et traduit par «La spirale du silence», *Hermès*, 4, 1989).

QUÉRÉ Louis, «Opinion: l'économie du vraisemblable. Introduction à une approche praxéologique de l'opinion publique», *Réseaux*, 43, 1990.

REYNIÉ Dominique, *Le Triomphe de l'opinion publique. L'espace public français du XVIe au XXe: siècle*, Odile Jacob, 1998.

ROSANVALLON Pierre, *Le Peuple introuvable*, Gallimard, 1998.

WOLTON Dominique, «La communication politique: construction d'un modèle», *Hermès*, 4, 1989.

ZALLER John R., *The Nature and Origins of Mass Opinion*, Cambridge, Cambridge University Press, 1992. (ترجمة جزئية: «Repenser l'opinion», *Hermès*, 31, 2001).

ZASK Joëlle, *L'Opinion publique et son double. John Dewey philosophe du public*, 2 tomes, L'Harmattan, 1999.

الفصل الرابع عشر

نظريّات الفضاء العموميّ
من كانط إلى تلفزيون الواقع

تمثلت أول حركة في سوسيولوجيا الاتصال في تأميم مواضيعه (الرسائل، والميديا، والتأويلات المرمّزة وغير المرمّزة، وفكّ الرموز). وتمثلت الحركة الثانية في إعادة طرح مواضيعه على المستوى الاجتماعيّ في إطار لعبة تفاعلات بين إنتاج المعنى وتلقّيه. وتضع هذه الحركة المزدوجة الخصبة إمبيريقيًّا حدًّا للتعارض السقراطيّ بين المنطق والتقنيّة، وبين المثاليّة والسفسطة، بتأكيد البعد البنائيّ، بمعنى التقنيّات: أي أن النّاس، مثلما قال ماركس، يصنعون التاريخ وإن كانوا جاهلين بالتاريخ الذي يصنعونه. إن المشكل الذي تطرحه هذه المقاربة التي تريد أن تكون مفتوحة، يتجلى في كونها تُتوَّج تدريجيًّا بانغلاق جديد يقدم العالم كأنه مركب كليًّا من العلاقات الاجتماعيّة التي تغلب عليها القوة أو المعنى: فما هو اجتماعيّ حلّ محلّ التقنيّ، أو العقل كأقصى عامل مفسر. ويُعتبر العامل الماديّ للفعل الإنسانيّ جزءًا فرعيًّا من العقل: يشكّل الواقع الفيزيائيّ المبتكر دائمًا من النّاس أيضًا حدودًا لا نخترقها، إنها حدود العلوم الدقيقة. لقد ظهرت معضلة جديدة في العلوم الإنسانيّة تتجلى في التعارض

مكتبة t.me/ktabpdf

بين النظريّة الوظيفيّة التي تتمحور حول الاندماج و/ أو السيطرة والنظريّة الثقافويّة المتمحورة حول النزعة التعبيريّة و/ أو الهويات، والتي تترجم في الحقل السياسيّ بالنزاع المعروف جيّدًا بين النزعة الجمهوريّة والنزعة الجماعاتيّة. إن وسائل الإعلام مثل الاتصال بين الأشخاص، الذي لا يتمكن من القيادة -كاتجاه- إلا بالانصهار العضوي (سواء بتحويله أداةً من النُّخب أو لا) أو بالانطواء ذي الطابع الخصوصيّ. ولو أعدنا قراءة ما كتبه الباحثون الذين طوروا البارادايغم السوسيولوجيّ بعناية، إضافة إلى ما درسناه في الفصول السابقة، للاحظنا بروزًا واضحًا لنوع من الاستياء. ويوجد بالنسبة إلى الجميع نوع من التسرب والتناقضات في النظام أو عدم القابلية للاختزال. إن المذهب الوظيفيّ المرتبط جدًّا بمفهوم الاندماج يتحدث عن الخَلَل الوظيفيّ، فجعل منه فئة على حدة. وفي المعسكر الماركسيّ، ولدى أدورنو وبيار بورديو بطريقة ما، يخضع العالم الاجتماعيّ إلى قوانين صارمة، لكن التغيير الجذري يكون ممكنًا، سواء عن طريق الثورة أو الفعل الفكريّ. لقد وضعت سوسيولوجيا التطبّع آليّات للحقول والرساميل، لكنها أوضحت أن تحديد سعر صرف هذه الرساميل حسّاس، وأن مفهوم رأس المال الرمزيّ معقد ومُهَدِّد(64).

---

(64) أظهر بيار ميشال منجيه (Menger, 1997) مدى استناد سوسيولوجيا التطبّع إلى سلسلة من ربط الكلمات ذات المعاني المختلفة، مثل «إستراتيجيّة غير واعية» و«غاية دون نهاية» التي تسعى إلى تثبيت مجموعة من الكلمات التي لا تستطيع أن تعبّر عن الواقع.

إن مؤلِّفي «الدراسات الثقافيّة»، هول ومورلي، وحتّى جون فيسك، يؤكّدون مفهوم الحوار أكثر من الانطواء الهويّاتيّ. لقد توصلت سوسيولوجيا التنظيمات والمهن إلى وجود «ضغوط» منتجة، وأشارت العلوم السياسيّة إلى عدم الاستقرار والاضطراب في الرأي العام. ولقد أقرَّ بعض الكُتّاب باستخدام استعارة التغيير أو وجود تناقضات، وهكذا رأى ميشال دو سارتو ثلاثة مستويات من الواقع لفنون الفعل (انظر المخطط). إن الحيل ككفاءات أساسيّة تذكّر بحضور الطبيعة وتحيل إلى المستوى الأول. والضغط والتجاذب بين الاستملاك الثقافيّ والمقاومات الاجتماعيّة - الثقافيّة يعبّران عن ثنائيّة إدارة ما هو اجتماعيّ والتأرجح بين السلطة والثقافة. وفكرة أن الجِدَّة تلج العالم بالتمَرُّن والتعلم ومعاشرة الآخرين، تدعم واقعًا أكثر شمولًا يشرف على التغيير ومقاومته. وسيكون العالم الاجتماعيّ فعلًا عبارة عن نظام (من الوظائف والقيَم) إن لم يَقع المشكل المتمثل في أن الاتصال بالآخرين يُحدث - كما يبدو - اضطرابًا في هذا النظام. إن القطبيّة الثنائيّة البسيطة لما هو اجتماعيّ تترك مكانها لمستوى تكميليّ، مستوى بروز الجديد والغيريّة. ويُعدّ هابرماس أول من اكتشفها بشكل نسقيّ. لقد سمح مفهوم الفضاء العموميّ لسوسيولوجيا الاتصال باجتياز مرحلة مهمة في طريق التنظير للديموقراطيّة وذلك بتوسيع أفق الأفعال الإنسانيّة الذي لا يزال ضيقًا، وذلك بالمراهنة على الطابع التحرّريّ لانبثاقه.

مكتبة t.me/ktabpdf

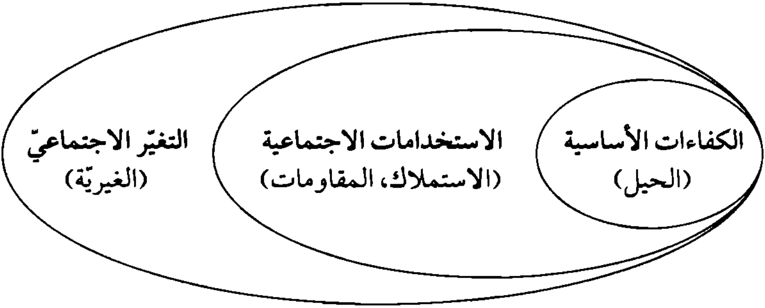

نظريّة الفضاء العموميّ لدى يورغن هابرماس

يُعَدّ مسار يورغن هابرماس ومنجزه أنموذجًا عن تحوّل جيل بأسره من الكُتّاب الماركسيّين يتسم بالحنين إلى قيم الديموقراطيّة الاجتماعيّة والتنكر لها، بعد خيبة أحلامه التي تحوّلت كوابيس. كان هابرماس القادم من أقصى اليسار، لرفضه الطاعون النازيّ، مساعدًا لأدورنو وخليفة لهوركهايمر، ثمّ مديرًا لمعهد الدراسات الاجتماعيّة في فرانكفورت، وهو يُعدّ رمز المفكر في الحركة الطلابية الراديكاليّة. لقد ابتعد عن منطلقاته الأولى في بحثه عن أسس فلسفيّة للديموقراطيّة، ما ضمن له نجاحًا متواصلًا (الابتعاد ضروريّ جدًّا في سياق ألمانيا بعد الحرب العالميّة الثانية)، مع نقد مظاهرها الملموسة، والموسومة ـ في نظره ـ بالتحديد التكنوقراطيّ للمعجزة الاقتصاديّة. لقد وجد هابرماس في عودته إلى فلسفة الأنوار، وفلسفة كانط تحديدًا، أول مرتكز جسّده كتابُه **الفضاء العموميّ، أركيولوجيا الإعلان كبعد مؤسس للمجتمع البرجوازيّ**

(*L'espace public. Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise*) (1962)، فتوجَّب رد الاعتبار لأنموذج القرن 18 النقديّ، وللديموقراطيّة البرجوازيّة التي جعلت من الاستخدام العموميّ للعقل شرط إمكان وجود الرأي، الذي يتطلب بدوره تحقيق الديموقراطيّة. وللبرهنة على صحّة هذا الرأي، يُعتمد التحليل التالي: تترك مناجاة الروح الشخصَ يواجه ذاته وهويّاته، بينما مناقشة الشؤون العامّة تسحبه من إقليمه وخصوصيّاته، وتحرّره من «فظاظته» (Kant). فهذه الديناميكيّة المثمرة في التبادل بين الأفراد وجوهر الحلبة أي الفضاء العموميّ، تتوسط المجتمع والدولة كهيئة لإضفاء الشرعيّة التي تتمركز حول المنطق الشخصيّ، فالنشر والإعلان، بالمعنى الكلاسيكيّ وليس الصناعيّ للعبارة، يضمنان تعميم معرفة وجهات النظر وعدم سيادة أسرار التعسف أبدًا[65]. إن عقلانيّة الحوار التطبيقيّة التي ترمي إلى النزعة البينذاتيّة(*) والكونيّة التي تتعارض مع العقلانيّة التقنيّة التي تتبع الحقيقة والفاعليّة، تسمح بتحقيق الاجماع بين النّاس ذوي الإرادة الحسنة، والقادمين من عالمهم الخاص والذين يتجردون، تدريجيًّا، من مصالحهم خدمةً لما هو كونيّ. ويعزّز هابرماس تحليله النظريّ بلائحة من الهيئات والأماكن التي تصبح فضاءً عموميًّا

---

(65) درس أندريه أكون (Akoun, 1984) التحوّلات التي طرأت على مفهوم النشر أو الإعلان وعلى علاقته بازدهار الاتصال الديموقراطيّ.

(*) البينذاتيّة: المقابل العربيّ للمصطلح الفرنسيّ (Intersubjectivité).

t.me/ktabpdf مكتبة

فعليًّا (الصحف والصالونات والمقاهي والنوادي) ويستنكر، في الوقت ذاته، التراجع المنتظم الذي رافق وسائل الإعلام، فالإعلان تحوّل إلى تجارة وغزا الحيوات الخاصّة عوضًا من أن يكون حاملًا للحوار. وشوّهَ بروز الفردانيّة الأنانيّة الاستعراضيّة كل ما يصل أو ينفذ إلى الجمهور، فوسائل الإعلام ليست سوى استهلاك ورعونة نرجسيّين.

إنّ غياب الاطلاع على البحوث الإمبيريقيّة التي أجريت على وسائل الإعلام وماضَويّة التفكير، يصيبان هدفهما من الوهلة الأولى، فالدفاع عن الرؤية إلى المواطَنة، سواء ليبراليّة أو طوباويّة، رافق بابتذال البلاغةَ التنديديّة «الفرانكفورتيّة» بوسائل الإعلام، باسم الوفاء للماركسيّة. لقد أعاد هابرماس من جهةٍ الصلة بالفلسفة الأفلاطونيّة، بمدحه العقل اللسانيّ الذي يتعارض مع عنف العقل الأداتيّ (الرأسماليّ)، ومع القوى الاجتماعيّة التي تسير في اتجاه كل ما هو شخصيّ (الجماعات والأديان والدوافع الخاصّة...): أن الاتصال هو اللباس الجديد لمسألة اللوغوس(*) (logos). ومن جهة أخرى، عايَن هابرماس ظاهرة تاريخيّة ممثلة ببروز الذاتيّة في وسائل الإعلام، وسارع إلى التنديد بها، على غرار ما فعل ريتشارد سينيت (Richard Sennett) الذي قدّم دراسات رائدة عن النزعة الحميميّة، لكنها نقديّة،

(*) لوغوس: كلمة أساسية في الفلسفة الأفلاطونيّة اكتسبت العديد من المعاني، نذكر منها: الكلام، العقل، المنطق، الحكم، المفهوم، التعريف، الملفوظ... فسياق استخدامها هو الذي كان يحدد معناها، لكن يبدو أن معناها اليوم استقرَّ على العقل.

t.me/ktabpdf مكتبة

ففي كرهها وسائل الإعلام، تختطف ملاحم الذّات مكانة القصص الخيالية التي تعطل عمل الدماغ. هذا التموقع المزدوج الذي احتج عليه كُتّاب كثيرون لا يصمد، لأنه يعيد إنتاج أطروحة التعمية بشكل آليّ، ويتجاهل بناء الأشخاص اجتماعيًا، ويقيم الحدود المطلقة التي تم التفاوض حولها في الواقع، والمتعلقة بما هو خاص وما هو عام (Eley, 1992)، ويكشف عن افتتان بحلبة البرلمان، ويثمّن فضاء عموميًا برجوازيًا ماقبل ثوريّ يُفترض أن يكون أنموذجًا للديموقراطيّة، بينما يستند إلى إقصاء القسم الأساسيّ من البشر: النساء والشباب والأوساط الشعبيّة، ويُرَقّي إلى مصاف الكون نخبة ذكوريّة متميزة بالضريبة التي تدفعها للحصول على حقّها المدنيّ في الانتخاب، ولا تتبادل بالضرورة الحجج «العقلانيّة» (Fraser, 1992, Dahlgren, 1991)!

من النقطتين الأساسيّتين، لا يوجد أدنى شك في أن المواضيع عن الفضاء العموميّ تُجَدَّد، فهابرماس يوضح أن الفضاء العموميّ لا يتطابق مع الاتصال السياسيّ، ولا مع لعبة الرأي ووسائل الإعلام والسياسيّين، بل يتجاوزها كثيرًا. إنه يتضمّن كلّ المواضيع، وكلّ الآراء النابعة من الفضاء الخاص والتي يمكن أن تصل إلى المستوى العام من دون أن تفسده (الجانب المعياريّ لفكره يكمن في هذا الفعل). إن المشكل ليس في تقتير تشخيص بعض القنوات التي يتم عبرها التبادل بين الجمهور ووسائل الإعلام والمؤسسات، مثلما يفعل المختصّون في السياسة والرأي ومنظّرو النظام الإعلاميّ المنغلق على ذاته، بل يتعلق اليوم بإدراك التأثير الجماهيريّ

t.me/ktabpdf

مكتبة

لديناميكيّة العلاقة المُعمَّمَة، فالمجتمع برمته في قلب الاتصال، والاتصال يعبِّر عن جوهر المجتمع، وعندما نمنح الاتصال سلطة حواريّة غير محدودة وتخريبية تتوقف عليها الديموقراطيّة، فإن هذه النظريّة ترفض ـ من جهة أخرى ـ اختزال العالم الإنسانيّ في حتميّاته الماديّة والاجتماعيّة.

الفعل التواصليّ

تكمن إحدى جوانب قُوَّة الباحث الألمانيّ هابرماس في انفتاحه على النقد. لقد رفض «الأفق الحزين» الذي تبنّاه في مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه الشهير (1990)، معللًا ذلك بأنه كان متأثرا بأدورنو، وراعى النقد التاريخيّ والنسويّ، ومسألة التلقّي المعقدة التي أثارها ستيوارت هول. كما اهتمّ بنتائج الاستخدامات والإشباعات وتلك المتعلقة بالاقتصاد السياسيّ في كتابه الأساسيّ **نظريّة الفعل التواصليّ** (*Théorie de l'agir communicationnel*) (1981). لقد تخلى هابرماس في هذا الكتاب عن أطروحة تبليد الجمهور وفكرة تفوق الفضاء العموميّ البرجوازيّ لمصلحة تعميق نظريّة أفعال التواصل، فبتجديد صلته بالمرجعيّات الكلاسيكيّة تعزّز هدفه بقراءاته للتداوليّة (وخصوصًا تلك التي طبقها جورج ميد)، ثمّ بنظريّة أفعال اللسان (Austin, Searle)، وعمّق مناقشة نظريّة ماكس فيبر الخاصّة بالفعل الاجتماعيّ التي سمحت له بتقديم أنموذجه الخاص. لقد تم تأويل الأنماط المثاليّة الأربعة لفيبر كتعريفات محدودة جدًّا ولا تمس سوى الجانب الغائيّ في الفعل، وإمكان بلوغ هدفٍ ما بكل أبعاده. والترتيب

t.me/ktabpdf مكتبة

الضمنيّ لهذه الأنماط وفق نظام تصاعدي للعقلانيّة يبدأ من المستوى الأضعف للعقلنة، وهو العادات (لا ندري لماذا نمتثل للروتين لكننا نسعى لامتلاك الوسائل لفعل ذلك)، إلى مستوى الانفعالات (الذي يمنح الفعلَ غاية، إضافة إلى الوسائل)، ثمّ مستوى القيَم (المعنى يوجّه الفعل من دون اعتبار لنتائج النشاطات)، يُختتم بالفعل العقلانيّ في النهاية (سلسلة الفعل كاملة: وسائل- غاية- قيَم- نتائج). سمح تطوّر العقلانيّة للناس بالخروج من عالم التقاليد والعواطف المتضامن مع الكون، وإنتاج مجتمعات معاصرة توجّهها البيروقراطيّة أوّلًا إلى القيم الدينيّة ثمّ العقلانيّة. لقد اعتبر ماكس فيبر هذا التطوّر مؤذيًا في بعض الأحيان، وذلك في كتاباته المتشائمة التي نعتَ فيها العالم بأنه فاقد المعنى، وترك فضاءات النشاط لاستقلالها الذاتيّ عاجزة عن إنتاج عالم مشترك، وعن الاتصال، لأنه لا يرى الأشخاص قادرين على إنتاج المعنى مهما كانت الظروف[66]. وبالعكس، تمنّى هابرماس تأكيد هذا الفعل التواصليّ المتوجّه نحو التفاهم البينيّ الذي تضبطه المبادئ، ففي ملخص راقٍ، اتخذ البنيويّة الوظيفيّة أنموذجًا لميلها إلى التصنيفات العديدة، على رغم الإيحاء بأنه يحاربها، فالفعل الأداتيّ لدى هابرماس يتبع الهدف التقنيّ (فعّال لكنه عديم المعنى)، كما حَدَّدَ الفعل الإستراتيجيّ (المشخَّص بالأفعال المقاميّة) كغاية موجّهة من مصلحة ذات علاقة بقرارات شريك عقلانيّ. ورأى الفعل التواصليّ (المشخص بأفعال كلاميّة منطوقة) بحثًا غير نفعيّ

---

(66) بالطبع هذه القراءة التي قدمها فيبر هي واحدة من القراءات العديدة الممكنة التي نتطرق إليها في تأويل هانز يُواس في الفصل القادم.

t.me/ktabpdf مكتبة

لتعريف مشترك للوضعيّات. «ويمكن الأفعال الأداتيّة أن ترتبط بالتفاعلات الاجتماعيّة، بينما الأفعال الإستراتيجيّة ذاتها تمثل الأفعال الاجتماعيّة. وبالمقابل، أتحدث عن الأفعال «التواصليّة» عندما لا تكون برامج عمل الفاعلين المشاركين فيها منسقة بحسابات النجاح الأنانيّة، بل منسقة بأفعال التفاهم بين الأشخاص».

يختلف هابرماس عن كارل ماركس وماكس فيبر، مع احتفاظه بجزء من نقدهما الحداثةَ، فأفعال البشر تدمج كل المستويات من دون أن ينفصل بعضها عن بعض. إننا نقيم في كل العوالم في الوقت ذاته، وهذا يعني أن العمل الصناعيّ والسياسة والذاتيّات لا يلغي بعضها بعضًا. فإذا كان الأفراد يقاسون ويتألمون، فالسبب لا يعود إلى عدم التوافق المطلق بين العقلانيّة الغائيّة والمعنى، وبين البيروقراطيّة والأخلاقيّات، وبين الرأسماليّة والحياة الاجتماعيّة، بل إلى تجاوز حد معين، فيحدث خلل لمصلحة الأداتيّ، وانفصال بين «النسق» (الذي تقوده السلطة الاقتصاديّة والتكنوقراطيّة) و«العالم المعيش» (المكان الذي تتم فيه التفاعلات الاجتماعيّة والتفاهم البينيّ). إن امتداد الدولة الاجتماعيّة وأخلاقيّات النقاش يجب أن تكون ردًّا على «الاستعمار الداخليّ للعالم المعيش». والفضاء العموميّ ليس مخصصًا للفاعلين المؤسساتيّين المستنيرين فقط، بل يجب أن يُفهم من الآن فصاعدًا انطلاقًا من وسائل الإعلام والمجتمع المدنيّ (الحقّ والديموقراطيّة *Droit et démocratie*، 1992) الذي تتميّز فيه الجمعيات والحركات الاجتماعيّة التي تعتبر مساهمة أساسيّة في حلبة النقاش التي تجب تغذيتها باستمرار.

مكتبة t.me/ktabpdf

الحل الفيبريّ لمشكل الفعل حسب هابرماس

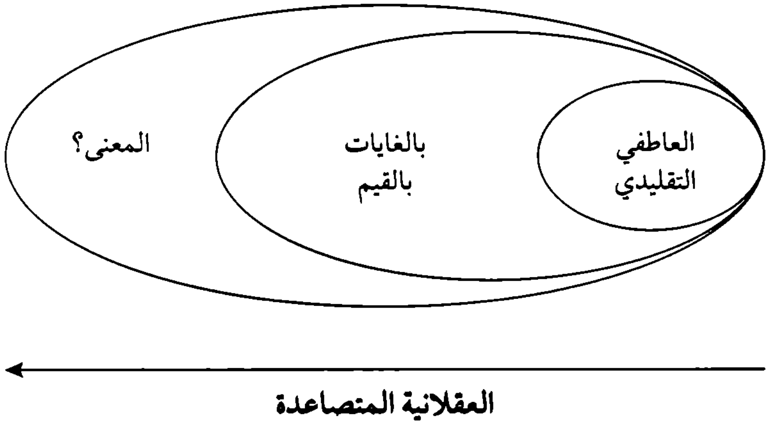

الفعل بحسب هابرماس

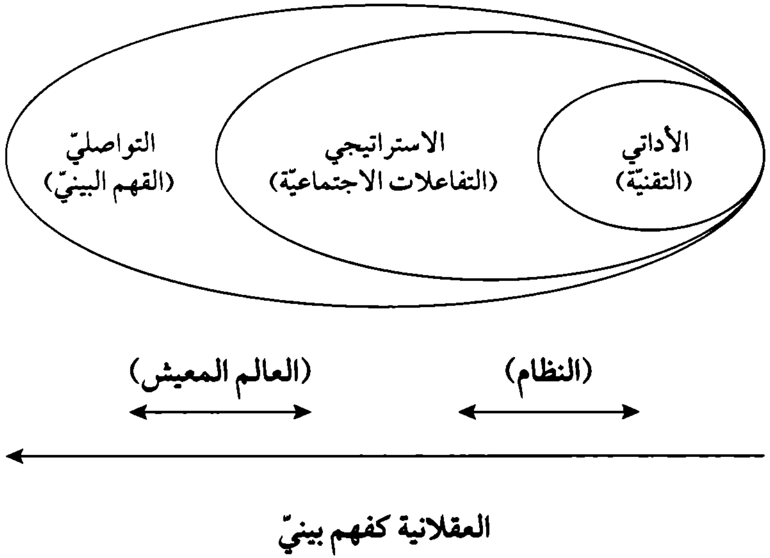

t.me/ktabpdf

مكتبة

ريتشارد سينيت واستبداد الحميميّ (1974)

تثير طروح ريتشارد سينيت أيضًا، مسألة اضمحلال الفضاء العموميّ الذي أضفى عليه طابعًا مثاليًّا. ويستخرج هذا الكاتب ثلاثة تشكيلات تاريخيّة مناسبة للعب الأدوار في المشهد العام، إذ يبدو له أن النظام القديم الذي يثمّن النزعة غير الشخصيّة في الشؤون العامّة(*) يمثل الأنموذج المرجعيّ، فكل ظهور عام وعلنيّ يكون مشروطًا بعدم الكشف عن هويّة الأشخاص وباستخدام عُدَّة التنكر (الأقنعة) كما هو الأمر في المسرح. إن «الجمهور» يجمع الأشخاص المجهولين النشطين، ويلغي مؤقتًا الاختلاف في المراتب الاجتماعيّة، ويستحضر التواضع ويقضي على كل تَصَنُّع في الحياة الخاصّة. والظواهر الاقتصاديّة والاجتماعيّة، مثل العزل الحضريّ ونهاية المساومة، التي تعد عنصر المسرح الحضريّ، تدفع إلى ما هو أسوأ، منذ منتصف القرن 18 إلى نهاية القرن 19. لقد تسلل مسار الشخصنة إلى الجمهور، حيث فرض الشخص على هذا الجمهور رغباته وسلبيّته. «وأصبح القناع وجهًا»، وعُمم استراق النّظر مثل «فنّ طَرْف العين». لقد حكم العصر الراهن على الفضاء العموميّ بالإعدام، وذلك بترسيخ مجتمع النزعة الحميميّة، الذي استثمر الترفيه والسياسة، ووجد في وسائط الإعلام الجماهيريّ حامله المناسب. لقد أصبح الكشف عن النرجسيّات، و«تعرية الذّات» الهدف الوحيد. إنه مصدر الرضا والمعاناة في الوقت ذاته، باعتباره التزامًا شكليًّا. وتستند هذه الرؤية التشاؤميّة، المتميزة بملاحظتها المنذرة بإضفاء الطابع النفسيّ على الممارسات، (مثلما

(*) يقصد به النظام الأرستقراطيّ والسياسيّ والاجتماعيّ الذي نشأ في فرنسا من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

t.me/ktabpdf

مكتبة

هو الأمر لدى كريستوفر لاش Christopher Lasch، وبشكل مبكّر لدى حنّة أرندت)، إلى الإيمان بأن التجربة ذات النزعة الحميميّة تقع خارج ما هو اجتماعيّ ولا تولّد علاقات اتصال. ويمكن أن نواجه هذه الرؤية برؤية أخرى معارضة وأكثر اكتمالًا للفضاء العموميّ، كما وضعها دومينيك ماهل، الذي اطّلع على الطابع الثريّ للمجتمع ذي النزعة الحميميّة، ومصدر التَمَثُّلات الجماعيّة، الذي يغذي الفضاء العموميّ المصمم بشكل مختلف عن البرلمان. فضاء مُقَسم تُحترم فيه إكراهات الكلام. إن التمسرح الذي تحدث عنه ريتشارد سينيت، والشخص المجرد الذي ذكره هابرماس ليسا سوى صور مثاليّة منمذجة للفضاء العموميّ التي ترافق اليوم شكلًا كبيرًا آخر: إنه التلفزيون، «فالتلفزيون لا يخرب هذا المسار أو ذاك، بل يضيف إليهما نمطًا ثالثًا من الوجود العلنيّ وأمام الملأ، فبجانب صيغة اللاشخصيّة وأنموذج الشخصيّة تضاف سيطرة المابين شخصيّات. لقد ظهرت هذه الصيغ المختلفة في مختلف العصور، لكنها لا تتعاقب في التلفزيون، بل تتساكن، وتتركب في تناسب وتتمفصل».

المجال العموميّ وفق نانسي فرايزر

على رغم التعديلات التي أدخلها هابرماس على مفهومه للفضاء العموميّ، إلا أن أفُقه ظلّ ممغنطًا بالتعريف الأفلاطونيّ للعقل، وبتَمَنّي إحداث تراتبيّة للفاعلين الديموقراطيّين (المستنيرين، ثمّ الحركات الاجتماعيّة التي تسود على التَّوالي)، فإذا كان هذا الأفق يقدم إطارًا لممارسة الديموقراطيّة، فسيظلّ مقتصرًا على الفاعلين

t.me/ktabpdf مكتبة

والمنطق، فلماذا لا تكون الديموقراطيّة قضية الجميع ذكورًا وإناثًا؟ فعلى عكس تشخيص هابرماس المثاليّ والتقييديّ، يُقرأ تاريخ القرنين الأخيرين ـ في الغالب ـ انطلاقًا من الإثراء الشعبيّ للفضاء العموميّ الذي صادره البعض في البداية، وعلى أنواع المبادلات التي تنشطه. وإن سمح القانون والتعاقد بتزايد تمثيل الأشخاص، فإن مكاسب التقدم الأساسيّة تحقّقت بفضل النضال وتعزّزت بإمكانات التعبير، فغياب النساء في الفضاء العموميّ البرجوازيّ (والذي لم يكن مطلقًا لأنه سبق للبعض أن قوّض آليّات تمثيل الذكور في الصالونات) قد تُرجم بتزايد المطالب الفكريّة والسياسيّة (المطالبة بحقّ المرأة في الانتخاب) والجنسيّة، وهي المطالب التي تُوّجت بأشكال الحركة النسويّة المعاصرة، فتهميش الأوساط العماليّة كان محركَ النضال النقابيّ في نهاية القرن 19، الذي تجلى في الإضرابات عن العمل وارتفاع أصوات تجنيد العمال بالمقدار ذاته من التعاون مع الحكومات. من وجهة النّظر هذه، فإن الأنموذج العام الذي قدمه ألبير هيرشمان (Hirschman, 1970)، والمتمثل في «الولاء ـ الانشقاق ـ أخْذ الكلمة»، ويصف فيه الوسائل التي يمتلكها الجمهور للتعبير عن استيائه، يبدو مناسبًا جدًّا. إن عدم الأخذ بالاعتبار مصالح الفئات المقصيّة وهويّاتها وأسبابها، يدفعها إلى أخذ الكلمة (إنه جهد من أجل تغيير الأشياء من الداخل) أو يجرّها إلى الانشقاق والخروج من النظام (التشكيك الشامل في النظام). والمطالب الناجمة عن الفضاء الخاص وعوالم الاقتصاد والمعتقدات تشارك مسبقًا في الفضاء العموميّ ويمكن أن تسلك

t.me/ktabpdf مكتبة

الـدروب غير المباشرة حتّى ترى النور. كان القرن 17، الـذي لا يمكن اختزاله في حقبة فراغ تسبق الإزدهـار الديموقراطيّ، يغلي بتبادل الأفكار المتناقضة التي عبّرت عن ذاتها في المجال الأدبيّ، نظرًا إلى غياب مَنْفَذ إلى السياسة (Merlin, 1994). لقد أثبت علماء الاجتماع ومؤرخو الارتداد عن المسيحية، خاصّة ميشال دو سارتو (Certeau, 1975)، بوضوح أن الأَدْيان قمعت تنوع الآراء، وسمحت لها في الوقت ذاته بالتحرّر من المشاجرات والانحرافات الداخليّة ثمّ الخارجيّة، فالكنائس الكاثوليكيّة تحولت في القرن العشرين إلى مأوى للتناقضات في بعض بلدان أوروبا الشرقيّة التي كانت تحت الحكم الشيوعيّ، عندما كانت الحركة الإسلامويّة تخفي في مشروعها الوحدويّ المحتكر للفعل السياسيّ، التنوعَ في الفضاء العموميّ (بما فيه الأنثويّ) وتوتّراته التي تهدّد هذا المشروع (Gole, 1997, 2000).

اقترحت الباحثة النسويّة نانسي فرايزر أنموذجًا للفضاء العموميّ منافسًا لأنموذج هابرماس وأكثر انسجامًا وتأثيرًا، فباستلهامها من النظريّة الغرامشيّة ومن ستيوارت هول و«فوكو في المرحلة الثانية من تطوّر فكره» (في مؤلّفه **إرادة المعرفة** الذي دشن فيه تحوّل فكرته عن هشاشة السلطة والاعتراض عليها)، أشارت بشدة، «إلى أن وجود أكثر من جمهور متنافس لم يقتصر على نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مثلما يوحي بذلك هابرماس»، فـ«الفضاء العموميّ» أكثر اتساعًا مما تخيّله هابرماس، إنه يشمل أيضًا كُلّ الفاعلين غير البرجوازيّين الذين يطمحون إلى التمثيل في الهيئات

t.me/ktabpdf

مكتبة

المنتخبَة، و«الجمهور الهامشيّ». فهؤلاء يوجدون في وضع الـ«بين بين»، نصف معارض ونصف مفاوض حول الهيمنة التي يعانون منها في حياتهم. إنهم يستعملون كُلّ أشكال الاعتراض والرفض، مثل التظاهرات، والمسيرات، والمناقشات داخل الأسر، ويقومون بأعمال تطوعية من دون احترام العقلانيّة العمليّة الهابرماسيّة، وبجانب الجمهور الوطنيّ والفلاحين الشعبيّين ونساء النخبة والطبقة العاملة، ويتعاقب أكثر من جمهور هامشيّ في مراكز متعدّدة ومتناقضة. وبعد التعبئة الجماعيّة الكبرى التي صقلت مجتمع الحقوق السياسيّة والاجتماعيّة، أصبحت المطالب «ميكروسياسيّة» بالمعنى الذي وضعه ميشال فوكو (استعمل أولريش بيك لاحقًا مفهوم «السياسة الفرعيّة») وتتعلق بالعادات والرهانات المرتبطة بالهويّات. وتجري الدمقرطة عبر مختلف الفضاءات الصغرى والكبرى التي تُشَكلها غالبًا على أنماط بديلة لتلك التي تخيّلها هابرماس، وتتجسد عبر السياسة مثلما تتجسد عبر الترفيه، وفي المعارك المقيدة في البرلمان مثل تلك التي تجري في الصالونات التي نعرف أن أسرارها نسبيّة. لقد وصفت فرايزر هذه الرؤية بأنها «أكثر قتامة» من تلك التي قدمها هابرماس لكنها أكثر واقعيّة، وهي تحمل رسالة أمل: إن الديموقراطيّة تسير بشكل جيّد بامتدادها المتتالي إلى الجمهور الهامشيّ الذي يستطيع الاندماج في فضاء التمثيل المُهَيْمِن (وهذا لا يتحقّق من دون أن يتكبد هذا الجمهور وزر التوسيم خلال مُدّة طويلة). تخترق النزاعات التي يمكن أن تتوّج بتوافقاتٍ (وليس بإجماع) المجالَ العموميّ، وحدود هذا المجال ليست ثابتة، إنها في إعادة بناء متجدّدة

t.me/ktabpdf مكتبة

بحسب رهانات التمثيل والهويّة والمصلحة: أن الفضاء العموميّ غير مغلق، لأن الديموقراطيّة تظلّ مكانًا للبحث عن المعنى المشترك. إنه متعدّد، في آخر المطاف (لحضور الجمهور الهامشيّ)، وتراتبيّ في الوقت ذاته (أكثر من جمهور مُهَيْمِن يسعى إلى عرقلة المشاركة الواسعة)، ونزاعيّ (الجمهور الهامشيّ يستهدف التحرّر). هكذا تطعن الباحثة فرايزر في طروحات هابرماس الأربعة الأساسيّة:

1 ـ يعني ولوج الفضاء العموميّ تعليق التباين في الوضع الاجتماعيّ.

2 ـ يحتاج الفضاء العموميّ إلى جمهور توافقيّ ومنسجم.

3 ـ ينبغي أن يركز الخطاب في الفضاء العموميّ على المصلحة المشتركة والعامّة، ويستبعد المشاكل «الخاصّة».

4 ـ يقتضي السير الحسن للفضاء العموميّ ضرورة الفصل الواضح بين الدولة والمجتمع المدنيّ.

وتقترح الباحثة فرايزر أنموذجًا لا يرفض الاختلافات بين أجهزة الدولة والقطاعات التجاريّة والجمعيات، ولا مبدأ الأنموذج المعياريّ للفضاء العموميّ، ولا مساهمات هابرماس، لكنها تعدل فرضيّاته المثاليّة:

1 ـ توجد في الفضاء العموميّ جماعات موازية، و«جمهور هامشيّ»، وكلّهم يعيّنون اختلافاتهم ويعارضون الفضاء العموميّ البرجوازيّ.

2 ـ إن تكاثر الجمهور المتعدد والمتنافس، ووجود شبكة لأكثر من جمهور موازٍ، يقربهم من الديموقراطيّة التي تقوم على التوافق.

t.me/ktabpdf مكتبة

3 ـ إن بروز مصالح جزئيّة ومشاكل يفترض أنها «خاصّة» تسمح برسم ملامح الفضاء العموميّ المتحركة: فلا تقييد للأسئلة.

4 ـ الانفصال بين الدولة والمجتمع المدنيّ قائم لكنه غير واضح: الديموقراطيّة المباشرة أو شبه المباشرة ضروريّة، وذلك بصرف النّظر عن العلاقة بممثلي الشعب.

«برامج الحوار الاستعراضيّة»: انحطاط أم إثراء؟

إن إدارة العائلات (الطلاق وإعادة التشكيل وغيرها)، ومشاكل العلاقات بين الآباء والأبناء وبين الزوجين والجندر والتناسل والمعوَّقين والحب والمشاعر الخاصّة التي كان يجب إخراسها في العادة، كُلّها تشكل بوتقة جديدة ينصهر فيها الفضاء التواصليّ ويتوسع، حسبما ذهبت إليه نانسي فرايزر. لقد أبرز دومينيك ماهل بوضوح هذا الفضاء في كتابه **تلفزيون الحميميّة** (*La Télévision de l'intimité*) (1996). تصبح الحياة الخاصّة حياةً عامّة، وتتحوّل الحياة العامّة إلى حياة خاصّة من دون أن تكون هناك أعراض مَرَضيّة، لأن الاثنين معًا (الخاص/ العام) هما أوّلًا وقبل كُلّ شيء من التشكيلات التاريخيّة (متغيّرة ومائعة) وليسا كالأواني المستطرقة(*) (vases communicants)، والتشكيلات لا تتوالى لكنها تتطابق بعضها مع بعض بشكل متوازٍ (يقوم الرجل السياسيّ بدور الممثل

(*) يقصد بذلك مجموعة الأواني المتصلة بعضها ببعض والتي تحتوي على سائل متجانس، فإذا تدفق في أحدها يتوزع على البقية. ويكون المستوى ذاته في كل الأواني بصرف النظر عن شكل الإناء وحجمه. وقد استعملت هذه الاستعارة للإشارة بقوة إلى مرونة التداخل بين العام والخاص.

t.me/ktabpdf مكتبة

الذي لا يمثل شخصه من جهة، ويستعرض أناه إن وافق على ذلك من جهة أخرى، والتلفزيون يُخْبر بشكل بيداغوجيّ، ويسلّي، ويمزج الاثنين معًا، إلخ). ويُترجم هذا التغيير بالانتقال من «التلفزيون القديم» (paléo-télévision)(*) إلى «التلفزيون الجديد» (néo-télévision)، ومن تلفزيون له إرادة في نقل المعارف إلى ذاك الذي يقيم علاقات مع الجمهور وحياته اليوميّة(67).

لقد انتقل التلفزيون من تأدية رسالة يحدّدها العرض التلفزيونيّ إلى تلفزيون ذي طبيعة علائقيّة يقوده التصور للطلب على البرامج التلفزيونيّة، ثمّ أمسى رؤوفًا يهتم بالمعيش اليوميّ للأشخاص وبتشكيل جماعة عاطفيّة متضامنة، من خلال تبادل الرسائل مع جمهور يفترض أنه يساوي بين عرض البرامج التلفزيونيّة والإقبال عليها (وفي هذه الحالة يجب ألّا ينبذ أحدهما الآخر).

(*) Paléo: كلمة يونانيّة استُقيت من (Palaios) وتعني القديم.

(67) بحسب التعريف الذي قدمه كاسيتي وأودن (Casetti et Odin, 1990) إثر الملاحظات التي قدمها أمْبرتو إيكو، («إن خاصية التلفزيون الجديد تكمن في أن حديثه عن العالم الخارجيّ يقل (عن الحديث الذي كان التلفزيون القديم يقوم به أو يتظاهر بالقيام به). إنه يتحدث عن ذاته، وعن الاتصال الذي هو بصدد القيام به مع جمهوره». (Eco, 1983)). انظر أيضًا لوشار وبوابيه (Lochard et Boyer, 1995). فهذا التمييز يجب أن يمتد، مثل ذاك المتعلق بأنواع الفضاء العمومي. وهناك نوع من المساكنة بينها، ولا توجد استعاضة. والتداخل بين الأنواع التلفزيونيّة، مثل «إدغام الترفيه في الإعلام» (infotainment) يترجم تَقَدم ما هو يومي والتمسك في الوقت ذاته بأهميّة الإعلام حتى في ثنايا الترفيه.

t.me/ktabpdf

مكتبة

تطالب السوسيولوجيا بمكانة مركزيّة لوسائل الإعلام في مسار التحوّل النفسيّ، مثلما قام به شودسن (**لماذا لا تكون المناقشة روح الديموقراطيّة** *Why Conversation is Not the Soul of Democracy*، 1997)، وذلك برفض أسطورة التفوق المطلق للمناقشة وجهًا لوجه بالمعنى الهابرماسيّ (وبالمعنى الذي حدّده الباحث ديوي، الذي يَحنُّ إلى الجماعات الصغرى). هذه المناقشة محدودة عمليًّا بقلة المنضمّين إليها، وبمشاركة الخجولين أو الخائفين من العنف الذي يمارسه الأشخاص بعضهم على بعض. ويعمّم الاتصال عن بعد العلاقات بين الأشخاص ويخرجهم عن السياق ويولجهم في كواليس الغير (Meyrowitz, 1985). ويؤدي هذا الاتصال أيضًا إلى مشاركة متنائية وصائنة، ويسمح بعدم انقطاع الروابط، ويساهم بشكل واسع في التعبير الطقوسيّ عن النزاعات، بما فيها تلك المرتبطة بالحياة الحميميّة. إن «تلفزيون الواقع» و«البرامج الحواريّة الاستعراضيّة» (talk shows) التي تعالج بشكل أساسيّ هذه المواضيع، كانت في التسعينيّات أرضيّة متميّزة لمعارضة الأطروحة الهابرماسيّة بعد أن كانت «المسلسلات» والملاحم العائليّة، مثل مسلسلي **دالاس** وداينستي التلفزيونيّين حوامل المرافعة لمصلحة الجمهور المُرَكَّب في ثمانينيّات القرن الماضي. فهذه الموجة من البرامج التلفزيونيّة التي يُندّد بها في الغالب، لما تمارسه من استراق النّظر، ولطابع «تلفزيون النفايات» الفضائحي، قد وُصفت بلغة الشَّجب التي تستنكر قلة ذوقها وانعدام أصالتها (يحاول الإنتاج أن ينسق اللقطات المتتالية)، وغايتها

t.me/ktabpdf مكتبة

التجاريّة، وتقديم ضيوف في هيئة شخصيّات كاريكاتوريّة، واستغلال ضعف المؤسسات الاجتماعيّة (يقدم المنتجون خطابًا مدنيًّا من باب الانتهازيّة).

وبصرف النظر عن العيوب التي لوحظت على هذه البرامج، فإن مساهمتها تبدو مضاعفة، إذ يمكن أن نرى فضلها في توسيع الفضاء العموميّ وانفتاحه على الشهادات الحميميّة، مثلما أكّدت ذلك دومينيك ماهل، التي لاحظت أن الاعترافات العلنيّة واقتسام التجربة هي من الاتجاهات السائدة منذ قرون في المجتمعات الغربيّة (التي اخترعت التحليل النفسيّ) وحاضرة في وسائل الإعلام منذ خمسينيّات القرن الماضي وستينيّاته، وفي الإذاعة على سبيل المثال (Cardon, 1995)، والمجلات التلفزيونيّة (Jeanneney, Sauvage, 1982)، وحتى في الألعاب العلائقيّة (Macé, 1992)، وبشكل مفاجئ في الشرائط المرسومة للبطل الخارق (Maigret, 1995). لقد اعتمدت صونيا ليفنغستون وبيتر لَنْت (Peter Lunt) على أنموذج الباحثة فرايزر في مقالهما «أن تُسْمِع صوتك في الفضاء العموميّ. النساء، والتلفزيون، والمواطن المشاهد» (Se faire entendre dans l'espace public. Les femmes, la télévision et le citoyen-téléspectateur) (1994). وشرحا رفضهما العنيف لنقد هذه البرامج لأنها تتناغم مع أشكال تحرّر الأقليّات، وبخاصّة النسويّة، فمواضيع البرامج الحواريّة «تطرح مشاكل المرأة» التي لم تكن حتّى الآن جديرة بالدخول إلى ساحة الشؤون العامّة، ويتم التطرق إليها من دون الاستعانة بالخبراء. ويتمّ التطرق في هذه البرامج إلى العزلة، والنزاع

t.me/ktabpdf مكتبة

بين الآباء والأبناء، والعجز الجنسيّ في شكل محادثة، بالابتعاد عن المفهوم الأبويّ للعقلانيّة «المجردة وغير السرديّة، والعلميّة وغير المحادثاتيّة، والمنطقيّة وغير العاطفيّة، والعامّة غير الخصوصيّة». وفي العادة، فإن الأهالي المقصيِّين من الفضاء العموميّ والذين يضمّون الأقليّات الجنسيّة والعرقيّة والعمريّة، يَنْفذون إلى هذه البرامج من خلال شهادتهم وتقاريرهم الساخرة التي لا تُفقِر المناقشات قط، بل تعزّز تعقدها. «وتشير المناقشات التي تبرز في هذه البرامج إلى إعادة صياغة المناقشة التلفزيونيّة بالابتعاد عن التقاليد التي تفضل حديث الخبراء والأشكال العلميّة للمعرفة النخبويّة التي تعدّ حكرًا على الذكور بامتياز، وذلك لمصلحة الخطاب المؤسَّس على المعرفة التي اكتسبها الأشخاص العاديّون، والتي ترتكز على التجربة الشخصيّة، والملاحظة المباشرة، ونمط التعبير السرديّ». إنها إعادة صياغة الفضاء العموميّ والأدوار المخصصة للأفراد. فإلى الفضاء العموميّ الهابرماسيّ، القائم على الأخذ بالاعتبار المنطقيّ وجهات النظر المتعارضة حول الإجماع الاجتماعيّ والمناقشات العقلانيّة النقديّة، يُضاف فضاء عام نزاعيّ، قائم على التفاوض، ومُشَكّل من جمهور متنوع يروم تسوية يتم التفاوض حولها. و«يقدم كُلّ طرف الحجج التي أحضرها مسبقًا والأكثر ثقلًا في البلاغة من العقلانيّة التحليليّة، بهدف الوصول إلى أفضل تسوية، وتُعَدّ كذلك أيضًا من الطرف الأكثر إقناعًا، فلا طرف بحاجة إلى حجج الآخرين، بل يجب ببساطة التفاهم على الحل الوسيط (...) ولا يسعى الفضاء العموميّ النزاعيّ بوضوح سوى إلى إحداث توازن للاختلافات، وتسهيل تمثيل من هم

t.me/ktabpdf مكتبة

أقلّ قُوَّة، وضبط خطابات الأقوياء في سبيل الوصول إلى تسوية نزيهة وقابلة للتنفيذ».

أشكال التجربة العموميّة

تكثّف أطروحة الفضاء العموميّ مناقشتين على الأقلّ، تتعلق الأولى بأنماط عقلانيّة الفاعلين: هل تقودهم الدوافع المنطقيّة بالمعنى الهابرماسيّ أو المصلحة والعواطف بكُلّ تداعياتها الإستراتيجيّة؟ هذا التوتر الأول بين الدوافع المنطقيّة والعواطف واضح، لأنه يستند إلى أنماط من التعبير ندرك اختلافاتها، ولا توجد بطبيعة الحال إلا بالرجوع إلى مخطط «المثاليّين ضد السفسطائيّين»: فيجب ألّا ننسى أن هذا التوتر لا يمكن أن يستخدم جوهر العقل والإقناع كوحدتين مستقلتين ذاتيًّا تمامًا. والقانون العقلانيّ، أو بالأحرى المعقلن، ليس سوى فعل السلطة أي التأثيرالناجح للّغة، بينما لهذا التأثير منطقه وعقلانيّته (في هذا المعنى تجب متابعة نظريّة جورج فينيو (Georges Vignaux, 1976)، المعممة للتحجُّج التي يقدم فيها محاجّة كإطار مشترك لكُلّ أشكال المعرفة). وهكذا، فإن نظريّة الفضاء العموميّ مرتبطة بتعريف ما هو الشيء السياسيّ: فهل نعتبر الفضاء المؤسساتيّ، الذي يسمّى سياسيًّا، هو وحده فضاء عموميًّا أو الفضاء الأكثر اتساعًا والذي يشمل علاقات السلطة والهويّة بين الأشخاص والمجموعات الاجتماعيّة؟ بتقاطع هذين النظامين من التعارض نحصل على جدول بأربع خانات يسمح بتعيين بعض المقاربات:

t.me/ktabpdf مكتبة

	«العقل/ التجريد»	«إستراتيجيّة/ السرد»
فضاء عموميّ رسميّ: حيز للسياسة، والمؤسسات	1 فضاء عموميّ هابرماسيّ السياسة كإجماع عقلانيّ ساسة، موظفون	2 فضاء عموميّ نزاعيّ السياسة كمصالح الفاعلين ساسة، موظفون، نقابات، مجموعات الضغط «رأي عام»
فضاء عموميّ غير رسميّ، وغير مؤسساتيّ: السياسيّ، علاقات السلطة وبناء الهويّات	3 فضاء عموميّ هابرماسيّ موسع السياسيّ كإجماع عقلانيّ النقابات، جماعات الضغط، «رأي عام» إعلام ميدياتيكيّ	4 فضاء عموميّ نزاعيّ مطالب وسرديّات هويّاتيّة حركات جماعيّة «جمهور» وسائل الإعلام

يمكن كُلّ الفاعلين الوجود في كُلّ خانة من خانات هذا الجدول. ويظلّ المنتخَب مرتبطًا بالمجتمع المدنيّ بكُلّ جوارحه، وهذا الانتماء إلى فضاء المفاوضات اليوميّة يغيِّر عمله السياسيّ. والشخص الذي يشاهد برنامج «تلفزيون الواقع» هو أيضًا مواطن منتخِب وأحيانًا عضو في جمعية، بيد أنه يمكن أن نستخرج أنواعًا أنموذجيّة. إن الساسة والموظفين يُدرَجون في الخانة رقم 1 إذا اعتبرناهم حاملي العقلانيّة (موقف هابرماس في مرحلته الأولى) أو في الخانة رقم 2 إذا

t.me/ktabpdf

مكتبة

اعتبرناهم فاعلين منشغلين بمصلحتهم (تحليل اجتماعيّ واقتصاديّ لعلاقات السلطة). أما المجموعات الوسيطة (النقابات ومجموعات الضغط والجمعيات) التي تستأهل هذه التسمية لأنها شديدة التمسك بأنظمة الترتيب، فتحتل الخانتين رقم 2 و3 وفق ما تستخدم السجل الإستراتيجيّ أو العقلانيّ (موقف هابرماس في مرحلته الثانية) إن اعتبرناها تابعة للمجتمع المدنيّ أو المسار السياسيّ. إنها لا تحتل فضاء السياسة والمؤسسات بالمعنى الدقيق للكلمة وإن اعْتُرِف في الممارسة بمكانتها في نمط الجماعات الضاغطة. والجمهور الذي يُنْظر إليه عبر الأحلام، والمطالب واحتجاجات الجماعات التي تجمعها وشائج الألفة والأشخاص، يندمج في الفضاء العموميّ بفضل المواد الدراميّة والأفلام والمناقشة، بخاصّة عندما يلجؤون إلى وسائل الإعلام لاستخدامها بصفتها حاملًا (الخانة رقم 4). ويمكن هذه المجموعات أن تحمل أيضًا مُسمّى «رأي عام» مع كُلّ الوسائل التي تشكله (استطلاعات الرأي)، وتندرج في الخانة رقم 3 في البناء الشرعيّ العقلانيّ (تتوقف القوانين أيضًا على أخذ «الآراء» بالاعتبار)، أو في الخانة رقم 2.

إن التعارض بين العقل والإستراتيجيّة، مهما كان محدودًا، يمكن أن يُقصى لمصلحة رؤية لا تميّز أساسًا بين أنماط التعبير العموميّ. إن «البلاغة» بالمعنى الذي يعنيه أرسطو، هي التي تقوم بمثل هذا الإجراء الذي يقود إلى التفكير في تبادل الرسائل كتمثيل مسرحيّ ومُحاجَّة منطقيّة في الوقت ذاته. والمحاجّة تحتاج إلى إطارات حسّاسة تجسّمها وترُمزها. وحتى تُفعل يُمَد السرد بالأسباب الوجيهة

t.me/ktabpdf مكتبة

التي تمنحه معنى. وتقع البلاغة المتصالحة في عالم الاحتمال والعموميّات، بينما يلعب العقل الأكثر صلابة، على اليقين والكونيّة، ويلعب الإقناع الأكثر جبنًا، على تشكيل المصالح على المستوى المحليّ. إذًا، تقع البلاغة في منتصف الطريق، أو أنها تصف المسار الذي ينتقل من السرد إلى المحاجّة، ومن هذه الأخيرة إلى السرد، فضمن هذا الأفق الذي يريد أن يكون قريبًا من «العقل العمليّ» (la Raison pratique) لكانط، يشبّه لويس كيريه (Quéré, 1992) الفضاء العموميّ بشيء ذي وجهين لا يمكن الفصل بينهما: فضاء للنقاش (مداولاتيّ)، ومشهد للظهور (مسرحيّ). الوجه الأول أقرب إلى مواقف هابرماس والوجه الثاني أقرب إلى فكرة وجوب أن تكون السّياسة مرئيّة بفضل وسائل الإعلام (Thompson, 1991, 1995). ويجب ألّا يؤدي هذا الطرح إلى التراجع عن التمييز بين طابقين غير منفصلين والاهتمام بالتعارض بين عالمين منفصلين جدًّا: لا تتدخل وسائل الإعلام في المجال التداوليّ، ولن تكون إلّا إخراجًا مسرحيًا (ستجد التعارض بين الفضاءات العموميّة الرسميّة وغير الرسميّة في الجدول). وتوضّح قضية جنون البقر، على سبيل المثال، بشكل جيّد صعوبة الكشف عن الجانب المسرحيّ والجانب الحجاجيّ، وعن دور وسائل الإعلام، وعن دور الرأي العام والساسة. إن التمييز الذي قام به كيريه يساعد في تعيين الطريقة التي تتشكّل بها المشاكل العموميّة في إطار التحليل الظاهراتيّ الذي يدعو إليه المفكرون الذرائعيّون أومنظّرو التفاعليّة، ديوي وغوفمان وشوتز (Schütz) (Cefaï 1996, 1998, 2002). إن ظهور مشكل (Hilgartner et Bosk, 1988,

Gamson et Modigliani, 1989) بناء لإطار تأويليّ لا يحقّق الإجماع، الذي يولد من نزاع في وجهات النظر تجتمع حوله المجموعات المتنافسة وتستعرض خلافاتها وقوتها على الملأ وأمام الجمهور. إن الفاعلين (الممثلين والجمهور) يترابطون بإجراءات مثل السرد والشَّهادة والبرهان العلميّ والتأويل القانونيّ وغيرها من أشكال التجربة العموميّة التي يجب استكشافها من خلال تركيب بنية الكلمات، والأشخاص، والسياقات التي نسميها فضاءً عموميًّا، والمصممة كحلبة تمتد معالمها بشكل غير محدود: والمشاركون جدد والحقائق جديدة والمشاجرات جديدة وتبعات النقاش على الذين لم يشاركوا فيه بعد كُلّها تعيد باستمرار تشكيل هذا الجمهور الذي يراه الباحث ديوي بنيةً من التفاعل لا تكف عن التوسع. ويمكن هذه المقاربة أن تلتقي مع سوسيولوجيا المهن والمنظمات التي تبحث عن الفاعلين المنخرطين في مسار عام وعلنيّ، وعن أنواع الالتزام والارتباط وأطر التأويل (تاكمان، مولوتش، وليستر...). وبهذه المقاربة، لا يتطلب الأمر الكشف عن نتائج صراعات المعنى وتأثيرها على توزيع المواقع الاجتماعيّة بعد حدوثها، بل تتطلب فهم وقائع المشاجرات التي تصقل الفضاء العموميّ.

الذهاب إلى نهاية مسار العمليّة التعدديّة

تظلّ فكرة الاشتراك في الكلمات والأحداث في المخطط الهابرماسيّ تُشَرْعِن المسار الديموقراطيّ، وكذا فكرة مطاطيّة الفضاء العموميّ، ولا تعكسان البنى الاجتماعيّة غير الملموسة. إن

t.me/ktabpdf مكتبة

مثاليّة كاتب منشغل كثيرًا بإرادة الابتعاد عن المسارات الأداتيّة، مثل أفلاطون، الذي يسعى إلى النأي عن المادة، مرفوضة بالنسبة إلى هذا المخطط. ومع مفهوم الفضاء العموميّ الذي يحظر غلق العمليّات التي يقرر البشر بموجبها التشارك والعيش معًا وإنتاج العوالم، يُوسَم حديث عالم الاجتماع وأمانيه بالنسبيّة أيضًا. إن المجموعات الاجتماعيّة ومنطقها في التواصل غير مستقرّة مسبقًا، لذا يجب استخلاص النتائج لممارسة التحليل السوسيولوجيّ.

تلفزيون الواقع وتناقضات التفريد

أثار «تلفزيون الواقع» العديد من التعليقات الحادة والتنديدات الأخلاقيّة، بسبب مقدار النجاح الذي حقّقه لدى المشاهدين والإقبال الكبير والمذهل على بثّ برامجه عبر القنوات التلفزيونيّة في العالم. لقد استطاعت طريقته المتمثّلة بمزج ما هو فيلميّ مبنيّ على سيناريو بتلقائيّة المشاركين، أن تفاجئ. (بُنيت على قواعد «إيهام الواقع»(*) réalsification التي نصادفها في برامج «تمشهد الواقع» reality shows. انظر: Charaudeau et Ghiglione, 1997. ومن أجل تحليل التلفزيون ما بعد الوثائقيّ وردود فعل الجمهور، انظر: (Hill, 2004, Hill et Palmer, 2003)، خصوصًا وأن النجاح والمرونة يبدوان مسيطرين على المكونات الأيديولوجيّة للبرامج التي تفكر في عالم الشغل (نذر المشاركون أنفسهم بطريقة وهميّة أو غير وهميّة، للنجاح في مهنة الإعلام بفضل شخصيّاتهم). إن هذا

(*) كلمة مركبة من إدغام كلمتين: (réalité) أي الواقع، و(mystification) أي إيهام.

التلفزيون هو نقيض صورة المحدلة التي تسحق كُلّ نزعة خصوصيّة، وذلك لأن برامجه لم تُبنَ ولا يتم تلقّيها بالطريقة ذاتها في العالم وداخل كُلّ مجتمع (Lochard et Soulez, 2003). فهذه البرامج التي تعد ترفيهيّة، وتعبيريّة أو إصلاحيّة لدى بعض المشاهدين، وغير جماليّة ولا تُحتمل نفسيًّا لدى البعض الآخر، يمكن أن تقدم جوانب أبويّة وعنصريّة (إقصاء المرشحين ذوي البشرة الملوّنة، وتثمين الإستراتيجيّات «الذكوريّة» ذات النزعة العدوانيّة) أو تتمتع بطاقات تحرّريّة (التحلي بمنطق نسويّ وشبابيّ، وتمثيل الأقليّات). إن القاسم الحقيقيّ المشترك بين تلفزيونات الواقع يكمن في كونها تضع قدرات الأشخاص في سياقها وتثمّنها، وتتناغم مع التطلعات المهيمنة في المجتمعات، حيث إن الاختيارات لا تتم على أسس معايير جماعيّة مفروضة. وتعبّر برامج تلفزيون الواقع عن لبّ التلفزيون العلائقيّ وإن كانت في بعض الأحيان أقلّ جرأة من البرامج الحواريّة الاستعراضيّة (Mehl, 2002)، وتطوّرُها يستجيب لميلاد مخيال أكثر مساواة ولتفريد متزايد. إن مشكل بناء الروابط، التي أصبحت انتخابيّة، يتم التطرق إليها في هذه البرامج من خلال الأذواق، والأماني، والتآلفات والنزاعات بين الأشخاص الموزعين بين شعور التحكم في مصيرهم والانتصار (Liebes, 1999)، وهلع التردّد وعدم اتخاذ القرار، والضياع، والانهيار، والتأرجح المعروف منذ العهد الرومانسيّ (أنموذج من مجتمع الأفراد) والذي وصفه آلان إهرنبرغ بدقة في تسعينيّات القرن الماضي، انطلاقًا من أرضيّة المخدرات والمعاناة النفسيّة. ويمكن التلفزيون العلائقيّ، الذي يرافق فشل المؤسسات

t.me/ktabpdf مكتبة

والتضامن التقليديّ، أن يُدْرك كاتصال وظيفيّ مُسَكّن، مثلما أوحى به آلان إهرنبرغ في أفق نقديّ. ومن الممكن أن نَعُدّ هذا التلفزيون، بطريقة محايدة أكثر، كسلسلة من الأمثلة التي توضح التحديات المقترحة على الأفراد «الذين يفكرون في ما يقومون به» (Beck, 1986) وحثّهم على اكتشاف عوالم أخلاقيّة وعاطفيّة، وعلى بناء ذاتهم من خلال التخريجات المتتالية لآثار مكنوناتهم الذاتيّة (Kaufmann, 2001)، وذلك بجعل الكثير من المشاهدين يكتشفون أنماط الحياة التي كانت مخصصة للفنانين والبرجوازيّة.

شخصنة الحياة السياسيّة: إفساد الديموقراطيّة؟

تشوّه حركةُ التفريد الحدودَ بين الفضاء العموميّ والحياة الشخصيّة في وسائل إعلام الترفيه والنقاش، وتؤثر أيضًا على الاتصال السياسيّ، الذي يرى فاعليه يبحثون عن إخراج مسرحيّ للأشخاص، وعلى الخطاب الشخصيّ، وحتى على الاعتراف. لقد اعتُبرت هذه الشخصنة سلبيّة جدًّا في فرنسا بسبب التقاليد السياسيّة الجمهوريّة التي تثمّن التمثيل والمسارات المؤسساتيّة، فهذه التقاليد ترمي إلى عدم شخصنة السلطة التي تعتبرها غير مناسبة لـ«المصلحة العامّة» (res publica)، فكُلّ إبراز لشخص ما وتسليط الأضواء عليه في النشاط السياسيّ يعتبر انحطاطًا للفضاء العموميّ الأصيل وإفسادًا له (الذي يُعرف ضمنيًّا، انطلاقًا من مبدأ العقلانيّة والإعلان وعدم الشخصنة)، فالساسة الذين يبرزون ذاتهم كثيرًا يُتّهمون بالانحراف الشعبويّ أو بالكاريزما والغوغائيّة، وبالسعي للحصول على مبايعة النّاس لهم. وتكون الدولة حاملةَ مُثل التقدم، وتستخدم تاريخ العقل من خلال خُدّامها المجهولين تقريبًا. ويجب الاعتراف بأن التعسف والإساءة

t.me/ktabpdf مكتبة

لعمليّة التفريد توجد لدى رجال السياسة الذين يسعون بوعي إلى تعريض الشخص لِلَهَب وسائل الإعلام، فيحترقون بعض الأحيان في هذه اللعبة أو يكونون ضحاياها: وُلد برنار تابي (Bernard Tapie) وسط وسائل الإعـلام لكنها حاكمته، ووسائل الإعـلام هاجمت بيل كلينتون لسلوكه الشخصيّ وجعلَتْه فريسةً لأجندتها التي أملَتْها عليها مجموعة (من الجمهوريّين) في مجلس الشيوخ وقاضٍ وتيار مسيحي. إن السياسة في فرنسا تسعى لتواكب هذا الواقع على رغم التطورات المُلاحَظة في مناطق أخرى (Chambat, 1997) والنظام الرئاسيّ الذي أقره ديغول عزّز تصور السلطة الشخصيّة، مثل سعيه إلى الارتباط المباشر بالشعب بواسطة وسائل الإعلام (لم يصل بعد إلى الكشف عن حياته الحميميّة وإظهارها). إن التوزيع الموازي لثقافة الفرد والتسويق السياسيّ، المحفزين على بيع الرجل السياسيّ مثلما تباع أي سلعة، يقودان السعي إلى الشهرة من دون قيد، وتعرية الحياة الحميميّة في إطار من التنافس الجديد بين القنوات التلفزيونيّة وبرامجها، مثل «أسئلة في المنزل» (Questions à domicile)(*) أو «الغائبون دائمًا على خطأ»(**) (Les absents ont toujours tort)، وفي الكُتب (كتاب فاليري جيسكار ديستان Valéry Giscard d'Estaing **السلطة والحياة** *Le Pouvoir et la vie*). إن لهذه

(*) برنامج سياسيّ شهريّ كانت قناة التلفزيون الفرنسيّ الثانية تبثه منذ مارس 1985 إلى مايو 1989، يحلّ فيه صحافيان ضيفين على رجل سياسيّ لإجراء حوار معه في بيته حتّى يقتربا أكثر من شخصيته في وسطه الاجتماعيّ.

(**) برنامج أسبوعي كانت تبثه القناة الخامسة في التلفزيون الفرنسيّ من سبتمبر 1991 إلى يناير 1992، ويتناول قضايا المجتمع.

t.me/ktabpdf مكتبة

الظاهرة العديد من المداخل، مثلما يوجد العديد من الفردانيّات. ويمكن الشخصنة السياسيّة أن:

- تكون وليدة الجاذبيّة والدعوة للعاطفة والحلول السحريّة (لو بان Le Pen) أو التقاليد (التعلق بالشخص عن خضوع أو لثقة فيه أو في شخص من الزمرة، رئيسا الجمهوريّة الفرنسيّة ميتران أو شيراك).

- تظهر كمبدأ من التمثيل أو كوسيلة للدفاع عن مشروع جماعيّ (السلطة يجسدها شخص، ميتران = الحزب الاشتراكيّ).

- تتماهى مع البحث عن مظهر أو شهرة.

- تظهر الخلط بين ما هو عام وخاص، واتِّباع أيديولوجيا إماطة اللّثام (Sennett)، والأصالة التي تكرِه الرجل السياسيّ على إرخاء المراقبة الذاتيّة ومرافقة انطواء المواطنين على خصوصيّتهم (Le Grignou et Neveu, 1993, Neveu, 1992).

- ترد على التحوّلات العميقة في علاقة الحكام بالمحكومين، فمع هذه النقطة الأخيرة يَكُفّ تأويل الظاهرة عن أن يكون نقديًا. فالأنموذج الجمهوريّ الذي يعيش أزمة يُنظر إليه كأنه ينمو تحت إكراه اجتماعيّ بفكرة أن الديموقراطيّة لا توجد في المؤسسات فحسب، بل توجد أيضًا في ما نصوغه عبر مفهومي الرأي والجمهور، فأمام تراجع الأيديولوجيات الكبرى وتزايد مطالب الأشخاص من المؤسسات، يجب على الساسة اقتراح وجه أكثر إنسانيّة، وتقديم علامات التقرّب من الناخبين، والتخلّي عن الهوية التكنوقراطيّة الباردة، فالواجهة غير الشخصيّة تخفي سيطرتهم الحقيقيّة والتعسفيّة على القرارات التي

t.me/ktabpdf مكتبة

تكون شخصيّة تمامًا في بعض الأحيان، ففي مجتمع يتسم بضغط الجمهور وتعقد الرهانات بالنسبة إلى المنتخَبين المكلّفين بحلّ المشاكل وتمثيل السكان غير المتجانسين وذوي المصالح المختلفة والمتعارضة، يمكن النزعة الشخصيّة أن تَظهر للجمهور كوسيلة لتقدير المنتخَبين والحكم عليهم. انطلاقًا من أي مبادئ؟ من أن القدرة على مواجهة غير المتوقع وإدارة التعقد والبرهان على وجود استقلال ذاتيّ حقيقيّ، تتجلى بكُلّ وضوح، فالصورة أصبحت «مسلكًا يختزل البحث المكلف عن الإعلام»، وفق ما ذهب إليه برنار مانن (Manin, 1995). هذه الرؤية «السقراطيّة الجديدة» (الأفراد يقررون انطلاقًا من حجج «الإغراء» والحجج «العقلانيّة») تعطي بُعدًا اجتماعيًّا لمبدأ الشرعيّة في الديموقراطيّة وتحيل إلى دراسة الجمهور وموقفه في اختيار ممثليه: إن المواطن الجيّد مثل المنتخَب الجيّد، يجب ألا يَكُفّ عن الانشغال بنتائج أفعاله والتزاماته. وبهذا الحد، فإن غالبيّة الساسة قادرون على إخفاء عواطفهم على رغم الضرورة المفترضة، ما يعني أن إدارة ما هو سياسيّ حميمي لا يلغي تسيير ما هو سياسيّ أكثر «كلاسيكيّة».

المراجع:

AKOUN André, *La Communication démocratique et son destin*, PUF, 1984.

ARENDT Hannah, *Condition de l'homme moderne* (1961), Calmann-Lévy, 1993.

ARISTOTE, *Rhétorique*, Le livre de poche, Librairie générale française, 1991.

t.me/ktabpdf مكتبة

BECK Ulrich, *La Société du risque. Sur la voie d'une autre modernité* (1986), Aubier, 2001.

BOYER Alain, VIGNAUX Georges (dir.), «Argumentation et rhétorique», *Hermès*, 15 et 16, 1995.

CARDON Dominique, ««Chère Menie...» Émotions et engagements de l'auditeur de Menie Grégoire», *Réseaux*, 70, 1995.

CASETTI Francesco, ODIN Roger, «De la paléo à la néo-télévision», *Communications*, 51, 1990.

CEFAÏ Daniel, «Qu'est-ce qu'une arène publique? Quelques pistes pour une approche pragmatiste», in CEFAÏ Daniel, JOSEPH Isaac (dir.), *L'Héritage du pragmatisme. Conflits d'urbanité et épreuves de civisme,* Éditions de l'Aube, 2002.

_____, *Phénoménologie et sciences sociales. Alfred Schütz, naissance d'une anthropologie philosophique*, Droz, 1998.

_____, «La construction des problèmes publics. Définitions de situation dans des arènes publiques», *Réseaux*, 75, 1996.

CERTEAU Michel de, *L'Écriture de l'histoire*, Gallimard, 1975.

CHAMBAT Pierre, «Représentation politique et exposition de la personne à la télévision», *in* ION Jacques, PERONI Michel (dir.), *Engagement public et exposition de la personne*, Éditions de l'Aube, 1997.

CHAMBAT Pierre, ERHENBERG Alain, «Les *reality shows*, nouvel âge télévisuel?», *Esprit*, Janvier 1993.

CHARAUDEAU Patrick, GHIGLIONE Rodolphe, *La Parole confisquée. Un genre télévisuel: le talk show*, Dunod, 1997.

CURRAN James, «Rethinking the Media as a Public Sphere», in DAHLGREN Peter, SPARKS Colin (dir.),

t.me/ktabpdf

مكتبة

Communication and Citizenship. Journalism and the Public Sphere, Londres, Routledge, 1991.

DAHLGREN Peter, *Television and the Public Sphere*, Londres, Sage, 1995.

_____, «L'espace public et les médias. Une nouvelle ère» (1991), *Hermès*, 13-14, 1994.

ECO Umberto, «TV: la transparence perdue», in *La Guerre du faux* (1983), Grasset, 1985.

EHRENBERG Alain, *La Fatigue d'être soi. Dépression et société*, Odile Jacob, 1998.

_____, *L'Individu incertain*, Calmann-Lévy, 1995.

_____, *Le Culte de la performance*, Calmann-Lévy, 1991.

ELEY Geoff, «Nations, Publics, and Political Cultures. Placing Habermas in the Nineteenth Century», in CALHOUN Craig (dir.), *Habermas and the Public Sphere*, Cambridge, MIT Press, 1992.

FERRY Jean-Marc, «Les transformations de la publicité politique», *Hermès*, 4, 1989.

FRANÇOIS Bastien, NEVEU Érik (dir.), *Espaces publics mosaïques. Acteurs, arènes et rhétoriques des débats publics contemporains*, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 1999.

FRASER Nancy, *Qu'est-ce que la justice sociale? Reconnaissance et redistribution*, La Découverte, 2005.

_____, «Repenser la sphère publique: une contribution à la critique de la démocratie telle qu'elle existe réellement» (1992), *Hermès*, 31, 2001.

GAMSON William, MODIGLIANI André, «Media Discourse and Public Opinion on Nuclear Power. A Constructionist Approach», *American Journal of Sociology*, 95, 1989.

t.me/ktabpdf

مكتبة

GOLE Nilüfer, «Snapshots of Islamic Modernities», *Daedalus*, 129/1, 2000.

_____, «The gendered nature of the public sphere», *Public Culture*, 10/1, 1997.

HABERMAS Jürgen, *Droit et Démocratie* (1992), Gallimard, 1997.

_____, *Théorie de l'agir communicationnel*, 2 t. (1981), Fayard, 1987.

_____, *L'Espace public. Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise* (1962 puis 1990), Payot, 1993.

HILGARTNER Stephen, BOSK Charles, «The Rise and Fall of Social Problems. A Public Arena Model», *American Journal of sociology*, 94/1, 1988.

HILL Annette, *Reality TV*, Londres, Routledge, 2004.

HILL Annette, PALMER Gareth (dir.), «Big Brother», *Television & New Media*, 3/3, 2002.

HIRSCHMAN Albert, *Défection et prise de parole. Théorie et application* (1970), Fayard, 1995.

KANT Emmanuel, «Idée d'une histoire universelle au point de vue cosmopolitique» et «Réponse à la question qu'est-ce que les Lumières», in *Œuvres philosophiques* (Gallimard) «La Pléiade», t. 2, 1985.

JEANNENEY Jean-Noël, SAUVAGE Monique, *Télévision, nouvelle mémoire. Les magazines de grand reportage*, Seuil, 1982.

KAUFMANN Jean-Claude, *Ego. Pour une sociologie de l'individu*, Nathan, 2001.

_____, «Voyeurisme ou mutation anthropologique?», *Le Monde*, 11 mai 2001.

LASCH Christopher, *Le Complexe de Narcisse. La nouvelle sensibilité américaine* (1979), Robert Laffont, 1981.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LE GRIGNOU Brigitte, NEVEU Érik, «Intimités publiques. Les dynamiques de la politique à la télévision», *Revue française de science politique*, 43/6, 1993.

LIEBES Tamar, «Serais-je belle, serais-je riche? Images culturelles de la réussite chez les adolescentes», *Réseaux*, 98, 1999.

LIVINGSTONE Sonia, LUNT Peter, «Se faire entendre dans l'espace public. Les femmes, la télévision et le citoyen-téléspectateur», *Réseaux*, 63, 1994.

_____, *Talk on Television. Audience Participation and Public Debate*, Londres, Routledge, 1994.

LOCHARD Guy, BOYER Henri, *Notre écran quotidien*, Dunod, 1995.

LOCHARD Guy, SOULEZ Guillaume (dir.), «La téléréalité, un débat mondial», *MédiaMorphoses*, Hors série, 2003.

MACÉ Éric, «La télévision du pauvre. Sociologie du «public participant»: une relation «enchantée» à la télévision», *Hermès*, 11-12, 1992.

MACÉ Éric, PERALVA Angela, *Médias et violences urbaines, Débats politiques et construction journalistique*, La documentation Française, 2002.

MAIGRET Éric, «Strange *grandit avec moi*. Sentimentalité et masculinité chez les lecteurs de bandes dessinées de super-héros», *Réseaux*, 70, 1995.

MANIN Bernard, *Principes du gouvernement représentatif*, Calmann-Lévy, 1995.

MEHL Dominique, «La télévision relationnelle», *Cahiers internationaux de sociologie*, CXII, 2002.

_____, «Loft Story. La fracture culturelle», SOFRES-L'état de l'opinion, Seuil, 2002.

_____, *La Télévision de l'intimité*, Seuil, 1996.

t.me/ktabpdf

مكتبة

MENGER Pierre-Michel, «Temporalité et différences inter-individuelles. L'analyse de l'action en sociologie et en économie», *Revue française de sociologie*, XXX/VIII, 1997.

MERLIN Hélène, *Public et littérature au XVII^e^ siècle*, Les Belles Lettres, 1994.

MEYROWITZ Joshua, *No Sense of Place. The Impact of Electronic Media on Social Behaviour*, New York, Oxford University Press, 1985.

MURRAY Susan, OUELLETTE Laurie (dir.), *Reality TV. Remaking Television Culture*, New York, New York University Press, 2004.

NEVEU Érik, «Le spectre, les masques et la plume», *Mots*, 32, 1992.

PAILLIART Isabelle (dir.), *L'Espace public et l'emprise de la communication*, Grenoble, PUG, 1995.

PASQUIER Dominique (dir.), «Télévision et débat social», *Réseaux*, 63, 1994.

QUÉRÉ Louis, «L'espace public: de la théorie politique à la métathéorie sociologique», *Quaderni*, 18, 1992.

SCHUDSON Michael, «Why Conversation is Not the Soul of Democracy», *Critical Studies in Mass Communication*, 14, 1997.

SENNETT Richard, *Les Tyrannies de l'intimité* (1974), Seuil, 1979.

THOMPSON John B., *The Media and Modernity. A Social Theory of the Media*, Cambridge, Polity, 1995.

_____, *Ideology and Modern Culture. Critical Social Theory in the Era of Mass* (1991), Cambridge, Polity, 1995.

VIGNAUX Georges, *L'Argumentation. Essai d'une logique discursive*, Genève, Droz, 1976.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الفصل الخامس عشر

السوسيولوجيا الجديدة للميديا
تفكُّر وتجربة ووساطة

لقد حاول هذا الكتاب أن يعيّن بروز سوسيولوجيا الاتصال ويصوغ مراحلها المفهوميّة والعمليّة من خلال دراسة نظريّات الاتصال الأساسيّة ونقدها، وإيجاد الصلات بينها. ويلخص هذا الفصل من الكتاب هذه المقاربة ويمنهجها في زمن التشكيك في العلوم الاجتماعيّة المهدّدة بمشاريعها الخاصّة. بالفعل لم يكن بُدّ مِن الإقرار بأن تطوير مفهوم مثل الفضاء العموميّ يمثل تحديًا للبحث، الذي يحدّد بشكل حادّ موضوعًا اجتماعيًّا وموقفًا طاغيًا، موقف الباحث بتجاوزه الحتميّات التكنولوجيّة والبيولوجيّة واللسانيّة. ولهذه العمليّة الفضل في إبراز فضاء التفاعلات وجعل المعنى متوقفًا على العلاقات الإنسانيّة، لكنها تدفع بالمقابل ثمن استظهار النشاط العلميّ عبر بصمات الباحث الذاتيّة والمربكة والعنيفة في الغالب: النخبويّة والبؤسيّة، وحاملة إرادة الهندسة الاجتماعيّة، إلخ. وبوضع مشاركة الجميع على محك ديموقراطيّة المعنى الصعب الذي صيغ ببطء، تتجلى المفأجاة الدائمة لما هو اجتماعيّ، مع الإشارة إلى أن الخطابات والمطالب تأتي من الأسفل والأعلى، وتُغربَل عبر البرامج الأكثر جِديّةً وغير المبالية، فنظريّة الفضاء العموميّ تحطم إطار النزعة

t.me/ktabpdf مكتبة

الاجتماعويّة. وعلى رغم ذلك لم يؤدِّ تجذير هذه المقاربة إلى وضع متقهقر، وضع ما بعد الحداثيّين، لكنه أدى إلى سوسيولوجيا جديدة للميديا تعيد ربط الصلة بجذورها.

الأزمنة الثلاثة لسوسيولوجيا الاتصال

إذا كان من الضروريّ تلخيص مسعى السوسيولوجيا في صيغة ما، فالصيغة التالية هي من الصيغ الأكثر وجاهة: «نزع الطبيعانيّة والتثقيف والتعدديّة». السوسيولوجيا مشروع تاريخيّ مؤسس على رفض النظام الطبيعيّ والمقدّس، فأول ما يقوم به هذا العلم هو تفكيك بديهيّات العالم وسمته الطبيعيّة المزعومة من خلال تعيين وجود واقع ثانٍ. وليست التقنيّة هي التي تنتج العالم الإنسانيّ ولا الحتميّة البيولوجيّة ولا قواعد اللّغة، كما لا يوجد اتجاه لغزو العوالم الماديّة، ولا تجريد عالم البشر، الذي يزعم أنه طاهر، من قدسيّته. وعالم البشر ليس من نوع الطبيعة ذاتها وهو غير متحرّر منها، إنه ببساطة أبعد من ذلك، حيث يخترع قوانينه الخاصّة ويحقّقها، فقراءة أفعال الاتصال على المستوى التقنيّ تعني محو عالم البشر وإخضاعه للسببيّة البسيطة (المحفّز واللّغة)، وأخذ نقاط من خطة ذات أبعاد محدودة لمسارات ذهنيّة معقدة. إن إنجازات السوسيولوجيا تتم على مستوى الزمن الثاني بواسطة تشكيل موضوع (المجتمع) نَصفُه انطلاقًا من مجموعة وظيفيّة أو التحام الأفعال الفرديّة المؤدّية إلى الجماعة (ويمكن إدماجها). إذًا، لقد ظهر ما هو اجتماعيّ كنتاج السلطات والثقافات أي كأنظمة علاقات الهيمنة وأنظمة المعنى التي

t.me/ktabpdf مكتبة

يتم تقاسمها، حيث يُقرأ أحدهم عبر الآخرين، فالميديا هي امتدادات للصراعات ولما يتم اقتسامه رمزيًّا ويُشَكل المجتمعات. إن الانتقال من رؤية متجذرة في الطبيعة وفي البطء والبداهة المفترضة للأشياء، إلى رؤية الثقافة وديناميكيّة العلاقات الاجتماعيّة التي تسأل باستمرار ما هو قائم، وتنير أنموذجين من الاتصال يقودان ضمنيًّا النظريّات. الأنموذج الأول موروث عما هو ديني، ثمّ اقتصاديّ، وتقنيّ، وتحدّده فكرة الإرسـال وتثمين الأبعاد الفضائيّة للمبادلات والتواصل. والأنموذج الثاني يحدّده ما اقترح جيمس كاري (Carey, 1989) تسميته بالمفهوم الطقوسيّ للاتصال، والموروث هو الآخر عمّا هو ديني، لكنه يقترب من مفاهيم التأليف المسرحيّ ويشمل البعد الزمني. فعندما يتواصل البشر في الحلبات المصممة لهذا الغرض، فإنهم يسعون إلى الحصول على الاعتبار، وتأكيد أنهم أعضاء المجموعة ذاتها أو أنّهم لا ينتمون إليها، ويمنحون معنى لهذا التأكيد، ويصوغون شبكات الانتماء والاختلاف المُشَكلة من رموز. ويحضر هذان النموذجان دائمًا في كُلّ مجتمع، بينما يستجيب الأنموذج الثاني بشكل خاص لما هو مجتمع.

تستحضر السوسيولوجيا، وهي مؤسسةٌ، نزْعَ الصفة الطبيعيّة عن العالم إلى وجود عالم مبنيّ ثقافيًّا، وتصطدم في ذلك بالحد التالي: كيف نتحدث عن قواعد العالم الجديد من دون أن نجعله صلبًا ونعطيه قوّةَ ما يفرض نفسه بنفسه؟ إن مهمة السوسيولوجيا تنتهي، في نظر البعض، عند مثل هذه الصعوبة، وتُستنفد في إضفاء الصفة الطبيعيّة على ما هو اجتماعيّ، وفي فكرة العالم المغلق من دون أي

t.me/ktabpdf مكتبة

منفذ، وفي آلة إنتاج الهويّات والاختلافات وإعادة إنتاجها أي ما نسميه النزعة الاجتماعويّة.

لقد صارع النسويّون بشدة هذا الاتجاه انطلاقًا من قضية الجندر، وتصدى له الباحثون المهتمون بموضوع الأمة والعولمة. فهؤلاء الباحثون والنسويّون يلومون السوسيولوجيا لأنها تشكلت في عصر بلغ فيه تأثير الأطر الوطنيّة والأبويّة ذروته، وبَلوَرت في مفاهيمها ما هو غير مفكَّر فيه إبان هذا العصر. قد تم تصور ما هو اجتماعيّ كعلبة كبرى ممثّلة في الأمة وتحتوي على علب صغرى تجسدها الجماعات العرقيّة أو المجموعات المهنيّة، مثل الدمى الروسيّة، وكُلّ هذه العلب مغلقة بإحكام. إن الهُوِيّة الاجتماعيّة تستند إلى فكرة أن ننتمي أو لا ننتمي، وإن الكُلّ يذوب في مسار الاختلاف والاندماج في أفق النزعة الذكوريّة الواثقة من نفسها التي تجسد الاستقرار والإيجابيّة، وأفق الأمة ذات المرجع الطبيعيّ جدًّا. لقد شمل نقد مؤلفي «الدراسات الثقافيّة» ضرورة محو تخصص يُصَلّب الممارسات ويفرض عليها انضباطا تعسفيًّا، وأول ما يُستهدف هو الوظيفيّة الأنغلوساكسونيّة ونظريّات **الاختيار العقلانيّ** (rational choice) (تبعًا لملاحظات ستيوارت هول، انظر على وجه الخصوص نصوص Morley, 1996, Morley et Robins, 1995, و Stratton et Ang, 1996, وكذا Lash et Urry, 1987، و Urry, 2000، والنقد الأكثر ثباتًا الذي قدمه سبيفاك). والزمن الثالث للسوسيولوجيا يكون زمن زوالها، وزمن الدراسات الثقافيّة الأكثر اهتمامًا بما هو خصوصيّ، والأكثر سخاءً تجاه الكائنات، يكون حفل تأبينها.

t.me/ktabpdf مكتبة

العبر وطنيّ وما بعد النوع كمنعطفات اتصاليّة

شكّل نقد مفهومَي الأمة والنوع محورًا من محاور احتجاج العلوم الاجتماعيّة «الكلاسيكيّة» المتأسسة على فكرة الانغلاق التي لا تأخذ بالاعتبار ميلاد فضاءات عامّة ذات مزيد من التغير والتّفكّر. إن حدود المقولات الهويّاتيّة وإرادة تجاوزها هي قرينة منعطف تواصليّ لتخصصات ما هو اجتماعيّ لا يقصد بها التبادل كتراسل بين كيانين ثابتين لكن كإنتاج للاختلافات داخل فضاء مشترك.

تظهر العولمة التي درسها مبكرًا الأنثروبولوجي الهندو - أميركيّ أرجون أبادوراي (Arjun Appadurai)، تعقُّدَ الهويّات المعاصرة، التي أصبحت تستند أقلّ فأقلّ إلى الانتماء لنظام سياسيّ ومخيال بسيطين وحصريين. وتعدُّد التدفق بين الأمم، سواء تَشكل هذا التدفق من أفراد («مشاهد عرقيّة» ethnoscapes في مفردات أبادوراي اللغويّة) أو تكنولوجيات («مشاهد تقنيّة» technoscapes) أو سلع وخدمات («مشاهد المال» financescapes) أو إعلام («مشاهد الميديا» mediascapes) أو أيديولوجيا («مشاهد فكريّة» ideoscapes)، يمنع التفكير في العالم الأنموذج المتجانس أو المقاوم، بذريعة وجود سيطرة أميركيّة. يطرح أبادوراي مصطلح «النزعة الأهليّة» (indigénisation) في الممارسات، مثلما يتحدث رولاند روبرتسون (Robertson, 1992) عن «النزعة التي يتداخل فيها المحليّ بالمعولم» (glocalisation)، وأولف هانرز (Hannerz, 1991, 1996) عن «التهجين»: يوجد مزج الثقافات مع عدم التناظر في العلاقات، ففي الواقع ليست الولايات المتحدة الأميركيّة سببًا في

t.me/ktabpdf مكتبة

وجود العولمة، بل هي فاعل قويّ فيها يعتمل من الداخل بواسطة هذه الحركة، التي ترى أن الأقليّات والسكان الفقراء وأبناء المستعمرات السابقة يساهمون بقوة في تغيير العالم. إن أحداث 11 أيلول (سبتمبر) جاءت لتؤكد بقوة طروحات أبادوراي القائمة على فكرة التفاعل الثقافيّ الشامل والتدفقات الفاصلة، فالإرهاب الإسلامي هو مقاومة للعولمة التي تجرّ إلى عولمة: لا يمكن أن ننفلت من الكوسموبوليتيّة (Beck, 2006) التي يمكن النظر إليها كعمليّة بناء مشترك غربيّ / غير غربيّ، وكإنتاج مترابط بين الإرهابيّين ووسائل الإعلام. من وجهة نظر الصورة الإخباريّة (وسائل الإعلام تندّد بالأحداث لكن لا يمكن أن توجد هذه الأحداث من دون وسائل الإعلام، (Dayan, 2006) ما يجعلها في موضع شك أخلاقيّ وهويّاتيّ. Zelizer, Allan, 2002, Calhoun, Price, Timmer, 2002)، وعلى أرضيّة التلقّي المتباينة في مختلف المجموعات الثقافيّة والوطنيّة. إن دراسات ما بعد الكولونياليّة والدراسات عن الطبيعة العائمة للهويّات الوطنيّة، وجدت استمراريّتها في البحوث عن الميديا المتسمة بخصوصيّتها، والتي تجري في سياق معولم، بخاصّة تلك التي قام بها كيفن روبنز (Kevin Robins) وتناولت مساكنة التدفق الإعلاميّ، الوطنيّ والدوليّ، في التلفزيون التركي وممارسات العائلات ذات الأصول التركية (Aksoy, Robins, 2000, Robins, 2001, Morley et Robins, 1995).

إن إشكاليّة تكوين هويّة أوروبية يُنظر إليها كمساكنة بين الهويّات الوطنيّة وليس اندماجها، تُذكّر أيضًا بالطابع القديم للتفكير العصبي والمتشنج في المرجعيّات الجامدة، فأوروبا ليست موضوعًا، لكنها مشروع ونظام مفتوح وغير حتميّ، بحسب ملاحظات إدغار موران

t.me/ktabpdf مكتبة

(Morin, 1987). مشروع يستند إلى التمرُّن على تعايش الاختلافات (Mercier, 2003, Dacheux, 2003, Wolton, Dacheux, 1999) وفق مبدأ اخْتُبِر في سياقات بلجيكيّة وسويسريّة، وأَكَّدته الهجانات اللاتينيّة (Lochard, Schlesinger, 2000).

إن الهويات ذات الطبيعة الجنسيّة المفكّر فيها بشكل غير ملموس خلال أزمة علم الاجتماع الأولى، اهتزت هي الأخرى تحت ضربات بحوث الحركات النسويّة والمثليّين، التي انشغلت بتفكيك المواقف ذات النزعة الطبيعيّة، فلا توجد ذكورة أو أنوثة كصيغة بديهيّة موروثة عن الطبيعة، بل كبناءات تاريخيّة نسميها «نوعًا» ويكون طابعها المصطنع مُثْبَتًا، وهذا يدلّ على ضرورة الاعتراض على الأنموذج الذكوريّ المهيمن القائم على الفحولة. ففي هذا المقام، تعدّ دراسات ريتشارد داير المطالبة بمراعاة النظرة المثليّة في حقل وسائل الإعلام من الدراسات الأكثر دلالة. إن حركة ما بعد النسويّة المثليّة (التي تمثلها ماري - هيلين بورسييه، 2001، تذهب إلى أبعد مما تقصده البنائيّة المتطرفة في تفكيرها في ما بعد النوع، وهذا انطلاقًا من قراءة جوديث باتلر (Butler, 1990)، لما كتبه ميشال فوكو في مرحلته الثانية). وهذا التفكير لم تقم به الحركات النسويّة في الستينيّات والثمانينيّات، والتي كانت متمسكة بالتنديد بالهيمنة الذكوريّة، ولا حتى الحركة المثليّة الجنسيّة التي تندّد بمعيار الغيريّة الجنسيّة من أجل إثبات الهويّة المثليّة: أن مفهوم النوع يعد عقبة أمام حرية الأشخاص الذين يقومون بممارسات جنسيّة تتجاوز كُلّ تصنيف. وإن لم نفكر في هذه الممارسات بعبارات الانحرافات فإنها تبدو متكاثرة ولا يمكن إرجاعها إلى حالة الهويّات المُطَمْئِنة باستقرارها.

t.me/ktabpdf مكتبة

يُعدّ النقد المسمّى «ما بعد حداثيّ»، والذي ألهم قسمًا من أعضاء «الدراسات الثقافيّة» بمقدار ما فرقهم، أكثر تخريبًا، ففي نظر هذه المجموعة الضبابيّة من المفكرين فلاسفة التفكيكيّة، أمثال دريدا وليوتار وبودريّار، الماركسيّ وعالِم الاجتماع سابقًا، الذين جمعهم استخدام كلمة «ما بعد الحداثة» التي ابتكرت في 1930 وجعلها فريدريك جيمسون[68] (Frederic Jameson) كلمة شعبيّة لاحقًا، يمكن علم الاجتماع أن يكون مندمجًا في مجموعة من المكونات التي تجاوزتها الحداثة المهووسة بالتقنيّة والإيمان الساذج بالتقدم. وخطاب هذا العلم يكون خطاب النظام والهويات ومجموعات المقاصد والغاية التاريخيّة. لكن يبدو أن الكُلّ يتنافس في عالمنا المعاصر على الشهوات الفرديّة المتعددة والمتناقضة لتقويض سلطة الرؤية الإمبرياليّة التي تجعل من العقل قائدًا كونيًا: أن الهويّات تذوب والتاريخ يتلاشى، وغياب الأسس الميتافيزيقيّة يتجلى في وضح النهار، ولا تعوّضها سوى الخطابات التي تطفو من دون مرجعيّة. فهذا الهروب إلى الأمام خارج الميتافيزيقيّة والتقاليد الماركسيّة التي أنكرنا فرضيّاتها وأحلامها بعد اعتناقهما، قد فُكّكَت هي الأخرى، وحُوِّلت إلى تخمينات تثير الكثير من الاعتراض (تشكل أعمال زيغمونت باومان، 1997، مرجعًا في هذا المقام). إن التنديد بالحداثة وسرديّاتها هو

(68) من أجل معرفة تاريخ هذا المفهوم، انظر: بيري أندرسون (Perry Anderson, 1998).

t.me/ktabpdf

مكتبة

سرد «قديم» ومعاصر قام بتحديثه بعض مثقفي نهاية القرن العشرين، الذين لا يتقبّلون أن تتجاوزهم الأحداث وألّا يُعتبروا بمثابة مركز الحياة العامّة وحاملي فكرة العقلانيّة الجماعيّة، والذين يخلطون تجربتهم في العالم بالعالم (أو بغيابه). إن هذا التنديد يرسخ الخوف من التقنيّة ومن خيبة الأمل في العقل، فيُحدث التعارض بينهما بنزعة مثاليّة، ثمّ يرفضهما معًا في حركة تظلّ معاصرة على رغم عدميتها. وبالتأنُّق الجامعيّ، المتذبذب بين التمتع بالاعتقاد بأنه مرجع لكل شيء والمنتشر في وسائل الإعلام مع استحالة قول أي شيء، والرؤية الكابوسيّة لعالم منزوع المعنى على رغم ما يمنحه من وحدة تاريخيّة جوهريّة، نكون ولجنا عالم «ما بعد الحداثة». فهذا الخطاب لا يُعدّ جديدًا قط بالنظر إلى نواحٍ مختلفة، إنه مرتبط بالفلسفات الحيوية(*) والتشاؤميّة التي سادت في القرن التاسع عشر. بيد أن التحذير العلميّ الذي يتضمّنه يجب أن يؤخذ مأخذَ الجِدّ، بعيدًا عن بنائيّة أصبحت فوضويّة وتعسفيّة، وأن يُستخدم حافزًا للسوسيولوجيا. وبالسخرية من الطموح في توحيد الدوافع والتوجّهات الفرديّة والجماعيّة، يقترح هذا الخطاب هدم أسطورة الموضوع وتحطيم صلابة الفاعل المنسجم كثيرًا في العلوم الاجتماعيّة (لمصلحة رؤية للحداثة «السائلة» وفق ما جاء به باومان، 2000).

(*) (philosophies vitalistes) مذهب فلسفيّ يعتقد أن الكائنات الحية تختلف عن الكائنات غير الحية، لأنها تتضمن عناصر غير ماديّة لا توجد في الأشياء الماديّة. وقد أثار هذا المذهب نقاشًا حول الأمور الطبيّة أي كيفية التعامل مع جسم الإنسان.

مكتبة t.me/ktabpdf

العودة إلى الآباء المؤسسين: منعطف التفكير الانعكاسيّ

وجد التحدي الذي وُجِّه إلى السوسيولوجيا إجابته في العودة إلى الآباء المؤسسين الذين خلط ما بعد الحداثيّين بينهم خلطًا كبيرًا، وفي معاينة أن النقد لا يفكّك هذا التخصص، بل هو بالعكس يغذّيه. لقد رأينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب أن انطلاقة العلوم الاجتماعيّة لم تتمركز حول نواة فكريّة واحدة، كما رأينا أن وجود انقسام بين أوروبا والولايات المتحدة الأميركيّة حول السؤال الخاص بتحديد الخبرة الاجتماعيّة والحداثة أثّر على تقويم مساهمة الاتصال الجماهيريّ. لقد تمَّت مأسسة العلوم الاجتماعيّة على ضفتي المحيط الأطلسي باتباع خط عقلانيّ في الغالب، فتم تكلّس المعارف بالمفاهيم التطبيقيّة. لقد روت الوظيفيّة، والنظريّة النقديّة، وسوسيولوجيا الحقول(*)، والنزعة الثقافيّة، كُلٌّ بحسب طريقتها، استخراج ما هو اجتماعيّ مما هو طبيعيّ، مع تسييج هذا الأخير. إن مراعاة عدم استقرار الممارسات والابتكارات الاجتماعيّة كانت حاضرة منذ بداية العلوم الاجتماعيّة، وظلّت تؤثر في أفكار القرن

(*) سوسيولوجيا الحقول: استعمل المؤلف هذا المفهوم بالمعنى الذي صاغه بيار بورديو، إذ يراه عنصرًا أساسيًّا لأنموذج نظري متناغم يجب أن يضبط كلّما تجدد استخدامه، لأن معناه غير محدد بشكل تام ونهائيّ. ويقصد به كل جزء من الفضاء الاجتماعيّ الذي حقق مقدارًا من الاستقلاليّة ليعيد إنتاج ذاته. إنه بعبارة أخرى استقلاليّته الذاتيّة وامتلاكه قدرة داخلية تمكّنه من التقيد بمبدأ الاختلاف عن الحقول الأخرى، والتنظيم الذاتيّ. انظر:

Bourdieu Pierre, *Les règles de l'art. Genèse et structure du champ littéraire*, Paris, Seuil, «Libre examen», 1992, p 93.

العشرين، فإعادة القراءة المعمقة للكتب الكلاسيكيّة التي قام بها هانز يُواس (**إبداع التدبير** *La Créativité de l'agir*، 1992) تظهر إلى أي مدى يستخدم المؤلفون الملتزمون من دون كلَل برُؤى الحتميّات، واستعارات الابتكارات (الثورة لدى ماركس) والأسئلة غير اليقينيّة (الابتكار لدى دوركايم) حتّى لا يغلقوا نماذجهم على أنفسهم.

الفعل الاجتماعيّ لدى فيبر بحسب يُواس:
الكاريزما بصفتها عنصر إنتاج حاويًا

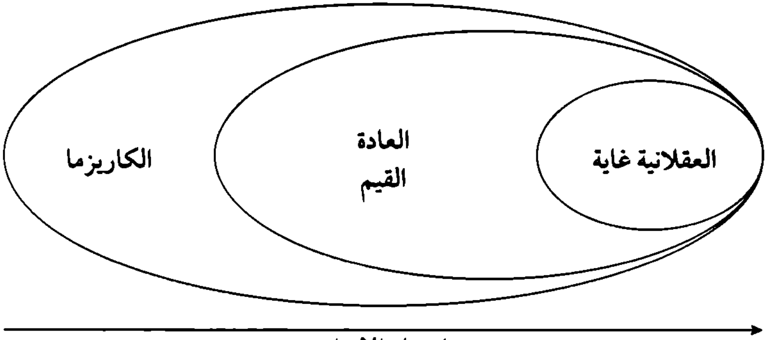

يبتعد هانز يُواس عن القراءة الهابرماسيّة لماكس فيبر، فيصف مراحل العقلانيّة المتقدمة أكثر فأكثر، مستخرجًا النُّصوص الخاصّة بكاريزما وشكوك مؤلف يضع في هذه الفئة كُلَّ من لا يندرج في مخطط العقلنة التي تبدو له تجدّدًا للحياة الجماعيّة، فماكس فيبر يوحي بأن ما هو اجتماعيّ لا يُختزل في القيّم ولا في الحركات التي تهدّد بنزعتها غير الشخصيّة، من دون التوصل إلى العثور على الإجراء الأمثل، لأنه يُشبّه الكاريزما بالقوى الغيبيّة للإشعاع الشخصيّ. إن البحوث عن

t.me/ktabpdf مكتبة

الميديا مدّدت هذه المقاربة بطريقتها عندما عيّنت الكثير من التناقضات، وعـدّدت مستويات القراءة وأفعال المبرمجين والجمهور، وطورت النقاش الأخير حول مفهوم الفضاء العموميّ الذي طُرح في البداية بعبارات العقلانيّة مع هابرماس، ثمّ أُثريَ بمنطق تعدديّة الأصوات.

لقد جعل بعض الكُتّاب، الذين اعتُبروا أقليّة لمُدّة طويلة، من الفعل المركَّب والمعقَّد منطلقًا لتفكيرهم، فكان جورج زيمّل أول من رأى أن نزع مبدأ الديناميكيّة المتناقضة من العالم الطبيعيّ لا يحلّ أي جدليّة. إن القدرة على التجريد الإنسانيّ تثير الانقسام بين عالم مموضع، أي تم تحويله إلى موضوعيّ، والبيئة والواقع النفسانيّ، واقع الفرد المفكر الذي لم يؤدِّ إلى حصيلة رفيعة تنهي مسارًا تاريخيًّا ولم يُفضِ إلى معضلة الفصل الخطير بين اتجاهين متعارضين ومستقلين ذاتيًّا (الماديّة ضد المثاليّة، والعقلانيّة ضد العالم المعيش). إن الخطأ الوجوديّ وما يفرزه من لعب حاضران في كُلّ لحظة، لكنهما تفاقما فقط في حداثتنا التي عزّزت التنوّع في الحالات الموضوعيّة والذاتيّة، وذلك باختيارهما إمكانات التغريب عبر تداول النقود، والتمركز الحضريّ والفكْرَنة الرياضيّة للوجود. إن البشر يختبرون ذاتهم تارة كأشياء خارجيّة، وطورًا كمصادر للمعنى. إنهم يستخدمون ملكاتهم في التشظي إلى ما لانهاية، إلى أجزاء، من أجل إعادة بناء ذاتهم بواسطة الأدوار التي يتقمصونها من دون أن يتمكنوا من أن يتماهوا فيها بشكل جيّد. وخلافًا لأغلب الكُتّاب الأوروبيّين، لا يستنبط جورج زيمّل أي ضعف أنطولوجيّ لغليان الحداثة، ولا أي تشاؤم، وإن كان يعتبر الحياة المعاصرة مُنْهِكة، بسبب العديد من الطلبات المتناقضة والمتواصلة من دون انقطاع، فإن

وُجدت «مأساة الثقافة»، فهي ثقافة لا تتطابق وتتزامن مع الشخص ذاته ولا تقضي على التوتّر بين أن يكون المرء فاعلًا وموضوعًا، فهي ثقافة أصيلة ودائمة، ومصدر للحياة الإنسانيّة. فالتعارض مع البارادیغم النقديّ الذي يتطوّر لاحقًا أمر بديهيّ، والاغتراب الذي عيّنه أدورنو في الثقافة الإعلاميّة لا وجود له، أو أنه حاضر في كُلّ الأبعاد الفنيّة، وحتّى الإنسانيّة: إنه يصف إجرائيًّا العلاقة بالثقافة، بالمعنى الواسع أي العلاقة غير القائمة على الانخراط الدائم. ويعتبر زيمّل أنه من الأفضل أن نعوض «الموضعة» (أي إضفاء الموضوعيّة) بـ«الاغتراب»، حتى نسحب منه حمولته المعياريّة، فيمكن الحياة أن تكون بهيجة أكثر منها مؤلمة. إن توضيح هذه الاتجاهات والاتجاهات المضادة الذاتيّة، قامت به دراسات كثيرة عن الفن خانت الميل إلى استجمال السوسيولوجيا لدى الكاتب على رغم أنه لا يُختزل فيها.

بتقديم موضوع متنازع عليه بشكل أساسيّ، وتم إنشاؤه باستخراج الدواخل بواسطة الموضعة التي تسمح لـ«الأنا» بالخروج منه والعودة إليه، وأن يواجه المواضيع الأخـرى من دون أن يفلح التصلب التدريجيّ الذي صاغ ما هو اجتماعيّ في استعادته نهائيًّا، تؤسس هذه الفكرة البارادیغم الذي نشرها وقام العديد من الباحثين بمفصلته حول مفاهيم التفكُّر، والتجربة والوساطة. إن التفكُّر يولد من النأي عن الأدوار التي تم القيام بها. والتجربة تعيّن المسار الذي تتم بموجبه التنشئة الاجتماعيّة التي صنعها التفكير المتنقل من الذّات إلى الأدوار، والعكس. والوساطة تؤكد الجهد المتواصل في إقامة علاقة ضروريّة بين المواضيع والفاعلين من خلال إحداث الاستقرار في «الأشكال

t.me/ktabpdf مكتبة

الاجتماعيّة» وتثبيتها، فالأفراد ينخرطون في التفاعل ويكتشفون أنه مبنًى لكن «الأشكال» التي يخضعون لها وهي منتجات مجسدة في التفاعل، ويمكن أن تتشكل وتتلاشى مرارًا وتكرارًا. نجد هذه العناصر حاضرة لدى غوفمان، الذي لا يُعتبر مجرد عالم أنثربولوجي وبنيويّ انصرف إلى البحث عن متغيّرات وضعيّة التفاعل فقط، بحسب التأويل الذي قام به دانيلو مارتوتشيلي (Martuccelli, 1999)، بل إنه مفكر الحداثة التفكريّة أيضًا، المسكون بـ«صعوبة التفاعل في مجتمع ديموقراطيّ مساواتيّ». فالأشخاص يتسمون اليوم، على وجه الخصوص، بالتقيّد ببعض الهامش الذي يسمح لهم بالنظر لأدوارهم الاجتماعيّة بخضوعهم لمتطلبات المساواة المفترضة مع الآخرين، فيعتقدون أنّهم «أحرار معًا» (François de Singly, 2000). ويجب على الأفراد أن يسعوا جاهدين إلى تنظيم هويّتهم ويضبطوا عرض ذاتهم للحفاظ على الانسجام والتفاعلات التي أصبحت متعددة وأكثر هشاشة بمقدار ضعف التقاليد، فكُلّ شخص يسعى جاهدًا إلى الانخراط في «أطر» الفعل الجماعيّ (وهي العبارة المفضلة عن «الأشكال الاجتماعيّة»)، وأهمّها ذاك المرتبط بديمومة الهوية الفرديّة، وبالهمس المنتظم في «الكواليس»، والأماكن التي يكون فيها إدراك الذّات والغير أقلّ حدة.

قامت النظريّات البنيويّة والنسقيّة، هي الأخرى، منذ عدة عقود، بمفاوضة المنعطف الإبداعيّ للتدبير. لقد رسخت نظريّة آلان تورين للإنتاج الذاتيّ للمجتمع والتي شرع في صياغتها خلال سبعينيّات القرن الماضي في أفق تطوّري، وأخذت تدريجيًّا شكل سوسيولوجيا

t.me/ktabpdf مكتبة

الفاعل، الرافض أي تسييج لما هو اجتماعيّ. ويوجد شيء من عدم التصالح في تأكيد الفاعل، وفي التوتّر بين «الأنا» الذاتيّ و«الذّات» الموضوعيّة والذي يترجم بالألم أو بكبرياء الأشخاص، وأيضًا بوجود صراع دائم على مستوى المجموعات. وتفهم المجتمعات المعاصرة أنها تخترع مقولاتها أكثر ممّا تكتشفها جاهزة، وتجعل ممّا هو سياسيّ يُعاد تشكيله باستمرار، فضاءً لظهور المعايير ومواجهتها وظهور ما هو عادل وما هو ظالم. إن النزاع الجماعيّ تعبير عن فجوة وجوديّة، وشرط للفعل الديموقراطيّ ومخرج له، وليس ممرًّا إجباريًّا يؤدي إلى الإجماع. ويميل آلان تورين إلى الحد من أهداف بحوثه، لتمسكه أوّلًا بالحركات الاجتماعيّة أكثر من اهتمامه بالظواهر الميكروسياسيّة، وولوجه السجلّات الوجوديّة والوظيفيّة المتعارضة التي عفّ عنها الزمن، على رغم دعوته إلى تجاوزها (اقرأ في هذا المقام أيضًا دانيلو مارتوتشيلي). لكنه يظلّ من ضمن الأوائل الذين طرحوا فكرة أن الاتصال يخلق عالمًا مشتركًا من دون أن يؤدي إلى خلط الكائنات المتغيّرة باستمرار: النزاع شرط لإمكان التبادل وليس شرطًا مسبقًا مزعجًا أو نتيجة غير مرتقبة. لقد صاغ عالم الاجتماع البريطانيّ أنطوني غيدنز في مؤلَّفيه **تأسيس المجتمع** (*La Constitution de la société*) (1984)، و**الحداثة والهويّة الذاتيّة** (*Modernity and Self-Identity*) (1991)، نظريّة تأسيس ما هو اجتماعيّ، فاقترب من البنيويّة التكوينيّة لبيار بورديو، بإرادته التي لم تفصل المستويات الماكروسوسيولوجية والميكروسوسيولوجيّة، فالبنية هي مصدر، أو لوحة للمصادر والأفعال ونتيجة لها في آن، مُلحًّا على القدرات المقلقة للتّفكّر. ويمكن

t.me/ktabpdf مكتبة

الأشخاص العودة دائمًا إلى أثرهم، وأن يبادروا بذلك بأنفسهم حتّى من دون وعي. وهذه القدرة لا تُظهِر أبدًا وجودًا خارجًا عما هو اجتماعيّ (خلافًا لجورج زيمّل، الذي يتصور بشكل جذريّ أكثر، الذّاتَ خارج التنشئة الاجتماعيّة). لكن الجهد المتواصل لما هو اجتماعيّ لإعادة إنتاج ذاته يخفق في بعض الأحيان في إعادة الإنتاج: لا تتحرك البنيات بطريقة خارجيّة بل تتشكل بطريقة باطنيّة. وينقل أنطوني غيدنز مسألة التفكّر إلى مستوى التعارض بين المجتمعات التقليديّة المشبعة بروتين الاتصال وجهًا لوجه وبتقارب الأشخاص، ويركّز على الفضاء الذي يُحسب الوقت انطلاقًا منه، وعلى المجتمعات الحديثة التي ابتكرت وسائل التواصل عبر المسافات البعيدة، وعمّمت الانتقال والتجريد الذي يفصل الزمن عن الفضاء (انظر أيضًا: Thompson, 1995). إن عصرنا ليس عرضة للتّفكّر بشكل جوهريّ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العصور السالفة، مثلما يعتقد المابعد حداثيّون، لكن خطوط التفكّر بديهيّة ظاهراتيًا وأكثر حسمًا. والعلاقات المعاصرة تواصليّة أكثر فأكثر، إنها تستند إلى زمن خطّي ومشترك على الصعيد العالميّ أي زمن النزوح من الموطن المحليّ إلى العولمة. ويسعى الأفراد إلى تنسيق الأفعال عن بعد، وذلك عبر إقامة علاقات الثقة، في مخطط مثل ذاك الذي وضعه زيمّل أو غوفمان لكنه طُبّق على التّفكّر في البنية. وبالمعنى المعاكس، فإن الأفراد يعيّنون أفعالهم بابتكار تقاليد صغيرة والانخراط في منعرجات التجارب النفسيّة، والتفكُّر في الذَّات.

لقد ظلّ باراديغم الفعل المترّوي أو الإبداعيّ، كما سمّاه هانز يُواس، يطارد السوسيولوجيا الأوروبيّة منذ تشكلها، ووجد صياغة

t.me/ktabpdf مكتبة

قويّة في النزعة التداوليّة الأميركيّة. إن مخطط بيرس الثلاثيّ(*) يشدّد على التجربة الجماعيّة الأساسيّة والاستطراديّة في إنتاج المعرفة (التوسع نحو الثالثانيّة) وإن كان يوحي ببقايا النزعة العلمويّة بأن المعرفة تتمثل في الرجوع إلى الأولانيـة[69]. لقد أكّد جورج ميد هذه الرؤية التواصليّة للفعل بإبراز الفرد مبدئيًا بصفته كائنًا في صيغة الجمع، إذ إنه قدم حصيلة التطلعات المتعدّدة التي تؤثر عليه والتي تجعله يتبنى أدوارًا تسمح له بالعودة إلى ذاته ويشكل مع غيره موضوعًا ثابتًا ومستقرًا. وهكذا، فإن الجسد هو مقر الإبداع الذي لا يُعدّ أداة بسيطة لكنه موقع للنزعة الاجتماعيّة البدائيّة، «ذو علاقة اجتماعيّة سابقة لكُلّ قصديّة واعية» (يُواس)، فبالنسبة إلى ديوي، إن التبعات الشاملة لتجاوز قواعد اللعبة الدائم هي التي تُفحص. ويرى هذا الفيلسوف أن المنطق الإنسانيّ يتجاوز إنتاج المعايير ويتعدى العلاقة بين الوسائل والغايات، فأفق هذا المنطق يكمن في مواجهة المشاريع غير المحدّدة والوضعيّات التي تتداخل فيها الوسائل والغايات. ومفهوم «الديموقراطيّة الإبداعيّة» الذي دافع عنه الباحث ديوي، يعبّر جيّدًا عن الانزياح نحو نظريّة التبعيّة المتبادلة والمعمّمة التي تفصح فيها تعدديّة الأشخاص والأبعاد الكامنة داخل كُلّ فرد من دون هدف إبرام اتفاق ينهي هذه التعدديّة.

(*) تتدخل الفئات الثلاث التي صاغها تشارلز ساندرز بيرس في عمل العلامة. الفئة الأولى : الأولانية (Priméité)، وتظهر في شكل مجرد أحاسيس، ثم الثانيانيّة (Secondéité)، وتدل على التجسيد الفعليّ والعمليّ لأحاسيس، ثم الثالثانيّة (Tiercéité) ويقصد بها تأويل هذه الأحاسيس.

(69) إن إعادة اكتشاف التداوليّة في الاتصال يمكن أن تحفّز الحديث عن «السيميائيّة الاجتماعيّة»، مثلما فعل جنسن (Jensen, 1995).

مكتبة t.me/ktabpdf

الواقع والمنطق العلميّ بحسب بيرس

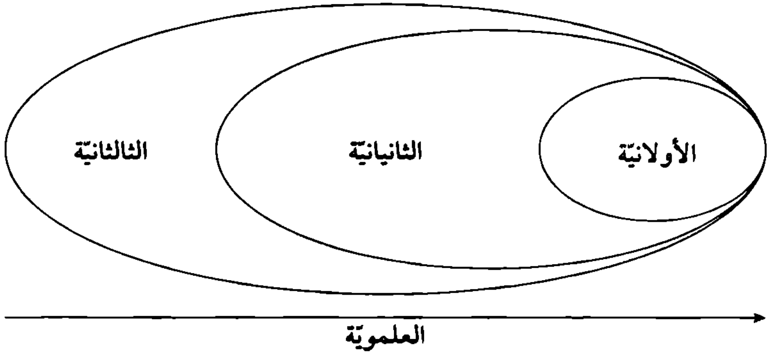

أنواع الفعل الثلاثة في سوسيولوجيا التجربة الإبداعيّة
(ديوي، يُواس)

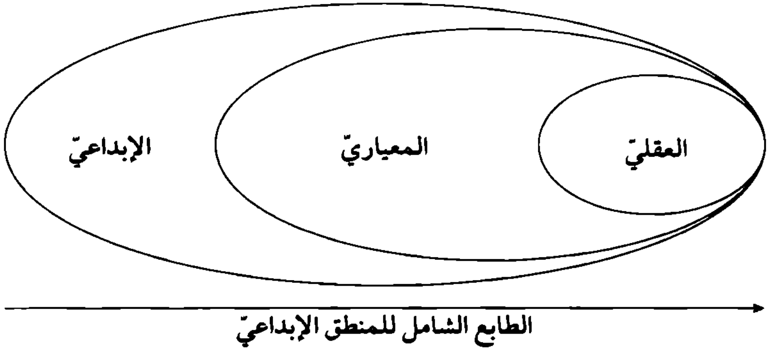

من السوسيولوجيا إلى «الدراسات الثقافيّة»... والعودة

إن كان للصدمة الثقافويّة تبعات صِحيّة تتمثل في إيقاظ هذا الجزء من السوسيولوجيا الذي تحوّلَ نزعةً اجتماعويّة ضاقت بيقينها ومفاهيمها الجامدة، فإنها لا تتناقض مع البحث الذي يكون محركه الشكّ، ولهذا

t.me/ktabpdf مكتبة

السبب يركز بصره على الأشخاص تدريجيًّا، وعلى ترابط العقلانيّة الذي يجعلهم يعيشون عوضًا عن اختزالهم في تأثير البنية أو تحويلهم ذرّاتٍ مُثْلى. لقد تبلورت سوسيولوجيا علم الاجتماع التي لا تعدّ نتائجها أمرًا مفروغًا منه، ولا تعتبر تاريخ هذا التيار العلميّ شفافًا. لقد لاحظ أولريش بيك في كتابه **مجتمع المخاطر** (*La Société du risque*) (1986)، الذي يعد أحد معالم هذا التيار، أن السوسيولوجيا التي تستوطن الحداثة يمكن أن تتماهى مع هذا الشكل الخاص من الحداثة الذي انتصر في القرن التاسع عشر، ويتمثل في التصنيع وتشكيل الأمم والذُّكورة وتكوين الطبقات الاجتماعيّة والفصل بين الفضاءات المتخصصة والتعارض بين الخبراء وعامة الشعب، بينما هذا الشكل من الحداثة -الذي لا يُمْحى - يبدو تدريجيًّا نسبيًّا. لقد تلاشى الاختلاف بين الترفيه والعمل، وبين الخاص والعام، وبين الأنواع، وبين ما هو سياسيّ وغير سياسيّ، وتم التنديد بعصمة العلوم من الخطأ كأسطورة، وعدم المساواة الاجتماعيّة لم يتراجع، لكن الطبقات الاجتماعيّة فقدت معناها أمام متطلبات النزعة الفردانيّة، وبدا لنظام الأمم أنه مرفوض من البُعد الذي اتخذه المَدُّ العابر لحدود البلدان والأمم. ويوضح الوصف المعمّق لهذه التغيّرات التي قام بها أولريش بيك، الانتقال من المجتمع الصناعيّ الحديث الذي يرفض أسطورة تطابق المجتمع على الطبيعة التي أحدثها مفهوم التقاليد الذي خلق تقاليده الخاصّة (الطبقات الاجتماعيّة، الأمم، النوع)، إلى مجتمع حديث تفكريّ يحرر الحداثة الاقتصاديّة من التقاليد برفض مقولاتها التي تحوّلت «أشباحًا» حقيقيّة، وظلّت حاضرة على رغم

t.me/ktabpdf مكتبة

موتها[70]. وإذا أعدنا صياغة تعبير أولريش بيك الذي اختار استكشاف أرضيّة إدراك المخاطر، فيمكن القول إن الأشخاص كانوا في الماضي مصدومين بضربات القدَر التي أرادها الله أو فرضتها الطبيعة، ثمّ صُدِموا بتلك التي فرضتها مظالم النظام الاجتماعيّ، وها هم اليوم يتكبدون الإخفاقات الشخصيّة (من منظور إدراكهم)، فلا يوجد تخريج للأفعال، فهذه الأخيرة تُحيل أوّلًا على ذاتها وعلى تشكلها الجماعيّ ولا ترجع إلى سلطات خارجيّة. وفي هذا الاتجاه توجد وشائج بين تطوّر النزعة الفرديّة التفكريّة والديموقراطيّة التي لا يُفكّر فيها انطلاقًا من المؤسسات فقط. وتتمثّل المرحلة التالية من سوسيولوجيا الفعل في تجاوز ميدان الاستعارات والتناقضات والانتقال إلى التحليل النسقيّ لأسباب الفعل المتعدّد (Lahire, 1998, Schulze, 1992, Singly, 2003)، وإدراج هذا التحليل في نظريّة الديموقراطيّة (Dubet, 1994).

مستويات الواقع الاجتماعيّ الثلاثة بحسب أولريش بيك

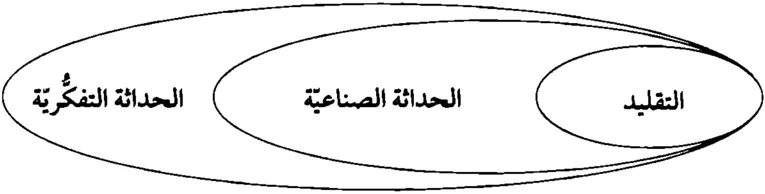

ليس الزمن الثالث للنشاط السوسيولوجيّ زمن الزوال، لكنه ببساطة زمن التعدّد، فحركة النقد، وتجريد الأشياء من سمتها الطبيعيّة ينطبقان على الزمن المذكور. يجب تجريد الثقافة من النزعة الطبيعيّة من أجل

---

(70) العبارة مستقاة من كتاب بيك وبيك-غرنسهايم (Beck, Beck-Gernsheim) (2002)، الفصل 14.

t.me/ktabpdf
مكتبة

إعطاء الكلمة للذين تـمّ إقصاؤهم عندما تشكل «المجتمع» كهيئة للشرح. وتستند هذه الحركة إلى ما يسميه إريك ماسي (Macé, 2002) بـ«البنائيّة النزاعيّة»، التي يكفّ فيها كُلّ واحد عن التفكير في أنه صاحب الكلمة الأخيرة من دون أن يكفّ لسانه عن الكلام (يظلّ الالتزام أحد إجراءات المؤسسة الفكريّة). إن خوض نقاش مثمر يعني أن لكُلّ شخص مواقف مسبقة، لكن يمكن أن تتطوّر تحت ضغط التجربة وبإعادة تعريف الوضعيّة. وعلى النقيض من النسبيّة، فهذا الأمر يفترض وجود معارف عاديّة وعلميّة تَضمَنها المناهج ولا يكون لآثار تركيبها «وجود قبْليّ». لقد قام برونو لاتور بالمحاولات الأولى لتحديد قواعد سير هذا الفضاء العموميّ الجديد في النُّصوص التي خصّها لعلاقات النشاط العلميّ بالنشاط السياسيّ، أو للنشاطات العلمو سياسيّة، لأن الفصل المطلق بين العلم والسياسة أسطورة (أمل الباندورا(*) *L'Espoir de Pandore* وسياسات الطبيعة *Politiques de la nature*، 1999). لقد استبدل برونو لاتور التعارض بين الطبيعة والثقافة بكيان سُمّي بـالجمعي(**) (collectif)

(*) باندورا: كلمة يونانيّة تدل في الأساطير الإغريقية على المرأة التي تملك كل شيء: الجمال، والحب، والرقة، والذكاء والإغراء، والخداع، وقد خُلقت بأمر من زيوس من الماء والتراب للانتقام من بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة ليسلمها إلى الناس.

(**) يرى أصحاب نظرية «الفاعل- الشبكة»، وعلى رأسهم برونو لاتور، أن التفكير في العالم يجب ألّا يتم بمفهوم الجماعات الاجتماعيّة (groupes)، بل من منظور الشبكات بمعناها الدقيق، وليس ذاك المرتبط بشبكة الإنترنت وتطبيقاتها المختلفة، ففي هذه الشبكات تتشكل الجماعات (les collectifs)، التي تعدّ جملة من العلاقات والوساطات التي تحدث تماسك الجميع. انظر:
Bruno Latour: *Changer de société. Refaire de la sociologie*, Traduit de l'anglais par Nicolas Guilhot. Paris, La Découverte, 2006, p. 391.

t.me/ktabpdf مكتبة

يمثل التفاعل بين «البشر» و«غير البشر» داخل فضاء التجربة[71]. فهذا الجمعي يكبر عندما تُطرح كُلّ قضية ذات علاقة بالشأن العام على مقدار ما يظهر من الفاعلين والممارسات والنتائج الجديدة لتغذية النقاش حول هذه القضية. إن «الجدل» يعيّن طريقة توسع ما هو اجتماعيّ، ويتأرجح بين اكتشاف العوالم الممكنة وتشكيل ما هو جمعي من أجل الوصول إلى عالم مشترك. وفي هذا المخطط، يمكن القول إن التواصل لا يظهر كوظيفة فقط أو كمَثَل يجب بلوغه، بل كمسار تحدث بموجبه التعدديّة.

نظريّة الجمْعي لدى برونو لاتور

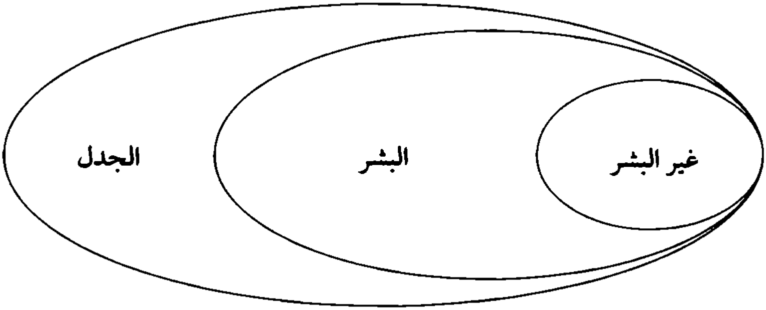

الجمْعي في طور التوسع

---

(71) بحسب برونو لاتور، إننا «لم نكن حداثيين أبدًا»، بمعنى أننا لم نعش أبدًا التعارض بين الطبيعة والثقافة، ما يوحي بأن التعارض بينهما لا أساس له من الصحة. لكن الاختلاف في نظر هذا الكاتب يكمن بين «البشريّ» و«غير البشريّ» عبر فكرة الوساطة ذاتها (أكد في مؤلّفه **سياسات الطبيعة** وجود «واقع خارجيّ»)، وقد بيّن أنه يسعى إلى تجاوز فئة معينة من الحداثة، حداثة القرن العشرين، مع الاحتفاظ بها كأسس. وبهذا المعنى، نحن بصدد مغادرة نصف الحداثة من أجل حداثة تفكّر في ذاتها، كما لاحظ ذلك أولريش بيك، ولسنا بصدد تأسيس أو تمديد عالم غير حداثيّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

يبدو المثقف الذي أضحى هو الآخر متفكّرًا «سخيًّا»[72] ومتراجعًا عن النقد، واثقًا في محاوريه وكافًّا عن اعتبارهم مجرّد مواضيع. إن هذه الحركة تبعده عن ما بعد الحداثيّين، الذين لا يكمن خطؤهم في كونهم يمارسون التفكّر بمقدار كبير ولم يصابوا بالخيبة، بل لأنهم لا يمارسونه بالمقدار الكافي: إنهم ينسون طواعية البُعد الجمعي للعقل ويتفادون التشكيك في فكرهم، ويتجنبون رؤية ذواتهم جزءًا من العالم الذي يحكمون عليه، على الرغم من أنه لا يوجد أي كره أو ما ينذر بخطر عندما نتجنب التفكير في أننا المركز الوحيد للعقل، ففي حقل الاتصال الجماهيريّ والثقافة الشعبيّة يناسب هذا المنعطف المناقشات التي تجري حول سُلّم انخراط الباحث الذي اقترحه كُلّ من باسرون وغرينيون، وحول العدول عن العنف الجامعيّ الذي أشار إليه ميشال دو سارتو. إن هذا العنف المؤسساتيّ المتعلق بتبنّي هذا الاسم بدل ذاك لتعيين ما يقوم به الباحث، يُطرح بكُلّ تأكيد، فهل نظلّ متمسكين بكلمة «سوسيولوجيا»؟ لا نطرح هذا السؤال لتحقيق رضًا مهنيّ بكُلّ تأكيد، ومن أجل تكوين تخصص علميّ بمعنى تقنيّة السيطرة، لكن لا شيء يبدو معارضًا لهذه الكلمة التي نجعلها ديموقراطية ونعدّدها باستخدام كلمة «علوم اجتماعيّة» سوى «الدمقرطة» و«التعدديّة»، اللّتين لا يمكن أن تشيرا إلى تخصص بالمعنى المنطقيّ. إن صرامة المقاربة السوسيولوجيّة التي تعارض «الدراسات الثقافيّة» الفضفاضة والأهميّة التي توليها في الغالب لمسألة العلاقات بين الثقافة والسلطة

---

(72) بحسب الصفة التي نعت بها برونو لاتور أولريش بيك في المقدمة الفرنسية لكتاب (*La Société du risque*).

t.me/ktabpdf

مكتبة

الخالية من الحتميّة والتنديد، جعلا العلوم الاجتماعيّة ترافع لمصلحة العودة إلى التقاليد التي ابتعدت عنها في العقود السابقة وبدأت ترجع إليها في القرن الواحد والعشرين. إن الجيل الثالث من «الدراسات الثقافيّة» البريطانيّة الذي قاده نيك كولدري (Nick Couldry) (من داخل الثقافة. ابتداع منهج للدراسات الثقافيّة *Inside Culture. Reimagining the Method of Cultural Studies,* 2000)، يطالب بمقاربة تفهميّة، مقتديًا بتلك التي تبناها هوغارت ومورلي ورسخت في منهج سوسيولوجيّ حقيقيّ، بعد إعادة اكتشاف العلوم الاجتماعيّة على يد بعض أعضاء التيار الاسترالي (John Frow). لقد حُشد المعجم اللغويّ لسوسيولوجيا الديانات من أجل إدراك الطرق الجديدة للعلاقة بوسائل الاتصال الجماهيريّ، بإرادة تسعى إلى جعل المفاهيم التي استبعدت في بحوث الاتصال في وقت سابق مُنْتِجةً، فاستخدام مفهوم «الطقوس» الدوركايميّ تحت تأثير جيمس كاري، ثمّ دانيال دايان وإليهو كاتز في كتابهما **التلفزيون الاحتفاليّ** (*La Télévision cérémonielle*) (1992)، سمح بالتطرق إلى المواضيع المعقدة، مثل المراسم والاحتفالات (مقتل الرئيس الأميركيّ كينيدي، الألعاب الأولمبية...) والتجارب الإعلاميّة الدوليّة الكبرى التي تُظهر وجود مسار مزدوج، مسار الفردانيّة والمسار المؤسساتيّ على المستوى العالميّ (Liebes, Curran, 1998)، وتمّ توظيف هذا المفهوم في برنامج **الأخ الأكبر** على سبيل المثال (Couldry, 2002)، وفي دراسة معبودي نجوم الإعلام ومشاهيره (Le Guern, 2002)، على الرغم من أن استخدام مفهوم «الطقوس» لا يخلو من الغموض، لأنه في الواقع

t.me/ktabpdf مكتبة

استعاريّ جدًّا، فهذا المفهوم الذي لم يفكَّر فيه تحوّل مفهومًا إشكاليًا حتّى في الدراسات الدينيّة، لأنه ينتمي إلى التحليل السوسيولوجيّ الكلاسيكيّ وإلى عُدة بحثيّة من المستوى الثاني، وبهذا هو غير كافٍ لإدراك حداثة جديدة في طور البناء تنتظر مقولات جديدة.

منهجيّة السوسيولوجيا الجديدة لوسائل الإعلام: سلسلة المعارف

إنّ التداعيات المنهجيّة التي تثيرها العودة إلى السوسيولوجيا التي تراجع الآثار الخاصّة بمأسستها، عديدةٌ وجذريّة. وإذا كانت خاصية العلاقات الإنسانيّة لا تُختزل في التقنيّات ولا في المجموعات المُشَكلة، فيجب الكفّ عن التفكير في الاتصال بما هو توسّط ميديا ممركز أو اجتماعيّ ممركز، والانتقال من فكرة وسائل الإعلام إلى الوساطات وفق الصيغة التي قدمها خيسوس مارتن باربيرو (Martin-Barbero, 1987). لقد قُدمت وسائل الإعلام بوصفها أدوات تنتج تأثيرًا، أو حوامل تخدم التنافس القائم بين المجموعات البشريّة أو وشائج الألفة بينها، فالوساطات تمثل المسارات التي يلتقي بموجبها الفاعلون في تعددهم الداخليّ والخارجيّ وتُحْدِث الاستقرار في ما يسمى بالأدوات التقنيّة وتحديد الوضعيّة والتصورات وتموقعات تلقّي البرامج والمواد الاتصاليّة والثقافيّة. إن التفاعلات المرتبطة بالميديا والمُشَكّلة إياها ليست سوى فروع من الوساطات وإن شكلت هذه الوساطات الفعل التواصليّ (بالمعنى الثالث للتعدّد). ويحدث الترابط المُعَمَّم الذي يمنع الفصل التام بين فاعلي الاتصال، وكأن هناك تقنيّات محضة ونصوصًا متأصلة

مكتبة t.me/ktabpdf

ومنتجين يُفَتّنون الجمهور وجمهورًا منغلقًا على ذاته، فهذه العلاقة المُعَمَّمَة تسمح بشكل أفضل بفهم لماذا تبدو وسائل الإعلام منتجةً آثارًا قويّة في بعض الأحيان (لماذا تبدو الأدوات مجمّعة مع أنها مجزّأة). إنه بالفعل الاندماج ـ الجزئيّ والحركيّ ـ لخصائص العناصر الأخرى، الذي يفسر «سلطة» وسائل الإعلام، مثل فعل الإشهار والتقاء الجمهور بالموسيقى. ويتمثّل الهدف الكبير للتسويق والإعلان، على سبيل المثال، في إدماج تطلعات المستهلكين بالمقدار الكافي وترجمتها مسبقًا في المنتجات، وليس في تعديلها كثيرًا (Hennion et Méadel, 1997). ولا يوجد أيّ معيار مطلق للفاعليّة، لأنه لا وجود قبليًّا لهذه التطلعات إلا نادرًا، ويجب اكتشاف هذه التطلعات بطريقة ديناميكيّة عبر وساطات متتالية. ولا يتأثر بهذا الإشهار سوى الذين يتمنون ذلك، بهذا الشكل أو ذاك، من خلال مسار التبادل المتواصل: إن الإشهار الأنجع هو ذاك القائم على تواضع كبير. ويمكن الموسيقى التي دَرَسها أنطوان هنيون (Hennion, 1993) أن تحظى بنجاح جزئيّ لأنها ليست فاقدة للرابط مع الذين يبتاعونها: يكون الجمهور حاضرًا في استوديو التسجيل عبر شخص المدير الفنيّ، الذي يتصرف بالطريقة التي يتصرف بها الجمهور المتخيَّل. يتناقش الجمهور مع الفنان بشكل ملموس أو متخيّل، على منوال المستهلك الذي يُعَدّ في نظر هوارد بيكر مستهلكًا مجهولًا ومُشتريًا يقع في آخر حلقة المنتَج الفنيّ وشخصًا يتخيّله الفنان في آن واحد. يجب ألّا تقود هذه المَفْهَمَة(*)

(*) المفهمة (la conceptualisation) يُقصد بها تنظيم الأفعال والظواهر في شكل مفاهيم أي إبراز تمثلها الذهنيّ العام والمجرد.

t.me/ktabpdf مكتبة

إلى أسطورة وحدة المجتمعات والتناسب بين العرض والطلب أو ترجمة الأفعال المنسجمة، لأن الأمر ـ على العكس ـ يتطلب إظهار كيف يُبْنى ما هو اجتماعيّ بشكل تدريجيّ، ويُفهم كعالَم مشترك، انطلاقًا من النزاعات والانقطاعات والمفاوضات المتقدمة، بهذا المقدار أو ذاك. ولا يكمن المشكل في التواصل المستمر والمطلق بين الفاعلين، بل يتمثل في غياب تخريج أفعالهم.

إن التجزئة الكلاسيكيّة لبحوث الاتصال تفقد بدورها حصانة نفاذ أي جزء منها إلى الأجزاء الأخرى وفق هذا الباراديغم، وبهذا تُطرح سلسلة من المعرفة المتصلة جزئيًا في قلب النشاط العلميّ. هذا الحدس يقود بحوث السوسيولوجيا الفرنسيّة الجديدة لوسائل الإعلام، التي تسعى جاهدة إلى الاقتراب أكثر من فهم العلاقات بين مختلف مستويات القراءة، محاولة بذلك بجهدِ التوفيقَ بين الشموليّة التدريجيّة للمقاربات البحثيّة والاهتمام بعدم ثبات الممارسات التي تقوِّض كُلّ مسعى لجعلها نظامًا، فمن الممكن أن يتعلق الأمر بتراكم المناهج عبر تطوير دراسات المنظومة التلفزيونيّة، وشبكات التنشئة الاجتماعيّة، والتفاعلات التي تجري بين البرامج التلفزيونيّة والمشاهدين، مثل البحث الذي درس الـ«تليتون»(*) (Téléthon)

(*) تليتون: عبارة مركبة من إدغام كلمتين مختصرتين، وهما: التلفزيون وماراتون (السباق الطويل)، اتُّخذت عنوان برنامج شرع التلفزيون الفرنسيّ في بثه منذ 1987 مرّة في السنة على مدار 30 ساعة من دون توقف من أجل جمع التبرعات للأعمال الخيرية، وفي الغالب لتمويل البحث العلميّ لمكافحة الأمراض الخطِرة والوراثيّة. وقد اقتبست فكرة البرنامج من التلفزيون الأميركيّ، الذي عمل بها منذ خمسينيّات القرن الماضي.

t.me/ktabpdf مكتبة

(Dominique Cardon, Jean-Philippe Heurtin, *et.al*, 1999) الذي يشير إلى المستويات الثلاثة لوصف ما هو اجتماعيّ بالعبارات التالية: المبادلات المتوتّرة والمبادلات المرنة والمبادلات التفكريّة. وتتمّ المقاربة، في الغالب، انطلاقًا من قطب التحليل، ومنه يتحدّد ما يجاوره، إذ من الممكن البدء بالجمهور، الذي يشترط التفاعلات في النظام الديموقراطيّ ويتحكم فيها من أجل تحديد معناه.

سلسلة المعارف في سوسيولوجيا وسائل الإعلام(73)

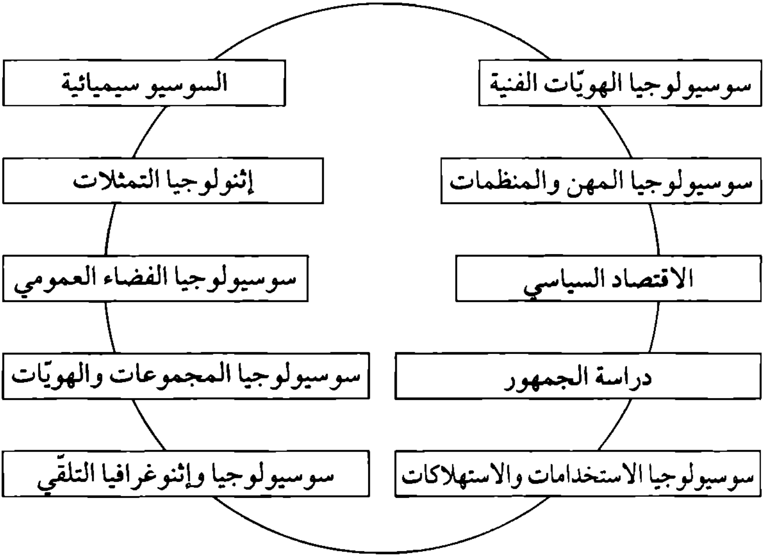

(73) ملاحظة: تقدم هذه السلسلة مؤشرات الاتصال بين تيارات البحث ولا تستعرض اندماجها وظيفيًا.

t.me/ktabpdf

مكتبة

البنائيّة الاجتماعيّة والبنائيّة الترابطيّة(*)

ما وصلت إليه البحوث التي استُعْرضت في هذا الفصل هو بنائيّة خاصّة جدًّا، تبتعد عن رؤية فاتحة للعلم نشرها أنصار الواقعيّة بمقدار ابتعادها عن بنائيّة ما بعد الحداثيّين المُخيِّبَة للآمال، ويمكن أن نصفها بالمتواضعة والمتفائلة، لأنها تستند إلى وجود جماعة المؤولين والفضاء العموميّ وتتجلّى كاستكشاف. إنها ترسخ، كأي بنائيّة، في فكرة أن مجمل الحقائق المدرَكة والتي تتشكل من التبادل والمواجهات والانتقاءات وعمليّات إحداث الاستقرار في هذه الحقائق، مع الرغبة في التفكير بما هو جامد وغير قابل للتغيير، تعتبر الأشياء والطبيعة تكثيفًا لنشاط البشريّة. إن المخاطر الناجمة عن هذا الموقف تؤدي، بكُلّ تأكيد، إلى النزعة النسبيّة التي تهدّد حتى إمكان النشاط العلميّ: فإذا كان كُلّ شيء مبنيًّا فلا يمكن جعل أي شيء منسجمًا ولا شيء يصمد أكثر في الواقع أمام دوخة تأويل الباحث. لقد قدمت النزعة البنائيّة الاجتماعيّة الأولى لميشال كالون (Michel Callon) وبرونو لاتور المتأثرة بدايفيد بلور (David Bloor) المثال المعروف جدًّا عن هذا الانحراف في تصديها للعقيدة

(*) استلهم باراديغم البناء الاجتماعيّ من العديد من مؤلفات علماء الاجتماع. ويقوم على فكرة أن المواضيع الاجتماعيّة ليست معطًى جاهزًا، بل تُبنى ويتم التفاوض حولها وتُعَدَّل وينظمها البشر في سعيهم لمنح معنى لما يجري في العالم. انظر:

Sarbin, Theodore R. & Kitsuse, John I. (Eds), *Constructing the Social*. London; Sage, 1994, p.3.

الترابطيّة هي أطروحة فلسفيّة شديدة الصلة بالأمبيريقيّة، وتتعلق بنظرية المعرفة والفكر، إذ تقترح شرح العمليّات الفكريّة وكل الحياة الذهنيّة بترابط الأفكار وجمعها.

t.me/ktabpdf

مكتبة

«الحديثة» (والتي نعتبرها بالأحرى «نصف حديثة» وفق ما ذهب إليه أولريش بيك) بالفصل الأساسيّ بين البشر والأشياء وتجزئتهما، فالبشر والأشياء ليسوا متناقضين بشكل أساسيّ، وتجب قراءة أحدهما عبر الثاني، أو بالأحرى انطلاقًا من القطب البشريّ الـذي يمنح معنى للعالم. إن هذا الموقف يتوج في ميدان الاتصال، وفي تحليل المبتكرات التكنولوجيّة تحديدًا، بمنهجيّة تسمى سيناريو (script) أو «التسجيل» (l'inscription) التي وضعتها مادلين أكريش(*) (Madeleine Akrich) واستعادها لاتور. لقد تم التعامل مع الأشياء المخضّبة ببصمات النضال لتعريفها، والتي جعلتها موجودة كنصوص (وفق الصيغة التي اقترحها ستيف وولغار Steve Woolgar) ومنها يمكن أن نقرأ أصلها. لقد قُدِّمت سميائيّة غريماس، التي ركزت على مفهومي السرد والعامل (actant)، كحل منهجيّ لمشكل التأويل، فالبشر وغير البشر يوجدون، بشكل ما، في اليمّ اللسانيّ ذاته، إذ يظهرون كفاعلين يقومون بالمفاوضات التي تسمّى أيضًا عمليّات الترجمة، مع كُلّ الصعوبات الناجمة عن ذلك والتي يمكن

(*) تـرى أكـريـش أن مصمم المبتكرات التقنيّة يقدم مجموعة من الافتراضات بخصوص العناصر التي تشكل العالم الذي يوجه إليه مبتكره التقنيّ: الفاعلون بأذواقهم وكفاءاتهم ودوافعهم وطموحاتهم وتطلعاتهم، والرأي العام بخصوص هذا المبتكر، وتطور عادات استخدامه وطقوسها، وغيرها. فالقسط الأكبر من عمليّة التصميم التي يقوم بها هو إدراج هذه التوقعات في عالم المحتويات التقنيّة لما يبتكره. وسمّت كل هذا العمل بـ«السيناريو» (script) لتشبّهه بسيناريو إخراج الفيلم السينمائيّ. انظر:

Madeleine Akrich: La description des objets techniques, in Madeleine Akrich, Michel Callon, *Bruno Latour: Sociologie de la traduction*, Textes fondamentaux, Presses des Mines, 2006, pp. 159 - 178.

t.me/ktabpdf مكتبة

ذكرها من دون ترتيب، عبر الأسئلة التالية: هل يتماثل العالم فعلًا مع نصّ؟ وهل يوجد دليل لفهمه؟ وهل يتطابق دليل المنتجين مع دليل المستخدمين؟ لقد أجاب الباحثون في مجال الاتصال عن هذه الأسئلة منذ مُدّة طويلة برفض الأنموذج اللسانيّ الذي يطمح إلى العالميّة، وبالفصل - وإن كان جزئيًّا على الأقلّ - بين ممارسات المستخدمين أو متلقِّي المواد الاتصاليّة والثقافيّة ومنتجيها. إن طبعة نظريّة الوساطة والبنائيّة التي استعرضناها في هذا المقام تنأى عن هذا التصور، وتقترح تشبيه فكرة اختلاط البشر وغير البشر بالاستعارة في المستوى الثالث للمعنى الذي وضعه بيرس أو منظّرو التفكّر. ويجب ألّا تؤوّل العلاقة بين البشر والأشياء بعبارات ذات نزعة طبيعويّة (المستوى الأول) ولا بعبارات سوسيولوجيّة ونسبيّة، مثلما يميل كالون ولاتور إلى فعله انطلاقًا من فكرة تسعى جاهدة إلى تجاوز المستوى الثاني... للعودة إلى النصّ. إن النصّ استعارة طبيعويّة أو سوسيولوجيّة، تبعًا لما نراه في العلامات، سواء ميكانيكا فطريّة الاجتماعي أو اعتباطيّته. يجب بالأحرى ملاحظة البشر والأشياء في ديناميكيّة العلاقات التي تسير على نمط الاستكشاف الدائم لخصائص هذه العلاقات في إطار عالم نزاعيّ يطمح إلى أن يكون عالمًا مشتركًا. إن إدراج التبادلات في إطار ديموقراطيّ وفكرة انفتاح المشاكل المنشغلة دائمًا بتَشَكُّلها على الجمهور، يقودان الباحثين في مجال وسائل الإعلام إلى الميكروسوسيولوجيا، أو علم الاجتماع الجزئيّ، المهتم أكثر بالعلاقات والتقنيّات. وإلى جانب ذلك، يمكن أن نربط كُلّ أفكار الفضاء العموميّ التي لا تستند إلى الأنموذج

t.me/ktabpdf مكتبة

الهابرماسيّ بهذه الرؤية، وكُلّ نظريّات التفكُّر وما يمكن أن نسمّيه البنائيّة الاجتماعيّة الثانية لبرونو لاتور، الذي نبذ فكرة الترجمة ليقترب من تارد وديوي. لقد تنازل لاتور عن البنائيّة الاجتماعيّة في مؤلفاته سياسات الطبيعة، وأمل الباندورا، ثمّ تغيير مجتمع. إعادة صنع علم الاجتماع (*Changer de société. Refaire de la sociologie*) (أن هذه «البنائيّة» التي قُدِّسَت وحُفِظت في تصور شديد وقاسٍ يمنح ما هو اجتماعيّ استقلاليّة ذاتيّة تحوّلت إلى سجن)، وذلك لمصلحة «البنائيّة الترابطيّة» التي تستند إلى اعتبار كُلّ الخطابات، الخطاب المبنيّ والذي يُبنى والذي هو في طور التأثر بالتعبير العام والعلنيّ الذي تقوم به الخطابات الأخرى. فما هو اجتماعيّ «جماعيّ» يتمدّد وهو مجموعة من الخصائص التي تتشكل على نمط المفاجأة. إنه مفتوح دائمًا، ما يعني أن النماذج والشبكات الذي يؤول بها الباحثون من أجل فهم الأفعال لا تملك الوقت أبدًا حتى تصبح صلبةً بشكل نهائيّ.

وهكذا، لا تستسلم هذه البنائيّة لتراكمية البحوث وتُطلِق كُلّ نزعة نسبيّة. ويُعدُّ فعل الاكتشاف بِناءً، لكن ما يُكْتَشف ليس فوضويًا ولا وهميًا. والباحثون (والفاعلون «العاديّون») يحشدون معارفهم المُشَكلة، لكن هذه المعارف لا تزعم أنها تتكون خارج قصة العلاقات بين الكائنات التي تمنع إلغاء هذه القصة ذاتها. وإذا كانت الطبيعة التي تُصوَّر كجملة من الآثار والآليّات الموضوعيّة، تظلّ على ما كنا نعترض عليه، فإنها تشكل دائمًا حدًّا لا يوصف وشيئًا ما يفلت منا. إن التواضع يحفز على عدم خلط الأشياء والبشر، فكلاهما يحتفظ بجزء

t.me/ktabpdf مكتبة

من سره بالنسبة إلى الآخر، مثلما يذكرنا بذلك الباحث برونو لاتور، «فالأمر هنا لا يكمن في زعم أن الثنائيّة القديمة والباراديغم السابق ليس له أي قيمة» (*L'Espoir de Pandore*، ص 226)، بل يكمن في التَخَلُّص من ثنائيّة الإنسانيّة ـ الموضوعيّة ذات العائد الضعيف، وذلك بالانتقال إلى ما هو أبعد من الثنائيّة القديمة.

التلقّي

إنّ دراسة تلقّي الجمهور المتعدد الموادَّ الإعلاميّة الثقافيّة، علاج تاريخيّ لأيديولوجيا الثقافة الجماهيريّة ولفكرة قيام وسائل الإعلام بقولبة الجمهور. وبهذا، فإنها تكفّ عن الاستمرار في أن تكون وظيفيّة أو ثقافويّة. ودراسة الجمهور لا تكتفي بوصف مجموعة القراءات المنسجمة، التي تقوم بها المجموعات الاجتماعية المهنيّة، من الجنسين ومن مختلف الأعمار، بل تسترد التفاعلات العامّة، وتُظهر الفاعلين قادرين على ابتكار حلول لمشاكلهم بحسب ما يملكونه من موارد اجتماعيّة وثقافيّة، من دون الرجوع بالضرورة إلى الحلول المألوفة. والهدف من ذلك هو القبض على تمفصل التبادل الحسّاس القائم بين الهويّات الاجتماعيّة والعلاقات المخصوصة بوسائل الإعلام، والذي يشبه قضية البيضة والدجاجة، ويتطلب تضافر النتائج التي نحصل عليها في العديد من ميادين البحث من دون إلصاق اصطناعيّ لبعضها ببعض. إن الدراسة المخصصة لجمهور الشرائط المرسومة والأبطال الخارقين (Maigret, 1995) لا تتمثل في تجاوز التحليل المعياريّ للآثار المؤذية لوسيلة إعلاميّة فحسب، ولا

t.me/ktabpdf مكتبة

في تشخيص المتلقّين من الذكور المسيطرين إحصائيًّا فتجعل من القراءة عمليّة إعادة الإنتاج الوظيفيّ للهويّة الذكوريّة، ولا في دراسة التأويلات المخصوصة التي تقوم بها المجموعات الفرعيّة (الجمهور النسويّ، الفرنسيّون/ الأميركيّون، الأقليّات الإثنيّة)، بل تكمن في القبض على لحظة التفاعل حيث تتشذّر الهويّات وتنفصل وتتركب وتعيد تركيبها. إن الإقبال المتواتر على هذه الشرائط المرسومة يبدو مثقَلًا بالتناقضات بالنسبة إلى الجمهور، الذي من المفروض أن يشارك في إعادة إنتاج بسيطة للهويّة، فتبدو القيَم الذكوريّة مخترقة من الاتجاهات المتعدّدة التي يمكن أن نؤطرها انطلاقًا من العلاقة بين الدفاع عن إقليم تقليديّ (الفحولة المطلوبة دائمًا في مجتمعاتنا) واستغلال العوالم الحميميّة (الذي عزّزه التمدرس الجماهيريّ لمُدّة طويلة، على سبيل المثال، والذي زعزع أنماط العلاقة بالغير). إن العديد من الأحداث لا تُفهم من دون التقاء سوسيولوجيا الأنواع الإعلاميّة والفنيّة واستنفاد دراسة هذا النوع (المقصود هنا: الذكورة) بسوسيولوجيا التلقّي، وهذا ينطبق على كتاب **ثقافة المشاعر** (*La Culture des sentiments*) (1999) الذي ألفته دومينيك باسكييه وتابعت مراحل البحث فيه مستندة إلى مفاهيم الإبداع والوساطة، عندما درست تلقي المسلسل التلفزيونيّ الفرنسيّ **هيلين والشباب**، الذي انتُقِد كثيرًا. لقد تجنبَتْ منذ البداية استنكار هذا المسلسل والاحتفاء به، اللّذين أرهقا الدراسات في هذا المجال، وشخّصت المجموعات الدالّة، التي كشفت عن أن التَحَمُّس لهذا المسلسل التلفزيونيّ يقتصر على الإناث، وغالبيّتهن ريفيّات وفي مرحلة ما قبل المراهقة.

t.me/ktabpdf مكتبة

ثمّ انتقلت إلى الهدف المركزيّ، والمتمثل في إحداث التمفصل بين إثنوغرافيا ممارسات المعجبين بالمسلسل وتحليل السياقات الاجتماعيّة التي يوجد فيها هؤلاء، وذلك بربط سوسيولوجيا التلقّي بسوسيولوجيا الأسرة عبر النزعة التفاعليّة الحسّاسة. لقد بُرمج هذا المسلسل بعد سنوات عديدة من النضال النسويّ، فأصبح مؤشّرًا دالًّا على التغيير في الأدوار النسويّة، ويقترح توليفة تجمع التكامل بين الهويّتين الذكوريّة والأنثويّة والحريّة المطلقة للنساء. لذا، فقد تباين حكم العائلات الشعبيّة والبرجوازيّة على هذا المسلسل، وحكم الأمهات المتمسكات بمستلزمات المطالبة بالاستقلاليّة وحكم الفتيات اللواتي يواجهن الإدارة اليوميّة لهويّاتهن.

يجب أن لا ينحرف مصطلح «التلقّي»، المتمسَّك به من باب اللياقة، عن مقصده وإن كان هناك تطوّر في الواقع لمصلحة مراعاة مجمل العمليّات التي تشكل القراء أو المشاهدين في وجودهم اليوميّ، وهذا ما يبعدنا عن المعنى الحرفيّ للتلقّي، الذي تم تصوره بطريقة مثاليّة تبادلًا بسيطًا ومعزولًا يجري بين قارئ ونصّ. وهذا التصور قريب من ذاك الذي يبعد «الدراسات الثقافيّة» عن أرضيّة التلقّي ليقرّبها من الحياة اليوميّة، فهذا المستوى من «الحياة اليوميّة» (everyday life) الذي طالب به كُلّ من روجر سيلفرستون (Silverstone, 1994) وجوك هيرمس (Hermes, 1995) بتأثير من ميشال دو سارتو والنسويّة ماري إلين براون (Brown, 1994)، يوسّع باستمرار عمليّة تأطير «دراسات الجمهور» (audiences studies) (انظر: Alasuutari, 1999, Barker et Brooks, 1999).

t.me/ktabpdf

مكتبة

وحتّى أن فكرة الجمهور ذاتها تم تفكيكها انطلاقًا من نقد خصائصه التي يُفترض أنها ثابتة، ومن تعدديّة أشكاله، جمهور مستهلك وجمهور المعجبين (Hills, 2002)، و«شبه جمهور» تلفزيونيّ، و«لا جمهور»... وغيرها من الأشكال، بحسب المعاينات التي قام بها كُلّ من جون هارتلي (1992)، ونيكولاس أبركرومبي (Nicholas Abercrombie) وبراين لونغهرست (1998) الذين اقترحوا الانتقال إلى نظريّة الجمهور بصيغة الجمع واعتباره بمثابة «كفاءة»، ودانيال دايـان (2000)، وجـان بيار إسكينازي (Esquénazi, 2003)، وأنسل وبيسن (Ancel et Pessin, 2004).

الإنتاج

إذا عدنا إلى تسلسل دراسات الاستهلاك ودراسات المستمعين والمشاهدين، والتي تتحدث عن الجمهور لكنها تترجم بشكل تدريجيّ وساطة المؤسسات والصناعات، يفصل الاقتصاد السياسيّ الممارسات الأكثر حساسية والذي له سلطة في تعريف الأوضاع التي تتحكّم فيها هـذه الممارسات. ثـمّ إن سوسيولوجيا المهن وسوسيولوجيا الهويّات الفنيّة تتوازنان في تقدير قُوَّة الإكراهات الاقتصاديّة وتذّكران بأن المشاريع الثقافيّة تُشغّل، في المقابل، الصناعات الإبداعيّة. إن التقاء هذه التيارات المتوتّرة يُشكل أحد رهانات العقود القادمة.

المضامين

تقوم السوسيولوجيا الجديدة لوسائل الإعـلام على صعيد الرسائل الإعلاميّة والثقافيّة بالقطيعة ذاتها التي تقوم بها على صعيد

t.me/ktabpdf مكتبة

تأويلات الجمهور إياها أي أنها تُحْدث قطيعة مع فكرة الجوهر (الماديّ أو الاجتماعيّ) للعلامات التي تبرزها وساطاتٍ ثابتةً، ونتيجةً لنزاع اجتماعيّ مُجمّد مؤقتًا، كما ينظر لذلك إريك ماسي (2001 و2002) استنادًا إلى مساهمات هوارد بيكر (1999)، وبرونو لاتور (2000). ويمكن أن يُنْظر إلى محتويات وسائل الإعلام بصفتها بصمات للتفاعلات التي شكلتها، مثل الطيّات التي تكثف العلاقات الاجتماعيّة، ومن منطق الفعل والحركات الثقافيّة. فنشر هذه «التحولات العجيبة» واستعادة حرارة النزاعات التي أنتجتها يتم عبر العديد من المراحل. وتوصف دراسة المنظومات الإعلاميّة موضوع السوسيو - سيمياء، مثل تلك التي قام بها غي لوشار (Guy Lochard) وجان كلود سولاج (Soulages, 1998)، والتي تصف «الأنواع» وأشكال التلفظ والمعايير اللفظيّة والمرئيّة التي تؤطر التبادل على المستوى التقنيّ والتاريخيّ في آن، بأنها ليست سيمياء بسيطة تفصل هذه المعايير عن كُلّ نزاع وعن المفاوضات حول المعنى بين المنتجين والجمهور. إن دراسة التَمَثُّلات الاجتماعيّة التي تستند إلى استخدام المناهج الكميّة أو الإثنولوجيا التي تنقّب عن العلاقات التي يقيمها الأشخاص والسرديّات والمنطق الذي يقودها تقدم مفاتيح لفهم المجتمعات المعاصرة. لقد أوضحت سابين شالفون - دمرسي بشكل جيّد هذا المنهج في بحوثها التي قرأت الأفلام التلفزيونيّة وسيلةً لتشخيص المشاكل الاجتماعيّة، وتحويل ما هو اجتماعيّ إلى مواضيع. إن السرديّات التي قدمها كُتّاب السيناريو الهواة إلى القنوات التلفزيونيّة

t.me/ktabpdf مكتبة

(انظر ألف سيناريو، تحقيق حول التخيّل في زمن الأزمة *Mille scénarios. Une enquête sur l'imagination en temps de crise*) (1994) والمسلسلات التلفزيونيّة الفرنسيّة التي تُعرض يوم الأربعاء مساءً، مثل مسلسل (*)(Instit) («استعراض مجتمع انتقائيّ، وسيناريوات لعالم من العلاقات المختارة»، 1996)، عندما نجمعها ونتطرق إليها انطلاقًا من نقاطها المشتركة تدلّنا على العالم العائليّ في نهاية القرن في عز عمليّة تَجَرُّده من الطابع المؤسساتيّ، حيث قوضت أدواره التقليديّة: تسيطر النساء على الرجال ويتمّ التفكير في العلاقات وفق نمط الاختيار وليس انطلاقًا من النزعة الطبيعة أو الإكـراه. إن تحليل هذه المحتويات وتمفصلاتها مع الأحـداث الاجتماعيّة لا يستند إلى التقاطع السريع لبعض النتائج القادمة من مشارب مختلفة (نظريّات الاتصال والبحوث التاريخيّة والقانونيّة عن الطلاق وسوسيولوجيا النزعة الفردانيّة) بل يرتكز على معاشرة طويلة لتيارات البحث هذه التي تسمح بتعيين مبكر للتوجّهات، وليس رصف العناصر المتناثرة وغير المتناسقة بعضها فوق بعض: إن سوسيولوجيا المحتويات تواجه صعوبات متزايدة، على غرار سوسيولوجيا التلقّي، لأنها تفترض التحكم في جملة من التخصصات. إنها لا تترجم الأشياء المستقرة تمامًا. وفي الأفلام التي قامت سابين شالفون ـ دمرسي بتحليلها، والتي تتحدث قليلًا

(*) اختزال كلمة (Instituteur) المعلم، وهو عنوان المسلسل الذي يتكون من 46 حلقة بثته القناة الثانية في التلفزيون الفرنسيّ من 1993 إلى 1995، وكان بطله الأساسي معلّمًا يصادف في يومياته العديد من المشاكل الاجتماعيّة التي يعاني منها تلاميذه.

t.me/ktabpdf

مكتبة

عن العائلة من دون أن تعكسها ببساطة، وتستعرض بعض الحلول التنافسيّة لإعادة تشكيل الروابط التي أصبحت انتقائيّة محضة بين الأجيال والجنسين (الهروب الفردانيّ نحو الجماليّات وإعادة تشكيل العائلات والعودة إلى المعايير الواضحة بين الأجيال من دون حنين ماضويّ، إلخ) مترجمة بذلك التخيّل النزاعيّ لحقبة تحاول أن تعدّد المشاكل وتوجد لها حلولًا من خلال عرضها على الشاشة الصغيرة.

ما معنى محتوى؟ وكيف يُحلّل؟

كان تحليل محتويات وسائل الإعلام يبدو أسهل من تحليل التفاعلات الاجتماعيّة، لأن حصرها أيسر. وثمّة بالفعل ماديّة الحاوي (الكتب التي نضعها فوق الرفوف والأفلام التي نشاهدها على أقراص الـ«دي في دي» DVD...). إن المحتويات غير ماديّة، إنّها تنتمي إلى عالم المعنى، لكنها في الغالب ذات قابلية للتخزين في حوامل ماديّة وهذه الخاصية تعزّز الشعور بانغلاق النصّ. هذا على الرغم من أن المحتويات تندمج في التفاعلات الاجتماعيّة، فتبرز في هذه التفاعلات وتعود إليها بمجرد أن يتملكها القارئ المشاهد. ويمكن أن ينظر إليها كتكثيف لعوالم اجتماعيّة وكتغذية لعوالم اجتماعيّة أخرى. وعندما يتطرق الباحث إليها، وبمفردها، قد يمنحها شكلًا من الاستقلال الذاتيّ: إنها لحظة النظرة الشكليّة للمدوّنات والأنواع وأنظمة التضمين والتعيين. لكن لا توجد استقلاليّة ذاتيّة مطلقة للمحتويات التي تسمح بفهم المعنى الأصيل لنصّ، وحقيقته خارج علاقته بالأحياء والأموات. لهذا الغرض، لا تختصر سوسيولوجيا

t.me/ktabpdf مكتبة

وسائل الإعلام لحظة التحليل النصّي في قيام الباحث بالترميز الشكليّ لمواده، بل تلجأ إلى تمديده، ليشمل على التوالي الفاعلين الذين ساهموا في إنتاج مواده أوّلًا ثمّ الجماهير والمجموعات البشريّة التي شاركت في تعريفه من الأسفل.

تقرّب هذه المقاربة السوسيولوجيا من التاريخ، الذي ينسّق منذ مُدّة طويلة بين المصادر وينفتح على مختلف أنواع الآثار. لكن يبدو أن التحدي الذي تواجهه التيارات العاملة على جمع الوثائق التاريخيّة المتعلقة بحقبة زمنيّة معينة، والتي تسعى إلى إعادة تشكيل المحتويات في سياق يتسم بندرة المصادر، لا تمكن مقارنته في عصرنا، نظرًا إلى حجم المعلومات المتوافرة عن المؤلفات والمنتجات الإعلاميّة والثقافيّة، وعن أصلها ومصيرها، والذي يبدو ضخمًا، مثلما تؤكد ذلك سابين شالفون - دمرسي التي ساهمت بقُوَّة في تجديد البحث في هذه المواضيع. إذًا من الضروريّ التطرق بطريقة منهجيّة إلى هذه المواد والالتزم بها بشكل عميق، على منوال الباحثين المعجبين بنجوم الفن على سبيل المثال، والذين تقف ضدهم ذاتيّة المشارك، ويقف في صفهم الإقبال المتواتر والمكثف للجماعات البشريّة على المنتجات الإعلاميّة والثقافيّة والمؤلفات، وبهذا يكون هؤلاء الباحثون غيّروا بطريقة عجيبة النظرة إلى الثقافات «المتوسطة» و«الشعبيّة».

يمكن اليوم استخدام تقنيّة العدّ وتحليل المضمون، الذي سجّل (إلى جانب التقنيّات السيميو - سوسيولوجيّة) انحرافات معروفة جدًّا (انظر الفصل الخامس)، نظرًا إلى نجاعة هذه التقنيّة في معالجة المواد الموجودة بوفرة، هذا إذا كيَّفْنا استخدامها مع استخدام «إثنولوجيا

t.me/ktabpdf مكتبة

وعلم اجتماع مقارن» (Macé, 2006). ويجب أن نفهم من هذا التعبير استخدام تقنيّة القراءة النوعيّة التي تعتني بالتفاصيل وبتناقضات المؤلفات أكثر من اهتمامها بالسمات الإحصائيّة المتواترة (بحسب الأنموذج الموروث عن الإثنولوجيا التفهمية) من جهة، وأسلبة التَمَثُّلات الوجيهة اجتماعيًّا، والمتعلّقة بالمواضيع التي تهيكل المناقشات في المجتمعات المعاصرة، والتي نستعملها دليلًا في إطار المقارنة بالمعالجات التي خُصِّصَت لها في الأفلام والأخبار (سوسيولوجيا المقارنة بين العوالم «الافتراضيّة» و«الواقعيّة») من جهة أخرى. إن معالجة موضوع الأسرة المتفكّكة/ الأسرة مُعادةُ التشكيل، الذي تحول هاجسًا في نهاية القرن العشرين، يُعدّ بالنسبة إلى الباحثة شلفون ـ دومرسي مثلًا مؤشرًا إلى المسلسلات التلفزيونيّة العائليّة التي تبث خلال ساعات زيادة الإقبال على مشاهدة التلفزيون.

وأعلى من دراسة المحتوى، نذكر دراسة ممارسات الصحافيّين أو الفنيّين، ومسارهم وطموحاتهم، وعلاقاتهم بمصادر أخبارهم، والمؤسسات التي تشغّلهم، وجمهورهم، والإكراهات التي يعانون منها، والكفاءات التي يبرهنون عليها... كلها عوامل تستطيع أن تخبر عن مسار الترميز الذي يقود إلى المنتج الإعلاميّ أو الفنيّ قبل الشروع في تحليل محتوى هذا المنتج، والهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن طبقات التأثير المتراكبة، والمفاوضات التي تؤدّي إلى النُّصوص، من خلال تقاطع المتغيّرات التي تنتمي إلى الاقتصاد السياسيّ وسوسيولوجيا المهن. وبهذه الطريقة، من الممكن استخراج التاريخ العام للأنواع الإعلاميّة ومواجهته بتفاصيل كل المؤلفات التي تشكله.

t.me/ktabpdf مكتبة

بعد تحليل المضمون، تُعتبر مقابلة تأويلات الجمهور ثريّة، وذلك إن تخلّينا عن مبدأ تفوق التأويل المطلق الذي يقوم به الباحث (من دون الاستسلام إلى النسبيّة). إذًا، يجب القيام بتحليل المضمون ودراسة التلقّي معًا، من دون طرح مساواة الجميع أمام النُّصوص، بل إثارة تعاون الذين لا يمكنهم النفاذ إلى الآفاق ذاتها. ويمكن أن نعتبر أنّ البحوث التي أنجزتها جانيس رادواي تدشن هذا النوع من الدراسات. لقد انطلقت هذه الباحثة من التحليل السيميائيّ للروايات التي صدرت في سلسلة **أرلوكان**(*) واصطدمت بتأويلات القراء لها، والتي تختلف على الأقلّ عن النتائج التي توصل إليها تحليلها السيميائيّ، فرغبت في دراستها. لقد تجنبت في البداية ما اعتبرته قراءات «هرطقيّة»، ثمّ استدركت ورأت أنه يمكنها أن تتعلم من هذه القراءات التموقع الاجتماعيّ للقراء، وتعرف أكثر في الوقت ذاته عن المضامين ذاتها التي أهملت جوانبها لرُزوحها تحت ثقل أفكارها المسبقة التأويليّة.

تبدو كُلّ هذه التقنيّات المستخدمة بمثابة حلول لصياغة سياق معمم للبحث وليس كصيغ سحريّة للمسار التأويليّ.

الفضاء العموميّ

تظهر وسائل الإعلام كهيئات تساهم في النقاش الاجتماعيّ بمقدار ما هي حوامل لتَمَثّل. ولا تكتفي محتوياتها بنقل النزاعات التي شكّلتها في صيغة وساطات جامدة، بل تغذّي في البدء المشاجرات

(*) Harlequin: عنوان سلسلة الروايات الغراميّة التي اتخذت مسمّى دار النشر التي تصدرها بـ 31 لغة. تأسست في كندا في 1949، وفتحت فروعًا لها في 110 دول.

t.me/ktabpdf مكتبة

والنزاعات التي تشخّصها سوسيولوجيا الفضاء العموميّ من دون أن يقدّم الباحثون أنفسهم في صورة المتفوقين جوهريًا على الفاعلين المشاركين فيها. إن مهمة هذا البحث هي وصف أشكال الفضاء العموميّ من جهة، وأنواع الالتزام ونقاط النفاذ إلى الفضاء العموميّ، والمفردات اللغويّة، وقنوات الإقصاء، وتأثير تكوين التعريفات... إنها المقاربة التي يفضلها الباحثون المنتمون إلى «مجموعة سوسيولوجيا الأخلاق والسياسة»، والمتأثرون بلوك بولتانسكي (Luc Boltanski) (دومينيك كاردون Dominique Cardon، وجان فيليب هورتن Jean-Philippe Heurtin، وسيريل لوميو)، أو الذرائعيّون الجدد الذين أثاروا مفهوم «الحلبة»، مثل دانيال سيفاي (Daniel Cefaï)، وديناميكيّة الحركات الاجتماعيّة والحركات السياسيّة الصغرى التي تستثمرها. ويمكن أن نقدم في هذا المقام، على سبيل المثال، مشاركة مستمعي الإذاعة وأخذهم الكلمة في برامجها (Cardon, 1995)، والمناقشات التي دارت عن التكنولوجيا الحيوية (البيوتكنولوجيا) (Mehl, 1999, Cheveigné, Boy, Galloux, 2002)، أو المناقشات الخاصّة بالنفايات النووية (Callon, Lascoumes, Barthes, 2001). إن البحوث التي تناولت إقصاء النساء من الفضاءات العموميّة الرسميّة، والتَمثّلات الإعلاميّة التي تعبر عن خنوعهن الطويل قبل بروز الحركات النسويّة في ستينيّات القرن الماضي، والمعايير الأبويّة، كلها مواد توضح منذ عدة عقود زمنيّة آليّات الولوج إلى الفضاءات العموميّة الرسميّة (Fraser, 1992)، وتعيد رسم النضالات الحاليّة (Krakovitch, Sellier, 2001, Sellier, 1998).

t.me/ktabpdf مكتبة

لقد استُخدمت هذه المواد في بعض الأحيان فتيلًا لإطلاق الجدل (مثل ذاك الذي أثاره الكتّاب والمسمّى «رد الفعل» backlasch، الذي ألفته الصحافيّة الأميركيّة سوزان فالودي (Susan Faludi, 1991)، ولقي موجة من الانتقادات، وأشارت فيه إلى عودة النزعة الذكوريّة في ثمانينيّات القرن الماضي. انظر الكتاب الذي ألّفه غونتليت (Gauntlett, 2002) عن الجندر ووسائل الإعلام. وتشير البحوث الإثنوغرافيّة إلى استخدام تكنولوجيات الإعلام والاتصال في المفاوضات الهويّاتيّة. وقد بيّن الباحثان إتو (Ito) وأوكاب (Okabe, 2005)، أن الرسائل النصية القصيرة المرسلة عبر الهاتف الجوّال تعدّ وسيلة بيد الشباب اليابانيّ «للالتفاف على البنيات التي يمارس الأولياء عبرها الرقابة عليهم ويتحكمون في حياتهم اليوميّة»، في بلد يحوي القليل من فضاءات التقاء الشباب للحديث عن أمورهم الخاصّة. وتمثل هذه الرسائل أيضًا ثورة بالنسبة إلى الفتيات، لأنها تمنحهن مفاتيح النفاذ إلى الفضاء العموميّ.

«المنتجات الثقافيّة» بوصفها حركات اجتماعيّة

لقد استؤنفت لعبة التحليل الاجتماعيّ التي لا تتوقف أبدًا مع فكرة أن وسائل الإعلام تشكل ركائز ثقافيّة حقيقيّة مع كُلّ التناقضات التي تنجم عنها لاحقًا على مستوى التأويلات التي يقوم بها فاعلوها ومتلقّوها. وقد تعزّزت هذه الحركة مع غريل ماركوس (Greil Marcus)، وهو الكاتب الذي أنجز أول دراسة نسقيّة حقيقيّة عن شتّى أنواع الموسيقى «الشعبيّة» لما بعد الحرب العالميّة الثانية، ونفى أن تكون موسيقى

t.me/ktabpdf

مكتبة

الروك والبانك منتجات صناعيّة أو مواد ثقافيّة خاصّة بأقليّة اجتماعيّة، مؤكّدًا حركات اجتماعيّة حقيقيّة تنشر الحداثة، مثل الحماسة الرياضيّة المعاصرة التي درسها باتريك مينيون (Mignon, 1998) والتي تشكل «التاريخ السري للقرن العشرين» (Marcus) ويملك أهميّة أكبر من التاريخ الرسميّ، والذي لم يُكْتَب عنه سوى النزر القليل.

يكمن هدف السوسيولوجيا الجديدة لوسائط الإعلام في عدم غلق المسار التأويليّ واستيعاب آثار النزاعات حول التعريفات التي تتضمّنها وسائل الإعلام ومحتوياتها وتلقّيها، مع محاولة مضاعفة المصادر، والكفّ عن عزلها، وتعديل الرهانات المفتوحة بشكل أساسيّ. ويتعلّق الأمر بمراكمة المناهج وجمعها، وليس بالجمع التجريدي للآثار، بتقديم نظام وحلقة وظيفيّة، حيث يمكن أن يُستَنْبط أقطابها بعضها من بعض، وأن تُترجم. وإن أُجبرت نظريّة ديموقراطيّة على عدم التفكير بمُصطلحات القطائع (هذه الهاويات التي سلّمت بها نظريّات الاتصال السابقة)، فسيظلّ ما هو اجتماعيّ متقطّعًا، وإلا لن يكون هناك تبادل وتناقض وديموقراطيّة.

هل يجب الانتقال من الممارسات إلى الكفاءات؟

يمكن أن تبدو المقاربة البنائيّة التي استعرضناها في هذا الكتاب مخيّبة للآمال، نظرًا إلى ما توليه من عناية لنزعة الخصوصيّة ولمعاداتها كُلّ تجسيد نهائيّ وتامّ للظواهر والأشياء، فبعد أن دافعنا عن فكرة عدم وجود آليّات الهيمنة البسيطة، وأن أفعال الاتصال تقولب الفضاء العموميّ، هناك حاجة إلى توضيحات أو تصنيفات لمختلف علاقات السيطرة والحوار والاستملاك، والعلاقات التي تشكل التنظيمات

t.me/ktabpdf

مكتبة

على صعيد المعتقد، وأنواع «الجمهور»، وقواعد التعبير وأشكاله في الحلبات العموميّة. إن دخول البحث السوسيولوجيّ في مجال الاتصال مرحلةَ إعادة الهيكلة تحت صدمة النظريّات الثقافويّة والتفكير الانعكاسيّ، يفسر حالة عدم الاكتمال. لكن يمكن الخيبة أن تكون أشمل، إذ يمكن أن تنبع من الشعور بأن العلوم الاجتماعيّة لا تتجاوز أبدًا، وبشكل حقيقيّ، معضلة ما قبل التفكّر «السوسيولوجيّ» ومفارقات الممارسات الفرديّة والجماعيّة والتي تتوج بالتردد الكبير في استخدام المفاهيم إلى جانب الحياد المتكرّر، بينما كان من المطلوب أن تنتج نماذج عامّة تفسيرية ترتكز على مفهوم يفلت من الأحكام القيمية، مثل «الكفاءة» (المقتبسة من تشومسكي). إن إغراء التخلّي عن البنائيّة قويّ من أجل العودة المؤكدة، بهذا المقدار أو ذاك، إلى طبيعويّة بواسطة إعادة توجيه أَلْسُنيّ.

الإثنوميتودولوجيا

انطلاقا من معاينة مفهوم «الممارسة»، المفيد جدًّا لوصف ما يقوم به الفاعلون، رأى الفيلسوف ستيفن تورنر[74] (Stephen Turner)

(74) يشير ستيفن تورنر (Turner, 1994) بشكل متشائم إلى كل طبعات مفهوم الممارسة التقليديّة غير المنسجمة، إذ تُعتبر هذه الأخيرة إما مزاجًا، وهذا لا يفيدنا قط في معرفتها، أو عادة، أو تطبّعًا، أي من المفروض أن تكون الممارسة مشتركة في ثقافة ما، بينما لا شيء يسمح بفهم تشكُّل هذه الثقافة فعليًّا بعيدًا عن استعارات علماء الاجتماع. فبدلًا من إثارة الآليات الغامضة للانتقال الاجتماعيّ، يقترح ترنر التخلي عن مفهوم الممارسة «كموضوع» ويُصَوِّره «كبناء استكشافيّ». فهذا النقد السوسيولوجيّ (ذو المستوى الثاني من «النزعة السوسيولوجيّة») لا يأخذ بالاعتبار تطور سوسيولوجيا التفكريّة التي لا تمنح الخصائص النهائيّة للكائنات.

t.me/ktabpdf

مكتبة

أن هذا المفهوم أصبح ملتقى البحث في العلوم الاجتماعيّة. فالكثير من التيارات البحثيّة تسعى إلى التخلّي عن الإجراءات التأويليّة في العلوم الاجتماعيّة، التي تؤدي، من وجهة نظرها، إلى مأزق إشكاليّ، فالكتّاب الإثنوميتودولوجيون وما بعد الإثنوميتودولوجيين، أتباع هارولد غارفينكل (Harold Garfinkel) وهارفي ساكس (Harvey Sacks)، وقُراء أوستن وتشومسكي، يبحثون في التسويغ أو التبرير اللسانيّ للفاعلين («في أدائهم») عن نظام لا يتعلق بتأويلات الباحثين، لكنه نظام طبيعيّ. إن أشكال المحادثة لا تتعلق بمسألة الحقيقة، لكنها ترتبط بـ«الاستساغة» أو «التبرير» (justifiabilité) (تبعًا لما يسميه أوستن «شرط التهنئة»)[75]. وينصبّ البحث على وجوب أن يكون الفعل اللغويّ مفهومًا ومدركًا ومقبولًا ليس على أساس آثاره العميقة اللاواعية التي يتوقع منها شرح السّلوكيّات. فهذا الموقف قريب من موقف للبنائيّين الترابطيّين من السخاء يطالبون به (يفترضون أن كُلّ الفاعلين أذكياء ويتصرفون بكفاءة ممتدة) وبعيد تمامًا في الوقت ذاته عن موقفهم لذاتيّته. ويرى الإثنوميتودولوجيون أن من واجبهم استيعاب المعطيات في بيئة «طبيعيّة» واختزالها في بيئة محادثاتيّة، بل في جزء صغير منها. ويذهب ساكس إلى درجة رفض تقنيّة المقابلة، التي تشوه ظروف استقاء المعلومات أو البيانات. فبهذه المادة الخاصّة جدًّا، يرى هؤلاء الإثنوميتودولوجيون أن مهمتهم هي اكتشاف «المنظومات التصنيفيّة» للأشخاص في عموميّتها ثمّ تحليل نشاطهم

(75) انظر عملَيْ جيف كولتر (Coulter, 1989, 1991) اللذين يوثّقان هذا «المنطق السوسيولوجيّ» للممارسة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

انطلاقًا من سجل الكفاءات الأساسيّة. إن المشكل الذي يعاني منه هؤلاء الباحثون يتمثل في غياب تعميم النتائج التي يستخلصونها على المستوى الميكروسوسيولوجيّ: فما يكاد التخطيط لمعمار الفئات وهندستها يتم، حتى يفترض الباحثون كفاءات الأشخاص، ويتمنون الذهاب بعيدًا في غمرة الفعل التأويليّ، ولا يبرهنون عليها «بشكل طبيعيّ». إن علم الاجتماع الاصطلاحيّ أو التقليديّ يُنْتقد لكونه يستخدم الممارسات كمصادر لشرح الحالات الاجتماعيّة ولا يتعامل معها كأحداث يجب فحصها لذاتها. هذا النقد ينقلب على أصحابه لأنهم يتصرفون بالطريقة ذاتها، كما يُقرّ بذلك بعض الإثنوميتودولوجيين (بخاصّة آرون سيكوريل Aaron Cicourel) الذين يرفضون وجود نقطة خارجة عما هو اجتماعيّ، متعالية عنه، ويصبح بالإمكان تحليل الممارسات انطلاقًا منها.

سوسيولوجيا الاتّفاق:

تستند سوسيولوجيا الاتّفاق للوك بولتانسكي ولوران تيفينو (Thévenot, 1991) إلى المسعى السخيّ ذاته، منح الأشخاص الإمكانات الحقيقيّة للفعل والكفّ عن الحكم عليهم انطلاقًا من موقع علميّ متعالٍ، لكنها تغذي طموحًا أكبر، يكمن في الماكروسوسيولوجيا ويتمثل في تطليق سوسيولوجيا التطبّع النقديّ، بعد أن كان هذان الكاتبان من أنصارها في البداية. لقد أخذت هذه السوسيولوجيا على عاتقها مهمة وصف «القضايا» أو المشاجرات باستخدام المفردات اللغويّة للإثنوميتودولوجيا من دون أن تحسم فيها بعمق، ومن دون أن تُحدث نظامًا تراتبيًّا للحجج، فالبحث الميدانيّ يمكن أن يجري

t.me/ktabpdf مكتبة

على النمط الجنيولوجي- النسبيّ، عندما أعاد بولتانسكي رسم تاريخ الحوار، مثل ذاك المتعلق بإدراك الألم والحقّ في التدخل الإنسانيّ (**الألـم عن بعد. الأخـلاق الإنسانيّة، وسائل الإعـلام والسياسة** *La Souffrance à distance. Morale humanitaire, médias et politique*، 1993)، وأنار بطريقة حاسمة المناقشات المعاصرة حول دور وسائل الإعلام وحركات المثقفين. إن توضيح سجل الحجج التي حشدها الأشخاص لصياغة كفاءتهم أو إظهارها هو الذي قاد بقُوَّة، هذين الكاتبين اللّذين حـدّدا أنـواع الاتفاقات، مستندين في ذلك إلى الوجود المدرك لستة «مواقع» كبرى، هي: الموقع المنزليّ (القائم على الرابط الشخصيّ) والموقع المدنيّ (الرابط العموميّ) والموقع الصناعيّ (رابط الفاعليّة) والموقع التِجاريّ (رابط الربح) وموقع الرأي (مرتبط بنظرة الغير) والموقع المستلهَم (معيار السمو والتجاوز). إن الأفعال الفرديّة والجماعيّة تقدّر ذاتها انطلاقًا من قواعد تعبر عن متطلبات الاستساغة أو التبرير، ومن قُوَّة الإكراهات التداوليّة. لقد أراد تقسيم العالم هذا إلى مواقع، وفق النمط القريب من ذاك الذي اقترحه الفيلسوف ذو النزعة الجماعاتيّة مايكل وولزر (Michael Walzer)، الـذي تحدث عن مجالات العدالة، وأن يكون في البدء أداتيًّا: لقد استخدم الباحثون المُثل النموذجيّة في قيامهم ببحث سوسيوتاريخيّ عن طرائق التفكير في الاتفاقات في فترة ما. ومع ذلك، تبدو نظريّة الاتفاقات تتكبد أكثر فأكثر، على غرار الإثنوميتودولوجيا، مخاطر تعزيز أنموذج الكفاءات من أجل تصنيف الفعل الذي ينهك الواقع. وعلى غرار وولزر الذي لم يكتفِ بالوصف،

t.me/ktabpdf مكتبة

بل ذهب إلى الاعتقاد بفصل المجالات (وهذا ما يأخذه عليه هانز يُواس (Joas, 1992)، يستطيع نَحْويّو الكفاءات الانخراط في لعبة الواقعيّة والاعتقاد بالوجود الفعليّ للمواقع وفصلها (والتي لا تشكل سوى شبكة تحليل للباحث). ومثلما لاحظ كلود غوتييه (Gautier, 2001)، فإنّ إغراء برنامج يروم الكمال ينبع من الإرادات في تصنيف الحجج، التي تبدو غير منسجمة مع المواقع التي حدّدت مسبقًا ضمن المواقع الجديدة التي عُلق عليها بطريقة نقديّة أو تبريريّة (إنه موقع الشبكات بالنسبة إلى لوك بولتانسكي، ولوران تيفينو، 1997، الذي يشير إلى موقع الإعلام). وهكذا تمّ التخلّي عن المبدأين الأولين لسوسيولوجيا الاتّفاق، وهما: غياب الحكم عن كفاءات الأشخاص أوّلًا وقبل كُلّ شيء: إن هذه المقاربة تعيد إنتاج المقاربة الوظيفيّة النسقيّة التي تضيف فئات جديدة للدفاع عن معمار يُفترض أنه شامل ومحايد ولا يترك أي مجال للمفاجأة وإبداعات الأشخاص. ثمّ غياب التداعيات في المناقشات: لقد تمت المطالبة بوجود مسافة يتقيد بها عالِم الاجتماع تجاه محتويات القضايا، لكن المسعى الحقيقيّ المعياريّ هو الذي يقود بناء المواقع ووصفها. إن المشكل لا يكمن في وجود مثل هذا المسعى المعياريّ لكن في عدم التكفّل به بالتوافق مع سوسيولوجيا بنائيّة وانعكاسيّة فعليّة.

المراجع:

ABERCROMBIE Nicholas, LONGHURST Brian, *Audiences. A Sociological Theory of Performance and Imagination*, Londres, Sage, 1998.

t.me/ktabpdf مكتبة

AKRICH Madeleine, «Comment décrire les objets techniques?», *Techniques et culture*, 9, 1987.

AKSOY Asu, ROBINS Kevin, «Thinking across Spaces. Transnational Television from Turkey», *Cultural Studies*, 3/3, 2000.

ALASUUTARI Pertti (dir.), *Rethinking the Media Audience*, Londres, Sage, 1999.

ANCEL Pascal, PESSIN Alain (dir.), *Les non-publics: les arts en réceptions*, L'Harmattan, 2 vols., 2004.

ANDERSON Benedict, *L'Imaginaire national. Réflexions sur l'origine et l'essor du nationalisme* (1983), La Découverte, 1996.

ANDERSON Perry, *The Origins of Postmodernity*, Verso, 1998.

APPADURAI Arjun, *Après le colonialisme. Les conséquences culturelles de la globalisation* (1996), Payot, 2001.

BARKER Martin, BROOKS Kate, *Knowing Audiences*, University of Luton Press, 1999.

BAUMAN Zygmunt, *L'Amour liquide. De la fragilité des liens entre les hommes* (2003), Le Rouergue, 2004.

_____, *La Société assiégée* (2002), Rodez, Le Rouergue/Chambon, 2005.

_____, *Liquid Modernity*, Cambridge, Polity, 2000.

_____, *Postmodernity and its Discontents*, Cambridge, Polity, 1997.

BECK Ulrich, *Qu'est-ce que le cosmopolitisme?*, Aubier, 2006.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, *Pouvoir et contre-pouvoir à l'ère de la mondialisation*, Aubier, 2003.

_____, *La Société du risque. Sur la voie d'une autre modernité* (1986), Aubier, 2001.

BECK Ulrich, BECK-GERNSHEIM Elisabeth. *Individualization. Institutionalized Individualism and its Social and Political Consequences*, Londres, Sage, 2002.

BECK Ulrich, GIDDENS Anthony, LASH Scott, *Reflexive Modernization. Politics, Tradition and Aesthetics in the Modern Social Order*, Cambridge, Polity, 1994.

BECKER Howard, *Propos sur l'art,* L'Harmattan, 1999 (recueil de textes).

BOLTANSKI Luc, *La Souffrance à distance. Morale humanitaire, médias et politique*, Métailié, 1993.

BOLTANSKI Luc, THÉVENOT Laurent, *De la justification. Les économies de la grandeur*, Gallimard, 1991.

BOURCIER Marie-Hélène, *Queer zones. Politiques des identités sexuelles, des représentations et des savoirs*, Balland, 2001.

BROWN Mary Ellen, *Soap Opera and Women's Talk*, Londres, Sage, 1994.

BUTLER Judith, *Trouble dans le Genre. Pour un féminisme de la subversion* (1990), La Découverte, 2005.

CALHOUN Craig J., PRICE Paul, TIMMER Ashley (dir.), *Understanding September 11*, New Press, 2002.

CALLON Michel, LASCOUMES Pierre, BARTHES Yannick, *Agir dans un monde incertain. Essai sur la démocratie technique*, Seuil, 2001.

t.me/ktabpdf

مكتبة

CARDON Dominique, «Comment se faire entendre? Les prises de parole des auditeurs de *RTL*», *Politix*, 31, 1995.

CARDON Dominique, HEURTIN Jean-Philippe, MARTIN Olivier, PHARABOD Anne-Sylvie, ROZIER Sabine, «Les formats de la générosité: trois explorations du Téléthon», *Réseaux*, 95, 1999.

CAREY James, *Communication as Culture. Essays on Media and Society* (1989), Londres, Routledge, 1992.

CHALVON-DEMERSAY Sabine, «La confusion des conditions. Une enquête sur la série télévisée «Urgences»»», *Réseaux*, 95, 1999.

_____, «Une société élective. Scénarios pour un monde de relations choisies», *Terrain*, 27, 1996.

_____, *Mille scénarios. Une enquête sur l'imagination en temps de crise*, Métailié, 1994.

CHEVEIGNÉ Suzanne de, BOY Daniel, GALLOUX Jean-Christophe, *Les Biotechnologies en débat. Pour une démocratie scientifique*, Balland, 2002.

CICOUREL Aaron V., *La Sociologie cognitive* (1972), PUF, 1979.

COULDRY Nick, *Media Rituals. A Critical Approach*, Londres, Routledge, 2002.

COULDRY Nick, *Inside Culture. Re-imagining the Method of Cultural Studies*, Londres, Sage, 2000.

COULTER Jeff, «Logique et praxéologie. Esquisse d'une «socio-logique» de la pratique» (1991), *Sociétés Contemporaines*, 18-19, 1994.

_____, *Mind in Action*, Atlantic Highlands, Humanities Press, 1989.

t.me/ktabpdf

مكتبة

DACHEUX Éric (dir.), *L'Europe qui se construit. Réflexions sur l'espace public européen*, PU de Saint-Étienne, 2003.

DAYAN Daniel (dir.), *La terreur spectacle. Terrorisme et télévision*, INA-De Boeck, 2006.

_____, «Télévision, le presque-public», *Réseaux*, 100, 2000.

DAYAN Daniel, KATZ Elihu, *La Télévision cérémonielle. Anthropologie et histoire en direct* (1992), PUF, 1996.

DEWEY John, *Logique. La Théorie de l'enquête* (1938), PUF, 1993.

DUBET François, *Sociologie de l'expérience*, Seuil, 1994.

DYER Richard, *Now You See It. Studies on Lesbian and Gay Film*, Londres, Routledge, 1990.

ESQUÉNAZI Jean-Pierre, *Sociologie des publics*, La Découverte, 2003.

FALUDI Susan, *Backlash. The Undeclared War Against American Women*, Crown, 1991.

FOUCAULT Michel, «Sexe, pouvoir et la politique de l'identité», in *Dits et écrits, 1954-1988*, IV, Gallimard, 1994.

FRASER Nancy, «Repenser la sphère publique: une contribution à la critique de la démocratie telle qu'elle existe réellement» (1992), *Hermès*, 31, 2001.

GAUNTLETT David, *Media, Gender and Identity*, Routledge, Londres, 2002.

t.me/ktabpdf

مكتبة

GAUTIER Claude, «La sociologie de l'accord. Justification contre déterminisme et domination», *Politix*, 54, 2001.

GIDDENS Anthony, *La Transformation de l'intimité. Sexualité, amour et érotisme dans les sociétés modernes* (1991), Le Rouergue/Chambon, 2004.

_____, *Les Conséquences de la modernité* (1990), L'Harmattan, 1994.

_____, *La Constitution de la société. Éléments de la théorie de la structuration* (1984), PUF, 1987.

HANNERZ Ulf, *Transnational connections*, Londres, Routledge, 1996.

_____, *Cultural Complexity. Studies in the Social Organization of Meaning*, New York, Columbia University Press, 1991.

HARTLEY John, *The Politics of Pictures. The Creation of the Public in the Age of Popular Media*, Londres, Routledge, 1992.

HENNION Antoine, *La Passion musicale. Une sociologie de la médiation*, Métailié, 1993.

HENNION Antoine, MÉADEL Cécile, «Les ouvriers du désir. Du produit au consommateur, la médiation publicitaire» (1988), *in* BEAUD *et al.*, (dir.), *Sociologie de la communication, Réseaux- CNET*, 1997.

HERMES Joke, *Reading Women's Magazines. An Analysis of Everyday Media Use*, Cambridge, Polity, 1995.

HILLS Matt, *Fan Cultures*, Londres, Routledge, 2002.

ITO Mizuko, OKABE Daisuke, «Réseaux intimes: contextualiser la relation des jeunes Japonais à la messagerie mobile», *Réseaux*, 133, 2005.

t.me/ktabpdf

مكتبة

JAMESON Frederic, *Postmodernism or the Cultural Logic of Late Capitalism*, Durham, Duke University Press, Verso, 1991.

JENSEN Klaus Bruhn, *The Social Semiotics of Mass Communication*, Londres, Sage, 1995.

JOAS Hans, *La Créativité de l'agir* (1992), Le Cerf, 2000.

KELLNER Douglas, «Overcoming the Divide. Cultural Studies and Political Economy», *in* FERGUSON Marjorie, GOLDING Peter (dir.), *Cultural Studies in Question*, Londres, Sage, 1997.

KRAKOVITCH Odile, SELLIER Geneviève, *L'Exclusion des femmes. Masculinité et politique dans la culture au XXe siècle*, Bruxelles, Complexe, 2001.

LAHIRE Bernard, *L'Homme pluriel. Les ressorts de l'action*, Nathan, «Essais et Recherches», 1998.

LASH Scott, URRY John, *The End of Organized Capitalism*, Cambridge, Polity, 1987.

LATOUR Bruno, *Changer de société. Refaire de la sociologie*, La Découverte, 2006.

_____, «La fin des moyens», *Réseaux*, 100, 39-58, 2000.

_____, *L'Espoir de Pandore. Pour une version réaliste de l'activité scientifique* (1999), La Découverte, 2001.

_____, *Politiques de la nature. Comment faire entrer les sciences en démocratie*, La Découverte, 1999.

_____, *Nous n'avons jamais été modernes. Essai d'anthropologie symétrique*, La Découverte, 1991.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LE GUERN Philippe (dir.), *Les Cultes médiatiques. Culture fan et œuvres cultes*, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2002.

LIEBES Tamar, CURRAN James (dir.), *Media, Ritual and Idetuity*, Londres, Routledge, 1998.

LOCHARD Guy (dir.), *Les Débats télévisuels dans les télévisions européennes*, L'Harmattan, 2006.

LOCHARD Guy, SCHLESINGER Philip (dir.), «Amérique latine. Cultures et communication», *Hermès*, 28, 2000.

LOCHARD Guy, SOULAGES Jean-Claude, *La Communication télévisuelle*, Armand Colin, 1998.

LONG Elisabeth (dir.), *From Sociology to Cultural Studies. New Perspectives*, Malden, Blackwell Publishers, 1997.

MACÉ Éric, *La société et son double. Une journée ordinaire de télévision*, Armand Colin-INA, 2006.

_____, «Sociologie de la culture de masse : avatars du social et vertigo de la méthode», *Cahiers internationaux de sociologie*, CXII, 2002.

_____, «Qu'est-ce qu'une sociologie de la télévision? Esquisse d'une théorie des rapports sociaux médiatisés, 1 - La configuration médiatique de la réalité», Réseaux, 104, 2001, 2 - «Les trois moments d'une sociologie des rapports sociaux médiatisés: production, réception, contenus», *Réseaux*, 105, 2001

MAIGRET Éric, *Des super-héros et des hommes* (à paraître).

_____, «Strange *grandit avec moi.* Sentimentalité et masculinité chez les lecteurs de bandes dessinées de super-héros», *Réseaux*, 70, 1995.

MARCUS Greil, *La République invisible. Bob Dylan et l'Amérique clandestine* (1997), Denöel, 2001.

_____, *Lisptick Traces. Une histoire secrète du vingtième siècle* (1989), Gallimard, 2000.

_____, *Mystery Train. Images de l'Amérique à travers le rock'n'roll* (1975), Éditions Allia, 2001.

MARTIN-BARBERO Jesús, «Sciences de la communication: champ universitaire, projet intellectuel, éthique», *Hermès*, 38, 2004.

_____, *Des médias aux médiations* (1987), CNRS éditions, 2002.

MARTUCCELLI Danilo, *Grammaires de l'individu*, Gallimard, 2002.

_____, *Sociologies de la modernité. L'itinéraire du XX^e siècle*, Gallimard, 1999.

MEHL Dominique, *Naître? La controverse bioéthique*, Bayard, 1999.

MERCIER Arnaud (dir.), *Vers un espace public européen? Recherches sur l'Europe en construction*, L'Harmattan, 2003.

MIGNON Patrick, *La Passion du football*, Odile Jacob, 1998.

MORIN Edgar, *Penser l'Europe*, Gallimard, 1987.

MORLEY David, «EurAm, modernity, reason and alterity: or, post-modernism, the highest stage of cultural imperialism?», *in* MORLEY David, KUAN-HSING Chen

t.me/ktabpdf

مكتبة

(dir.), *Stuart Hall. Critical Dialogues in Cultural Studies*, Londres, Routledge, 1996.

MORLEY David, ROBINS Kevin, *Spaces of identity, Global media, electronic landscapes and cultural boundaries*, Londres, Routledge, 1995.

PASQUIER Dominique, *La Culture des sentiments. L'expérience télévisuelle des adolescents*, Éditions de la Maison des Sciences de l'Homme, 1999.

ROBERTSON Roland, *Globalization. Social Theory and Global Culture*, Londres, Sage, 1992.

ROBINS Kevin, «Au-delà de la communauté imaginée? Les médias transnationaux et les migrants turcs en Europe», *Réseaux*, 107, 2001.

SCHULZE Gerhard, *Die Erlebnisgesellschaft. Kultursoziologie der Gegenwart*, Francfort et New York, Campus Verlag, 1992.

SELLIER Geneviève (dir.), «Cultural Studies, Gender Studies et études filmiques», *Iris*, 26, 1998.

SILVERSTONE Roger, *Television and Everyday Life*, Londres, Routledge, 1994.

SIMMEL Georg, *La Tragédie de la culture* (1895-1914), Rivages, 1988.

SINGLY François de., *L'Individualisme est un humanisme*, Éditions de l'Aube, 2005.

_____, *Les uns avec les autres*, Armand Colin, 2003.

_____, *Libres ensemble. L'individualisme dans la vie commune*, Nathan, 2000.

STRATTON John, ANG Ien, «On the impossibility of a global cultural studies. «British» cultural studies in an «international» frame», *in* MORLEY David, KUAN-

t.me/ktabpdf

مكتبة

HSING Chen, (dir.), *Stuart Hall. Critical Dialogues in Cultural Studies*, Londres, Routledge, 1996.

THOMPSON John B., «La nouvelle visibilité», *Réseaux*, 129-130, 2005.

_____, *The Media and Modernity. A Social Theory of the Media*, Cambridge, Polity, 1995.

TOURAINE Alain, *Pourrons-nous vivre ensemble? Égaux et différents*, Fayard, 1997.

_____, *Production de la société* (1973), Le Livre de Poche, 1993.

TURNER Stephen, *The Social Theory of Practices. Tradition, Tacit Knowledge, and Presuppositions*, Chicago, Chicago University Press, 1994.

URRY John, *Sociologie des mobilités. Une nouvelle frontière pour la sociologie*? (2000), Armand Colin, 2005.

WALZER Michael, *Sphères de justice. Une défense du pluralisme et de l'égalité* (1983), Seuil, 1997.

WARNIER Jean-Pierre, *La Mondialisation de la culture*, La Découverte, 2000.

WOLTON Dominique, DACHEUX Éric (dir.), «Les cohabitations culturelles en Europe», *Hermès*, 23/24, 1999.

WOOLGAR Steve, «Configuring the user. The case of usability trials», *in* LAW John (dir.), *A Sociology of Monsters. Essays on Power, Technology and Domination*, Londres, Routledge, 1991.

ZELIZER Barbie, ALLAN Stuart (dir.), *Journalism after September 11*, Routledge, 2002.

t.me/ktabpdf

مكتبة

الفصل السادس عشر

الإنترنت و«التكنولوجيات الجديدة للإعلام»[76]
مشكل العودة إلى الأشياء

إنّ المجتمع «التفكريّ» الذي يحجم عن الاستثمار المكثّف في العنصر الدينيّ الشموليّ في الهويّات الاجتماعيّة الجامدة، مثلما كانت تفعل مجتمعات التقليد ومجتمعات الحداثة الصناعيّة، إنما يحلم حلم نصف يقظة بالتقدم العلميّ الحاسم وبالثورة التقنيّة في أنماط المعيشة، بالمقولات «الأشباح» كما وصفها أولريش بيك، ويدرك بشكل حاد متطلبات الموضعة والتذويت (التحوّل إلى الذاتيّة) ويحوّلهما إلى تطلعات متناقضة. وبهذا، فإنه يشكل أرضيّة ملائمة للتعبير عن أيديولوجيتين شبه حداثيّتين تكمّل إحداهما الأخرى: الأولى مثاليّة ومخيِّبة للآمال، إنها أيديولوجيا ما بعد الحداثة، والثانية ماديّة متحمسة، إنها أيديولوجيا التقنيّة البروميثيوسيّة[77]. إن التقاء الأيديولوجيا الثانية بالطوباويّات السيبرنيطيقيّة والماكلوهانيّة، سواء لدى الجمهور العريض أو في المنشورات الجامعيّة، يتجلى باستمرار

---

(76) نُشرت عناصر من هذا الفصل تحت عنوان «هل الإنترنت ميديا جديد؟»، في مجلة لي كاييي فرنسي (Les Cahiers français) رقم 295 الصادر عن سلسلة الوثائق الفرنسيّة (La Documentation française, 2000).

(77) كل التقاطعات ممكنة بين التفاؤل والتشاؤم والنزعة التقنيّة وما بعد الحداثة، لكن الأشكال المهيمنة اليوم هي تلك التي ذكرناها في الأيديولوجيّتين.

t.me/ktabpdf

مكتبة

عبر العودة إلى الأشياء وخصائصها الاجتماعيّة التي تفترضها التنظيرات. لقد جسدت شبكة الإنترنت في نهاية القرن العشرين أفضل من غيرها (تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة) الأملَ الجديد، لذا نخصص هذا الفصل لنمطها الاتصاليّ الذي نَدْرُسه في سوسيولوجيا الاتصال عبر ثلاث مراحل: نقد الطوباويّات التي اكتنفت انطلاقتها، وعرض الاستخدامات التي تشكل حاملها وتَبَيُّن إدغامها في الممارسات الاجتماعيّة المتباينة التي تشترك في بناء هذه الأداة. وأخيرًا، التفكير في أشكال المنطق الجديدة التي كشفتها مَرْكَزَةُ شبكة الإنترنت. وسنتطرق في الوقت ذاته إلى موضوع «الديموقراطيّة الإلكترونيّة» التي تَمدّ خطابات التجديد التقنو - اجتماعيّ إلى الميدان السياسيّ، وذلك من وجهة نظر الأساطير التي تؤسسها، وواقع ممارساتها، وتعدديّة الطموحات التي تكشف عنها.

الإنترنت: وعود وتخيّلات ميديا متشعب

اجتاحت شبكة الإنترنت بشكل صاخب المخيال المعاصر قبل أن تغدو أداة ذات انتشار واسع. لقد جعلتها إمكاناتها الهائلة مادة طوباويّة يتقاسمها كُلّ الحالمين بإقامة فضاء «افتراضيّ» بواسطة التكنولوجيا الجديدة، و«قرية عالميّة» تقوم على الحرية والتفاهم والآنيّة والتبادل الأخويّ بلا حدود. لقد وضعت الإنترنت حدًّا للتراتبيّة الاجتماعيّة بتمكين جميع النّاس من الاتصال بعضهم ببعض، سواء كانوا مجهولين أو معلومين، وعملت على تطوير التفاهم الجماعيّ والإعلان عن تحرير الثقافة الجماهيريّة التي يمثلها

t.me/ktabpdf مكتبة

التلفزيون وأغرقت الأشخاص في السلبيّة... إن الخطابات عن شبكة الإنترنت تسبح في أيديولوجيا التقدم الساذجة، أو بالأحرى الفوضويّة لدى المفكرين الأميركيّين والشرائح الاجتماعيّة الوسيطة، أو الفوريريّة(*) في أوساط المثقفين الفرنسيّين (ضمن تقاليد النزعة التضامنيّة لدى المهندسين)، مع الإشارة إلى النقاط المضادة لهذا التصور، مثل نقد المخاطر المُحْتَملة التي يحملها النفاذ الحر إلى المواقع الإلكترونيّة الإباحيّة والخليعة، وانتهاك الحريات الأساسيّة عبر استغلال المعلومات الشخصيّة، ومخاطر تفتّت المجتمع الذي لم يَعُد يتكون سوى من الأشخاص المرتبطين بشبكة الإنترنت، ما يقلق الأوساط الشعبيّة.

إنّ شبكة الإنترنت ميديا بالمعنى الواسع للكلمة أي أنها حامل تقنيّ للاتصال[78]. وتستمد إمكاناتها الهائلة من طابعها المتعدد الوسائط تحديدًا، والذي يجمع الصوت والصورة والنصّ، إذ يمكن أن نرسل الرسائل المكتوبة والصور الثابتة والمتحركة والموسيقى عبر شاشة الكمبيوتر الموصولة بالشبكة العالميّة ونتلقّاها، ونتصفح

(*) نسبة إلى شارل فورييه (Charles Fourier)، فيلسوف فرنسيّ (1772 ـ 1837) ، اتسمت فلسفته بنزعة إنسانيّة واشتراكيّة، إذ رأى أن الناس يجب أن يعيشوا سعداء، كل شخص يعمل وفق طاقته وميوله.

(78) عادة يحيل مفهوم «الميديا» (média) إلى الحوامل التقنيّة والاقتصاديّة المستخدمة لبث الرسائل على أوسع نطاق (الإذاعة والتلفزيون، وغيرهما). ويحيل أيضًا إلى فكرة تقنيّة الاتصال المحضة: فالإنترنت تحشد المصادر المكتوبة والصورة والصوت.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بنوك المعلومات. ولتسهيل الإبحار في شبكة الإنترنت تم تطوير برامج «النصّ المتشعّب» بالاعتماد على القدرات الإدراكيّة والتعليميّة «الطبيعيّة». إن هذه البرامج التي تأسست على الفكر المجدول والتلخيصيّ: أن نفكر أوّلًا وقبل كُلّ شيء انطلاقًا من الترابط، تمثّل ابتكارًا حقيقيًّا في طريقة تصورنا البحث عن المعلومات. فـ«الشبكة» أو (World Wide Web) هي نظام يسمح بالنفاذ إلى المصادر المختلفة بتشكيل لغة مشتركة بينها. وعلى هذا الأساس، يعتبر البعض أن الإنترنت ميديا فائق (supermédia)، وغول يلتهم وسائط الاتصال الأخرى. إن هذه الشبكة مدعوة لتغدو وسائط الاتصال الوحيدة في المستقبل، نظرًا إلى طابعها الكوني، ومرونتها، وأنماط نقلها البيانات وكلفة استخدامها الزهيدة. ألا توجد منافسة شرسة في عالم المكتوب والسمعيّ البصريّ باقتراح نصوص وصور، في كُلّ وقت، بأعداد متزايدة، وأسعار منخفضة باستمرار؟ ألا تشكل شبكة الإنترنت خطرًا على الصحيفة وعالم الكتب القديم، وحتّى على شاشة التلفزيون التي تعاني من غياب التفاعليّة مع جمهورها؟ ألا تتضمّنهم، ببساطة، بفعل الظاهرة التي تسمى مواءمة التقنيّات: محطات تسمح بـ«الإبحار في الويب» من جهاز التلفزيون والكتاب الإلكترونيّ والقنوات التلفزيونيّة والمحطات الإذاعيّة التي تبث برامجها عبر الويب، وغيرها؟

بالنظر إلى التزايد الرهيب في الربط بشبكة الإنترنت في الدول الغربيّة، من الممكن أن نستقرئ أن كُلّ السكان سيملكون التجهيزات التي تسمح لهم بهذا الربط في السنوات القليلة القادمة، ونحلم بتعميم علاقة جديدة بالمعرفة والترفيه: علاقة فرديّة تحديدًا، وحتّى

t.me/ktabpdf مكتبة

متشذّرة، وعلاقة تقف بين ما هو ترفيهيّ (للتسلية) وتعليميّ وبين الإنتاج والاستهلاك. ونظرًا إلى أن شبكة الإنترنت تسمح بالعثور على ما نحبه وتنشر إبداعاتنا الخاصّة في الوقت ذاته، ستغدو ميديا حرة، بل مليكة وسائط الاتصال، التي تحرّرنا من ديكتاتوريّة الفكر التحليليّ من جهة، ومن طغيان وسائل الإعلام ومن السلبيّة من جهة أخرى.

مانويل كاستلز وسراب مجتمع الشبكات

جسّد مانويل كاستلز (Manuel Castells) أفضل من بقيّة أنبياء زمانه الطوباويّة الجماعويّة والتقنويّة، التي تجلت ببروز «التكنولوجيات الجديدة»، في سلسلة من الكتب العديدة التي نشرها باللغة الإنكليزيّة بين سنتي 1996 و1998، في وقت انفجر اقتصاد التكنولوجيا الرقميّة، وتزايدت خطابات الحكومات الأميركيّة عن «الطرق السريعة للمعلومات»، والنزوات التي عبرت عنها اللجنة الأوروبيّة في تطوير «مجتمع المعلومات». يرى هذا الكاتب، الجغرافيّ الاجتماعيّ القريب من ماركس وتورين والمتأثر بماكلوهان وإنيس وبودريّار، أن «مجتمعًا جديدًا» في طور البروز يتأسس على «الرأسماليّة المعلوماتيّة» و«الثقافة الافتراضيّة الحقيقيّة». وحجته في ذلك هي كما يلي: تؤثّر العولمة على الرأسماليّة فتقوي دور التدفقات (خاصّة الماليّة) وتكنولوجيات الإعلام والاتصال، وذلك بالقضاء على الإكراهات الزمنيّة والمكانيّة، وتعزّز توسع الرأسماليّة، وتتخلص في الوقت ذاته من العلاقات الاجتماعيّة الناجمة عن مشكل التراتبيّة.

t.me/ktabpdf مكتبة

وتأتي ثقافة الوسائط المتعددة، أبجدية عصرنا الجديدة، لتعزّز رغبة الانغِمار في عالم الشبكات من دون تراصف اجتماعيّ حيث تكون معرفة الواقع والغير تحصيل حاصل. هذه رؤية عالم بلا بيروقراطيّة، عالم مجرد من طابعه الجماهيريّ ومتمركز على الفرد، رؤية تغري، لأنها تلبي بعض التطلعات التي اكتشفها سوسيولوجيّو التّفكّر في الثقافات المعاصرة، لكنها أبعد من أن تكون أصيلة طالما بدت تقاليد مفكري نهاية الأيديولوجيات والصراع الطبقيّ راسخة (انظر: Mattelart, 1999, Garnham, 2001). وتستند هذه الرؤية إلى الحتميّة التكنولوجيّة تحديدًا، وبشكل علني: إن ما هو اجتماعيّ لا تعتمله تكنولوجيا الإعلام والاتصال ولا تعدله، إنه في تفاعل معقّد، بل حتّى في تشابك جزئي، إنه ببساطة مشابه لهذه التكنولوجيات («التقنيّة هي المجتمع»، **المجتمع في الشبكات** *La Société en réseaux*، ص 25). لا يكتفي مانويل كاستلز بخلط التكنولوجيات بالمجتمعات، بل يُشبّه أيضًا الشبكات بالمجتمعات، في حين أنّ الشبكات ليست سوى أشكال خاصّة من تنظيم المجتمعات في طريق التطوّر. فهذا التَمَثُّل ذو البعد الواحد للمجتمع وفق ما لاحظه جان فان دايك (Van Dijk, 1999)، يسحق كُلّ الاختلافات ولا يسمح بالبروز سوى لأيديولوجيا حداثيّة جدًّا أو شبه حداثيّة تجمع أحلام التحرّر الديموقراطيّ لـ«عصر الأنوار» بالعقلانيّة الباردة الخالية من القيّم ومن الاختيار السياسيّ للرجال. لقد فند الكثير من الحقائق المؤكدة هذه الرؤية: أن الشبكات لم تطعن بشكل أساسيّ في الرأسماليّة المعاصرة التي تدار منذ مُدّة وفق مبدأ تجزئة أسواق العمل، وذلك بوجود سوق الأشخاص المؤهلين تأهيلًا جيّدًا

t.me/ktabpdf مكتبة

والعارفين والمترابطين في الشبكات، وسوق يدار بأقلّ من هذا المبدأ، فتَمَلُّك تكنولوجيات الإعلام والاتصال ليس أمرًا بسيطًا بالنسبة إلى غالبيّة النّاس. وليس الإعلام مرادفًا للمعرفة، وما هو افتراضيّ ليس كيانًا ميتافيزيقيًّا يسمح بالنفاذ إلى عالم متحرّر من كُلّ ثقل وجاذبيّة اجتماعيّة... ويبدو الحديث عن «مجتمع الاستهلاك» بالطريقة ذاتها التي كنا نتحدث بها عنه قبل ثلاثين سنة، معتقدين أننا نشير إلى كائن شيطانيّ مستقل ذاتيًا، غير مناسب علميًا. كما أن الحديث عن «مجتمع المعلومات» أو «مجتمع الشبكات» الذي يمنحه وجودًا خاصًا، من باب تبجيله وتقديسه، أو تعريضه للازدراء العام، يمكن أن يُضَلِّل، فمجتمع المعلومات أو الشبكات لا يغطي أي واقع جوهريّ، لكنه يظهر، على الأقلّ، الاهتمام الماديّ والاجتماعيّ الزائد الذي نوليه لبعض وسائل الإعلام.

ما وراء الطوباويّة: ميديا غير متجانس وحامل تقنيّ وحيد

من الضروريّ أن نوجّه نظرة تاريخيّة ونقديّة إلى أيديولوجيا الشبكات هذه التي يُعدّ مانويل كاستلز أبرز منظّريها، ومن الضروريّ مقابلة ذلك بنظرة نقديّة وتاريخيّة.. ويكفي أن نقارن الخطابات عن الإنترنت بالخطابات التي واكبت انطلاق التلغراف والإذاعة والفيديو الجماعاتيّ لنتأكّد من غياب أي جديد في الحماس لهذه الوسائط سوى تنوعه وصرامته (Carey, 1989, Mattelart, 1999).

اعتبر مارشال ماكلوهان، أحد أبرز أنبياء الاتصال في ستينيّات القرن الماضي، التلفزيون (الذي قَدَحَ فيه المنافحون عن الإنترنت) بمثابة عماد الثورة بالصوت والصورة التي تؤدي إلى تشكيل «القبيلة

t.me/ktabpdf مكتبة

العالميّة». إن هذا الافتراض ذا النزعة الحتميّة الخاص بعلاقة البشر بالمبتكرات التكنولوجيّة يتكرّر من دون كلل: ستكون التقنيّة عاملًا يفسر الحياة الاجتماعيّة ويقود التاريخ. فإذا ميّزنا بين إدغام الإنترنت الفعليّ في الممارسات الاجتماعيّة والخطابات ذات النزعة التقنيّة، وحلّلنا المنظومة التي تستخدمها، يبدو جليًا أن الإنترنت ليست الثورة المعلن عنها. بالفعل، لا يمكن إهمال مساهمة شبكة الإنترنت، ولا التقليل من شأن أثرها الاجتماعيّ، بيد أنه لا يمكن التغيير الاقتصاديّ والتقنيّ الذي تحدثه هذه الشبكات، مهما كانت قوّته، أن يقوم بمفرده بانقلاب في علاقات البشر في مطلع هذا القرن.

وفي الحقيقة، ليست شبكة الإنترنت ميديا متجانسًا، أما خوادم البيانات فتشكّل أدوات بحث، أي أداة تسمح بالتصفح الوظيفيّ للمعلومات. ويعدّ البريد الإلكترونيّ أداة اتصال بين الأشخاص، بينما تعتبر المنتديات الإلكترونيّة فضاءات للمناقشات الجماعيّة والعمل المشترك. وينقل الـ«ويب» جزئيًّا المحتويات من الجنس ذاته الذي تبثه وسائل الإعلام الجماهيريّ أو وسائل الإعلام المتخصصة. ويقوم بعض المواقع الإعلاميّة أو الترفيهيّة بوظائف قريبة من تلك التي تؤديها المجلات الورقيّة والوريقات السيارة (صحيفة الرأي ذات الحجم الصغير جدًا)، والبرنامج التلفزيونيّ، والحفل الموسيقيّ الذي يُسْمع ويُشاهد مباشرةً... إن للمواقع الإلكترونيّة التسويقيّة وظائف إعلانيّة (مطويّات لإبراز الشركات) أو ببساطة وظائف تِجاريّة، فإن كانت الإنترنت تقدم مبتكرات جديدة فعلًا في مجال الاتصال، فوحدة العنصر الجديد المفترض لا تكمن إلا في الحامل المستخدَم:

t.me/ktabpdf مكتبة

الربط بين الكمبيوترات. إن شبكة الإنترنت تشترك مع الخان الإسبانيّ في بعض الأشياء أو تشبه عمليّة لَمٍّ قائمة من الأشياء غير المتجانسة، إذ تجمع في الوقت ذاته، ومن دون ترتيب، الأدوات الماليّة للكوادر التي تدير «مباشرة» أرصدتها في البورصة والمراسلات البريدية الخاصّة ومحتويات المواقع الإلكترونيّة الإباحيّة والخليعة ومجلات الموضة، وإجراءات العمل عن بعد.

ونظرًا إلى أن شبكة الإنترنت لا تنقل ما هو متجانس، وتلبي طلبات اجتماعيّة متعارضة، فإنها تتطوّر بشرائح تتزايد عدديًّا ومتراكبة بعضها فوق بعض، ومتعارضة في الغالب في منطقها، فبعد العسكريّين الذين اخترعوا هذه الشبكة بغرض التبادل التقنيّ، والجامعيّين الذين عدّلوا فيها استنادًا إلى قيم التعاون، وإلى طابعها المجانيّ والتلقائيّ (Abbate, 1999, Flichy, 1999)، استملكها العالم التِجاريّ، الذي أدخل عليها منطق الإعلانات والمال، ثمّ الإداريّـون والسياسيّون الغيورون على «المواطنة الإلكترونيّة». لقد اكتشفها الجمهور العريض واستخدمها من دون أن يحترم بالضرورة المثل المتتالية التي كان يرومها مصمموها ومستخدموها الرواد: تخلط إجراءات التبادل الخاص وشبكات التعاون بأكثر من منطق بيروقراطيّ وتِجاريّ، فتتحوّل في بعض الأحيان إلى هجين.

تُظهر تقارير استخدامات الإنترنت التقويميّة الأولى، أن الهدف الموسوعي والإبحار الراسخ كان متواضعًا، وإن كان استخدام محركات البحث معتبرًا، فلم يتم التأكّد من صِحَّة الأسطورة الإعلاميّة (النفاذ إلى إعلام خام وسريع وكأن ولوج العالم وبلوغ

t.me/ktabpdf مكتبة

الحقيقة يتحقّقان بمجرد «النقر» على فأرة الكمبيوتر). إن شبكة الإنترنت سلاح رائع لتقاسم البيانات وتخزينها، لكنها لا تملك أي ميزة كبرى تفسّر ميلاد فكر كوني جديد، ولا تقدم مفاتيح لفهم المعطيات التي تتضمّنها، إضافة إلى أن أي مصدر إعلاميّ لم يتمكن أبدًا من الاستغناء عن التأويل وإعادة تأطيره السياقي[79]، وهذه هي أطروحة دومينيك وولتون (1999) التي يؤكّد فيها أن الإنترنت تجسِّد منطق الطلب أكثر من منطق العرض أي أنها تعزّز تشذّر الفضاء العموميّ وليس العكس، فالإنترنت ليست ميديا بالمعنى الواسع للعبارة أي وسيلة تجمع النّاس على غرار وسائل الإعلام. إنّ منطق الطلب الذي يقود المستخدمين يتضمّن الكثير من النقائص الخطيرة: إنّه منطق متعِب في ميدان الإعلام وقليل العائد وعازل... لقد أشار توكفيل إلى أن التفكير يبدأ في اللحظة التي نشرع فيها في تصديق الغير، فمن المستحيل أن نفكر في كُلّ شيء بمفردنا، ما يفسر أهميّة الآراء المهيكلة ووجود وسطاء في ميدان وسائل الإعلام (صحافيين، سياسيّين، ومواطنين...). وبصرف النَّظَر عن استهلاك المحتويات المخصوصة التي تبثها وسائل الإعلام وعمّا تؤاخَذ عليه في الغالب، كالقول إنها تشجع سلبيّة الجمهور المقيتة، فإن متعة وسائل الإعلام تكمن في أنها تتيح لنا «أن نشاهد معًا»، أو أن نشاهد ما شاهده الغير، وهذا الأمر مُهِمٌّ ومُقَدَّرٌ ويستحق أن يكون موضوع نقاش.

---

(79) أظهرت الدراسات الخاصة بتبعات المعلوماتيّة في قطاع التعليم، منذ العديد من العقود، أن عُدّتها لا تحسّن مسار تحصيل المعارف، لكنها تعزّزعمليّة التفاعل مع الأساتذة أحيانًا.

مكتبة

t.me/ktabpdf

مكتبة

استخدامات الإنترنت

تصطدم رؤية التوسع غير المحدود لعُدّة المعلوماتيّة وتفاعليّة الشبكات، والتي تستند إلى الأنموذج الانتشاري (التوزيعي) (من الأكثر ثراءً وكفاءة إلى الأشدّ فقرًا والأقلّ كفاءة)، بحقائق اقتصاديّة واجتماعيّة أكثر تعقيدًا، فإن كانت نسبة تغلغل الإنترنت في البلدان المالكة لأكثر التجهيزات، مثل الولايات المتحدة الأميركيّة والبلدان الإسكندينافية قد بلغت ما بين 60 و75 في المئة من السكان، ويبدو أن هذه النسبة لن ترتفع أكثر(*)، فالدراسات التي تطرقت إلى «الفجوة الرقميّة» (خاصّة تلك التي أطلقتها بيبا نوريس (Norris, 2001). انظر: (Lelong, 2003, Rallet, 2004) لفتت النظر إلى العوامل الاقتصاديّة والمدرسيّة وعدم توافر التجهيزات التكنولوجيّة الرقميّة التي تسببّها، إذ هناك العديد من العوائق التي تقف في وجه انتشار هذه التكنولوجيا، مثل الأميّة وكلفة استخدامها: نصف سكان العالم يعيشون بعيدين عن الهاتف الثابت بمسافة يستغرق قطعها حوالى ساعتين! إن استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال

(*) تبدو الإحصائيات التي بنى عليها الكاتب تحليله قديمة نوعًا ما، إذ إن مختلف المصادر الرسمية تشير إلى أن معدل تغلغل شبكة الإنترنت في النرويج كان بين 92 و95 في المئة في أول يناير 2015، و87.4 في المئة في الولايات المتحدة الأميركيّة في مطلع 2014، وأن إمكان تصفح الإنترنت على شاشة الهاتف الذكي غيّر كثيرًا التوقعات. انظر على سبيل المثال:

Union Internationale des télécommunications: Manuel sur la mesure de l'accès des ménages et des particuliers aux technologies de l'information et de la communication (TIC) et de l'utilisation de ces technologies, édition 2014.

يتزايد بصفة عامّة بتزايد مستوى الدخل والحصول على الشهادات العلميّة. ويظلّ السِّنُّ المتغيّر الأكبر في هيكلة هذا الاستخدام. لقد نشأت الأجيال الجديدة في ظل تكنولوجيا الإعلام والاتصال بدءًا من المدرسة وفي الوسط المهنيّ: فكلما كان المرء صغير السِّنّ ازداد احتمال امتلاكه التجهيزات التكنولوجيّة (بالنسبة إلى الأشخاص الذين تجاوز عمرهم 15 سنة). وفي سياق يتسم بانخفاض أسعار المُعَدّات التكنولوجيّة وتجدّد الأجيال، يجوز التفكير بزوال عوائق امتلاك عُدّة التكنولوجيا الرقميّة واستخدامها، بيد أن «المعلوماتيّة تعاني من عدم المساواة أكثر مما تعاني من الدخل»، مثلما لاحظ ذلك الباحث بنوا ليلونغ، بسبب ما تتطلبه من كفاءات خاصّة جدًا. هذا إضافة إلى أن التفاوت في استخدام الإنترنت يُعدّ أكبر من امتلاك جهاز كمبيوتر، فامتلاك ثقافة المعلوماتيّة تتسنى عبر معرفة اللغة الإنكليزيّة واكتساب مهارات تقنيّة، وألفة مع العُدّة التقنيّة، وروتين التعلم، كلها عوامل تقوم بدور أساسيّ في استخدام الإنترنت، لذا فإنّ إمكان تجنيد شبكة الأقارب للحصول على المساعدة في استخدام الإنترنت تعدّ عاملًا حاسمًا. وقد يجد المرء، بصرف النظر عن سِنّه، في الأشخاص المحيطين به الذين يستخدمون الإنترنت عاملًا مؤثّرا على اتخاذ قرار استخدامه الإنترنت.

وعلى صعيد آخر، تخفي نسبة امتلاك العُدّة التكنولوجيّة قلّة التنوع في استخدامها لدى شريحة واسعة من السكان. ويمثّل الانقطاع نهائيًا عن استخدام الإنترنت، بعد بضعة أشهر من تجريبها، حقيقة إحصائيّة مؤكدة. أما مستخدموها بشكل محدود، فهم أقرب

t.me/ktabpdf
مكتبة

إلى مقاومي مستعمليها من بقيّة المستخدمين (مثلما هو الأمر في مجال الهاتف الجوّال، Gaglio, 2005). إنهم يتعاطون معها بمقدار محدود، لعدم رغبتهم في أن يصبحوا تابعين للتكنولوجيا، وحتى لا تطرح المزيد من إكراهات العمل. وتبدو كلفة الوقت تمييزية بشكل خاص، فعلى رغم كُلّ الخطابات التي تقرن الإنترنت بإمكان الارتحال، إلا أنها تُسَمِّر الأشخاص طويلًا أمام الشاشة، ولا تُدرَك دائمًا حسناتها في هذا السياق. لقد لخص الباحثون بمَزْحَةٍ مسارَ الشباب في كاليفورنيا، عندما أكَّـدوا الجملة التالية: «لقد تركوا السباحة في شاطئ البحر للإبحار في شبكة الإنترنت، ثمّ عادوا إلى السباحة» (Wyatt, Thomas et Terranova, 2002). بصفة عامّة، تغري الشبكات بشكل أقلّ مجموعتين من البشر الباحثين عن إجـراءات الاتصال المباشر. تتشكل المجموعة الأولـى من النساء، لأنهن يتعلقن بالتلفزيون أكثر ليدمجهن في إيقاع الحياة العائليّة، فالتلفزيون لا يحدث انقلابًا في حياة الزوجين والأقارب (Le Douarin, 2004, Lelong et Martin, 2004)، ويتعلقن بالهاتف الجوّال الذي يسمح لهن بالحفاظ على شبكة العلاقات، فالنساء يعانين من المعلوماتيّة التي صمّمها الرجال من أجل الرجال، وهذا وفق استمراريّة تصور البناء الأبويّ للعلوم التقنيّة (Turkle, 1984, 1995). لقد صححت بحوث ما بعد الجندر أو الجنوسة هذه الملاحظة، إذ أظهرت أن استخدام النساء المعلوماتيّة يمكن أن يرافق تحرّرهن أو يعزّزه. وبهذا المنطق، فإنّ شبكة الإنترنت لم تخصَّص «لجنس محدّد» (Jouët, 2003, Van Zoonen, 2002).

مكتبة t.me/ktabpdf

وتتشكل المجموعة الثانية من المتقدّمين في السن، خصوصًا في الأوساط الشعبيّة، لأنهم يستخدمون الإنترنت بشكل أقلّ، لشعورهم بأن إحالتهم إلى المعاش تعني المزيد من وقت الراحة الذي يفضلون صرف بعضه في لقاء الغير وجهًا لوجه من دون الحاجة إلى الفاعليّة التقنيّة لربح الوقت (Caradec, 1999, 2001).

وأشارت الدراسات النوعيّة الأولى لاستخدامات التكنولوجيا (Boullier, Charlier, 1997, Chiaro et Fortunati, 1999, Haddon, 1999) إلى جانب لم يكن منتظرًا قط، إذ أكّدت أن انتشار الإنترنت كان سريعا جدًّا ومتواضعًا[80] في الوقت ذاته، فلم يسبق لأي تكنولوجيا أن حقّقت انتشارًا واسعًا في مُدّة زمنيّة قصيرة جدًّا، لكن استخدامات الإنترنت استخدامًا غير مهنيّ اقتصرت في غالبيّة الوقت على قراءة / كتابة الرسائل الإلكترونيّة وتصفح عدد محدود من المواقع في صفحات الويب (مواقع السفر الإلكترونيّة...). لقد استخدمت الأسر البريد الإلكترونيّ الذي اتخذ شكلًا شبه شفويّ (انظر: Hert, 1999, Jouët, 1997) كرابط يجمع البريد المكتوب التقليديّ بالاتصال الهاتفي، والتلقائيّة بالبعد، والإرسال الآنيّ بالمؤجل، لكنه أعاد جزئيًّا الانقسام الاجتماعيّ، فأكثر مستخدميه ينتمون إلى الأوساط الاجتماعيّة العليا ويتمسكون بالطابع الشخصيّ

(80) يوجد اليوم العديد من البحوث عن الإنترنتيّين (عددهم ، تواتر ولوجهم إلى المواقع الإلكترونية، موقفهم، تسوقهم من خلالها)، غير أنه يجب التعامل مع بعضها بحذر، لأنها تتضمن مغالطات أكثر من البحوث التقليديّة التي تتم وجهًا لوجه. للقراءة عن هذا الموضوع راجع جوّيه (Jouët, 2004).

t.me/ktabpdf

مكتبة

لمراسلاتهم كما يحافظون على الصياغة النحويّة والإملائيّة السليمة لرسائلهم. وعلى العكس من ذلك، تجرى المحادثات المباشرة والسريعة عبر شبكة الإنترنت «الدردشة الإلكترونيّة» (chat) بين أشخاص مجهولي الهويّة، من دون أن تترك أثرًا، يجريها الراشدون من الشباب القادم من الأوساط الشعبيّة بشكل أكبر مقارنة بمدى ابتعاده عن الثقافة الشرعيّة (Beaudoin, 2002). لقد حلّت الرسائل النصية الآنيّة محلّ هذه الدردشة، وتتميّز الرسائل بكونها تجمع الأشخاص الذين يعرف بعضهم بعضًا: أن الافتراضيّ هو أوّلًا وقبل كُلّ شيء امتداد للتنشئة الاجتماعيّة التي ينجزها الاتصال وجهًا لوجه، فإذا كانت وظائف الإنترنت الأخرى تغري أقليّة قويّة من الأشخاص فيستخدمونها بكثرة في العالم المهنيّ، فإنها لا تشجع قط القسم الأكبر من الإنترنتيّين. هذا دون الإشارة إلى الذين لا يستخدمون الإنترنت أبدًا، ولا يشذّ تحميل الموسيقى من شبكة الإنترنت عن هذه الملاحظة، فهذا التحميل يتطلب كأي ممارسة تجهيزات تقنيّة متطوّرة جدًّا وكفاءات معلوماتيّة ووقتًا، إذ يمارسه الشباب الذكور المتعلمون وميسورو الحال (خلافًا للشباب من أبناء الفئات الشعبيّة الذين يستهلكون مضامين وسائل الإعلام بإفراط، مثل التلفزيون).

سوسيولوجيا استخدامات التقنيّات

تطوّرت سوسيولوجيا استخدامات التقنيّة (التي نجد عرضًا لها في: Chambat, 1994, Jouët, 1993 et 2000, Mallein, Toussaint, 1994, Proulx, 2001) على أثر بحوث «الاستخدامات

t.me/ktabpdf مكتبة

والإشباعات»، ونظريّة انتشار المبتكرات، تحديدًا، وفي إطار وظيفيّ أوّلًا، إذ دعت إلى ملاحظة انتشار التقنيّة الجديدة أو المنتَج في الجسم الاجتماعيّ، واعتبرته بمثابة تقدم. وقد استخدمت نماذج الرواد / التابعين التي صاغها أفريت روجرز. إنّ هذا التيار، الذي أُوخِذَ على فصل فضاء الإنتاج عن فضاء البث والتوزيع وعلى نزعته التبريريّة للمبتكرات (انظر الملخص الذي قدمه دومينيك بوييه Boullier, 1989)، سمح بهيكلة البحوث الكميّة الأولى عن تكنولوجيات الإعلام، على الأقلّ. ويمكن تشخيص مسارين علميَّيْن في سوسيولوجيا الاستخدامات التقنيّة انتشرا لاحقًا، ويستندان أكثر إلى المنهج النوعيّ، أحدهما فرانكوفونيّ، والثاني أنغلوساكسونيّ، وهما اليوم في طريق الالتقاء بعد إدماجهما التقنيّات في الثقافات. وتجب الإشارة هنا إلى مدرسة المبتكرات ثمّ مدرسة الإدراك المعرفيّ الموزع(*) (cognition distribuée)، لما أولياه من اهتمام للعلاقة بالأشياء وبالعُدّة التكنولوجيّة وإن كانت آفاقهما لا تفلت أحيانًا من الإغراء ذي النزعة الطبيعيّة (أكّدت المدرسة الأولى تصميم التقنيات فقط، وركزت المدرسة الثانية على النماذج الإدراكيّة).

(*) نظرية في علم النفس وضعها العالم إدوين هتشينز (Edwin Hutchins) في منتصف ثمانينيّات القرن العشرين. تنطلق هذه النَّظَريّة من اعتبار الإدراك البشريّ ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة وتقنيّة في آن، وأن مكونات النشاط الإدراكيّ لا تقتصر على التمثّلات الذهنيّة، بل تشمل البنى الاجتماعيّة والثقافة والأفراد والأدوات الماديّة، أي أنها تولي الأهميّة ذاتها للأشخاص والأدوات الماديّة لفهم مسار عمليّة الإدراك.

t.me/ktabpdf مكتبة

حلّ البحث الذي صيغ على منوال سوسيولوجيا الاستهلاك لدى الأسر وسوسيولوجيا الممارسات الثقافيّة، على وجه التحديد، في البلدان الناطقة باللّغة الفرنسية محلّ مقاربة انتشار المبتكرات، هذا البحث الذي يعدّ أقلّ معياريّة منها (انظر الفصل التاسع). إنها السوسيولوجيا التي تقيس المشتريات، والقروض من أجل الاستهلاك، ونسبة التجهيزات بالعدّة التكنولوجيّة، وتواتر استخدامها ومدّته... وغيرها من المتغيرات التي تدقق في التوزيع المتباين للمعدات التكنولوجيّة بحسب السنّ والجنس والوسط الاجتماعيّ... إلخ. إنّ المفاجآت التي كشفت عنها البحوث الميدانيّة في هذا المجال، مثل ارتفاع عدد مالكي أجهزة الفيديو في الأوساط الشعبيّة أكثر من الأوساط الراقية، أدت إلى سوسيولوجيا التملّك التي تؤكد الجانب السيميائيّ في العلاقة بالتكنولوجيات. لقد ساهمت المناهج النوعيّة منذ عقد سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته، في فهم الاستخدامات الخاصّة أو المهنيّة للكمبيوتر، والأتمتة المنزليّة، والرسائل المتبادلة عبر التيليماتيّة (télématiques)(*)... من خلال الملاحظة بالمشاركة والمجموعات البؤريّة والمقابلة الموجّهة أو نصف الموجّهة

(*) ظهر مصطلح (telematiques) في التقرير الذي أعده سيمون نورا (Simon Nora) وألان مانك (Alain Minc) بعنوان «مجتمع المعلومات»، وترجماه حرفيًا عن المصطلح الإنكليزي (telematics) للتعبير عن ارتباط المعلوماتيّة بقطاع الاتصَالات لتطوير الاتصال في المجتمع، وتجسّد في أجهزة المينيتل (minitel) في فرنسا خلال العقد 1980 ـ 1990 قبل أن تقضي عليه شبكة الإنترنت.

t.me/ktabpdf مكتبة

والملاحظة عن بعد (المستخدمة بكثرة في دراسة حالات ممارسة الإنترنت: أنظمة تسجيل زيارات المواقع الإلكترونيّة). وتشكل البحوث الرائدة التي قام بها كُلّ من جوزيان جوّيه (Josiane Jouët) ودومينيك بوييه وسيرج برولكس وتييري بارديني (Thierry Bardini) وإيف توسان (Yves Toussaint) مرجعًا في هذا الميدان، إذ اشارت بخصوص المينيتل (minitel)، تحديدًا، إلى الاستخدام المحدود جدًّا من غالبيّة المستعملين، وهذا خلافًا للتطلعات الطوباويّة. وتُعدّ بحوث ميشال دو سارتو مصدر إلهام مؤكد في هذا الميدان، بينما ظلّت السوسيولوجيا في مجال وسائل الإعلام في تلك الأثناء بعيدة عن هذه الرؤية، بحكم التباين في استخدامها. إن ضعف هيبة التلفزيون، واهتمام الشركات والمؤسسات الجامعيّة والحكومات المفرط بـ«الشبكات الجديدة» المزيّنة في الغالب بكُلّ الفضائل، والتي استفادت من تمويل كبير، يفسران نجاح سوسيولوجيا الاستخدام مقارنة بدراسة التلّقي (بحسب الملاحظة التي قدمتها جوزيان جوّيه). بيد أنه يجب أن نشير إلى أن تصور مختلف مستويات الوصف التي قام بها ميشال دو سارتو يبدو غامضًا في المجالين في آخر المطاف، فكتابه **ابتكار الحياة اليوميّة** شكل في الغالب أنموذجًا للتثمين الفوضويّ للممارسات، ولا يبتعد كثيرًا عن إحياء النصّ الذي ألفه جاك بريو (Jacques Perriault) بعنوان **منطق الاستخدام** (*La Logique de l'usage*, 1989)، أو طاردًا للحركات ذات النزعة الثقافويّة، على الطريقة السوسيو- سياسيّة للاستخدام التي نافح عنها فيتاليس (Vitalis) وبرولكس وفيديل (Vedel) (Vitalis, 1994). هذه

t.me/ktabpdf

مكتبة

الطريقة التي تطمح إلى تأكيد البعد النقديّ في دراسة الممارسات، بإثارة قدرات المنتجين على الالتفاف على المقاومات التي يبديها المستخدمون، وهذا حتّى لا نظلّ نثمّن المستخدم النشِط فقط. إنّ التعارض بين الإستراتيجيّة والتكتيك الذي ورد كاستعارة منهجيّة خاطفة في كتاب ميشال دو سارتو، رُسّخ وفُهم بمعناه الحرفيّ.

الإثنوغرافيا الأنغلوساكسونيّة

لم تنفصل دراسة التقنيّات وتملّكها عن دراسة وسائل الإعلام في منشورات «الدراسات الثقافيّة» في البلدان الأنغلوساكسونيّة التي تفضّل إثنوغرافيا الممارسات أي المقاربة النوعيّة جدًّا التي تمزج تقنيّات المقابلة بالاندماج في أوساط المبحوثين حتى في إطار نقديّ. إن البحوث التي أنجزها دايفيد مورلي عن تأويل الجمهور المعلومات، تعزّزت بالدراسة عن التنشئة الاجتماعيّة بواسطة وسائل الإعلام في الوسط العائليّ، إذ نجد في كتاباته، مثل كتابات روجر سيلفرستون أو لسلي هادون (Leslie Haddon) أن المتغيرات العائليّة هي التي تحسم العلاقة بوسائل الإعلام وليس المحدّد التقني: أنّ الدّخل ورهانات توزيعه، والقيَم التي يتقاسمها أفراد الأسرة أو صراع القيّم، والعلاقات القائمة بين أفراد الأسرة وأصدقائهم... وغيرها من عوامل التوسع في «الثقافات» هي التي قادت البحوث الميدانيّة التي قامت بها شيري توركل (Turkle, 1984, 1995) عن استخدامات الكمبيوتر المتباينة كثيرًا بين الجنسين، والبحوث الأولى عن العالم الافتراضيّ وعن ألعاب الفيديو (Jones, 1994 et 1998, Cassel et Jenkins, 1999، انظر: الدراسة

مكتبة t.me/ktabpdf

الأنثروبولوجيّة التي أشرف عليها وولف وبيرون ,Wolf et Perron 2003). ويشرح دانيال ميلر ودون سلاتر ,Miller and Slater) 2000) مقاربتهما «الإثنوغرافيّة» للإنترنت بالقول إنهما يلاحظان الثقافات الماديّة وليس التكنولوجيات، فهذه الأخيرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأنظمة المعياريّة والإمكانات والإكراهات التي ترزح بثقلها على الممارسات، فالحياة اليومية هي التي تشكل موضوع البحث أي العلاقات بين الأصدقاء وداخل الأسرة والهُويّات والعمل والدين، وليس العالم الافتراضيّ الموجود مسبقًا، والذي يصطدم بالعالم الحقيقيّ والفعليّ. فهدف هذه المقاربة الإثنوغرافيّة يكمن في معرفة كيف تنشأ الفضاءات الاجتماعيّة مع التكنولوجيا، التي من المفترض أن تلغي المسافات الفيزيائيّة ولا تلغي ما هو اجتماعيّ بواسطة التقنيّة (Morley, *Home Territories*, 2000). إن المنتديات، والصفحات الشخصيّة، والبريد الإلكترونيّ لا تشذّ عن هذه الملاحظة، كما أكّدت البحوث الميدانيّة المتعددة التي أجريت في الدول الغربية (فرنسا على سبيل المثال: ,Beaudouin Velkovska, 1999).

العودة إلى الأشياء؟ مدرسة الترجمة

يغطي البحث عن الاستخدامات بمعناها الواسع أرضية ممتدة، إذ يُقصد بالاستخدام البيع والقرض والإيجار والاستعمال الفعليّ ومُدّة الاستهلاك والبعد الأرغونومي (ergonomique) في توظيف العُدّة التقنيّة. أما المحتوى الدقيق للاستخدامات، فيعني الدلالات المتبادلة بين الأشخاص، وولوج ثقافات عائليّة ووطنية، وغيرها. إنه المسار

t.me/ktabpdf مكتبة

ذاته، الجامع تدريجيًّا للمناهج، والذي وُظّف في سوسيولوجيا وسائل الإعلام. إن البحوث تسعى جاهدة إلى إدماج مختلف الأبعاد المثارة في هذا السرد ذاته، على النمط التاريخيّ وليس التلخيصيّ. لقد أصبح الحديث عن الكمبيوتر، مثلًا، ناقصًا من دون ربطه بسوسيولوجيا العائلة، وسوسيولوجيا العمل والمنظمات، وسوسيولوجيا المستخدمين ذاتهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحديث عن الهاتف الجوّال، من دون الالتزام بنظرة «متعددة التخصصات العلميّة ومتكاملة» (انظر الفريق الذي قاده كريستيان ليكوب ومارك ريليو (Licoppe et Relieu, 2002, Licoppe, 2005). ويمكن أن يبدو الطابع الإكراهيّ للتكنولوجيات وحده المنسيّ أو المهمّش في هذه المقاربات التي تبيِّن أن الحتميّات الماديّة لا تصف انتشار المبتكرات وتملّك تكنولوجيا الإعلام والاتصال. لقد تهيكل العديد من التيارات بغرض التذكير بالبعد الفيزيائي للتملّك وتثمين الأداة التقنيّة. فمفهوم «المنظومة» الذي لا يزال غامضًا، ويختلف معناه في كُلّ مقام، يسعى لأن يحلّ محلّ الاستخدام لدى الكتّاب الذين يحاولون إدماج الأبعاد الثقافيّة والماديّة (انظر جاكينو ومونوييه، Jacquinot et Monnoyer, 1999). إن سوسيولوجيا العلوم (*La Sociologie des sciences*) لدى ميشال كالون وبرونو لاتور، تطمح إلى عدم إحداث التعارض بين ما هو بشريّ وغير بشريّ، إذ تلح على طرحهما في نطاق الجماعة فيختلط أحدهما بالآخر من خلال العمليات و«التجارب» التي تجسد موازين القوى والتوافق بين الفاعلين. إن إقامة «مطبّات» في الطريق، أو وجود شرطي مخفيّ

t.me/ktabpdf مكتبة

(Latour, 1993) ليس اختراعًا تقنيًّا محضًا يجبر السائقين على تخفيف سرعة سياراتهم ويفرض عليهم التقيد بسلوك راقٍ يلزمهم برفع أرجلهم عن دواسة البنزين من أجل الحفاظ على حياة الغير، لكنه اتفاق اجتماعيّ - تقنيّ جرى بين رؤساء البلديات، والمهندسين، وجمعيات الأحياء السكنيّة، والأولياء، وسائقي السيارات والحافلات، وسلوك تلاميذ المدارس، ورجال الحماية المدنيّة. لقد انصرف كُلّ واحد منهم إلى إعادة تعريف دائم للوضعيّات (عندما أزالت البلديّة المطبات لأن بعض سائقي السيارات المجانين يرفعون عقيرة أبواق سياراتهم أمام نوافذ ساكني البيوت للتعبير عن استيائهم وتوتّرهم، أو لأن سائقي الشاحنات والحافلات احتجوا على إقامتها...). «ومهما ذهبنا إلى ما هو أبعد في هذا المثال (...) سنعثر دائمًا على العديد من القواعد والعلامات والقوانين والنّاس والمشاعر والأشياء». وفي ميدان تكنولوجيات الاتصال تلهم هذه النظريّة سوسيولوجيا المبتكرات التي تمثلها مادلين أكريش، التي التفتت إلى تصور المنتجات من جهة، وأشكال المستخْدِم، المندمِج في المنظومات، من جهة أخرى.

ويُنظر إلى تصميم المنتجات كسلسلة من التوافقات بين الفاعلين، بما فيها الماديّة، التي تصقل التقنيّات ضمن رؤية تفند نظريّة انتشار المبتكرات، حيث تبدو فيها هذه المبتكرات طبيعيّة، وتدحض النظريّة الماكلوهانيّة التي لا تتصور التقنيّات كاختراعات اجتماعيّة، فالبراهين على إخفاق بعض المنتجات وعدم استقرار بعض المبتكرات تبيّن هشاشة عمليّة بناء هذه المبتكرات، وغياب الحتميّة. إنّ هذا التيار

t.me/ktabpdf مكتبة

يقترح، على صعيد الاستخدام، ربط لحظة تصميم المبْتكر بلحظة تملّكه من دون الرجوع إلى طروحات هيمنة الأشخاص بواسطة التقنيّات والصناعات. وكذلك الأمر بالنسبة إلى السائق، الذي يصبح رؤومًا ويدوس على مكابح سيارته أمام الشرطي المخفيّ. إنه يتمتع بخصائص أخرى غير تلك التقنيّة التي أرادها بعض الفاعلين الذين حَضَّروا لهذا الاستخدام. إنّ التجهيزات الإلكترونيّة، مثل مسجل الفيديو تفكّر جزئيًا في الاستخدام، إذ إنها تتضمّن بعض التعليمات التي تمكن من استملاكها نظرًا لكونها نتاج تفاعل قويّ بين تصورات المستخدم، التي تتضمّن في البداية - جزئيًا على الأقلّ - تطلعات هذا الأخير، وخصائصه. لم ينقطع المصممون عن التملّك بشكل أساسي، فالجمعي (ما يجمع البشر وغير البشر) هو بناء اجتماعيّ لكنه ليس على النمط شبه الحداثيّ الذي يحدث التعارض بين الاجتماعيّ والتقنيّ.

إن حدود هذه السوسيولوجيا التي تساهم في انفتاح البحوث على المستخدم، بطرح بعض الوساطات التي تشكله، تكمن في أنها تخسِر على صعيد فهم الاستخدامات النهائيّة «الفعليّة» ما تكسبه على صعيد تحليل المبتكرات. إنها تفترض وجود تأويل من قطب إلى آخر من دون الانتقال إلى ميادين البحث والاستعانة بالإثنوغرافيا التي تستند دائمًا إلى مبدأ المفاجأة التي يتضمّنها الاستخدام. إذًا، هناك نوع من الحتميّة ينتقل من قطب إلى آخر (لمصلحة لحظة التصميم) يظلّ قائمًا. وتطرح أيضًا هذه البحوث مشكل التفكير، الذي يأخذ شكلًا دائريًا: هناك دعوة للعودة إلى الأشياء التي أُهْملت بغرض النضال ضد

t.me/ktabpdf مكتبة

فصل الموضوع عن الفاعل، لكن يمكن هذه الدعوة أن تعزّز هذا الفصل بالثقل الكبير الذي توليه لوجودهما في الشبكات.

من الاستخدام إلى الإدراك المعرفيّ الموزع

على النقيض من المقاربات الثقافويّة، يعود بعض تيارات البحث إلى الأشياء دفاعًا عن إيكولوجيا الممارسات الاجتماعيّة التي رسخت في العلوم الإدراكيّة، فبالنسبة إلى الباحثين المتمسكين بأن نسميها «تداوليّة الاستخدام» (pragmatique de l'usage)، فإنّ الأفعال الإنسانيّة لا تتمّ في عمق بيئة، بل بواسطة بيئة، فهذه الأفعال تمتزج جوهريًا بالأشياء. ووحدة الفعل تصبح الوضعيّة وليس الشخص الذي يؤمن بوجود حقيقة واحدة أو الظروف الخارجيّة التي تُلقي بثقلها عليه. وهكذا، تفترض نظريّات الإدراك المعرفيّ الموزع (التي صاغها إدوين هتشينز Edwin Hutchins ودونالد نورمان Donald Norman تحديدًا) أن الفعل يُفهم كوحدة عريضة تشمل كُلّ الوظائفيّات التي يكون الإنسان تابعًا لها عندما يقوم بالفعل، ويُنظر إليها كامتداد لقدراته، فالبيئة الإدراكيّة (الشبكة لدى باحثي التأويل والمبتكرات) هي التي تُوضع في قلب التحليل، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الدراسة التي أجراها إدوين هتشينز عن الطيار في مقصورة قيادة طائرته، وتلك التي أنجزها جان لاف (Lave, 1988) عن الزبون في متجر كبير، أو تلك التي قام بها لوران تيفينو (Laurent Thévenot, 1993) عن تصميم عربات الأطفال. إنّ مفهوم الاستخدام يغيّر تعريفه، فلم يعد يغطي الفعل المستقل ذاتيًا أو النسيج الاجتماعيّ المحض (باراديغم التملّك/التلقّي)، بل أصبح يدلّ على الأداء الجيّد لجملة مشكلة من

t.me/ktabpdf مكتبة

عربة الأطفال المستخدمة ومستخدميها المألوفين (Thévenot). إنّ تنسيق الأفعال التي يشترك فيها أشخاص آخرون بعناصر اللمس، والبصر، والسمع هو توزيع للتَمَثُّلات بين الأشخاص والأشياء. وتوافُق هذا البارادیغم مع بارادیغم الفعل المتبادل، أو «الفعل المتموقع» الذي صاغه إرفنغ غوفمان، يُظهر مدى إنتاج هذا البارادیغم على الصعيد الميكروسوسيولوجي، ففضاء البحث المفتوح يمتد من تحليل المحادثات والاتصال وجهًا لوجه، إلى تحليل استخدام الأشياء بعيدًا عن أرغونوميّة العُدّة التكنولوجيّة أو انتشارها. إن العناية التي يوليها الباحث لأدق التفاصيل في التفاعلات، ولتعديل الـذّات، وللعناصر الإكراهيّة التي تتغير باستمرار، هي ما يميز هذه المقاربة.

تتضمّن هذه المقاربة إغراءً طبيعويًّا لم يكن غوفمان غير مبال به (انظر: Joseph, 1998، للاطلاع على الميول البنيويّة اللسانيّة لهذا الكاتب، وأيضًا لمعرفة علاقته القويّة بالتقاليد التداوليّة لانشطار الـذّات المؤسِّسة للبنائيّة الترابطيّة). إن تقطيع مشهد من سلسلة ما هو اجتماعيّ ومن الخبرة اللفظيّة والجسديّة، والسعي لكي تستخرج منهما «الأطر» بعيدًا عن تنوع المبادلات وتغيّرها، بمعنى المنظومات الإدراكيّة والعمليّة التي تمنح المعنى (بحسب التعريف الذي قدمه إسحاق جوزيف) والتي يجب أن نعتبرها بمثابة جانب من الحفريات في التفاعلات السالفة، كُلّها عناصر يمكن أن تحفز على اجتياز مرحلة أساسية، مرحلة الكشف عن الثوابت المفترض أنها طبيعيّة. لقد لُمح أصل هذه الثوابت في اللسانيّات أو في النظُم التي تسعى العلوم الإدراكيّة جاهدة إلى تحديدها. ويمكن تطويرَ المفاهيم الجديدة، مثل

مكتبة t.me/ktabpdf

مفهوم القَدارَة(*) (affordance) الذي صاغه جون غيبسون (John Gibson) (انظر: Bardini, 1996, Quéré, 2000)، أن يُستخدم لعَدِّ العناصر النوعيّة الموضوعيّة في الأفعال المُدْرَكة من دون الرجوع إلى النظريّة الرياضيّة التي تكتفي بحساب كميّة المعلومات، وأن يترجم إرادة العثور على التوافق بين الحتميّة الماديّة والمحاكمة. لكن لا يوجد ما يضمن أن هذا التحليل الحرج لا يؤدي في آخر المطاف إلى إعادة تغيير طبيعة الحديث. ومن جهة أخرى، يبدو أن امتداد المستوى الميكروسوسيولوجيّ إلى مستوى التجربة العموميّة غير ممكن انطلاقًا من رؤية فعل متموقع، لأن هذا الأخير يُبْرز، أيضًا الطابع التأويليّ للأفعال الإنسانيّة بشكل أكثر وضوحًا (Quéré, 2002).

مباراة الشاشات: نهاية التلفزيون؟

أخذت شبكة الإنترنت موقعًا في مشهد وسائل الإعلام الموجود قبلها من دون أن تقصي سابقاتها. وهذا خلافًا لطروح ماكلوهان الاستخلافيّة، التي تنصّ على أن الوسيلة الإعلاميّة الجديدة تخلف السالفة. بالفعل، لقد مُورِست منافسة حقيقيّة على التلفزيون في

(*) المقابل اللُّغويّ لمصطلح (affordance) الذي استخدمه المؤلف والمقتبس من اللغة الإنكليزية، اشتق من فعل (to afford) الذي يحتمل معنيين، وهما: «أن تكون على قدر القيام بشيء ما»، و«منح». ودرج استخدامه في اللُّغة الفرنسية بمعنى الإمكان والقدرة على شيء أي قدرة نظام ما على اقتراح استخدامه الخاص بيسر، والقدرة على التكيف مع البيئة. ويستخدم في علم النفس الإدراكيّ، والتفاعل بين الإنسان والآلة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

بدايته على صعيد التصور: في الحقيقة، لقي التلفزيون رفضًا واسعًا في أوساط الفئات الاجتماعيّة الأولى التي استملكت الإنترنت، لكن الارتفاع الكبير في عدد الساعات التي تُخصّص لمشاهدة التلفزيون منذ انطلاقة الإنترنت، يفنِّد الطرح القائل بتراجعه. لقد رسَخَ التلفزيون في الروتين العائليّ، واستجاب لتطلعات التنشئة الاجتماعيّة، ولبّى حاجة ثقافيّة لا تلبيها الإنترنت، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تأخذ مشاهدة التلفزيون شكلًا واحدًا: فـ 50 في المئة من الأشخاص يصرّحون بأنهم يقومون بأشياء أخرى مغايرة أثناء مشاهدتهم التلفزيون، كالأكل، والحديث، والنوم، وكيّ الملابس... وغيرها. إن المشاهدة تستوعب الاستخدامات الجديدة، مثل تلك المرتبطة بالإنترنت: فـ 40 في المئة من الشباب الإنترنتيّين، الذين أسماهم لافرانس (Lafrance) «التيلينوت»(*) (télénautes) (2005)، يتابعون برامج التلفزيون وهم يلعبون أو يبحرون في شبكة الإنترنت أو يقرؤون بريدهم الإلكترونيّ، ولم يثبت أن الوقت المخصص للمعلوماتيّة خَلَفَ الوقت الذي يُخصص لوسائل الإعلام التقليديّة (Cai, 2005).

هذا على الرغم من أن التحول الخاص في المشاهدة التلفزيونيّة يمنح حججًا جديدة للمؤمنين بتراجع وسائل الإعلام. لقد كان من المقرر أن تكون برمجة مواءمة التلفزيون والإنترنت اندماجًا للشاشات مع توافر إمكان الإدارة التفاعليّة للبرامج التلفزيونيّة (التي تبدأ من

(*) عبارة مركبة من عبارتين: مشاهدي التلفزيون ومستخدمي الإنترنت.

t.me/ktabpdf

مكتبة

اختيار المحتويات إلى اختيار الكاميرات). بيد أن هذه المواءمة تصطدم بعراقيل: تقدر غالبيّة الجمهور أن عرض المحتويات المتوافرة حاليًّا كافٍ وذو كلفة مرتفعة، ولا تهتمّ بأدوات التصوير (لماذا نتقي بصعوبة الكاميرات التي تصور سباق فورمولا1 للسيارات إن كان المخرج التلفزيونيّ يقدم صورًا رائعة عن هذا السباق؟)، ولم تغرهم التفاعليّة (إن التسوق عبر التلفزيون هو الصيغة الوحيدة التي فرضت ذاتها منذ 1950). ولم تُفلح محاولة دمج الكومبيوتر بالتلفزيون في إرضاء المستخدمين غير الراغبين في مشاهدة التلفزيون عبر الجهاز الذي كانوا ينظرون إليه كأداة عمل ولعب. وأخيرًا، وبخصوص المواءمة والتوافق، فإن تراصّ التكنولوجيات في البيت وليس تقليصها، يبيّن ضرورة الاختلاف، مثلما يؤكّد هنري جنكينز (Jenkins, 2001) بطريقة لا تخلو من المزاح («الالتقاء؟ أنا أفترق» Convergence? I diverge).

إنّ طرح تنوع حوامل تلقّي محتويات الاتصال والإعلام والثقافة وليس تداخلها وتقلصها، الذي دافع عنه جان لوي ميسيكا، (Missika, 2006)، يرى في انتشار الصور المشتتة بكثرة السبب الحقيقيّ في زوال التلفزيون، فهذا الأخير الذي غرق في محيط الشاشات الموزعة على شريط الفيديو وقرص الـ«دي في دي»، والمُحَمّلة من شبكة الإنترنت والهاتف الذكي، والبودكاست، يفقد مركزيّته في إنتاج المعنى المشترك. «توجد دائمًا صور أكثر وتلفزيون أقلّ». إن تراجع جمهور القنوات التلفزيونيّة الكبرى لمصلحة القنوات المتخصصة يستجيب لتَفَتُّت المجتمع، ويُضاف إلى نهاية الوسائط الإعلاميّة.

t.me/ktabpdf مكتبة

هناك العديد من الوقائع والحجج التي تعارض هذا الطرح ذا الطابع التقنيّ والنزعة الجمهوريّة، فأقلّ ما يقال إن جمهور التلفزيون، «بالمعنى الدقيق للكلمة»، لم يتراجع، فعدد مشاهدي الشبكات التلفزيونيّة الكبرى استقر، بل ارتفع، ومشاهدة العائلات التلفزيونات لم تتراجع هي الأخرى، بل تزايدت المشاهدة الفرديّة للتلفزيون (Donnat, Larmet, 2003). فإذا كان للتلفزيون أثّر في تعزيز العائلات النوويّة في خمسينيّات القرن الماضي وستينيّاته، بمنحها رافدًا لتشترك في جملة من الممارسات، كما بيّنت ذلك جيّدًا لين سبيغل (Spigel, 1992)، ووهْبِها قاموسًا لغويًّا مشتركًا للتواصل بين الأشخاص، والذي استُخدم كفضاء للتبادل (Morin)، فإنه يتّخذ من المجتمع الذي يُحتفى بوحدته بواسطة ثقافة مشتركة، مَثَلَه الأعلى، فما يعيشه التلفزيون من تحولات يكمن في النزعة الفردانيّة التفكريّة المتساوقة مع البحث عن معنى مشترك، فانتشار الصور، الذي لا يمكن إنكاره، لا يعني زوال الهويّة التلفزيونيّة: فوسائل الإعلام ليست أبدًا كيانات صِرْفًا ومعزولة، فكُلّ واحدة منها تُحَدّد وتُعَرّف بالنسبة إلى الأخريات، وتندرج في دورات معقدة من تبادل الخصائص، و«المابينيّة الإعلاميّة» (intermédialité) (بحسب يورغن مولر Jürgen Müller, 2006، انظر: Delavaud et Lancien, 2006, Spigel et Olsson, 2004). إن أثر التكنولوجيا يعيد ترسيم الحدود بين وسائل الإعلام وليس الفصل بين حدودها، وحتى إنه من الممكن الدفاع عن إعادة اختراع حقيقيّ للتلفزيون. إن هذا الجهاز الذي بلغ نضجه (من وجهة

t.me/ktabpdf مكتبة

النظر الإبداعيّة)، ويشهد على ذلك نوع البرامج التلفزيونيّة التي خُصت بأكبر مقدار من الشجب والاستنكار، مثل برامج تلفزيون الواقع، والبرامج التي حظيت بقسط وافر من الإطراء والمدح، مثل المسلسلات، يقترح منتجات لا يمكن بَقيّة وسائل الإعلام استيعابها (وخصوصًا السينما)، نظرًا إلى القالب الذي تنتج به، ولإيقاع تلقيها الذي من المفترض أن يُدرج في الحياة اليوميّة. لقد أضحت البرامج التي تحظى بأكبر عدد من المشاهدين هي تلك التي تنتجها «الشاشة الصغيرة»، ويعني هذا أنها استقلّت بذاتها بصفتها ميديا. والشيء ذاته يُقال عن الإذاعة، التي أصبحت تُعْرف لدى الشباب ببرامج مخصوصة مثل الموسيقى والبثّ الحُرّ، وهذا ما بيّنه غليفاريك (Glévarec, 2005) بدقّة.

ويعتبر قطاع واسع من الجمهور أن السينما ستظلّ قائمة، لعدم إمكان استبدالها، ولأنها تقترح خروجًا جماعيًّا من البيت وطقسًا وانغماسًا، وفي الوقت ذاته قاعة مظلمة وصامتة (أو صاخبة في بعض الثقافات!)، فالتلفزيون في الولايات المتحدة، البلد الذي لا يزال يحافظ على الجمهور السينمائيّ الأكثر عددًا، شهد مبكرًا نموًّا جماهيريًّا، ثمّ تلته الإنترنت. إن الشاشة الرقميّة، سواء كانت شاشة الكمبيوتر أو شاشة الكتاب الإلكترونيّ (Belisle, 2004)، لا تهدّد الكتاب الورقيّ الذي يتفوق من ناحية الأريحيّة في القراءة والفهم على وثائق النصّ الافتراضيّ إن كان طويلًا. لم يحقّق نشر الكتب في شبكة الإنترنت، الذي يُعدّ ابتكارًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا حقيقيًّا في رهانات تجهيز مكتبات رقميّة، نجاحًا مؤكدًا خارج العالم الجامعيّ،

t.me/ktabpdf مكتبة

فصعوبة القراءة على الشاشة تتغلب على كُلّ امتيازات التقنيّة الجديدة. إن القطاعات التي تنمو فيها هذه التقنيّة تَقرِض الكتاب الورقيّ ذا السعر المرتفع جدًّا (الموسوعات الإلكترونيّة) و/ أو النخبويّ كثيرًا (القرص المدمج الثقافيّ) أو غير المكيف مع ممارسات الشباب اللهويّة (كتب الألعاب، أو الألعاب ذاتها).

تحوّلات الصحافة وقطاع الموسيقى

تعاني الصحف اليوميّة الإخباريّة الورقيّة غير المجانيّة من هجوم كاسح عليها من طرف بوابات الإنترنت والمواقع الإخباريّة المجانيّة في شبكة الإنترنت والمدوّنات الإلكترونيّة، فتبنّت إستراتيجيّة تنويع منتجاتها (قام بعضها بإضافة الـ«دي في دي» لطبعاتها، إلخ)، والنشر في شبكة الإنترنت أيضًا، تاركة المجال لمحركات البحث لتنتج الإعلام «المجمّع». ويبدو أثر المنافسة في الصحافة المتخصّصة، والاقتصاديّة تحديدًا، بين طبعتي الورق والويب أقلّ من انجذابهما المتبادل: يشكل شراء الوثائق المنشورة في شبكة الإنترنت (الأرشيف غير المجاني) سوقًا لـ«نشاط اقتصاديّ متبادل»، مشخصًا بشكل دقيق، مثلما يبيّنه نجاح **وول ستريت جورنال** (*Wall Street Journal*) في شبكة الإنترنت، حيث تمكنت من كسب مئات الآلاف من المشتركين الذين يحصلون على الأخبار «التفاعليّة» بجانب طبعتها الورقيّة التي تسحب حوالى مليوني نسخة يوميًّا. وتنشر الصحف الإخباريّة العامّة في طبعتها الإلكترونيّة قسطًا كبيرًا مما تنشره في نسختها الورقيّة اليوميّة. هذا ما تفرضه المنافسة، وتضيف

مكتبة t.me/ktabpdf

إليه بعض الأخبار الطازجة ومواد حواريّة. وبهذه الطريقة، فإنها تغري قراء الطبعة الورقيّة المحتملين. وتلزم في بعض الأحيان متصفّحي موقعها في شبكة الإنترنت بدفع مقابل ماليّ للاطلاع على ملفاتها الصحافيّة. وتحصل على عائدات الإعلان في شبكة الإنترنت، والذي يشهد نُمُوًّا كبيرًا، لكنها تفقد قرّاء طبعتها الورقيّة، وتتكبّد ارتفاع كُلفة توزيعها. إن الصحافة المجانيّة تتطوّر وفق مسار هجين، حيث تستفيد من ضعف كُلْفَة توزيع الصحف الورقيّة (لأنها حاضرة في المدن الكبرى فقط، وليس لها مرتجعات)، وتنتفع من صحف الإنترنت، حيث القيمة المضافة ضعيفة مقارنة بأخبار وكالات الأنباء التي تستهدف الشباب. ويبدو جمهور صحف الإنترنت مستهلكًا نهمًا للأخبار. لقد كان قارئًا للصحف الورقيّة قبل أن يقرأها في شبكة الإنترنت، فهو يراكم ممارسات القراءة أكثر من معادي قراءة الصحف عبر شبكة الإنترنت. إن التشكيك في وظائف الصحافة الكلاسيكيّة، بصرف النظر عن الجوانب الاقتصاديّة، شكّل مصدر قلق وتخوّف دائمين (نهاية الصحافة الشفافة وذات النوعيّة الجيّدة لمصلحة جمهور آراؤه متشذّرة)، أو مصدر حماس (نهاية الإعلام الهرميّ)، فما يجري في عالم الصحافة هو أكثر من تراجع شكلها الخالص (المفهوم الأسطوريّ للصحافة الذي ابتدع في القرن 19) الذي ينطق بالحقيقة، إنّه تحوّل: تعميق للمشاركة وتعبيراتها في الفضاء العموميّ بالمعنى الذي حدّدته الباحثة فرايزر. إن الأشكال المتعددة للإعلام، الاستطراديّ والسرديّ والتقنيّ والحميميّ والنقديّ... وغيره، تجلت في وضح النهار، وأصبحت ممكنة ومتاحة بفضل وسائط التواصل

t.me/ktabpdf مكتبة

الجديدة وبتبنّي وسائل الإعلام التقليديّة التطلعات المُدْرَكة (Utard, 2002, Ringoot, Utard, 2006). لقد ظهرت تشكيلات جديدة من التعبير تضم الصحافة الشعبيّة(*) (presse people) والمدوّنات الإلكترونيّة الحميميّة من دون أن تطرد نهائيًّا صحافة الأحداث والرأي. غير أن هذه الأخيرة تعاني من تأثير صحافة الإنترنت التي تتسم بسمتين، وفق ما ذهب إليه بابلو بوزكوسكي (Boczkowski, 2004)، وهما:

1 - ينجزها أكبرعدد متنوع من الفاعلين، ولا تستند إلى شخصيّة الصحافيّ وحواره الفرديّ (مونولوغ monologue)، بل تعتمد أيضًا على الجماهير التي تطالب بتبادل أفقيّ.

2 - تضع في المقام الأوّل مسألة التنسيق بين مختلف المتدخّلين في العمل الصحافيّ، بينما يكمن الإعلام في التفاعل البسيط بين الصحافيّ ومصادر الأخبار.

تتكيّف الصحف مع المعطى الجديد وتدمج خطابات الأشخاص العاديّين غير المتخصصين، والمناقشات، مع الاحتفاظ بسيطرتها القويّة على التنسيق. لقد بيّن دونالد ماتيسون (Matheson, 2004)، انطلاقًا من دراسة لمدوّنة صحيفة **الغارديان** (*Guardian*)، أن العلاقة التعاقدية الصحافيّة غير مهدّدة أبدًا، لكن الزعم بأن

(*) نوع من الصحافة التي تتغذى من أخبار الشخصيات العامة ومشاهير القوم، أو الأحداث الغريبة والشاذة، عبر الإثارة التي تجسدها العناوين والصور والريبورتاجات الصحافيّة.

t.me/ktabpdf

مكتبة

للصحافيّ معرفة تامة وسلطة متعالية قد تُقلّصَ أمام الاقتناع بأن العمل الصحافيّ بناء جماعيّ، إضافة إلى وجود تناغم مرئيّ بين وسائل الإعلام (Cook, 2005).

ويبدو قطاع الموسيقى أكثر حساسية للمنافسة من تلك التي تعيشها وسائل الاتصال الجماهيريّ، لأن التكنولوجيا الرقميّة أتاحت استنساخ المنتج الموسيقيّ من دون أن تفقد نسختُه الأصليّة شيئًا من جودتها، انطلاقًا من ملفات قصيرة يستمع إليها الشباب، وحتّى يحمّلونها عبر شبكة الإنترنت باعتبارهم أكثر مستخدميها: فتقنيّات انضغاط الصوت، مثل: «أم بي 3» (MP3) تتيح عمليًّا تحميل المواد الموسيقيّة بواسطة برنامج «الند للند» (peer-to-peer). لقد تكثّفت القرصنة أكثر مما كانت عليه في السابق (Bourreau, Labarte-Piol, 2004)، وقُدرت هذه القرصنة في 1990 بربع نسخ التسجيلات الصوتية، واعتبرتها الصناعات الموسيقيّة بمثابة خطر أساسيّ يفسر تراجع مبيعاتها، بجانب الخطر الذي يشكله المتمسكون بمبدأ المجانيّة الشاملة في شبكة الإنترنت، الذين يعتبرونه سلاحًا مضادًّا للشركات الكبرى وللدفاع عن الثقافة الحرة التي لا تعيق انتشارها حقوق المؤلف. غير أن الكثير من الباحثين يشيرون إلى تعقد هذه الممارسة وغموض الموقفين: إن غالبيّة الإنترنتيّين الذين يُحَمِّلون الموسيقى من شبكة الإنترنت هم ذوّاقة في الواقع، يستكشفون الموسيقيّين والأعمال الموسيقيّة الجديدة، ويبتاعون أيضًا الأسطوانات الموسيقيّة من الأسواق، ومستعدون لدفع المقابل الماليّ شهريًّا جراء التحميل المجانيّ للموسيقى، فتقنيّة

t.me/ktabpdf مكتبة

«الند للند» تساهم في نشر الموسيقى بصيغة غير إعلانيّة، وتنتج أثر التعلم من خلال النسخ، وتساعد في التعريف بالفنانين ذوي الحضور الضعيف في وسائل الإعلام (Greffe, Mathé, 2005). وتزيد أيضًا في تنوع الاستماع إلى الموسيقى وتخزينها في بعض الأحيان، بما فيها تلك غير المتوافرة في فهارس بعض المكتبات الموسيقيّة وأقسام الأرشيف. إن حق المؤلفين الماديّ اعترف به «قُرصان واحد» من قرصانين (بحسب البحث الميدانيّ الفرنسيّ الذي قام به روشلاندت ولوغيول Rochelandet, Le Guel, 2005). لقد طور معارضو هذه التقنيّة موقفهم في الممارسة بعد مناقشات مكثفة (Farchy, 2003)، متبعين الأثر النموذجيّ لتكوين «مشكل عام» بتبادل الحجج المختلفة في الفضاء العموميّ النزاعيّ. ويُقرّ أنصار كل شيء مجانيّ بأنواع الحقوق في الملكيّة الفكريّة، وإن كانت هذه الأخيرة لا تعارض تدفق الأفكار الحر والأذواق، ويميلون لمصلحة إبرام رخصة شاملة (منح الشرعيّة لتحميل الموسيقى من شبكة الإنترنت مقابل دفع مبلغ ماليّ جزافيّ للمؤلفين)، أو رسوم عن الحوامل البكر، أو دفع مقابل ماليّ لصناديق معاشات الفنانين. إن الصناعيّين الذين تناط بهم وظيفة اكتشاف المواهب باعتبارهم وسطاء عامين، وهي الوظيفة الأقلّ نكرانًا، اعترفوا ضمنيًا من خلال تخفيض سعر القرص الموسيقيّ المدمج واقتراح أعمال مختلطة (مع الصور) ثمّ بالتعاون مع منصات التحميل بمقابل ماليّ، اعترفوا بأن انتشار التحميل من شبكة الإنترنت تصادف ظهوره مع اندثار الأقراص المدمجة، التي أصبحت متجاوَزة بعد أن اعتبرها المستهلكون مرتفعة الثمن.

t.me/ktabpdf مكتبة

ولم تقضِ محاربة القرصنة على التحميل، الذي أصبح أكثر تسترًا عبر التراسل بواسطة البريد الإلكترونيّ. إن البحث عن توافق يظلّ قيد الدراسة وفق المسارات الوطنيّة ومصالح مختلف الفاعلين.

مسألة الفردانيّة والجماعات

نجحت الإنترنت، هذا الوسيط الاتصاليّ المتعدّد (الملتيميديا)، وسيط لكلّ فعل لكن ليس وسيطًا أحاديًّا، في اختراق استثنائيّ، نظرًا إلى مزاياها الوظيفيّة والاقتصاديّة، ولتناغمها أيضًا مع القيَم المهيمنة في المجتمعات. وبعيدًا عن أيديولوجيا الشبكات التي امتدحها كاستلز، يُراد للوهم الذي تحمله أن يكون «محدودًا» (Proulx, Massit-Folléa, Conein, 2005) وإن ظلّت أحلام تغيير العلاقات الإنسانيّة المباغت مُلهمةً (وكذا فكرة أن موجة التكنولوجيا الجديدة: لغة الترميز القابلة للإمداد XML، وتدفق آليّات الخلاصات RSS، ولّدت «الويب 2.0» (Web 2.0) الذي يسمح بفضل جوانبه التجميعيّة بالانتقال إلى حضارة ذات نزعة مساواتيّة). لقد أظهر تَمَلّك الإنترنت أكثر من منطق جديد فردانيًّا وجماعاتيًّا، وعزّز أيضًا أكثر من منطق قديم. إنها ناقلة لنزعة نفعيّة رأسماليّة تدفع للاستهلاك والإنتاج بأكثر فاعليّة ممكنة، ومجانًا إن تسنّى ذلك (Gensollen, 1999, Brousseau, Currien, 2007)، وحاملة في الوقت ذاته الطموح إلى مجتمع يكون التبادل فيه أكثر مساواة، وأفقيًّا، وذا شكل شبكيّ، ولا يتعارض بشكل حقيقيّ إلا جزئيًّا. لقد بيّن العديد من الكُتّاب، بخاصّة لوك بولتانسكي وإيف شيابيلّو في كتابهما **الروح الجديدة للرأسماليّة**

t.me/ktabpdf مكتبة

(*Le nouvel esprit du capitalisme*) (1999)، أن الفضاء الاقتصاديّ قد تبنّى منذ 1970 نوعًا جديدًا من الخطاب والتنظيم يثمّن الانخراط الفرديّ والعمل ضمن فرق سريعة الزوال، في مشاريع غير مكرّرة أي ليّنة ومرنة، مع الاحتفاظ جزئيًّا بالبُنى المُتَراتبة (باتّباع مثال النشاطات الفنيّة التي وصفها ستوربر Storper ثمّ منجيه). وبالنظر إلى جوانب أخرى، فإن الذين ينتقدون الليبراليّة الجديدة باسم الأيديولوجيا المناهضة للعولمة، يعيدون بممارساتهم إنتاج هذا الأنموذج: فشبكاتهم تكون غالبًا «أفقيّة نظريًّا» (وقادتهم موجودون وإن لم يتم تعيينهم) وقليلة الشفافية وإقصائيّة وضبابيّة الفصل بين الفضاءات الخاصّة والفضاءات النضاليّة، مثل الفصل بين حدود الفضاءات الخاصّة والمهنيّة في عالم الشغل (Datchary, Pagis, 2005). إن الهَجانة الفعليّة للنماذج تمنح أيضًا مفتاح الحفاظ على البُنَى الصناعيّة في الميدان الثقافيّ أمام بروز انتشار تقنيّة «الند للند»: لقد قوّضت شبكات التبادل التي لا تشمل كل النّاس - جزئيًّا - اقتصاد النجوم والمشاهير، لكنها أُثريت بالاتصال عن طريق الهمس الإلكترونيّ، وهو الشكل الجديد لنظريّة «انتقال المعلومات عبر مرحلتين» لكاتز ولازارسفيلد، الشكل الذي يشارك في ترقية نجوم الفن والموضة والرياضة، ويساهم في بناء السمعة.

استطاعت الإنترنت، بفضل البريد الإلكترونيّ والصفحات الشخصيّة والمدوّنات الإلكترونيّة (Cardon, 2006) أن تبرز كميديا حميمي، حيث يمكن المرء أن يبوح بأفكاره وعواطفه. والبوح ليس

t.me/ktabpdf مكتبة

توجّهًا جديدًا، ولا يسير في اتجاه معارض لوسائل الإعلام إذا تذكرنا لحظات البثّ الإذاعيّ الحرة وبرامج تلفزيون الواقع. إذًا، الدمقرطة التي أتاحتها التكنولوجيا الرقميّة تكمن في المستوى والكمّ، فعلى رغم أن ملمح الملايين الذين أنشؤوا مدونات إلكترونيّة يتطابق مع ملمح أكبر مستخدمي الإنترنت الذين تنحدر غالبيّتهم من الفئات الاجتماعيّة الراقية (باستثناء المشتركين في موقعي الشبكتين الاجتماعيّتين «ماي سبايس» myspace و«سكايبلوغ» skyblog). لقد رأت لورنس ألار (2005) في تعدّد «الأشكال التعبيريّة الرقميّة الصغيرة» «ترقيعًا جماليًّا وهويّاتيًا»، ومظهرًا لـ«الفردانيّة التعبيريّة» أكثر شمولًا، استنادًا إلى طروحات تشارلز تايلور (Charles Taylor) حول المنعطف التعبيريّ للمجتمعات المعاصرة، وميشال فوكو حول تكنولوجيا الذّات، وأولريش بيك حول التفكّر. إن الإنترنتيّين الذين يستفيدون من إمكان تجميع المحتويات (تشارُك محتويات المدوّنات وشبكات «الند للند» وغيرها ونشرها) لا يقومون باستعراض أنفسهم أمام الغير فقط، بل يفتحون ذاتهم للآخرين، إنهم يندمجون في الشبكات، ويتبعون حركة «تخريج المكنونات الحميميّة». ويمكن تأويل هذا الاتجاه بأنه يفضي إلى نزع الطابع الجماهيريّ عن الإنترنتيّين، وإلى توجّه عموديّ، أو يُعتبر على الأرجح ترجمةً لميلاد نوع مختلط من الممارسات التي تتمفصل جزئيًّا مع وسائل الإعلام، وتعارضها في الجزء الآخر (خصوصًا بالنسبة إلى الأقليّة الأكثر تعلّمًا) في إطار نظام «العدالة الثقافيّة»، حيث تصبح الذّات الهيئة المركزيّة (انظر الفصل التاسع). ويتشكل هذا الاتجاه في سياق أكثر اتساعًا من التربية العائليّة

t.me/ktabpdf مكتبة

التي أصبحت متسامحة وتحفز على التعبير عن الذّات في فضاءات محافظة ومتشذّرة وتحترم فضاءات الآخرين (De Singly).

تعزّز تقنيّات الشبكة أوّلًا الجماعات الموجودة سلفًا، بتسهيل التبادلات العائليّة والإثنيّة ومجموعات المصالح وتلك التي تشترك في الذوق (Wellman, 1999)، وتساهم على سبيل المثال في الشعور الوطنيّ عبر ما سماه بينيدكت أندرسون بـ«قومية البريد الإلكترونيّ». وتؤكد بحوث استخدامات الميديا جيّدًا، أن الإنترنتيّين يتواصلون مع الأشخاص الذين يعرفونهم في الحياة الواقعيّة، فالجماعات في شبكة الإنترنت التي تتكون من أشخاص مجهولين، لا تخلو إلا نادرًا من مَصافٍ تجعل التفاعل بينها منسجمًا، وتنتقي الأشخاص ذوي الملامح الاجتماعيّة المقبولة: إن «إطار» التبادل و«عرض الذّات»، بالمعنى الذي حدّده غوفمان، يؤثران على عمليّة اختيار التواصل بين الأشخاص، وهذه المجموعات «المناسبة»، التي تجمعها تجربة و/ أو ممارسة مشتركة، تأخذ مكانة أصيلة في الفضاء الاجتماعيّ. إنها غزيرة الإنتاج ثقافيًّا، وتزول تدريجيًّا على صعيد التنشئة الاجتماعيّة في الوقت ذاته، فالذين يمارسون الألعاب الإلكترونيّة عبر شبكة الإنترنت يقدمون مثالًا جيّدًا عن إبداع هذه االشبكات الجديدة ثقافيًّا، والتي تقضي بشكل واضح على الاختلاف بين الاستهلاك الثقافيّ وتلقّيه، وذلك بكتابة السيناريوات الأصيلة واستعمال الوقت والفضاء، والسببيّة، وباتخاذ موقف جماعيّ، وبالالتفاف على البرامج وإثرائها في إطار تقاليد القرصنة (عن هذه النقاط انظر صحيفة الإنترنت ذي **إنترناشيونال جورنال أوف كمبيوتر**

مكتبة t.me/ktabpdf

غايم ريسرتش *The International Journal of Computer Game Research*). بيد أن قابلية هؤلاء اللاعبين الاجتماعيّة تبدو محدودة وغير متحمسة (Auray, 2003). إن جماعات المعجبين بالنجوم والمشاهير المتكاثرين بفضل شبكة الإنترنت، يملكون تاريخًا أكثر ثراءً في التعبئة الافتراضيّة والواقعيّة. لقد اقتفى هنري جنكينز آثار نضالهم ضد الصناعات، وعدم تكافؤ القوى الفاعلة في هذا المجال، وما هو مشترك بين هؤلاء النجوم المتنافسين، أي الأعمال ذاتها التي حظيت بإعجاب كبير (انظر على سبيل المثال «حرب النجوم» في مؤلف جنكينز، 1998). فما كان موجودًا منذ مُدّة طويلة، مثل المواد الدراميّة التي ينتجها المعجبون ذوو الصلة بالأعمال الفنيّة، مثل المسلسلات التلفزيونيّة (fanfics)(*) قد ازداد انتشارًا بفضل شبكة الإنترنت، وانتقل من مجرد هواية إلى إبداع تساهميّ تتغذى به الصناعات الثقافيّة في بعض الأحيان.

إنّ شبكة الإنترنت، التي تُعدّ مكملةً لوسائل الإعلام الجماهيريّ أكثر من كونها منافسة لها في خدمة الفرد والمجموعة، منحت طاقات

(*) كلمة مركبة، وهي تكتب بصيغ مختلفة، مثل: *fan-fiction*، و*fanfiction*، ويقصد بها أن بعض المعجبين برواية أو مسلسل تلفزيونيّ، أو فيلم، أو لعبة فيديو، أو سيرة متلفزة لنجم مشهور، يقومون باعادة سردها بعد تعديلها أو استكمالها أو تصحيحها، فيضيفون إليها ما كانوا ينتظرونه من المادة التي هاموا بها، أو يختتمونها بالشكل الذي يرضون عنه. لقد اعتبر هنري جنكينز أن هذا الضرب من الكتابة شكل ثقافيّ يعيد إلى الناس الأساطير التي استولت عليها شركات الإنتاج. انظر:
Henry Jenkins, *Textual Poachers : Television Fans and Participatory Culture,* Routledge, 1992, 343 p.

t.me/ktabpdf مكتبة

جديدة للهواة وللحركات الجماعاتيّة وللمعجبين وللمجموعات المناهضة للثقافة[81](*) وهي تَزيد الفضاءات العموميّة السابقة أكثر مما تفتِّتها. ومن النتائج الأولى التي توصّل إليها روبرت بارك في سوسيولوجيا وسائل الإعلام أن مجموعات الأقليّات تستخدم العديد من وسائل الإعلام للدفاع عن هويّتها وتعزيز اندماجها في الجماعة في آن. والمصالح الخصوصيّة تزول جزئيًّا من تلقاء ذاتها مثلما يزول العديد من المواقع الميكروسكوبيّة في شبكة الإنترنت التي لا تحظى بزيارة الإنترنتيّين، فمن المحتمل ألا تكون شبكة الإنترنت تجسيدًا للطوباويّة لكنها لا تطعن في التطوّرات الاجتماعيّة التي تحقّقت في ظل الحداثة: ورغم كل شيء، فإنها ليست سوى «ميديا».

«الديموقراطيّة الإلكترونيّة»

يمكن استخدام هذه الطريقة من التحليل في دراسة التأثير السياسيّ لتكنولوجيا الإعلام والاتصال الجديدة في المجتمعات

---

(81) وأيضًا، لشبكات المافيا، والحركات المعادية للساميّة، بكل تأكيد. وهذا يطرح مشكل تقنين ما لا يمكن تصوره كمجرد فضاء للحرية.

(*) يعود مفهوم «الثقافة المضادة» إلى عالم الاجتماع تيودور روزاك، الذي استعمله لأول مرّة في 1969، ويقصد به «شكلًا من مقاومة المجتمع البرجوازيّ وثقافته المهيمنة». لفهم جذور هذا المفهوم وتدرج استخداماته وحدوده المعرفيّة، انظر:

Andy Bennett: «Pour une réévaluation du concept de contre-culture; Traduction de Jedediah Sklower», *la revue des musiques populaires, volume* 9 -1 année 2012, pp. 19 - 31.

t.me/ktabpdf مكتبة

المعاصرة، فمع كل موجة من موجات «التكنولوجيا الجديدة» تبرز الآمال في تحسين الديموقراطيّة واكتمالها، بتطبيق أدوات قويّة تسمح بتجاوز مأزق المؤسسات والتغلب على الهيمنة المفترضة لوسائل الاتصال الجماهيريّ على الإعلام، وتعالج عزوف المواطنين المزعوم عن الشؤون العامّة. لقد سُميت هذه الأسطورة بـ«الديموقراطيّة التلفزيونيّة» (Télédémocratie) في سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته. وتدعونا هذه الطريقة للعودة إلى التلفزيون، والتيليماتية والفيديو لتجدّد بعمق الممارسات السياسيّة. لقد رفعت الجهويّة والجماعاتيّة تكنولوجيات الاتصال قبل أن تتولى المؤسسات المحليّة مهمة ترقيتها بهدف رسميّ يتمثل في تعزيز المشاركة السياسيّة التي يعتقد أنها تتراجع، ولغرض غير رسميّ، في الغالب، يكمن في تثمين المنتخَبين المبادرين، وهو الهدف الذي لا يمكن التفكير فيه من دون النزعة التدخليّة للدولة (بخاصّة في فرنسا)، مكتشفة أن التقدم التكنولوجيّ يشكل رافعة تسمح بـ«عصرنة» المجتمع، فمنذ تسعينيّات القرن الماضي وبعض الصيغ التعبيريّة تتوالى، مثل «الديموقراطيّة الإلكترونيّة» و«الديموقراطيّة الافتراضيّة»، استنادًا إلى ما وصلت إليه التكنولوجيا الرقميّة من تقدم وازدهار، فأضفت حداثة إلى الحلم بمجتمع خالٍ من الوسطاء يصبح فيه المواطنون «المستنيرون» أكثر اطلاعًا على مجريات الأمور وناشطين، بفضل ولوجهم المواقع الإلكترونيّة في شبكة الإنترنت، ويتمتعون بحريّة التعبير في المنتديات الإلكترونيّة، ويُعَيِّنون المنتخَبين ويعزلونهم عن مناصبهم، ويحدّدون الأولويّات السياسيّة في إطار «ديموقراطيّة»

t.me/ktabpdf مكتبة

قويّة، مباشرة، ومتفق عليها بالإجماع، وفق ما تمنّاه الباحث الأميركيّ بنجامين باربر (Benjamin Barber).

على غرار البحوث التي تناولت استعمالات الجمهور العريض للإنترنت، فإنّ البحوث المتعلّقة باستعمالات المواطنين لتكنولوجيات الإعلام لا تصادق على رؤية تضاهيها عقلانيّة. وتدعو البحوث التي أنجزها كريستوفر أرترتون (Arterton, 1987)، للنظر بنسبيّة إلى الموجة الأولى من الديموقراطيّة التلفزيونيّة، فالمشاركة الشعبيّة في التجارب في هذا المجال تبدو، في معظم الأحيان، متواضعة ومحدودة، والبحوث الميدانيّة العديدة التي أجريت على «المدن الرقميّة» وعلى الأشكال الجديدة للوساطة الإلكترونيّة، تؤكد أن تطلّعات الديموقراطيّة المباشرة لم تحظَ باتفاق الجميع، وأن الإعلام والمعرفة ليسا بالضرورة في متناول الجميع (وهذان النظامان غير مختلطين)، وأن مشاريع الديموقراطيّة الإلكترونيّة إعلانيّة وترويجيّة في معظم الأحيان، وتقتصر على نزعة وظائفيّة بسيطة أو مرتبطة بسياق حَضَريّ وثقافيّ خصوصيّ أكثر من أن تُكرَّر (انظر البحوث Tsagarousianou et al., 1998, Maigret, Monnoyer, 2000, Van Bastelaer, Hénin, Lobet-Maris, 2000)، فالتقنيّات لا تمحو الأقاليم ولا تاريخ العلاقات بين المواطنين، إنها لا تقوم سوى بدور محدود في النظام السياسيّ إذا ظلّ قائمًا على الانقسام القويّ بين المواطنين والمُنْتَخَبين الذين يحتفظون بقسط وافر من السلطة باسم مبدأ التمثيل (Hague, Loader, 1999,

مكتبة t.me/ktabpdf

.Hacker et Van Dijk, 2000, Axford et Huggins, 2000) إن هـذا التقويم المخيب للآمال، أو بالأحرى الفاقد للحماس والوهم، تصاحبه مفارقة هي أن مسار الديموقراطيّة الإلكترونيّة المتطوّر جدًّا لا يهم إلا القليل من النّاس، بينما الأدوات البدائيّة جدًّا التي تستعملها الجمعيات والحركات المناهضة للعولمة، والتي لا تحدث عـادة انقلابًا في ظـروف وجـودهـا، تستطيع أن تحشد وتُجنّد المواطنين على أوسع نطاق (Dacheux, 2000, .Granjon, 2001)

كاشف إعادة تشكيل سياسيّ

على رغم أن التفكير في مسألة الديموقراطيّة الإلكترونيّة تم في سياق عامّ من التحوّل، في المواطَنة أو الفضاء العموميّ، فإنّها لا تَخْلُو من معنى، فالطوباويّات التي حملتها تكشف الطموحات عن تداخل الأنظمة السياسيّة والاجتماعيّة التي يعبر عنها الأشخاص في المجتمعات التفكريّة (بالمعنى الذي حدّده أنطوني غيدنز) وإن كانت تُحَرّفها أيضًا. إن عولمة الأفعال وغياب التعبير عن تبعاتها الدفينة تقوض الأنموذج الكلاسيكيّ لاتخاذ القرار «العقلانيّ» وتقضي على احتكار الخبراء المعرفةَ، مثلما أَكَّد أولريش بيك (Bech 1994, 1997). إن المناقشة واتخاذ القرار يتجاوزان الساحات التقليديّة، البرلمانات والحكومات، وكذلك أشكال التعبير الديموقراطيّة التمثيليّة. لقد أصبح الأشـخـاص يحصلون أكثر فأكثر على الأخـبـار التي كان الصحافيّون في السابق ينخلونها، ويطعنون في وظائف مهنة الصحافة

t.me/ktabpdf مكتبة

وهويّتها. وما ينجرّ عن هذا الأمر لا يتجلى في زوال الوسطاء، خلافًا للفكرة الجاهزة التي تنصّ على أن الشبكات تحلّ محلّ التراتبيّة، بل يكمن في نسبيّة سلطة الأشخاص من جهة وفي تَحَوّل ممارساتهم من جهة أخرى: لقد لاحظ جيمس كاري (Carey, 1999) أننا نملك الحقّ في المطالبة بعدم العمل وفق النماذج التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر. والتزام الأفراد يتم وفق إجراءات جديدة بعيدة عن تلك المتعلقة بالتعبئة الجماهيريّة في الماضي والمكثفة أيضًا، بسعيهم إلى التعدديّة والتمثيل الإعلاميّ (Melucci, 1996). إن غياب التحديد الواضح لتخوم الديموقراطيّة يجب أن يؤدي في تجديداته إلى دمج المطالب الميكروسياسيّة وكل البناءات الانعكاسيّة والهوياتيّة المرتبطة ببرامج تلفزيون الواقع من دون جعلها تتعارض بشكل منتظم مع الممارسات البرلمانيّة.

لذا، جاءت الطوباويّات التقنيّة لتشير إلى الرغبات في الديموقراطيّة المستمرة والمداولاتيّة (لكنها ليست ديموقراطيّة إلكترونيّة مباشرة أسطوريّة، وفق المعنى الذي حدّده لها باربر)(*)، من دون أن تمنح مفاتيح التطبيق الفعليّ للأدوات الرقميّة، وفق المعاينة

(*) يرى بنجامين باربر أن الديموقراطيّة التشاركيّة تعمل على تحسين فاعلية التدبير العموميّ بمعنى الفاعلية الإداريّة، ويعتقد أن الانخراط الواسع فيها يعزز الديموقراطيّة ويعمل على حلّ النزاعات في المجتمع. وتستطيع الأدوات التقنيّة أن تجسدها، لما تملكه من خصائص. وتختلف هذه الرؤية عن التصور الذي يرى أن فاعلية الديموقراطيّة لا تكمن في عدد المشاركين فيها بل في ما تمنحه للمواطن من سلطة.

t.me/ktabpdf مكتبة

التي قام بها ستيفن كولمان (Stephen Coleman) وجون غوتز (Gøtze, 2001). فإذا كان الحديث عن «مجتمع المعلومات» حشوًا، وكانت «الديموقراطيّة الافتراضيّة» وهمًا، فإن الاستيهامات التخيليّة التي تخون المحاولات الخرقاء للتفكير في الشبكات تصقل العالم جزئيًّا. وإن كان تداول العبارتين: «الإعلام» و«الاتصال» واسعًا، فإنهما لا يعنيان للكثيرين الأحلام في المراقبة وإثراء مجتمع رأسماليّ، لكنهما يدلان على الوعد بالازدهار الفرديّ والجماعيّ لديموقراطيّة متينة وواسعة يجب بناؤها لبنة لبنة، وذلك بتطوير كل البُنى والتمثيل واتخاذ القرار من دون انتظار معجزة انتشار بعض التكنولوجيات (Coleman, 2005).

نشوء الإنترنت

لم تولد الإنترنت صدفة نتيجة اكتشاف تكنولوجيّ جديد، وبصورة بديهيّة، لتقديم حل سحريّ لمشاكل الاتصال. إن اختراعها تطلب ابتكار تقنيّات ومسارات اجتماعيّة (التشارك في الوقت والاستخدام الترفيهيّ للكمبيوتر وليس المهنيّ فقط، إلخ). كان ممكنًا للإنترنت أن تنطلق قبل 1990 بمُدّة طويلة، لأن معظم التقنيّات والمسارات كانت متوافرة، ضمنيًّا على الأقلّ، ما يدلّ على أنها كانت مطلب عصر أكثر ممّا هي أداة جديدة فُرِضت على الممارسات المعاصرة (Flichy, 2004). وبعد مرحلتها الأولى «العسكريّة» و«الجامعيّة»، كشف مستعملوها المختلفون والمتنوعون، مثل الإدارات والقطاع التجاري والجمعيات والأفراد، عن استخداماتها المتباينة. ويلتقي في شبكة الإنترنت الشراء وتبادل ما هو حميميّ والنضال الفوضويّ، وعجّلت هذه الشبكة أيضًا في ظفَر وظائف وسائل الإعلام.

t.me/ktabpdf مكتبة

استنبطت المعلومات في الجدول التالي من منشورات باتريس فليشي (Flichy, 1999 et 2001) والصحافة المتخصصة في المعلوماتيّة.

1939 ـ 1945	اختراع كمبيوتر مُصمم ليكون آلة حاسبة كبرى وأداة ذات استقلال ذاتيّ تُبرمَج بواسطة البطاقات المُثقَّبة (رد الآلة لا يكون آنيًّا، بل مؤجلًا).
نهاية الخمسينيّات	اختراع الاستخدام التفاعليّ للكمبيوتر: البرمجة بشرائط من الورق تحاور الآلة. اختراع الزمن المتقاسَم: العديد من المستخدمين يشتغلون بشكل متزامن على الآلة ذاتها.
بداية الستينيّات	ميلاد فكرة الشبكة (العمل التعاونيّ، تبادل البيانات، البريد الإلكترونيّ) طُبّق في وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (Advanced Research Projects Agency ARPA)، في وزارة الدفاع الأميركيّة وفي العديد من الجامعات الأميركيّة. سنوات ابتكار فكرة السطح البينيّ الغرافيّ: تسمح الرموز بالتواصل بسرعة مع الكمبيوتر، وتتجنب اللجوء إلى عمليّات معلوماتيّة.
1964	اختراع أول جهاز كمبيوتر صغير.
1966	اطلاق مشروع شبكة وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (Arpanet)، أول شبكة تربط أجهزة الكمبيوتر المتباعدة جغرافيًّا.

t.me/ktabpdf
مكتبة

1969	إنشاء وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (تربط وزارة الدفاع الأميركيّة بالجامعات) التي تسمح بنقل الملفات وتبادل البيانات والبريد الإلكترونيّ.
1973	صناعة أجهزة كمبيوتر صغيرة.
1979	إنشاء طلبة المعلوماتيّة الأميركيّين يوز نت (Usenet)، وهي شبكة تربط جامعتين، ثمّ اتجهت تدريجيًا إلى ربط مجمل طلبة المعلوماتيّة. لقد تطوّرت هذه الشبكة بسرعة أكبر من شبكة وكالة مشاريع البحوث المتقدمة، انطلاقًا من مجموعات النقاش التي لم تقتصر على المهنيّين (الترفيه...).
بداية الثمانينيّات	ضمّ شبكتي يوز نت ووكالة مشاريع البحوث المتقدمة (1982)، وإنشاء العديد من الشبكات الجامعيّة، مثل نظريّة الشبكات (Theorynet)، وبيتنت (Bitnet)، وبخاصّة سسنات (Csnet) (1982) وتمديدها إلى الخارج. ضبط بروتوكول مراقبة الاتصالات/ بروتوكول الإنترنت (TCP/IP) الذي اختارته وكالة مشاريع البحوث المتقدمة لنجاعته وشموله في 1982.

t.me/ktabpdf
مكتبة

1983	اختـراع مفهوم الإنترنت كشبكة الشبكات. تطبيق بروتوكول مراقبة الاتصالات/ بروتوكول الإنترنت في وكالة مشاريع البحوث المتقدمة ووضع الشبكة في متناول غالبية الجامعات، ثمّ في أجهزة الكمبيوتر الصغيرة الخاصّة. لقد تكفلت الوكالة القوميّة للعلوم (NSF) بإدارة هندسة شبكة وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (واحتفظ الجيش بشبكته ملنات Milnet التي زالت من الوجود سنة 1990).
1985	أنشأت الوكالة القومية للعلوم شبكة نسفنت (Nsfnet) التي تستخدم بروتوكول مراقبة الاتصالات مدمجًا في الإنترنت.
1990	اختُرِع الويب (Web) في المركز الأوروبـيّ للبحوث النووية (CERN)، وهو نظام لتوثيق النصّ الافتراضيّ يستند إلى شبكة من روابط الرسومات الغرافيّة.
1991	إنشـاء وورلـد وايـد واب (World Wide Web)، وهو متصفح أو برنامج إبحار سريع تبناه مستعملو الإنترنت.
1992	موزاييك (Mosaic)، برنامج للإبحار في شبكة الإنترنت مخفف، وزعـه المركز الأوروبـيّ للبحوث النووية مجانًا.

t.me/ktabpdf مكتبة

1992	صدور ميثاق جمعية لتنسيق تطوّر شبكات المعلوماتيّة في العالم (ISOC).
1993	الولايات المتحدة تطوّر إدارة الإنترنت (1998 ـ 1999 في فرنسا).
1994	انطلاقة نتسكيب (Netscape) المتصفح الذي خلف متصفح موزاييك.
1994	استخدام واسع للإعلان والتجارة في شبكة الإنترنت: الويب يتحوّل، في السنة التالية، إلى أول خدمة تقدمها الشبكة.
1994	انطلاقة لينوكس (Linux)، نظام الاستغلال الحر من نوع يونيكس (Unix) اخترع في 1991: برامج تحور وتعدل ويعاد توزيعها بشكل غير محدود.
1995	انطلاق نظام التشغيل وندوز 95 (Windows 95) الذي أدى إلى انتشار السطح البينيّ الغرافيّ لإنترنت إكسبلورر (Internet Explorer) لمايكروسوفت لدى الجمهور الواسع، وهو مشتق من برنامج موزاييك، وقد خلف نتسكيب بعد بضع سنوات.
1996	تطوّر المراسلات الإلكترونيّة الآنيّة.
1998	تطوّر لغة إكس أم أل (XML) التي تسمح بربط البيانات والنصوص بيسر، ما سهل ظهور المدونات الإلكترونيّة (Blogs)، وهي مواقع شخصيّة للإعلام.

t.me/ktabpdf
مكتبة

1998	الشروع في أول تجربة لانتخابات سياسيّة عبر الإنترنت.
1999	برنامج «الند للند» (peer-to-peer) للمرة الأولى، الذي استخدم على أوسع نطاق لتحميل الموسيقى نبستير (Napster) على وجه الخصوص.
2001	انطلاقة ويكيبيديا (Wikipédia)، وهي موسوعة مجانيّة عبر شبكة الإنترنت، فوضويّة/ تعاونية.
2003	انتقال الاتصالات الهاتفيّة عبر الإنترنت من مرحلة التجربة إلى التسويق.
2004	استخدام جماهيريّ للمدونات الإلكترونيّة أثناء الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة. إنشاء البودكاستينغ (podcasting)، وهو تقنيّة تسمح بالبث المجانيّ للمحتويات السمعيّة أو الفيديو عبر مدونة إلكترونيّة.

المراجع

ABBATE Janet, *Inventing the Internet*, Cambridge, MIT Press, 1999.

AKRICH Madeleine, «Les formes de la médiation technique», *Réseaux*, 60, 1993.

______, «Les objets techniques et leurs utilisateurs. De la conception à l'action», *Raisons pratiques*, 4, 1993.

t.me/ktabpdf مكتبة

ALLARD Laurence, «Express yourself 2.0! Blogs, pages perso, fansubbing... : de quelques agrégats technoculturels ordinaires à l'âge de l'expressivisme généralisé», *in* MAIGRET Éric, MACÉ Éric (dir.), *Penser les médiacultures. Nouvelles pratiques et nouvelles approches de la représentation du monde,* Armand Colin-INA, 2005.

ARTERTON Christopher, *Teledemocracy. Can Technology Protect Democracy?* Londres, Sage, 1987 (traduction partielle «La technique est-elle au service de la démocratie? Extraits», *Hermès*, 26-27, 2000).

AURAY Nicolas, «L'engagement des joueurs en ligne. Ethnographie d'une sociabilité distanciée et restreinte», *Les Cahiers du Numérique*, 4/2, 2003.

AURAY Nicolas, CRAIPEAU Sylvie (dir.), «Les jeux en ligne», *Les Cahiers du Numérique*, 4/2, 2003.

AXFORD Barrie, HUGGINS Richard (dir.), *New Media and Politics*, Sage, 2000.

BARBER Benjamin, *Démocratie forte* (1984), Desclée de Brouwer, 1997.

BARDINI Thierry, «Changement et réseaux socio-techniques. De l'inscription à l'affordance», *Réseaux*, 76, 1996.

BEAUDOUIN Valérie, «De la publication à la conversation. Lecture et écriture électroniques», *Réseaux*, 116, 2002.

BEAUDOUIN Valérie, VELKOVSKA Julia, «Constitution d'un espace de relation sur Internet (forums, pages personnelles, courrier électronique...», *Réseaux*, 97, 1999.

BECK Ulrich, *What is globalisation?* (1997), Cambridge, Polity Press, 2000.

t.me/ktabpdf

مكتبة

_____, «The Reinvention of Politics: Towards a Theory of Reflexive Modernization», *in* BECK Ulrich, GIDDENS Anthony, LASH Scott, *Reflexive Modernization. Politics, Tradition and Aesthetics in the Modern Social Order*, Cambridge, Polity, 1994.

BÉLISLE Claire (dir.), *La lecture numérique: réalités, enjeux et perspectives*, Presses de l'Enssib, 2004.

BOCZKOWSKI Pablo, *Digitizing the News. Innovation in Online Newspapers*, Cambridge, MIT Press, 2004.

BOLTANSKI Luc, CHIAPELLO Ève, *Le nouvel esprit du capitalisme*, Gallimard, 1999.

BOULLIER Dominique, «Du bon usage d'une critique du modèle diffusionniste. Discussion-prétexte autour des concepts de EM Rogers», *Réseaux*, 36, 1989.

BOULLIER Dominique, CHARLIER Catherine, «À chacun son Internet. Enquête sur des usagers ordinaires», *Réseaux*, 86, 1997.

BOURREAU Marc, LABARTHE-PIOL Benjamin, «Le peer to peer et la crise de l'industrie du disque. Une perspective historique», *Réseaux*, 125, 2004.

BROUSSEAU Éric, CURRIEN Nicolas (dir.), *Internet and Digital Economies*, Cambridge University Press, 2007.

CAI Xiaomei, «An experimental examination of the computer's time displacement effects», *New Media and Society*, 7/1, 2005.

CARADEC Vincent, ««Personnes âgées» et «objets technologiques»»», *Revue française de sociologie*, 42/1, 2001.

_____, «Vieillissement et usage des technologies», *Réseaux*, 96, 1999.

t.me/ktabpdf

مكتبة

CARDON Dominique (dir.) *et al.*, *Les blogs, Réseaux*, 140, 2006.

CAREY James, «In Defense of Public Journalism », *in* GLASSER Theodor (dir.), *The Idea of Public Journalism*, New York, Guilford, 1999.

_____, *Communication as Culture. Essays on Media and Society*, Londres, Routledge, 1989.

CASSEL Justine, JENKINS Henry (dir.), *From Barbie to Mortal Kombat. Gender and Computer Games*, MIT Press, 1999.

CASTELLS Manuel, *L'Ère de l'information*, Fayard, 1998-1999, t.1, *La société en réseaux*, (1996), t.2, *Le pouvoir de l 'identité* (1997), t.3, *Fin de millénaire* (1998).

CERTEAU Michel de, *L'Invention du quotidien* (1980), t-1, *Arts de faire*, Gallimard, 1990.

CHAMBAT Pierre, «Espace public, espace privé: le rôle de la médiation technique», in PAILLIART Isabelle (dir.), *L'Espace public et l'emprise de la communication*, Grenoble, Ellug, 1995.

_____, «NTIC et représentation des usagers» *in* VITALIS André (dir.), *Médias et nouvelles technologies. Pour une socio-politique des usages*, Éditions Apogée, 1994.

_____, «Usages des TIC. Évolution des problématiques», *Technologies de l'information et société*, 6/3, 1994.

_____, «Technologies à domicile», *Esprit*, 186, 1992.

CHIARO Marina, FORTUNATI Leopoldina, «Nouvelles technologies et compétences des usagers», *Réseaux*, 96, 1999.

t.me/ktabpdf

مكتبة

COLEMAN Stephen, «New Mediation and Direct Representation: Reconceptualizing Representation in the Digital Age», *New Media and Society*, 7/2, 2005.

COLEMAN Stephen, GØTZE John, *Bowling Together. Online Public Engagement in Policy Deliberation*, Londres, Hansard Society, 2001.

CONEIN Bernard, THÉVENOT Laurent (dir.), «Cognition et information en société», *Raisons pratiques*, 8, 1997.

COOKE Lynne, «A Visual Convergence of Print, Television, and the Internet: Charting 40 Years of Design Change in News Presentation», *New Media and Society*, 7/1, 2005.

DACHEUX Éric, *Vaincre l'indifférence. Les associations dans l'espace public européen*, CNRS éditions, 2000.

DAHLGREN Peter, «L'espace public et l'internet. Structure, espace et communication», *Réseaux*, 100, 2000.

DATCHARY Caroline, PAGIS Julie, «Jeunes altermondialistes en réseau», *Réseaux*, 133, 2005.

DELAVAUD Gilles, LANCIEN Thierry (dir.), «D'un média... l'autre», *MédiaMorphoses*, 16, 2006.

DONNAT Olivier, LARMET Gwenaël, «Télévision et contextes d'usages. Évolution 1986-1998», *Réseaux* 119, 2003.

FARCHY Joëlle, *Internet et le droit d'auteur. La culture Napster*, CNRS éditions, 2003.

FLICHY Patrice, «L'individualisme connecté entre la technique numérique et la société», *Réseaux*, 124, 2004.

_____, *L'Imaginaire d'Internet*, La Découverte, 2001.

_____, «Internet ou la communauté scientifique idéale», *Réseaux*, 97, 1999.

t.me/ktabpdf

مكتبة

FOURMENTRAUX Jean-Paul, *Art et Internet. Les nouvelles figures de la création*, CNRS éditions, 2005.

FRADIN Bernard, QUÉRÉ Louis, WIDMER Jean (dir.), «L'enquête sur les catégories. De Durkheim à Sacks», *Raisons pratiques*, 5, 1994.

GAGLIO Gérard, «Pour un regard tempéré sur les «réfractaires» aux bien massivement diffusés. Variations autour du téléphone mobile en France», *Réseaux*, 133, 2005.

GARNHAM Nicholas, «La théorie de la société de l'information en tant qu'idéologie: une critique», *Réseaux*, 101, 2001.

GENSOLLEN Michel, «La création de valeur sur Internet», *Réseaux*, 97, 1999.

GIBSON John J., «The Theory of Affordances», *in* SHAW Robert, BRANSFORD John (dir.), *Perceiving, Acting and Knowing. Toward an Ecological Psychology*, Hillsdale, Lawrence Erlbaum, 1977.

GLÉVAREC Hervé, *Libre antenne. La réception de la radio par les adolescents*, Armand Colin-INA, 2005.

GOFFMAN Erving, *Les cadres de l'expérience* (1974), Minuit, 1991.

GRANJON Fabien, *L'internet militant. Mouvement social et usages des réseaux télématiques*, Rennes, Apogée, 2001.

GREFFE Xavier, MATHÉ Florence, *Le* peer-to-peer*: analyse économique*, Adami, Matisse-CNRS, 2005.

GUNKEL David J. (dir.), «Hacking and Hacktivism», *New Media and Society*, 7/5, 2005.

HACKER Kenneth, VAN DIJK Jan (dir.), *Digital Democracy. Issues of Theory and Practice*, Sage, 2000.

t.me/ktabpdf

مكتبة

HADDON Leslie, «European Perceptions and Use of the Internet», *Actes du 2^e colloque international sur les usages et services des télécommunications à l'heure d'internet*, Bordeaux-Arcachon, 1999.

HAGUE Barry N., LOADER Brian D. (dir.), *Digital Democracy. Discourse and Decision Making in the Information Age*, Londres, Routledge, 1999.

HERT Philippe, «Quasi-oralité de l'écriture électronique et lien social: la construction du vraisemblable dans les communautés scientifiques», *Réseaux*, 97, 1999.

HUTCHINS Edwin, *Cognition in the Wild*, Cambridge, MIT Press, 1995.

_____, «Comment le cockpit se souvient de ses vitesses», *Sociologie du travail*, XXXVI/4, 1994.

JACQUINOT Geneviève, MONNOYER Laurence (dir.), «Le dispositif. Entre usage et concept», *Hermès*, 25, 1999.

JENKINS Henry, *Fans, Bloggers, And Gamers*, New York, New York University Press, 2006.

_____, «Convergence? I Diverge», *Technology Review*, Juin 2001.

_____, «The Poachers and the Stormtroopers: Cultural Convergence in the Digital Age» (1998), *in* LE GUERN Philippe (dir.), *Les Cultes médiatiques. Culture fan et œuvres cultes*, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2002.

_____, *Textual Poachers. Television Fans and Participatory Culture*, New York, Londres, Routledge, 1992.

JONES Steven (dir.), *Cybersociety 2.0. Revisiting Computer-Mediated Communication and Technology*, Londres, Sage, 1998.

_____, (dir.), *Cybersociety. Computer-Mediated Communication and Community*, Londres, Sage, 1994.

JOSEPH Isaac, *Erving Goffman et la microsociologie*, PUF, 1998.

JOUËT Josiane, «Les dispositifs de construction de l'internaute par les mesures d'audience», *Le Temps des Médias*, 3, 2004.

_____, «Technologies de communication et genre. Des relations en construction», *Réseaux*, 120, 2003.

_____, «Retour critique sur la sociologie des usages», *Réseaux*, 100, 2000.

_____, «Les messageries», *in* SICARD Marie-Noëlle, BESNIER Jean-Michel (dir.), *Les TIC: pour quelle société?* Université de technologie de Compiègne, 1997.

_____, «Pratiques de communication et figures de la médiation. Des médias de masse aux technologies de l'information et de la communication», *Réseaux*, 60, 1993.

_____, «Usages et pratiques des nouveaux outils de communication», *in* SFEZ Lucien (dir.), *Dictionnaire critique de la communication*, PUF, 1993.

_____, «Une communauté télématique: les axiens», *Réseaux*, 38, 1989.

LAFRANCE Jean-Paul, «Le phénomène télénaute ou la convergence télévision/ordinateur chez les jeunes», *Réseaux*, 129-130, 2005.

LATOUR Bruno, *Petites leçons de sociologie des sciences*, La Découverte, 1993.

LAVE Jean, *Cognition in Practice*, Cambridge, Cambridge University Press, 1988.

LE DOUARIN Laurence, «Hommes-femmes et micro-ordinateur. Une idéologie des compétences», *Réseaux*, 123, 2004.

t.me/ktabpdf

مكتبة

LELONG Benoît, «Quel «fossé numérique»? Clivages sociaux et appropriation des nouvelles technologies», *in* MAIGRET Éric, (dir.), «Communication et Médias», *Les Notices*, La documentation Française, 2003.

LELONG Benoît, MARTIN Olivier (dir.), «L'internet en famille», *Réseaux*, 123, 2004.

LICOPPE Christian (dir.), «Mobiles en Asie», *Réseaux*, 133, 2005.

LICOPPE Christian, RELIEU Marc (dir.), «Mobiles», *Réseaux*, 112-113, 2002.

MAIGRET Éric, MONNOYER Laurence, (dir.), «www.démocratie locale.fr», *Hermès*, 26, 2000.

MAIGRET Éric, SOULEZ Guillaume (dir.), «Les nouveaux territoires de la série télévisée», *MédiaMorphoses*, Hors Série, 2007.

MAIGRET Éric, SOULEZ Guillaume (dir.), Les raisons d'aimer… les séries télé, *MédiaMorphoses*, Hors séries, 2007.

MALLEIN Philippe, TOUSSAINT Yves, «L'intégration sociale des TIC: une sociologie des usages», *Technologies de l'information et société*, 6/4, 1994.

MATHESON Donald, «Weblogs and the Epistemology of the News: some Trends in Online Journalism», *New Media and Society*, 6/4, 2004.

MATTELART Armand, *Histoire de l'utopie planétaire. De la cité prophétique à la société globale*, La Découverte, 1999.

MELUCCI Alberto, *Challenging Codes. Collective Action in the Information Age*, Cambridge, Cambridge University Press, 1996.

MILLER Daniel, SLATER Don, *The Internet. An Ethnographic Approach*, Oxford, Berg, 2000.

MISSIKA Jean-Louis, *La fin de la télévision*, Seuil, 2006.

MORLEY David, *Home Territories. Media, Mobility and Identity*, Londres, Routledge, 2000.

_____, *Family Television. Cultural Power and Domestic Leisure*, Londres, Routledge, 1986.

MÜLLER Jürgen, «Vers l'intermédialité. Histoires, positions et options d'un axe de pertinence», *MédiaMorphoses*, 16, 2006.

NORMAN Donald A., «Les artefacts cognitifs» (1991), *Raisons pratiques*, 4, 1993.

NORRIS Pippa, *Digital Divide. Civic Engagement, Information Poverty, and the Internet Worldwide*, Cambridge, Cambridge University Press, 2001.

PERRIAULT Jacques, *La Logique de l'usage. Essai sur les machines à communiquer*, Flammarion, 1989.

PROULX Serge, «Usages des technologies d'information et de communication : reconsidérer le champ d'étude?», in *Actes du Congrès Inforcom 2001*, Société française des sciences de l'information et de la communication, Paris, 2001.

PROULX Serge, MASSIT-FOLLÉA Françoise, CONEIN Bernard (dir.), *Internet, une utopie limitée. Nouvelles régulations, nouvelles solidarités*, Laval, Les Presses de l'Université Laval, 2005.

QUÉRÉ Louis, «La structure de l'expérience d'un pont de vue pragmatiste», *in* CEFAÏ Daniel, JOSEPH Isaac (dir.), *L'Héritage du pragmatisme. Conflits d'urbanité et épreuves de civisme*, Éditions de l'Aube, 2002.

_____, «Au juste, qu'est-ce que l'information?», *Réseaux*, 100, 2000.

t.me/ktabpdf

مكتبة

RALLET Alain (dir.), «La fracture numérique», *Réseaux*, 127-128, 2004.

RINGOOT Roselyne, UTARD Jean-Michel (dir.), *Le journalisme en invention. Nouvelles pratiques, nouveaux acteurs*, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2006.

ROCHELANDET Fabrice, LE GUEL Fabrice, *Les pratiques de copiage des internautes français: une analyse économique*, Adami-UFC Que Choisir, 2005.

SILVERSTONE Roger, HIRSCH Éric, MORLEY David (dir.), *Consuming Technologies. Media and Information in Domestic Spaces*, Londres, Routledge, 1992.

SPIGEL Lynn, *Make Room For TV. Television and the Family Ideal in Postwar America*, Chicago, University of Chicago Press, 1992.

SPIGEL Lynn, OLSSON Jan (dir.), *Television after TV. Essays on a Medium in Transition*, Durham, London, Duke University Press, 2004.

TAYLOR Charles, *Les sources du moi. La formation de l'identité moderne* (1989), Seuil, 1998.

The International Journal of Computer Game Research, www.gamestudies.org

THÉVENOT Laurent, «Un gouvernement par les normes. Pratiques et politiques des formats d'information», *Raisons pratiques*, 8, 1997.

_____, «Essai sur les objets usuels. Propriétés, fonctions, usages», *Raisons pratiques*, 4, 1993.

TOUSSAINT Yves, «La parole électrique. Du minitel aux nouvelles «machines à communiquer»», *Esprit*, 186, 1992.

t.me/ktabpdf

مكتبة

TSAGAROUSIANOU Roza, TAMBINI Damian, BRYAN Cathy (dir.), *Cyberdemocracy. Technology, Cities and Civic Networks*, Londres, Routledge, 1998.

TURKLE Sherry, *Life on the Screen. Identity in the Age of Internet*, New York, Simon and Shuster, 1995.

_____, *Les Enfants de l'ordinateur* (1984), Denoël, 1986.

UTARD Jean-Michel (dir.), «La presse en ligne», *MédiaMorphoses*, 4, 2002.

VAN BASTELAER Béatrice, HÉNIN Laurent, LOBET-MARIS Claire, *Villes virtuelles. Entre communauté et cité. Analyse de cas*, L'Harmattan, 2000.

VAN DIJK Jan, «The one-dimensional network society of Manuel Castells», *New Media and Society*, 1/1, 1999.

VAN ZOONEN Lisbet, «Gendering the Internet. Claims, Controversies and Cultures», *European Journal of Communication*, 17/1, 2002.

VITALIS André (dir.), *Médias et nouvelles technologies. Pour une socio-politique des usages*, Éditions Apogée, 1994.

WELLMAN Barry (dir.), *Networks in the Global Village*, Boulder, Westview Press, 1999.

WOLF Mark J.P., PERRON Bernard (dir.), *The Video Game Theory Reader*, New York, Routledge, 2003.

WOLTON Dominique, *Internet et après? Une théorie critique des nouveaux médias*, Flammarion, 1999.

WYATT Sally, THOMAS Graham, TERRANOVA Tiziana, «They Came, They Surfed, They Went Back to the Beach. Conceptualising Use and Non-use of the Internet», *in* WOOLGAR Steve (dir.), *Virtual Society? Technology, Cyberbole, Reality*, Oxford, Oxford University Press, 2002.

t.me/ktabpdf

مكتبة

خاتمة

هذه الدراسة محاولة لاستعراض سوسيولوجيا الاتصال بصفتها مؤسسة تراكمية اجتازت المراحل التي لا تمحى. وتمتد جذورها لتأكيد التقاطع بين المدرسة الإمبيريقيّة الأميركيّة ومدرسة فرانكفورت، والتفاعلات الرمزيّة والبنيويّة والدراسات الثقافيّة بمختلف طبعاتها، والنظريّة الهابرماسيّة للفضاء العموميّ وما بعدها، ونظريّة التفكّر، والنظريّة التداوليّة الأميركيّة التي كانت السبّاقة في التفكير بتعايش ظواهر التعبير والهيمنة والمشاركة في عالم ديموقراطيّ بصدد التوسع، بتأكيد طابع تشكيلات الفعل الذي لا يمكن اختزاله أو توقُّعه. والهدف من عرض سوسيولوجيا الاتصال بهذه الطريقة هو العودة إلى أزمنة البحث الأولى في العلوم والفلسفة الاجتماعيّة وربطها بما يجري في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، باستئناف الحوار بين السوسيولوجيا الأوروبيّة، التي انشغلت أساسًا بمسائل السلطة والثقافة وفصلت الفعل عن الفكر لربطهما بواسطة آليّات سببيّة، والتداوليّة الأميركيّة التي تقدّر الاعتماد المتبادل بين البشر وتربط الفعل والفكر بواسطة مسارات غير محدّدة. لقد اخترنا من التداوليّة جانبها التفاؤلي النقديّ المتمركز حول التجربة كاكتشاف وكإمكان، وليس كعزيمة وانغلاق، وتفادينا الجانب

t.me/ktabpdf

مكتبة

الثاني من فلسفة / سوسيولوجيا ديوي، وميد، وبارك، الجانب الإيكولوجي للممارسات، بسبب طبيعويته.

ويمثّل المسلك الذي اتّبعناه دعوة للابتعاد عن الآثار الضارة للتفكير المهووس بمرجعيّة فلسفة الأنوار. وإن لم يكن الفعل امتثالًا سلبيًّا فقط، مثلما تبيّنه البحوث التي أجريت على الجمهور، وإن كان الفكر العقلانيّ متقاسَمًا بشكل واسع في المجتمعات، فلا يوجد تخريج للكوامن الذاتيّة، ولا تفوُّق مطلق للمثقفين. ولا تُمْحى المُثل العليا لفلسفة الأنوار، ولا تزول شروط النقد، لكن يتوجب أن ينفصل هذا النقد عن العقلانيّة النخبويّة واعتبار المتعلمين مثلًا أنموذجيًّا، وأن ينفصل أيضًا عن إمبرياليّة تعريف الثقافة بواسطة الفنون المكرسة، ويبتعد عن الشعور بتجسيد الحركة الاجتماعيّة في كل لحظة في إطار رؤية غائية. إن المثقفين لا يتصورون أن النقد نشاط مستقل عن بقيّة الانتقادات، بما فيها تلك التي يمكن أن تستهدفهم، ففي زمن شموليّة الممارسات والانتشار الواسع لتكنولوجيات الاتصال الأكثر تمشهدًا واستعراضًا، يتوجّب على المثقفين القيام، بشكل متزامن، بتَمثّل الظواهر التي كانت متعارضة على طول الخط أي إعادة التفكير في العلاقات بين العالم التجاريّ وغير التجاريّ، الدولة والمواطنين، من أجل مجتمع تفكريّ، وفي سياق لم تُمْحَ فيه المؤسسات من الوجود، بل بالعكس، هي موجودة وتطالب باتخاذ أشكال أكثر اتساعًا تتجاوز الوطن الواحد. وفي سياق لا يفترض من المثقفين أن يتولّوا قيادة الأشخاص فعلًا، فإن الأمر يتطلب فهم التمركز الاقتصاديّ لوسائل الإعلام والترفيه وقياس الضخامة

t.me/ktabpdf مكتبة

التنظيميّة وهشاشة هذه الأنظمة التي نتمنّى، على صعيد آخر، تمديدها: يجب ألّا تكون الصناعات الثقافيّة محدودة، بل يتطلب الأمر مضاعفتها في الدول النامية بالدرجة الأولى، ودراسة استقلاليّة الأشخاص سواء أكانت قانونيّة أم متخيَّلة، ودراسة الإكراهات التي يعانون منها، بخاصّة في الميدان الاقتصاديّ، وذلك بصياغة نظريّة السلطة، التي تأخذ بالاعتبار أقصى تغيرات الممارسات وتعدّدها. إذ يمكن تصور الآمال في إنتاج أكثر ديموقراطيّةً يُحْدث النقلة التي شُرع فيها منذ بضع سنوات في قطاع الإعلام. ويجب تصور التطلعات إلى الديموقراطيّة المتواصلة والرغبات في المشاركة في الإبداع والترفيه التي يتم تصورها انطلاقًا من إعادة التشكيل الاجتماعيّ التي يقوم بها الفرد، ومن مشكل مسؤولياته الجديدة والساحقة، في الغالب، التي تشهد عليها وسائل الإعلام ببرامجها، ومن تكافؤ الظروف والخوف من التماثل. إذًا، يمكن ألّا يبدو الاتصال كلمة جوفاء، وأن يمسك برؤية متعددة الأبعاد ومنفتحة تشير إلى السعي لمُثُل عليا من التصالح في سياق التعدديّة.

مكتبة t.me/ktabpdf

التيارات الأساسيّة في البحث ومسألة الاتصال

مستوى الاتصال	تيار البحث	موقع الباحث	رؤية الممارسات	رؤية الاعتقادات	أثر وسائل الإعلام	حيز النزاع
«الطبيعة»	سلوكيّة	هندسة اجتماعيّة	إجابات سلوكيّة للبيئة	إجابات سلوكيّة للبيئة	المراقبة الاجتماعيّة	يجب على الدولة إعادة بناء المجتمع «المنخرم»
	سيبرنيطقيّة	فوضويّة وعقلانيّة	أفعال بشريّة ناقصة عقليًّا	اعتقادات بشريّة ناقصة عقليًّا	اصطناعيّة اجتماعيّة	يجب إعادة بناء المجتمع بالذكاء الاصطناعيّ
	حتميّة تكنولوجيّة	شعبويّة تنبئيّة	تشابك وسائل الإعلام والمجتمع حسيًّا	تشابك وسائل الإعلام والمجتمع حسيًّا	تشكيل أنواع من الروابط الاجتماعيّة والاصطناعيّة والاجتماعيّة	الحركة نحو القبَليّة تمحو الاختلافات

مكتبة
t.me/ktabpdf

«المجتمع»	نظريّة نقديّة	نخبويّة بؤسيّة	التعارض بين الأفعال العقلانيّة أو المستنيرة والأفعال المخدوعة أو المتقننة	الأيديولوجيا بصفتها أفكارًا مهيمنة لا يُحتجّ عليها	تفكيك الروابط الاجتماعيّة والسيطرة الاجتماعيّة	الدور الحصري للمثقفين في النقد
	وظيفيّة	هندسة اجتماعيّة ونزعة تقدميّة	تناسب ثابت للأفعال والنظام أو الخلل الوظيفيّ	تناسب ثابت للقيم والنظام أو الخلل الوظيفيّ	إطار التنظيم الاجتماعيّ والتعبير عن الحاجات الفرديّة	نزاع ضروريّ وظيفيًّا لكن مآله الفشل
	بنيويّة تكوينيّة للهيمنة الثقافيّة	نخبويّة مشروعويّة	التناسب الديناميكيّ للنشاطات مع البنى	أيديولوجيا مهيمنة يجب شرعتها	إعادة إنتاج عدم االتكافؤ الثقافيّ	نزاع معمّم لكن هيمنة المثقفين دائمة الحضور
	الدراسات الثقافيّة	شعبويّة منهجيّة	أنشطة غير متطابقة بانتظام	حوار نزاعيّ	أمكنة للهيمنة والثقافة	نزاع معمّم واستنكار هيمنة
«الإبداعيّة»	نظريّات الفضاء العموميّ	فاعل ديموقراطيّ	توتر بين المنطق السرديّ والمنطق العقليّ	تعدد الأصوات المتنازعة	فضاء لتعبير الهويّات والتداول الفكريّ	النزاع يؤسس الديموقراطيّة ويسمح بالمصالحة وبالتجربة المشتركة
	نظريّات الحداثة التفكريّة	التفكريّة: سلالم التضمّن	فعل اجتماعيّ بما هو تجربة	اضطراب وإبداعيّة	فضاء البناء والتشكيك	نزاع يسمح بالمصالحة لكن من دون تسييج

مكتبة t.me/ktabpdf

t.me/ktabpdf مكتبة

ثبت تعريفي

اتّصال قرْبيّ (Proxemique Proxémie): نوع من الاتِّصَال غير اللفظي استخدمه عالم الانثروبولوجيا الأميركي إدوارد هول، يستند إلى المسافة التي تفصل المتصلين في تواصلهما المباشر وجهًا لوجه من دون وسيط تقنيّ، ودلالات هذه المسافة. وقد وجد مكانته في دراسة العلاقة بين الاتصال والثقافة. فإذا كانت لغة الجسد والحركات والإيماءات جزءًا أساسيًّا من الاتِّصال غير اللفظي، فإن المسافة التي تقرّب المتّصلين أو تُباعد بينهم تعدّ لغة «صامتة» تختلف دلالتها من ثقافة إلى أخرى، وتكشف طبيعة علاقتهم.

إثنوغرافيا مركزية، إثنومركزية (Ethnocentrisme): نزعة تؤمن بإثنية معينة أرقى من غيرها من الإثنيات في معتقداتها وسلوكها ونمط معيشتها وتنظيم حياتها الاجتماعية، وأن أي ثقافة غيرها دونية، لا بل سيئة. وتعبّر عن اتجاه جماعة ما في تَمَثّلها لغيرها من الجماعات والشعوب انطلاقًا من معاييرها الثقافية وقيمها.

يرى كلود ليفي ستروس أن هذا المفهوم يتضمن رفض التنوع الثقافي والاجتماعي، وهو رفض راسخ في تاريخ البشرية بدءًا بالحضارة اليونانية التي وسمت الشعوب التي تختلف عنها في اللسان والعادات بالبربرية.

t.me/ktabpdf مكتبة

إثنوميتودولوجيا (Ethnomethodologie): كلمة مركبة من (ethno) اليونانية، وتعني قبيلة أو أقلّية عرقية أو اجتماعية و(methodologie)؛ أي المنهج.

ظهرت الإثنوميتودولوجيا في خمسينات القرن الماضي في الولايات المتحدة على يد عالم الاجتماع هارولد غارفينكل الذي يؤكد أنها تهتم بمعرفة الأسلوب الذي يجعل من النشاطات الفعلية والمألوفة التي يقوم بها الأشخاص في مجموعة ما مناهج تكشف عن الأفعال والظروف العملية التي جرت فيها.

استخدامات (Usages): ولجت الاستخدامات حقل علوم الإعلام والاتصال على يد رواد نظريّتي انتشار المبتكرات (1962) والاستخدامات والإشباعات (1973) ضمن المدرسة الوظيفية. وقد استخدمت النظريتان هذا المفهوم بالمعنى الشائع في القواميس، أي توظيف أداة أو شيء مادي أو رمزي لتحقيق غايات مخصوصة أو لإشباع حاجات معينة. واكتسب هذا المفهوم مضامين جديدة في ظل المدرسة البنائية بعد أن أُلحقت به صفة الاجتماعي. فالاستخدامات الاجتماعية ليست فعلًا أو نشاطًا، بل عملية بناء اجتماعي يحدّدها جان غي لاكروا (LACROIX, Jean-Guy) بأنها أنماط من الاستعمالات تتجلّى بقدر وافٍ من التواتر في صيغة عادات مندمجة بشكل كامل في الحياة اليومية.

أعلمة، وساطة إعلامية (Médiatisation): ثمّة تشابك بين المفاهيم الثلاثة: (Médiatisation وMédiation وMédia)

t.me/ktabpdf

مكتبة

نظرًا لاشتقاقها من مصدر واحد. ولفكّ هذا التشابك يرى بعض الباحثين أن استعمال مفهوم الأعلمة يقتصر على المحتويات فقط، بينما الوساطة تقتصر على العلاقات. لكن تطور الواقع الذي يغطيه مفهوم الميديا اليوم يثير الشك حول مصداقية الفصل بين المفاهيم المذكورة. فالباحثة ميشال جلّرو (Michèle Gellereau) ترى أن مسار الأعلمة يمكن أن يكون أيضًا مسار الوساطة.

تُفهم الأعلمة على أنها صياغة للأحداث والقضايا وفق خصوصية الوسيلة الإعلامية؛ أي التعبير عن هذه الأحداث بلغة هذه الأخيرة. لذا تُستبدل بها في بعض الأدبيات الصيغة التعبيرية التالية: «الاتصال بواسطة وسائل الإعلام أو الاتصال المؤعلم La communication médiatisée والذي يعني كل أشكال الاتصال التي تستعمل المنظومة التكنولوجيّة».

افتراضيّ (Virtuel): اشتقت كلمة (virtuel) من الكلمة اللاتينيّة (virtuālis) التي اشتقت بدورها من كلمة (virtus) التي تعني القوة والطاقة. وتُستعمل في وسائل الإعلام بمعنى «الرقمي» أو «غير المادّي»؛ أي أنها أصبحت تشير إلى ما يجري في شبكة الانترنت بالتعارض مع ما يجري في « العالم الواقعي».

وقد صحح بول فيريليو (Paul Virilio) هذا الفهم بالقول أن الافتراضي لا يتعارض مع الواقعي بل مع الحالي. فنمط وجود العالم الافتراضي في ذاكرة الكمبيوترات وطبيعته غير المادية لا يعني بالضرورة عدم واقعيته بدليل أن البعض يترجم كلمة الافتراضي إلى

t.me/ktabpdf مكتبة

«شبه الواقعي». فـ«الافتراضي» كمفهوم ليس جديدًا في حد ذاته لكنّ جدّته تكمن في نمط إنجازه؛ أي في تقنيته حسب ما ذهب إليه نوال نل (Noël Nil).

اقتصاديّات الحجم (Économies d'échelle): مصطلح اقتصادي يُستخدم للتعبير عن قيام شركة ما أو مؤسسة بتخفيض كلفة إنتاج سلعة ما جرّاء الارتفاع الكبير في كمية إنتاجها.

برنامج الحوار الاستعراضي (Talkshow): برنامج يلتقي فيه الضيوف في أستوديو التلفزيون أو الإذاعة للحديث والحوار. وهو يجمع أشخاصًا من عامة الناس لتقديم شهاداتهم عن حياتهم اليومية أو بعض تفاصيلها، أو مزيجًا من الشخصيات والمشاهير القادمين من مشارب مختلفة: عارضات أزياء، مغنّين، كتاب، شعراء، مسرحيّين...

بناء الواقع (Construction sociale): موقف نظري في علم اجتماع المعرفة يُستخدم في الدراسات الإعلامية لتفنيد مقولة أن وسائل الإعلام مرآة تعكس الواقع، وللتأكيد على أن لكل وسيلة إعلامية تعريفها للواقع؛ بمعنى أنها لا تعبر عن الواقع، بل تؤوله انطلاقًا من مجموعة من المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والمهنية. ويذهب البنائيون الاجتماعيون إلى التأكيد على أن وسائل الإعلام لا تنقل ما يجري في الواقع إلى الجمهور، بل تنقل تمثُّلاتها عمّا يجري في الواقع، وكل تمثّل هو بناء اجتماعي.

مكتبة t.me/ktabpdf

البنيوية (Structuralisme): يرى جون بياجيه (Jean Piaget) أن البنيوية ليست مذهبًا فلسفيًّا بل منهجًا في العلوم الاجتماعية والإنسانيّة. انطلق هذا المنهج، الذي ظهر في منتصف القرن العشرين، من مفهوم محوري هو البنية التي جعلها نموذجًا نظريًا، ورأى من خلالها أنه «لا يمكن فهم الإنسان ودراسته إلا من خلال شبكة من العلاقات الرمزية بصفتها مجموعة من البنى التي يشارك فيها من دون أن يعي ذلك».

تحشيد (Massification): إضفاء الطابع الجماهيري على نشاط أو استهلاك منتج ما كان مخصصا للنُّخْبَة. استخدم هذا المفهوم لدراسة تأثير وسائل الإعلام على الجمهور بحكم كونها تبثّ موادّ إعلامية وثقافية موحّدة ومنمّطة موجهة لأكبر عدد من الناس، إذ يعتقد البعض أن هذه المواد تعمل على توحيد انشغالاتهم وقولبة أذواقهم ومواقفهم لأنها تُعتبر القاسم المشترك لتجربتهم الوجدانية. وقد ندّد سابقًا الكثير من المثقفين بهذا التحشيد، لكنهم يندّدون اليوم بظاهرة التفريد كعملية مناقضة للتحشيد! فتكنولوجيا الاتصال المتطورة تشجع الاستهلاك الفردي وحتّى الشخصي للثقافة والإعلام ممّا يؤدي إلى تشظّي الجمهور وإضعاف تجربته الاجتماعية المشتركة، وتفتيت اهتماماته وتعميق تباين أذواقه الفنية والجمالية وبالتالي القضاء على اللحمة الثقافية التي تعزز تماسكه.

مكتبة t.me/ktabpdf

تشيّؤ (Réification): التحول العملي والذهني إلى شيء ما لم يكن في الأصل شيئًا، مثل الإنسان والعلاقات الإنسانية، والحياة الاجتماعية؛ أي تحويلها إلى سلعة لا تحددها سوى قيمتها التبادلية.

يُعتبر هذا المفهوم الفلسفيّ أساسيًّا في الفكر الماركسي، وعلى أساسه بنت المدرسة النقدية موقفها من الثقافة الجماهيرية، إذ رأت أنها أدّت إلى سَلعنَة العلاقات الاجتماعية - أي جعلتها سلعة - وحولتها إلى وسيلة وجرّدتها من طابعها الإنساني، وأضفت الطابع الصنمي على علاقات البشر بالعمل والفكر والثقافة.

تغريب (Distanciation): التغريب من المفاهيم الأساسية في المسرح البريختي التي ساهمت في إحداث قطيعة مع المسرح الأرسطي. ويعني كسر الإيهام المسرحي واستخدام كل ما من شأنه التأكيد على أن ما يجري على خشبة المسرح ليس سوى تمثيل. ويعني دفع الجمهور ليحافظ على هامش يفصله عما يجري على خشبة المسرح، ولا ينغمس فيه عبر الإسقاط والتقمص. فهذا الهامش يجعل الجمهور واعيًا وناقدًا للواقع الذي يتحول إلى مرئي في المسرح. والتغريب ينهى الممثل عن إيهام المتفرج والإيحاء له بأنه الشخصية التي يمثلها. ويفرض عليه أن يظل وراءها ويكتفي بإظهارها على الخشبة فقط.

تفاعلات رمزية (Interactionnalisme symbolique): تيار فكري في علم الاجتماع ظهر في شيكاغو بالولايات المتحدة الأميركية في مطلع القرن العشرين. يؤمن بأن الاشخاص يمنحون

t.me/ktabpdf مكتبة

دلالاتهم الخاصة لما يقومون به من أفعال تتجلى عبر لغة أجسادهم، ولباسهم، وحركاتهم ولغتهم. وتندرج أفعال الأشخاص في شبكة من المبادلات التي تشكل السياق الذي يحدد معناها. فلا دلالة لأي فعل معزول يقومون به.

تفاعلية (Interactivité): ارتبط هذا المفهوم تاريخيًّا بالمعلوماتية، إذ كان يقصد به الخصائص التقنية التي تميز الكمبيوتر بما يتيحه للمستخدم من إمكانيات التدخل لتغيير مسار البرامج التقنية وفق اختياره الشخصي. وقد رُحّل هذا المفهوم من الحقل التقني إلى الحقل الاجتماعي والثقافي، ليشمل العديد من المستويات، منها: التبادل الذي يحدث بين المُسْتَخدِم والمحتوى الذي ينقله حامل الاتصال؛ أي المحمول. والتبادل بين المستخدمين ذاتهم عبر الوسيط التقني مثلما هو الأمر في المنتديات الإلكترونية في شبكة الإنترنت أو عبر مواقع الشبكات الاجتماعية.

تلفزيون الواقع (Télé-réalité): نوع تلفزيونيّ يسلّط الضوء على الحياة اليومية للأشخاص من عامة الناس أو مشاهيرهم، ويستلهم من وضعهم الفعلي أو المصطنع. ويستند إلى العديد من أنواع التلفظ التلفزيوني التقريري والحواري، في قالب من التنافس أو الاعتراف وفق مواضعة لهوية مع الجمهور. يميز جون لوي ميسيكا مفهوم الاستعراض التلفزيوني للواقع (reality show) عن برامج تلفزيون الواقع (tele-réalité). إذ يرى أن هذا الاستعراض يتجلّى في نوع تلفزيوني - برنامج - يُبنى أساسًا حول المادة الوثائقية والحوار

t.me/ktabpdf مكتبة

ويظهر الأشخاص العاديين وهم منهمكون في حياتهم اليومية الخاصة والمهنية.

تَمثُّل اجتماعي (Représentation sociale): يُعرّف التمثّل الاجتماعي بأنه منتَج النشاط الذهني ومساره الذي يعيد بموجبه الفرد أو الجماعة تشكيل الواقع الذي يواجهونه ويمنحونه معنًى مخصوصًا. (Jodelet, Denise) 1984. ويُناط بهذا النشاط العديد من الأدوار، منها: الاندماج في الحقائق الاجتماعية، وهيكلة العلاقات الاجتماعية، وتحويل ما هو مجرد إلى ملموس... (Augusto Palmonari Doise, Willem, 1986)

تَمَلُّك، استحواذ (Appropriation): يحمل التَمَلُّك الذي تعود جذوره إلى الفلسفة الماركسية العديد من المعاني. ففي معناه البسيط يدل على إخضاع شيء ما لاستخدام محدّد. لكن هذا المفهوم تعمّق واتّسع مجاله في ظل سوسيولوجيا الاستخدامات التي طرحت إشكالية ثنائية الاستخدام للعدة التكنولوجية: الاستخدام المفترض والنظري مثلما صاغه المهندسون والفنيون في تصميمهم لها، والاستخدام الفعلي المتعدّد والمتنوع؛ أي الطريقة التي يبني بها كل مستخدم علاقته بأداة الاتصال.

تناصّ (Intertextualité): أدخلت جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) التناصّ إلى الدراسات الأدبية في 1969، إذ تعتقد أن كل نصّ يتلاشى ويتحول في نص آخر. وقد عرّفه رولان بارت، في مقال نشره في موسوعة يونيفرساليس في 1973، بالقول (إن كل

t.me/ktabpdf

مكتبة

نص هو تناصّ حيث تكون نصوص أخرى حاضرة فيه: نصوص الثقافة السالفة والثقافة المجاورة).

انتقل التناص من الحقل الأدبي إلى الحقل الإعلامي والثقافي وتم التعامل مع مُنتجه: الصورة والفيلم والمسرحية والمقال الصحفي والبرنامج التلفزيوني والإشهار، وغير ذلك من المواد التي تعتبر نصًا لا يملك استقلاليته المزعومة.

تنشئة اجتماعية (Socialisation): مسار يتحوّل بموجبه الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي يتكيّف مع مجتمعه أو بالأحرى مع وسطه الاجتماعي؛ أي يتبنّى معايير هذا الوسط وقيمه وثقافته. يتّسم هذا المسار بديناميكيّته التي تشارك فيها العائلة والمدرسة والأصدقاء والمؤسسات الدينية ووسائل الإعلام.

خطاب (Discours): للخطاب معانٍ عديدة تختلف باختلاف مجالات استخدامه. ففي المجال اللساني يحيل إلى الملفوظات التي تزيد في الغالب عن الجملة. فإميل بنفينست (Émile Benveniste) يعتقد أن الخطاب يختلف عن السرد لأن السارد لا يضطلع بما يقول، خلافًا للخطاب الذي يعتبره عملية تلفظ تفترض وجود متكلم ومستمع. ومن هذا المنظور يشمل الخطاب، في التواصل المباشر، الجوانب اللفظية وغير اللفظية والسياق الذي يجري فيه. ويربط الخطاب في الدراسات الثقافية الكلام بالفكر. إذ يُعتبر فعلًا اجتماعيًا ولغة ومنظومة من التمثلات التي تتشكل تاريخيًا من أجل

t.me/ktabpdf مكتبة

تقديم مجموعة منسجمة من الـدلالات الخاصة بموضوع معين أو بحدث ما.

رأسمال اجتماعي (Capital social): شبكة الروابط الاجتماعية التي ينسجها الشخص ويجنّدها عند الحاجة. وتتضمن مستويين: روابط موروثة، مثل العلاقة بأفراد العائلة، وهي في الغالب قوية، وعلاقات مكتسَبة، وتتشكل من الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء وزملاء الدراسة والعمل والجيران والمعارف.

يرى روبرت بوتنام (Putnam, 2000) أن الرأسمال الاجتماعي يحيل إلى القيمة الجماعية لكل «الشبكات الاجتماعية» ولما تفرزه من ميل بين أعضائها من أجل خدمة بعضهم بعضًا.

رأسمال ثقافي (Capital culturel): وضع بيار بورديو (1979) الرأسمال الثقافي في بداية بحثه كفرضية لفهم تباين الكفاءات في التحصيل المدرسي، وانتهى إلى اعتماده كمفهوم أساسي لشرح العلاقة بين الطبقات الاجتماعية وأدوات تملك المواد الثقافية ونظام التعليم في المجتمع. ورأى أنّه يمكن أن يأخذ الأشكال الثلاثة التالية: يكون جزءًا من الشخص ذاته يكتسبه عبر مراحل تنشئته الاجتماعية. ويتخذ شكل مـواد ثقافية يحصل عليها الشخص، مثل الكتب واللوحات الزيتية. ويتخذ شكل كفاءات معرفية وثقافية ومهارات تثبتها الشهادات التعليمية.

سفسطائيون (Sophistes): يعود أصل مصطلح السفسطائيين إلى كلمة اليونانية (Sophia) التي تعني الحكمة والمعرفة. ويقصد

t.me/ktabpdf مكتبة

بهم المعلّمون ورجال الحكمة في الحضارة اليونانية الذين شكّلوا حركة فكرية تقوم على إجادة فن الكلام والبلاغة من أجل المغالطة في المحاجّة بغية التأثير والإقناع على حساب الحقيقة.

سوسيو سيميائي (**Socio sémiotique**): إنّ الانـزلاق من الاجتماعي إلى السيميائي لا يتم، في نظر عالم الاجتماع الفرنسي أندريا سمبريني (Semprini, 2007)، من خلال البعد الاجتماعي العام للدالّ، بقدر ما هو انتقال من التحليل المتمحور حول النص إلى التحليل المتمركز حول الخطاب والممارسات الاستطرادية في الخطاب، ولا يكون فيها هذا الأخير سوى نصّ مُتلفَّظ أو مجموعة من الإجراءات التي تتحكم في إنتاجه.

طبيعانية (**Naturalisme**): حركة أدبية وفنية ظهرت في القرن التاسع عشر تزعّمها الروائي إميل زولا (Emile Zola) في فرنسا. تُعدّ امتدادًا لحركة الواقعية في الأدب، وتسعى إلى وصف العالم والأشخاص كما هم في حياتهم الطبيعية وعلى حقيقتهم، وحتى في خساستهم، وتوجّه الإنتاج الأدبي والفني ليعكس الممارسات والعادات السائدة في المجتمع بطريقة دقيقة تكاد تكون علمية.

طنين (**Buzz**): سريان المعلومات المقتضبة وفق مسار غير تعاقدي؛ أي من فم المتحدث / المتّصل إلى أذن السامع / المتلقّي حول حدث أو سلعة أو خدمة أو شخص ليبلغ صداها وسائل الإعلام المختلفة. يُستخدم الطنين في مجال الترويج والتسويق، ويتّسم بطابعه المُعْدي الذي زادت تكنولوجيا الاتّصال في سرعة انتشاره واتّساعه.

t.me/ktabpdf مكتبة

وقد شرعت الشركات والمؤسسات في إدراج الطنين في سياستها الاشهارية التي تستند إلى الفلسفة الغائية التالية: المهم هو أن أكون موضوع حديث الغير.

عقل أداتـي / وظيفي (Raison instrumentale): يستند العقل الأداتي أو الوظيفي إلى الفعل الغائي الذي يسعى إلى فرض الآراء الذاتية وجعلها مهيمنة، وتضليل الأشخاص والتلاعب بهم واستخدامهم لتحقيق أهدافه، وكذلك في إطار الفعل الإستراتيجي الذي تقوده أهداف يخطّط لها انطلاقًا من قياس النتائج المنتظرة بالإمكانيات المسخّرة لها من دون أخذ المبادئ والقيم غير الربحية في الاعتبار.

إنّ تحكم العقل الآداتـي في نشاط وسائل الإعـلام دفعها إلى السقوط إما ضحية النزعة المركنتيلية (Mercantilisme) ـ التجارية ـ أو النزعة الدعائية، وشكّل مبحثًا في مناقشة مسؤوليتها في تحريف الفضاء العمومي وتشويهه وفق المنظور الهابرماسي.

عقل تواصليّ (Raison communicationnelle): مفهوم أساسي في نظرية الفعل التواصليّ يُعارِض الأطروحة التي تنصّ على أنه لا وجود للعقلانية خارج العلوم بمعناها الضيق، وهي الأطروحة التي انبنت عليها أيديولوجيا التقنية والعلوم.

يرى هابرماس أنّ هَـمّ الفعل التواصلي هو تحقيق الإجماع والتفاهم بالاستناد إلى أخلاقيات النقاش، ليس بمعناها الميتافيزيقي الثابت في الزمان، ولا بالمعنى الكانطي؛ أي النابعة من الذات.

t.me/ktabpdf

مكتبة

فضاء ميدياتيكي / إعلامي (Médiasphere): أنواع التعبير الإعلامي وقوالبه، وطرق بثّها وانتقالها والبيئة التي تحدثها. قسم رجيس دوبري (Debray, 1991) مسار تطور الاتصال والإعلام في المجتمع إلى الفضاءات الإعلامية الثلاثة وفق تسلسلها الزمني، وهي: فضاء الكلام (Logosphère)، ويتسم بنمط الاتّصال الشفهي وبداية النسخ، والفضاء الخطي (Graphosphère)، ويبدأ باختراع الكتابة، والفضاء السمعي ـ البصري (Vidéosphère) الذي هيمن فيه نمط الاتّصال المرئي والمسموع. وقد أضافت الباحثة لويز مرزو (Louise Merzeau) فضاءً رابعًا أسمته الفضاء السيبرني (Hypersphère) وهو فضاء افتراضي يميز عصر الشبكات الرقمية.

ما بعد الكولونيالية (Postcolonialisme): يتضمن ما بعد الكولونيالية العديد من الدلالات المختلفة وحتّى المتعارضة، إذ يُستعمل في النقد الأدبي للكشف عن الآثار الأدبية والثقافية للاستعمار داخل المجتمعات المستعمَرة سابقًا. ويُستخدم أيضًا لدراسة التجربة التي خاضتها الدول لتحقيق استقلالها السياسي، وتخوضها على الصعيد اللساني والأدبي والثقافي. وبهذا المعنى تصبح دراسات ما بعد الكولونيالية مجمل الدراسات المناهضة للاستعمار.

وُظفت ما بعد الكولونيالية في حقل علوم الإعلام والاتصال من أجل تفكيك الإنتاج الإعلامي والثقافي والفني الذي ينتجه المستعمِرون والمستعمَرون للكشف عن بنياته الأيديولوجية.

t.me/ktabpdf

مكتبة

مثالية (Idéalisme): مذهب فلسفي يجمع العديد من التيارات الفلسفية التي تهتم بنظريات المعرفة والوجود، وهو يثمّن الفكر والروح ويرى فيهما الحقيقة المطلقة والنهائية، وينفي على الصعيد الفلسفي وجود العالم الخارجي ويراه في مجموعة من الأفكار. وبهذا يعارض النزعة المادية التي تؤمن بوجود العالم المادي بشكل مستقل عن الوعي. ويعارض، على صعيد نظرية المعرفة، الأمبيريقية والواقعية، وإن لم تكن معارضة مطلقة، لأن المثالية تطورت منذ أفلاطون على يد العديد من الفلاسفة، مثل ديكارت وليبنتز وبركلي وهيغل، فاتخذت العديد من المواقف الفلسفية المتباينة، مما يتطلب مراعاة السياق الذي ترد فيه من أجل حصر معناها.

مُدَوّنات إلكترونية (Blogs): موقع شخصيّ في شبكة الانترنت يعبّر فيه الشخص عن ذاته أو انشغالاته وهواياته، أو يقدم آراءه ويعرض خبراته أو إنتاجه الأدبي والفني وينشره بانتظام في شكل يوميات. ويُرتّب ما يُدرجه فيه من أخبار وتعليقات وآراء وشهادات وتأملات ترتيبًا تسلسليًا يبدأ من الأحدث إلى الأقدم. ويفتح الـمُـدَوِّن المجال للغير للتعقيب على ما ينشره. ويمكن أن تتضمن المدونة روابط إلكترونية تحيل إلى مواقع أخرى في شبكة الانترنت.

مُدَوَّنة (Code): يرى أمبرتو إيكو أن كل فعل تواصلي يستند إلى مدوّنة، ويعرّف هذه الأخيرة بأنها سلسلة من القواعد التي تمنح دلالة

t.me/ktabpdf

مكتبة

للعلامات اللسانية وغير اللسانية، سواء أكانت هذه القواعد صريحة أم ضمنية ذات طابع تعاقدي. فالمدوّنة اللسانية هي مجمل القواعد التي تسمح للمتحدثين بلسان ما من التواصل وفهم الرسائل المتبادلة بينهم.

ميديا (Media): كلمة لاتنية مشتقة من (medium) بمعنى وسيط، بصيغة المفرد، وتستعمل بمعنى الجمع: وسائط. استُخدمت في ستينيّات القرن الماضي كمرادف اختزالي لمصطلح (mass media؛ أي وسائل الإعلام أو وسائل الاتصال الجماهيري التي تحيل إلى الصحافة والإذاعة والتلفزيون. وكان مصطلح الميديا في تلك الأثناء يدل على نقل الأخبار والمعلومات وبثها من مركز / شخص وتوزيعها على الجميع فيأخذ اتّجاهًا أحاديًّا ورأسيًّا، ويتسم بخطّيته ونمَطيّته: المادة ذاتها توجه إلى الجميع في وقت واحد؛ أي أنها تأخذ طابعًا جماهيريًّا.

بعد التطور الكبير الذي شهدته التكنولوجيا الرقمية، وبروز شبكة الانترنت بمواقعها المختلفة وتطبيقاتها التقنية ومنصاتها التشاركية، تطور مفهوم الميديا ليدل على الحامل والمحمول في الوقت ذاته، وكلاهما يقوم بالوساطة التي لا تروم البث والتوزيع فقط، بل تنشد أيضا التواصل والتشارك وإقامة العلاقات. فالميديا في هذه الحالة أصبحت فردية وذات طابع جماعاتي (communautaire) أكثر منها جماهيرية، إذ أضحت أكثر تمايزًا: لكل فرد مادة إعلامية ومضمون اتّصالي مخصوص، وتفاعلية، بحيث أصبح بإمكان المتلقّي أن يتحوّل إلى مرسل.

ميديا متشعب (Hypermédia): درجت وسائل الإعلام وبعض المهتمين بعلوم الإعلام والاتصال على ترجمة (hypermédia) أو (hypermedia) بالميديا الفائق، فشاع تداوله. والتدقيق اللغوي في معنى الفائق يدعو إلى مراجعته لأن صفة الفائِق في اللغة العربية تعني الجيِّد من كلِّ شيءٍ. و (hypermedia) لا يدل على الميديا الجيّد، بل يعني ببساطة أنه أكثر شمولية، بحيث يتجاوز الميديا الواحد أي يجمع في ذاته أكثر من وسيط اتصالي ونمط إعلامي.

نزعة اجتماعوية (Sociologisme): اتجاه اختزالي ومغلق يعتبر السوسيولوجيا المصدر الوحيد والأفضل لدراسة كل الظواهر الاجتماعية. يعتقد ريمون بودون (Raymond Boudon) أن هذه النزعة وُلدت من الفكرة القائلة إن البنى الاجتماعية سلطة مصيرية على الفرد، وهي تعتبره لعبة في يدها. ويرى أن النزعة الاجتماعوية ليست السوسيولوجيا بل إفسادها لأن الإجابة لديها جاهزة ومعروفة مسبقًا.

نزعة ثقافوية (Culturalisme): مقاربة أنثربولوجية ظهرت في ثلاثينيّات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأميركية، تهتم بالعلاقة بين الثقافة والشخصية، وتسعى إلى فهم الظواهر الاجتماعية بواسطة الثقافة. وهي تنطلق من فرضية أن الفرد هو ابن بيئته؛ إذ لا يمكن فهمه إلّا ضمن ما تمارسه عليه الهيئات الثقافية في المجتمع من تأثير بشكل إراديّ أو غير إراديّ.

t.me/ktabpdf مكتبة

نزعة جوهرانيّة (Essentialisme): مفهوم استخدمه كارل بوبر (Karl Popper) في 1945 واكتسب العديد من المعاني التي اختلفت باختلاف مجال استخدامه: علم الأحياء، أو الفلسفة، أو السوسيولوجيا.

يُقصد به، في علم الاجتماع، أن الخصائص الجوهرية لمجموعة من الأشخاص هي التي تحدّدها وتميّزها. وهي خصائص مرئية وموضوعية وثابتة يتم على أساسها تقسيم المجتمع إلى جماعات وفق معايير مختلفة: العرق، والموطن الأصلي، والانتماء الطبقي، والجنس أو النوع، والميول الجنسية.

نصّ متشعب (Hypertexte): نصّ يُنشر على حامل رقمي، يتسم بطابعه المفتوح لما يتضمنه من وصلات رقمية تحيل إلى متن النص أو إلى خارجه. يمنح النص المتشعب الصحفي بعدًا مرئيًّا أكثر لتناصّ الكتابة الصحفية ويساهم في إضفاء الشفافية على مصادرها الإخبارية، ويثريها بالخلفيات التي يمكن الوصول إليها عبر الوصلات الرقمية.

يطرح النص المتشعب العديد من الإشكاليات على صعيد الكتابة إذ يدفعها لتطليق نمطها الخطي، وتغيير قوالب تعبيرها من خلال اعتمادها على نمط قائم على تجزئة النص الصحفي إلى أجزاء، ويتم ربط أجزائه المتفرّقة وإلحاق أخرى به من خلال وصلات.

نظرية التَّطَهُّر (Théorie cathartique): نظرية في علم النفس تستند إلى مفهوم (Catharsis) المشتق من الكلمة اليونانية

t.me/ktabpdf

مكتبة

(Kathoras) التي تعني التطهير. استخدم أرسطو هذا المفهوم للتأكيد على أن مشاهدة التراجيديا تطهّر المُشاهد من نوازعه العدوانية والعنيفة. ويستعمل علماء النفس هذه النظرية بمعنى تحرير المكبوت من العواطف والمشاعر من أجل التنفيس. وتُستخدم في دراسة أثر وسائل الإعلام على الجمهور للتأكيد على أن أفلام ومسلسلات العنف لا تجعل مشاهديها أكثر عنفًا وعدوانية، بل بالعكس تحررهم ممّا يحملونه من مشاعر عنيفة وعدوانية. وبهذا تقوم هذه الأفلام والمسلسلات بدور تعويضي.

نظرية الفعل التواصليّ (Théorie de l'agir communicationnel): نظّرَ هابرماس للتواصل انطلاقًا من فلسفة اللغة، واستنادًا إلى العلاقة التي تربطه بالعقلانية والفعل. وتضمنت هذه العلاقة: البعد الاجتماعي والبعد الأخلاقي والبعد السياسي، لتتجاوز العلاقات الاجتماعية القائمة على الزجر والإكراه والهيمنة من أجل إقامة علاقات اجتماعية تستند إلى المناقشة والحوار بقصد تحقيق التوافق الذي يرضى به الجميع. فالفعل التواصلي لا يروم البحث عن الوسائل التي تمكّنه من التأثير على الغير أو فرض حقيقته عليهم، بل يبحث عن كيفية التوصّل الى تفاهم.

وساطة (Médiation): يعتبر الباحثان أنطوان هنيون وبرونو لاتور الوساطة لحظة ديناميكية من التفاعل بين العُدَّة التقنية واستخداماتها وأشكال تملكها. ويعبّر هذا المفهوم عن رفض الحتمية التقنية التي تثمّن خصائص الأداة التقنية في ظل تغييب استخدامها الاجتماعي،

t.me/ktabpdf

مكتبة

والحتمية الاجتماعية التي تركّز على البعد الاجتماعي للاستخدامات وتتجاهل تأثير العدّة التقنية على كل استخدام.

تعتقد دومينيك مونييه (Dominique Meunier) أن الوساطة لا تعني الفصل أو الحياد لأنها فعل وحدث يجمع الأفراد والأشياء بالعلاقات التي ينسجونها ومن خلالها.

ويعرّف بيار بورديو الوساطة بأنها مسار من استنباط المعايير والسلوك، ويقود إلى تبني بعض الممارسات فتبدو طبيعية، وبفضلها يمكن أن نميّز مجتمعًا بشريًا عن حشد من الأشخاص.

وسائط متعددة (Multimedia): يقصد بها الصورة والصوت والنص ممّا يُستخدم بشكل متزامن من أجل نقل مجموعة من المعلومات ـ البيانات ـ كل جزء منها عبر وسيط لتشكّل مادة واحدة أو منتَج واحد منسجم ومتكامل بفضل لغة المعلوماتية.

الوظيفية (Fonctionnalisme): اتجاه في علم الاجتماع يقترح أنموذجًا لدراسة الأحداث الاجتماعية انطلاقًا من الوظائف التي تؤديها في المجتمع الذي يعدّ نسقًا مُتكامِلًا، كل فعل فيه يؤدي وظيفة ما. ويحصرها الوظيفيون في الاندماج الاجتماعي والحفاظ على النظام القائم في المجتمع والانسجام الاجتماعي.

ترفض المقاربات الوظيفية لوسائل الإعلام أطروحات النزعة الثقافوية والمدرسة السلوكية التي تؤمن بقوة التأثير الموحد والمطلق الذي تمارسه وسائل الإعلام على الجمهور. وهي تمنح هذا الأخير

t.me/ktabpdf مكتبة

هامشًا من الاستقلالية والعقلانية، وتنظر إلى علاقته بوسائل الإعلام من منظور الاستخدامات بدل التأثير والأثر.

وقت الذروة (Prime time): وقت البث التلفزيوني والإذاعي الذي يستقطب أكبر عدد من المشاهدين والمستمعين، فترتفع فيه أسعار اللقطات الإشهارية. وتركز عليه القنوات التلفزيونية ومحطات الإذاعة في استراتيجية بناء شبكاتها البرامجية، حيث تسعى إلى عرض أفضل ما لديها من برامج، أو تعرض برامجها المتعثرة قبيل وقت الذروة حتى تستفيد من الجمهور الذي يلتحق ببرنامج القناة التلفزيونية وتحسّن وضعها في «سوق المشاهدة». ويختلف وقت الذروة من مجتمع إلى أخر لأنه يرتبط بإيقاع الحياة الاجتماعية في هذا البلد أو ذاك.

مكتبة
t.me/ktabpdf
تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

t.me/ktabpdf مكتبة

ثبت المصطلحات

عربي - فرنسي

اتصال، تواصل	Communication
اتصال جماهيري	Communication de masse
اتّصال قُرْبيّ	Proxémique, Proxémie
اتِّفاقِيّ	Stochastique
اتفاقية	Convention
آثار	Effets
إثنوغرافيا	Ethnographie
إثنومركزية	Ethnocentrisme
إثنوميتودولوجيا	Ethnométhodologie
إثني	Ethnique
إدراك موزع	Cognition distribuée
إدغام الترفيه في الإعلام	Infotainment
أساطير/ ميثولوجيات	Mythologies
استخدامات	Usages
استعارة	Métaphore

t.me/ktabpdf

مكتبة

اشتمالي (نظر اشتمالي)	Panoptique
إشهار	Publicité
اعتباطية العلامة	Arbitraire du signe
إعلام	Information
إعلان	Annonce
اغتراب	Aliénation
افتراضي	Virtuel
أفعال الخطاب	Actes du discours
أفعال اللغة	Actes du langage
اقتصاديّات الحجم	Économies d'échelles
إكراه مزدوج	Double contrainte (Double bind)
آليات الخلاصات	RSS (Really Simple Syndication)
أمبيريقية	Empirisme
إنترنتيّون	Internautes
أنثربولوجيا	Anthropologie
أوبرا صابونية	Soap opera
أيديولوجيا	Idéologie
إيمائية	Kinésique
إيهام الواقع	Réalsification

مكتبة t.me/ktabpdf

Paradigme	باراديغم
Mass communication research	بحث في الاتصال الجماهيري
Talkshow	استعراضي برنامج حواري
Réthorique	البلاغة
Constructivisme	بنائيّة
Structuralisme	بنيويّة
Intersubjectivité	بينذاتية
Biotechnologie	بيوتكنولوجيا ـ تكنولوجيا حيوية
Influence	تأثير
Agenda framing	تأطير الأجندة
Justifiabilité	تبرير ـ استساغة
Massification	تحشيد
Extimité	تخريج المكنونات الحميمية
Flux informationnel	تدفق إعلامي ـ معلوماتي
Semiose	تدليل
Hiérarchie	تراتبية
Binary Digit (bit)	ترقين ثنائي ـ البت
Codage	تشفير
Réification	تشيؤ

t.me/ktabpdf

مكتبة

Dénotation	تضمين
Habitus	تطبع
Cathartique	تطَهُّر
Diachronique	تعاقبي
Polysémie	تعددية المعنى
Connotation	تعيين
Feedback	تغذية مرتجعة
Distanciation	تغريب
Interactivité	تفاعلية
Interactionnisme symbolique	تفاعلية رمزية
Réflexivité	تفكّر
Anomie	تفكك
Déconstruction	تفكيك
Paléo-télévision	التلفزيون القديم
Télé réalité	تلفزيون الواقع
Enonciation	تلفظ
Réception	تلقٍّ
Télématique	تليماتيك
Telenovelas	تلينوفيلا ـ مسلسلات تلفزيونية

t.me/ktabpdf

مكتبة

Représentation	تمَثُّل
Reality shows	تمشهد الواقع
Appropriation	تَمَلُّك
Distinction	تمييز
Intertexualité	تناصّ
Socialisation	تنشئة اجتماعية
Lumières, Aufklärung	تنوير
Créolisation	تهجين
Consensus	توافق
Culture de masse	ثقافة جماهيرية
Culure populaire	ثقافة شعبية
Mass	جماهير
Collectif	جمعيّ
Public	جمهور
Audience	جمهور وسيلة إعلامية
Gender	جندر- نوع
Gatekeeper	حارس البوابة الإعلامية
Déterminisme	حتمية
Modernité liquid	حداثة سائلة

t.me/ktabpdf

مكتبة

Foule	حشد
Champ	حقل
Annales	حوليات
Discours	خطاب
Discursif	خطاب استطرادي
Signifié	دالّ
Subaltern studies	دراسات التابع ـ الفئات المهمشة
Cultural studies	دراسات ثقافية
Audience studies	دراسات الجمهور
Queer studies	دراسات الشذوذ الجنسي
Postcolonial studies	دراسات ما بعد الكولونيالية
Women studies	دراسات نسوية
Chat	دردشة إلكترونية
Signification	دلالة
Démocratisation	دمقرطة
Cyberdémocratie	ديموقراطية افتراضية
Démocratie électronique	ديموقراطية إلكترونية
Télédémocratie	ديموقراطية تلفزيونيّة
Démocratie sémiotique	ديموقراطية سيميائية

Capital Social	رأسمال اجتماعي
Capital culturel	رأسمال ثقافي
Capital symbolique	رأسمال رمزي
Opinion publique	رأي عام
Message	رسالة
Numérique	رقمي
Symbole	رمز
Narration	سرد
Sophistes	سفسطائيون
Pouvoir	سلطة
Médiacratie	سلطة وسائل الإعلام
Marchandisation	سلعنة
Behaviorisme	سلوكية
Socio sémiotique	سوسيو سيمائي
Sociologie	سوسيولوجيا ـ علم الاجتماع
Contexte	سياق
Cybernétique	سيبرنيطيقا
Sémiotique	سيمياء
Sémiologie	سيميولوجيا

t.me/ktabpdf

مكتبة

Journalisme	صحافة
Presse people	صحافة شعبية
Industrie culturelle	صناعة ثقافيَّة
Fétichisme	صنمية
Image	صورة
Rites	طقوس
Buzz	طنين
Cybermonde	عالم افتراضي
Actant	عامل
Justice culturelle	عدالة ثقافية
Entropie	عدم التيقن
Raison	عقل / حجة
Rationalité	عقلانية / معقولية
Signe	علامة
Microsociologie	علم الاجتماع الجزئي، ميكروسوسيولوجيا
Scientisme	علماوية
Public (en) (rendre)	علَن
Sphère	فضاء ـ حيِّز
Espace privé	فضاء خاص

Espace public	فضاء عمومي
Décodage	فك التشفير
Intellectualisation	فَكْرَنة
Philosophies vitalistes	فلسفات حيوية
Affordance	قدارَة
Lecteurs	قرّاء
Indice	قرينة
Locutoire	قوليّة
Analogie	قياس
Compétence	كفاءة
Parole	كلام
Sitcom	كوميديا الموقف
Langue	لسان
Linguistique	لسانيات
Langage	لغة
XML (The Extensible Markup Language)	لغة الترميز القابلة للإمداد
Métalangage	ما وراء اللغة / ميتا لغة / لغة واصفة
Intermédialité	مابينية إعلامية

t.me/ktabpdf مكتبة

Manichéen	مانوي
Idéalisme	مثالية
Groupe primaire	مجموعة أولية
Groupe secondaire	مجموعة ثانوية
Imaginaire	مخيال
Signifiant	مدلول
Blogs	مدونات إلكترونية
Code	مدونة
Référent	مرجع
Ethnocentrisme culturel	مركزية إثنية ثقافِيَّة
Logocentrisme	مركزية كلامية
Egalitaire	مساواتي
Auditoire	مستمعون
Technoscapes	مشاهد تقنيّة
Ethnoscapes	مشاهد عرقية
Ideoscapes	مشاهد فكرية
Financescapes	مشاهد المال
Mediascapes	مشاهد الميديا
Telespectateurs	مشاهدون

t.me/ktabpdf

مكتبة

Conceptualisation	مفهمة ـ التحويل إلى مفهوم
Enoncés	ملفوظات
Altermondialiste	مناهضة العولمة
Stimulus	منبه ـ محفز
Tournant sémiotique	منعطف سيميائي
Convergence	مواءمة
Zapping	مواثبة
Objectivisation	موضعة ـ إضفاء الطابع الموضوعي
Média	ميديا
Supermédia	ميديا فائق
Médiologie	ميديولوجيا
Grammaire générative	نحو توليدي
Peer-to-peer	ند للند
Démassification	نزع الطابع الجماهيري
Dématérialisation	نزع الطابع المادي
Sociologisme	نزعة اجتماعوية
Indigénisation	نزعة أهْلية
Essentialisme	نزعة تفكيكية
Déconstructionnisme	نزعة جوهرانيّة

t.me/ktabpdf

مكتبة

Individualisme expressif	نزعة الفردية التعبيرية
Postmodernisme	نزعة ما بعد حداثيّة
Conatus	النزوع
Féministe	نسويّ
Texte	نص
Hypertexte	نص متشعب
Identitaire	هويّاتيّ
Identité	هوّية
Identité sociale	هوية اجتماعية
Médiation	وساطة
Multimedias	وسائط متعددة
Médias de masse	وسائل الإعلام
Medium	وسيط
Newsmaking	وضع الأخبار
Fonctionnalisme	وظيفية
Prime time	وقت الذروة
Web2	ويب 2

t.me/ktabpdf مكتبة

ثبت المصطلحات

فرنسي - عربي

Actant	عامل
Actes du discours	أفعال الخطاب
Actes du langage	أفعال اللغة
Affordance	قدارَة
Agenda framing	تأطير الأجندة
Aliénation	اغتراب
Altermondialiste	مناهضة العولمة
Analogie	قياس
Annales	حوليات
Annonce	إعلان
Anomie	تفكك
Anthropologie	أنثربولوجيا
Appropriation	تَمَلُّك
Arbitraire du signe	اعتباطية العلامة
Audience	جمهور وسيلة إعلامية

t.me/ktabpdf

مكتبة

Audience studies	دراسات الجمهور
Auditoire	مستمعون
Behaviorisme	سلوكية
Binary Digit (bit)	ترقين ثنائي ـ البت
Biotechnologie	بيوتكنولوجيا ـ تكنولوجيا حيوية
Blogs	مدونات إلكترونية
Buzz	طنين
Capital symbolique	رأسمال رمزي
Capital culturel	رأسمال ثقافي
Capital Social	رأسمال اجتماعي
Cathartique	تطَهُّر
Champ	حقل
Chat	دردشة إلكترونية
Codage	تشفير
Code	مدونة
Cognition distribuée	موزع إدراك
Collectif	جمعيّ
Communication	اتصال، تواصل
Communication de masse	اتصال جماهيري

t.me/ktabpdf مكتبة

Compétence	كفاءة
Conatus	النزوع
Conceptualisation	مفهمة ـ التحويل إلى مفهوم
Connotation	تعيين
Consensus	توافق
Constructivisme	بنائيّة
Contexte	سياق
Convention	اتفاقية
Convergence	مواءمة
Créolisation	تهجين
Cultural studies	دراسات ثقافية
Culture de masse	ثقافة جماهيرية
Culure populaire	ثقافة شعبية
Cyberdémocratie	ديموقراطية افتراضية
Cybermonde	عالم افتراضي
Cybernétique	سيبرنيطيقا
Décodage	فك التشفير
Déconstruction	تفكيك
Déconstructionnisme	نزعة تفكيكية

Démassification	نزع الطابع الجماهيري
Dématérialisation	نزع الطابع المادي
Démocratie électronique	ديموقراطية إلكترونية
Démocratie sémiotique	ديموقراطية سيميائية
Démocratisation	دمقرطة
Dénotation	تضمين
Déterminisme	حتمية
Diachronique	تعاقبي
Discours	خطاب
Discursif	خطاب استطرادي
Distanciation	تغريب
Distinction	تمييز
Double contrainte (Double bind)	إكراه مزدوج
Économies d'échelles	اقتصاديّات الحجم
Effets	آثار
Egalitaire	مساواتي
Empirisme	أمبيريقية
Enoncés	ملفوظات
Enonciation	تلفظ

t.me/ktabpdf مكتبة

Entropie	عدم التيقن
Espace privé	فضاء خاص
Espace public	فضاء عمومي
Essentialisme	نزعة جوهرانيّة
Ethnique	إثني
Ethnocentrisme	إثنو مركزية
Ethnocentrisme culturel	مركزية إثنية ثقافِيَّة
Ethnographie	إثنوغرافيا
Ethnométhodologie	إثنوميتودولوجيا
Ethnoscapes	مشاهد عرقية
Extimité	تخريج المكنونات الحميمية
Feedback	تغذية مرتجعة
Féministe	نسويّ
Fétichisme	صنمية
Financescapes	مشاهد المال
Flux informationnel	تدفق إعلامي- معلوماتي
Fonctionnalisme	وظيفية
Foule	حشد
Gatekeeper	حارس البوابة الإعلامية

t.me/ktabpdf مكتبة

Gender	جندر- نوع
Grammaire générative	نحو توليدي
Groupe primaire	مجموعة أولية
Groupe secondaire	مجموعة ثانوية
Habitus	تطبع
Hiérarchie	تراتبية
Hypertexte	نص متشعب
Idéalisme	مثالية
Identitaire	هويّاتيّ
Identité	هوّية
Identité sociale	هوية اجتماعية
Idéologie	أيديولوجيا
Ideoscapes	مشاهد فكرية
Image	صورة
Imaginaire	مخيال
Indice	قرينة
Indigénisation	نزعة أهْلية
Individualisme expressif	نزعة الفردية التعبيرية
Industrie culturelle	صناعة ثقافيَّة

Influence	تأثير
Information	إعلام
Infotainment	إدغام الترفيه في الإعلام
Intellectualisation	فَكْرَنة
Interactionnisme symbolique	تفاعلية رمزية
Interactivité	تفاعلية
Intermédialité	مابينية إعلامية
Internautes	إنترنتيّون
Intersubjectivité	بينذاتية
Intertexualité	تناصّ
Journalisme	صحافة
Justice culturelle	عدالة ثقافية
Justifiabilité	تبرير ـ استساغة
Kinésique	إيمائية
Langage	لغة
Langue	لسان
Lecteurs	قرّاء
Linguistique	لسانيات
Locutoire	قوليّة

t.me/ktabpdf

مكتبة

Logocentrisme	مركزية كلامية
Lumières, Aufklärung	تنوير
Manichéen	مانوي
Marchandisation	سلعنة
Mass	جماهير
Mass communication research	بحث في الاتصال الجماهيري
Massification	تحشيد
Média	ميديا
Médiacratie	سلطة وسائل الإعلام
Médias de masse	وسائل الإعلام
Mediascapes	مشاهد الميديا
Médiation	وساطة
Médiologie	ميديولوجيا
Medium	وسيط
Message	رسالة
Métalangage	ما وراء اللغة / ميتا لغة / لغة واصفة
Métaphore	استعارة
Microsociologie	ميكروسوسيولوجيا علم الاجتماع الجزئي،
Modernité liquid	حداثة سائلة

t.me/ktabpdf

مكتبة

Multimedias	وسائط متعددة
Mythologies	أساطير/ ميثولوجيات
Narration	سرد
Newsmaking	وضع الأخبار
Numérique	رقمي
Objectivisation	موضعة ـ إضفاء الطابع الموضوعي
Opinion publique	رأي عام
Paléo-télévision	التلفزيون القديم
Panoptique	اشتمالي (نظر اشتمالي)
Paradigme	باراديغم
Parole	كلام
Peer-to-peer	ند للند
Philosophies vitalistes	فلسفات حيوية
Polysémie	تعددية المعنى
Postcolonial studies	دراسات ما بعد الكولونيالية
Postmodernisme	نزعة ما بعد حداثيّة
Pouvoir	سلطة
Presse people	صحافة شعبية
Prime time	وقت الذروة

t.me/ktabpdf مكتبة

Proxémique, Proxémie	اتّصال قُربيّ
Public	جمهور
Public (en) (rendre)	علَن
Publicité	إشهار
Queer studies	دراسات الشذوذ الجنسي
Raison	عقل/ حجة
Rationalité	عقلانية/ معقولية
Reality shows	تمشهد الواقع
Réalsification	إيهام الواقع
Réception	تلقٍّ
Référent	مرجع
Réflexivité	تفكّر
Réification	تشيؤ
Représentation	تمَثُّل
Réthorique	البلاغة
Rites	طقوس
RSS (Really Simple Syndication)	آليات الخلاصات
Scientisme	علماوية
Sémiologie	سيميولوجيا

t.me/ktabpdf

مكتبة

Semiose	تدليل
Sémiotique	سيمياء
Signe	علامة
Signifiant	مدلول
Signification	دلالة
Signifié	دالّ
Sitcom	كوميديا الموقف
Soap opera	أوبرا صابونية
Socialisation	تنشئة اجتماعية
Socio sémiotique	سوسيو سيمائي
Sociologie	سوسيولوجيا ـ علم الاجتماع
Sociologisme	نزعة اجتماعوية
Sophistes	سفسطائيون
Sphère	فضاء ـ حيِّز
Stimulus	منبه ـ محفز
Stochastique	اتِّفاقِيّ
Structuralisme	بنيويّة
Subaltern studies	دراسات التابع ـ الفئات المهمشة
Supermédia	ميديا فائق

t.me/ktabpdf

مكتبة

Symbole	رمز
Talkshow	استعراضي برنامج حواري
Technoscapes	مشاهد تقنيّة
Télé réalité	تلفزيون الواقع
Télédémocratie	ديموقراطية تلفزيونيّة
Télématique	تليماتيك
Telenovelas	تلينوفيلا ـ مسلسلات تلفزيونية
Telespectateurs	مشاهدون
Texte	نص
Tournant sémiotique	منعطف سيميائي
Usages	استخدامات
Virtuel	افتراضي
Web2	ويب 2
Women studies	دراسات نسوية
XML (The Extensible Markup Language)	لغة الترميز القابلة للإمداد
Zapping	مواثبة

t.me/ktabpdf مكتبة

الفهرس

ـ أ ـ

أبادوراي، أرجون: 477 ـ 478

الإبرة تحت الجلد: 122 ـ 123

أبرشال، أنتوني: 112

أبركرومبي، نيكولاس: 508

أبروزيس، سلفاتوري: 328

الاتحاد الأوروبيّ: 419

الاتحاد السوفياتي: 111، 113

الاتصال الجماهيريّ: 32، 41 ـ 42، 44، 72، 93، 123 ـ 124، 160 ـ 161، 167 ـ 168، 185، 203، 227 ـ 228، 230 ـ 231، 236، 240، 282، 304، 321، 395، 414، 429، 482، 495

الاتصال القُرْبِيّ: 189

الإثنوغرافيا: 88، 297، 500، 507، 555

الإثنوغرافيا الأنغلوساكسونيّة: 551 ـ 552

إثنوغرافيا مركزية، إثنومركزية: 275

الإثنوميتودولوجيا: 518 ـ 521

أحداث 11 أيلول (سبتمبر): 478

أحداث 1968: 326

الأخ الأكبر (برنامج تلفزيوني): 403، 496

الإدراك المعرفيّ الموزع: 548، 556 ـ 558

إدغام الترفيه في الإعلام: 362

أدمغة إلكترونيّة: 55

أدورنو، تيودور: 36 ـ 38، 131 ـ 134، 136 ـ 142، 231، 253 ـ 254، 309، 353، 372 ـ 373، 423، 436، 438، 442، 485

إذاعات إف إم: 53

الإذاعة: 50، 58، 84، 109، 112 ـ 113، 138، 140، 150، 158، 201، 203 ـ 204، 211، 262، 265، 337 ـ 338، 348، 417، 455، 539، 562

أرترتون، كريستوفر: 575

أرلوكان (سلسلة روايات): 314 ـ 316، 514

أرندت، حنّة: 133، 447

أرون، ريمون: 87، 248

t.me/ktabpdf

مكتبة

أرباس، فيليب: 120
إستبلي، روجيه: 260 ـ 261
استطلاعات الرأي: 55 ـ 56، 166، 415، 420، 423 ـ 424، 427 ـ 429، 459
الاستعمار: 229 ـ 230
إسكربيت، روبير: 186
إسكينازي، جان بيار: 508
أسئلة في المنزل (برنامج تلفزيوني): 465
الاشتراكيّة: 109، 166
اشتمالي (نظر اشتمالي): 144
الإشهار: 124، 321، 344، 391، 498
أصدقاء (مسلسل تلفزيوني أميركي): 385
الإصلاح اللوثري: 208
إعلان، إعلانات: 125 ـ 127، 158، 166، 228، 280 ـ 281، 298، 323، 440، 464، 534، 541، 582
الاغتراب: 34، 86، 134، 485
أفعال الخطاب: 239، 247
أفعال اللغة: 239، 240
أفلاطون: 60، 108، 139، 462
أفلام الكرتون: 127، 235، 288
الأفلام الوثائقيّة: 264
أفلام الوسترن: 135
اقتصاد الثقافة: 378
الاقتصاد السياسيّ: 377 ـ 381، 384، 388، 442، 500، 508، 513
اقتصاديّات الحجم: 382
الإكراه الاجتماعيّ: 74
أكريش، مادلين: 502، 554
أكَلة صنف واحد من الأغذية: 266 ـ 267
أكَلة كل شيء: 266 ـ 267
ألبورت، فلويد: 122
ألتشول، جوشوا هربرت: 350 ـ 351
الألسنيّة: 220، 233، 236
الألعاب الأولمبية: 120، 496
ألمانيا: 88، 96، 109، 112، 114، 133، 144، 273، 378، 400، 423، 438
آلي ماكبيل (مسلسل تلفزيوني أميركي): 288، 385
آليّات الخلاصات (RSS): 568
الإلياذة: 285
إلياس، نوربرت: 119
إليوت، ت. س.: 132
أم بي 3: 566
الإمبرياليّة الثقافيّة: 377، 396، 401، 403
أمبير، أندريه ـ ماري: 176
الإمبيريقيّة: 41، 88، 97 ـ 98، 149، 186

مكتبة
t.me/ktabpdf

أميركا الشماليّة: 200
الإنتاج / التلقّي: 39، 41، 43 ـ 44، 384، 395، 414، 435
الإنترنت، شبكة الإنترنت، الويب: 45، 50، 56، 59، 110، 118، 205، 214، 235 ـ 261، 265، 348، 534 ـ 537، 539 ـ 584
إنترنت إكسبلورر: 582
الإنترنتيّون: 547، 559، 566، 570 ـ 571، 573
الأنثروبولوجيا: 77، 160، 187، 191 ـ 192، 241، 285، 372
أنثروبولوجيا وسائل الإعلام: 191
الإنجيل: 208
الانشطار الثنائيّ: 43
الأنظمة الشموليّة: 72، 111، 133
آنغ، إيين: 400، 401
أنغلز، فريدريك: 83، 301
إنيس، هارولد: 200، 537
الأواني المستطرقة: 452
الأوبرا: 266
أوبرا صابونية: 344، 391
الأوديسا: 285، 287
أورتيغا إي غاسيت: 108، 132
أوروبا: 34، 39، 72، 84 ـ 85، 89، 95، 107، 109، 118، 204، 207، 265، 348، 377، 391، 401، 449، 478، 482
أوز (مسلسل تلفزيوني أميركي): 385
أوستن، جون: 239، 323، 519
أوشفيتز: 138
أوفنباخ، جاك: 141
الأولانيّة: 489
أوهايو: 152
إيبينال: 114
إيري (مقاطعة في أوهايو): 152 ـ 152
آيزنشتاين، إليزابيث: 207 ـ 208
إيستهوب، أنطوني: 308
إيسر، ولفغانغ: 273 ـ 274
إيطاليا: 235، 237، 326 ـ 328، 419
الإيعاز المفارقيّ: 188
إيكو، أمبرتو: 40، 83، 92، 182، 203، 228 ـ 232، 234 ـ 236، 240، 274، 277، 288، 301 ـ 302، 327 ـ 328
إيكون (مجلة): 328
الإيمائيّة: 189
آينشتاين، ألبرت: 151، 181
إيهام الواقع: 462

ـ ب ـ

بابا، هومي: 325
بابيج، تشارلز: 209
باتلر، جوديث: 322 ـ 323، 479
باختين، ميخائيل (فولوسينوف): 242، 302

مكتبة t.me/ktabpdf

بارادیغم، باراديغمات: 26، 39، 105 ـ 106، 127، 234، 415، 436، 485، 488، 499، 505، 556 ـ 557
باربر، بنجامين: 555، 577
بارت، رولان: 40، 186، 228 ـ 235، 278، 301 ـ 302، 312، 326، 328، 377، 398
بارسونز، تالكوت: 190
بارك، روبرت إ.: 35، 82، 97 ـ 99، 190، 573، 596
باركر، مارتن: 308
باركن، فرانك: 305
باريس: 69، 83، 118، 121، 372
باسرون، جان كلود: 248، 257، 298، 495
بافلوف، إيفان ب.: 36، 116، 122
بافي (مسلسل تلفزيوني أميركي): 403
بافي، جوزيف: 354
باكينغهام، دايفيد: 116، 193
بالادور، إدوار: 419 ـ 421
باومان، زيغمونت: 480 ـ 481
بايوتش (مسلسل تلفزيوني أميركي): 402
بِت: 175
بترسون، ريتشارد: 266، 386
بتيتيني، جيانفرنكو: 360
بدلر، إيمانويل: 273
البرازيل: 378، 399
براغ: 222
البراغماتيّة: 72، 88 ـ 90، 92، 94 ـ 97، 123
برانسدون، شارلوت: 308، 311، 334
براون، ماري إلين: 507
برتون، فيليب: 180
برغر، بيتر: 73
برلسون، برنار: 153، 168
برلوسكوني، سيلفيو: 419
برلين: 97
برمنغهام: 298، 300، 306، 308، 311
برنامج حواري استعراضي (توك شو): 286، 454، 463
برنستون راديو بروجكت: 152
برنشتاين، باسيل: 237، 249، 305
بروب، فلاديمير: 226، 230
البروتستانتيّة: 112، 113، 209، 307
البروتستانتيّون الأنغلوساكسونيّون البيض: 306، 313
بروتوكول مراقبة الاتصالات / بروتوكول الإنترنت (TCP/IP): 580 ـ 581
بروديل، فرنان: 209
بروست، مارسيل: 278
برولكس، سيرج: 180، 550
البروليتاريا: 300

البروميثيوسيّة: 105، 533
البريد الإلكترونيّ: 540، 546، 552، 568 ـ 569، 571، 579 ـ 580
بريسيادو، بياتريس: 323
بريطانيا: 262، 300 ـ 301، 306، 308
بريمون، كلود: 227
البطاقات المُثقَّبة: 579
بكسندال، مايكل: 286
البلدان الإسكندينافية: 543
بلزاك: 137
بلور، دايفيد: 501
بلومر، هربرت: 29، 150، 424
بلوملر، جاي: 162
بلونديو، لويك: 426 ـ 427
بناء الأجندة: 418
البنائيّة: 320، 322، 479، 481، 501، 503، 518، 602
البنائيّة الاجتماعيّة: 501 ـ 505
البنائيّة الترابطيّة: 501 ـ 505، 557
البنائيّة النزاعيّة: 493
بنجامين، والتر: 87، 141 ـ 143
بنسون، رودني: 356
البنيويّة: 222، 233، 248، 253، 306، 319، 413، 443، 486 ـ 487، 557، 599
بو، إدغار آلان: 225
بوانكاريه، هنري: 151
بوتنام، هيلاري: 193
بودريّار، جان: 143 ـ 144، 319، 323، 480، 537
بودلو، كريستيان: 260 ـ 261
بورديو، بيار: 42، 237، 248 ـ 250، 253 ـ 257، 285، 305، 312، 327، 351، 353، 356 ـ 358، 383 ـ 384، 424، 436، 487
بوزكوسكي، بابلو: 565
بولتانسكي، لوك: 351، 361، 515، 520 ـ 522، 568
بولر، كارل: 225
بوليز: 272
بوند، جيمس: 230
البيت الصغير وسط المروج (مسلسل تلفزيوني أميركي): 400
بيتسون، غريغوري: 187 ـ 188، 237
بيوتكنولوجيا ـ تكنولوجيا حيوية: 515
بيتنت (شبكة): 580
بيردوستل، راي: 189
بيرس، تشارلز ساندرز: 29، 35، 90 ـ 93، 96، 233، 237، 241، 489 ـ 490، 503
البيروقراطيّة: 86، 209، 355، 443 ـ 444، 538
بيريغوفوا، بيار: 78
بيريلمان، شيم: 237

بيفرلي هيلز (مسلسل تلفزيوني أميركي): 401
بيك، أولريش: 45، 144، 450، 491 ـ 492، 502، 533، 570، 576
بيكتيريف، فلاديمير م.: 122
بيكر، جان جاك: 114
بيكر، هوارد: 381، 383 ـ 384، 498، 509
بينذاتية: 439
بينلي، كونستانس: 312

- ت -

تابي، برنار: 465
التأثير المضاد، تأثير الخاسر، تأثير المظلوم: 420 ـ 421
تارد، غبريال: 76، 81 ـ 82، 166، 312، 426، 504
تأطير الأجندة: 422
تانستول، جيريمي: 345 ـ 346، 351، 355 ـ 356، 358، 377 ـ 378
تايلور، تشارلز: 570
تبرير، استساغة: 55، 282، 519، 521
تحشيد: 52، 142، 384
تحليل المضمون: 168 ـ 169، 512، 514
التحليل النفسيّ: 66، 140، 455
تخريج المكنونات الحميمية: 570
التداوليّة: 219، 236، 239، 241 ـ 242، 288، 489، 595
تداوليّة الاستخدام: 556
التدليل: 29، 92، 237
التذويت: 533
التراتبية: 30، 51، 207، 248، 259، 266، 269، 282، 382، 390، 447، 534، 577
تركيا: 208
التسويق: 159، 166 ـ 167، 202، 204، 338، 382 ـ 383، 429، 465، 498، 583
تشاكوتين، سيرج: 111، 415
التشفير / فكّ التشفير: 173، 231، 302 ـ 304، 312، 318
تشومسكي، نعوم: 192، 227، 350، 518 ـ 519
التشيّؤ: 37
التطبع: 250، 252، 254، 257، 267، 357، 436، 520
تعددية المعنى: 375
التغذية المرتجعة: 177
التغريب: 484
التفاعلات الرمزيّة: 150، 595
التفكك الاجتماعيّ: 34، 86
التفكيكيّة: 143، 319، 480
تكساس: 398، 400
تكنولوجيا الإعلام والاتصال: 538، 543 ـ 544، 553، 573
التكنولوجيا الرقميّة: 537، 544، 566، 570، 574

التلفزيون الجديد: 453
تلفزيون الطلب: 395
التلفزيون القديم: 453
تلفزيون النفايات: 454
تلفزيون الواقع: 44، 393، 395، 403، 435، 454، 458، 462 ـ 463، 562، 570، 577
تليتون (برنامج تلفزيوني): 499
تلينوفيلا (مسلسلات تلفزيونية): 399
تمشهد الواقع: 462
تنشئة اجتماعية: 150، 268، 273، 485، 488، 499، 547، 551، 559، 571
التنوير: 27، 58، 135
التهجين: 477
تودوروف، تزفيتان: 231
توركل، شيري: 551
تورنتو: 200
تورنر، ستيفن: 518
تورين، آلان: 210، 277، 429، 486 ـ 487، 537
تورينغ، آلان: 175
توسان، إيف: 550
توكفيل، ألكسيس دو: 34، 76، 79 ـ 80، 96، 349، 373، 429، 542
تومسون، إدوارد بالمر: 300
تومسون، جورج: 302
تومسون، جون: 347
تونيس، فرديناند: 76، 84
تيار الاستخدامات والإشباعات: 37، 161 ـ 162، 164، 275، 298، 396، 442، 547 ـ 548
التيارات النسويّة: 307
تيفينو، لوران: 520، 522، 556
التيلينوت: 559

ـ ث ـ

الثالثانيّة: 489 ـ 490
الثانيانيّة: 490
الثقافة الأفرو ـ أميركيّة: 307
الثقافة الجماهيريّة: 41، 43، 54، 57، 131 ـ 133، 232 ـ 234، 255، 297، 305، 307 ـ 309، 319 ـ 321، 327، 374 ـ 375، 377، 505، 534
الثقافة الشعبيّة: 55، 134، 138، 213، 257 ـ 258، 261، 289، 307، 310، 320، 495
الثقافة الصناعيّة: 134، 373، 380
الثقافة العالِمة: 256، 261، 283 ـ 285
الثقافة المضادّة: 251 ـ 252
الثقافة المعاصرة: 248، 264، 374
الثورة الصناعيّة: 209
الثورة الفرنسيّة: 276

مكتبة t.me/ktabpdf

- ج -

جاكوبسن، رومان: 186، 222 ـ 223، 225، 231، 398

جامعة كولومبيا: 152

جامعة يال: 124

الجرائد المتلفزة: 264

الجزائر: 400

الجمعيّ: 493 ـ 495، 555

الجمعية الألمانيّة لعلم الاجتماع: 81

جمهوريّة فايمار: 112، 132

الجمهوريّون: 153، 465

جندر، نوع: 307، 311، 451، 476، 516، 545

جنسن، كلاوس برون: 274

جنكينز، هنري: 309، 572

جنوويتز: 114

جنيف: 132

جهاز الحاكي: 262

جوس، هانز روبرت: 138، 273 ـ 274

جوسبان، ليونيل: 420

جوست، فرانسوا: 235

جوّيه، جوزيان: 550

جيسكار ديستان، فاليري: 465

جيفرسن، توني: 310

جيمس، وليام: 90، 97

جيمسون، فريدريك: 480

جينيت، جيرار: 231

- ح -

حارس البوابة الإعلاميّة: 98، 156، 339

الحتميّة التكنولوجيّة: 105، 192، 199، 204، 538

حجر الفلسفة: 173

الحداثة: 34، 56، 60، 72، 77، 84، 86 ـ 87، 90، 93، 131، 133، 135، 137، 141 ـ 144، 320، 322، 444، 480، 482، 484، 486، 491 ـ 492، 497، 517، 533، 573 ـ 574، 599

الحرب الصليبيّة: 208

الحرب العالميّة الأولى: 99، 111، 114، 138

الحرب العالميّة الثانية: 111، 114، 143، 174، 177، 179، 436، 516

حرب النجوم: 572

الحركة الإسلامويّة: 572

الحركة / الحركات النسوية: 449

حرية الرأي: 107

الحزب الاشتراكيّ: 466

الحزب الشيوعيّ العماليّ: 112

الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ: 352

الحزب الكاثوليكيّ الألمانيّ: 112

الحقبة المكارثيّة: 109

مكتبة t.me/ktabpdf

حقوق النشر: 389
حلقة اللسانيّات (براغ): 222
حليقو الرؤوس: 311
حوار فردي (مونولوغ): 565
الحوليّات: 277
الحياة اليوميّة: 33، 88، 141، 189، 239 ـ 240، 288، 299، 398، 507، 552، 562

- خ -

خوادم البيانات: 540

- د -

داربل، آلان: 249
الدالّ: 93، 221، 233
دالاس (مسلسل تلفزيوني أميركي): 285، 287، 312، 396، 398 ـ 401، 454
دالغرين، بيتر: 431
داميش، هوبير: 232
دايان، دانيال: 328، 496، 508
داير، ريتشارد: 308، 479
داينستي (مسلسل تلفزيوني أميركي): 312، 454
الدراسات الثقافيّة: 42، 45، 213، 242، 269، 275 ـ 276، 297، 299، 304، 306 ـ 309، 312، 317، 319 ـ 320، 322، 326 ـ 328، 352، 374، 385، 437، 476، 480، 490، 495 ـ 496، 507، 551، 595، 599
دراسات الجمهور: 507
دراسات الجندر: 311
الدراسات السينمائيّة: 306 ـ 308
دراسات الشذوذ الجنسي: 322
الدراسات النسويّة: 305، 308
الدردشة الإلكترونيّة: 547
دريدا، جاك: 319، 323، 480
دريفوس، هيوبرت: 193
الدعاية: 111 ـ 115، 123، 151
الدمقرطة: 36، 52، 72، 132، 259، 283، 373، 414، 427، 450، 495، 570
الدمى الروسيّة: 476
دوركايم، إميل: 34، 73 ـ 74، 78، 81 ـ 82، 85 ـ 86، 88، 90، 187، 220، 222، 226، 248، 256، 376، 483، 496
الدوغمائيّة: 208، 230
الدول ـ الأمم: 82
دول شمال أوروبا: 326،
دومازيدييه، جوفر: 285
دونّا، أوليفييه: 259، 266
دي في دي: 511، 560، 563
ديبون، فلورانس: 285، 287
ديغول، شارل: 205، 465
ديكاتور (مدينة في إلينوي): 153، 157، 165
الديكارتيّة: 91، 176، 227

مكتبة
t.me/ktabpdf

ديكرو، أوسوالد: 237
الديموقراطيّة: 30، 33 ـ 34، 38، 41، 43 ـ 44، 49، 57، 68، 76، 79 ـ 80، 86، 89، 94 ـ 97، 107، 123، 160، 166، 211، 266، 287، 317 ـ 318، 328، 349، 358، 414، 423، 425 ـ 426، 428 ـ 430، 438 ـ 439، 441 ـ 442، 447 ـ 448، 450 ـ 452، 464، 466 ـ 467، 500، 577، 597
الديموقراطيّة الإبداعيّة: 489
الديموقراطيّة الافتراضيّة: 574، 578
الديموقراطيّة الإلكترونية: 46، 534، 573 ـ 576
الديموقراطيّة التلفزيونيّة: 574 ـ 575
الديموقراطيّون المسيحيون (في ألمانيا): 416
ديوي، جون: 30، 35، 88، 90، 94 ـ 99، 425، 454، 460 ـ 461، 489 ـ 490، 564، 596

ـ ذ ـ

الذكاء الاصطناعيّ: 179 ـ 180، 182، 193 ـ 194، 598
ذي إنترناشيونال جورنال أوف كمبيوتر غايم ريسرتش: 571

ـ ر ـ

رادكليف ـ براون: 187
رادواي، جانيس: 314 ـ 317، 374، 514
الراديكاليّة: 308، 323، 438
راسل: 236، 238
الرأسمال الثقافيّ: 253، 273
الرأسماليّة: 74، 89، 137، 144، 204، 398، 444، 537 ـ 538، 568
الرأسماليّة المعلوماتيّة: 537
رامبو (فيلم سينمائي): 313
الرأي العام: 43، 68، 79، 81، 99، 347، 414، 422 ـ 431، 458 ـ 460
الرسالة: 31، 124، 127، 160، 174، 181 ـ 182، 184، 200، 223، 229، 236، 238، 252، 303 ـ 304، 337، 342، 402، 453
الرسومَ التخطيطيّة: 185
الرسوم المتحرّكة: 372
الرقابة الاجتماعيّة: 269
الروايات المتسلسلة: 89، 109
الروايات المستقبليّة: 89
الرواية: 83، 137 ـ 138، 251، 316، 400
الرواية البوليسيّة: 141، 389
روبرتسون، رولاند: 477
روبنز، كيفن: 478
الروح الإيطاليّة: 229
روزنغرين، كارل إريك: 162، 274

مكتبة t.me/ktabpdf

روس، أندرو: 308، 312
روستن، ليو: 345
روكيرز (فيلم سينمائي): 311
رويلان، دينيس: 361
ري، فلورنس: 118
ريغان، رونالد: 313، 423
ريفل، ريمي: 360
ريكور، بول: 235
ريليو، مارك: 523
ريو، أندري: 253

- ز -

زالّر، جون: 426
زنانييسكي، توماس: 98
زيت منتصف الليل (فرقة موسيقيّة): 314
زيمّل، جورج: 76، 88، 97 ـ 98، 141، 190، 484 ـ 485، 488

- س -

ساحة فنسان (باريس): 118
سارتو، ميشال دو: 41، 248، 256، 276 ـ 281، 305، 309، 312، 318، 327، 437 ـ 438، 449، 507، 550 ـ 551
ساكس، هارفي: 519
السايبرتكنولوجيا: 312
سباق فورمولا 1: 560
سبربر، دان: 192 ـ 193
سبرينغستين، بروس: 314
سبنغلر: 132
سبيفاك، غاياتري شاكرافورتي: 324، 476
سبينوزا: 194
ستالون، سيلفستر: 313
ستندال: 278
ستوفر: 155
ستولز، جويل: 400
ستون، أوليفر: 118
ستويتزل، جان: 87
السجين (مسلسل تلفزيوني فرنسي): 288
سسنات (شبكة): 580
السطح البينيّ الغرافيّ: 579، 582
سعيد، إدوارد: 325
السفسطائيّون: 27، 61 ـ 62، 456
السَّفْسَطة: 28، 66، 435
سقراط: 60، 62، 108، 435، 467
سكان أستراليا الأصليّون: 313 ـ 314
سكان أميركا الأصليّون: 226
سكايبلوغ (شبكة اجتماعية): 570
سلاتر، دون: 552
سلعنة: 133، 144
السلوكيّة: 105، 107 ـ 108، 117، 157، 167، 273، 430، 598
السنافر (أفلام كرتون): 235

مكتبة t.me/ktabpdf

سو، أوجين: 83، 89
سوسير، فرديناند دو: 93، 220 ـ 221، 233، 241
سوسيولوجيا، علم الاجتماع: 66، 105، 141، 157، 165، 185، 190، 248 ـ 249، 358، 375، 384 ـ 385، 479 ـ 480، 491، 513، 520
السوسيولوجيا الأوروبيّة: 488، 595
سوسيولوجيا التواصل: 26، 34 ـ 35
السوسيولوجيا الثقافيّة: 248، 320
سوسيولوجيا الحقول: 482
سوسيولوجيا الصحافة: 42، 80، 338
سوسيولوجيا الفضاء العموميّ: 500، 515
سوسيولوجيا الفن: 271، 274، 386، 388
سوسيولوجيا المجموعات: 191، 500
سوسيولوجيا الممارسات الثقافيّة: 549
سوسيولوجيا الميديا: 39 ـ 42
سوشون، ميشال: 288، 395
سولاج، جان كلود: 509
سوليز، غيوم: 235
سويسرا: 132، 479
السيبرنيطيقا: 38، 55، 105، 173، 176 ـ 177، 179، 181، 183 ـ 184، 186 ـ 188، 190 ـ 192، 209، 213، 223، 236، 273، 396، 533، 598
السيرة الذاتيّة: 298
سيرل، جون: 193، 239
سيسارو، جيوفانّي: 328
سيفاي، دانيال: 515
سيكوريل، آرون: 520
سيلفرستون، روجر: 507، 551
سيمونز، دان: 194
السيمياء، السيميائية: 40 ـ 41، 62، 169، 192، 219، 222 ـ 223، 228، 231 ـ 237، 240 ـ 242، 247، 274، 301 ـ 303، 327 ـ 328، 360، 398، 422، 509
السيميائيّات أو علم العلامات: 91 ـ 93
السيميولوجيا: 186، 220، 228، 326
السينما: 31، 64، 85، 88، 109، 138، 142، 150، 158 ـ 160، 201 ـ 204، 228، 232، 234 ـ 235، 240، 265، 284، 307، 313، 374، 378، 382، 387، 562
السينما الهوليووديّة: 372، 402
سينيت، ريتشارد: 440، 446 ـ 447

ـ ش ـ

شابلن، شارلي: 142
شارتييه، روجيه: 261، 271

مكتبة t.me/ktabpdf

شارودو، باتريك: 360
شالفون ـ دمرسي، سابين: 386، 393، 509، 512
شانون، كلود: 173 ـ 175، 177، 184، 223
شانياك، رجين: 393
شبكة الإذاعة والتلفزيون الأميركيّة (سي بي أس): 152
شبكة وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (Arpanet): 579 ـ 581
شتراوس: 253
الشذوذ الجنسيّ: 320، 322، 324
شرام، ولبر: 162
الشرائط المرسومة: 109، 117، 455، 505 ـ 506
شركة بل للهاتف: 174
شسترمان، ريتشارد: 96، 288
شكسبير: 271، 390
شليسنجر، فيليب: 343، 356، 362
شمبانيو، باتريك: 391
شو، دونالد: 415
شودسن، مايكل: 125 ـ 126، 340، 350، 454
شونجو، جان ـ بيار: 193
شيابيلّو، إيف: 387، 568
شيراك، جاك: 352، 419، 421، 466
شيفا، فندانا: 354
شيكاغو: 88
شيلر، هربرت: 377
شيلز: 114

- ص -

الصحافة: 62 ـ 63، 73، 78 ـ 79، 81 ـ 84، 86، 97 ـ 99، 107، 166، 338، 341، 346، 351، 359 ـ 363، 371، 375، 415، 419، 430، 563 ـ 565، 576
صحافة الأخبار العامّة: 360
الصحافة السمعيّة ـ البصريّة: 360
الصحافة الشعبيّة: 52، 110، 298، 565
الصحافة المتخصّصة: 361، 563، 579
الصحافة المحليّة: 361
الصحافة المكتوبة: 310، 363
الصحافيّون: 27، 56، 81، 321، 337 ـ 340، 342 ـ 347، 349 ـ 353، 355 ـ 363، 388، 415، 417 ـ 418، 429، 513، 542، 567
صحف الإنترنت: 504
الصحف اليوميّة: 150، 563
الصفقة الجديدة: 123
الصناعات الثقافيّة: 37 ـ 38، 41 ـ 42، 58، 140، 253، 326، 337، 371 ـ 372، 374، 377 ـ 380، 572، 597
صناعة الإعلام: 339
صندوق باين: 149

الصنمية: 137، 142
الصوفية: 56، 238، 276
الصين: 204

- ض -

ضواحي باريس: 325

- ط -

طب الأمراض العقليّة: 187
الطبقات الاجتماعيّة: 74، 252، 305، 373، 491
الطبقة الوُسْطى: 350
طبيعانية: 474
الطقوس: 120، 187 ـ 188، 191، 193، 225، 263، 285، 311، 454، 475، 496
طنين: 159
الطوارئ (مسلسل تلفزيوني أميركي): 385

- ع -

العالم الافتراضيّ، الكون الافتراضي: 56 ـ 57، 513، 551 ـ 552
العالم المعيش: 444 ـ 445، 484
العدالة الثقافية: 269، 570
عدم التيقن: 177
عصر الأنوار: 538
العصر الوسيط: 120
عظيموف، إسحاق: 194
عقل، حجة: 27 ـ 28، 49، 54، 60 ـ 63، 65، 67، 134، 136، 178، 183، 193 ـ 194، 206، 210، 213، 286، 435، 439 ـ 440، 447، 457 ـ 460، 464، 480، 481، 490، 495، 598 ـ 599
العقل الأداتي: 440
العقل التواصليّ: 67
عقلانية، معقولية: 44، 53، 62، 88، 227، 425، 427، 439، 443 ـ 445، 450، 456 ـ 458، 464، 481، 483 ـ 484، 491، 538، 575، 596، 598
علامة / علامات: 91 ـ 93، 182، 220 ـ 221، 223، 228، 232، 234، 237 ـ 239، 242، 301، 324، 360، 362، 385، 466، 503، 509، 554
علم الاجتماع التربويّ النقديّ: 249
علم الاجتماع الجزئي، ميكروسوسيولوجيا: 81، 163، 190، 414، 487، 503، 520، 557 ـ 558، 573
علم الاجتماع الحضريّ: 97
علم الاجتماع السياسيّ: 66
علم الاجتماع الكمّي: 249
علم الأعصاب: 192
علم الآلات: 177، 184
علم النفس: 71، 108، 115، 122، 124، 181، 183، 185

علم النفس الاجتماعيّ: 77، 115، 163، 186، 188
علم النفس التجريبيّ: 123، 127، 151، 181
علم النفس المعرفيّ، علم نفس المعرفة: 182، 192
علم النفس النظريّ الرياضيّ: 182
علم النفس الوراثيّ: 123
العلماويّة: 26
العلمنة: 34، 89، 278
العلوم الاجتماعيّة: 25 ـ 26، 28، 33، 45، 66، 68، 71 ـ 72، 77، 84 ـ 87، 105، 131، 155، 173، 181، 191، 210، 247، 301، 320، 323، 425، 473، 477، 481 ـ 482، 496، 518 ـ 519
العلوم الإدراكيّة: 556 ـ 557
علوم الإعلام والاتصال: 186، 328
العلوم الإنسانيّة: 61، 106، 173، 183، 185 ـ 187، 193، 453
العلوم البيولوجيّة: 32
العلوم الدقيقة: 184، 226، 435
العلوم السياسيّة: 111، 151، 185، 360، 416، 425 ـ 426، 437
العلوم الصلبة: 183
العلوم الفيزيائيّة: 32
العلوم المعرفيّة: 173، 183، 192 ـ 193، 210
العولمة: 205، 264، 354، 403، 420، 476 ـ 479، 537، 569، 576

ـ غ ـ

الغارديان (صحيفة): 565
غارفينكل، هارولد: 519
غارنهام، نيكولاس: 377
غانز، هربرت: 307، 341، 345 ـ 346، 351
الغائبون دائمًا على خطأ (برنامج تلفزيوني فرنسي): 465
غروسبرغ، لورانس: 308، 319
غريماس، ألغيدراس: 226، 235، 502
غرينيون، كلود: 257، 495
غليفاريك، هرفي: 267 ـ 269، 562
غمسون، وليام: 431
غوتز، جون: 578
غوتنبرغ: 207
غودي، جاك: 205 ـ 206، 226
غودي، هيزل: 153
غوفمان، إرفنغ: 190، 277، 341، 422، 460، 486، 488، 557، 571
غولدسميث كولدج (لندن): 306
غيبسون، جون: 558
غيتلين، تود: 167، 354، 392 ـ 393، 422
غيدنز، أنطوني: 277، 305، 487 ـ 488، 576

مكتبة t.me/ktabpdf

هيربنر، جورج: 169
هيلروي، بول: 325
هينز، جاين: 385

- ف -

فابري، باولو: 360
فأرة الكمبيوتر: 542
الفاشيّة: 231
فالودي، سوزان: 516
فاليري، بول: 204
فان آيك، كُوِن: 267
فان زونن: 305
فتزلافك، بول: 189، 237
الفجوة الرقميّة: 543
الفردانيّة: 96، 118 ـ 119، 135، 144، 201 ـ 202، 204، 310، 320، 376، 440، 466، 491، 496، 510، 561، 568
فرنسا: 53، 80، 85، 87 ـ 88، 107، 111، 113، 119، 235، 237، 258، 262، 276 ـ 277، 306، 326 ـ 328، 348، 354، 386، 389 ـ 390، 418، 464 ـ 465، 552، 574، 582
فرو، جون: 319
فروم، إريك: 143
فرويد: 123، 132، 188
فريدمان، جورج: 326
فريسبي، دايفيد: 142
فريغه: 236
فضاء، حيّز: 26، 41، 44، 94، 133، 143، 162، 189، 206، 253، 278 ـ 280، 362، 374، 383، 413، 416، 425، 429 ـ 431، 450، 452، 457، 459، 473، 477، 487، 491، 548، 552، 557، 561، 569، 571، 598 ـ 599
الفضاء الإعلامي، فضاء الميديا: 371، 414
فضاء افتراضيّ: 534
الفضاء الإلكترونيّ: 56
الفضاء العموميّ: 43 ـ 433، 95، 358، 376، 430 ـ 431، 437 ـ 439، 441 ـ 442، 444، 446 ـ 449، 451 ـ 452، 455 ـ 458، 460 ـ 462، 464، 473، 477، 484، 493، 500 ـ 501، 503، 514 ـ 516، 542، 564، 567، 573، 576، 595، 599
فضيحة جنون البقر: 342، 460
فضيحة ووترغيت: 342، 418
الفعل الاجتماعي: 73، 91، 149، 442، 483، 599
فَكْرَنة: 484
الفلسفات الحيوية: 481
فلسفة الأنوار: 49، 53، 56، 89، 253، 438، 596
الفلسفة البراغماتيّة: 88 ـ 89، 149
فلسفة التاريخ: 96

الفلسفة التحليليّة: 236
الفلسفة التفاعليّة: 37، 460
الفلسفة الذرائعيّة: 37
الفلسفة الظاهراتيّة: 341
فلسفة اللغة: 93
فلوبير: 137، 283
فليشي، باتريس: 579
فليمنغ، إيان: 230
الفن الأكبر: 176
الفن التشكيليّ: 138، 232
فن متوسط / فنون وسطى / فنون وسطيّة: 250، 252، 262، 269
الفن المعاصر: 284، 387
الفن من أجل الفن: 283
الفنون الشعبيّة: 143
فودور، جيري: 192
فوكو، ميشال: 144، 234، 282، 319، 323 ـ 324، 449 ـ 450، 479، 570
الفولكلور الروسيّ: 226
فولوسينوف (انظر: باختين، ميخائيل)
فون برتلنفي، لودفيغ: 179
فون نيومان، جون: 175
الفونيم، الفونيمات: 222
فيالا، آلان: 283
فيبر، ماكس: 28، 34، 37، 73، 75، 80 ـ 81، 85 ـ 86، 89، 97، 136 ـ 137، 248، 376، 442 ـ 445، 483
فيتغنشتاين، لودفيغ: 238 ـ 239، 241، 277
فيتنام: 313، 354 ـ 355
الفيديو: 55، 110، 116، 118، 261 ـ 262، 312، 397، 539، 549، 551، 555، 560، 574، 583
فيرن، جول: 89
فيرون، إليسيو: 240، 360، 398
الفيزياء: 32، 51، 163، 175، 178، 180، 183 ـ 184، 201
الفيزياء الكميّة: 180
فيسك، جون: 287، 309، 313 ـ 314، 318، 395، 437
فيسك، مرجوري: 162
الفيلم التلفزيونيّ: 390
فينيو، جورج: 457

ـ ق ـ

قادة الرأي: 154 ـ 155، 158 ـ 159، 417، 421
قانون الملكيّة الفكريّة: 389، 567
القبيلة العالميّة: 539
القَدارَة: 558
القرن التاسع عشر: 25، 28، 33 ـ 34، 49، 51، 72، 79، 107، 109، 132، 134، 209، 225، 235، 271، 276، 283، 446، 448 ـ 449، 481، 491، 564، 577

مكتبة

t.me/ktabpdf

القرن الثامن عشر: 111، 271، 276، 283، 439، 446
القرن الخامس عشر: 62، 207
القرن الرابع عشر: 62
القرن السابع عشر: 276
القرن السادس عشر: 276
القرن العشرون: 25 ـ 26، 35، 38، 43، 45، 54، 56، 71، 86 ـ 87، 94، 96 ـ 97، 106، 109 ـ 110، 113، 115، 117 ـ 118، 120 ـ 122، 133، 149 ـ 150، 162، 167، 173، 175 ـ 176، 183 ـ 184، 186 ـ 187، 190، 199، 202، 212، 214، 219 ـ 220، 222، 228، 235 ـ 236، 241 ـ 242، 247 ـ 248، 251، 254، 258 ـ 260، 271، 274، 277، 279، 283، 285، 297، 300، 303 ـ 306، 308، 311، 326 ـ 328، 337، 339، 344 ـ 345، 347، 350 ـ 351، 353 ـ 354، 372، 376 ـ 379، 381، 389، 391 ـ 392، 396، 398، 400 ـ 402، 414 ـ 415، 425، 449، 454 ـ 455، 463، 481 ـ 483، 486، 513، 515 ـ 517، 534، 539، 549، 561، 574، 602، 605
القرن الواحد والعشرون: 71، 350، 496، 540
القرية العالميّة: 55، 57، 199، 202، 205، 534
قضية كليتون / لوينسكي: 325
قطيع غنم بانيرج: 36
قناة أرتي: 283
قناة التلفزيون الفرنسيّ الأولى: 419
قناة المانش: 356
قنوات الكيبل: 386
القنوات المجانيّة: 385 ـ 386
القياس: 155، 158، 163، 181 ـ 183، 394 ـ 395

ـ ك ـ

كاتز، إليهو: 37، 82، 157، 159، 161 ـ 162، 166، 204، 213، 312، 396، 398، 401، 496، 569
كاتز، روث: 204، 213
كاثارسيس: 284
الكاثوليكيّة: 208، 449
كارتر: 423
كاردون، دومينيك: 515
كاري، جيمس: 97، 200، 213، 308، 475، 496، 577
كاستلز، مانويل: 537 ـ 539، 568
كاسيتي، فرانشيسكو: 360
كالون، ميشال: 501، 503، 553
كانال بلوس (قناة تلفزيونية فرنسية): 344

كانط: 28، 279، 435، 438، 460
كاولتي، جون: 308
الكتاب الإلكترونيّ: 536، 562
الكتاب الورقيّ: 562 ـ 563
كراكاوير، سيغفريد: 141، 143
كرناب: 236
كلابر، جوزيف: 161
كلارك، ت. ن.: 82
كلاين، ناومي: 144
كلب بافلوف: 36، 116، 122
كلينتون، بيل: 325، 465
الكمبيوتر: 50، 59، 192، 194، 209، 262، 265، 535، 541 ـ 542، 544، 549، 551، 553، 562، 578 ـ 581
الكنائس الكاثوليكيّة: 449
كندا: 200، 363
كنولست، فيم: 267
كوبريك، ستانلي: 194
كوران، جيمس: 304
الكوسموبوليتيّة: 375، 478
كوسوفسكي، إيف: 322
كول، هلموت: 205
كولانجون، فيليب: 266
كولدري، نيك: 496
كولمان، ستيفن: 578
كولومبو (مسلسل تلفزيوني أميركي): 288
كولومبو، فوستو: 328
كولي، تشارلز هورتن: 94، 96، 155
كونت، أوغست: 202
كونستانس (مدينة في ألمانيا): 273 ـ 274
كونفرس، فيليب: 425 ـ 426
كوهين، برنارد: 416، 418
كيبوتز: 397 ـ 398
كيبيك: 363
كيريه، لويس: 426، 460
كيندال، باتريسيا: 157
كينيدي، جون: 202، 496

ـ ل ـ

لاتور، برونو: 45، 142، 211، 493 ـ 495، 501 ـ 505، 509، 553
لارسان: 112
لازارسفيلد، بول: 37 ـ 38، 40، 67، 82، 84، 105، 113، 124، 149، 151 ـ 155، 157، 159، 161 ـ 166، 173، 186، 191، 219، 252، 275، 304 ـ 305، 312، 337 ـ 338، 373، 415، 421 ـ 422، 426، 569
لاسويل، هارولد: 99، 111، 123 ـ 124، 157، 186، 199، 337، 415
لاش، كريستوفر: 447
لاهير، برنار: 267 ـ 268

مكتبة t.me/ktabpdf

اللسانيّات: 61، 93، 191، 220، 222، 227، 233، 237، 242، 398، 557

اللسانيّات البنيويّة: 222، 236

لغة الترميز القابلة للإمداد (XML): 568

لَنْت، بيتر: 455

لو بان: 466

لو بون، غوستاف: 108

لو بوهيك، جاك: 358

لو كانار أونشيني (أسبوعية فرنسية): 344

لَوْريتس، تيريزا دو: 322

لوشار، غي: 509

اللوغوس: 62، 440

لوفور، كلود: 429

لوكاتش، جورج: 137 ـ 138، 141

لوكريتيوس: 286

لوكمان، توماس: 73

لول، ريمون: 176

لونغهرست، براين: 508

لوينسكي، مونيكا: 325، 347

الليبرالية السياسية: 95

ليبس، تيمار: 396، 398، 401

ليمان، ولتر: 95، 99، 108، 415

ليستر، ماريلين: 341، 346، 461

ليفنغستون، صونيا: 265، 455

ليفي ستروس، كلود: 225 ـ 226، 230، 248، 256

ليفين، كورت: 122، 155 ـ 156، 163، 340

ليفين، لورانس: 271

ليكوب، كريستيان: 553

لينوكس (نظام): 582

ـ م ـ

ما بعد الحداثة: 319 ـ 320، 323، 480 ـ 481، 533

ما بعد الكولونياليّة: 320، 325، 478

ما بعد النسويّة المثليّة: 479

ما وراء اللغة / ميتا لغة / لغة واصفة / ميتا لسانيّ: 224 ـ 225

مابينية إعلامية: 561

ماتز، كريستيان: 232، 235، 328

ماتيسون، دونالد: 565

ماتيلار، أرمان: 377

ماتيلار، تريستان: 378

ماخ، إرنست: 151

مادونا (المغنية): 314

المادّيّة: 31 ـ 32، 57، 93، 192، 213، 484، 511، 533، 552، 554

مارتن باربيرو، خيسوس: 497

مارتوتشيلي، دانيلو: 486 ـ 487

مارشيه، جورج: 352

مكتبة t.me/ktabpdf

ماركس، كارل: 34، 73 ـ 74، 83، 85، 89، 96، 135 ـ 137، 200، 231 ـ 232، 248، 256، 301، 435، 444، 483، 537

الماركسيّة: 36، 83، 86، 88، 300 ـ 301، 311، 321، 351، 372، 440

ماركوزه، هربرت: 143

ماركوس، غريل: 516

ماستريخت (معاهدة): 419

ماسي، إريك: 372، 493، 509

ماكروبي، أنجيلا: 308

الماكروسوسيولوجيا: 350، 375، 487، 520

ماككومبس، ماكسويل: 415، 418، 421، 425

ماكلوهان، مارشال: 38، 55، 113، 199 ـ 205، 207، 212 ـ 214، 308، 533، 537، 539، 554، 558

الماكلوهانيّة: 38، 205، 212، 554

الماكنة الذكيّة: 183، 213

ماكويل، دينيس: 162، 287، 339، 385

مالارميه، ستيفان: 225، 283

مالرو، أندريه: 284

مالينوفسكي، برونيسلاف: 225

مانن، برنار: 467

المانويّة: 28، 283، 289

ماي سبايس (شبكة اجتماعية): 570

مايكروسوفت: 582

مايكلز، إريك: 313

مايو، إلتون: 155

المثاليّة: 28، 44، 60 ـ 61، 66، 75، 82، 120، 180، 209، 234، 359، 435، 442، 481، 484، 507

المثليّة الجنسيّة: 308، 321، 323، 325، 392، 479

مجتمع الاستهلاك: 539

مجتمع جماهيري: 143، 166، 423

المجتمع الرأسماليّ: 200، 350، 578

مجتمع الشبكات، مجتمع المعلومات: 46، 537، 539، 578

مجتمع شمولي: 57، 113

المجتمع الصناعي: 133، 248، 451

المجتمع المدني: 44، 124، 444، 451 ـ 452، 458 ـ 459

المجتمعات الغربيّة: 39، 120، 207، 226، 260، 262، 282، 455

المجتمعات المعاصرة: 79 ـ 80، 108، 119، 132 ـ 133، 269، 416 ـ 443، 487، 509، 513، 570

المجلات المصورة: 264

المجلات الورقيّة: 540

مكتبة t.me/ktabpdf

مجلس الشيوخ الأميركيّ: 109، 465
مجمع ترينت: 208
محركات البحث: 541، 563
المحيط الأطلسي: 89 ـ 90، 108، 347، 482، 595
مخطط بيرس الثلاثيّ: 489
مدرسة بالو ألتو: 39، 187 ـ 189، 191
مدرسة تورنتو: 199
المدرسة الشكلانيّة الروسيّة: 222
مدرسة شيكاغو: 88، 97 ـ 99، 141، 384
مدرسة فرانكفورت: 44، 54 ـ 55، 88، 131، 140، 142 ـ 144، 151، 219، 231، 300، 326، 353، 372، 595
المدرسة الوطنيّة للإدارة: 352
المدلول: 93، 228، 233
المدوّنات الإلكترونيّة: 563، 565، 569 ـ 570، 582 ـ 583
المرسل: 63 ـ 64، 160، 174 ـ 175، 190، 223، 227، 236، 304، 321، 337
المرسل إليه، المتلقّي: 37 ـ 38، 41، 43، 63، 65، 113، 115، 160، 174 ـ 175، 184، 190، 223 ـ 224، 227، 230 ـ 237، 240، 252، 275، 278، 303 ـ 304، 309، 363، 384، 395، 503، 506، 516
المركز الأوروبيّ للبحوث النووية (CERN): 581
مركز دراسات الاتصال الجماهيريّ: 326
مركز الدراسات الثقافيّة المعاصرة: 300، 304
المركزية الإثنية الثقافِيَّة: 254 ـ 258
المركزيّة الكلاميّة: 61، 65
المسرح: 63، 142، 203، 239، 259، 273، 284، 446 ـ 447، 459 ـ 460، 464، 475
مشاهد تقنيّة: 477
مشاهد عرقيّة: 477
مشاهد فكريّة: 477
مشاهد المال: 477
مشاهد الميديا: 477
مصر: 378
المصلحة العامّة: 339، 348، 464
مطبعة مدينة تروا: 271
المعلوماتيّة: 27، 50، 55 ـ 56، 60، 175، 214، 265، 537، 543 ـ 545، 559، 579 ـ 580
معهد البحوث الاجتماعيّة (فرانكفورت): 132، 438
المفكرون الألمان المنفيّون: 96

مفهمة (التحويل إلى مفهوم): 97، 498
المفهوم الثلاثيّ للعلامة، التمفصل الثلاثي للعلامة: 29، 93
المفهوم الثنائيّ (الدال / المدلول): 93
مفهوم الحقل: 357
المكتبة الزرقاء: 271
الملتيميديا: 568
ملنات (شبكة): 581
مناهضة التنوير: 58، 135
مناهضة العولمة: 354، 569، 576
منبه، محفز، حافز: 35، 106، 108، 119، 122، 127، 135، 150، 156، 186، 265، 474
المنتديات الإلكترونيّة: 540، 574
منجيه، بيار ميشال: 272، 380، 387، 569
منيلمونتون (حيّ في باريس): 372
المواثبة: 263، 280
المواقع الإلكترونيّة التسويقيّة: 540
موبان، أودري: 118
موران، إدغار: 42، 184، 287، 326 ـ 327، 371 ـ 373، 375 ـ 376، 380، 430، 478
المورفولوجيا الاجتماعيّة: 270
مورلي، دايفيد: 42، 304 ـ 306، 312، 319، 431، 437، 496، 551
موريس، ميغان: 319
مورينو، جاكوب: 155
موزاييك (برنامج تصفح): 581 ـ 582
موس، مارسيل: 189، 226
مؤسسة روكفيلر: 152
موسكوفيسي، سيرج: 420
الموسوعات الإلكترونيّة: 563
الموسيقى: 138، 204، 251، 254، 265، 269، 272، 374، 498، 547، 562 ـ 563، 566 ـ 567
موسيقى البانك: 382، 517
موسيقى الجاز: 138، 321، 384
موسيقى الراب: 53، 268 ـ 269، 283، 288
موسيقى الروك: 53، 109 ـ 110، 255، 268 ـ 269، 314، 517
الموسيقى الشعبيّة: 379 ـ 380، 384، 516
موسيقى الغرنج: 383
الموسيقى الكلاسيكيّة: 138، 253، 255، 259، 269، 379 ـ 380
الموسيقى المعاصرة: 138، 272
موضعة (إضفاء الطابع الموضوعي): 32، 485، 533
مول، أبراهام: 180 ـ 181، 183 ـ 184، 186
مولان، رايموند: 284، 387

مكتبة t.me/ktabpdf

مولوتش، هارفي: 341، 346، 461
موليير: 426
مياج، برنار: 377
ميتران، فرانسوا: 205، 348، 466
ميد، جورج هـ.: 29، 35، 90، 94، 190، 442، 489، 596
الميديا: 39 ـ 40، 51، 62 ـ 65، 199، 203 ـ 204، 211 ـ 212، 253، 286، 371، 435، 473 ـ 475، 478، 484، 497، 535، 537، 539 ـ 540، 562، 569، 571
الميديا الصغيرة: 64
ميديا فائق: 536
ميديا متشعب: 534
ميرتون: 338
ميسيان: 272
ميسيكا، جان لوي: 560
ميكلبوست: 112
ميلر، دانيال: 552
ميلز، تشارلز رايت: 165، 307
ميلغرام، س.: 122
المينيتل: 550
مينيون، باتريك: 517

ـ ن ـ

نادي فيينا: 151
النازية، النازيون: 109، 112، 132 ـ 133، 137 ـ 138، 438
نتسكيب (متصفح): 582
النحو: 190، 222 ـ 223، 236، 238، 260، 522، 547
النحو التوليدي: 227
الند للند (برنامج): 566 ـ 567، 569 ـ 570، 583
نزع الطابع الجماهيري: 570
نزعة اجتماعوية: 474، 476، 490
النزعة الإثنومركزيّة: 276
النزعة الإنسانويّة: 143 ـ 144
النزعة الأهليّة: 477
النزعة الثقافوية، النزعة الثقافية: 318 ـ 319، 322، 413، 482، 550
النزعة الجوهرانيّة: 318
النزعة الذكوريّة: 225، 310، 374، 463، 476، 479، 516
النزعة ما بعد الحداثيّة: 317
نسفنت (Nsfnet) (شبكة): 581
النص المتشعّب: 318، 536
النظام الاشتراكيّ: 96
النظام الشموليّ: 72، 111، 133
النظام الليبراليّ: 56، 95، 319، 338، 348، 569
نظريّات الاتصال / نظريّات التواصل: 25 ـ 26، 45، 77، 82، 149، 219، 242، 473، 510، 517
النظريّات الاختزاليّة: 26
نظريّة الأجندة: 416 ـ 417، 421، 430

مكتبة t.me/ktabpdf

نظريّة الانعكاس الماركسيّة: 351
النظريّة التداوليّة الأميركيّة: 489، 595
نظرية التَّطَهُّر: 116
نظريّة الحتميّة التكنولوجيّة: 105، 192، 199، 204، 508، 538
النظريّة الرياضيّة للاتصال: 173، 558
نظرية الفعل التواصليّ: 442 ـ 443، 497
نظريّة اللغة: 93، 219، 222، 234
نظريّة لولب الصمت: 414 ـ 417، 420 ـ 421، 430
نظريّة المؤامرة: 140، 351
النظريّة النقديّة: 36، 105، 131 ـ 132، 135 ـ 136، 143، 165، 214، 274، 372، 423، 482
النفايات النووية: 515
النقابات العماليّة: 110، 448، 458 ـ 459
نوال ـ نيومان، إليزابيث: 416 ـ 417، 420، 422 ـ 423، 425
نوريس، بيبا: 543
نوفو، إريك: 356
نيتشه: 28
نيكسون، ريتشارد: 202
نيويورك: 132، 138، 152

ـ هـ ـ

هابرماس، يورغن: 29، 44، 93، 144، 437 ـ 445، 447 ـ 451، 454، 456 ـ 461، 483 ـ 484، 504، 595
الهاتف (الثابت): 56، 63 ـ 64، 153، 174، 543، 546، 583
الهاتف الجوّال: 516، 545، 553
الهاتف الذكي: 560
هادون، لسلي: 551
هاراواي، دونا: 312
هارتلي، جون: 287، 508
هاردت، هانو: 95
هالين، دان: 354
هانرز، أولف: 477
هتلر: 109، 112 ـ 113، 127، 134، 203
هرزوغ، هرتا: 162، 400
الهرمونيطيقا: 212
هلبواش، موريس: 88
الهمس الإلكترونيّ: 569
الهند: 354، 378
الهندسة المعماريّة: 59، 89
هنيون، أنطوان: 142، 498
هورتن، جان فيليب: 515
هوركهايمر، ماكس: 36، 131 ـ 133، 141، 231، 372، 438

هوهارت، ريتشارد: 41 ـ 42، 277، 297، 299 ـ 300، 302، 310 ـ 311، 372، 388، 496
هوفلاند، كارل: 124، 151، 157
هوكس، بل: 312
هول، إدوارد: 189
هول، ستيوارت: 42، 300، 301 ـ 302، 304 ـ 305، 310 ـ 312، 318، 320 ـ 321، 325، 328، 351 ـ 352، 356، 358، 437، 442، 449، 476
هولندا: 400
هوم بوكس أوفيس (قناة تلفزيونية أميركية): 344
هوميروس: 285 ـ 286
هويّاتي: 275، 280، 321، 323 ـ 324، 359، 364، 388، 390، 437، 458، 477 ـ 478، 516، 570، 577
هويّة: 30، 307، 323، 325، 341، 360، 386، 388، 446، 451، 457، 466، 478 ـ 479، 486، 506، 547، 561
هوية اجتماعية: 476
الهويّة الجنسانيّة: 44، 404
الهيب ـ هوب: 321، 326
هيداج، ديك: 310
الهيبيز: 203
هيرش، بول: 382
هيرشمان، ألبير: 448
هيرمان، إدوارد: 350
هيرمس، جوك: 507
هيلين والشباب (مسلسل تلفزيوني فرنسي): 304، 506
الهيمنة الذكوريّة: 168
هيندنبرغ: 112
هينيش: 387
هيوز، إيفيريت: 345

ـ و ـ

واتسون، جون ب.: 122
واتين، تيري: 363
الواقعيّة: 46، 89 ـ 90، 317، 373، 450، 501، 513، 522، 571 ـ 572
والاش، لوري: 354
والت ديزني: 63
وايت، دايفيدماننغ: 339
الوجوديّة: 137، 231، 306، 322
الوريقات السيارة: 540
وسائل الاتصال الجماهيريّ: 64، 123 ـ 124، 429، 496، 566، 574
وسائل الإعلام الإلكترونيّة: 212، 215
وسائل الإعلام التقليديّة: 559، 565
وسائل الإعلام الجماهيريّ، وسائط الإعلام الجماهيريّ: 43، 275، 302، 328، 446، 540، 572

مكتبة t.me/ktabpdf

وسائل الإعلام المتخصصة: 540
الوسائل السمعيّة ـ البصريّة: 202
الوسط الاجتماعيّ: 78، 82، 155، 259، 271، 304، 311، 549
الوسيط: 64، 120، 155، 199، 202، 212 ـ 213، 568
الوسيط الثقافيّ: 286، 288
وضع الأجندة: 418
وضع الأخبار: 169
الوضعيّة المنطقيّة: 151
الوظيفيّة: 33، 96 ـ 97، 149، 164، 173، 185، 189، 219، 225، 227، 275، 338 ـ 339، 345، 414، 436، 476، 482، 487، 522، 599
الوعي الجماعيّ: 75
وقت الذروة: 280، 392
الوكالة القوميّة للعلوم (NSF): 581
الولايات المتحدة الأميركيّة: 72، 80، 84، 88 ـ 89، 95 ـ 96، 98، 107، 111، 115، 117 ـ 118، 124، 133، 166، 204، 219، 262، 271، 306 ـ 307، 313 ـ 314، 319، 348 ـ 349، 354، 377، 383، 386 ـ 387، 389، 391، 397، 403، 477، 482، 543، 562، 582
ولتر، جاك: 361
وليامز، رايموند: 300
وندوز 95 (نظام): 582
وول ستريت جورنال: 563
وولتون، دومينيك: 287، 327 ـ 328، 429 ـ 430، 542
وولزر، مايكل: 521
وولغار، ستيف: 502
وولف، كاترين: 157، 162، 552
الويب 2.0: 568
ويفر، وارن: 174، 180، 184
ويكيبيديا: 583
ويلز، أورسون: 109
ويلسن، ديردره: 192
وينر، نوربرت: 55، 175 ـ 185، 187، 213
وينكن، إيف: 62، 189

ـ ي ـ

اليابان: 117، 378 ـ 379، 397، 399 ـ 401، 516
اليسار: 143، 156 ـ 157، 304، 350، 353 ـ 354، 372، 419 ـ 420، 423، 438
اليسار الجديد: 300
اليمين: 156، 350، 352، 419، 423
اليمين المتطرف: 113، 419
اليهود السوفيات: 398
يُواس، هانز: 29، 483، 488 ـ 490، 522
يوز نت (شبكة): 580
اليونسكو: 300

مكتبة t.me/ktabpdf

هذا الكتاب

إن فهم دور وسائل الاتصال ووسائطه في الحقل الاجتماعي ليس أمرًا يسيرًا، وقد بقيت مناقشته تتأرجح بين التنديد بانحرافاته وبتقويضه الثقافة بدافع «التواصل»، والأمل في ما تُتيحه تقنياته من شفافية ونشر للحقيقة. وهذا لا ينفي وجود وسائل مناسبة لمقاربة هذا الدور، بدءًا بالعودة النقدية إلى المقاربة السوسيولوجية التي ظهرت بوادرها قبل أكثر من قرن، كما فعل المؤلف: لقد استعرض نظريات الاتصال الكبرى وقدّم عرضًا دقيقًا للبحوث والتأملات التي أثارتها الأنواع التلفزيونية والثقافية، ومنها بروز تلفزيون الواقع وشبكة الإنترنت.

في الكتاب سعيٌ تحليلي معمَّق إلى تحقيق المصالحة بين البحوث الخاصة بإنتاج الموادّ الإعلامية والثقافية والبحوث الخاصة بالتلقّي، وفيه دعوةٌ مبرَّرة إلى انفتاح أوسع على الدراسات الثقافية التي يمكن أن تلتقي فيها العلوم الاجتماعية وعلوم الإعلام والاتصال.

والطبعة الثانية لهذا الكتاب، المنقولة هنا إلى العربيّة، لها بُعدٌ بيداغوجي دفعَت إليه وأثرته التطوّرات المتصلة بالتكنولوجيات الجديدة وبفردانية الممارسات الثقافية، ما يجعله أداةً مرجعية للطلبة وللباحثين في مجاله.

t.me/ktabpdf مكتبة